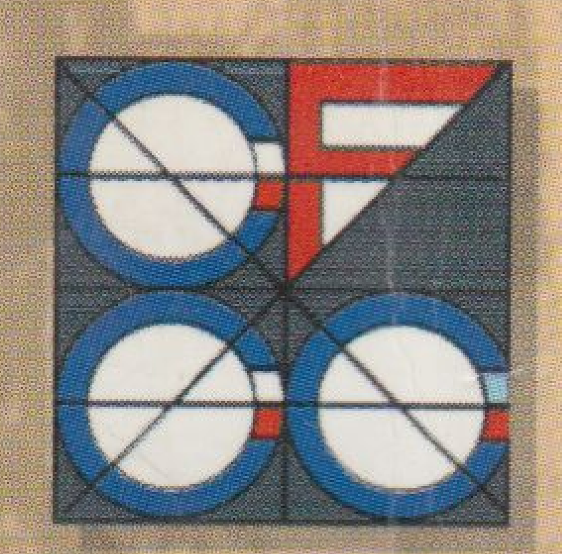




ميشيل بالار

الحملات الصليبية والشرق اللاتينى

من القرن الحادى عشر - إلى القرن الرابع عشر

ترجمة: بشير السباعى

ميشيل بالار

الحملات الصليبية والشرق اللاتينى

من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر

ترجمة بشير السباعى

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والإجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES



صدر هذا الكتاب بالتعاون مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون
(قسم الترجمة) التابع لسفارة فرنسا بجمهورية مصر العربية

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

MICHEL BALARD

Croisades et Orient Latin

XIe- XIVe Siécle

ARMAND COLIN

Paris, 2001

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

E-mail : dar_Ein@hotmail.com

تصدير

على الرغم من أن أوريانا فالآتشي لا تحب أوربان الثاني، مدشن الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر، إلاّ أنها تحتج على يوحنا بولس الثاني، " هذا البابا الذي يطلب العفو من صلاح الدينات الذين حرموه من القبر المقدس "، وتتساءل مستنكرة: " أتطلبون العفو من غزاة يسرقون منكم القبر المقدس ويتمنون تجريدكم من الفاتيكان ؟؟! ".

لماذا يتمنى المسلمون تجريد البابا من الفاتيكان ؟ جواب فالآتشي هو أننا بإزاء "حرب دينية. حرب يسمونها الجهاد: حرب لا تهدف ربما (ربما ؟) إلى الاستيلاء على أراضينا، إلاّ أن من المؤكد أنها تهدف إلى الاستيلاء على أرواحنا. إلى اختفاء حريتنا وحضارتنا، إلى القضاء على أسلوبنا في الحياة وفي الموت ... وإذا لم ندافع عن أنفسنا، إذا لم نناضل، فسوف ينتصر الجهاد. وسوف يدمر العالم الذي نجحنا، بشكل أو بآخر، في بنائه ".

فما هو هذا الجهاد ؟ تجيب فالآتشي: إنه " حرب صليبية بالمقلوب .. جنودها، صليبيوها، كسبوا من الآن فصاعداً مواقعهم، وهم يحافظون عليها مثلما حافظ أسلافهم على أسبانيا والبرتغال من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر. إنهم يتزايدون عدداً، وسوف يتزايدون أكثر فأكثر. وهم يريدون المزيد، ويتمنون المزيد. ومن يحيون منهم الآن بين ظهرانينا لا يمكن اعتبارهم غير طلائع. ومن ثم فإن التفاوض معهم مستحيل. واستخدام العقل معهم غير معقول .. وأياً كان من يعتقد العكس فإنه أبله بائس".

النتيجة أنه لا مجال لاستخدام العقل مع المسلمين الذين يجري تصويرهم ــ بما يتماشى مع تصويرات باباوات العصور الوسطى ــ في صورة أبالسة !

ما معنى هذا ؟ هل يمكن لبلد هو مهد الرينسانس أن ينجب أحداً يردد في مستهل القرن الحادي والعشرين مثل هذه الخرافات؟

وما معنى هذا الخوف من الأصولية الإسلامية وقد استحال إلى رهاب للإسلام في إمبراطورية زماننا الأمريكية ــ حيث تقيم فالآتشي ــ والتي يصفها طارق علي مؤخراً بانها " أم الأصوليات " ؟

إن رهاب الإسلام المنتشر منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول هـو رد فعـل مسرف على فعل أثار بين المسلمين وغير المسلمين مشاعر أسف عميق لم تعبر عن مثلـها قط أم الأصوليات حيال مآسي المسلمين وغير المسلمين التي شـاركت هـذه " الأم " فـي إنزالها بهم .. هذا، على أية حال، هو رأي سائق سيارة أجرة لاتيني في نيويورك، مسـرح الأحداث الأليمة !

ما العمل إذاً ؟

تتحسر فالآتشي على أنها لا ترى بين مساعدي رئيس دولة أوروبي " أي ريتشارد قلـب الأسد " !

فهل تريد إحياء مالا سبيل إلى إحيائه ؟

لقد ولى زمن الحملات الصليبية، ولا فائدة يمكن أن تجنيها البشرية من تفعيـل ذاكـرة الكراهية بهدف حفز روح الثأر والانتقام. وإذا كان لابد لنا من تذكر الماضي، كما يقـول بيير نورا، فإننا يجب أن نفعل ذلك لا لكي نحبس أنفسنا إلى الأبد فـي إجـتراره، وإنمـا، بالأحرى، لكي نتحرر منه.

فالآتشي لا تريد أن تنسى أن أسلافها كانوا يُختطفون حتى فجر القرن التاسع عشر مـن سواحل البحر التيراني لكي يساقوا عبيداً إلى أسواق النخاسة في الساحل الجنوبـي للبحـر المتوسط .. إنها، باختصار، لا تريد أن تتحرر من الماضي. فما العمل لو سلك المسـلمون مسلكها وقرروا ألاّ ينسوا مذبحة ريتشار قلب الأسد للرهائن من أسلافهم في عكا في عـام ١١٩١، وما العمل لو قرر مسيحيو ميسينا الإيطاليون ـ أسـلاف فالآتشـي أيضـاً ـ ألاّ ينسوا جرائم السلب والنهب والقتل والاغتصاب التي ألحقها بهم جنود " ريتشـارد " الـذي وصم مسيحيو ميسينا قسوته بالعار فلقبوه بـ " قلب الأسد " عديم القلب ؟

لا فائدة تُرجى من حبس أنفسنا في الماضي واجتراره .. لا فائدة البتة ..

على أن محوه من الذاكرة يمكن أيضاً، كما يقول تزفيتان تودوروف، أن يكون مؤذياً..

وفي الحالتين، يجب أن يكون الهدف الثابت هو التحرر منه .

...

ترجمتنا لهذا الكتاب، في زمن الجنون الذي نحياه، لا تصدر إلاّ عن الرغبة في توخــي هذا الهدف، فنحن لا نريد الانحباس في الماضي ولا نريد محوه من الذاكــرة، بــل نريــد التحرر منه ..

وأياً كان خلافنا مع ميشيل بالار حول رأي أو اخر، إلاّ أن من المؤكد أننا بإزاء عمــل يقدم رؤية للحملات الصليبية وللشرق اللاتيني مكتملة العناصر، وهو ما تفتقر إليه المكتبــة العربية إلى الآن.

بشير السباعي

حاشية: الإشارات في هذا التصدير هي إلى الأعمال التالية:

1- Oriana Fallaci: *La Rage et L'Orgueil,* Paris, 2002.

2- Tarıq Ali: *The Clash of Fundamentalisms: Crusades, Jihads and Modernıty,* London, 2002.

3- Pierre Nora: *La Fragilité du bien. Le sauvetage des Juıfs bulgares,* Parıs, 1999.

4- Tzvetan Todorov: *Mémoire du mal, Tentation du bien. Enquête sur le siècle,* Paris, 2000.

كلمة حول هذه الترجمة

منذ بدأت حركة الترجمة العربية لمؤلفات أجنبية مكرسة لتاريخ الحملات الصليبية أو توجز هذا التاريخ في فصول منها، وهي حركة يبدو أنها بدأت مع عادل زعيتر(*) (١٨٩٧-١٩٥٧) الذي ترجم حضارة العرب لجوستاف لوبون والذي يخصص المؤلف فيه فصلاً للحملات الصليبية على الشرق الأدنى، جرت مياه كثيرة تحت الجسر. إلاّ أنه يبدو أن التحول جاء -على مستوى حِرَفية الترجمة وثقافة المترجم- في اتجاه هابط، وهو أمر غير معقول لكنه حقيقة واقعة، إذ تكفي مقارنة ترجمة زعيتر للفصل الثامن من الكتاب المذكور بأحدث الترجمات المتداولة حول موضوعنا -مصرية كانت أم سورية- لبنانية- حتى يتكشف لنا هذا الواقع المرير، وهو واقع يجد أجلى مظاهره في تلك الفوضى الشائعة التي طالت كتابة أسماء الشخصيات والمدن والبلدان والأقاليم والكيانات السياسية، الخ، في عصر الحملات الصليبية، بحيث كادت هذه الكتابة تختلف من مترجم إلى أخر [بل ومن مؤرخ عربي إلى آخر]، ليس حباً في الاختلاف بالطبع وإنما بسبب انعدام البحث والتدقيق اللازمين للخروج بكتابةٍ تتفادى الزلل وتصحح ما جرى على الألسن من أسماء وتسميات خاطئة.

ومادمنا قد عزمنا على الإسهام في تبديد هذه الفوضى - قدر الإمكان-، فمن الطبيعي أن يتوقع القارئ المثقف منّا أننا لن نقول مع الأسلاف "فرسان الإسبتارية"، بل سوف نقول "فرسان الأوسبتالية"، ولن نخلط بين " قيصرية" في آسيا الصغرى و" قيسارية" على الساحل الفلسطيني، ولن نسمي الملك المجري أندراش بأندريه ولا ايسابيلا الإسبانية بايزابيل، كما لن نكتب الأسماء الفرنسية بحسب الكتابة الإنجليزية لها أو العكس، وسوف نجتهد في الوقوف على الكتابة الأصلية لجميع الأسماء.

والحال أن ما يُلزمنا بذلك هو الحرص على اختزال الفوضى الشائعة إلى أدنى حد، خاصة أننا بصدد ترجمة عمل أكاديمي من المشروع أن يتوقع قراؤها ضبطاً للأسماء

(*) نشرت أول ترجمة عربية لكتاب أجنبي عن هذا التاريخ في أورشليم في عام ١٨٦٥، وهي ترجمة مكسيموس مظلوم لكتاب م. مونروند: تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب. وهي ترجمة رائدة بالتأكيد، إلاّ أنها لم تدشن حركة ترجمة حول الموضوع.

يشكل إضافة معرفية بقدر ما يسهم في رد الاعتبار إلى فن الترجمة، بوصفه فن تواصـــل وتفاهم.

وبطبيعة الحال، لا نزعم أننا قد بلغنا الكمال في تحقيق مهمتنا الصعبة، وسوف نرحـب -بالتأكيد- بأي تدقيق لعملنا.

حاشية: ما بين حاصرتين [ ] إضافات من جانب المترجم.

تمهيـــــد

كلمة الحملة الصليبية لها سمعة سيئة اليوم. فهذه الكلمة مرادفة لانعدام التسامح ولإرادة القوة وللتعصب. ويطيب لمعاصرينا أن يتخيلوا المحاربين الذين شقوا الطريق إلى القدس في القرن الثاني عشر كمتوحشين دمويين، ينهبون ويهدمون كل شيء على دربهم. وينسى معاصرونا دوافع أولئك المحاربين ومكابداتهم وجيشاناتهم الصوفية. وفي أيامنا لا يساعد الاستخدام الفاسد لمصطلح الحملة الصليبية على بذل الجهد الضروري للفهم الاسترجاعي، وهو ما يميز المؤرخ بوصفه مؤرخاً. فبعد الحملة الصليبية ضد البولشفية، وهي حملة سيئة الذكرى، جاءتْ الحملة الصليبية لمكافحة مرض الإيدز و(لم لا ؟) الحملة ضد غزو الجراد لافريقيا، أو ضد انتشار تسوس الأسنان. والحال أن الميديا تستخدم كلمة الحملة الصليبية للإشارة إلى كل مشروع ملح، بقصد تعبئة قوى جماعة ما من الجماعات، أياً كان الهدف من وراء ذلك.

ومن الواضح أن مقصدنا مختلف. فنحن نسعى إلى فهم الهجرات العديدة التي قادت جموعاً غفيرة أو مجموعات صغيرة من الغربيين إلى القدس، من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر. وهذه الارتحالات لم تُسَمَّ بالحملات الصليبية إلاّ فيما بعد: فواقع الحملات قد سبق بوقت طويل ظهور معجم خاص لتسميتها. والواقع أن المعاصرين لتلك الحملات لم يميزوا بشكل واضح بين الحج [إلى الأماكن المسيحية المقدسة] والحملة الصليبية. فالمشاركون لم يُسَمَّوا (صليبيين) *crucesignati*، بشكل منتظم ورسمي، إلاّ اعتباراً من عهد بابوية اينوشنتيوس الثالث [وهو إيطالي ولد في عام ١١٦٠ باسم جيوفاني لوتاريو، وكان عهد بابويته من عام ١١٩٨ إلى عام ١٢١٦] (حيث ورد أول ذكر للصليبيين في عام ١١٩٩). وخلافاً لذلك، كان الناس، في مجرى القرن الثاني عشر، يستخدمون توريات لتسمية حملاتهم: "رحلة القدس". (*iter hierosolymitanum*)، أو "الرحلة إلى الأرض المقدسة " (*iter in Terram sanctam*)، أو "الحملة " (*expeditio*) أو ببساطة تامة الحج (*Peregrinatio*)، فعلى هذا النحو كانت التعبيرات المستخدمة آنذاك. وفي القرن الثالث عشر، عندما جرى هجر الطرق البرية إلى فلسطين تحبيذاً للطريق البحري، بدأ الحديث عن "العبور" ثم "الرحلة إلى ما وراء البحر". وبعد عام ١٢٥٠، أخيراً، تظهر

كلمة الحملة الصليبية (*cruciata*) لتسمية حملة جنود المسيح إلى القدس. وبهذا المعنى تستخدم الكلمة عادةً.

ومن ثم فالحملة الصليبية هي حجٌ مسلحٌ، يحدد لنفسه هدف تحرير القبر المقدس في القدس. وهذه الحملة التي دشنها قرار بابوي، إنما توضع تحت سلطة الكنيسة، ممثلة في شخص نائب للبابا. والمشاركون فيها يتعارفون على بعضهم البعض بعلامات خارجية معينة، كالصليب المخيط على ملابسهم، ويتمتعون بامتيازات روحية وزمنية [دنيوية] تضمنها الكنيسة.

١ • الحملات الصليبية، لماذا ؟

الحملات الصليبية، مقصورةً على هذا المعنى الضيق، هي موضوع تأويلات جد متباينة. إن الكتابة التاريخية المادية يطيب لها أن ترى في تلك الحملات غلبةً لعوامل اقتصادية. فتارة تتحدث هذه الكتابة عن شبان عائلات من النبلاء، لا أمل لهم في الحصول على أراض، يذهبون إلى الشرق سعياً إلى أن ينشئوا لأنفسهم اقطاعات وضياعاً شاسعة، لكي يبزوا أخوتهم الأكبر سناً، وهم الورثة الوحيدون لممتلكات السلالة. ودون أن ننفي واقع أن شهوة الكسب كان من الوارد أن تحرك بعض القادة الصليبيين -ومثال بوهيموند، ابن روبير جيسكار، يثبت ذلك- إلاّ أن الرغبة في الحصول على ممتلكات عقارية كان من الأيسر بكثير اشباعها عبر عمليات استصلاح الأراضي، وهي عمليات كبرى كان يجري الاضطلاع بها انذاك في الغرب، مما عبر فتوحات إشكالية لأراض غالباً ما كانت جرداء. وتارة أخرى، تتحدث تلك الكتابة التاريخية عن مجيء الدافع إلى الحملات الصليبية من الجمهوريات البحرية الإيطالية، التي كان نموها السريع يتطلب منافذ تصريف أخرى وأسواقاً جديدة. والحال أن رجال الأعمال الإيطاليين، الذين كانوا قد أقاموا صلات مع موانئ الشرق الأدنى قبل أكثر من قرن من الحملة الصليبية الأولى، كانوا يخافون من القيام بمغامرة حربية من شأنها التهديد بتمزيق الشراكات التجارية الموجودة من قبل. وقد ضعف فيما بعد ترددهم، عندما رأوا في الحملات الصليبية فرصة لتوسيع مجال نشاطاتهم ولنزع الرتاجات البيزنطية والإسلامية، حتى يتسنى لهم شراء منتجات الشرق من مصدرها نفسه. لكن القسطنطينية والإسكندرية تعدان، في شبكتهم التجارية، أكثر أهمية من عكا وبيروت. واحتلال فلسطين من جانب الصليبيين لم يشجع حركة التجارة إلاّ بقدر متواضع. والحال أن البورجوازية الإيطالية "الفاتحة"، التي كانت ما تزال جد هزيلة في القرن الثاني عشر، ليست العنصر المحرك لمثل تلك الحملات.

على أن مؤرخين آخرين، أكثر انتباهاً إلى الظواهر الديموغرافية، يميلون إلى أن يـروا في الحملات الصليبية نوعاً من صمام أمان للغرب، الذي عرف نمواً جد قوي لسكانه فـي القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وعندئذ يصبح الرحيل إلى الشرق مخرجاً ضرورياً للفرسان الذين لا يملكون أرضاً وللفلاحين الذين لا جذور لهم. ولكـن هـل كـان ذلـك ضرورياً ؟ مع أننا لا نحوز أيـة معطيـات عامـة عـن السـكان "الأوروبييـن"، إلاّ أن المؤشرات التي تسنى جمعها إنما تثبت أن الفائض الديموغرافي قد عرف أكبر اتساع لـه في الشطر الثاني من القرن الثاني عشر، أي بعد عدة عقود من تدشين الحملات الصليبيـة، ومن ثم فقلّما توجد صلة بين ضغط ديموغرافي لم يكن زائداً عن الحد بالمرة فـي القـرن الحادي عشر والرحيل المحدد إلى القدس. ومن الوارد أن يكون الوزن المتزايد للناس قـد دعم الحملات الصليبية، إلاّ أنه لم يكن السبب المباشر لها.

يجب أن نبحث عن هذا السبب المباشر في حالة الغرب الذهنيـة والسـيكولوجية فـي أواخر القرن الحادي عشر. والواقع أن الحملة الصليبية إنما تنجم عـن تيـار مـزدوج: تراث الحج والفكرة الجديدة عن حرب في سبيل الرب. فالحج، وهو من شـعائر التكفـير عن الذنوب وشعيرة بارزة بين هذه الشعائر، إنما يُنظر إليه باعتباره غاية مصـير دينـي. وهو، إذ يفترض زهداً تمهيدياً مسبقاً، يُعَدُّ تجربة تطهير فرديـة، تكفـل للحـاج غفـران خطاياه. والمزار الأمثل هو القدس، لأن المكابدات التي يتحملها المشاركون في الحج علـى طريق جد طويل إنما تسمح لهم بالتوحد مع مكابدات وآلام المسيح وبأن يكونـوا جديريـن بأورشليم السماوية [مملكة الرب]. وتحت تأثير العهد القديم، يندرج البحث عـن الخـلاص الجماعي شيئاً فشيئاً في تحرك شعبي. ومن جهة أخرى، تحت تـأثير الـ *Reconquista* [حرب الاسترداد التي خاضها المسيحيون في إسبانيا ضد المسلمين في العصر الوسـيط]، يتحدد مفهوم الحرب في سبيل الرب ؛ والنضال من أجل تحرير القبر المقدس، إنما يعـود على المرء، إن مات عن طيب خاطر، بمجد وإكليل الشهادة. ويبدو من المشروع تجريـد الكفار من الأرض المقدسة، تركة المسيح، التـي لا يمكـن أن تئـول إلاّ إلـى الجماعـة المسيحية. وفي دعوته المسيحيين إلى الخروج لحماية مسيحيي الشرق، الذين يقـال إنـهم عرضة للاضطهاد، يحقق البابا أوربان الثاني التوليف المثمر بين الحج التكفيري والحـرب العادلة ضد الوثنيين. والحال أن الحركة الصليبية، بتعريفها على هذا النحو، إنمـا تنـدرج في المسار المباشر لإصلاح الكنيسة في القرن الحادي عشر.

وتستفيد الحملة الصليبية أخيراً من تغير بطئ في توازن القوى بين الشـــرق والغـــرب. فحتى القرن الحادي عشر، كان الشرق يطرح في مواجهة الغرب دولاً ذات تلاحم ترابـــي قوي ومدنيات حضرية واقتصاداً تجارياً متطوراً وتراثاً ثقافياً رائعاً. والحال أن كل شـــيء يتغير. فالغرب تعتمل فيه قوى التجديد: الاســـتصلاحات الكـــبرى للأراضـــي والنمـــو الحضري ونهوض النشاطات التجارية وتلاحم كنيسة مسّـــها الإصـــلاح. وفـــي المقـــابل، تتعرض الإمبراطورية البيزنطية للضعف من جراء الصدامات بين الأرستقراطية المدنيـــة وكبار النبلاء العسكريين؛ ثم إن تبدلات الأسر المالكة في الإمبراطورية تتكـــررو، تحـــت ضربات الغزاة الأتراك، ينحسر التوسع الترابي. أمّا في العالم الإسلامي، فـــإن الانحـــلال يصيب الخلافة. ويستولي السلاجقة على بغداد (١٠٥٥) ويفتحون جزءً كبيراً مـــن آســـيا الصغرى وسوريا وفلسطين، لكنهم ينقسمون إلى عدة إمارات تتبـــادل العـــداوة، وســـوف يؤدي عجز هذه الإمارات إلى تسهيل زحف الصليبيين والاسترداد البـــيزنطي. وقلمـــا أدى غزو الأتراك إلى إزعاج الكنائس المسيحية في فلسطين أو إلى إزعاج الحجاج المتوجـــهين إلى القدس. ومن ثم فلا صحة لاعتبار الحملات الصليبية استجابةً لنـــداء مـــن مســـيحيي الشرق. ومن الناحية الاقتصادية، يتوقف البحر المتوسط في القرن الحادي عشـــر عـــن أن يكون "بحيرة إسلامية ". فالمدن الإيطالية، البندقية أو باري أو أمالفي، قد أقـــامت صـــلات تجارية مع الشرق قبل عام ١٠٩٥ بكثير، في حين أن بيزا وجنوة كانتا قد جردتـــا البحـــر التيراني من الهيمنة الإسلامية عليه وهيأتا بذلك ازدهارهما القريب. والحـــال أن ديناميـــة الغرب الأكثر نشاطاً في أواخر القرن الحادي عشر إنما تفسر النجاح الأولـــي للحمـــلات الصليبية على حساب شرق ضعيف ومنقسم.

٢ • كيف ؟

خلال القرون الأربعة الممتدة من عام ١٠٩٥ إلى أواخر العصر الوســـيط، تعرضـــت الأيديولوجية والمجريات الواقعية للحركة الصليبية لتغيرات عميقـــة. فمـــا هـــو الشـــيء المشترك بين الحملات التي اجتذبت إلى القدس، بيـــن عـــامي ١٠٩٦ و١٠٩٩، جمـــاهير غفيرة، يحركها زخم صوفي لا جدال فيه، والعُصَب التي تجتـــهد البابويـــة فـــي تأليفـــها للتصدي لزحف العثمانيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؟ لقد كان يكفي عندئـــذ ان يرافق نائب بابوي إلى الشرق عدة سفن جرى حشدها بمشقة حتى يســـتحق المشـــروع اسم حملة صليبية.

ومن ثم فمن الأهمية بمكان أن نتتبع خطوة خطوة تحول فكرة الحملة الصليبية والمجريات الواقعية التي ترتبت على الأولى. وفي عام ١٠٩٥، سوف نجد أن استجابة الغرب للنداء البابوي في مجمع كليرمون إنما تتجاوز طموحات البابوية. فقد ارتأى أوربان الثاني إرسال عدة قوات من الفرسان لتقديم العون إلى مسيحيي الشرق ولتحرير القبر المقدس من سيطرة الكفار. والحال أن جموعاً تشرع في الزحف استجابةً للدعاة الشعبيين وأن كبار النبلاء يحشدون فرسانهم ويشقون الطريق إلى القدس، دون تفكير في العودة غالباً. وتستبق حشود غير منضبطة جيوش "البارونات" التي لها بنيتها المنظمة ومراتبياتها.

وبعد ذلك بخمسين سنة، تخاطب البابوية ولسان حالها، سان برنار، ملوك وأمراء الغرب، لدفعهم إلى الثأر للجماعة المسيحية من ضياع الرُّها. ويجري بذل جهود لعرقلة رحيل غير المقاتلين ولإعادة تأليف الأوست (الجيش الاقطاعي) تحت قيادة ملوك. ويحدث الشيء نفسه بين عامي ١١٨٩ و١١٩٠، حيث تتحرك الحملات الصليبية الجرمانية والإنجليزية والفرنسية، بعد أكثر من عامين من الكارثة التي حلت بالفرنج في حطين (١١٨٧). ثم تأتي انحرافات المشروع الأولى عن هدفه: نحو القسطنطينية في عامي ١٢٠٣ و١٢٠٤، وهو ما ترتب عليه انقسام الجماعة المسيحية الذي لا علاج له ؛ ونحو مصر - والحق إنها مفتاح فلسطين- بين عامي ١٢١٩ و١٢٢١، ثم بين عامي ١٢٤٩ و١٢٥٠، بَمبادرة وحيدة من جانب ملك فرنسا، القديس لويس [لويس التاسع]. أمّا فشل الحملة على تونس في عام ١٢٧٠، فهو يرمز إلى نهاية الحملات الكبرى.

وبعد اختفاء الدول الفرنجية من الأرض المقدسة (١٢٩١)، تمثل الحملات الصليبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر رد فعل دفاعياً بشكل خالص من جانب الغرب ضد توسع الأتراك في اتجاه الغرب. والحال أن المَلَكيات الكبرى، مع إبقائها على حيوية فكرة الحرب الصليبية، إنما تتردد في الانخراط في الفعل وتستخدم الموارد المحشودة نظرياً لأجل الأرض المقدسة في الإنفاق على أهدافها الخاصة. ومن الواضح أنه قد جرى نسيان استرداد القدس ؛ ولم يعد هناك غير حماية أوروبا. ولأجل هذا الهدف، الحيوي مع ذلك، تجتهد البابوية في العثور على قوى متعاونة: فالبندقية وأُوسبتالية رودس وأمراء نادرون خدعهم سراب الشرق يجهزون عدة سفن من أجل مشروع كان ما يزال يسمى حملة صليبية. وبهذا المعنى الواسع جداً، يمكن للمرء أن يرى مع عزيز سوريال عطية

أن الحملات الصليبية تنتهي في ليبانتو (١٥٧١)، عندما انتصرت أساطيل البندقية وإسبانيا بشكل حاسم على البحرية العثمانية [حيث تم أسر ١٣٠ سفينة وإحراق وإغراق ٩٤ سفينة والاستيلاء على ٣٠٠ مدفع وأسر ٣٠ ألف رجل] إلاّ أنه بالنظر إلى غياب اتفاق على تعريف محدّد ومقبول من الكافة، فإن مؤرخي الحملات الصليبية بعيدون عن تقاسم رأي ع. س. عطيّة. والواقع أن هناك تعارضاً بين المؤرخين "التقليديين" الذين، كهانز-ايبرهارد ماير، يرون أن الحملات الهادفة إلى تحرير القدس هي وحدها التي تستحق اسم حملات صليبية، و"التعدديين" الذين، كجوناثان رايلي- سميث، يرون أن كل مشروع تدشنه البابوية من أجل حماية الكنيسة أو الشعب المسيحي يمكن اعتباره حملة صليبية. ووفقاً لهذا المفهوم، فإن الحملات الصليبية تنتهي مع الائتلاف الذي ينجح في عام ١٦٨٣ في صد الأتراك المحاصرين لفيينا. كما أن آخرين، مثل الفونس ديبرون، يجعلون من الحركة الصليبية كاشفاً لأسس النفسية الغربية، فهي هاجس دائم للمجتمعات المسيحية.

وفي الصفحات التالية، لن يجد القارئ عرضاً تفصيلياً للأحداث التي نالت اسم الحملات الصليبية بين عامي ١٠٩٥ و١٦٨٣. فالحال أن الأبعاد المتواضعة لعمل موجه إلى أن يطرح، على شكل عناصر مركبة متباينة، وضعية عدد من المسائل، لا تسمح بذلك. إلاّ أنه بعد طرح ضروري لتسلسل زمني، سوف يكون بوسع القارئ أن يهتم بالدول الفرنجية المنبثقة من الحملات الصليبية وكذلك بردود فعل المسلمين أو بانحرافات الحملات عن هدفها. ولابد أن تنبثق من فسيفساء الموضوعات صورةٌ أكثر تماسكاً للرجال وللأفكار وللأحداث التي ميزت اللقاء، العنيف دائماً، بين الشرق والغرب.

مسلسل زمني

يوليو/ تموز ١٠٥٤ ــ البطريرك ميخائيل سيرولير والكاردينال آمبير دو مويانموتييه يتسببان في انقسام الكنائس.

١٠٦٤ - ١٠٦٥ ــ رحلة الحج الألمانية الكبرى إلى القدس.

أبريل/ نيسان ١٠٧١ ــ النورمان يستولون على باري. انتهاء السيطرة البيزنطية على جنوب إيطاليا.

أغسطس/ آب ١٠٧١ ــ الأتراك السلاجقة يهزمون الجيش البيزنطي في مانزكرت [باللسان اليوناني: مانتسيكرت].

١٠٧١ ــ أتسيز التركماني يحتل القدس.

أبريل/ نيسان ١٠٨١ ــ أليكسيوس الأول كومنينوس يرتقي عرش بيزنطة.

مايو/ آيار ١٠٨١ ــ روبير جيسكار يهاجم الممتلكات البيزنطية في ألبانيا.

مايو/ آيار ١٠٨٥ ــ فتح توليدو [طليطلة] على يد ألفونسو السادس، ملك كاستيليا [قشتالة].

أغسطس/ آب ١٠٨٧ ــ الجنويون والبيازنة ينهبون المهدية في تونس

١٠٨٧ ــ ١٠٩٠ ــ روبير الأول، كونت الفلاندر، يحج إلى القدس.

١٠٩٢ ــ قلج أرسلان الأول يسود على غرب ووسط الأناضول.

مارس/ آذار ١٠٩٥ ــ انعقاد مجمع بليزانس. بيزنطة تناشد الغرب تقديم العون لها.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥ ــ أوربان الثاني يدعو في مجمع كليرمون إلى الحملة الصليبية.

يوليو/ تموز ــ أغسطس/ آب ١٠٩٦ ــ بطرس الناسك وقوات الحملة الشعبية [حملة الفقراء] تصل إلى القسطنطينية.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٩٦ ــ الترك يشتتون شمل الحملة الشعبية أمام نيقية.

نوفمبر/ تشرين الثاني ــ ديسمبر/ كانون الأول ١٠٩٦ ــ القوات الأولى لحملة البارونات [حملة الفرسان] (هيج دو فرماندوا، جودفروا البويّوني) تصل إلى القسطنطينية.

مايو/ آيار ١٠٩٧ ــ الحملة الصليبية الأولى تغادر القسطنطينية.

يوليو/ تموز ١٠٩٧ ــ الصليبيون يهزمون جيش قلج أرسلان الأول في دوريليون [دوريلة؛ قرب إسكي شهر الحالية].

أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٩٧ ــ الصليبيون يحاصرون أنطاكية.

مارس/ آذار ١٠٩٨ ــ بودوان دو بولونيا يصبح كونتاً على الرُّها.

يونيو/ حزيران ١٠٩٨ ــ الصليبيون يستولون على أنطاكية ويهزمون جيش كرُبغا، أمير الموصل. بوهيموند التارانتواني يصبح أميراً على أنطاكية.

أغسطس/ آب ١٠٩٨ ــ الفاطميون يستولون على القدس.

يوليو/ تموز ١٠٩٩ ــ الصليبيون يفتحون القدس. جودفروا البويّوني يصبح قيِّمَ القبر المقدس.

أغسطس/ آب ١٠٩٩ ــ الصليبيون يهزمون الجيش الفاطمي في عسقلان.

يوليو/ تموز ١١٠٠ ــ موت جودفروا البويّوني.

ديسمبر/ كانون الأول ١١٠٠ ــ تتويج بودوان الأول ملكاً على القدس.

مارس/ آذار ١١٠١ ــ حملة عام ١١٠١. الجيوش الصليبية تصل إلى القسطنطينية.

أغسطس/ آب ١١٠١ ــ هزائم الصليبيين قرب مرسيوان [مرزفون] وهرقلية.

١١٠٤ ــ بوهيموند يرجع إلى أوروبا. تنكريد يصبح وصياً على أنطاكية.

فبراير/ شباط ١١٠٥ ــ موت ريمون السانجيلي خلال حصار طرابلس.

١١٠٥-١١٠٧ ــ بوهيموند ينظم " حملة صليبية " ضد بيزنطة.

١١٠٧-١١١٠ ــ حملة سيجورد، ملك النرويج.

سبتمبر/ أيلول ١١٠٨ ــ بوهيموند يعترف بالسيادة البيزنطية على أنطاكية.

يوليو/ تموز ١١٠٩ ــ الصليبيون يستولون على طرابلس. برتران السانجيلي يصبح كونتاً على طرابلس.

أبريل/ نيسان ١١١٨ ــ موت بودوان الأول. بودوان البوركي [البورجي]، كونت الرُّها، يتوَّج ملكاً على القدس.

يونيو/ حزيران ١١١٩ ــ ايلغازي يهزم ويقتل روجيه الأنطاكي (معركة *Ager Sanguinis* [حقل دما = حقل الدم]). بودوان الثاني يصبح وصياً على أنطاكية.

أغسطس/ آب ١١١٩ ـ جوسلان دو كورتنيه يصبح كونتاً على الرُها.

أبريل/ نيسان ١١٢٣ ـ والي حلب الأرتقي يأسر بودوان الثاني.

يوليو/ تموز ١١٢٤ ـ استيلاء الفرنج على صور.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٢٦ ـ بوهيموند الثاني يصبح أميراً على أنطاكية.

سبتمبر/ أيلول ١١٢٧ ـ زنكي يتولى حكم الموصل.

أغسطس/ آب ١١٣١ ـ موت بودوان الثاني. تتويج صهره، فولك دانجو، ملكاً على القدس.

١١٣٢ أو ١١٣٣ ـ استقرار الحشاشين في جبل النصيرية.

١١٣٦ ـ ريمون دو بواتييه يتزوج كونستانس ويصبح أميراً على أنطاكية.

أغسطس/ آب ١١٣٧ ـ يوحنا الثاني كومنينوس يحاصر أنطاكية التي تستسلم في أبريل/ نيسان ١١٣٨.

أبريل/ نيسان ١١٤٣ ـ موت يوحنا الثاني كومنينوس. مانويل الأول كومنينوس يرتقي العرش.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٤٣ ـ موت الملك فولك. تتويج ميليساندا، زوجته، وابنه بودوان الثالث.

ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٤ ـ زنكي يستولي على الرُها.

ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٥ ـ البابا أوجينيوس الثالث يدشن الحملة الصليبية الثانية.

مارس/ آذار ١١٤٦ ـ سان برنار يدعو في فيزليه إلى الحملة الصليبية.

سبتمبر/ أيلول ١١٤٦ ـ صعود نور الدين بن زنكي إلى سدة الحكم في حلب.

يوليو/ تموز- سبتمبر/ أيلول ١١٤٧ ـ الحملة الألمانية ضد سلاف ألمانيا.

سبتمبر/ أيلول-أكتوبر/ تشرين الأول ١١٤٧ ـ وصول الصليبيين إلى القسطنطينية.

أكتوبر/ تشرين الأول ١١٤٧ ـ استيلاء الصليبيين الانجليز والبرتغاليين على لشبونة.
هزيمة الحملة الصليبية الألمانية (كونراد الثالث) في دوريليون [دوريلة].

يناير/ كانون الثاني ١١٤٨ ـ هزيمة الحملة الصليبية الفرنسية (لويس السابع) قرب قدموس.

يوليو/ تموز ١١٤٨ ـ فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق.

١١٥٢ ـ الحشاشون يقتلون ريمون الثاني الطرابلسي.

١١٥٣ ـ رينو الشاتيّوني يصبح أميراً على أنطاكية بزواجه من كونستانس.

أغسطس/ آب ١١٥٣ ـ الفرنج يستولون على عسقلان.

أبريل/ نيسان ١١٥٤ ـ نور الدين يستولي على دمشق.

أبريل/ نيسان ١١٥٩ ـ مانويل الأول كومنينوس يدخل أنطاكية سيداً عليها. فشل التحالف الفرنجي-البيزنطي ضد نور الدين.

فبراير/ شباط ١١٦٣ ـ موت بودوان الثالث. تتويج أموري [أو أماريك أو عموري، عند الأسلاف]، شقيقه، ملكاً على القدس.

سبتمبر/ أيلول ١١٦٣ ـ حملة أموري الأولى في مصر.

أغسطس/ آب-أكتوبر/ تشرين الأول ١١٦٤ ـ حملة أموري الثانية في مصر.

أغسطس/ آب ١١٦٤ ـ نور الدين يأسر بوهيموند الثالث الأنطاكي وريمون الثالث الطرابلسي.

يناير/ كانون الثاني-أغسطس/ آب ١١٦٧ ـ حملة أموري الثالثة في مصر.

أكتوبر/ تشرين الأول ١١٦٨ ـ حملة أموري الرابعة في مصر.

يناير/ كانون الثاني ١١٦٩ ـ شيركوه يصبح وزيراً لمصر، بمساعدة صلاح الدين، ابن أخيه.

مارس/ آذار ١١٦٩ ـ صلاح الدين يصبح سيداً على مصر، باسم نور الدين.

سبتمبر/ أيلول ١١٧١ ـ نهاية الخلافة الفاطمية في مصر.

مايو/ آيار ١١٧٤ ـ موت نور الدين.

يوليو/ تموز ١١٧٤ ـ موت أموري. تتويج ابنه، بودوان الرابع الأجذم، ملكاً على القدس.

أكتوبر/ تشرين الأول ١١٧٤ ـ صلاح الدين يحتل دمشق.

مايو/ آيار ١١٧٥ ـ الخليفة يعهد إلى صلاح الدين بحكم مصر وسوريا.

سبتمبر/ أيلول ١١٧٦ ـ السلاجقة يهزمون الجيش البيزنطي في ميريوكيفالون.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٧٧ ـ بودوان الرابع يهزم جيش صلاح الدين في مونجيسار.

مايو/ آيار ١١٨٠ ـ الهدنة بين صلاح الدين وبودوان الرابع.

فبراير/ شباط ١١٨٣ ـ غارة رينو الشاتيّوني في البحر الأحمر.

١١٨٣ ـ وصاية جي دو لوزينيان.

ديسمبر/ كانون الأول ١١٨٣ ـ وصاية ريمون الثالث الطرابلسي. تتويج بودوان الخامس.

مارس/ آذار ١١٨٥ ـ موت بودوان الرابع. الهدنة بين صلاح الدين ومملكة القدس.

مارس/ آذار ١١٨٦ ـ الاعتراف بسيادة صلاح الدين على الموصل.

يوليو/ تموز ١١٨٧ ـ صلاح الدين يسحق الجيش الفرنجي في حطين.

أكتوبر/ تشرين الأول ١١٨٧ ـ صلاح الدين يستولي على القدس، لكنه يفشل أمام صور.

١١٨٧-١١٨٩ ـ صلاح الدين يفتح كل الدول الصليبية تقريبا.

مارس/ آذار ١١٨٨ ـ فريدريك الأول بربروسّا يتناول الصليب (الحملة الصليبية الثالثة).

يناير/ كانون الثاني ١١٨٩ ـ هنري الثاني بلانتاجينه وفيليب أوجست يتناولان الصليب.

أغسطس/ آب ١١٨٩ ـ جي دو لوزينيان يحاصر عكا.

مايو/ آيار ١١٩٠ ـ الصليبيون الألمان يستولون على ايكونيوم [قونية].

يونيو/ حزيران ١١٩٠ ـ موت فريدريك الأول بربروسّا في قيليقيا.

يوليو/ تموز ١١٩٠ ـ ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوجست يخرجان من فيزليه لأجل الحملة الصليبية.

مايو/ آيار- يونيو/ حزيران ١١٩١ ـ ريتشارد قلب الأسد يستولي على جزيرة قبرص.

يوليو/ تموز ١١٩١ ـ عكا تستسلم للصليبيين.

أبريل/ نيسان ١١٩٢ ـ الحشاشون يقتلون كونراد دو مونفيرات في صور.

مايو/ آيار ١١٩٢ ـ هنري دو شامبانيا يتزوج ايزابيل ويحكم مملكة القدس.

مايو/ آيار ١١٩٢ ـ جي دو لوزينيان يؤسس أسرة مالكة في قبرص.

أكتوبر/ تشرين الأول ١١٩٢ ـ انتهاء الحملة الصليبية الثالثة.

مارس/ آذار ١١٩٣ ـ موت صلاح الدين.

سبتمبر/ أيلول ١١٩٧ ــ موت هنري دو شامبانيا. تتويج ايمري ملكاً على قبرص ثم على القدس.

يناير/ كانون الثاني ١١٩٨ ــ انتخاب البابا اينوشنتيوس الثالث.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٩٩ ــ جولة ايكري. البارونات الفرنسيون يتناولون الصليب (الحملة الصليبية الرابعة).

أغسطس/ آب ١٢٠٠ ــ العادل، أخ صلاح الدين، يصبح سلطاناً على مصر وسوريا.

١٢٠١ ــ الأمير أليكسيوس (الرابع) يصل إلى الغرب ويطلب عون الصليبيين ضد عمه أليكسيوس الثالث آنجيلوس.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٠٢ ــ الصليبيون يغادرون البندقية.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٠٢ ــ الصليبيون يستولون على زاره [زادار].

يوليو/ تموز ١٢٠٣ ــ الصليبيون يستولون على القسطنطينية. تتويج أليكسيوس الرابع امبراطوراً شريكاً لأبيه اسحق الثاني.

فيراير/ شباط ١٢٠٤ ــ أليكسيوس الخامس مورزوفل [المقطب الحاجبين] يخلع اسحق الثاني ويغتال أليكسيوس الرابع.

أبريل/ نيسان ١٢٠٤ ــ استيلاء الصليبيين الثاني على القسطنطينية. نهب المدينة وحرقها.

مايو/ آيار ١٢٠٤ ــ انتخاب بودوان الفلاندري امبراطوراً لاتينياً على القسطنطينية. إقتسام الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين (*Partitio Romanie*) [اقتسام امبراطورية الروم].

١٢٠٤-١٢٠٥ ــ جوفروا دو فيلاردوان وجيوم الكامبليتي يفتحان المورة.

أغسطس/ آب ١٢٠٦ ــ تتويج هنري الفلاندري امبراطوراً لاتينياً على القسطنطينية.

يناير/ كانون الثاني ١٢٠٨ ــ اغتيال بيير دو كاستيلنو يفجر الحملة الصليبية ضد الألبيجيين.

مايو/ آيار ١٢٠٩ ــ جوفروا دو فيلاردوان يؤسس أسرة حاكمة في إمارة المورة.

يوليو/ تموز ١٢٠٩ ــ صليبيو شمال فرنسا ينهبون بيزييه [في فرنسا].

١٢١٢ ــ حملة الأولاد الصليبية.

يوليو/ تموز ١٢١٢ ــ الفونسو الثاني ملك كاستيليا [قشتالة] يهزم الموحدين في لاس نافاس دي تولوزا.

سبتمبر/ أيلول ١٢١٣ ــ انتصار سيمون دو مونفور على بدرو الثاني، ملك آراجون، في ميريه.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢١٥ ــ انعقاد مجمع لاتران الرابع. تدشين الحملة الصليبية الخامسة.

يونيو/ حزيران ١٢١٦ ــ بيير دو كورتنيه يصبح امبراطوراً لاتينياً على القسطنطينية.

يوليو/ تموز ١٢١٧ ــ أندراش، ملك المجر، يقود القوة الأولى للحملة الصليبية الخامسة.

مايو/ آيار ١٢١٨ ــ الصليبيون يهاجمون دمياط.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢١٩ ــ الصليبيون يستولون على دمياط.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٢٠ ــ فريدريك الثاني يتوج إمبراطوراً على الإمبراطورية المقدسة.

أغسطس/ آب ١٢٢١ ــ الصليبيون يستسلمون أمام الكامل ويجلون عن دمياط.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٢٥ ــ فريدريك الثاني يتزوج ايزابيل دو بريان ويثبّتُ حقوقها على مملكة القدس.

يونيو/ حزيران ١٢٢٦ ــ ملك فرنسا لويس الثامن يقود حملة صليبية ضد لانجدوك [في فرنسا].

يونيو/ حزيران ١٢٢٨ ــ خروج فريدريك الثاني من أجل الحملة الصليبية (الحملة الصليبية السادسة).

فبراير/ شباط ١٢٢٩ ــ فريدريك الثاني يستعيد القدس، على أثر معاهدة يافا.

١٢٢٩ ــ موت جوفروا الأول، أمير آخايا [في اليونان]. ابنه جوفروا الثاني يخلفه.

١٢٣٢-١٢٤٣ ــ الصراعات بين " الحزب الإمبراطوري " والبارونات، بقيادة الإبلان، في الأرض المقدسة.

سبتمبر/ أيلول ١٢٣٩ ــ حملة تيبو الرابع دو شامبانيا.

أبريل/ نيسان ١٢٤١ ــ معاهدة ريتشارد من كورنويل مع مصر الأيوبية.

أغسطس/ آب ١٢٤٤ ــ نهب القدس على أيدي القوات الخوارزمية.

يونيو/ حزيران ١٢٤٥ ـ مجمع ليون الأول. " خلع " فريدريك الثاني.

١٢٤٦ ـ موت جوفروا الثاني، أمير آخايا. أخوه جيوم الثاني يخلفه.

أغسطس/ آب ١٢٤٨ ـ خروج القديس لويس [لويس التاسع] إلى قبرص (الحملة الصليبية السابعة).

يونيو/ حزيران ١٢٤٩ ـ الصليبيون الفرنسيون يستولون على دمياط.

أبريل/ نيسان- مايو/ آيار ١٢٥٠ ـ القديس لويس والصليبيون الفرنسيون، أسرى المصريين، يردون دمياط، ويتم الإفراج عنهم لقاء فدية.

يوليو/ تموز ١٢٥٠ ـ قيام النظام المملوكي في مصر.

فبراير/ شباط ١٢٥٨ ـ نهب بغداد على أيدي المغول الذين يقتلون آخر خليفة عباسي.

صيف ١٢٥٩ ـ ميخائيل الثامن باليولوجوس يهزم فرنج المورة في بيلاجونيا.

سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠ ـ الجيش المملوكي يهزم المغول في عين جالوت.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٦٠ ـ صعود السلطان بيبرس إلى سدة الحكم في مصر.

يوليو/ تموز ١٢٦١ ـ يونانيو نيقية يستردون القسطنطينية. انتهاء الإمبراطورية اللاتينية.

مايو/ آيار ١٢٦٧ ـ جيوم الثاني، أمير آخايا، يصبح تابعاً لشارل الأول دانجو.

مايو/ آيار ١٢٦٨ ـ بيبرس يستولي على أنطاكية.

يوليو/ تموز- أغسطس/ آب ١٢٧٠ ـ الحملة الصليبية على تونس. موت القديس لويس (الحملة الصليبية الثامنة).

١٢٧٠-١٢٧٢ ـ حملة ادوارد، ملك إنجلترا، في فلسطين.

أبريل/ نيسان ١٢٧١ ـ بيبرس يستولي على حصن الفرسان [حصن الأكراد].

يوليو/ تموز ١٢٧٤ ـ مجمع ليون الثاني. اتحاد الكنيستين اللاتينية واليونانية.

ديسمبر/ كانون الأول ١٢٧٩ ـ صعود السلطان قلاوون إلى سدة الحكم في مصر.

مارس/ آذار ١٢٨٢ ـ تمرد صلوات الستار الصقلية.

صيف ١٢٨٥ ـ "حملة أراجون الصليبية " بقيادة فيليب الثالث، ملك فرنسا.

أبريل/ نيسان ١٢٨٩ ـ المماليك يستولون على طرابلس.

مايو/ آيار ١٢٩١ ـ جيش الأشرف المملوكي يستولي على عكا. اختفاء الممتلكات الفرنجية الأخيرة في الأرض المقدسة.

١٣٠٧-١٣١٤ ـ محاكمات فرسان الهيكل [فرسان الداوية عند الأسلاف] والقضاء على جمعية فرسان الهيكل.

أغسطس/ آب ١٣٠٩ ـ الأوسبتالية يستولون على جزيرة رودس.

مارس/ آذار ١٣١١ ـ القطالونيون يستولون على أتيكا [في اليونان].

١٣١٨-١٣١٩ ـ القطالونيون يستولون على تساليا.

١٣٣٢-١٣٣٤ ـ العصبة المضادة للأتراك والتي تجمع بين البابوية والبندقية وفرسان الأوسبتالية وقبرص واليونانيين.

أغسطس/ آب ١٣٤٣ ـ البابا كليمانس السادس يشكل عصبة مقدسة مع البندقية وقبرص والأوسبتالية.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٣٤٤ ـ قوات العصبة المقدسة تستولي على سميرنا [أزمير].

١٣٤٥ ـ ١٣٤٧ ـ حملة الدوفاني أمبير دي فيينوا في بحر ايجة.

١٣٥٤ ـ الأتراك العثمانيون يستولون على غاليبولي.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٣٦٥ ـ حملة بيير الأول، ملك قبرص. نهب الإسكندرية.

أغسطس/ آب - ديسمبر/ كانون الأول ١٣٦٦ ـ حملة أميديه السادس، كونت سافوا، في تراقيا وبلغاريا.

١٣٦٩ ـ يوحنا الخامس باليولوجوس يزور الغرب ويقبل العقيدة الكاثوليكية.

١٣٧٥ ـ القضاء على مملكة قيليقيا الأرمينية.

١٣٧٨-١٤١٧ ـ الانقسام العظيم.

١٣٩٠ ـ حملة لويس البوربوني والجنويين ضد المهدية (تونس).

سبتمبر/ أيلول ١٣٩٦ ـ بيازيد يسحق الحملة الصليبية المجرية والبورجونية في نيقوبوليس.

١٣٩٩-١٤٠٢ ـ رحلة مانويل الثاني إلى الغرب: مناشدات غير مجدية لنيل العون ضد الأتراك.

ديسمبر/ كانون الأول ١٤٠٢ ـ تيمور لنك يطرد الأوسبتالية من سميرنا [أزمير].

يوليو/ تموز ١٤١٠ ـ البولنديون يهزمون الفرسان التيوتون قرب تاننبيرج.

مايو/ آيار- نوفمبر/ تشرين الثاني ١٤٢٠ ـ حملة سيجيسموند الصليبية الأولى ضد أنصار يان هوس.

١٤٢١-١٤٣١ ـ فشل الحملات الصليبية الثلاث ضد أنصار يان هوس.

يوليو/ تموز ١٤٣٩ ـ مجمع فلورنسا. اتحاد الكنيستين اللاتينية واليونانية.

نوفمبر/ تشرين الثاني ١٤٤٤ ـ السلطان مراد الثاني يهزم الصليبيين المجريين والسلاف في فارنا.

مايو/ آيار ١٤٥٣ ـ محمد الثاني الفاتح يستولى على القسطنطينية. نهاية الأمبراطورية البيزنطية.

١٤٥٤-١٤٦٦ ـ الحرب بين بولندا - بروسيا والفرسان التيوتون.

يونيو/ حزيران ١٤٥٦ ـ العثمانيون يستولون على أثينا.

١٤٦٠ ـ الأتراك يفتحون المورة.

١٤٧٠ ـ الأتراك يفتحون نيجربون.

أغسطس/ آب ١٤٨٧ ـ الجيوش الإسبانية تستولى على مالاجا [مَلَقه].

فبراير/ شباط ١٤٨٩ ـ كاترين كورنارو تتنازل للبندقية عن قبرص.

يناير/ كانون الثاني ١٤٩٢ ـ جرانادا [غرناطة] تستسلم للملكين الكاثوليكيين، فرناندو وايسابيلاً.

ديسمبر/ كانون الأول ١٥٢٢ ـ سليمان القانوني يفتح رودس.

سبتمبر/ أيلول ـ أكتوبر/ تشرين الأول ١٥٢٩ ـ قوات سليمان تحاصر فيينا.

مارس/ آذار ١٥٣٠ ـ الأوسبتالية يستقرون في مالطة.

أكتوبر/ تشرين الأول ١٥٧١ ـ أساطيل إسبانيا والبندقية تهزم الأتراك في ليبانتو.

سبتمبر/ أيلول ١٦٨٣ ـ فشل الأتراك أمام فيينا.

الفصل الأول

الشرق والغرب في أواخر القرن الحادي عشر

لئن كانت الحملات الصليبية قد بقيت من حيث الجوهر على هامش حياة الشرقيين، إلاّ أنه لن يتسنى مع ذلك فهمها لو عزلناها عن السياق الشرقي الذي تتدرج فيه، ولو أهملنا تفاعل المجتمعين اللذين تخلقُ مواجهةً بينهما. والحال أن الحملات الصليبية، بوصفها ظاهرة غربية، إنما تجد جذورها في ذهنيات وأساليب تصرف الغرب في القرن الحادي عشر، لكنها تصدم وسطاً شرقياً بالغ التنوع وقليل الاستعداد لفهم طابعها النوعي الخاص.

١ . الامبراطورية البيزنطية في أواخر القرن الحادي عشر

في ذروة اتساعها الترابي وقوتها العسكرية في الربع الأول من القرن الحادي عشر، تعرف الإمبراطورية البيزنطية في الشطر الثاني من القرن انقلابات عميقة تؤدي إلى قصر حدودها على الإقليم الهيلليني وحده، وهو نفسه عرضة للتهديد من جانب الشعوب التي تحيط به أو من جانب قادمين جدد في العالمين البلقاني والأناضولي.

ففي إيطاليا، سوف نجد أن النورمان الذين أخذوا يتحدون تدريجياً تحت سلطة آل أوتفيل (روبير جيسكار) يستولون على باري في عام ١٠٧١ وينهون السيطرة البيزنطية على جنوب إيطاليا. وبعد ذلك بعشر سنوات، يجتازون البحر لكي يهجموا على دوراتسو، التي تسيطر على طريق القسطنطينية (طريق اغناطيوس *Via Egnatia,*). وتجد بيزنطة نفسها مضطرة إلى طلب العون من أسطول البندقية لصد هجمات " الإمبريالية النورمانية "، وإلى منح حلفاء بيزنطة امتيازات اقتصادية فادحة (خريسوبيل عام ١٠٨٢).

أمّا في البلقان، فسوف نجد أن البيتشينيج، وهم شعب من أصل تركي، يعبرون نهر الدانوب في عام ١٠٤٨ ويستقرون على الأرض البيزنطية، التي يهددون منها تراقيا والقسطنطينية. وقد جاء في أثرهم الأوز الذين يقومون، اعتبارً من عام ١٠٦٤، بشن غارات نهب تصل إلى اليونان. وبالرغم من رد فعلٍ قويٍ من جانب بيزنطة (انتصار لوبونيون)، إلاّ أن الحدود الشمالية للإمبراطورية تظل تحت تهديد إئتلاف لشعوب مترحلة. وفي داخل شبه الجزيرة، تثور الشعوب الخاضعة ؛ البلغار في عام ١٠٧٢، تحت قيادة قسطنطين بودان، ثم يثور الفالاك ضد العبء الضريبي البيزنطي، بينما يؤكد أمير

زيتا وملك كرواتيا استقلالهما عن بيزنطة بتلقيهما تاجيهما الملكيين من روما. وتحدث الأمور كلها وكأن الإمبراطورية البيزنطية تنهار، بعد أن عرفت توسعاً يتجاوز إمكاناتها. والحال أن محاولة استعادة زمام الأمور والتي قام بها آل كومنينوس اعتباراً من عام ١٠٨١ إنما تتطلب عون الغرب.

كما أن الموقف أكثر خطورة في الأناضول. فالأرمن والايبيريون والجورجيون وسكان سوريا المسيحيون، المنتمون إلى كنائس منفصلة تعتبرها بيزنطة هرطوقية، يتجاسرون على الانشقاق وعلى التعاون مع الأعداء الخارجيين، ما أن يظهر هؤلاء على حدود الإمبراطورية. وتعاونهم يفسر زحف الترك الأوغوز أو التركمان السريع. ومع استيلائهم على بغداد في عام ١٠٥٥ وعلى أرمينيا بعد ذلك بعشر سنوات، يظهر قادتهم، السلاجقة، في قبدوقية وفي فريجيا في عامي ١٠٦٧-١٠٦٨. وينتهي رد الفعل البيزنطي بهزيمة مانزكرت (١٠٧١)، حيث يتم أسر البازيليوس [الإمبراطور] رومانوس الرابع ديوجينيس. وفي عام ١٠٨١، يتم غزو اسيا الصغرى كلها تقريباً، كما يتم القضاء على الهياكل البيزنطية القديمة. والحال أن التوسع التركي نحو فلسطين والقدس، التي تم الاستيلاء عليها في عام ١٠٧١، هو إحدى ذرائع رد الفعل الغربي الأخذ شكل الحملة الصليبية، التي سوف يحاول البازيليوس أليكسيوس الأول كومنينوس استخدامها لاسترداد الأراضي التي فقدتها الإمبراطورية.

٢ • الشرق الأدنى في أواخر القرن الحادي عشر

يُعدُّ انتصار السلطان ألب أرسلان في مانزكرت (١٧٠١) مقدمة لخلق إمبراطورية سلجوقية شاسعة تمتد من الهضاب الأناضولية إلى بلاد الرافدين وإلى سوريا- فلسطين. لكن هذا الكيان سرعان ما يتفكك، غداة موت السلطان ملك شاه في عام ١٠٩٢. فعندئذ تتشكل إمارات صغيرة شبه مستقلة: إمارة الدانشمند في شمال الأناضول، وإمارة الأراتقة في حوض دجلة الأعلى وإمارتا ابني شقيق ملك شاه في دمشق وحلب، بينما تظل مدن الساحل في جنوب فلسطين تحت سلطة الفاطميين في مصر الذين يضعون أيديهم من جديد على القدس في عام ١٠٩٨. وبين بلاد الرافدين العربية وأسيا الصغرى التركية، يستقر عدد من الأرمن، رعايا بيزنطة السابقين، بين الرُها وملطية، ويشكلون في قيليقيا إمارات شبه مستقلة.

LE PROCHE-ORIENT VERS 1095

	Empire byzantin		Possessions d'autres émirs des Seldjûqides
	Califat fatimide		Turcs d'Asie Mineure
	Grand empire seldjûqide	A	Émirat de Smyrne
	Terres disputées entre Fatimides et Seldjûqides	B	Seldjûkides de Rûm
	Arméniens	C	Danishmendites
	Possessions de Ridwan d'Alep	D	Mengüjekides
	Possessions de Duqaq de Damas	E	Saltukides

Figure 1 Le Proche-Orient vers 1095.

الشكل ١ – الشرق الأدنى نحو عام ١٠٩٥

والمنطقة السورية-المصرية منقسمة انقساماً عميقاً. فالفاطميون في مصر، وهم من الشيعة، قد أوجدوا خلافة منافسة لخلافة بغداد السنية. واضطهاد "أهل الكتاب"، والذي انكب عليه الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، هادم كنيسة القبر المقدس في عام ١٠٠٩، سرعان ما يستثير صدىً واسعاً بين الحجاج المسيحيين، إلاّ أنه يجري استئناف رحلات الحج بعد ذلك، وهي رحلات كان يزعجها التوسع التركماني في آسيا الصغرى بأكثر مما كانت تزعجها السيطرة الفاطمية في جنوب فلسطين. وحتى عام ١٠٧٥، كانت فلسطين مسرحاً لمواجهة بين الجيوش المؤيدة لخلافة بغداد والجيوش التابعة للإمامة الفاطمية في مصر. وعندما تغلغل الصليبيون في فلسطين في عام ١٠٩٨، وجدوا بلداً عرف أكثر من قرنين من الحروب وأعمال النهب والحصار. وكان البلد منقسماً آنذاك بين عدد كبير من الشيع المتنافسة: شيعة المرداسيين الاثنى عشرية في حلب وجماعة إسماعيليي إيران أو "الحشاشين" في سوريا الجنوبية، والسنة في دمشق والدروز في جنوب لبنان.

كما أن انقسام الطوائف المسيحية عظيم هو الآخر. والحال أن مسيحيي آسيا الصغرى، رعايا بيزنطة، قد عانوا من الغزو التركي وفقدوا هيراركيتهم الكنسية التي طردها الفاتحون. أمّا في سوريا- فلسطين، فقد بقي مؤمنون من الملة الرومية، الملكانيين، الذين جرى تعريبهم تعريباً عميقاً والذين يتبعون بطريركية أنطاكية أو بطريركية القدس، لا بطريركية القسطنطينية. لكن غالبية الطوائف المسيحية تنتمي إلى كنائس منفصلة منذ زمن بعيد عن روما ومعادية للسلطة الإمبراطورية في القسطنطينية التي تسعى إلى المركزية. وبين هذه الطوائف، سوف نجد موارنة لبنان والنساطرة الموجودين في العراق وفي آسيا الوسطى و، بالأخص، ثلاث كنائس قائلة بوحدة طبيعة المسيح، هي كنيسة الأرمن، وكنيسة اليعاقبة التي تستخدم السريانية في طقوسها، وأقباط مصر الذين جرى تعريبهم إلى حد بعيد. وفي سوريا- فلسطين، تتكيف هذه الطوائف مع الحماية الإسلامية، بينما في آسيا الصغرى، مع انقضاء الأزمنة الأولى للفتح التركي، سوف نجد أنها تحيا حياة طبيعية، بل وتستفيد من محو الكنيسة الرومية [اليونانية]. والحال أن من الخطأ اعتبار الترك مضطهدين لهذه الطوائف أو اعتبار الحملة الصليبية رداً على اضطهاد كهذا. وفي جميع الأحوال، سوف نجد أن مسيحيي الشرق غير الروم لم يوجهوا أي نداء إلى الغرب على أثر الغزو التركماني.

٠٣ الغرب في أواخر القرن الحادي عشر

ومن ثم فسوف يكون من المناسب أن نبحث في المجتمع الغربي نفسه عن أصول الحركة الصليبية، ليس دون أن نعري التفسيرات الخيالية الخاصة بدوافع الصليبيين.

٣-٠١ النمو الاقتصادي والديموغرافي

في القرن الحادي عشر يتضح الانطلاق الاقتصادي والنمو الديموغرافي للغرب، واللذان بدأ مسار تحققهما في القرن السابق. فاستصلاحات الأراضي على حساب المساحات غير المزروعة والغابات، إنما تعرف تكاثراً، وذلك لمواجهة احتياجات جماعات سكانية آخذة في التزايد. والنمو الحضري، المرتبط بتقدم النشاطات الحرفية والتجارية، يميز القطبين الاقتصاديين الأكبر للغربْ، الفلاندر وإيطاليا الشمالية والوسطى، واللذين يبدأ تجارهما في زيارة أماكن بعيدة، هي بلدان البلطيق بالنسبة للبعض، والشرق المتوسطي بالنسبة للبعض الآخر، بما يخلق صلات تجارية دائمة ومثمرة. وبالنظر إلى غياب إحصاءات دقيقة، فإن مؤشرات عديدة تشهد على النمو الديموغرافي لمختلف بلدان الغرب، التي تتخلص شيئاً فشيئاً من الأوبئة ومن المجاعات التي كانت تعرقل نموها حتى ذلك الحين.

فهل تتمثل في ذلك حقائق كافية لتبرير تفسير جميع أولئك الذين يرون في تدشين الحملات الصليبية غلبة للعوامل الاقتصادية أو الديموغرافية ؟ أو الذين ينسبون الدافع الرئيسي لخروج الصليبيين إلى مصالحهم المادية ؟ سوف يعني ذلك تارة أن شباناً من عائلات النبلاء، لا أمل لهم في الحصول على أراض، يذهبون إلى الشرق لكي ينشئوا لأنفسهم إقطاعات وضياعاً شاسعة، سعياً إلى التنافس مع اخوتهم الأكبر سناً، الورثة الوحيدين لممتلكات السلالة. والحال أن إشارة نجدها عند مدون الأخبار جوفروا مالاتيّرا إلى موقف بوهيموند وإشارة أخرى إلى بودوان دو بولونيا، الذي لم يكن له حظ في التركة العائلية، لا تكفيان لإثبات وجود تخطيط لعملية فتح خلال رحيل عام ١٠٩٦. فقد إرتأى الصليبيون وضع أنفسهم تحت قيادة الإمبراطور البيزنطي، منذ وصولهم إلى القسطنطينية ولم يكونوا يطمحون إلى الحصول منه على أي تنازل ترابي. ثم إن غالبيتهم، بعد استيلائهم على القدس، قد عادوا فوراً إلى الغرب، دون أن يفكروا في الاستقرار في الأراضي المفتوحة. وقد أثبت ج. رايلي سميث أن ١٧,٥% فقط من المستوطنين المستقرين في الأرض المقدسة قبل عام ١١٣١، وأسماؤهم معروفة، هم الذين تناولوا

الصليب في عام ١٠٩٦. ودون أن ننفي واقع أن من الوارد أن شهوة الكسب قد حركت بعض القادة الصليبيين، فقد كان من الوارد إشباع الرغبة في الحصول على ممتلكات عقارية بشكل أسهل بكثير عبر العمليات الكبرى لاستصلاح الأراضي، التي جرى الاضطلاع بها أنذاك في الغرب، مما عبر فتوحات إشكالية لأراض غالباً ما كانت جرداء.

وتارة أخرى، يذهب التفسير الاقتصادي إلى أن الدافع قد جاء من جمهوريات بحرية إيطالية، كان نموها السريع يتطلب منافذ تصريف أخرى وأسواقاً جديدة. لكن الواقع أن التجار الإيطاليين، الذين كانوا قد أقاموا صلات مع موانئ الشرق الأدنى قبل أكثر من قرن من الحملة الصليبية الأولى، كانوا يخشون من الإقدام على مغامرة حربية تهدد بتمزيق الشراكات التجارية الموجودة من قبل. ومن المؤكد أن جنوة وبيزا قد أرسلتا أساطيل إلى الشرق خلال الحملة الصليبية الأولى، لكن ذلك كان لأجل تلبية النداء البابوي وليس بمبادرة تخصهما. وكانت البندقية أخر من شارك في الحركة: إن سفنها لا تصل إلى يافا إلاّ بعد عام من الاستيلاء على القدس. على أن تردد الجمهوريات البحرية الأولى يضعُف فيما بعد، عندما ترى في الحملات الصليبية فرصة لتوسيع مجال نشاطاتها ولنزع الرتاجات البيزنطية والإسلامية، سعياً إلى شراء منتجات الشرق من مصدرها نفسه. لكن القسطنطينية والإسكندرية، في الشبكة التجارية لهذه الجمهوريات، تعدان أكثر أهمية من عكا وبيروت. والحال أن احتلال الصليبيين فلسطين لم يشجع حركة الأعمال التجارية إلاّ بدرجة متواضعة. إن البورجوازية الإيطالية " الفاتحة "، التي كانت ماتزال جد هزيلة في القرن الثاني عشر، ليست العنصر المحرك لمثل تلك الحملات.

على أن مؤرخين اخرين، يركزون انتباههم على الظواهر الديموغرافية، يميلون إلى أن يروا في الحملات الصليبية نوعاً من صمام أمان للغرب، الذي عرف نمواً بالغ القوة لسكانه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وعندئذ يصبح الرحيل إلى الشرق مخرجاً ضرورياً للفرسان الذين لا يحوزون أراض وللفلاحين الذين لا جذور لهم، وفرصة للعائلات وفيرة العدد للتخلص من الأفواه التي لا جدوى منها. ولكن هل كان ذلك ضرورياً أو مبّرراً من الناحية الاقتصادية ؟ مع أننا لا نحوز أية معطيات عامة عن السكان "الأوروبيين"، إلاّ أن المؤشرات التي تسنى جمعها تثبت أن الفائض الديموغرافي قد عرف أعظم اتساع له في الشطر الثاني من القرن الثاني عشر، أي بعد عدة عقود من تدشين الحملات الصليبية. ومن جهة أخرى، تثبت البحوث الأخيرة أن الرحيل من أجل الحملة الصليبية قد أدى إلى أعباء ضخمة في عائلات المتطوعين، والتي اضطرت إلى

رهن أراضٍ للحصول على تمويل من المؤسسات الكنسية. ولدى العـودة، كـان المقـابل هزيلاً: إن عدداً جد محدود من الصليبيين يرجع إلى الغرب حائزاً علـى كنـوز أو علـى أشياء ذات قيمة وغالباً ما يصبح من الصعب سداد الديون سعياً إلى اسـترداد الأراضـي المرهونة. ومن ثم فقلما توجد صلة بين ضغط ديموغرافي لم يكن زائداً عـن الحـد فـي القرن الحادي عشر والرحيل المحدد إلى القدس. ومن الوارد أن وزن الناس المتزايد قـد شجع الحملات الصليبية، إلاّ أنه لم يكن سببها المباشر.

٣-٢٠ المجتمع الأرستقراطي والكنيسة والحرب

يشهد القرن الحادي عشر انتصار الإقطاع الذي يمنح الحكم لنبلاء محاربين، مسـارعين إلى العنف وإلى القتل وإلى النهب. والحال أن صلات الإنسان بالإنسـان تصـوغ هيكـل الفئات العليا للمجتمع حيث تلعب الشراكة السلالية دوراً رئيسياً. ويتصل توزيع الاقطاعـات في ان واحد بالأراضي التي تكفل إعاشة التابع وبالوظائف العمومية التي توفـر إيـرادات وتوسّعُ سلطة السادة على الفلاحين المجبرين على أداء فروض باهظـة. وهكـذا نجـد أن القصر، وهو قلب الإقطاعات، إنما يصبح سركزاً للسلطة العمومية، التي هي بسبيلها إلـى الخصخصة. لكن تصادمات الولاء وواجبات الشراكة السـلالية تولّـدُ بيـن الـ *milites* [الفرسان] مواجهات متصلة. ومنذ ذلك الحين، فإن مولد الفروسية التـي تمجـد فضـائل المقاتل والتقديس التدريجي للمهنة الحربية ومؤسسات الصلح والسلم التي تشجعها الكنيسـة إنما تجتهد في الحد من الآثار الخبيثة لعسكرة المجتمع الأرستقراطي.

والواقع أن الكنيسة بافتقارها إلى القدرة على إخماد العنف، إنما تحاول وقفـه. وعـبر طقسي التدريع ومباركة المحاربين، تحاول الكنيسة تمجيد الفضائل الفروسية، التي توضـع في خدمة حماية الكنائس المحلية. بينما ترى، عبر مؤسسات السلم، أن من واجبـها إقامـة النظام وقصر الحرب ونتائجها على المحاربين وحدهم: إن حماية رجال الدين وممتلكـات الكنيسة وغير المقاتلين مدرجة في برامج العديد من المجامع الكنسـية الإقليميـة المنعقـدة لتدشين هدنة وسلام الرب. وبالرغم من نجاح محدود في الغرب، تطلب البابوية التي دخـل عليها الإصلاح حق تشجيع السلم حتى في صفوف الجماعة المسيحية الشرقية. ومن جهـة أخرى، فسعياً إلى التحرر من السلطة الإمبراطورية، يحصل الحبر البابوي علـى عـون المحاربين الذين يُدخلهم في التبعية للكنيسة أو الذين يجندهم كمرتزقـة. والحـال أن الـ *milites sancti Petri* [فرسان القديس بطرس]، يقاتلون في سيفيتات (١٠٥٣) ضد النورمـان،

قبل أن تسعى البابوية إلى التحالف مع هؤلاء الأخيرين ضد الإمبراطور الجرماني. وهؤلاء المنذورون للقديس بطرس، الذي توحدهم أواصر زواجية، إنما يشكلون شبكة دعم للإصلاح ومعارضة للسياسة الإمبراطورية. وبما أن البابا يرى أنهم يدافعون عن تراث القديس بطرس، ومن ثم أنهم يخوضون "معركة صالحة"، فإنه يخلع القداسة على عملهم ويعدهم باغتفار خطاياهم. ومنذ عهد بابوية ليون التاسع، تصبح الحرب مقدسة لأن الحبر البابوي يبررها. أما الحرب الصليبية، ابنة مؤسسات الصلح والسلم والذهنية الفروسية (ج.فلوري)، فهي لا تفعل سوى استعادة وعود الثواب الروحي الموجهة إلى أولئك الذين يجري البدء في تسميتهم بـ "فرسان المسيح" (*milites Christi*).

وكل هذا محصلة تطور طويل لفكر الكنيسة في موضوع الحرب. والواقع أن لاهوت الحرب في العصر الوسيط إنما يدين بالكثير للقديس أوغسطين. وفي رده على روح المسالمة لدى المسيحيين الأوائل، يميز مؤلف مدينة الرب في واقع الأمر بين الحرب العادلة، التي تعد حرباً مشروعة، والحرب غير العادلة التي يشجبها. وهناك ثلاثة معايير تميز الحرب العادلة: سلطة الأمير، القضية العادلة، سلامة القصد. فالمسيحي لا يحق له أن يقتل أحداً من تلقاء نفسه؛ فالرب وحده ونائبه على الأرض والملوك وحدهم هم الذين يتحملون المسئولية عن حسم ما إذا كان اللجوء إلى الحرب ضرورياً. والقضية تكون عادلة لو كانت تتعلق بالثأر من مظالم حلت بالناس: عندئذ يصبح اللجوء إلى العنف مشروعاً، ولا أهمية تذكر للطابع الدفاعي أو الهجومي للمعركة. وسلامة القصد تعني نبذ العنف لأجل العنف في حد ذاته، ونبذ السلب والغنائم. وفي المقابل، من المشروع استرداد امتلاك ملكية أو أرض جرى اغتصابها. والحال أن الأفكار الأوغسطينية، التي كانت ماتزال غريبة على التراث القانوني في بداية القرن الحادي عشر، قد روجها أنسيلم من لوكّا، الذي تبرر المجموعة القانونية (١٠٨٣) التي صنفها اللجوء إلى القتل في حرب مشروعة.

وخلال القرن الحادي عشر، يتشكل مفهوم الحرب المقدسة إستناداً إلى مفهوم الحرب العادلة. وحتى في زمن الكارولينجيين، كانت محاربة الوثنيين تعتبر واجباً على الإمبراطور؛ وأناشيد المآثر تمجد بسالة الفرسان في خدمة الدين. وفي تشجيع مؤسسات الصلح والسلم، يتعين على الكنيسة أيضاً الاهتمام بتنظيم حملات عسكرية ضد أولئك الذين يكدرون السلم. وشيئاً فشيئاً، تحول الكنيسة المسئولية عن الحرب، المخاضة لحماية الجماعة المسيحية، من الملك إلى مجموع الفرسان، بإشراك العلمانيين في مثل الإصلاح

الكنسي العليا، والتي يجري ترويجها على نطاق واسع في الشطر الثاني للقرن الحادي عشر. ويُبرز البابا جريجوريوس السابع فكرة جيش جديد في خدمة الكنيسة، هو الـ *militia S.Petri* [جيش القديس بطرس]، الذي يرتبط أفراده فيما بينهم بميثاق أخلاقي له جذوره في المفهوم الكنسي عن العالم، ويتميز بطقس مشترك، هو التدريع. وتنطوي فكرة الحرب المقدسة على قيمة نوعية للقتال ضد أعداء الجماعة المسيحية. وفي عام ١٠٦٣، كان البابا الكسندر الثالث أول من منح المسيحيين الذين يقاتلون المسلمين في إسبانيا عفواً عن التكفير عن خطاياهم. ومع جريجوريوس السابع، يئول الثواب الأبدي إلى أولئك الذين يهبون حياتهم لتحرير اخوتهم في الشرق ولحماية الدين المسيحي. أمّا في عام ١٠٨٩، فإن أوربان الثاني يعد أولئك الذين يعيدون بناء كنيسة تاراجونا [في إسبانيا] التي هدمها المسلمون، بعين الغفران الذي يعد به أولئك الذين يريدون الخروج للحج إلى القدس: وهكذا يربط فكرة الحج المسيحية بمشروع ساع إلى تشجيع الحرب أو مقاومة الكفار. ومن ثم فأثناء انعقاد مجمع كليرسون كانت فكرة الحرب المقدسة فكرة معترفاً بها ومقبولة؛ ومن خلال ربط الغفران بها ومن خلال توجيه طاقات الفرسان نحو مسرح الحرب الشرقية، يحول أوربان الثاني ما لم يكن حتى ذلك الحين غير حملات محدودة ضد المسلمين إلى حج حربي من جانب الجماعة المسيحية كلها، أي إلى حرب صليبية.

٣-٣٠ التكفير وترقب الآخرة

أسهمت حالة الغرب الذهنية والسيكولوجية في أواخر القرن الحادي عشر إسهاماً كبيراً في نجاح الحملة. فهل يجب أن نرى في الحملة الصليبية التأثير الحاسم لـ "سينوجرافيا أخروية لانتهاء الزمان" (أ.ديبرون) ؟ أو، بعبارة أخرى، ذروة ترقب قوي للآخرة يجتاز القرن الحادي عشر برمته ؟ إن ب.ألفانديري وأ.ديبرون لم يتخلفا عن أن يجمعا من كتابات مدوني الأخبار مؤشرات ترقب لعلامات الأزمنة، تعلن اقتراب يوم الحساب الأخير: ظواهر فوق طبيعية، سقوط النيازك، الزلازل، المجاعات، الأوبئة. ويرى هذان المؤرخان في ذلك تأكيداً للطابع الأخروي للحملة الصليبية الأولى، إنها "مسيرة إلى لقاء رجوع المسيح، إلى اختتام الزمان". والصليبيون، الذين اختارهم الرب، عليهم تحرير القدس، لكن عليهم بالأخص أن يستعدوا للمجيء الثاني للمسيح، الذي سوف يدخلهم في ملكوت مجده.

ولكن، أليس ذلك رداءً أيديولوجياً، ناتجاً عن القراءة اللاحقة للأحداث من جانب مدوني أخبار كانوا كلهم رجال دين مشربين بنبوءات الكتاب المقدس ؟ أو، على العكس، هل يجب أن نرى في ذلك تعبيراً من جانب اناس مثقفين عن الطموحات الكامنة والعميقة لدى الجماهير؟ يشير أ. فوشيه إلى "وجود مناخ ترقب أخروي"، يعبر عن نفسه من خلال نصوص مختلفة ذات نبرة رؤيوية أو نبوئية راجت في القرن الحادي عشر: المجيء القريب لإمبراطور سوف يحرر القدس ويعلن ثأر المسيحيين من الإسلام وتمجيد الأمة الفرنجية وفرسانها، تلك كانت التيمات المعبرة عن ترقب أخروي والتي سوف تتجه البابوية، التي لم يعد بوسعها الاعتماد على الإمبراطور الجرماني الذي صار عدواً لها، إلى توظيفها لحساب كنيسة روما وحبرها الأعظم.

وفي سعيها إلى قيادة الجماعة المسيحية إلى الخلاص، تعتمد كنيسة أواخر القرن الحادي عشر على رهبانية إصلاحية، تحافظ على نقاء الصلة بين العالم الدنيوي والعالم القدسي. ويقترح الرهبان على العلمانيين محاكاة زهدهم سعياً إلى الفوز بالخلاص. ولمّا كانوا منبثقين من عين الوسط الذي انبثقت منه الأرستقراطية الفرسانية، لكنهم نجوا من مأزق الشر، فإنهم يريدون مساعدة عالم المحاربين على التحرر من خطيئة القتل والغطرسة والعنف، باقتراح أشكال جديدة للتقوى عليه، كالصدقة، وبالأخص الحج الذي يعود على الخاطئ النادم بغفران خطاياه وبمحو العقاب المرتبط بارتكابها. وبالنسبة للمؤرخ م. بل، فإن روحانية الصليبيين قد تأثرت تأثراً عميقاً بروحانية الرهبان: فالمحاربون، المنجذبون إلى الزهد وإلى التكفير عن الذنوب وفقاً للنموذج الديري، إنما يجدون في الحج إلى القدس وسيلة للتصالح مع الرب.

وفي الدرب الإصلاحي نفسه، سوف تشجب البابوية الشرور التي تلوث الهيراركية الكنسية، وسوف تعزز منظومة الغفران لتشجيع التوبة الفردية لجميع المسيحيين، المدعوين إلى التحرر من الخطيئة سعياً إلى إتباع وصايا الرب. كما أن الكنيسة تتجه إلى مباركة معينة للفقر تدفع الفقراء إلى طموح مشوش إلى عودةٍ إلى المساواة الأولى بين البشر، والتي سوف تكون القدس، ساحة الأخوة الشاملة، بؤرتها. ويرى أ. فوشيه أن البابوية قد نجحت بذلك في تأطير الطموحات الشعبية إلى ألفية قوامها المساواة، وإلى مجتمع أكثر عدالة وأكثر طهارة: إن القدس الدنيوية، غاية الحج التكفيري، سوف تصبح بذلك استشرافاً لأورشليم السماوية، لأجل بشرية متصالحة مع الرب.

٤ . علاقات الغرب بالشرق

٤-١ . الحج إلى الأماكن المقدسة

إن الحج، بوصفه "نزوعاً إلى عالم آخر مقدس وصعوداً إلى السمو" (أ. ديبرون)، إنما يشكل واحدة من أقوى اللحظات وخاصية ثابتة للحياة الدينية، خاصة عندما يتمثل هدفه في الأماكن المقدسة في سوريا- فلسطين، والتي قدستها الأحداث الربانية التي دارت هناك ووجود القبر المقدس. وسواء أكان حجاً تقوياً، يسمح للمؤمن بالفوز بالنعمة الإلهية المشعة بشكل أقوى في الأماكن التي عاش فيها المسيح، أم حجاً تكفيرياً يتيح للخاطئ عبر تكفير علني محو الفضائح المترتبة على خطاياه، أم رغبة من جانب المرء لاختتام حياته والفوز بلحد في الأماكن التي سوف يتجلى فيها الحساب الأخير، فإن الحج إلى الأماكن المقدسية إنما ينطوي على زهد، على قطيعة مع العالم يمكن أن تصل إلى حد الاستشهاد. والرغبة في لمس الآثار المقدسة، والأهم من ذلك الحصول عليها، من شأنها أن تحرك الحاج، المتحرق إلى الصلاة في قبر المسيح، واثقا من أنه سوف يجد هناك عفواً سريعاً عن خطاياه وأنه سوف يحيا هناك انتصار المسيح على قوى الشر، في نهاية الزمان.

والحال ان الحج السابق على "اكتشاف" القديسة هيلانة [أم الإمبراطور قسطنطين التي تنسب إليها الأسطورة اكتشاف الصليب المقدس وغير ذلك من الآثار المقدسة، خلال حج إلى القدس وإلى بيت لحم في عام ٣٢٦]٦ قد عرف حظوة متزايدة منذ إنشاء قسطنطين كنيسة القبر المقدس في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. ولم يؤد الفتح العربي إلى وقف تدفق الحجاج، الذين كانوا مضطرين مع ذلك إلى شراء تصاريح مرور امن ودفع مبالغ كبيرة لسادة فلسطين الجدد. وقد حصل شارلمان على تصريح بإنشاء نزل للحجاج إلى القدس ثم إن خلفائه قد طالبوا بحماية الأماكن المقدسة. وفي القرن العاشر، يسلك الحجاج الطريق البحري أساسا، انطلاقا من باري أو برنديزي أو أمالفي إلى القسطنطينية ثم فلسطين أو إلى الأرض المقدسة عن طريق مصر.

وبعد هدم كنيسة القبر المقدس بناء على أمر من الحاكم بأمر الله الفاطمي (١٠٠٩) يكفل البازيليوسات إعادة بنائها، بمساعدة تبرعات غربية. ثم إن تحول المجر إلى اعتناق المسيحية وقيام بيزنطة بضم بلغاريا إليها يؤديان إلى تنويع طرق الحج: إن أوروبا الوسطى وطريق أغناطيوس من دوراتسو، ينفتحان أمام الحجاج، الذين يتزايد عددهم أكثر فأكثر خلال القرن الحادي عشر. وتحت تأثير مناخ الروح الألفية المحيطة، يود الحجاج

الخروج للمكابدة عبر المسيح ولأجل المسيح في الأرض المقدسة. والخروج والمحن على الطريق لها قيمة تضحيةٍ شافعةٍ ومخلّصةٍ. وفي الوقت نفسه، يتطور موقف أخروي تجاه المدينة المقدسة: فهناك رغبة في تحين نهاية الزمان هناك وتحقيق مصير ديني يجري فهمه بوصفه عبوراً و" اغترابا " عن العالم. وفي هذا المنظور، يعتبر الحج إلى القدس رحلة أخيرة، تهيئ عبر طقس التكفير الجماعي للأيام الأخيرة للزمان. ولأجل التنظيم المادي لرحلتهم، يعقد الحجاج اتفاقات مماثلة من جميع النواحي لتلك التي سوف تعقد بمناسبة الحملة الصليبية الأولى: رهن الممتلكات العقارية لدى المؤسسات الكنسية، وتقديم هبات وصدقات إلى هذه المؤسسات والتخلي عن المنازعات مع الكنائس على حقوق الملكية، واستقبال الحجاج في المجتمعات الديرية. وباختصار، فإن التأطير الروحي والمادي للحج إنما يستشرف تأطير الحملة الصليبية الأولى.

والحال أن شخصيات رفيعة المقام، كالأمراء والأساقفة والرهبان، إلى جانب اناس أكثر تواضعاً، قد قاموا بزيارة قبر المسيح: إن فولك نيّرا، كونت آنجو، قد ذهب إلى هناك ثلاث مرات بين عامي ١٠٠٢ و١٠٣٥، في حج تكفيري. وأحياناً ما كانت تتشكل جموع حجاج عديدين. ويقال إن رحلة الحج الكبرى، في عامي ١٠٢٦ و١٠٢٧، حول كونت أنجوليم والراهب سان فان دو فردان، قد حشدت نحو ٧٠٠ شخص. وفي عامي ١٠٦٤ و١٠٦٥، يقود أربعة أساقفة ألمان حشداً يقال إنه ضم ٧٠٠٠ حاج؛ وكان عليهم أن يواجهوا البدو ويجردوا سيوفهم لشق طريقهم إلى القدس. وقد حدثت موجات مهمة أخرى في عامي ١٠٨٥ و١٠٩٠، وذلك بقدر ما أن الحماس للرحلة قد تعزز بوصول آثار مقدسة من القدس إلى الغرب. وإلى حجاج الغرب العديدين هؤلاء يضاف دانمركيون وايسلانديون ونرويجيون يجيئون إمّا عبر السهول الروسية أو عبر وادي الراين وممرات جبال الألب. ولاشك أنهم كانوا عديدين جداً لأن أساطير وملاحم أهل الشمال تتحدث عن هذه الرحلات الطويلة إلى القدس، حيث يجد أولاف، ملك النرويج، ملاذاً. على أن الحجاج لم يكونوا في مأمن من المشاكل: الازعاجات على طرق الأناضول، خاصة بعد الغزوات التركية؛ المضايقات من جانب السلطات المحلية التي تطالب برسوم لدخول الأماكن المقدسة، ناهيك عن مخاطر المرض أو الموت على الطريق. وفي القدس نفسها، كانت ظروف الاستقبال ماتزال هشة، مع أن التجار الأمالفيين كانوا قد انشأوا نحو منتصف القرن الحادي عشر نزلاً لاستقبال الحجاج. وبالرغم من هذه المصاعب، قلما توقف تدفق الحجاج من جراء الفتوحات السلجوقية. ويشهد استمرار الحج على الصدى

العميق الذي تستثيره القدس في التقوى المسيحية، المستعدة لتلبية نداء البابا من أجل تحرير القبر المقدس.

٤-٢-٠ التجارة الغربية في الشرق قبل الحملات الصليبية

لا يمكن لأحد اليوم أن يزعم أن تجارة شرقي البحر المتوسط قد ولدت مع الحملات الصليبية، إذ ما أكثر الدلائل التي تشهد على وجود تجاري للغربيين في الشرق في القرنين السابقين على نداء أوربان الثاني.

فأقاليم إيطاليا الخاضعة لبيزنطة منذ وقت طويل قد حافظت على علاقات تجارية مع القسطنطينية، أكانت هذه الأقاليم قد ظلت تحت سيطرة الإمبراطورية أم كانت قد حصلت على "درجة من الاستقلال بحكم كونها أقاليم على حدود الإمبراطورية" (ج. براتيانو) والحال أن موانئ أبوليا، باري وتراني وبرنديزي، إنما تزود العاصمة البيزنطية بالحبوب وبالمنتجات الزراعية. في حين أن بحارة باري، الخبيرين بالبحر المتوسط الشرقي، سوف يستولون على اثار القديس نقولا في ميره ويعيدونها في احتفال انتصاري إلى مدينتهم التي يعززون بذلك جاذبيتها للحجاج المغادرين إلى الشرق.

أمّا سكان أمالفي، المحرومون من موارد خاصة، فإنهم يعتبرون البحر "حدوداً"؛ وينجحون في إيجاد صلات تجارية دائمة مع الإمبراطورية البيزنطية كما مع العالم الإسلامي. وتستقر جالية أمالفية في القسطنطينية في القرن العاشر؛ وهي تتطور في القرن التالي بفضل النشاط الزاخر الذي قامت به عائلة مورو- بانتاليون التي تدشن تجارة ثلاثية المحاور بين مدينة أمالفي ومصر الفاطمية والعاصمة البيزنطية: إن المنتجات الزراعية والأخشاب والحديد وربما العبيد يأخذون اتجاه الإسكندرية والفسطاط، حيث تجري مبادلتهم بالتوابل. وفي القسطنطينية، يظهر الأمالفيون كمشترين بأكثر مما يظهرون كبائعين. وهم يحصلون على منسوجات حريرية وتحف كتلك الأبواب البرونزية الشهيرة التي ماتزال تزين إلى اليوم عدة كنائس في جنوب إيطاليا وفي روما والبندقية. وبحكم تأسيسهم لدير في جبل اثوس ولنزل في القدس، ولعدة بيوت في أنطاكية قبل الحملات الصليبية، أقام الأمالفيون شبكة تجارية جد كثيفة تغطي مجمل شرقي البحر المتوسط. وبفضل المساعدة البحرية التي قدموها للفاطميين خلال فتحهم لمصر في عام ٩٦٩، أصبحوا أول غربيين يتاجرون في مصر. إلاّ أنه يبدو أن الحظ يتحول عنهم عندما يسقط

وطنهم تحت التبعية للنورمان، أعداء بيزنطة (١٠٧٣). وعندئذ يصبح ورثة آل مورو-بانتاليون كبار التجار الرئيسيين في مدن إيطاليا النورمانية.

وكان منافسوهم في المستقبل الواعد هم البنادقة. فمنذ بداية القرن التاسع، استثمروا رساميل في التجارة مع الشرق. وإذ شكلوا جالية تجارية صغيرة في القسطنطينية في زمن سفارة ليوتبراند الكريموني (٩٤٩)، فقد حصلوا على امتياز أول في عام ٩٩٢، يؤدي إلى تخفيض الرسوم الجمركية واجبة الأداء لبيزنطة. وفي عام ١٠٨١، أصبحوا حلفاء لبيزنطة ضد النورمان. والنجدة المقدمة من جانب أسطولهم تسمح لأليكسيوس الأول كومنينوس بصد هجوم روبير جيسكار على دوراتسو. وتحصل البندقية في المقابل على خريسوبيل عام ١٠٨٢ الذي يفتح لتجارتها مناطق واسعة من الإمبراطورية البيزنطية، ويعفي تجارها من كل الرسوم الجمركية ويوسع جاليتها في العاصمة الإمبراطورية ويخضع الأمالفيين فيها لسلطتها. ويعتبر بول لومرل ذلك أستسلاماً اقتصادياً: فاتساع الامتيازات الممنوحة إنما يحمل في داخله خراب دولة واقتصاد بيزنطة في المستقبل. كما أن نمو تجارة البندقية في مصر يعد مهماً هو الآخر، إذ سوف نجد أن تجار البندقية، بالرغم من الحظر الذي فرضه البازيليوس، يشحنون إلى مصر مواد استراتيجية، كالخشب والحديد، يتم تبادلها مع منتجات الشرق، كحجر الشب المصري الذي يبدأون في ترويجه تجارياً منذ عام ١٠٧١.

وقد أثبتت وثائق جنيزة القاهرة وجود غربيين آخرين في مصر، منذ الأعوام الأولى لاستقرار الفاطميين (٩٦٩). فالبيازنة والجنويون يزورون الفسطاط والإسكندرية حيث تتم السيطرة بشدة على تحركاتهم من جانب السلطة وحيث يقعون أحياناً ضحايا للتمردات المعادية للأجانب. وشأنهم شأن الأمالفيين والبنادقة، يتم استقبالهم في دار مانك، التي تعد في أن واحد فندقاً ومخزناً وسوقاً ومركزاً ضريبياً، حيث يخضعون لمراقبة مشددة من جانب السلطات الفاطمية التي لا تسمح بعدُ بإقامة جاليات غربية دائمة. كما نقابل الجنويين في سوريا الشمالية، حيث يبدو أنهم قد ترددوا على أنطاكية حتى قبل وصول الحملة الصليبية الأولى. وهكذا نجد أن الجمهوريات البحرية الإيطالية الرئيسية، بدرجات متفاوتة، قد شكلت في الشرق شبكات أعمال واسعة، حتى قبل أن يتجه الصليبيون إلى اكتشاف طرق القدس. وسرعان ما أصبحت أساطيلها ضرورية لفتح المدن الساحلية في الأرض المقدسة ولتأمين صلات الصليبيين بالغرب.

ويجب أن نضيف إلى التجار رجال الحرب والمرتزقة المجندين لتعزيز الجيوش البيزنطية. ويتألف الحرس الإمبراطوري من سكاندينافيين، هم الفارانج. وفي النضال ضد الأتراك، يستخدم البازيليوس نورمان، كالشهير روسيل دو بايلول الذي ينشئ لنفسه في وقت من الأوقات إمارة في الشرق. كما أن ألماناً –النيميتسوي– وفلمنكيين وأنجلو-ساكسون يخدمون في الجيش البيزنطي. وبسبب تعرض أليكسيوس الأول كومنينوس للهجوم على عدة جبهات، فإنه لا يخل بالعادات الإمبراطورية عندما يطلب إلى الغرب، عبر وساطة سفرائه في مجمع بليزانس (مارس/آذار ١٠٩٥)، إرسال مرتزقة جدد. على أن الاستجابة، على شكل قوات الحملة الصليبية الأولى، لا تتماشى البتة مع ما كان البازيليوس يرجوه.

٤-٣٠ دراية الغرب بالشرق

إن الحجاج والتجار ورجال الحرب الذين اكتسبوا خلال القرن الحادي عشر دراية معينة بالمجتمعات الشرقية لا يشكلون غير أقلية تافهة من الغربيين.

والواقع أن الشرق يبقى مجهولاً إلى حد بعيد. أولاً بسبب العائق اللغوي. ومع أن اللاتينية قد ظلت حتى زمن بازيليوس الأول [إمبراطور بيزنطة بين عامي ٨٦٧ و٨٨٦] لغة القانون في بيزنطة، فإن قليلين من اليونانيين في القرن الحادي عشر هم الذين كانوا يفهمون بسهولةٍ لغة الغرب. وبالمقابل، فإن عدداً قليلاً فقط من أفراد الجاليات الغربية المستقرة في القسطنطينية ومن مثقفي إيطاليا الجنوبية، التي كانت تحت السيادة البيزنطية، هم الذين كانوا يعرفون مبادئ اليونانية. وقد أشير على سبيل المثال إلى الترجمات التي أجريت في حاشية آل مورو- بانتاليون في القسطنطينية. لكن هزال المعارف اللغوية التي يملكها أفراد السفارة البابوية في القسطنطينية في عام ١٠٥٤ إنما يعد مسئولاً إلى حد كبير عن القطيعة بين آمبير دو مويانموتييه والبطريرك ميخائيل سيرولير. ومع أنه قد دام بين طرفي الجماعة المسيحية شعور معين بالإخاء المسيحي، إلا أن الهوة كانت قد تعمقت، بالنظر إلى غياب تفاهم متبادل.

فما الذي يمكن أن يقال إذاً عن العربية والعالم الإسلامي؟ إن النخب الكنسية، وهي وحدها المثقفة في الغرب، تجهل الأولى كما تجهل الثاني. والمناظرة المضادة للإسلام لا تتطور إلاّ في الشرق، انطلاقاً من مؤلفات يوحنا الدمشقي وتلميذه أبو قيره (أواخر القرن الثامن) أو كرونوجرافيا ثيوفان في القرن التالي. وفي الغرب، بالمقابل، لا يوجد شيء

كهذا، إلاّ في إسبانيا المسلمة حيث تنخرط الطوائف المسيحية الباقية في المناظرة انطلاقــا من كتيب أولوج القرطبي (الذي قتل شهيداً في عام ٨٥٩) أو من البحث التبريري، رســالة الكندي المزعوم، الذي كان معروفاً دون ريب خلال القرن الحادي عشر. وفــي إســبانيا المسيحية، التي تصارع الإسلام الأيبيري، يجري فرض صورة لنبي المسلمين قوامها أنــه نبي زائف شهواني، شبيه بدابة سفر الرؤيا. ويجري تصوير الإسلام على أنه دين فاســد وشرير؛ يمتدح الفجور والزنا والعنف. ومن ثم يتوجــب محاربتــه بأســلحة الاســترداد. والحال أن هذه الصورة هي التي سوف يطورها جيبير النوجاتي في الأعــوام الأولـــى للقرن الثاني عشر، إنطلاقاً من معلومات قادمة على ما يبدو من إسبانيا. ثــم إن أنشــودة رولان إلى جانب كتابات مدوني أخبار الحملة الصليبية الأولى ســوف تبــالغ فــي هــذه الصورة الكاريكاتورية إلى درجة تصوير الإسلام، وهو ديانة توحيدية بإمتياز، في صــورة نزعة وثنية خبيثة شريرة لا يمكن محاربتها إلاّ بالسيف. على أن من سوف يهلكون فــي هذا الصراع سوف يكونون جديرين باكليل الشهادة، بوصفهم أبطالاً للدين الحق. وســوف يتعين انتظار بطرس المبجل، رئيس دير كلوني، لكي تتوافر ترجمة لاتينية للقرآن ومن ثــم رؤية للإسلام أكثر وضوحا.

تجارة أمالفي مع مصر في القرن العاشر (٩٩٦)

إن يحي الأنطاكي، الطبيب الذي ولد في مصر نحو عام ٩٨٠، يضطر إلى مغادرة البلد الذي ولد فيه، عند اضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمي للمسيحيين. وهو يستقر في أنطاكية حيث يكتب مدونة أخبار يواصل تحريرها حتى موته في عام ١٠٦٦. وهو يبدي في هذه المدونة دراية جيدة بالعالمين، العربي والبيزنطي. وفي المقتطف التالي، يعرض تمرد سكان القاهرة المعادي للأجانب ضد الأمالفيين والمسيحيين المقيمين في القاهرة، المشتبه في قيامهم بإحراق أسطول مصر. ويتدخل السلطان لإنزال العقاب بالمتمردين ولحث التجار اللاتين على العودة:

جمع بن نسطورس الأخشاب من سائر النواحي، وأنشأ أسطولاً بدار الصناعة بمصر، وحمل إليه جميع الآلات والسلاح والعُدد، وعزم على تسييره بعد صلاة الظهر من نهار الجمعة لسبع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٣٨٦ [١]. فوقع فيه نار في ذلك اليوم وأحرق منه ستة عشر مركباً واتهم الرعيةُ بحريقه تجار الروم والملافطة [الأمالفة] الواردين بالبضائع إلى مصر [٢]. فثار عليهم الرعية والمغاربة وقتلوا منهم مائة وستين رجلاً ونهبوا دار مانك التي في الرفائين بمصر وكان بها مال عظيم لهؤلاء الروم لأنهم كانوا نازلين فيها. ونُهبت كنيسة ميخائيل التي للملكية [للملكانية] [٣] بقصر الشمع وأخذ منها الة ورحل وانية ذهب وفضة ما يساوي جملة كثيرة وشُعِّثت الكنيسة. ونُهبت كنيسة النسطورية [النساطرة] [٤] وجرح أسقف بها لهم يُسمى يوسف الشيزري جراحات مات منها.

وركب بن نسطورس وقت النهب ونزل إلى مصر وتقدم بكفٍّ الأذية عن الروم والمنع من معارضتهم. ونودي في البلد بأن يرد كل واحد من النهابة جميع ما أخذه: فُردَّ البعض من ذلك. وأُحضر من سلم من تجار الروم من القتل ودفع لكل واحد منهم ما اعترفه. وقُبِضَ على ثلاث وستين رجلاً من النهابة. واعتقلوا بأمر العزيز بالله باطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم وقتل ثلثهم ... وذلك يوم الخميس لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة [٣٨٦ هـ.] [٥].

المصدر:

تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تأليف يحي بن سعيد بن يحي الأنطاكي. تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠. ص ص٢٣٣ ــ ٢٣٤.

[أمدني د. أيمن فؤاد بالأصل العربي الوارد أعلاه، فشكراً له على ذلك. ــ المترجم].

---

١ ٤ مايو/ آيار ٩٩٦.

٢ مصر القديمة.

٣ الروم الأرثوذكس.

٤ هل هناك خلط بينهم وبين الأقباط ؟

٥ ٢٩ مايو/ أيار ٩٩٦.

رحلة سايُولف إلى القدس (١١٠٢ــ١١٠٣)

بعد ثلاثة أعوام فقط من استيلاء الصليبيين على القدس، سوف نجد أن الانجليزي سايُولف، الذي لا نعرفه إلاً من خلال الرواية القصيرة لرحلته والموجودة في مخطوط في كمبردج، قد قام برحلة حج إلى القدس، منطلقاً من مونوبولي (جنوب إيطاليا). وهو يتحدث في روايته عن المضايقات التي اقترفها المسلمون ويؤكد بشكل خاص على القيمة المحورية للقبر المقدس في رحلة الحاج إلى الأماكن المقدسة:

صعدنا إذاً من يافا إلى مدينة القدس: وهي رحلة تستغرق يومين عبر طريق جبلي، بالغ الصعوبة والخطر، لأن المسلمين، المستعدين دائماً لنصب الشراك للمسيحيين، إنما يختفون في كهوف الجبال وفي المغارات الصخرية، يقظين ليلاً ونهاراً، ساعين دائماً إلى مهاجمة الحجاج المنفردين أو أولئك الذين يجرجرون أقدامهم من التعب خلف جماعة ... وعلى هذا الطريق لا يهلك الفقراء والضعفاء وحدهم، وإنما يهلك أيضاً الأغنياء والأقوياء:

فكثيرون يهلكون على أيدي المسلمين وعديدون يهلكون من الحر والعطش وكثيرون يهلكون بسبب غياب المؤن التي يستهلك عديدون منهم الكثير منها. لكننا مع كامل مجموعتنا، نصل سالمين إلى الأماكن المنشودة: فحمداً للرب الذي لم يخذل دعائي والذي أنعم عليَّ برحمته. آمين.

ومدخل مدينة القدس يقع إلى الغرب، تحت قلعة الملك داود، عن طريق الباب المسمى بباب داود. وقد ذهبنا أولاً إلى القبر المقدس المسمى بـ "كنيسة الشهيد"، ليس فقط لموقع المكان وإنما لأنه الأشهر بين جميع الكنائس الأخرى. وبعد اكتشاف صليب الرب، شيد كبير الأساقفة مكسيموس هذه الكنيسة الملكية والعظيمة، بدعم من الإمبراطور قسطنطين وأمه، هيلانة. وفي وسط هذه الكنيسة يوجد قبر السيد، المسقوف والمحاط بجدار قوي جداً، بحيث لا يمكن للمطر أن يسقط على القبر المقدس، لأن الكنيسة المقامة عليه تظل مكشوفة. وتقع هذه الكنيسة على منحدر جبل صهيون، شأنها في ذلك شأن المدينة ..

المصدر : *Peregrinationes Tres.Saewulf, Iohannes Wiziburgensis, Theodericus*, éd.R.B.C. Huygens, Corpus christianorum. Continuatio mediaevalis CXXXIX, Turnhout 1994, p.63-65.

الفصل الثاني
نداء كليرمون وأصول الحملة الصليبية

في ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥، على أثر مجمع كليرمون، يوجه البابا أوربان الثاني نداءً إلى الفرسان الغربيين ويعرض عليهم الخروج لتحرير القبر المقدس من أيدي الكفار الذين يضطهدون مسيحيي الشرق. فهل هذه رسالة ثورية ؟ أم أنها بالأحرى تتمة لسلسلة كاملة من الظروف، يبرز في المقام الأول منها دون ريب النضال الذي يخوضه مسيحيو إسبانيا من أجل استرداد شبه الجزيرة الايبيرية ؟ منذ عقود، يناقش المؤرخون محتوى الفكر البابوي، غير المؤكد إلى حد بعيد وذلك بقدر ما أن أربعة شهود لخطاب البابا ــ فوشيه الشارتري وروبير الراهب وبودري دو بورجيل وجوفروا دو فاندوم ــ قد أعادوا تركيب المحتوى من الذاكرة بعد عام ١٠٩٩، أي بعد أكثر من أربعة أعوام من الحدث. على أن دراسة عدد من السوابق من شأنها أن تساعد على إدراك معنى النداء البابوي.

١٠ السوابق

١-١٠ تأثير الإصلاح الكنسى

منذ البابا ليون التاسع إلى البابا جريجوريوس السابع، تنخرط البابوية في طرق إصلاح سوف تؤثر إلى حد بعيد على دعوة أوربان الثاني في كليرمون. ولاشك أن العنصر الرئيسي في ذلك هو إستعادة البابوية لزمام شئون الكنيسة. والحال أن التمييز الجديد بين مرجعية (*auctoritas*) البابا والسلطة (*potestas*) المفوضة إلى الأمراء، والذي صيغ خلال النزاع على تعيين الأساقفة، إنما يؤدي إلى لاهوت "عنصرين"، يقدّس الكنيسة الدنيوية قياساً إلى "الدنيا" التي تظل تحت سلطة الشيطان. وسيادة الحبر الأعظم الكلية لا تقتصر على الغرب: فعنايته تشمل الجماعة المسيحية الشرقية، خاصة منذ هزيمة بيزنطة في مواجهة الأتراك في مانزكرت (١٠٧١). وروما، أم الكنيسة، عليها واجب مساعدة إحدى بناتها، القسطنطينية، المهددة بغزو من جانب الوثنيين. ويعبر البابا جريجوريوس السابع للبازيليوس ميخائيل السابع دوكاس في عام ١٠٧٤ عن رغبته في أن يقود بنفسه حملة عسكرية لمساعدة القسطنطينية، قبل أن يقوم بزيارة القبر المقدس. وهذه العناية بالإمبراطورية البيزنطية إنما تعتمد على ذكرى قسطنطين، مؤسس المدينة الإمبراطورية؛

فعن طريق وثيقة الهبة التي أصدرها، اعترَفَ بالصلاحيات البابوية في ذات الوقت الذي أرسل فيه إلى أسقف روما الآثار العظيمة، ومن بينها قطعة من الصليب الحقيقي [الذي صُلب عليه المسيح]. كما يعبر جريجوريوس السابع عن اهتمامه بأن يمد إلى ربوع الشرق النظام والسلم الذي تسعى البابوية إلى إقامته في الغرب. وأخيراً، يوضح الحبر الأعظم عبر مرسوم صادر في عام ١٠٨٠ ممارسة التكفير التي تعني توبةً كاملةً للخاطئ. ولا يفعل أوربان الثاني شيئاً سوى استعادة تراث جريجوريوس: فالحملة الصليبية، بالنسبة للبابا، إنما تهدف إلى كل من تحرير الشرق من الكفار وتحرير نفوس الصليبيين من الخطيئة.

كما أن العقود السابقة لمجمع كليرمون قد تميزت بتطور حاسم لموقف الكنيسة حيال الفرسان واستخدام العنف. ومنذ بابوية ليون التاسع (١٠٤٩-١٠٥٤)، نشهد ظهور الفكرة التي تذهب إلى أن من مهام العلمانيين المحاربة من أجل حماية الكنيسة. وفي علم ١٠٦٣، يقدم البابا الكسندر الثالث أول غفران معروف إلى المحاربين الخارجين للقتال من أجل الاسترداد المسيحي في إسبانيا. وبمنحهم أيضاً حق رفع راية القديس بطرس، يبدو البابا وكأنه يوافق رسمياً على مشروع عسكري. ومع جريجوريوس السابع، يتقدم تبرير استخدام العنف لحماية الكنيسة. والحال أن أنسيلم من لوكّا، في مصنّفه *Collectio canonum* [المجموعة القانونية] (١٠٨٣)، يجمع فقرات القديس أوغسطين، التي كانت حتى ذلك الحين قليلة الاستخدام، لتبرير الحرب التي وافق الرب نفسه عليها وأوصى بها. وقد رأينا كيف أن تكوين قوة فرسان القديس بطرس يعلن استخدام القوة العسكرية من جانب البابوية من أجل أهداف تخصها، وهي الحرب ضد أعداء الكنيسة في داخل كما في خارج الجماعة المسيحية. وكان يكفي للبابا، بوصفه نائباً للمسيح، إجراء تحويل للخدمة العسكرية من تراث القديس بطرس إلى تراث المسيح، وتوجيه استخدام السلاح إلى مسرح حرب شرقية وإلى القدس حتى يعتبر الفرسان أنفسهم " في خدمة المسيح ". ويرى ج.فلوري في تطور ذهنية الفرسان، الموضوعة بذكاء في خدمة الكنيسة، أحد الأصول الرئيسية للحملة الصليبية.

١-٢-٠ بدايات بابوية أوربان الثاني

حتى قبل مجمع كليرمون، كان أوربان الثاني قد أقام صلة بين الحج التكفيري والنضال ضد المسلمين. وفي عام ١٠٨٩، في الواقع، كما أشار إلى ذلك كارل إردمان، سوف نجد

أن البابا الذي كان يريد ترميم أسقفية تارّاجونا الكبرى، لكي يجعل منـــها موقعاً أمامياً للنضال ضد المسلمين، يطلب إلى أولئك الذين يريدون زيارة القدس، في روح من التقــوى والتكفير، أن يكرسوا المال المجموع لحجهم من أجل إعادة بناء كنيسة تارّاجونا؛ وهو يقــدم إليهم عين الغفران الذي كان يمكن لهم الحصول عليــه لرحلتــهم التقويــة إلــى الأمــاكن المقدسة. ولأول مرة، يجري ربط مفهوم الحج بمشروع نضال ضد المســلمين، والوعــد بغفران للحرب ضد الكفار. وإذا كان النداء من أجل تارّاجونا قد لقي نجاحاً نســبياً، فمــن الممكن الأمل في نجاح أكبر من خلال تحويل الجمع بين الحرب ضــد الكفــار وثــواب روحي إلى الشرق المسيحي، الذي يشكل الهدف الرئيسي للحج، وهــذا هــو كــل معنــى الدعــوة البابوية في كليرمون.

وفي الأشهر السابقة على رحلته في فرنسا، يعقد أوربان الثــاني مجمعــاً مُــهماً فــي بليزانس (مارس/ اذار ١٠٩٥)، حيث يشارك عــدة أســاقفة إيطــاليين، وكذلــك ألمــان وفرنسيين. والواقع أن البابا يسعى إلى استعادة وحدة الجماعة المسيحية، التــي تزعزعــت من جراء هزات الإصلاح واثار النزاع على تعيين الأساقفة. وتشير قرارات المجمع التــي وصلت إلينا إلى الاهتمام الخاص الموجه إلى السيمونية [المتــاجرة بــالرتب الكهنوتيــة] ورسامات الكهنة الممنوحة من جانب الإمبراطور أو البابــا المضــاد كليمــانس الثــالث ورسامة الكهنة، إلاّ أنه يبدو أيضاً أن اباء المجمع قد استقبلوا سفارة من أليكســيوس الأول كومنينوس. وقد اقترحت هذه السفارة على البابا استئناف المفاوضات من أجل إعادة توحيــد الكنائس وطلبت دعمه لإرسال مرتزقة إلى الشرق، بموجب الأعــراف القديمــة الخاصــة بالتجنيد في الجيوش البيزنطية. إلاّ أنه لم يدر حديث عن منح أي غفران إلــى المحــاربين المتطوعين أو استرداد الأماكن المقدسة. فكل ما جرى التفكــير فيــه هــو القيــام بحملــة عسكرية لتقديم العون إلى القسطنطينية.

وبعد ذلك بخمسة أشهر (أغسطس/ اب ١٠٩٥)، قام أوربان الثاني برحلته في فرنســا، والتي سوف تقوده إلى كليرمون.

٢٠ نداء كليرمون (٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥)

٢-١٠ الرحلة البابوية

قام أ.بيكر بإعادة تركيب معالم الرحلة البابوية في فرنسا. والحــال أن أود الشــاتيّوني، أسقف أوستيا [في إيطاليا]، والذي ينحدر من عائلة من عائلات النبلاء في شــامبانيا، كــان

راهباً في كلوني من عام ١٠٧٣ إلى عام ١٠٧٧، قبل أن تدعوه الكورية البابوية [المجلس البابوي] لانتخابه كبابا في مارس/ آذار ١٠٨٨ باسم أوربان الثاني. وهدفه الرئيسي هو التطبيق الكامل لبرنامج الإصلاح الكنسي الذي حدده أسلافه، وخاصة جريجوريوس السابع: شجب السيمونية والنقولاوية [عدم التزام القساوسة بقاعدة العزوبة]، وتخليص الأديرة من كل سلطة علمانية، والنضال ضد الإمبراطور الجرماني هنريخ الرابع والبابا المضاد كليمانس الثالث، الذي جرى تنصيبه في روما. واعتباراً من أغسطس/ آب ١٠٩٥، يتواجد أوربان الثاني في فرنسا؛ وقد جاء إليها مصحوباً بعشرة كاردينالات ومستشاره وأساقفة ورؤساء أديرة وأديرة رئيسية ورهبان يرافقونه في كل جولته أو في جزء منها. وتمر هذه الجولة بالكنائس الكلونياوية، ولا تمس غير فرنسا الإقطاعية في الجنوب، لأن البابا يتحاشى بأي ثمن كل الزمام الملكي، بالنظر إلى حرمان ملك فرنسا فيليب الأول، المتهم بارتباط غير شرعي مع برتراد دو مونفور. والحال أن فوشيه الشارتري، الذي حضر مجمع كليرمون، إنما يوجز دوافع الرحلة: تعزيز الإصلاح الكنسي وإصلاح المجتمع العلماني وتعزيز تشريع سلم وهدنة الرب والممارسة المكثفة للصلاحيات البابوية وتسوية مسألة ملك فرنسا وأخيراً تقديم مساعدة عسكرية إلى الشرق المسيحي، في إطار الاسترداد المسيحي. ويمكث البابا في فرنسا سنة بكاملها (أغسطس/ آب ١٠٩٥- أغسطس/ اب ١٠٩٦)، ويعقد مجمعين اخرين في تور وفي نيم ويحيي على نحو مهيب كبرى الأعياد الدينية في عدد من المراكز المهمة (ليموج، تور، ليون، بوردو)، ويكرس عدة كنائس وينجح في توحيد الكنيسة والمجتمع العلماني حول شخصه. لكن اللحظة الأهم في الرحلة تظل لحظة مجمع كليرمون، وهي مدينة يقع عليها الاختيار دون شك بسبب موقعها الجغرافي المركزي في فرنسا الجنوبية التي زارها الحبر الأعظم.

٢-٢. مجمع كليرمون (من ٢٤ إلى٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني١٠٩٥)

سوف يكون من الوهم تصور أن أوربان الثاني، بعقده مجمعاً في أوفرنيا، كان هدفه الرئيسي هو الاستجابة لنداء البازيليوس. وليس مجمع كليرمون بتتمة منطقية لمجمع بليزانس، بل هو مجمع انضباطي حيث لم تحتل مشكلات الشرق غير مكانة ثانوية. فالقرارات الرئيسية التي وصلت إلينا تتعلق بامتيازات الكنيسة وحرمة الكنائس والأديرة والنضال ضد السيمونية والنقولاوية ومراعاة سلم وهدنة الرب. ويتعلق الأمر أساساً باستعادة سلطة بابوية روما على كنائس مملكة فرنسا. وفي اليوم الأخير فقط للمجمع،

يعبر البابا أمام جمهور واسع -نبلاء وشعب أوفرنيا أساساً- محتشد أمام الكاتدرائية، عن اهتمامه بالملمات التي تحيق بمسيحيي الشرق ويحث المؤمنين بالمسيح على حمل السلاح لمساعدتهم ولتحرير القبر المقدس.

ومع أننا لا نحوز أي نص أصلي للخطاب البابوي، بل إعادات كتابة لاحقة للحدث بعدة أعوام، وتتماشى إجمالاً مع ثلاث رسائل وجهها البابا شخصياً إلى الفلمنكيين والبولونيين والجنويين، إلاّ أن بالامكان إعادة تركيب التيمات الرئيسية للدعوة البابوية. فالخطاب يتحدث أولاً عن مكابدات مسيحيي الشرق، ضحايا الغزو التركماني. ويجب أن نفهم أن هؤلاء المسيحيين هم رعايا الإمبراطورية البيزنطية، لأن المسيحيين الشرقيين في سوريا – فلسطين قد استفادوا تحت السيطرة الإسلامية من تسامح لم يكن مهدّداً في القرن الحادي عشر. ووحدهم يونانيو وأرمن الأناضول هم الذين كان من الممكن أن يعانوا من اثار اجتياح الأتراك السلاجقة، وأن يُطردوا من أراضيهم ويُضطروا إلى البحث عن ملاذ في القسطنطينية. إلاّ أن مما لاشك فيه أن الناس في الغرب قد بالغوا في تقدير اتساع هذه الهزات.

وطبيعي أن التيمة الثانية تنبثق من التيمة الأولى. وهي في نظر البابا وجوب خروج المسيحيين لتقديم العون إلى اخوتهم في الشرق وتحرير القدس، لإعادة ملكوت المسيح إليها. والحال أن فوشيه الشارتري وحده هو الذي لا يأتي على ذكر تيمة تحرير القبر المقدس، ربما لأنه يمجد أفعال بودوان دو بولونيا الذي، وقد استقر في الرُها، لم يشارك في الاستيلاء على القدس. وبالنسبة لمدوني الأخبار الآخرين، في المقابل، يعد تحرير المدينة المقدسة تيمة رئيسية: إن الحرب الصليبية، "Via Dei " [طريق الرب]، هي حرب عادلة من أجل تحرير الكنائس الشرقية، خاصة كنيسة القدس، من اضطهاد المسلمين لها. لكن المسألة ليست مسألة صراع بين الجماعة المسيحية والإسلام، كما ما يزال يشير إلى اليوم كثيرون من المجادلين. فالشيء المهم الوحيد هو تركة المسيح الشرعية، امتلاك المسيحيين للمدينة التي كابد فيها الامه. وبالنسبة للبابا، تعد الحملة الصليبية في الشرق جزءً من حركة أوسع للتحرر المسيحي يشكل الاسترداد المسيحي في إسبانيا تجلياً آخراً لها.

لكن الحملة التي جرت الدعوة إليها في عام ١٠٩٥ إنما تتميز عن هذا الاسترداد الأخير بقدر ما أن أوربان الثاني يدعو إليها كحج إلى القدس. وهو بهذا يتخلى عن السيطرة على تجنيدها، لأن الفقراء والشيوخ والنساء لهم الحق في نشدان الحصول على

خلاصهم، بأخذ طريق القبر المقدس، شأنهم في ذلك شأن النبلاء المحاربين الذين يتوجه إليهم النداء تخصيصاً. ويُدخل البابا عهد الحملة الصليبية الذي، إن لم يجر احترامه، يستتبع حرمان المتخلف عن الوفاء بهذا العهد. وهو يوصي بتناول الصليب، الذي يعد تيمة جد قوية للاخلاص المعاصر. ويقترح خاصةً الحملة الصليبية كوسيلة للخلاص، للتكفير الجديد بالتقدير والثابت، والذي يرتهن به رفع العقوبات الزمنية التي يتعرض لها الخاطئ التائب. وتكمن الجدة في منح الغفران الكامل لأولئك الذين يخرجون إلى القدس، كمحاربين بأكثر مما كحجاج دون شك. وتشير مفردات مواثيق الحملة الصليبية التي عقدها المشاركون إلى الجاذبية غير العادية التي كانت للعرض البابوي لدى الخاطئين القلقين على خلاصهم، والصدى الهائل لنداء كليرمون على مجمل المجتمع الغربي. إن جمهور كليرمون يستجيب متحمساً: "إنها إرادة الرب!". وعندئذ يقرر أوربان الثاني للمتطوعين أن يتناولوا صليباً، كعلامة على التزامهم.

٣ ، نشر النداء البابوي

يعتمد نجاح المبادرة البابوية اعتماداً خاصاً على اتساع الذيوع المقرر له وعلى التيمات التي يتناولها الدعاة وعلى الاستجابة التي يقدمها العلمانيون لنداء البابوية. ويضطلع أوربان الثاني شخصياً برحلة طويلة في غربي وجنوبي فرنسا؛ ويواصل الدعوة أساقفةٌ ورهبانٌ ونساك.

٣-١ ، رحلة البابا في فرنسا

فور اختتام مجمع كليرمون، يضطلع البابا بجولة في فرنسا، حريصاً على تجنب الزمام الملكي، حيث كان فيليب الأول تحت طائلة حرمان كنسي. والمسألة بالنسبة للبابا هي نشر النداء الداعي إلى الحملة الصليبية، لكنها أيضاً مسألة تعميم الإصلاح الكنسي ومد سلطة البابوية لتشمل الكنائس المحلية. وهو يصدر قرارات لصالح الأديرة ويمنح امتيازات وتثبيتات، ويكرس هياكل وكنائس. والشهادات عن زياراته إلى ليموج وآنجيه وسومور ولومان وتور وبواتييه تؤكد مغزى رسالته: فهو يشير إلى أشكال الاضطهاد التي يكابدها مسيحيو الشرق ويحث مستمعيه على الذهاب إلى القدس سعياً، كما يقول كونت آنجو، فولك لو ريشان، إلى طرد الوثنيين الذين احتلوا المدينة المقدسة ومجمل الأرض المسيحية حتى مشارف القسطنطينية. والحال أن الرسائل التي يوجهها أوربان الثاني إلى الفلمنكيين

والبولونيين والجنويين، وإلى مدن أخرى دون شك، إنما تسير في الاتجاه نفسه. وتحتل القدس والأماكن المقدسة بؤرة الدعوة البابوية.

٣-٢، الدعوة الشعبية

هل كانت القدس والأماكن المقدسة أيضاً في بؤرة مواعظ الأساقفة والرهبان والدعاة الشعبيين الذين يبدو أنهم سرعان ما واصلوا الكلام البابوي؟ الحق إننا نجهل المحتوى الحقيقي لهذه الدعوات. إلاّ أن بوسعنا افتراض أن التيمات الرئيسية التي عبّر عنها أوربان الثاني قد جرت استعادتها، ليس دون قدر معين من التحوير وحرية نبرة خاصة بكل داعية.

وبين هؤلاء الدعاة، تبرز شخصية بطرس الناسك، الذي وجد مؤخراً رد اعتبار لدوره المحرك في الحملة الصليبية (ج.فلوري). والواقع أنه الداعية الوحيد، باستثناء أوربان الثاني، الذي تذكره في فرنسا مصادر الحملة الصليبية الأولى. ويذهب مدونو الأخبار الفرنسيون-الكاتب المجهول لكتاب *Gesta Francorum* [مآثر الفرنج] وريمون الأجيليري وروبير الرانسي وجيبير النوجاني [ولد في كليرمون، واز، في عام ١٠٥٣ ومات في نوجان- سور- كوسي، نحو عام ١١٢٤. أسقف نوتردام دو نوجان -سور- كوسي. مؤلف تاريخ للحملات الصليبية: *Gesta Dei per Francos* (مآثر الرب من خلال الفرنج) وسيرة ذاتية: *De Vita sua* (عن حياتي)] ــ إلى أنه ولد قرب اميان وصار ناسكاً؛ وتقترب دعوته من دعوة روبير داربريسيل [راهب بريتوني، ولد في أربريسيل نحو عام ١٠٤٥ ومات في أورسان بيري في عام ١١١٦. عالم لاهوت مسيحي في باريس ثم ناسك في غابة كراون. عيّنه أوربان الثاني داعية رسوليًا، ودعا في أنجو إلى الحملة الصليبية وحث غير القادرين على المشاركة في الحملة على أن يحيوا حياة رهبانية]، أو دعوة برنار التيروني التي تمجد التكفير والفقر. وبحسب حكايات فلمنكية ورينانية، أعاد روايتها ألبير ديكس ووليم الصوري وأنشودة أنطاكية وأنّا كومنينا، يقال إنه كان في حج إلى القدس في عام ١٠٩٥ وإنه، بعد أن رأى رؤيا للمسيح في كنيسة القبر المقدس، عاد إلى الغرب، حاملاً لرسالة سماوية توصي الجماعة المسيحية بنجدة كنيسة الشرق. ويقال إنه قد بادر بالدعوة إلى الحج إلى الأماكن المقدسة بعد أن قابل البابا في الأشهر السابقة على مجمع كليرمون.

فهل هو داعية إلى الحملة الصليبية أم مبادر بها ؟ لقد جرى استئناف المناقشة حول هذا الموضوع مؤخراً. والحق إن بطرس لا يظهر في المصادر إلاّ في عام ١٠٩٦. ومن غير المعروف بأية صفة جرى تكليفه بالدعوة إلى الحملة الصليبية ولماذا يجسد العناصر الكاريزمية للحركة. إعتماداً على علامات وآيات ـ سقوط النيازك، خسوف القمر، الجفاف المدمر للمحاصيل الزراعية ـ وملوحاً بالرسالة التي زعم أن الرب كلّفه بها، يأخذ في الدعوة، ربما حتى قبل مجمع كليرمون، ببلاغة مؤثرة، في البيري أولاً (ديسمبر/ كانون الأول ١٠٩٥)، ثم في الزمام الملكي لآل كابيه، في ايتامب وفي بواسي؛ وهو ينتقل إلى تريف ويصل إلى كولونيا في أبريل/ نيسان ١٠٩٦. وإذ يجر خلفه في حماسة صوفية كبرى حشوداً مهمة، يجمع لورينيين وشوابيين وبافاريين ويأخذ طريق القسطنطينية مع زهاء ٢٠٠٠٠ انسان، من عامة الشعب الذين يقودهم عدد قليل من الفرسان.

فما هي الحجج التي كان بوسع هؤلاء الدعاة المتجولين استخدامها ؟ إنهم، باعتمادهم على العلامات الفلكية التي تؤيد رسالتهم، سوف يستعيدون التيمات البابوية بتحويرها. فهم يقولون إن مسيحيي الشرق يتعرضون للاضطهاد من جانب الترك، وإن الحجاج الذين يزورون القبر المقدس يكابدون أسوأ المهانات. ومن ثم يتوجب على مسيحيي الغرب إثبات الإحسان الأخوي والمسارعة إلى نجدة كنائس الشرق. والمسيح، الذي تعرضت كرامته للمهانة، إنما يطلب من كل فرد المشاركة في استرداد تركته. وهو سوف يمنح ثواباً لأولئك الذين يساعدونه، وذلك بمحوه لخطاياهم. وسوف تكون تلك المعارك هي المعارك الأخيرة التي تعلن نهاية العالم والتي يجب لكل فرد الاستعداد لها بالتكفير وبالقتال في سبيل الرب. فهل استفاد الدعاة من مناخ ترقب الآخرة هذا لدفع المسيحيين إلى الثأر من الكفار، خاصة اليهود، المعتبرين مسئولين عن موت المسيح؟ من المرجح أن العنصر العلماني والشعبي في الحركة الصليبية لم يقاوم اندفاع معاداة اليهودية، وذلك بالنظر إلى أن تحول اليهود إلى الإيمان بالمسيحية كان يعتبر ضرورة قبل مجيء نهاية الزمان.

٣-٠٣ عمل الرهبان

خارج الكهنة غير القانونيين، هل أثّرَ كهنة آخرون على قرارات الرحيل ؟ إذا صدقنا مواثيق الهبات المقدمة لصالح المؤسسات الديرية، فإنه يبدو أن الرهبان قد لعبوا دوراً غير تافه في تجنيد الصليبيين وفي تشكيل أيديولوجية الحركة الصليبية.

وهذه النصوص، التي درسها بل في إطار ليموزان وجاسكونيا، إنما تشير إلى تأثير الرهبان والكهنة القانونيين العميق على تقوى النبلاء والفرسان، الذين لم يكن لكهنة الرعية الأدنى درجة من نفوذ عليهم. وعلى سبيل المثال، سوف نجد أن أساقفة سان مارسيال دو ليموج وتيل وايزرش، يحثون أفراد الأرستقراطية في جوارهم على الخروج [إلى القدس]. ودعوتهم إلى الحملة الصليبية تمد جذورها في منظومة قيم، تدعم معايير الإخلاص المقرر: الخوف من الجحيم والطموح إلى الخلاص، حس الخطيئة واحترام الانضباط التكفيري للكنيسة، الطاعة والفقر والزهد، تلك هي القيم التي تبرزها مواثيق الهبات، والتي من الواضح أنها تعد تعبيراً عن الأيديولوجية الديرية وإن كانت تستوعب العلمانيين الذين تستمد تقواهم وحيها من مجتمعات رجال الدين. ومن ثم فإن هذه المجتمعات تشدِّدُ على الجانب التكفيري للحملة الصليبية بأكثر من تشديدها على مشروع الحرب المقدسة، إلاّ أنه سوف يكون من الضروري إجراء دراسات إقليمية حتى يتوافر تقييم أفضل لتأثير رجال الدين القانونيين على الأرستقراطيات المحلية وتقواها وبواعث رحيلها [إلى القدس].

٤ • ايديولوجية الحركة الصليبية

كيف يمكننا انطلاقاً من هذه الشهادات جد المتباينة، كالرسائل البابوية ومدونات الأخبار ومواثيق الهبات أو رهن الممتلكات العقارية، أن نعرِّفَ دون قدر كبير من الخطأ ما كان عليه الفكر البابوي في عام ١٠٩٥ وبواعث الصليبيين؟ وهل صيغت فكرة الحملة الصليبية منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥، عندما اجتهد البابا في تنظيم الحملة ؟ أم أنها تبلورت فيما بعد، غداة الاستيلاء على القدس ؟

فيما عدا فوشيه الشارتري، يؤكد الشهود الثلاثة الآخرون لمجمع كليرمون على تيمة تحرير القدس والأماكن المقدسة من خلال مشروع حربي يُعْهَدُ به إلى الفرسان الغربيين، الذين توجه إليهم أوربان الثاني في المقام الأول. وفي الطريق، سوف يسهم محاربو الغرب في مساعدة الإمبراطور البيزنطي، ألكسيوس الأول كومنينوس، على استرداد أراضي الإمبراطورية التي احتلها الترك مؤخراً.

لكن التشديد بهذا الشكل على القدس، ألا يعني تحويل حملة عسكرية إلى حج تكفيري، كما يبدو أن الكثير من مواثيق الهبات تشير إلى ذلك؟ يبدو أن البابا، بتوجيهه الفرسان الغربيين إلى القبر المقدس، قد أراد بذلك أن يتيح للعلمانيين فرصة ممتازة للتكفير عن خطاياهم من خلال فعل تكفير بطولي، بوسعه أن يعود عليهم بإكليل الشهادة. ولا مراء في

أنه لا طائل، كما يشير إلى ذلك جان فلوري، من التساؤل عما كان غالباً في الفكر البابوي: الاسترداد المسيحي أم الحج إلى الأماكن المقدسة. إن التدخل في الشرق قد يكون فرصة للبابوية لكي تستعيد وحدة الجماعة المسيحية تحت سيطرتها. واتحاد هاتين التيمتين يكفل نجاح الدعوة ويفسر تجنيداً ضخماً لاشك في أن أوربان الثاني لم يتخيله.

لكن تعريف الحملة الصليبية قد عرف تطورات أخرى، وذلك بالنظر إلى الخبرة المكتسبة وإلى المكابدات المختبرة على طول الطريق. وقد أشار جي لوبريكون بحق إلى مرحلتين لإعادة كتابة التاريخ من جانب مدوني الأخبار خلال الفترة الممتدة من عام ١٠٩٩ إلى عام ١١٢٢. فالأوائل -الكاتب المجهول لكتاب مآثر الفرنج وريمون الإجيليري وبيير تيدبود- الذين شاركوا في الحملة، قد تقاسموا مع القراء المشاعر التي خبرها المشاركون. فالحملة تجربة محاكاة ليسوع المسيح في ملمات إحيائية وأداة لخلاص الجماعة المسيحية. وفتح القدس يدشن انتهاء التاريخ، ومجيء الحساب الأخير الذي تحدث عنه سفر الرؤيا والنبوءات.

لكن التاريخ، بعد الاستيلاء على القدس، يواصل مجراه. والجيل الجديد من مدوني الأخبار، من فوشيه الشارتري إلى جيبير النوجاني، يستعيد ذكرى أسلافه الحية ويحولها لكي يقدم رواية رسمية، مجردة من المشاعر المتأججة والاندفاعات المنفلتة. وهم يردون المبادرة إلى البابوية ويعتبرون الحرب من عمل العلمانيين. ويردون الاعتبار إلى الفقراء، مثل بطرس الناسك، الذي أشاد به ألبير ديكس. ويلونون الحملة الصليبية بأخلاق جديدة هي أخلاق حرب فروسيةٍ ومهذبةٍ، بعيداً عن الاندفاعات المنفلتة لجماهير تتعذر السيطرة عليها. وهم يبرزون فكرة حملة صليبية تكفيرية، لم تعد القدس الدنيوية غايتها بالضرورة. فالشيء الجوهري منذ ذلك الحين، كما يشير إلى ذلك سان برنار بعد وقت قليل، هو السير على طريق التكفير. وهكذا فقد شقت أيديولوجية الحركة الصليبية الكثير من السبل، من نداء كليرمون إلى العقود الأولى للقرن الثاني عشر.

٠٥ واقع الحركة الصليبية: عهد وامتيازات الصليبي

يبقى مع ذلك أن البابا أوربان الثاني، منذ ١٠٩٥، حين أضفى طابعاً عسكرياً على الحج ومَنَحَهُ تكريس الكنيسة، قد عَرّف ما سوف تكون عليه الحملة الصليبية، على الأقل خلال قرنين: إنها حجٌ مُسلَّحٌ، هدفه تحرير القبر المقدس في القدس. وبما أن الحملة الصليبية يجري تدشينها بمبادرة بابوية، فإنها توضع تحت سلطة الكنيسة، ممثلة في

شخص نائب بابوي. والمشاركون في الحملة يعبرون عن التزامهم عن طريق عهد أمام الرب ويتعارفون فيما بينهم من خلال علامات خارجية معينة، كحمل الصليب، ويستفيدون من امتيازات روحية ومادية تكفلها الكنيسة.

والواقع أن أوربان الثاني، مع أنه قد فكر في أن يتولى قيادة الحملة شخصياً، قد تخلى عن ذلك لصالح نائب بابوي، هو آديمار دو مونتيل، أسقف بوي، الذي كان قد صحب البابا خلال جولته في جنوبي فرنسا وكان أول من قدّم هذا العهد، بين يدي البابا، بالذهاب إلى الشرق. وهذا الأسقف، الذي هو في الوقت نفسه سيد زمني، إنما يشارك في مجلس البارونات ويكفل التأطير الديني للجيش. ولذا يعد اختفاؤه في أول أغسطس/ آب ١٠٩٨ في أنطاكية صادماً جداً؛ وهو يفسر جزئياً ترددات قادة الحملة حيال المصير التالي للفتوحات، بعد الاستيلاء على القدس في ١٥ يوليو/ تموز ١٠٩٩. وخلال الحملات الصليبية التالية، لن يتخلف النائب البابوي عن إبداء السلطة التي فوضها إليه الحبر الأعظم خلال شن الحملة. وتلك كانت بوجه خاص حالة النائب البابوي بيلاجيوس الذي أدى رفضه التفاوض مع السلطان الكامل إلى جر الحملة الصليبية الخامسة إلى الكارثة.

وشأن أي حاج يزور مكاناً مقدساً، كان الصليبيون يقدمون منذ عام ١٠٩٥ عهداً أمام الرب بالذهاب إلى القبر المقدس وبالقيام بالرحلة في صفوف حملة عامة إلى الأرض المقدسة، أي في صفوف حملة صليبية منظمة. وهذا العهد، المقدّم بحرية وبمهابة، إنما يستتبع سلسلة من الالتزامات ويتيح عدداً من الامتيازات ويوفر لشخص الصليبي وضعية قانونية جديدة. ثم إن العهد مصحوب بطقس احتفالي رمزي، هو تناول الصليب، وهذا الإجراء الذي كان لوقت طويل غير رسمي كان المشاركون في الحملة الصليبية يكتفون خلاله بخياطة صليب على ملابسهم، إنما يتحول في أواخر القرن الثاني عشر إلى طقس احتفالي مقنن: فيحصل الصليبي عندئذ على علامة عهده، وهي العصا كثيرة العقد (البوردون) والخُرج، وهي علامات تقليدية للحاج، يباركها قس أبرشيته.

وعهد الحملة الصليبية يملي على من يقدمه التزاماً إجبارياً لا يمكن أن يُعفى منه إلاّ بقرار من السلطة الرسولية؛ ويتعين عليه أن يتم رحلته إلى القدس؛ فإن لم يفعل ذلك تعرض للحرمان الكنسي. كما يجب عليه أن يقدم براهين على الوفاء بالعهد؛ وفي القرن الثاني عشر، تتمثل العادة في جلب سعفات نخيل من مكان معين، قرب أريحا، هو "بستان ابراهام"؛ ولهذا السبب، يسمى الصليبي أيضاً بـ " السعفي". وبما أن هذه الممارسة يمكن أن تكون محل تلاعب، فقد أمر البابا اينوشنتيوس الثالث في ديسمبر/ كانون الأول

١١٩٩، بإبراز رسائل ممهورة من السلطات العلمانية أو الكنسية لمملكة القدس تشهد على الوفاء بالتزامات الحملة الصليبية.

على أن المذهب القانوني الخاص بعهد الحملة الصليبية، والذي صيغ ببطء انطلاقاً من مرسوم جراشيانوس (١١٤٠) ومن مجموعات من الفتاوى البابوية، يسمح بإعفاءٍ أو بتخفيفٍ للالتزامات المترتبة على العهد. ويمكن منح الإعفاء لقاصرٍ أو بسبب المرض والشيخوخة والفقر أو ضرورة عمومية. وتسيطر البابوية على امتياز تخفيف أعباء عهد الحملة الصليبية؛ وهذا التخفيف الذي كان نادراً في القرن الثاني عشر، إنما يجري منحه على نطاق واسع جداً منذ بابوية اينوشنتيوس الثالث (١١٩٨-١٢١٦). إذ يجري السماح باستبدال شخص بآخر أو بالمشاركة في حملة صليبية في مكان آخر غير فلسطين أو بتحويل العهد إلى عمل خيري أو بمجرد دفع مبلغ من المال للدفاع عن الأرض المقدسة. ومنذ أربعينيات القرن الثالث عشر، يصبح بيع الإعفاءات ممارسة شائعة، وتصبح الحملة الصليبية وسيلة للحصول على دخول تستخدمها البابوية ضد أعدائها كما ضد الهراطقة أو وثنيي ليفونيا. وفي اللحظة التي يطور فيها هوستينسيز في كتابه *Somma aurea* [الخلاصة الذهبية]، المكتوب بين عامي ١٢٥٠ و١٢٥٣، المذهب القانوني حول عهد الحملة الصليبية من جميع جوانبه، كان هذا العهد قد فقد طابعه الإجباري بحيث لم يعد غير حيلة مالية، استخدمتها بابوية أفينيون في القرن الرابع عشر خاصة على نطاق واسع.

وكان مقابل عهد الحملة الصليبية يتمثل في مجموعة من الامتيازات الروحية والمادية التي تكفلها الكنيسة. والواقع أن الكنيسة، باسم الفوائد التي يعود بها عمل الصليبيين على مجمل الجماعة المسيحية، إنما تهتم منذ الحملة الصليبية الأولى بتحديد الامتيازات التي تكفلها لجميع أولئك الذين يأخذون طريق القدس. فبوصفهم حجاجاً، يتمتع الصليبيون بالامتيازات العادية الممنوحة لجميع أولئك الذين يخرجون لتكريم آثار القديسين بعيداً: الحماية من كل هجوم شخصي والمساعدة على استرداد الممتلكات المسلوبة خلال غيابهم والإيقاف المؤقت للتدابير القضائية. إلاّ أنه علاوة على ذلك تظهر منذ بابوية أوربان الثاني مجموعة كاملة من الامتيازات الخاصة الروحية والمادية في آن واحد، وهي امتيازات لا تكف القرارات البابوية وقوانين المجامع الكنسية عن توسيعها، سعياً إلى إضفاء مزيد من الجاذبية على الخروج إلى الأرض المقدسة.

ويجري النظر إلى الامتيازات الروحية على أنها مهمة. ومنذ عام ١٠٦٣، يعد البابا الكسندر الثالث جميع المشاركين في حملة ضد مسلمي إسبانيا بمحو العقوبات المترتبة

على خطاياهم. ويبدو أن هذا هو ما قدمه أيضاً أوربان الثاني، في اليوم الأخير لمجمع كليرمون؛ وقد استعيدت هذه الفكرة خلال مجمع لاتران الأول (١١٢٣) وجرى التعبير عنها في قرار البابا أوجينيوس الثالث الصادر بتاريخ الأول من ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٥. وهكذا تمنح البابوية للصليبيين أتم عفو ممكن عن عواقب خطاياهم. لكن دعاة الحملة الصليبية والمشاركين أنفسهم، قليلي العلم بلاهوت الاعتراف، سوف يفهمون بشكل واسع جداً امتيازات الصليبي الروحية، على شكل غفران تحققه الحملة الصليبية، ينطوي على عفو تام عن الخطايا ومغفرة ومحو لجميع الذنوب الماضية، بحيث يتسنى للصليبي الذي يموت على الطريق أن يدخل الفردوس دون تأخير.

ومن ثم فهناك توسيع لمعنى الغفران، وذلك تلبيةً لطموحات المؤمنين الروحية ولضرورات الحملة الصليبية؛ وهكذا يرتبط تناول الصليب بثواب. والحال أن نظرية الغفران الذي تحققه الحملة الصليبية إنما تصاغ فيما بعد من جانب علماء اللاهوت؛ وهي تنطوي على شرح مذهب كنز الاستحقاقات في الكنيسة، وهو كنز يحرسه البابا ويوزع خيراته؛ ويرجع إلى هيج دو سان فيكتور تفصيل النظرية في ثلاثينيات القرن الثالث عشر. وفي ذلك الوقت، يمتد الغفران الذي تحققه الحملة الصليبية ليشمل بالفعل جميع أولئك الذين يساعدون على تنظيم وتمويل الحملة، دون أن يشاركوا فيها شخصياً بالضرورة. وفي القرن الثالث عشر، سنجد أن زوجات الصليبيين والدعاة والمستوطنين الذين يستقرون وراء البحار وطالبي الإعانات والمبشرين يمكنهم هم أيضاً الاستفادة من الغفران الذي تحققه الحملة الصليبية. وفي توسيع عدد المستفيدين، تجعل البابوية من المذهب أداة مريحة لجمع أموال موجهة إلى خدمة سياستها الخاصة في الغرب بأكثر مما هي موجهة إلى الأرض المقدسة. وأخيراً فإن عهد الحملة الصليبية يعفي من يقدمه من أي حرمان كنسي كما يعفيه من المنع الكنسي ويجعله مستفيداً من الصلوات والقداسات المكرسة لخلاص الأرض المقدسة ولخلاص أولئك الذين يقاتلون في سبيل القدس.

وعند الرحيل، يواجه الصليبي عدداً كبيراً من المشكلات العملية المتصلة بأسرته وممتلكاته وشخصه. ولذا فسوف تحدد الكنيسة عدداً معيناً من المزايا الزمنية [الدنيوية] وتمنح الصليبي وضعاً قانونياً في مجتمع العصر الوسيط. وشأن كل حاج، يستفيد الصليبي من حماية شخصية، يكفلها الأساقفة في حدود أسقفياتهم وتعززها تدابير تتخذها الحكومات. وهذه الحماية تشمل أسر وممتلكات الصليبي، والتي يُعهد برعايتها إلى الهيراركية الكنسية. ثم إن "السعفي"، إذ يقدم عهداً، إنما يحاكَمُ ليس أمام المحاكم المدنية،

بل من جانب القضاء الكنسي. ويمكنه تأجيل دعوى لصالحه أو ضده، أو، على العكس، الحصول على حكم أسرع.

وبما أن الصليبي يحتاج إلى مبالغ مهمة لأجل الرحلة، فإن بوسعه التصرف في ممتلكاته أو رهنها؛ وتنتج عن ذلك تحولات عميقة في الملكية العقارية، تفيد المؤسسات الدينية على حساب العائلات الإقطاعية. وفي عام ١٢٠٨، يجري السماح للكهنة برهن انتفاعاتهم لمدة ثلاث سنوات، وذلك بهدف المشاركة في الحملة الصليبية ضد الآلبيجيين؛ بل يمكنهم استخدام ما يصل إلى عُشْرين من الدخول الكنسية لتمويل الحملة الصليبية. ومادامت الحملة قائمة، فهناك تأجيل لسداد الديون ولدفع الفوائد. وأخيراً يُعفى الصليبي من دفع مكوس المرور والضرائب، خاصة دفع تلك الجبايات الموجهة، كـ "عُشر صلاح الدين" الذي تقرر في عام ١١٨٨، إلى تمويل الحملات الصليبية. وبالمقابل، يمكن للمشاركين الاستفادة من المبالغ التي تجمعها الكنيسة لذلك الهدف.

والحال أن مجمل هذه الامتيازات، التي حددها دستور مجمع لاتران الرابع (١٢١٥)، الذي يحمل عنوان *Ad Liberandam* [من أجل التحرير]، لم تتقرر دفعة واحدة منذ الحملة الصليبية الأولى. فهذا الكيان المذهبي، وهو وليد امتيازات كانت تُمنح بشكل تقليدي للحجاج، إنما يصاغ ببطء خلال القرن الثاني عشر، قبل أن يعرف صياغة واضحة ومحددة في مجموعات الفتاوى البابوية في القرن الثالث عشر. والواقع أن الكنيسة، الراغبة في جعل الحملة الصليبية جذابة، قد وسعت الامتيازات المكفولة للصليبيين، وذلك بقدر ما كانت الجماعة المسيحية تفقد الاهتمام بالحملة الصليبية نفسها.

نداء البابا أوربان الثاني إلى الحملة الصليبية

(كليرمون، ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥)

لاشك أن فوشيه الذي ولد في شارتر [في فرنسا] في عام ١٠٥٨ كان حاضراً خلال خطبة البابا أوربان الثاني في ختام مجمع كليرمون، في ٢٧نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥. ويبدو أن فوشيه قد احتفظ بجوهر الخطاب البابوي الذي شدد على محنة المسيحيين الشرقيين والأهمية الملحة لتقديم العون لهم، وإن كان فوشيه يحذف الإشارة إلى القدس، غاية المشروع الذي شجعت البابوية عليه. وإذ يرحل إلى الأرض المقدسة في عام ١٠٩٦، فإنه يصبح القس الخاص لبودوان دو بولونيا، ويستقر في القدس حيث يموت في عام ١١٢٧. والحال أن روايته للحملة الصليبية الأولى، والتي تحمل عنوان *Historia Hierosolymitana* [حرفياً: **التاريخ الأورشليمي؛ أي تاريخ القدس**] والتي ألّفها بين عامي ١١٠٠ و١١٢٧، إنما تعد موجهة إلى الفرسان الغربيين الذين يريد حثهم على تناول الصليب وعلى الاستقرار في الدول اللاتينية [في الشرق الأدنى]. وفوشيه هو المصدر المحلي الوحيد للمعلومات عن بدايات استقرار الفرنج في الأرض المقدسة وقد أثّر على كثير من مؤرخي الحملات الصليبية:

يا أبناء الرب! بعد أن وعدتم الرب بحفظ السلم في بلادكم وبمساعدة الكنيسة مخلصين في صون حقوقها وبالتزامكم بهذا الوعد التزاماً أقوى من المعتاد، أنتم، يا من فزتم بالرشاد الذي ألهمكم الرب اياه، سوف يكون بوسعكم نيل ثوابكم بتوجيه مروءتكم إلى مهمة أخرى. إنها قضية تخص الرب وتتطلع اليكم وقد تكشفت لكم مؤخراً جداً[١]. فمن الأهمية بمكان أن تهبوا، دون تأخير، إلى نجدة اخوتكم الذين يسكنون بلاد الشرق والذين طالما ناشدوكم العون بالفعل.

وواقع الأمر، كما يعرف ذلك بالفعل أغلبكم، هو أن شعباً قادماً من فارس، الترك، قد غزا بلدانهم. وقد زحفوا [الترك] حتى البحر المتوسط وبتحديد أدق حتى ما يسمى بذراع سان جورج[٢]. وفي بلدان رومانيا[٣]، يتوسعون بشكل متصل على حساب أراضي المسيحيين، بعد أن كانوا قد قهروا هؤلاء الأخيرين في سبع مناسبات بشن الحرب عليهم. وقد سقط كثيرون صرعى تحت ضرباتهم؛ وجرى اختزال كثيرين إلى منزلة العبيد. وهؤلاء الترك يهدمون الكنائس؛ إنهم ينهبون مملكة الرب. وإذا ظللتم مدة أخرى مكتوفي الأيدي، فإن المؤمنين بالرب سوف يكونون ضحايا على نطاق أوسع بكثير لهذا الغزو.

ولذا فإنني أهيب بكم وأتوسل إليكم ــ وليس أنا الذي أهيب بكم بل هو الرب نفسه ــ، أنتم، أيها المبشرون بالمسيح(٤)، أن تحثوا الجميع، أياً كانت الطبقة التي ينتمون إليها، أكانوا فرساناً أم راجلين، أغنياءَ أم فقراءَ، بمواعظكم المتكررة، على أن يهبوا في الوقت المناسب إلى نجدة المسيحيين وإلى طرد هذا الشعب الشرير بعيداً عن أراضينا. إنني أقول ذلك للحاضرين، وأطلبه من الغائبين: فالمسيح يأمر به.

وإلى أولئك الذين سيخرجون إلى هناك ويموتون على الطريق أو في البحر أو الذين سوف يفقدون حياتهم في مقاتلة الوثنيين، سوف يجرى منحهم غفراناً لخطاياهم. وأنا أمنح هذا الغفران إلى أولئك الذين سوف يشاركون في هذه الرحلة، بحكم السلطة التي أستمدها من الرب.

فيا للعار إن انتصر شعب جد محتقَر وجد منحط وعبد للشياطين على الأمة العاكفة على عبادة الرب والتي تستمد شرفها من اسمها كأمة مسيحية! وما أعظم التوبيخ الذي سوف يوجهه الرب نفسه إليكم إن لم تجدوا الرجال الجديرين، مثلكم، باسمهم كمسيحيين!

فليخرجوا إذاً إلى المعركة ضد الكفار ــ وهي معركة تستحق أن تخاض وتستحق أن تكلّل بالنصر ــ ليخرج أولئك الذين عكفوا حتى الآن على حروب خاصة ومغايرة للشرع، فجرّوا عظيم الخسران على المؤمنين! فليكونوا من الآن فرساناً للمسيح، أولئك الذين لم يكونوا غير قطاع طرق! فليناضل الآن، باستقامة، ضد البرابرة، من كانوا يقاتلون ضد أخوتهم وذوي القربى! وما سوف يفوزون به هو الثواب الأبدي، أولئك الذين جعلوا أنفسهم مرتزقة لقاء بضع قروش حقيرة. إنهم سوف يجتهدون لأجل الفوز بمكرمة مزدوجة، أولئك الذين أرهقوا أنفسهم على حساب أجسامهم وأرواحهم؛ إنهم هنا محزونون وفقراء، وسوف يصبحون هناك فرحين وأغنياء. هنا، كانوا أعداء الرب؛ أمّا هناك فسوف يكونون أصدقاءه.

ليس على من يشاءون الخروج أن يتأخروا. فليؤجروا ممتلكاتهم وليدبروا ما سوف يكون ضرورياً لنفقاتهم وليشرعوا بالسير على الطريق مشمولين برعاية الرب، فور انقضاء الشتاء والربيع.

المصدر:

Foucher de Chartres, *Historia Hierosolymitana,* dans *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux,* t. III, p.323-324.

---

١٠ تلميح محتمل إلى مجيء سفارة بيزنطية إلى مجمع بليزانس في مارس/ آذار ١٠٩٥.

٢٠ البوسفور، والذي سمّي بهذا الاسم في بيزنطة بسبب قرب كنيسة سان جورج.

٣٠ الإمبراطورية البيزنطية من حيث كونها الوريث الوحيد للإمبراطورية الرومانية.

٤٠ يتوجه البابا بالخطاب إلى الأساقفة.

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الأولى

من خلال خطابه في كليرمون ومن خلال رسائله، يجتهد أوربان الثاني في تنظيم الحملة التي دعا إليها. وقد اقترح على الفرسان الغربيين قائداً، هو النائب البابوي آديمار دو مونتيل، أسقف بوي؛ وموقعاً لتجمع الصليبيين الفرنسيين، هو لو بوي، و، بالنسبة للآخرين، نقطة لقاء، هي القسطنطينية؛ وموعداً للرحيل، هو ١٥ أغسطس/ أب ١٠٩٦. والحال أنه حتى قبل هذا الأجل، كان بطرس الناسك وجمهوره قد وصلا إلى القسطنطينية، بدوافع وبأساليب تصرف لم يتوقعها لا البابا ولا الإمبراطور البيزنطي الذي بوغت بهذا الوصول المفاجئ. فهل كانت هناك عدة "حملات صليبية أولى"، متباينة من حيث تجنيدها وتنظيمها ودوافعها وأهدافها؟ لقد جرت العادة على إيجاد تعارض بين "الحملة الصليبية الشعبية " وحملات الأمراء الصليبية.

التجنيد

تحدد أساليب الدعاية إلى الحملة الصليبية خصائص التجنيد: فمن حملة إلى أخرى، يتغير المصدر الجغرافي والأصل الاجتماعي للصليبيين، كما تتغير طبيعة استجابتهم ــ فردية أم جماعية ــ لنداء الدعاة.

ولا يترك القرار الفردي بالرحيل أثراً يذكر في المصادر، ما لم يكن صادراً عن صليبيين لجأوا إلى مؤسسة كنسية تسني لسجلها حفظ مواثيق هبة أو بيع أو رهن ممتلكات تخص الصليبيين، عشية رحيلهم. وبين الأفراد الراغبين في التخلي عن كل شيء لأجل الذهاب إلى القدس، نجد فقراء كما نجد أغنياء، ونجد نساء كما نجد رجالاً قادرين على القتال، ونجد كهنة كما نجد أولاداً. ويبدو أن نداء الحملة الصليبية قد تخطى الحدود التي أقامتها المرتبة الاجتماعية وحجم الثروة واختلاف الجنسين. وبعيداً عن أن يكونوا شبان عائلات ساعين إلى المغامرة أو إلى ملكية يحوزونها، فإن أغلب الصليبيين يستجيبون بدافع من التقوى للنداء الموجه إليهم. وقوة الحملة التي اجتذبها الكلام الحماسي الصادر عن بطرس الناسك تشمل كثيرين من الفلاحين، المسلحين تسليحاً بدائياً، وإن كانت تشمل أيضاً عدداً من الفرسان النبلاء ــ جوتييه سان آفوار [جوتييه المعدم] وجيوم النجار

فيكونت ميلان، وتوماس دو لافير ورينو دو بروا – الذين استجابوا للنـــداء بأســرع مــن الآخرين.

وتلعب الأواصر العائلية دوراً حاسماً في اتخاذ قرار المشاركة في الحملـــة الصليبيــة. وتتوافر أمثلة عديدة، من أشهر العائلات إلى أكثرها تواضعاً. ففي عام ١٠٩٦، سوف نجـد أن جودفروا البويّوني يصحبه أخواه، أوستاش وبودوان دو بولونيا؛ أمّا النـائب البـابوي، أديمار، أسقف بوي، فهو يأخذ معه أخاه جيوم – هيج دو مونتيــل . وايتييــه دو توســي يلحق به أخواه هيج ونورجو. وتأخذ عدة أجيال معاً قرار الرحيل: كونون دو مونتيجـــو، صهر جودفروا البويّوني وولداه جوسيل ولامبيرت؛ وبودوان دو جيــن وأولاده الأربعــة؛ وبوهيموند التارانتواني وتنكريد، ابن أخته. وفـــي عـــام ١١٠١، ينــدرج فــي صفــوف الصليبيين ميل دو بريه، أب جي تروسو دو مونليري، وجي دو روشفور، عـــم الأخـير، لمحو العار المترتب على فرار الثاني، ابن الأول وابن أخي الثالث، تحت أسوار أنطاكيـــة في عام ١٠٩٨. وفي جيش بارونات شمال فرنسا، توجد بين ثلاثة مـــن الكبـار أواصــر قربى وثيقة: فدوق نورماندي روبير كورتيوز هو صهر ايتيان، كونت بلـــوا، وابــن عـم روبير الثاني، كونت الفلاندر.

وفي مجتمع تتمتع فيه أواصر القربى بقوة عظيمة، قلما يدعو إلى الدهشـــة أن عـــدة أفراد ينتمون إلى عشيرة عائلية واحدة قد تناولوا الصليب معاً. وأواصر الجيرة تسير فـــي الاتجاه نفسه. وإلاّ فكيف يمكن تفسير تلك المجموعات مـــن الفلاحيـن ومـن الحرفييــن المحتاجين والعمال اليدويين ذوي المعيشة الهشة حول هؤلاء القادة المحليين الصغار الذيــن يجندون قوات الحملة الصليبية " الشعبية " ؟ ففي الأقاليم التي تمـــيزت بمــرور الدعــاة، تتشكل جماعات صغيرة وتنضم إلى جماعات أخرى في الجوار، لكي تؤلف هذه الجيـــوش فاقدة النظام التي تتبع جوتشالك وبطرس الناســـك وجوتييــه المعـدم. وفــي الكومينـــات الإيطالية، يتم التجنيد بحسب الأحياء السكنية؛ وفي عامي ١٠٩٨ و١٠٩٩، سوف نجـد أن الـ *compagna* [الشركة] الجنوية التي تنظم تجهيز الأسطول للمشاركة في الحملة الصليبيــة إنما تنبثق عــن مجالس الأحياء وتحتفظ بقاعدة اجتماعية – طبوغرافيـــة بالغــة القــوة. وعندما تنتظم الحملة الصليبية، تخلقُ أواصرُ الجيرة نوعاً من الضغط الاجتمـــاعي الــذي يصعب الفكاك منه. والانتماء إلى جماعة سكنية أو حرفية قد يكون عاملاً حاسماً في اتخــاذ قرار الرحيـــل.

وفي داخل مختلف فئات الأرستقراطية، تتمتع العلاقات بين الإقطاعيين والأتباع بثقل حاسم في مسلك الصليبيين. فمنذ عام ١٠٩٦، تجمع مختلف موجات حملة البارونات الصليبية نبلاء وفرسان يرتبط بعضهم بالبعض الآخر. ومجموعة هيج دو فرماندوا، أخ الملك فيليب الأول من آل كابيه، إنما تتألف من فرسان من الزمام الملكي. أمّا بوهيموند التارانتواني فقد جنّد أتباعه، الذين ترك لهم حصار أمالفي، لكي يأخذ طريق القدس. وفي جيش جنوب فرنسا يحتشد أتباع كونت تولوز، ريمون السانجيلي. وهذه الولاءات تكفل تلاحم هذه الوحدات، لكن ذهنيتها الرمزية تجعلها أحياناً متمردة على وحدة القيادة التي تتطلب تنسيقاً جيداً بين القوات.

فماذا عن مشاركة النساء ؟ مادامت الحملة الصليبية مشروعاً عسكرياً، فإنه يبدو أن عليها استبعادهن. وهذا ما فهمه البابا أوربان الثاني الذي، إن حكمنا على الأمر استناداً إلى روايات مدوني الأخبار، يريد شن حملة محاربين ليس للنساء من مكان فيها. وهناك إمتنان لهن لحفزهن حماسة أزواجهن، كما فعلت أديل، كونتيسة بلوا، التي تدفع زوجها ايتيان إلى الرحيل، ورسائل ومرويات الشعراء ومدوني الأخبار تصوّر مشاهد الوداع المؤثرة؛ وسرعان ما يصبح انفصال الصليبي عن زوجته موضوعاً أدبياً، تستعيده باستمرار أناشيد الحملة الصليبية.

ومع ذلك، تشارك نساء كثيرات أيضاً في قوة الحملة: زوجات وراهبات، بلَ وموسات. وفي عام ١٠٩٦، تقوم أسر بأكملها، تستقل عربات، بالسير في أثر بطرس الناسك وجوتييه المعدم. والحال أن أنّا كومنينا، ابنة البازيليوس أليكسيوس الأول، يدهشها أن ترى على هذا النحو وصول نساء وأطفال أمام القسطنطينية في جمهرة لا توصف. وفي المستويات العليا للمجتمع، نرى نساء من الأرستقراطية يصحبن أزواجهن. فبودوان دو بولونيا يأخذ معه زوجته النورماندية التي تموت على مشارف مرعش. ولويس السابع تتبعه أليانور داكيتين، التي تؤدي علاقاتها مع عمها ريمون دو بواتييه إلى تحويل الملك المنتمي إلى آل كابيه عن مواصلة مشاريعه الخاصة بالهجوم على حلب، وهي المشاريع التي اقترحها أمير أنطاكية. وفي عام ١١٩١، يأخذ ريتشارد قلب الأسد على أسطوله أخته جين، أرملة ملك صقلية، جيوم الثاني، وخطيبته بيرانجير دي نافار، التي يتزوجها خلال مروره بقبرص. وبين أولئك الذين يتناولون الصليب بعد جولة ايكري، يذكر فيلاردوان ماري، زوجة بودوان، كونت الفلاندر؛ كما أنها المرأة الوحيدة الواردة في قائمة الأمراء والبارونات التي تشكل مفتتحاً لمروية فتح القسطنطينية. وبين المشاركين المعروفين في

الحملة الصليبية الخامسة، كانت نسبة ٣% من النساء. ويُعْهَدُ لهن بدور عسكري: حراسة المعسكر خلال قيام الصليبيين بشن الهجوم على دمياط. وخلال المعركة، كانت النساء تقدمن الماء والغذاء والتشجيع للمحاربين؛ وهن يتشفعن لدى الرب لنيل النصر.

كما يهتم مدونو الأخبار بالنساء سيئات السيرة اللاحقات بقوة الحملة. فخلال حصار نيقية أو أمام أنطاكية أو أمام دمياط، تمارس المومسات نشاطهن في معسكر الصليبيين، إلى درجة أن جوانفيل، رفيق القديس لويس [لويس التاسع] الوفي، يغضب إذ يراهن منكبات على مهنتهن، وإن كان لا يملك سوى رمي حجر عليهن من خيمة الملك. وفي مدونات الأخبار، غالباً ما يجري شجب خطيئة الجنس. أليس الامتناع عن العلاقات الجنسية، حتى وإن كانت بين زوج وزوجته، هو من خصائص التائبين والحجاج، الذين هم قبل كل شيء رجال حملة صليبية ؟ ثم إن الزنا هو السبب الرئيسي للنكسات الحادثة؛ إنه يغزو معسكر الصليبيين أمام أنطاكية ويفجر سخط الرب. فالنصر والخلاص الأبدي لا يُمنحان إلاّ لمن يمتنعون عن خطايا الجنس.

وفي لحظات الخطر الأقصى، لابد من الابتعاد عن النساء والانكباب في التكفير على تطهير جماعي. ويقوم قادة الحملة الصليبية بطرد النساء المتزوجات والمومسات من الجيش قبل المعارك الحاسمة. ففي أنطاكية، مثلاً، جرى إبعاد عدة آلاف من النساء، الزاحمات للمعسكر، إلى مكان حصين، بقين فيه حتى الاستيلاء على المدينة. ويشمل التطهير الجماعي صوماً لمدة ثلاثة أيام يعززه، أمام القدس، طواف تكفيري.

وفي الوقت نفسه يتشكل قضاء عقابي، يعاقب جميع أولئك الذين ينتهكون قواعد السلوك الجنسي. فالنساء الحوامل، خارج الزواج، يتعرضن لتعذيب وحشي، أمّا الزاني والزانية فيجري عرضهما عاريين أمام الجيش ثم جلدهما. ويريد رجال الدين وقادة الحملة الصليبية بذلك كبت النشاطات الجنسية وفرض روح تكفير على قوة الحملة ورفع معنوياتها بإبراز الانحلال الجنسي للخصم: فالساراسان [المسلمون] فاجرون بالطبع ويجري التنكيت على تركي أغوى راهبة من تريف.

على أن للطبيعة حقوقها. ويكشف جيبير النوجاني بفزع أن عدداً من الفرنج يتأثرون بجمال النساء اليونانيات وفتنة المشرقيات ويستحوذون على مسلمات في المدن المفتوحة. أمّا مشاهد العنف الجنسي والاغتصاب وقتل نساء الأهالي الشرقيين فهي لا تغيب عن مرويات مدوني الأخبار. والحال أن الصليبيين المستقرين في الأرض المقدسة لهم كل

الحرية في الزواج من مسيحيات سوريات أو أرمنيات أو مسلمات متنصرات. وفي المقابل، فإن العلاقات الجنسية خارج الزواج إنما يجري قمعها بشدة في "مجمع نابلس" في عام ١١٢٠: فمن بين العقوبات الممكنة في حالة كهذه إخصاء الرجل وجدع أنفه واختزاله إلى عبد.

ومن ثم فقد شاركت نساء كثيرات في الحملات الصليبية ورفّهن عن المقاتلين. وقد وجد القادة صعوبات جسيمة في كبت النشاطات الجنسية لقوة الحملة: وهم لا ينجحون إلاّ في فرض قيود مؤقتة، تتزامن مع وقت التكفير الذي يسبق المواجهة مع العدو. فالمُثل العليا التقييدية والتي طرحها الإصلاح الجريجوري، في موضوع الأخلاق الجنسية، لم يكن لها هيمنة تذكر على الصليبيين ولم تحل دون اشتراك النساء في حملات لم يُحسب لهن حساب فيها.

٢ - أعداد القوات

من الصعب تمامًا تقدير عدد المشاركين في الحملة الصليبية الأولى. " كانوا عديدين كحبات الرمل وكنجوم السماء"، " كانوا حشدًا لا يحصى"، هكذا يتحدث مدونو أخبار جد مختلفين كأنّا كومنينا وفوشيه الشارتري. لكن الصور المستخدمة ــ حبات الرمل، النجوم، جيوش الجراد ــ ليست بديلاً عن الأرقام المحددة. بل إن من المغامرة تقديم تقدير للحجم. ومع هذه التحفظات، فما الذي نعرفه عن أعداد الصليبيين؟ الحق إن ما نعرفه قليل. فمختلف قوات "الحملات الصليبية الشعبية " تفلت من كل إمكانية للإحصاء؛ وربما كانت القوة التي يقودها بطرس الناسك، والتي تتألف من عدة عشرات من الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، أكبر من القوات الأخرى، خاصة قوات فولكمار وجوتشالك وايميخ لينينجن، التي كانت متناثرة في بوهيميا والمجر، دون أن يتسنى لها بلوغ القسطنطينية. وبين الموجات المتعاقبة لـ "حملة البارونات الصليبية "، فإن أعظم جيش، مثقل بغير المقاتلين، هو عند الرحيل جيش الجنوبيين الذين يقودهم ريمون السانجيلي. أمّا جيش اللورين فهو يساوي عند وصوله إلى الأرض المقدسة جيش روبير كورتيوز وروبير الفلاندري والذي ربما كان يتألف من نحو خمسمائة فارس. إلاّ أنه عند حصار القدس، لا يبقى إجمالاً غير ١٢٠٠ فارس و١٢٠٠٠ من جنود المشاة المستعدين للحرب، ناهيك عن عدة آلاف من غير المقاتلين. والحال أن اجتياز آسيا الصغرى، والمعارك والمجاعات والأوبئة أمام أنطاكية قد أدت إلى اختزال أعداد القوات.

٣ • التمويل

٣-١ • الاحتياجات

عند الاستجابة لنداء أوربان الثاني، كانت الغالبية العظمى من الصليبيين تجهل المدة المتوقعة للرحلة إلى القدس وكانت تقدر نفقاتها تقديراً أدنى مما هو ضروري. وفي جميع الأحوال، كان النبلاء أو الفرسان أو الفلاحون بحاجة إلى إمكانات مالية أعلى بكثير من تلك التي تتطلبها الحياة اليومية على أراضيهم. ومن المرجح أن عدداً معيناً من الحجاج قد تسنى لهم الاعتماد على مال سائل، على رأسمال أولي، عند الرحيل. والواقع أننا لا نعرف النفقات المتوقعة للرحلة إلاّ من خلال القروض التي طلبها الحجاج من المؤسسات الكنسية. لكن هذه المؤسسات لم تحتفظ في سجلاتها إلاّ بالصكوك التي تحيل إلى الملكيات التي نقلها الصليبيون إلى المؤسسات الكنسية ولم يتسن استردادها، وهو الأمر الذي يحد مرة أخرى كثيراً من معلوماتنا.

ومن المؤكد أن النفقات التي كان على الصليبيين تحملها تتباين بحسب المواقع الاجتماعية التي يحتلونها. فلا يمكن مقارنة المبلغ الذي يحتاجه جودفروا البويّوني بالمبلغ الذي يمكن أن يدبره فلاح فقير. إن الأول يرهن في عام ١٠٩٦ قلعة بويّون التي يمتلكها لدى أسقف ليج أوتبير الذي يدفع له في المقابل مبلغاً قدره ١٣٠٠ ماركاً من الفضة الخالصة. وفي أواخر القرن الثاني عشر، رهن فلاح من الماكونيه [في فرنسا] أرضه وحصل على ٤ جنيهات، قبل رحيله إلى القدس، بينما حصل فلاح آخر على ١٣ سواً من بيع حقله، وذلك لتمويل رحلته. ومن المؤكد أنه كان على جودفروا البويّوني أن يصرف على حاشيته من الأتباع، في حين أن الفلاح لم يكن يهمه غير شخصه. إلاّ أنه بالنسبة للأول كما بالنسبة للأخير، تشكل الرحلة إلى الشرق عبئاً مالياً بالغ الجسامة.

ويتوجب على الصليبي بادئ ذي بدء أن يهتم بالحصول على ركوبة وعتاد وأن يكون في جيبه المال الضروري لكي يحصل على الغذاء خلال الأشهر الأولى للرحلة. ويتراوح سعر الجواد ما بين ٢٠ و٥٠ سواً، بحسب نوعية الجواد، في الماكونيه، وما بين ٤٠ و١٠٠ سو في الشارتران، وما بين ٦٠ و٨٠ سواً في بيكاردي. ويساوي البغل نحو ١٠٠ سو في ليموزان. كما أن الأسلحة تساوي ما هو أكثر من ذلك بكثير: ففي الماكونيه أيضاً، يساوي الدرع في أواخر القرن الحادي عشر مائة سو، أي ثمن قطعة أرض متوسطة المساحة. ونفقات فارس من أجل رحلة إلى القدس قد تقدّر بخمسة أضعاف الدخل السنوي

الذي يتوفر له من إقطاعته. وفي المقابل، فإن عتاد الفلاح المستجيب لنداء الدعاة لا يساوي كثيراً: إنه يرتدي ثوباً طويلاً، سراويل، قميصاً، تنورةً وتنورة فوقية مع برنس. وسلاحه الوحيد هو عصا الحاج.

أما تقدير نفقات الرحلة، خاصة نفقات الغذاء، فهو شيء أصعب. ففي الريف، يجد الفلاح دائماً ما يأكله. حتى في أوقات الجدب. وهو لا يسعه تخيل أن يكون مضطراً إلى أن يشتري كل يوم شيئاً يأكله خلال رحلة طويلة كهذه: فالرب سوف يهتم بتلبية حاجاته! ونظام الأكل اليومي، القائم على استهلاك مفرط للخبز وللنبيذ وللخضروات الطازجة، مع قليل من الودك [شحم الخنزير] والجبن، إنما يتطلب كمية ضخمة من الحبوب التي يطرح نقلها أو مجرد الحصول عليها في أقاليم محرومة منها مشكلات يتعذر تذليلها. عندئذ يمكننا أن نفهم أهمية الغنائم وممارسة السلب والنهب في الأقاليم التي يجري المرور بها، وهي ظواهر نجد صدى لها في المصادر البيزنطية لذلك الزمان. وإذا كان استهلاك الحجاج يساوي، كاستهلاك الرهبان الفقراء في سان كينتان في الجزيرة، نحو ٣٠ جنيهاً للفرد في السنة، فكيف يمكن أن نتخيل أن يكون بوسع فلاح أن يحوز، في لحظة الرحيل إلى القدس، ولو مجرد ١٥ جنيهاً للإنفاق خلال الأشهر الستة الأولى؟ وبما أن السكان البيزنطيين كانوا يرفضون التعامل معه بالنقود السوداء البائسة التي يحوزها، فسوف يكون بوسعنا تقدير صعوبة مشكلة الدفع على طريق القدس.

٣-٢-٠ مصادر التمويل

خلال الحملة الصليبية الأولى، لا يمكن لأي مشارك أن يعتمد إلاّ على محفظته أو على محافظ أقاربه، حيث كان الفقراء يتوهمون أن من الواجب إعاشتهم بأموال الأغنياء. لكن القلائل هم الذين يتمتعون بمال سائل لتغطية نفقات الرحلة. ومن هنا ضرورة اللجوء إلى مصادر أخرى، كبيع الممتلكات أو اقتراض القروض.

وفي كثير من الحالات، تسارع عائلة الصليبي إلى مساعدته. وهكذا نجد أن واحداً من صغار النبلاء، هو برتران دو سان جان، يجد نفسه مديناً لكهنة كاتدرائية أوش، إذ كان عليه أن يسلم لهم على سبيل الرهن إحدى ممتلكاته، وذلك لتمويل رحيل اخوته الكبار مع الحملة الصليبية. ومثل هذا الرهن يفترض موافقةً مسبقةً من جانب السلالة، الأمر الذي يشير إلى المشاركة الطوعية من جانب العائلة في تمويل الحملة الصليبية. ويمكن لأحد الأتباع أن يلجأ إلى طلب العون من سيده: لقد كان على جودفروا البويّوني كما كان على

ريمون السانجيلي، كونت تولوز، أن يؤمّنا إعاشة أتباعهما. والقروض يمكن أن يوافق عليها إمّا اليهود، كما يشير إلى ذلك جورج ديبي فيما يتعلق بصليبيي الماكونيه، أو من جانب تجار وبورجوازيين، أو بالأخص من جانب الكنائس والأديرة المحلية، التي تتصرف كمؤسسات إئتمانية، وهو الأمر الذي يستتبع نتائج اقتصادية واجتماعية مهمة سوف يكون من المناسب الإشارة إليها.

إن مدّون الأخبار جيبير النوجاني، في فقرة شهيرة من كتابه الذي يحمل عنوان *Gesta Dei Per Francos* **[مآثر الرب من خلال الفرنج]**، يصف بأي حماس للحملة الصليبية، قام اناس متباينو الأصول ببيع بيوتهم وحقولهم وبساتين أعنابهم، دون أن يتمسكوا بالقيمة الحقيقية لممتلكاتهم. وعلى أرفع مستوى اجتماعي، نرى كونت اينو يبيع للكنيسة حصن كوفان لقاء ٥٠ ماركاً ذهبياً، كما نرى جودفروا البويّوني يتنازل عن ستينيه وموسيه لدوق فردان، بينما يرهن روبير كورتيوز، دوق نورماندي، دوقيته لدى أخيه مقابل ١٠٠٠٠ مارك فضي. ويحدث الشيء نفسه عند السادة من المستوى المتوسط: التنازل عن الاقطاعات الحرة، كالتنازل عن إقطاعة جيرالد اللاندروني لدير لاريول الرئيسي في البازاديه، والتنازل عن العشور التي يجري التعويض عنها بدفع مال سائل من جانب الكنائس المستفيدة، وتنازل الصليبيين للكنائس عن الممتلكات المغتصَبَة، وهو شرط أولي ضروري للحج، وذلك بقدر ما أن السلطات الدينية تبرز الفائدة الروحية لهذه التنازلات. وهكذا فإن سادة ميزاك في أوفرنيا الذين كانوا قد نهبوا ممتلكات دير سان شافر، يعترفون بحقوق الكنيسة التي تقدم لهم خيولاً وبغالاً ومالاً، في مقابل التزامهم بالذهاب إلى القدس. وبهذا الشكل، يسهم تمويل الحملة الصليبية الأولى في الإصلاح الكنسي الجريجوري، على الأقل في أحد جوانبه الرئيسية: رد ممتلكات الكنيسة التي اغتصبها العلمانيون.

والحال أن التنازلات والقروض مقابل رهن إنما تعد من نوعين: الرهن الميت المعروف بالفعل في العصر الكارولينجي والذي ينتشر استخدامه مع الحملات الصليبية، والرهن الحي. ويتصل الرهن الميت بالممتلكات، كالأراضي والمطاحن أو العشور، والتي تعود على الدائن بدخولٍ طوال مدة الرهن. وعند إنقضاء المدة، يستعيد المدين ممتلكاته، إذا كان بوسعه رد القرض. ومع أن الرهن الميت يتضمن الحصول على فائدة [ربوية]، إلاّ أن الكنيسة قد قبلته وقد انتشر استخدامه على نطاق واسع. أمّا في الرهن الحي، خلافاً لذلك، فإن الدخول المتأتية لدائن يجري خصمها من القرض. وبما أن الرهن الحي لا يتضمن الحصول على أية فائدة [ربوية]، فإنه يشبه عملاً من أعمال الخير بأكثر مما يشبه

قرضاً حقيقياً؛ وهو يسمح للسيد بالوفاء بالتزاماته تجاه مساعدة تابعه وينطوي على ثقة مطلقة بين الطرفين المتعاقدين. وأخيراً، فإن البيع، مع بند يشير إلى إمكانية استرداد المبيع لقاء المبلغ المدفوع فيه، قد انتشر على نطاق واسع في عصر الحركة الصليبية: وهو يسمح للبائع باسترداد ملكيته مقابل رد المبلغ الذي حصل عليه عند التعاقد. وهو يبرز في كثير من وثائق السجلات الكنسية والديرية ـ في سوزيانج وأوريل ولاريول ـ بل إنه يتيح للمدين إمكانية سداد مدفوعات الاسترداد على أقساط كل سنة.

أمّا الآثار الاقتصادية والاجتماعية للرحيل إلى الشرق فهي تقع على عدة مستويات: فمن الناحية المالية، يؤدي اشتراك المؤسسات الكنسية في تمويل الحملة الصليبية إلى "إنهاء اكتناز" التحف الثمينة المتراكمة في خزانات الكنائس والأديرة، مما يعزز نشاط الصيارفة الذين يقدمون في المقابل مالاً سائلاً. ومن جهة أخرى، تؤدى الهبات والتنازلات إلى حراك عظيم في حيازة الأرض، وهو حراك تستفيد منه المؤسسات الكنسية، بوصفها دائنة للصليبيين الذين يموتون على الطريق أو الذين يعجزون، عند عودتهم، عن رد المبالغ التي اقترضوها. وبذلك تزيد الكنيسة من ثروتها أو تعفيها من الأعباء التي كانت تثقلها بالديون. كما كانت الحملة الصليبية فرصة لتحرير الكراسي الأسقفية من أفراد كبرى العائلات المحلية التي كانت تعتبر هذه الكراسي عنصراً من عناصر ثروتها. ومن هذه الزاوية أيضاً، يخرج الإصلاح الجريجوري معزَّزاً.

لكن الصليبيين لم يكونوا دائماً ضحايا لالتزامهم الصليبي. فلئن كان جوفروا، كونت بيرش، المثقل بالديون، يضطر بدوره إلى طلب مساعدة قدرها ٢٠٠ جنيه من دير سان دوني دو نوجان، فإن اخرين يرجعون محملين بآثار ثمينة وبغنائم، كأولئك الجنود الجنويين الذين تقاسموا فيما بينهم ثروات مدينة قيسارية بعد الاستيلاء على المدينة. وغالباً ما أدت الحملات الصليبية إلى توطيد لممتلكات السلالة: إن امبير أونجر، في الماكونيه، هو الوريث الوحيد لثروة العائلة بعد اختفاء اثنين من أشقائه في الحملة الصليبية ودخول شقيقين اخرين الدير.

ومن ناحية اقتصادية، يجب الإشارة إلى أثر الحملات الصليبية على ازدهار الجمهوريات البحرية الإيطالية. فقد اغتنمت هذه الجمهوريات الفرصة لكي تطور أساطيلها التي وُضعت تحت تصرف الصليبيين من أجل فتح سواحل سوريا–فلسطين، ثم، بعد فتح هذه السواحل، لكي تدعم علاقاتها المنتظمة مع الغرب. ومن جهة أخرى فقد أثرت الحملات فيما وراء البحار على التطور الدستوري للكومينات الإيطالية، مما أدى

في كثير من الحالات إلى قيام النظام الكوميني (جنوة) وتطوره التالي إلى نظام حكم المدينة من خلال القاضي الأول.

وبهذا المعنى، فإن الإعداد الاقتصادي للحملة الصليبية ليس مسئولية المشاركين فيها وحدهم. فهو يحرك مجمل الجماعة المسيحية الغربية، الأديرة والكنائس، والسادة، والأتباع والفلاحين، والمدن والأرياف. وإذا كان الصليبيون الأوائل، في خروجهم إلى القدس، بروح حجاجٍ تائبين ساعين إلى التكفير، قد تزهدوا، ولم يكونوا غالباً يفكرون في العودة، فإن تحويل الممتلكات، المرافق للحملة الصليبية الأولى، قد أثرى جميع أولئك الذين وضعوا أنفسهم في خدمتهم، من المقربين والسادة والمؤسسات الكنسية والكومينات الإيطالية، لكي يسهلوا عليهم تحقيق حلمهم في الفوز بالمغنم الروحي والتزامهم بالفقر الاختياري، تأسياً بالمسيح.

٤ . قادة الحملة الصليبية

بين قادة مختلف القوات المشكّلة للحملة الصليبية الأولى، تبرز بعض الشخصيات التي لعبت دوراً محورياً في تاريخ الحملة: بطرس الناسك، الذي قام ج. فلوري مؤخراً بإعادة تقييم نشاطه على رأس "الحملة الصليبية الشعبية" وأربعة قادة لمختلف موجات "حملة البارونات الصليبية"، هم جودفروا البويّوني وبوهيموند وريمون السانجيلي وبودوان دو بولونيا، الذي صار ملكاً على القدس في عام ١١٠٠ تحت اسم بودوان الأول.

٤-١ . بطرس الناسك

هو الداعية الوحيد، فيما عدا البابا أوربان الثاني، الذي تذكره في فرنسا مصادر الحملة الصليبية الأولى.

بعد أن مارس بطرس الناسك الدعوة في الزمام الملكي، يصل إلى الأقاليم الرينانية في أبريل/ نيسان ١٠٩٦. ولم تتحدد بعدُ بشكل واضح مسئوليته عن المواجهات مع الطوائف اليهودية. وهو يجر خلفه بضعة آلاف من البشر. وخلال اجتياز البلقان، يفقد السيطرة على جماعته التي تؤدي بضع حوادث إلى وضعها في مواجهة الجماعات السكانية المحلية والجيوش البيزنطية في سيملان وفي نيش. ويصل إلى القسطنطينية في أول أغسطس/ آب ١٠٩٦. ويستقبله اليكسيوس الأول في القصر الإمبراطوري ويغرقه بالهدايا وينصحه بانتظار جيوش الأمراء الصليبيين. ولا يتمكن بطرس من قمع عنف رجاله الذين ينقلهم

البازيليوس إلى الضفة الشرقية لبحر مرمرة، في إقليم نيقوميديا. وينفصل الألمان والإيطاليون والفرنسيون عن بعضهم البعض، فيتعرض الأولون لمذبحة في ٢٩ سبتمبر/ أيلول في زيريجوردون على أيدي جيش سلجوقي؛ أما الأخيرون، في غياب بطرس الذي تركهم ليطلب النجدة من البازيليوس، فإنهم يزحفون ضد الترك الذين يبيدونهم.

وبعد أن يصحب بطرس حملة البارونات، يعاود الظهور أمام أنطاكية. وفي يناير/ كانون الثاني ١٠٩٨، يهرب من معسكر الصليبيين لكن تنكريد يدركه. ويفقد، في أعين المشاركين، جانباً كبيراً من هيبته. وفي ٢٧ يونيو/ حزيران، يجري إرساله في سفارة إلى كربُغا الذي يحاصر المدينة. وخلال شتاء عام ١٠٩٩، عند استئناف زحف الصليبيين إلى الجنوب، يجري تكليفه بتوزيع نصف الغنائم على الفقراء. وخلال حصار القدس، يظهر كأحد الدعاة الذين يخطبون في الصليبيين خلال طوافهم المهيب بالمدينة. وفي أغسطس/ آب١٠٩٩، يقود صلوات تشفع الشعب ورجال الدين، عندما يندفع الفرنج إلى عسقلان لوقف تقدم الجيش المصري. وإذ يرجع إلى الغرب مع اثار من القبر المقدس ومن القديس يوحنا المعمدان، يخرج من التاريخ ليدخل الأسطورة كمؤسس للحركة الصليبية. والحال أن النقد التاريخي في القرن التاسع عشر إنما يرده إلى مكانه الصحيح، والذي لا يبدو أن البحوث الحديثة مضطرة إلى تغييره: إنه زعيم كاريزمي يتمتع بشعبية ضخمة، كان يطمح ببساطة إلى رؤية مجيء مملكة الرب على الأرض.

٤-٢٠ جودفروا البويّوني

ولد جودفروا الملتحي، جودفروا البويّوني، نحو عام ١٠٦٠. وهو الابن الثاني للكونت أوستاش الثاني البويّوني، الذي ينتمي من خلاله إلى السلالة الكارولينجية. أمّا والدته فهي ايدا، ابنة دوق لوتارينجيا. وعند موت والده، نحو عام ١٠٧٠، يحصل على ما للأسرة من اقطاعات حرة وممتلكات، " بلاد بويون"، ستينيه وكونتية فردان، ثم يرث، نحو عام ١٠٧٦، عن خاله جودفروا الأحدب، دوقية لوتارينجيا السفلى ومركيزية أنفير. لكنه كان مضطراً إلى أن يناضل حتى عام ١٠٨٦ ضد ألبير الثالث، كونت نامور، المدافع عن حقوق أرملة جودفروا الأحدب، ماتيلده، المركيزة الشهيرة على توسكانا. وبوصفه تابعاً للإمبراطور هنريخ الرابع، فهو ينحاز إلى سيده خلال النزاع على تعيين الأساقفة، لكنه يستجيب مع ذلك بحماسة لنداء كليرمون، شأنه في ذلك شأن كثيرين من النبلاء اللورينيين.

وسعياً إلى تمويل رحلته إلى القدس، يبيع لأسقف فردان اقطاعاته الحرة في ستينيه وموسيه ويرهن " بلاد بويّون" لأسقف ليج، محتفظاً بامكانية استرداد هذه الملكية الأخيرة عند عودته لقاء رد المبلغ الذي حصل عليه فيها. وعلى رأس جيش مؤلف من لوتارينجيين وفلمنكيين وساكسون ورينانيين، يرتبطون به غالباً عبر علاقات التبعية، يرحل جودفروا البويّوني متجهاً إلى الشرق في ١٥ أغسطس/ آب ١٠٩٦. وبعد اجتيازه المجر وشبه الجزيرة البلقانية، يصل إلى القسطنطينية في أواخر ديسمبر/ كانون الأول ١٠٩٦. وهو يجري مفاوضات مطولة مع البازيليوس، أليكسيوس الأول كومنينوس، الذي يجبره على أن يؤدي له يمين الولاء وعلى التعهد بأن يرد لبيزنطة الأراضي الإمبراطورية السابقة التي قد يفتحها.

ولا يبدو أنه قد لعب دوراً بارزاً خلال اجتياز آسيا الصغرى وحصار أنطاكية. وعند الهجوم الحاسم على القدس (١٥يوليو/ تموز ١٠٩٩)، يقود الجيش اللوريني المرابط أمام الزاوية الشمالية ــ الشرقية للأسوار. والحال أن البرج الخشبي الذي أمر بتشييده إنما يسمح له بأن يكون بين أوائل المتغلغلين في المدينة.

وفي ١٧ يوليو/ تموز ١٠٩٩، يدخل في منافسة مع ريمون السانجيلي للفوز بحراسة الأراضي المفتوحة. وينتخبه البارونات مفضلين إياه على كونت تولوز، الذي يعتبرونه جد متشدد ومتغطرس. ومن باب التواضع، يرفض لقب الملك، مكتفياً بأن يُدعى دوقاً، أو أميراً، وربما " قيّماً "، أي حامياً للقبر المقدس، ولو أن مصدراً وحيداً كتب تحت تأثير خصمه خلال الانتخاب الذي جرى في يوليو/ تموز ١٠٩٩ يذكر هذا اللقب المستهجَن. وفي أغسطس/ آب ١٠٩٩، يقود جودفروا البويّوني الجيش الذي يهزم المصريين قرب عسقلان، لكن نزاعاً مع ريمون السانجيلي يحول دون التوصل إلى استسلام المدينة. وهو يشارك في المراحل الأولى للتوسع الفرنجي لكنه لا يلقى نجاحاً موازياً لنجاح تنكريد الإيطالي ــ النورماني. ويموت خلال حصار حيفا (١٨يوليو/ تموز ١١٠٠) ويُدفن في كنيسة القبر المقدس، حيث يمجده نقش على لوح حجري بوصفه "رعب مصر وذعر العرب والفرس".

والواقع أن الأسطورة سرعان ما تستولي على الشخصية الواقعية، فتجعل من رجل شديد التقوى وبالغ البسالة أكثر أبطال الحملة الصليبية الأولى شعبية ونموذجاً مثالياً للصليبي. والحال أن انتخابه في يوليو/ تموز ١٠٩٩، حتى وإن لم يكن انتخاب ملك، إنما يقابَل في الغرب بحماسة استثنائية: إن أحد أحفاد شارلمان يصبح أول ملك لأورشليم

وتجري مراجعة التاريخ؛ وهناك من يبحث عن أصول شبه قدسية لجودفـــروا البويّونـــي؛ كما يجري تحويله إلى البطل الأسطوري "الفارس الذي جاء من بجعة"، والإعلاء من شـــأن نشاطاته في الحملة الصليبية. والحال أن يوحنا الإبلاني والحقوقيين الأورشليميين الآخريـــن في القرن الثالث عشر إنما يزينون شخصية الرجل بهالة مجد: فهو فاتح الأرض المقدســـة التي قسّمها بين فرسانه، وهو مشرِّع المملكة، وهو الملك المنتخب من أنداده؛ ومــــا أكـــثر مثل هذه المزاعم التي أصبحت اليوم محل جدل، وإن كانت قد دعمت الدعاوى البارونيـــة لصالح تنظيم اقطاعي لمملكة القدس.

٤-٣-٠ بوهيموند

يعد قائد الجيش النورماني هذا شخصية قوية. وقد وُلد بين عامي ١٠٥١ و١٠٥٨ ابنـــاً لوربير جيسكار الدوق النورماني على أبوليا وكالابريا. وهو يلعب دوراً حاسماً في الحملـــة التي خاضها روبير جيسكار ضد الأراضي البيزنطيـــة فـــي ألبانيـــا بيـــن عـــامي ١٠٨١ و١٠٨٥. وعند موت والده (١٠٨٥)، يشعر بالإحباط من استيلاء أخيـــه روجيـــه بورســـا على التركة فلا يملك سوى التمرد عليه. وبعد التصالح معه في عام ١٠٨٦، يحصل علـــى جزء من أبوليا وعلى مدينة باري في عام ١٠٨٩.

وفي يونيو/ حزيران١٠٩٦، يترك حصار أمالفي، الذي تتـــولاه القـــوات النورمانيـــة، ويقرر تناول الصليب، أملاً بلاريب في الحصول في الشرق على إمارة أوسع بكثير. وهـــو يرحل في أكتوبر/ تشرين الأول١٠٩٦، وعبر فالونا والطريق الروماني القديـــم الشـــهير، طريق اغناطيوس، يصل إلى القسطنطينية فـــي ١٠ أبريـــل/نيســـان ١٠٩٧. وإذ ينبـــهر بالثروات الإمبراطورية البيزنطية، يؤدي يمين الولاء لأليكسيوس الأول كومنينوس الـــذي يرفض مع ذلك أن يعهد إليه بقيادة الجيوش البيزنطية في الشرق. وهو يقـــود جانبـــاً مـــن قوات الحملة الصليبية، خلال اجتياز آسيا الصغرى. وأمـــام أنطاكيـــة، التـــي يحاصرهـــا الصليبيون، يمارس القيادة من الناحية الفعلية؛ ويلعب دوراً مهماً في الانتصـــار المحـــرز على الجيوش الحلبية في فبراير/ شباط١٠٩٨؛ وبفضل مرتد أرمني، ينجح في الاســـتيلاء على أنطاكية، ثم ينجح في صد قوات كربُغا. ومتملصاً من مطالب بيزنطة بدعوى "خيانـــة الروم"، ومن تطلعات ريمون السانجيلي، يظل السيد الوحيد للمدينة، التـــي تشـــكل قـــاعدة إمارة أنطاكية النورمانية التي ينصبه أميراً عليها البطريرك دايمبرت فـــي أواخـــر عـــام ١٠٩٩. وفي العام التالي، يأسر الدانشمند بوهيموند قرب ملطية ولا يفرجون عنه إلا لقـــاء فدية في ربيع ١١٠٣. وفي تلك الأثناء، يتولى تنكريد، ابن أخته، الوصاية على أنطاكية.

وفي عام ١١٠٤، تحت ضغط جيوش حلب التي تغزو الإمارة، وتحت ضغط جيوش بيزنطة التي تسترد لاودقية ومدن قيليقيا، يرحل بوهيموند إلى الغرب ويحاول هناك تنظيم حملة صليبية جديدة موجهة ضد البازيليوس الذي يصفه الأولُ بأنه عدو للجماعة المسيحية؛ وتسعى دعايته الغادرة إلى ترويج تيمة خيانة الروم. وهو يتزوج كونستانس، ابنة الملك فيليب الأول من آل كابيه؛ ويبني أسطولاً في موانئ أبوليا ثم يفرض الحصار على دوراتسو في أواخر عام ١١٠٧. وتجبره المقاومة التي تبديها القوات البيزنطية على أن يوقع في سبتمبر/ أيلول١١٠٨ معاهدة ديابوليس والتي يعترف بموجبها بتبعيته للبازيليوس، الذي يمنحه الإمارة على أنطاكية، بعد اختزال مساحتها. ويرفض الوصي تنكريد تطبيق المعاهدة وسوف يفتح قيليقيا في السنة التالية. أمّا بوهيموند، فهو يرجع إلى أبوليا، ويبدو أنه يريد تنظيم حملة جديدة ضد الإمبراطورية البيزنطية، لكنه يقضي نحبه في مارس/ آذار ١١١١. والحال أن التناحر البيزنطي ــ النورماني بسبب أنطاكية إنما يؤثر كثيراً على موقف بيزنطة حيال الحملة الصليبية.

وهكذا نجد أن بوهيموند، الديبلوماسي الحاذق وقائد المرتزقة الشجاع، لم ينجح في توفير الإمكانات اللازمة لاشباع طموحٍ جشعٍ، على حساب بيزنطة. أمّا تيمة كره الروم، فهي تعبر عن نفسها لأول مرة في الحملة الصليبية من خلاله، وهي تيمة موعودة بأن تحظى خلال القرن الثاني عشر بتطويرات أوسع.

٤-٤٠ بودوان البويّوني

ولد بودوان البويّوني بين عامي ١٠٦١ و١٠٧٠. وهو الأخ الثاني للبكر أوستاش الثالث البويّوني ولجودفروا البويّوني. وبما أنه كان يود أن يكون رجل دين، فقد قام بدراسات جادة في مجال فنون الرسم والنحت وصار قساً في رانس وكامبريه وليج. وعندما أضطر إلى هجر المهنة الكنسية، وذلك بسبب جمعه بين أكثر من دخل كنسي دون ريب، لم يعد أمامه من سبيل إلى تكوين ثروة غير السيف والزواج. وهو يستخدمهما بنجاح. فيبدأ مسيرته العملية في نورماندي، حيث يتزود جودهيلده، ابنة راؤول الثالث، صاحب توسني، والذي يطمح إلى الفوز بتركته. وفي عام ١٠٩٦، عند رحيله لأجل المشاركة في الحملة الصليبية، يستدعيه أخوه جودفروا البويوني إلى اللورين ويعده بكونتيّة فردان. فيتبع أخاه الأكبر إلى الحملة، مصطحباً معه زوجته التي تموت في

أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٩٧ على مشارف مرعش. وخلال اجتياز المجر، يجري تسليمه كرهينة مؤقتة لدى الملك كولومان، لضمان الاتفاق الخاص بمرور القوات.

وإذ ينفصل عن القوة الرئيسية للجيش مع تنكريد، يجتاز قيليقيا. ويفتح مع عدد من الفرسان البلاد الواقعة إلى غربي نهر الفرات (شتاء ١٠٩٧)، ثم يلبي طلب العون الذي يوجهه إليه توروس، صاحب الرُّها، بشرط أن يتبناه الأخيرُ الذي لا وريث له. وفي مارس/ آذار ١٠٩٨، يؤدي تمرد نشب بحفز منه أو تركه يُحدِثُ أثره إلى تخليصه من توروس ويجعل من بودوان مؤسس أول دولة فرنجية في الشرق، هي كونتية الُرها. وهو يتميز فيها بقسوته وعنفه. كما ينتزع مبالغ مالية ضخمة من الأغنياء الأرمن ويتزوج ابنة سيد مرعش. وعندما يموت أخوه، جودفروا البويّوني، يُستدعى لخلافته، وذلك بالرغم من معارضة البطريرك دايمبرت والإيطالي ـ النورماني تنكريد. وبتتويجه في بيت لحم، يصبح أول ملك على مملكة لاتينية.

٤-٠٥ ريمون السانجيلي

إن ريمون الرابع السانجيلي، قائد قوات بروفانس ولانجدوك في الحملة الصليبية، هو كونت تولوز، و، عبر الزواج، مركيز بروفانس؛ وبهذه الصفة، يعد في عام ١٠٩٥ واحداً من أقوى سادة فرنسا الإقطاعيين؛ فهو يحوز ثلاث عشرة كونتية في بروفانس وفي لانجدوك. وكان قد شارك في عام ١٠٨٧ في عمليات الـ *Reconquista* في إسبانيا وربما كان قد قام بحج إلى الأرض المقدسة قبل الحملة الصليبية.

وهو يلتقي البابا اوربان الثاني قبل مجمع كليرمون، حيث جاء رسله ليعلنوا التزامه بالرحيل إلى الشرق، دون تفكير في العودة، بحسب مدون أخباره. ومصحوباً بعديد من الأتباع وبالنائب البابوي، أديمار دو مونتيل، وإن كان مصحوباً أيضاً بفقراء يعتبرونه القائد الحقيقي للحملة الصليبية، يأخذ في خريف عام ١٠٩٦ الطريق عبر بروفانس وجبال الألب وإيطاليا الشمالية والساحل الدالماسي ودوراتسو وطريق إغناطيوس؛ ويصل إلى القسطنطينية في أبريل/ نيسان ١٠٩٧. وفي حضور أليكسيوس الأول كومنينوس، يرفض تقديم فروض الولاء، ويكتفي بالتعهد بالإخلاص للبازيليوس. وأمام أنطاكية، يميل إلى مراعاة التعهدات التي التزم بها حيال أليكسيوس ويتخذ موقف الخصومة حيال بوهيموند. وفي يناير/ كانون الثاني ١٠٩٩، يتولى قيادة الزحف على القدس، مع اجتهاده، دون نجاح كبير، في أن يشكل لنفسه إمارة حول طرابلس (الاستيلاء على طرطوس). وخلال حصار

القدس، يضع قواته على جبل صهيون ويتغلغل في المدينة في ذات الوقت الذي يتغلغل فيها اللورينيون. وعندما يتعين تقرير مصير المدينة المقدسة، يدخل في تنافس مع جودفروا البويّوني الذي يؤثره قادة الجيش عليه. وينشب التنافس بينهما مرة أخرى خلال معركة عسقلان ويؤدي إلى فشل فتح هذا الموقع. وإذ يرجع إلى سوريا الشمالية، يستولي على بيبلوس بمساعدة أسطول جنوي، ويعود إلى القسطنطينية حيث يترأس الحملة الصليبية لعام ١١٠١، والتي تتوقف فجأة بلا نتيجة. وعندما يرجع إلى لبنان، يتولى حصار طرابلس، لكنه يقضي نحبه في عام ١١٠٥، قبل أن يتمكن من تشكيل الكونتية التي سوف تكون من نصيب وريثه، برتران السانجيلي.

والحال أن ريمون الرابع الذي كان نموذجاً للفارس المسيحي في نظر مدوني الأخبار آنذاك، ليس عديم الغطرسة والتشدد، ولا عديم الأطماع الدنيوية، كأنداده؛ لكنه لا ينجح في تحقيقها بالقدر الذي نجحوا هم به في تحقيق أطماعهم.

٥. طرق الحملة

بالنظر إلى اختلاف أصولهم الجغرافية، سوف يتخذ قادة الحملة المختلفون طرقاً برية مختلفة لزحفهم على القدس، وذلك بقدر ما أن أحداً من بينهم، في أواخر القرن الحادي عشر هذه، لا يفكر في اتخاذ الطريق البحري.

ومن حملة إلى أخرى، قلما تختلف الطرق التي يتخذها الحجاج. وإذ تخرج الجيوش من الغرب، يتعين عليها بالضرورة اجتياز شبه الجزيرة البلقانية، واجتياز المضائق إمّا عند القسطنطينية نفسها أو عند مسافة أبعد غرباً في إقليم أبيدوس (الدردنيل)، وعبور هضاب الأناضول السهبية، لكي تنفذ عبر ممرات طوروس إلى سهل قيليقيا وتصل، من هناك، إلى أنطاكية، بوابة سوريا.

ويجتاز الصليبيون أولاً السهل الدانوبي الواسع الذي يفضي إلى شبه الجزيرة البلقانية، الجبلية إلى حد بعيد؛ فإلى جهة الغرب، نجد أن سلسلة الجبال الدينارية الموازية لساحل البحر الأدرياتي والتي تجد امتداداً لها في جبال بندوس لا تحول تماماً دون قيام علاقات مع الداخل، وهي علاقات تجد سهولة نسبية انطلاقاً من الساحل الألباني. وفي الشمال، تعد سلسلة جبال البلقان، من جانب نهر الدانوب، صورة مكررة من قوس جبال كارباتي وجبال الألب الترانسلفانية؛ والحال أن عدداً من الممرات الجبلية سهلة الاجتياز إنما تُوجد اتصالاً بوديان مورافا والهبر (ماريتسا)، التي تفصلها عن بحر ايجه هضبةُ رودوبي

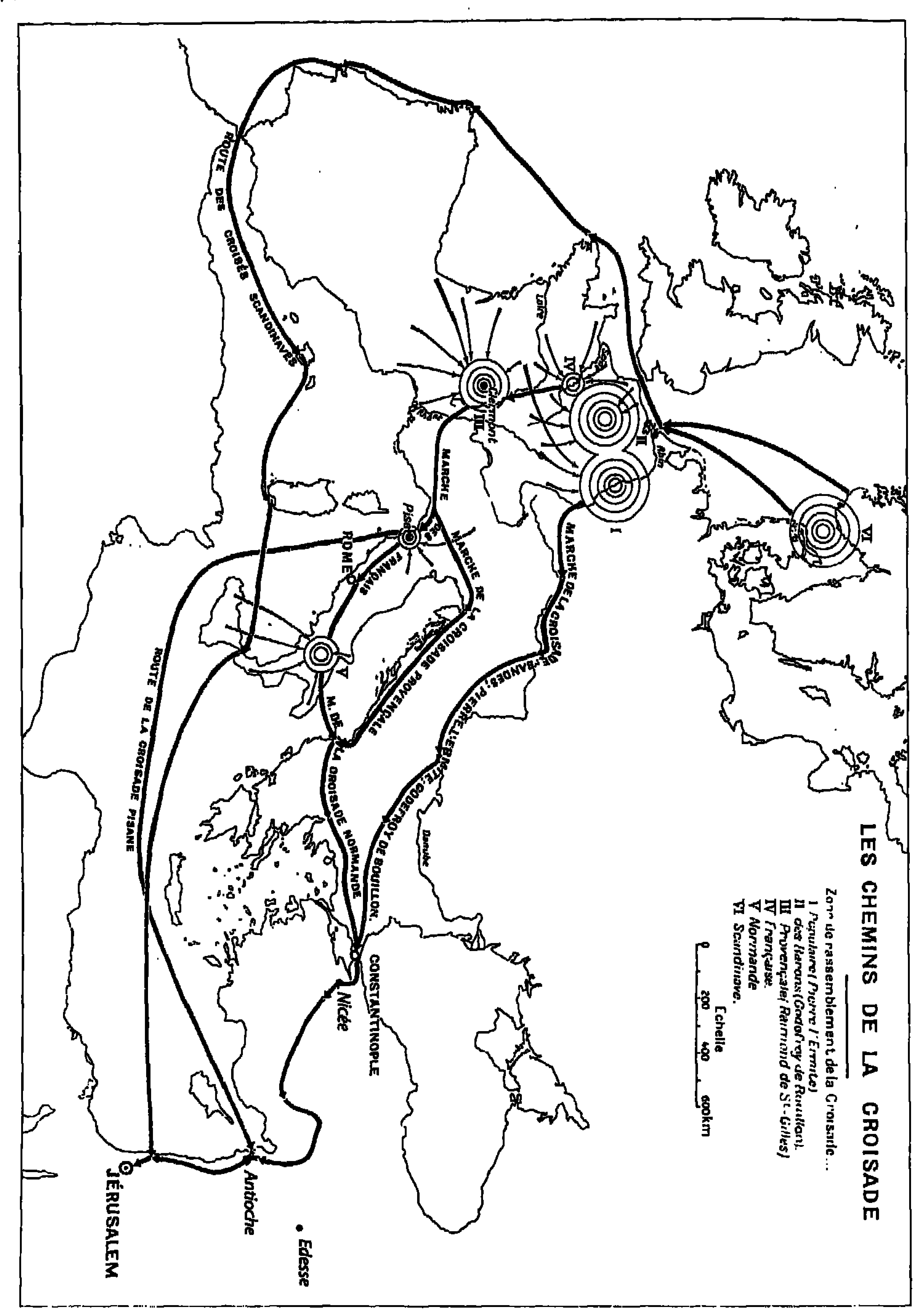
الجرانيتية القديمة والتي يزيد ارتفاعها الأقصى عن ٢٩٠٠ متر. وتتحكم التضاريس في تحديد مسار الطرق الذي قلما تغير منذ العصر القديم. إن الطريق القاري الرئيسي بين وسط أوروبا والقسطنطينية يبدأ من بلجراد، ويحاذي الدانوب حتى فيميناكيوم، ثم يتغلغل عبر وادي مورافا في ميزيا، حيث تمثل نيش مفرق طرق مهماً في قلب شبه الجزيرة. ويجتاز الطريق الإمبراطوري الممرات لكي يصل إلى حوض صوفيا (سيرديكا). وعن طريق منافذ تراجانوس يصل المرء بعد ذلك إلى فيليبوبوليس ووادي الهبر، حيث تفضي مدينة أندرينوبول إلى سهل تراقيا؛ وعند منتهاه الشرقي، يصل المرء أخيراً إلى القسطنطينية. وعلى طول هذا الطريق، الذي يمكن اجتيازه في شهر، يتعين على الصليبيين أن يواجهوا رعب الغابة البلغارية وكمائن الشعاب الجبلية وقوة الحصون البزنطية التي تسد عليهم الطريق. وهذا هو الطريق الذي سلكه في ١٠٩٦-١٠٩٧ صليبيو بطرس الناسك وشمالي فرنسا، وسلكه في عام ١١٤٧ كونراد الثالث ولويس السابع، ثم سلكه في ١١٨٩-١١٩٠ فريدريك الأول بربروسّا، والذين كان يتعين عليهم شق طريق وسط السكان الصرب والبلغار المتحفظين دائماً والمناوئين غالباً.

ويتاح طريق روماني و"إمبراطوري" ثان للصليبيين القادمين من جنوب فرنسا ومن إيطاليا: ذلك هو طريق إغناطيوس القديم. ويبدأ هذا الطريق من دوراتسو، على الساحل الألباني، ويصل إلى أوكريدا ثم إلى سلانيك، عند مخرج وادي فاردار. ثم يمتد طريق إغناطيوس على طول ساحل بحر ايجه ويتصل في هرقلية بالطريق القادم من أندرينوبل. وبعد يومين من هناك يصل المرء إلى القسطنطينية. والحال أن هذا الطريق الذي يمثل الطريق الأكثر مباشرة بين البحر الأدرياتي وعاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وهو طريق يجتاز البلقان، إنما يكتسب أهمية عظمى بالنسبة للغربيين؛ فالحملة الصليبية النورمانية تسلكه، وكذلك قوات ريمون السانجيلي التي، بعد اجتيازها السهل البادانى، حاذت جبال الألب الدينارية ثم أخذت طريق إغناطيوس، عند طرفه على البحر الأدرياتي، أي عند دوراتسو.

أمّا اجتياز المضائق، والذي يتولاه الأسطول البيزنطي، فهو يتم على مقربة من القسطنطينية. وفي اسيا الصغرى، تعد التضاريس والمناخ قليلة الملاءمة لزحف الجيوش الغربية. فشبه الجزيرة يقدم تبايناً بين هضبة داخلية عالية ذات شكل سهبي، والجبال الحدودية، الموازية للساحل، والتي تشكل عقبة أمام المواصلات، اللهم إلاّ على الضفة الايجية، الأكثر انخفاضاً، حيث تتغلغل نحو الداخل تغلغلاً عميقاً وديانٌ، كوادي هيرموس

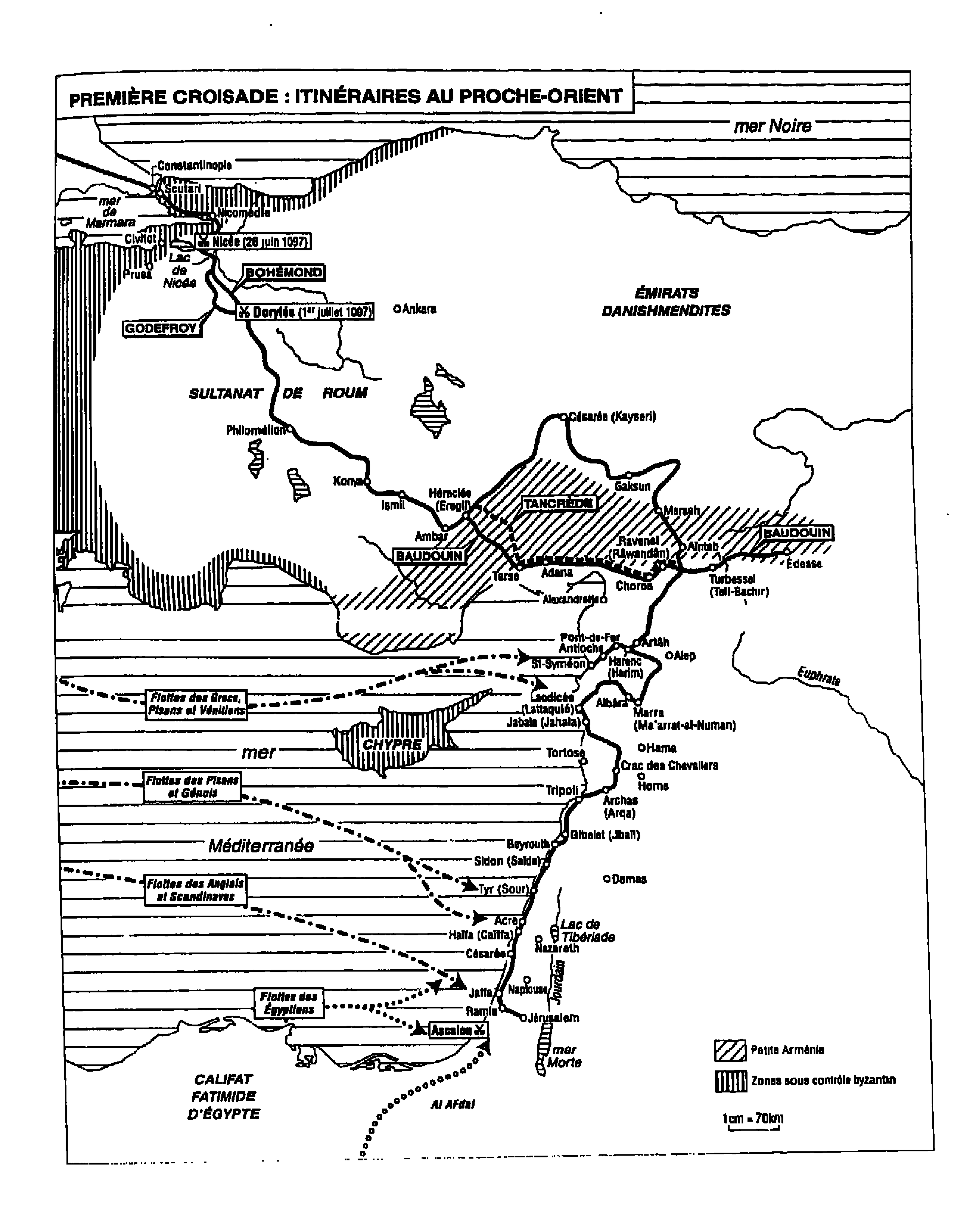
ووادي مياندر. ويسيطر على مجمل الأناضول مناخ قاري فظ، أكثر ملاءمة لاقتصاد رعوي مما لزراعة فلاحين مستقرين. ذلك هو حال البلد الذي يتعين على الصليبيين اجتيازه: بلد تباينٍ حادٍ لدرجات الحرارة في الفصول القصوى [الشتاء والصيف]، حيث تسود حرارة خانقة في الصيف ويندر سقوط الأمطار وتتباعد نقاط توافر المياه تباعداً جسيماً. ويتمتع الصليبيون بشبكة طرق موروثة من زمن الإمبراطورية الرومانية وتتعهدها بيزنطة بحسن الرعاية حتى القرن الحادي عشر. فإلى الغرب، ينطلق طريق ساحلي من نيقية ويربط بين مدن يونانية قديمة، هي ميزيا وليديا وكاريا وصولاً إلى أضاليا، وراء طوروس الغربية. على أن المحور الرئيسي هو المحور الذي يسمح للجيوش البيزنطية بالخروج لحماية حدود الإمبراطورية من العرب؛ وبما أنه يتجه من الشمال ــ الغربي إلى الجنوب ــ الشرقي، فإنه يقطع كل الهضبة الأناضولية، من نيقية إلى طوروس قيليقيا، مروراً بدورولايون [دوريلة] ولاودقية (كيكومين) وايكونيوم (قونية) وهرقلية؛ وهو يفضي إلى أرمينيا الصغرى من خلال منافذ قليقيا. ووراء السهل السبخي، الذي لا تنصرف مياهه جيداً عبر الساروس والبيراموس، يصطدم الصليبيون بالأمانوس الذي يمكن الالتفاف حوله من الشمال (مرعش) أو اجتيازه عبر المعبر الضيق لمنافذ الأمانوس، والتي يمتد في جنوبها وادي نهر العاصي، عند أنطاكية.

وتتشكل بلاد سوريا الشمالية ولبنان من سلسلتين متوازيتين، متجهتين من الشمال إلى الجنوب وتنفصل إحداهما عن الأخرى بمنخفض عميق يحتله المسار الأعلى لنهري العاصي والليطاني، ثم نهر الأردن حتى البحر الميت. والسلسلة الساحلية تحتلها منخفضات صغيرة تشكل ممرات إلى داخل سوريا. والطرق الرئيسية هي طريق السهل الساحلي، الذي سلكه الصليبيون في عام ١٠٩٩ إلى يافا، وطريق حافة الهضبة السورية، والذي يمتد إلى مصر جنوباً، كما يمتد إلى بلاد الرافدين شمالاً. والحال أن الصليبيين لم يتسن لهم قط مد ممتلكاتهم بما يكفي نحو الشرق لكي يسيطروا على الطريق العظيم لمرور الرُحّل، إلاّ وراء البحر الميت بالاعتماد على حصنْ مواب ومونريال (الشوبك). ومن ثم يتعين عليهم مراقبة مدخل المنخفضات الرئيسية التي تصل السهل الساحلي بالداخل؛ وفي هذه الأقاليم تحديداً سوف يبنون شبكة حصونهم الأكثر كثافة، حول الخليل ووادي الليطاني وخلف طرابلس وطرطوس.



الشكل ٢ - طرق الحملة الصليبية . المصدر:

R.GROUSSET, Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem, éd. Plon, Paris, 1934



الشكل ٣– الحملة الصليبية الأولى : الطرق إلى الشرق الأدنى. المصدر :
J.RICHARD, Histoire des croisades ed. Fayard, Paris, 1996

ولا تتيح الطرق التي سلكها الصليبيون تنويعات كثيرة؛ فهذه الطرق إنما تفرضها التضاريس وتتماشى مع الطرق الرومانية والبيزنطية الكبرى التي تُوجدُ الاتصالات بين الأجزاء الغربية والشرقية للإمبراطورية الرومانية القديمة.

٦٠ زحف الصليبيين إلى القسطنطينية

رأينا أن النداء الذي أطلقه البابا أوربان الثاني، في ٢٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٥، على أثر انتهاء مجمع كليرمون، قد لقي صدى فورياً وواسعاً في الجانب الأعظم من الجماعة المسيحية، وبالأخص على الأرض الفرنسية. ويبدأ المشاركون في المجمع بنشر الأنباء ثم يتبعهم الرهبان وكهنة الأرياف والدعاة الشعبيون، مثل بطرس الناسك، بحيث إنه في غضون بضعة شهور يصل محتوى الرسالة إلى جميع قرى وقصور الجماعة المسيحية. وتشتد الحماسة من جراء حوادث طبيعية تشير إليها مدونات الأخبار ـ خسوف القمر، سقوط النيازك، النشاط الشمسي المتزايد ـ بينما تنتشر نبوءة أخروية تعلن تتويج آخر إمبراطور في القدس قبل انتهاء الزمان.

ويستعد الاف الناس للرحيل: أمراء وسادة إقطاعيون، وفلاحون وكهنة ورهبان، في حين أن البابا لا يفكر إلاّ في حملة عسكرية لفرسان مسلحين جيداً. والدوافع مختلطة. فعجائب الشرق، عجائب مدنه وقصوره، تلهب الخيال: إن الأمراء والسادة الإقطاعيين يحلمون بمجدٍ سهل المنال، مع حرصهم على الوفاء بالتزاماتهم التي تمليها عليهم مكانتهم في صفوف الجماعة المسيحية. أمّا الفلاحون وسكان المدن، إذ يخلطون بين أورشليم السماء وأورشليم الدنيا، فهم يبحثون عن سبيل للخلاص أو يهربون من أوضاعهم كتابعين. والحال أن التقوى والرغبة في التكفير وشعور العطف على الأماكن المقدسة لما تلقاه من عنت، بأكثر من الأمل في الكسب الدنيوي، هي التي تدفع النبلاء والقرويين إلى الاستجابة بحماس للنداء البابوي. وكثيرون يبيعون ممتلكاتهم، دون تفكير في العودة، أو يرهنونها لدى المؤسسات الكنسية أو يعتمدون على مساعدة الأقارب أو الأصدقاء لهم. وقليلون يقدّرون تقديراً صحيحاً العبء المالي الضروري لاجتياز طريق طويل كهذا؛ ويرى الفقراء أنه سوف يتسنى لهم العيش على أموال الأغنياء.

وفي ربيع ١٠٩٦، على أثر دعوة بطرس الناسك في وسط فرنسا، وشامبانيا واللورين والأقاليم الرينانية، تتشكل جماعات، يقودها زعماء محليون صغار، بل وفلاحون. وهي تتضخم من قرية إلى أخرى وتتجمع. وبقدر زحفها باتجاه الراين، وإذ تخلط بين العدو

المستهدف، أي الساراسان [المسلمين]، واليهود المعتبرين مسئولين عن موت المسيح، تقوم باضطهاد الطوائف اليهودية في ميتز وتريف وماينس وكولونيا وورمس وشبيير. وتتتابع أعمال السلب والنهب والعنف والمجازر: فالأساقفة لا ينجحون في احتواء غضب الزاحفين الانتقامي.

وتذوب كالملح مجموعتان من الساكسون والرينانيين قبل الوصول إلى المجر. في حين أن مجموعتين أخريين، تحت قيادة جوتييه المعدم وبطرس الناسك، تأخذان اتجاه الدانوب والبلقان. ويؤدي السعي إلى الحصول على مؤن إلى زيادة الصدامات مع السكان المحليين والقوات التي يرسلها أليكسيوس الأول كومنينوس، إمبراطور بيزنطة، للسيطرة على هذه القطعان، غير المرجوة، على طول الطريق الذي يؤدي، عبر نيش وصوفيا وأندرينوبل، إلى عاصمة الإمبراطورية. ومنذ وصولهم إلى القسطنطينية (أوائل أغسطس/ آب ١٠٩٦)، ينقلهم البازيليوس بسرعة إلى الضفة الأخرى للبوسفور. وإذ يصلون أمام نيقية في سبتمبر/ أيلول،، يبادون على أيدي الترك السلاجقة. وهكذا تنتهي "حملة الفلاحين"، التي يعود الناجون منها إلى القسطنطينية، على متن أسطول بيزنطي يلتقطهم. وفي نسيانهم للمؤن وللأدلاء الذين قدمهم الإمبراطور، يلقون عليه المسئولية عن الهزيمة.

وفي لحظة هذه الكارثة عينها، نجد أن أربعة جيوش للفرسان بقيادة كبار السادة المخفورين بالخدم وبالفلاحين، تستعد لأخذ طريق الشرق. والحال أن الجيش " اللوريني"، المؤلف من لورينيين، وإن كان مؤلفاً أيضاً من فلمنكيين وألمان، وعلى رأسه جودفروا البويّوني وأخوه بودوان دو بولونيا، إنما يجتاز المجر بناءً على اتفاق مع الملك كولومان ويصل إلى القسطنطينية في الأيام الأخيرة لعام ١٠٩٦. أمّا هيج دو فرماندوا، شقيق الملك فيليب الأول من آل كابيه، فهو موجود فيها منذ بضعة أسابيع، بصحبة فرسان من الزمام الملكي والذين، بعد اجتيازهم البحر الأدرياتي من باري إلى دورا تسو ، كانوا قد سلكوا طريق إغناطيوس الشهير، الذي يربط الساحل الألباني بعاصمة الإمبراطورية. أمّا الجيش الفرنجي الثاني فهو جيش نورمان إيطاليا الجنوبية وصقلية؛ وتحت قيادة بوهيموند التارانتواني، ابن روبير جيسكار، الذي كان قد هاجم بيزنطة قبل ذلك بخمس عشرة سنة، يجتاز هذا الجيش البلقان من دوراتسو ويصل إلى القسطنطينية في أبريل/ نيسان ١٠٩٧. ويتبعه جيش البروفانسيين واللانجدوكيين، تحت قيادة ريمون السانجيلي، كونت تولوز، ومندوب البابا، آديمار دو مونتيل، أسقف بوي. وإذ يتحرك الجيش في خريف ١٠٩٦، فإنه يختار الطريق البري عبر جبال الألب وإيطاليا الشمالية وساحل دالماسيا، لكي يصل

إلى دورا تسو ويتابع الزحف عبر طريق إغناطيوس إلى القسطنطينية. وأخيراً، في مايو/ آيار ١٠٩٧، يصل الجيش الرابع، المؤلف من صليبيي شمال-غربي فرنسا وإنجلترا والذي يقوده عدة قادة، هم روبير كورتيوز، دوق نورماندي، وايتيان، كونت بلوا، وروبير الثاني، كونت الفلاندر. ونقطة التقاء هذه الجيوش الأربعة هي القسطنطينية التي تعد نقطة المرور الإلزامية للصليبيين السالكين الطريق البري إلى القدس. لكن الإمبراطورية بعيدة عن رجاء وصول هؤلاء المحاربين المتغطرسين والمتكبرين، الذين يزدرون البلاط البيزنطي والذين اصطدموا بالقوات الإمبراطورية خلال زحفهم إلى القسطنطينية، وذلك بقدر ما أن أيديولوجية الحركة الصليبية تظل غريبة تماماً عن الذهنية البيزنطية.

وهكذا كان على الإمبراطورية البيزنطية أن تحمي نفسها من هذه الجيوش غير المرجوة وأن تحدد سياسة تسمح للإمبراطورية بالاستفادة من النجاحات التالية التي قد يحرزها الفرنج على أعداء بيزنطة. إلاّ أنه بينما يطمح الغربيون إلى تكوين جبهة مشتركة ضد المسلمين، نجد أن الروم، الغريبين تماماً عن مؤسسة الحركة الصليبية وروحها، لا يسعون إلاّ إلى التخلص من القوات الغربية التي تزعج الإمبراطورية ويبدو أنها تهدد القسطنطينية. وينتج عن ذلك نوع من الريبة، وسوء الفهم، بل والعداوة التي ليس من شأنها إلاّ أن تتسع خلال القرن الثاني عشر بحيث تقود إلى المواجهة الكبرى التي تتمثل في استيلاء اللاتين على القسطنطينية خلال الحملة الصليبية الرابعة.

وسعياً إلى النضال ضد الترك في آسيا الصغرى وقبائل البيتشينيج أو الكومان على حدود الدانوب، استأنفت الإمبراطورية في القرن الحادي عشر العادة المتمثلة في تجنيد مرتزقة من مختلف الأصول. ولا ريب أنه في هذه الروح خاطب البازيليوس أليكسيوس الأول كومنينوس أوربان الثاني، في مستهل عام ١٠٩٥، راجياً إرسال جماعة محدودة من الفرسان الغربيين إلى القسطنطينية. على أن نداء البابا، في مجمع كليرمون، كان يهدف إلى هدف آخر تماماً؛ فهو يريد العمل على تكوين جيش يخرج إلى نجدة الكنائس الشرقية التي يضطهدها الترك. وهكذا يرى البازيليوس، خلال عامي ١٠٩٦ و١٠٩٧، مجيء الموجات المتعاقبة من الحملات الصليبية "الشعبية " وحملات البارونات. والحال أن أنّا كومنينا، ابنة البازيليوس التي عاشت الأحداث وعرفت الفاعلين فيها، إنما تقدم في عملها الأليكسيادة، وجهة النظر البيزنطية. فهي ترى أن اللاتين برابرة غلاظ جعجاعون متغطرسون طماعون، لا يترددون في نهب وسلب المدن والقرى وحتى على مشارف القسطنطينية نفسها، حيث يتصرفون كجيش من الجراد يهجم على الإمبراطورية. ويبرز

بينهم بوهيموند وتنكريد، وريثا روبير جيسكار الذي اعتدى على الأرض البيزنطية بين عامي ١٠٨١ و١٠٨٥: فكيف لا يرتاب المرء في كل أولئك الغربيين، إن كان بينهم مثل هؤلاء الأعداء؟ ومَثَلُ الصليبيين الأعلى الذي يتمثل في الحج المسلح لا يفهمه الروم: فهؤلاء يغضبون إذ يرون البابوية تشن الحرب التي تعد، في بيزنطة، قراراً للأمير، ويغضبون كذلك إذ يرون رجال دين يشاركون في المعارك، ونساءً وأطفالاً يصاحبون الرجال المسلحين. لا شيء من هذا يشبه الغارات شبه السنوية التي يشنها عادة جنود الإمبراطورية، المرابطون في قواعد على الحدود، ضد المسلمين! والانزعاج البيزنطي يتفجر بالفعل: إن الحملة الصليبية تريد الاستيلاء على القسطنطينية؛ وهي تشكل قناعاً لمشاريع الغرب التوسعية المستترة ولمخططات البابوية الخبيثة ضد العالم الأرثوذكسي الذي يجري الاعتداء عليه دون حق.

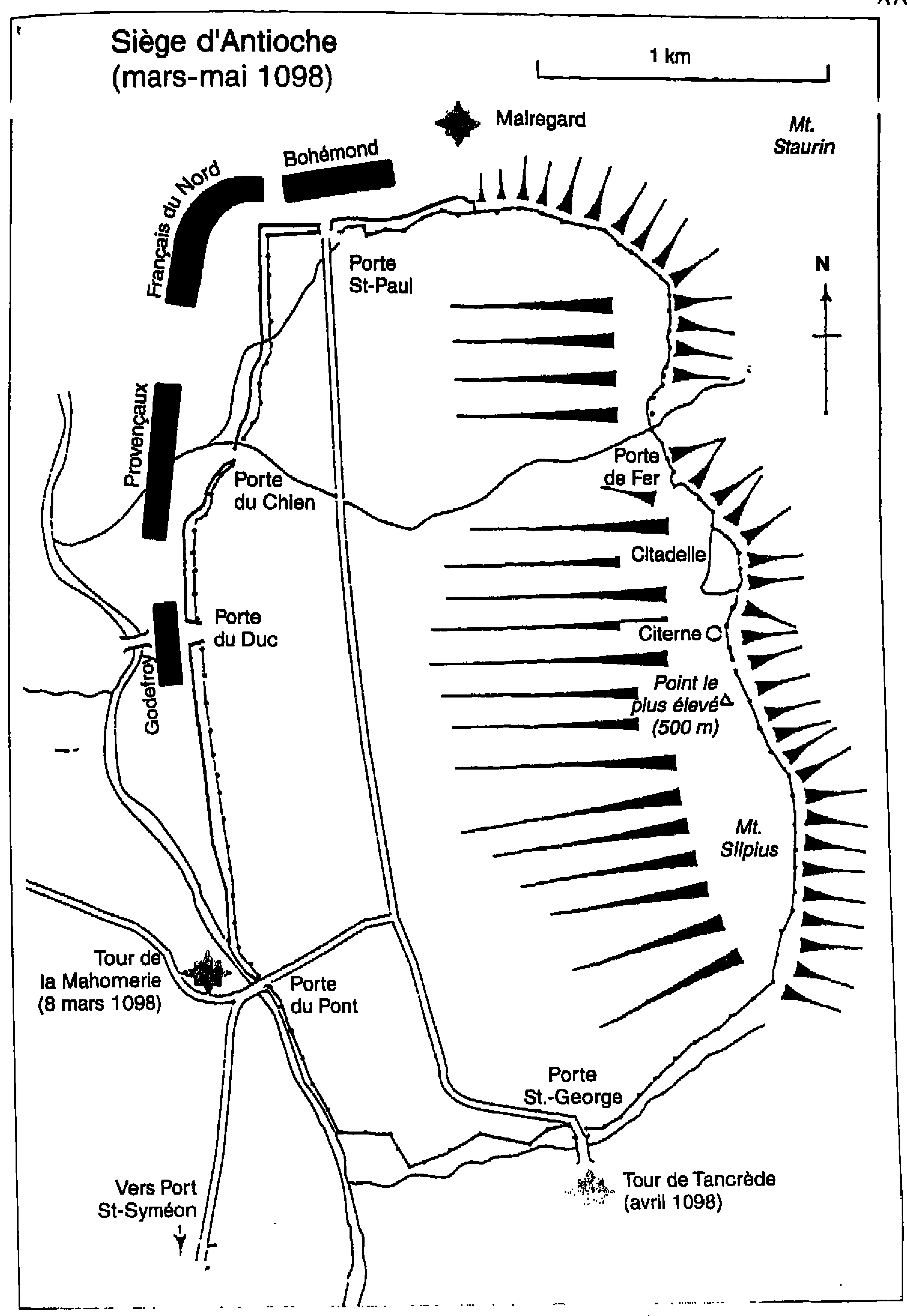
على أن البازيليوس لابد له من مداراة اللاتين، باسم الإخاء المسيحي؛ وهو يراقب زحف جيوشهم ويعمل على تفادي تركزها حول عاصمته، وذلك بنقلها حال وصولها إلى الساحل الأسيوي للبوسفور. وهو يعتمد الأعراف الإقطاعية ــ كالإعراب عن الولاء وأداء اليمين ــ لكي يطمئن إلى ولاء القادة ولكي يحصل منهم على الوعد بتسليم الإمبراطورية جميع الأراضي البيزنطية السابقة التي قد يتسنى لهم فتحها. وبعد مفاوضات صعبة، ينجح في الحصول من القادة على يمين ولاء، لا يرفض تقديمه غير ريمون السانجيلي الذي لا يريد أن يكون تابعاً لسيد آخر غير المسيح. وفي مقابل أدائهم اليمين، يمنح البازيليوس القادة الفرنج هدايا ــ حيث ينبهر بوهيموند بأبهة الكنوز البيزنطية ــ وأدلاّء للطريق، ومؤناً للقوات. وهكذا ترتسم المعالم الأولى لتنسيق بيزنطي ــ لاتيني، وإن كان لا يخلو من الهواجس والظنون.

٠٧ من القسطنطينية إلى القدس

بعد إغداق الهدايا والمؤن والمساعدات عليهم، يتغلغل القادة الصليبيون في آسيا الصغرى التي يسيطر عليها السلاجقة منذ انتصارهم في مانزكرت (١٠٧١). وهم يحاصرون مدينة نيقية التي تستسلم في ١٩ يونيو/ حزيران ١٠٩٧ ويجري ردها إلى مبعوث الإمبراطور، تماشيًا مع تعهداتهم. وفي أول يوليو/ تموز، يهزمون قوات قلج أرسلان في دوريليون [دوريلة]: وعندئذ يكف الترك عن إبداء مقاومة حاشدة لزحف الصليبيين، لكنهم يعدون لهم كمائن قاتلة. ثم إن الحر وعدم كفاية الأغذية والماء والعلف للبهائم لمما يجعل الزحف صعباً، عبر أراضي الأناضول المرتفعة، شبه الصحراوية. وفي

١٥ أغسطس/ آب، يصل الفرنج إلى ايكونيوم [قونية]، وبعد ذلك بشـــهر، يصلــون إلــى هرقلية. وخوفاً من المرور عبر منافذ طوروس القيليقية، وهي المنافذ التي يسيطر عليـــها الترك، يتجه الجزء الأعظم من الجيش إلى قيصرية ويختار اجتياز أقاليم الجبـال الممتـدة إلى شرقي وسط طوروس والتي يحتلها سكان أرمن: وفي أواخر أكتوبر/ تشـرين الأول، يظهر أمام أنطاكية التي كان الترك قد انتزعوها من البيزنطيين في عام ١٠٨٥. علـى أن قوة أخرى، يقودها تنكريد، ابن أخت بوهيموند، وبودوان البويّوني، تمر عبر قيليقيا، التـي يجري احتلال مدنها: ومن هناك، مستجيباً لنداء أرمن الرُّها، المعادين لحاكمهم، تـوروس، يصل بودوان إلى الفرات الأعلى ويؤسس في مارس/ آذار ١٠٩٨ أول إمـارة للصليبييـن في الشرق، ألاّ وهي إمارة الرُّها.

أمّا أنطاكية، وهي مقر بطريرك رومي، وتقع على مسار نهر العاصي، فهي تسـيطر على مدخل سوريا الشمالية. وخلف سور قوي مزوّد بـــ ٤٠٠ بـرج، تُحتمـي جماعـة سكانية معظمها من الروم والأرمن. وفي عام ١٠٩٧، كان يحكمها أمير سـلجوقي، تـابع لأمير حلب، بعد أن كانت لوقت طويل إحدى أهم مدن الإمبراطوريـة البيزنطيـة. وكـان البازيليوس أليكسيوس الأول كومنينوس قد قام، مقـابل المسـاعدة التـي قدمـها، بـإلزام الصليبيين بأداء قَسَمٍ برد المدينة إليه، بمجرد فتحها. وتصل جيوش الحملة الصليبية الأولـى أمام أنطاكية في ٢١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٩٧. ويبدأ حصار طويـل سـوف يسـتمر لأكثر من سبعة أشهر (من أكتوبر/ تشرين الأول ١٠٩٧ إلى يونيـو/ حزيـران ١٠٩٨). وبما أن الصليبيين لا يملكون آلات الحصار ولا المؤن، فإنهم يمرون بأوقـات عصيبـة. وتؤدي غارات الترك إلى إثارة الفوضى في صفوف المحـاصرين، المـهدّدين بجيـوش النجدة القادمة من حلب ومن دمشق. ويؤدي الجوع إلى إرغام الفرنج على شـن غـارات سلب ونهب بعيدة، كما يؤدي إلى حالات فرار، كفرار بطرس الناسك والقـائد البـيزنطي تاتيكيوس. على أن وصول الأساطيل الجنوية والإنجليزية الصغيرة يحسّنُ الوضع بعـض الشيء. وفي مايو/ أيار ١٠٩٨، يبدو أن الإعلان عن اقتراب جيش جرار بقيـادة كربُغـا، أتابك الموصل، يدق جرس الفناء للصليبيين المحاصَرين بيـن أسـوار أنطاكيـة وقـوات المسلمين. لكن بوهيموند ينجح عندئذ في عقد صلات مع أرمني مرتد، يقود أحـد أبـراج المدينة؛ وعبر فعل خيانة، يسمح الأرمني للفرنج بدخول أنطاكية، وذلك قبل يوميـن مـن وصول جيش كربُغا. عندئذ يصبح المحاصِرين بدورهم محاصَرين في أسـوأ الظـروف:

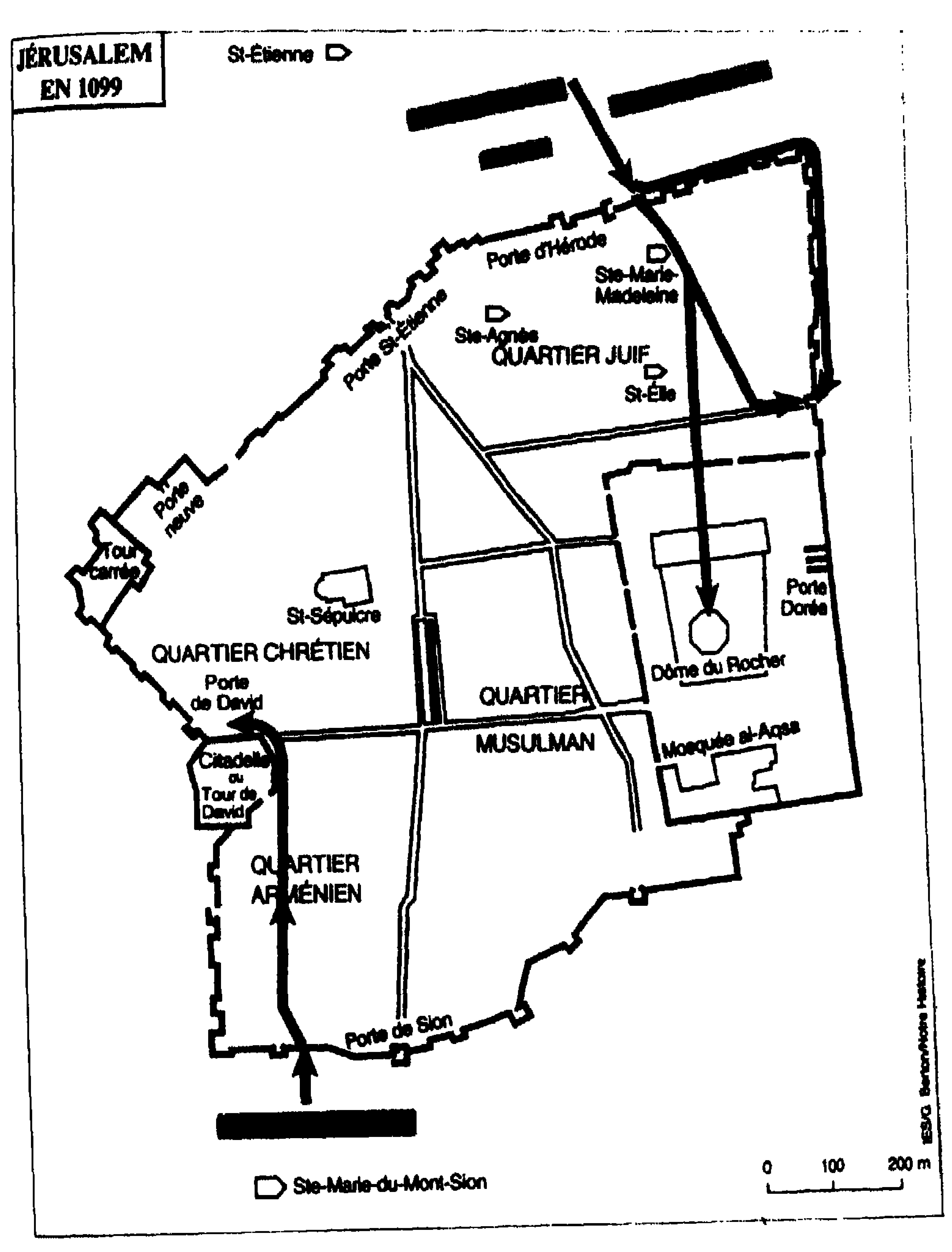


الشكل ٤– حصار أنطاكية (مارس/آذار - مايو/ أيار ١٠٩٨) المصدر :
J.FRANCE., Victory in the East. Cambridge univ. Paris, 1994

المجاعة ورائحة الجثث الوبيئة. وفي تلك اللحظة يجري اكتشاف الحربة المقدسة ــ كونها قد طعنت جنب المسيح ــ في إحدى الكنائس بناءً على تحديدٍ لمكانها قام به كاهن مكشوف عنه الحجابُ، هو بطرس بارتيليمي. وفي فورة للحماسة التي لم يكن من السهل على عدم استعداد البعض للتصديق تخفيفها، ألحق الفرنج الهزيمة بجيش كربُغا، في ٢٨ يونيو/ حزيران؛ وهكذا أصبح طريق القدس مفتوحاً أمامهم، إذ لم يعد بوسع أية قوة مسلمة صدهم. ويبقى تسوية مصير أنطاكية: وبالرغم من معارضة ريمون السانجيلي والمطالب البيزنطية، يصبح بوهيموند، الصانع الرئيسي للفتح، سيداً على المدينة، التي سوف تصبح قاعدة لإمارة يؤسسها النورمان في المستقبل. ويؤدي تعب القوات وحر الصيف وجشع البارونات وتنافساتهم إلى تأخير استئناف الزحف في اتجاه الجنوب. ومن ثم فإن القدس، التي استولى عليها فاطميو مصر للتو، تبدو شبه منسية. لكن نفراً من الرجال عديمي الشأن، الحفاة، الطافور [المتشردين]، يعيدون إحياء روح الحرب المقدسة. إنهم يتمردون على الأكابر ويجبرونهم على استئناف السير على الطريق في يناير/ كانون الثاني ١٠٩٩.

وإذ يبقى بوهيموند في أنطاكية، يتولى ريمون السانجيلي القيادة. وهو يستولي على طرطوس، ويفرض حصاراً لا طائل من ورائه على عرقة، ويفكر في إرساء قواعد لإمارة في إقليم طرابلس. وعلى مسافة أبعد جنوباً، نجد أن أمراء مدن ساحلية، من أرومة عربية، يقبلون دفع إتاوة وتقديم المؤن للصليبيين، حتى يتخلصوا منهم بأسرع ما يمكن. وإذ تحرص قوة الفتح على تجنب حصار المدن والقلاع، التي تحميها حاميات فاطمية ضعيفة، فإنها تتقدم بسرعة. وفي ١٩ مايو/ أيار، تصل إلى مشارف بيروت، وتتوقف قليلاً أمام قيسارية في ٣٠ من الشهر المذكور، ثم، قبل أن تصل إلى يافا، التي هجرها المسلمون، تميل إلى الرملة حيث تترك هناك حامية، وذلك سعياً إلى السيطرة على الطريق من يافا إلى القدس، الضروري للتموين المنتظم للحملة الصليبية.

وفي ٧ يونيو/ حزيران، تصل إلى رابية تطل على المدينة المقدسة، وتكتشف القوةُ بشعور لا يوصف الأسقف المنبسطة للبيوت وقباب المساجد، والمآذن، والقبر المقدس. وفي رعشة مسيانية، يجثو الصليبيون ويصلّون. إن العالم الدنيوي يتسامي، ويسود الاعتقاد بأن الملائكة سوف تجئ لمساعدة الفانين دعماً لهم في الاستيلاء على القدس.



الشكل ٥ – القدس فى عام ١٠٩٩. المصدر :
مجلة Notre Histoire, N°167

والواقع أن الأمر يتطلب سبعة أسابيع من الحصار حتى يتم ذلك. ففي مواجهة أربعة كيلومترات من الأسوار وحامية فاطمية جيدة، لا يمكن للصليبيين رص أكثر من ١٢٠٠ فارس و١٢٠٠٠ من جند المشاة، وهو عدد غير كاف لتطويق المدينة. ثم إنه لا جدوى من الصوم والصلوات ومواكب الطواف. ويتعين انتظار المعجزة المأمولة؛ وهناك افتقار فظيع إلى الماء والخشب اللازم لبناء آلات الحصار. ومن ثم يجري تفكيك أخشاب المراكب الجنوية التي تصل إلى يافا؛ ويساعد الخشب المنقول إلى القدس في بناء أبراج متحركة. وفي يوم الجمعة ١٥ يوليو/ تموز ١٠٩٩، يتم شن الهجوم العام: ففي ساعة صلب المسيح، ينجح جودفروا البويّوني في الاقتراب من أحد أبراج السور الشمالي وفي إدخال رجاله من هناك. وفي اللحظة نفسها، يتغلغل ريمون السانجيلي في المدينة، من جهة جبل صهيون ويحصل على استسلام الحامية المصرية. وعلى مدار ثلاثة أيام، تباح القدس للسلب والنهب والمجازر: إن عدداً من اليهود اللاجئين إلى الكنيس الكبير يجري حرقهم أحياء؛ والمسلمون، الملاحقون من بيت إلى بيت، يجري ذبحهم أو بيعهم كعبيد. ويتم إفراغ المدينة من سكانها المسلمين، في حين أن عدداً من اليهود الناجين يتم افتداؤهم بالمال في عسقلان من جانب اخوتهم في الدين من يهود مصر. واعتزازاً بنجاحهم، يرتل الفاتحون في كنيسة القيامة نشيد ثناء على الرب وحمد له على النصر واعتراف بمعروفه. وبعد ذلك بشهر، يوقفون في سهل عسقلان جيش نجدة مصرياً، لكنهم لا ينجحون في احتلال المدينة التي تظل في أيدي الفاطميين لأكثر من خمسين سنة.

وهكذا تنتهي الحملة الصليبية الأولى. ويبقى تنظيم الفتح وصونه. وموضوع مصير القدس يثير الانقسام في صفوف الجيش. فالفقراء يرون أن التوجيه الرباني للحملة الصليبية يجعل من المستحيل اختيار أمير دنيوي. ويميل الكهنة والأساقفة إلى دولة بابوية، يحكمها خليفة القديس بطرس الرسول. وكبار القادة يقبلون تولي أحدهم للحكم، لكنهم موزعون بين عدة مرشحين. وبما أن البابا لا يجئ إلى الأرض المقدسة، فإن قادة الحملة يقومون، منذ يوليو/ تموز ١٠٩٩، بانتخاب جودفروا البويّوني الذي يرفض اللقب الملكي ويصبح، في نظر البعض، قيّماً، أي حامياً للقبر المقدس. وعند موته، يجري تتويج أخيه بودوان دو بولونيا، أمير الرُّها، ملكاً على القدس، وذلك بالرغم من معارضة البطريرك دايمبرت (٢٥ ديسمبر/ كانون الأول ١١٠٠). ومنذ ذلك الحين، يجري تأمين المستقبل المؤسسي للأرض.

لكن مصيرها، في التو والحال، غير مؤكد. إن كثيرين من الصليبيين، إذ يعتبرون أنهم قد أوفوا بعهدهم، يسارعون بالعودة إلى الغرب. وفي عام ١١٠٠، قلما يبقى في القدس أكثر من ٢٠٠ فارس وألف من جند المشاة. ومن جهة أخرى، فإن العالم الإسلامي قد صُدم صدمة قوية من جراء الاستيلاء على المدينة. على أنه منقسم بحيث إن أي رد فعل إنما يبدو مستحيلاً في تلك اللحظة. لكن الفرنج ليسوا في مأمن من هَبَّة، من نداء إلى الحرب المقدسة، من استئناف للجهاد.

وفي الغرب، تسود الحماسة وتؤدي إلى تجنيد جيش صليبي آخر بهدف تعزيز الفتح. ويشن البابا الجديد باسكال الثاني حرماناً كنسياً ضد من لم يوفوا بعهدهم، أو من هربوا من الحملة الصليبية الأولى؛ تلك حالة ايتيان دو بلوا وهيج دو فرماندوا، الذي نجده من جديد على رأس الحملة الجديدة مع المندوب البابوي هيج دو دي ودوق أكيتين، جيوم الرابع. وفي إيطاليا وآكيتين وألمانيا وشمالي وشرقي فرنسا، يعد التجنيد مهماً أهميته في عام ١٠٩٦؛ وهو مصحوب لأول مرة بتناولات مهيبة للصلبان وبشعائر حج جماعية. ويرحل لومبارديون في سبتمبر/ أيلول ١١٠٠، ويصلون في الربيع التالي إلى القسطنطينية وينضم إليهم في نيقوميديا فرنسيون وبورجونيون. وتسعى هذه القوة الأولى إلى إطلاق سراح بوهيموند، الأسير لدى أمير سيواس، لكن التركمان سرعان مايشتتون شملها. ويقوم جيشان آخران تحت قيادة جيوم دو نيفير ودوق أكيتين بالمرور عبر القسطنطينية، ويزحفان في إتجاه ايكونيوم [قونية]، لكن الترك يقضون عليهما في هرقلية (ايريجلي) في غضون خمسة أشهر من زحفهما. ولا ينجح غير ناجين نادرين في الوصول إلى الأرض المقدسة التي لا يعود بوسعها ترقب نجدة إلاَّ عن طريق البحر. والحال أن فشل حملة ١١٠١ الذريع إنما يشير من باب المقارنة إلى الطابع الإعجازي للنجاحات المتحققة في ١٠٩٧-١٠٩٩. وفي الأعوام التالية، تساعد حملات أخرى قادمة بحراً على مواصلة الفتوحات: الأساطيل الإيطالية، حملة بوهيموند في ١١٠٧-١١٠٨، حملة سيجورد، ملك النرويج، في ١١٠٧-١١١٠. إلاَّ أنه يتعين على القادة الفرنج الباقين في مواقعهم، دون سواهم، أن يدعموا سيطرتهم وأن يوطدوا الدول اللاتينية الناتجة بلا روية عن حملتهم إلى القدس.

الاستيلاء على أنطاكية (يونيو/ حزيران ١٠٩٨)

ينتمي الكاتب المجهول لكتاب *Gesta Francorum* [مآثر الفرنج] إلى جماعة من الفرسان النورمان الذين صحبوا حملة بوهيموند الصليبية. وسرده، المكتوب غداة الاستيلاء على القدس (وهو سرد يتوقف عند معركة عسقلان، في أغسطس/ آب ١٠٩٩)، يشكل مصدراً على جانب كبير من الأهمية، ولو أنه يتميز بكراهية عميقة للكفار وبازدراء عظيم للروم:

أخيراً، بعد أداء صوم دام ثلاثة أيام وبعد السير في مواكب طواف من كنيسة إلى أخرى، اعترف الجميع بخطاياهم، وما أن تم الغفران لهم، اشتركوا مخلصين في تناول قربان جسد المسيح ودمه ووزعوا الصدقات وأقاموا قدّاسات[١].

ثم جرى تشكيل ستة فرق قتالية[٢] في داخل المدينة. وفي الفرقة الأولى التي تتقدم الفرق الأخرى كان هناك هيج الأصغر[٣] مع الفرنسيين وكونت الفلاندر[٤]؛ وفي الفرقة الثانية كان هناك الدوق جودفروا[٥] مع قواته؛ وفي الثالثة روبير النورماندي[٦] مع فرسانه؛ وكانت الرابعة تحت قيادة أسقف بوي، الذي حمل معه حربة المخلّص[٧]: وكان معه جماعته وجماعة ريمون، كونت سان جيل[٨]، الذي ظل على الرابية لحراسة القلعة، خوفاً من مجيء الأتراك. وذلك لمنعهم من الهبوط على المدينة؛ أمّا الفرقة الخامسة فقد ضمت تنكريد، ابن الماركيز[٩]، مع جماعته؛ وفي الفرقة السادسة كان الحكيم بوهيموند[١٠] وفرسانه. والحال أن أساقفتنا وقساوستنا وكهنتنا ورهباننا، المرتدين مسوحهم المقدسة، قد خرجوا معنا حاملين الصليب، داعين ومتوسلين إلى الرب ان ينقذنا وأن يحمينا من كل شر. بينما قام آخرون، صعدوا إلى أعلى البوابة، والصلبان المقدسة في أيديهم، برسم علامة الصليب علينا ومباركتنا. وعلى هذا التوزيع ومحميين بعلامة الصليب، خرجنا من البوابة المواجهة للماهوميري[١١].

وعندما عاين كوربارام[١٢] فرق الفرنج القتالية جيدة التنظيم وهي تخرج واحدة إثر أخرى، قال: " دعوهم يخرجون، فعندئذ سوف يكونون في متناولنا بشكل أفضل ". إلاّ أنه عندما اجتازت الفرق البوابات وعاين كوربارام جيش الفرنج الجرّار، استولى الذعر عليه. وعلى الفور، أخبر أميره المكلف بالمراقبة العامة بأن عليه، إن شاهد ناراً في مقدمة الجيش، أن يعلن الانسحاب لأنه، في هذه الحالة، سيكون الأتراك قد خسروا المعركة.

وسرعان ما بدأ كورباراm التراجع ببطء في إتجاه الجبل[١٣] وتبعه رجالنا بالايقاع نفسه. ثم قسَّمَ الأتراك أنفسهم: فاتجه فريق نحو البحر، بينما بقي الآخرون في مواقعهم آملين في حصرنا بينهم وبين ذلك الفريق. لكن جماعتنا أدركوا ذلك وقاموا بمثل ما قام به الأتراك. وجرى ترتيب فرقة قتالية سابعة من قوات تتبع الدوق جودفروا وكونت نورماندي ووضعت تحت قيادة رينو[١٤]. وجرى إرسال هذه الفرقة لمواجهة الأتراك القادمين من البحر. فخاض الأتراك معركة معهم وقتلوا كثيرين من جماعتنا بالسهام. وانتشرت كتائب أخرى من النهر إلى الجبل على امتداد ميلين.

وبدأت هذه الكتائب تتقدم من جهتين وطوقت رجالنا بعد أن جرحتهم بالرماح والسهام. كما شُوهد خروجٌ من الجبل لجنودٍ لا حصر لهم راكبين جياداً بيضاء وكانت راياتهم بيضاء هي الأخرى. وعندما عاين رجالنا هذا الجيش، لم يفهموا الأمر ولم يعرفوا من يكون هؤلاء الجنود، ثم تبين لهم أن هذه قوة نجدة من المسيح، يقودها القديسون جورج ومركوريوس وديميتريوس[١٥]. ولابد من تصديق هذه الشهادة، فقد عاين عديدون من جماعتنا هذه الأمور.

ولما أدرك الأتراك المرابطون جهة البحر أن لا قبل لهم بالصمود أكثر من ذلك، أوقدوا ناراً في الكلأ، كيما يراها من بقوا في الخيام ويلوذوا بالفرار. وإذ أدرك هؤلاء الإشارة، سارعوا إلى أخذ كل نفيس وهربوا. فتقدم رجالنا شيئاً فشيئاً في تشكيل قتالي نحو القوة الرئيسية لجيشهم، أي نحو مخيمهم. وسار الدوق جودفروا وكونت الفلاندر وهيج الأصغر راكبين جيادهم بمحاذاة النهر[١٦] حيث تخيم القوة الرئيسية لجيشهم. وبعد أن رسموا علامة الصليب على أنفسهم، شنوا ضدهم هجوماً شاملاً؛ وإزاء هذا المشهد، هجمت الفرق القتالية الأخرى عليهم. فتعالت صرخات الترك والفرس بينما قمنا نحن، مستعينين بالرب الحي الحق، بالهجوم عليهم و، باسم يسوع المسيح والقبر المقدس، خضنا المعركة و، بعون الرب، أحرزنا النصر عليهم.

عندئذ لاذ الترك بالفرار وقد استولى عليهم الذعر، بينما قام رجالنا بمطاردتهم إلى خيامهم. لكن فرسان المسيح الذي آثروا مطاردتهم على التقاط الغنائم طاردوهم إلى جسر فار ثم إلى قلعة تنكريد[١٧]. وقد ترك العدو فسطاطاته وذهباً وفضة ومتاعاً وفيراً ونعاجاً وأبقاراً وخيولاً وبغالاً وجمالاً وحميراً وقمحاً ونبيذاً ودقيقاً والكثير من الأشياء الأخرى التي تلزمنا. ولمَّا علِم الأرمن والسوريان الذين يسكنون تلك النواحي بانتصارنا على الترك، سارعوا بالاتجاه إلى الجبل لسد الطريق أمامهم وقتلوا كل من طالته أيديهم.

عندئذ عدنا إلى المدينة فرحين فرحاً عظيماً، مادحين ومباركين الرب الذي وهب النصر لشعبه ... وقد خيضت هذه المعركة في اليوم الرابع قبل غرة شهر يوليو، عشية عيد الرسولين بطرس وبولس(١٨)، تحت عهد السيد يسوع المسيح، له العزة والمجد في كل العصور، آمين!

المصدر:

Gesta Francorum, éd. L. Bréhier, *Histoire anonyme de la Première Croisade,* Les classiques de L'histoire de France au Moyen Âge, Paris, 1924, p.150-160.

---

١ ــ يشكل الاعتراف وتناول القربان وتوزيع الصدقات تهيئة روحية للصليبي.

٢ ــ لا تتفق المصادر على عدد هذه الفرق: إذ يرى ريمون الأجيليري وفوشيه الشارتري أنها أربعة، بينما يرى ألبير ديكس أنها عشر.

٣ ــ هيج، كونت دو فرماندوا، شقيق فيليب الأول، ملك فرنسا. وكنية " الأصغر" تعني "أخر المولودين".

٤ ــ روبير الثاني، ابن روبير لو فريسون، كونت الفلاندر منذ عام ١٠٩٣.

٥ ــ جودفروا البويّوني.

٦ ــ روبير كورتيوز، الابن الأكبر لجيوم الفاتح، دوق نورماندي منذ عام ١٠٨٧.

٧ ــ أديمار دو مونتيل، أسقف بوي ــ آن ــ فيليه، الذي عينه البابا نائباً وممثلاً له في جيوش الصليبيين. الواقع أن من حمل الحربة المقدسة هو ريمون الأجيليري، القس الخاص لكونت تولوز.

٨ ــ ريمون السانجيلي، كونت تولوز، منذ عام ١٠٨٨.

٩ ــ تنكريد هو ابن إحدى شقيقات روبير جيسكار، إمّا، والماركيز أود.

١٠ ــ بوهيموند، ابن روبير جيسكار وزوجته الأولى، أوبرييه.

١١ ــ تقع بوابة الماهوميري في شمال ــ شرقي مدينة أنطاكية.

١٢ ــ كربُغا، أمير الموصل.

١٣ ــ في شمال أنطاكية.

١٤ ــ وفقاً لوليم الصوري، كان فارساً لورينياً، منحدراً من تول.

١٥ ــ هؤلاء القديسون الثلاثة، الذين يجري تصويرهم عادة في رداء الحرب، هم شفعاء الجيوش البيزنطية.

١٦ ــ بمحاذاة نهر العاصي الذي يعلو أنطاكية ويقع في شرقها.

١٧ ــ لعلها قلعة هارنك [حارم]، في شرقي انطاكية.

١٨ ــ ٢٨ يونيو/ حزيران ١٠٩٨.

الفصل الرابع

الدول الفرنجية في سوريا ـ فلسطين في القرن الثاني عشر: الرُّها، أنطاكية، طرابلس

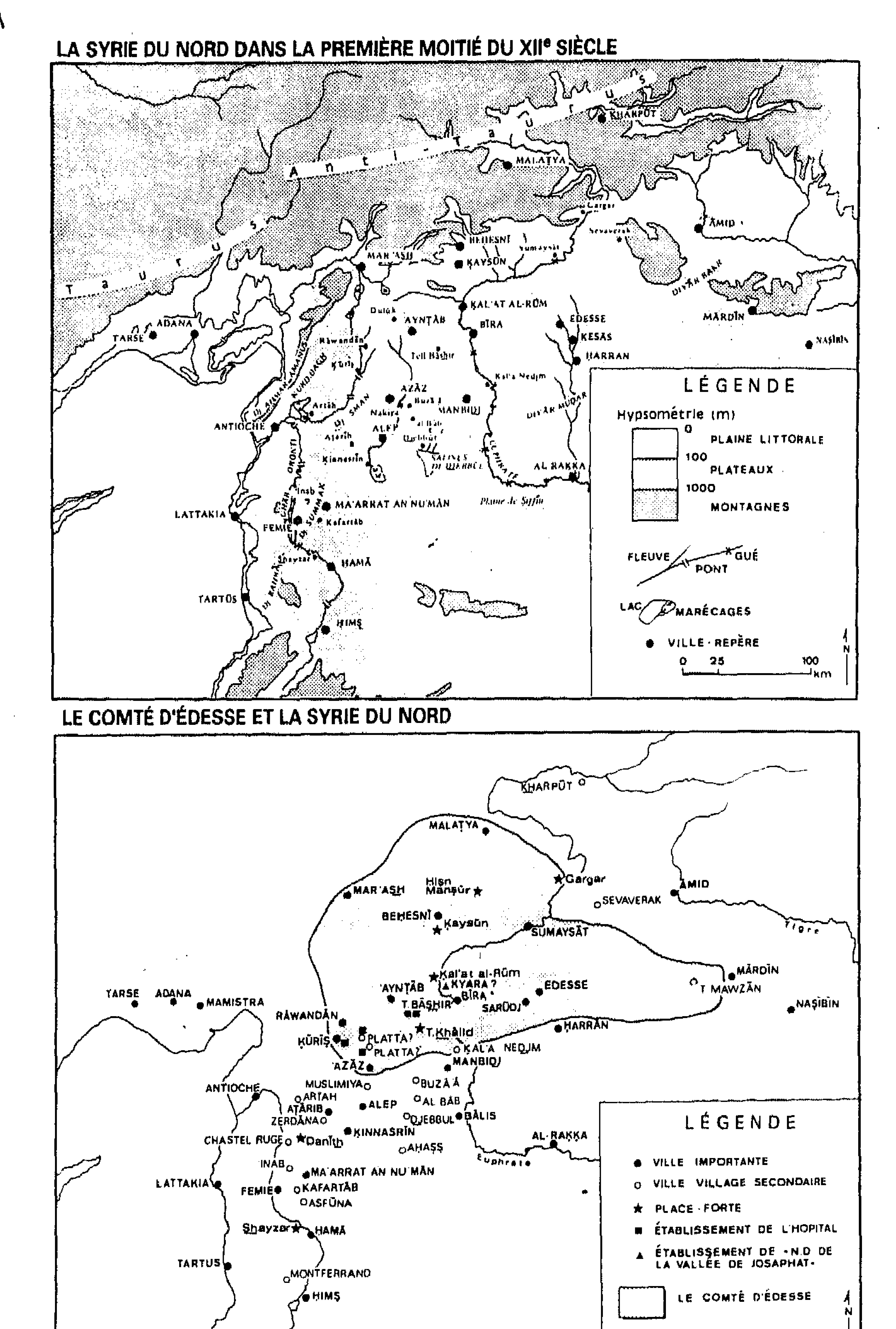
كان هدف النداء البابوي في عام ١٠٩٥ تحرير القدس، لا إقامة دول في أراضٍ وراء البحار. وقد وُلدت هذه الدول من مصادفات فتوحات. فهل يجب احترام القَسَم المؤدّى أمام البازيليوس ورد الأراضي التي كانت تخص في الماضي الإمبراطورية البيزنطية ؟ أم أن من الأولى إقامة صورِ سيطَرة جديدة، ولكن لحساب من ؟ إن المشكلة تطرح نفسها على الصليبيين منذ وصولهم إلى سوريا ـ فلسطين، وخاصة مع حملة بودوان دو بولونيا في اتجاه الرُّها، حيث سيتجه هذا الأمير، مدعوماً بإرادة شعبية، إلى إقامة أول دولة فرنجية، ناقضاً بذلك رسمياً الاتفاق المعقود مع بيزنطة. وسوف يتلو ذلك بعد بضعة أسابيع إنشاء إمارة انطاكية، ثم، بعد كثير من الترددات، إنشاءُ مملكة القدس و، أخيراً، كونتية طرابلس، على أيدي سلالة حاكمة تولوزية. أليس من الأنبل والأجدر بالنسبة لصليبي أن يخدم القبر المقدس في ساحته بدلاً من أن يرجع إلى الغرب، فور الاستيلاء على القدس؟ من ضرورة حماية الأماكن المقدسة المحرَّرة بأيدي المسيحيين يولد وطن جديد وراء البحر.

١. كونتية الرُّها

في عام ١٠٩٨، كانت مدينة الرُّها [أورفا الآن في تركيا]، ذات الأغلبية السكانية الأرمنية، تحت حكم كوروبالات [والأخيرُ لقبٌ بيزنطي رفيع] يوناني، هو توروس، الذي ينحدر من أصول أرمنية، لكنه مسيحيي أرثوذكسي، ولهذا السبب، كان مكروهاً من رعاياه الذين يرفضون في أن واحد سلطة البازيليوس والعقيدة التي أجازها مجمع خلقدونية والتي لا تقبل القول بوحدة طبيعة المسيح. ويدفع توروس جزية للأتراك السلاجقة، لكنه يتمتع بقدر كبير من الاستقلال، وذلك بالنظر إلى تفكك إمبراطورية ملك شاه بعد عام ١٠٩٢. وقد رأينا كيف أن بودوان دو بولونيا وتنكريد، ابن أخت بوهيموند، قد انفصلا عن القوة الرئيسية للجيش الصليبي في هرقلية في سبتمبر/ أيلول ١٠٩٧.

فيتجـه تنكريد إلى سوريا بينما يتجه بودوان إلى مرعش ثم يجتاز الفـرات ساعيًا إلـى تأسيس إمارة يحكمها. وفي غضون ثلاثة أشهر، يحتل مجمل الإقليم الواقـع إلـى غـرب الرُّها. وفي فبراير/ شباط ١٠٩٨، تقترح عليه سفارة أرمنية المجيء لمساعدة تـوروس الذي يتهدده الترك، وتعده بأن يكون شريكاً في حكم المدينة. ويصل بودوان إلى الرهُا فـي ٢٠ فبراير/ شباط ١٠٩٨؛ وبعد ذلك بأيام قلائل، تجري الإطاحة بتـوروس وقتلـه عـبر انتفاضة شعبية، لا ريب في أن القائد الفرنجي هو الذي حَرَّكها. وعندئذ يـتزوج بـودوان ابنة سيد أرمني، ويخنق مؤامرة ويستدعي فرسانًا فرنجيين لتعزيز جيشه ويبدأ فـي فتـح الكونتية. وعلى رأس أقل من مائتي فارس، يستولي على سميساط وسَروج وملطيـة. وإذ يُستَدعي إلى القدس، على أثر موت جودفروا البويّونـي، خـلال صيـف ١١٠٠، يسـلم فتوحاته إلى ابن عم هو بودوان البوركي [البورجي] (بودوان الثاني فيمـا بعـد) وسـوف يتوج نفسه ملكاً على القدس في عيد الميلاد، أي في ٢٥ ديسمبر/ كانون الأول ١١٠٠.

وسوف يسعى الكونت الجديد، ليس دون مشاكل، إلى توطيد سـلطته. فيقـوم بإقطـاع مجمل الجزء الغربي من الكونتية حول تل باشر لابن عم، هـو جوسـلان دو كورتنيـه، ويجمع الفدية المطلوبة للإفراج عن بوهيموند، أسير الدانشمند، لكنه يسـقط بـدوره فـي الأسر في مايو/ أيار ١١٠٤. وعندئذ تنتقل كونتية الرُها تحت وصايـة تنكريـد. ويدفـع بودوان البوركي فدية قدرها ٦٠ ٠٠٠ دينار لقاء الإفراج عنه، لكنه يصطدم بتنكريد الـذي يطلب منه إعلان ولائه للكونتية. وتنتج عن ذلك عدة سنوات من الصراع، حيـث يسـعى كل مزاحم إلى عقد تحالفات مع المسلمين، إلى أن يؤدي تحكيم من جانب ملـك القـدس، بودوان الأول، إلى رد الكونتية إلى سيدها الشرعي، في عام ١١٠٩. وفي السنوات العشـر التالية، تضطر الرُها إلى التصدي لهجمات المسلمين المضادة التي يشنها مودود، صـاحب الموصل وايلغازي، صاحب ماردين وحرّان. وينتصر هذا الأخير على الفرنج في معركـة **حقل الدم** (٢٨ يونيو/ حزيران ١١١٩)، حيث يلقى روجيه الأنطاكي، ابن أخي تنكريـد، مصرعه. وفي ذلك الوقت، تنتقل كونتية الرُها إلى يـدي جوسـلان دو كورتنيـه، بعـد إستدعاء بودوان البوركي إلى خلافة بودوان الأول كملك على القـدس (أبريـل/ نيسـان ١١١٨).



الشكل ٦- كونتية الرّها. المصدر:

M.AMOUROUX-MOURAD,le comté d'Édesse, 1098- 1150,éd. P. Geuthner, Paris, 1988.

ويخوض جوسلان عدة حملات ضد التركمان ويتم أسره في عام ١١٢٣ ثم يدخل في تنافس مع بوهيموند الثاني الأنطاكي، الأمر الذي سوف يستفيد منه زنكي، أتابك الموصل، الذي يستولي في عام ١١٢٨ على حلب التي يطمع في الفوز بها كل من كونت الرُها وأمير أنطاكية. وعندئذ يبدأ زنكي هجومه من أجل استرداد الأراضي الفرنجية، بينما تسعى بيزنطة إلى استعادة سيطرتها في سوريا الشمالية. ويموت جوسلان في عام ١١٣١؛ وعندئذ تنتقل الكونتية إلى سلطة جوسلان الثاني، الذي يضطر إلى مواجهة الدعاوى البيزنطية والتصدي بالأخص للهجمات الإسلامية التي يشنها أولاً تيمورتاش، صاحب دمشق، ثم زنكي. وهذا الأخير يغتنم فرصة فك إئتلاف فرنجي ـ يوناني في عام ١١٣٨ لكي ينتقل إلى الهجوم. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٤٤، مستفيدًا من غياب جوسلان الثاني عن المدينة، يفرض الحصار على الرُها، ويستولي عليها في ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول. ويجري نهب المدينة وذبح الجانب الرئيسي من سكانها. وفي عام ١١٤٩، يأسرُ الترك جوسلان الثاني؛ وعندئذ يبيع ملك القدس تل باشر والمواقع الفرنجية الأخرى للبيزنطيين الذين لا يتسنى لهم الاحتفاظ بها طويلاً. وفي عام ١١٥٠، تزول كونتية الرُها من الوجود.

والحال أن هشاشتها إنما ترجع إلى ضعف الفرنج العددي؛ فهم لا يزيدون عن ٥٠٠ فارس، يساعدهم رقباء ومشاة للسيطرة على المدن والحصون. ثم إن رعونتهم وجشعهم يحركان سخط رعاياهم الأرمن والسوريين. ذلك أن هؤلاء، وقد جرى وضعهم تحت سلطة رئيس، كانوا ملزمين بأن يؤدوا للسيد الفرنجي خراجاً يتناسب مع المحاصيل وأداءات عينية وضريبة رأس وحق المبيت، إلى جانب الرضوخ للمصادرات. أمَّا المؤسسات فهي صورة مكررة من مؤسسات الملَكيات الإقطاعية في الغرب؛ فالكونت تابع لملك القدس، ومحاط ببلاط متنقل حيث يمارس كبار الضباط العسكريين الصدارة، ويستمد الكونت الجانب الرئيسي من موارده من الدخول الأميرية والإقطاعية كما من الضرائب التي يدفعها السوريون. ويدين النبلاء الفرنج له بخدمة عسكرية غير مقيدة. والحال أن حالة الحرب لا تشجع نمو الحياة الاقتصادية، بحيث إن الكونتية، التي تعتبر "درع فرنج أنطاكية"، وهي كونتية صغيرة جداً والطريق إليها وعر كما أنها قليلة السكان، إنما تجد نفسها محكومًا عليها بالفناء عندما يضطلع زنكي بإعادة توحيد سوريا المسلمة.

٢ • إمارة أنطاكية

لحظة وصول الصليبيين أمام أنطاكية، كان المسيطر على المدينة ياغي سيان، تابع رضوان، أمير حلب. وقد عرفنا كيف ينجح بوهيموند في الاستيلاء على المدينة بالتآمر مع أرمني أنطاكي يفتح أبوابها أمام الفرنج. وكان الأمير النورماني قد أشاع قبل ذلك وجود تهديدات لحياة تاتيكيوس، ممثل البازيليوس لدى الجيش، مما أدى إلى فراره، وهو ما يساعد بوهيموند على بيان "خيانة " الروم والاستحواذ لنفسه على المدينة، بالرغم من معارضة ريمون السانجيلي، الذي يحترم القَسَم المؤدّى أمام أليكسيوس الأول كومنينوس. وبينما يدع بوهيموند قوات الحملة الصليبية ترحل إلى القدس، يتشبث بفتح الإمارة، المهددة في آن واحد من جيرانها المسلمين ومن البازيليوس الحريص على أن يرد للإمبراطورية إحدى الممتلكات البيزنطية السابقة. وإذ يسقط بوهيموند أسيراً في أيدي الترك الدانشمند، يضطر إلى ترك الوصاية على أنطاكية لابن أخته تنكريد الذي يمد سلطته على مدن قيليقيا الرئيسية وعلى اللاذقية المنتزعة من أيدي القوات البيزنطية. وعندما يسترد بوهيموند حريته، يرحل إلى الغرب لكي ينظم هناك حملة صليبية جديدة، موجهة هذه المرة ضد بيزنطة، المتهمة بالخيانة. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٠٧، ينزل على الساحل الألباني ويحاصر دوراتسو. ويعترض أليكسيوس الأول كومنينوس سبيله أمام المدينة ويرغمه على توقيع معاهدة ديابوليس (١١٠٨) التي يعترف بموجبها بتبعيته للبازيليوس فى حكمه لإمارة أنطاكية. ويموت بوهيموند بعد ذلك بقليل، تاركاً فتحه لابن أخته تنكريد، الوصي على بوهيموند الثاني الحَدَث. ويخلفه روجيه الساليرنواني في هذه الوظيفة في عام ١١١٢، لكنه يختفي خلال معركة **حقل الدم** ؛ والحال أن موته يلزم ملك القدس بتولي الوصاية، بدوره، حتى عام ١١٢٦. ولا يحكم بوهيموند الثاني الشاب غير أربع سنوات؛ ويؤدي مصرعه في فبراير/ شباط ١١٣٠ في مواجهة مع الدانشمند إلى قلاقل خطيرة في الإمارة تستمر عدة سنوات.

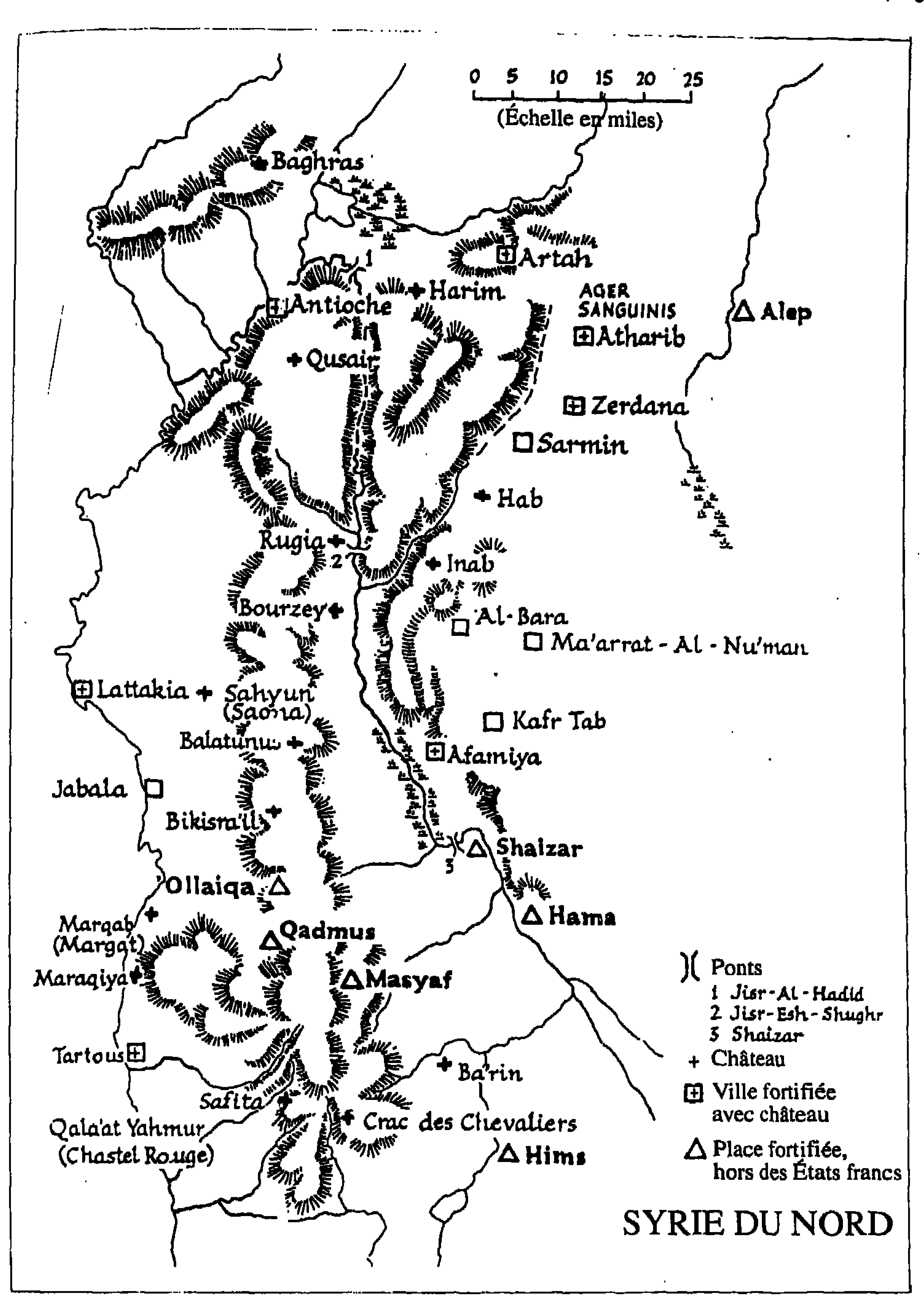
واعتباراً من عام ١١٣٠، تضطر هذه الإمارة في الواقع إلى مواجهة خصمين خطرين: زنكي الذي يسعى، بعد الاستيلاء على حلب في عام ١١٢٨، إلى تكوين دولة إسلامية كبرى في سوريا الشمالية، على حساب الفرنج، وإن كان أيضاً على حساب إمارات إسلامية صغيرة مجاورة؛ والإمبراطور البيزنطي الذي يسعى إلى استعادة سيادته

على الإقليم. ويضطر فولك، ملك القدس، إلى التدخل لإعادة تنظيم حكم الإمارة؛ وهو يزوج كونستانس، وريثة بوهيموند الثاني، لريمون دو بواتييه، وهو فارس محنك، لكنه يفتقر إلى الحس السياسي، بينما كانت أمّ الأميرةِ الشابةِ قد وعدت بها أحد أبناء البازيليوس يوحنا كومنينوس. وبعد أن كان زنكي قد نجح في إسقاط مجمل خط الدفاعات الشرقية للإمارة، يتدخل الجيش البيزنطي ضد أنطاكية. ويسعى يوحنا الثاني كومنينوس (١١١٨ـ١١٤٣)، خليفة أليكسيوس الأول، إلى إعادة تثبيت حقوق الإمبراطورية عليها؛ فالصليبيون قد تنكروا لوعودهم واغتصبوا إحدى الممتلكات البيزنطية. وفي عام ١١٣٧، بعد حملة قصيرة، ينجح البازيليوس في إرغام ريمون دو بواتييه على الاعتراف بالسيادة البيزنطية على أنطاكية وعلى قبول كاهن أرثوذكسي على الكرسي البطريركي. وهو يدخل المدينة دخول الظافرين، إلاّ أنه سرعان ما يؤدي تمرد شعبي إلى طرده منها. وفي عام ١١٤٢، يعاود يوحنا كومنينوس الظهور على حدود أنطاكية، راغبًا في أن يوحّدَ في إمارة واحدة كلاً من أنطاكية وقيليقيا وقبرص، لصالح ابنه الأصغر مانويل. ويرفض ريمون دو بواتييه تسليم المدينة له. فيستعد البازيليوس لحصارها لكنه يقضي نحبه في حادثة خلال رحلة صيد. ويضطر الجيش البيزنطي إلى الانسحاب؛ وهكذا يتم إنقاذ السيطرة اللاتينية.

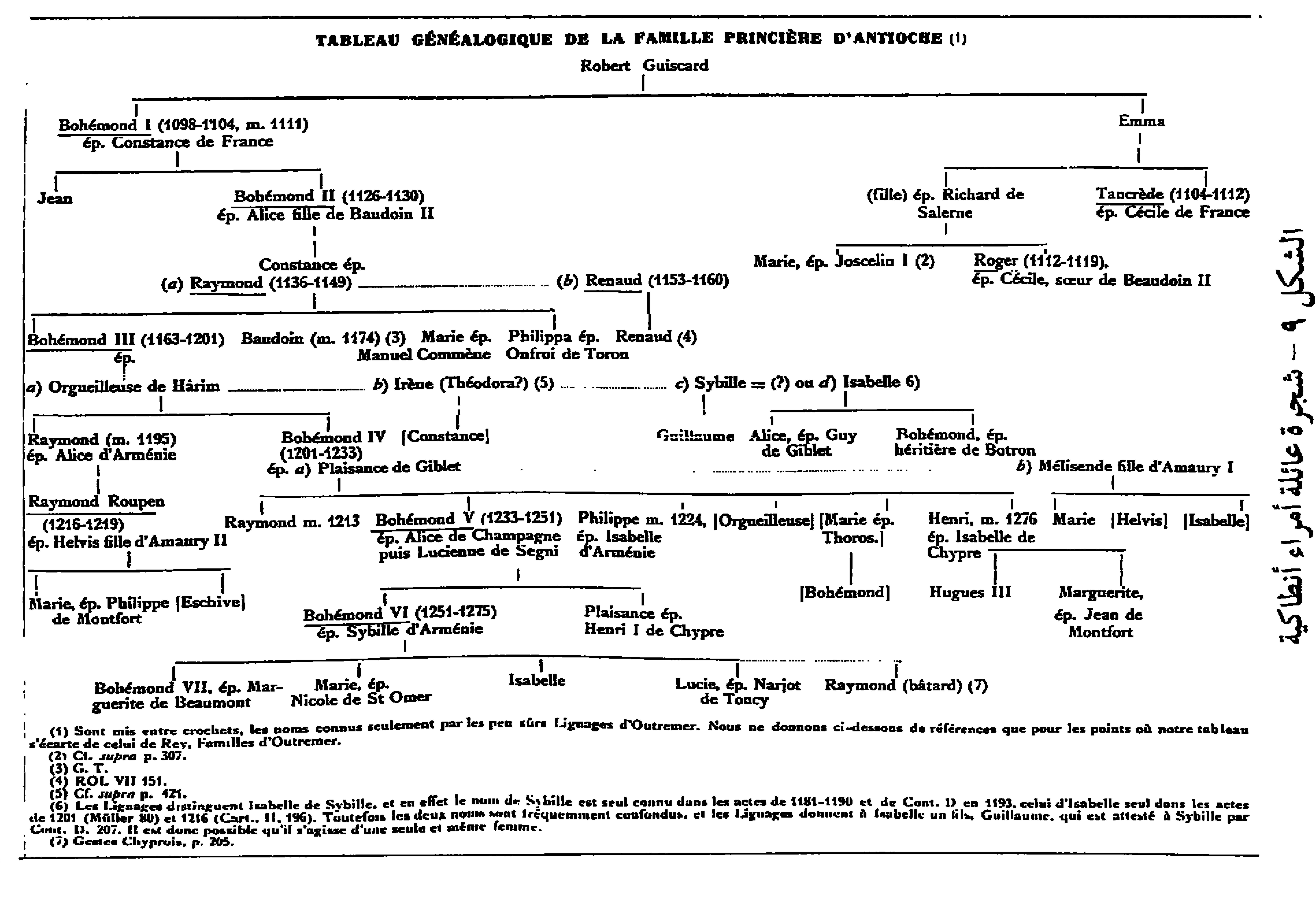
وبعد ذلك بثلاث سنوات، ومن جرّاء الانزعاج من الاستيلاء على الرُّها ومن صعود نور الدين إلى سدة الحكم، يزور ريمون دو بواتييه القسطنطينية ويعتذر جهارًا أمام البازيليوس الجديد مانويل الأول كومنينوس. وفي مارس/ أذار ١١٤٨، تصل القوات الفرنسية للحملة الصليبية الثانية إلى أنطاكية. وينتظر ريمون دو بواتييه مساعدة منها ضد حلب. لكن لويس السابع الذي يقودها يرفض هذا التعاون ويتجه مباشرة إلى القدس، مصطحبًا معه الملكة آليونور التي يذهب بعض مدوني الأخبار إلى أنها كانت تميل إلى أمير أنطاكية، عمها. والحال أن هذا الأخير يلقى مصرعه بعد ذلك ببضعة أشهر في مواجهة مع نور الدين الذي تنجح المدينة في صده بفضل الجهد النشيط الذي يبذله البطريرك ايمري. وإذ يمارس بودوان الثالث، ملك القدس والوصي على الإمارة، ضغطاً على كونستانس، أرملة ريمون دو بواتييه، لكي تتزوج من جديد، يقع اختيارها على سيد صغير لا يملك ثروة، هو رينو الشاتيوني، الذي يرغمه البازيليوس على الاعتراف

LES ÉTATS LATINS D'ORIENT AU XII^{e} SIÈCLE

الشكل ٧– الدول اللاتينية فى الشرق فى القرن الثانى عشر



الشكل ٨– سوريا الشمالية.



الشكل ٩ – شجرة عائلة أمراء أنطاكية

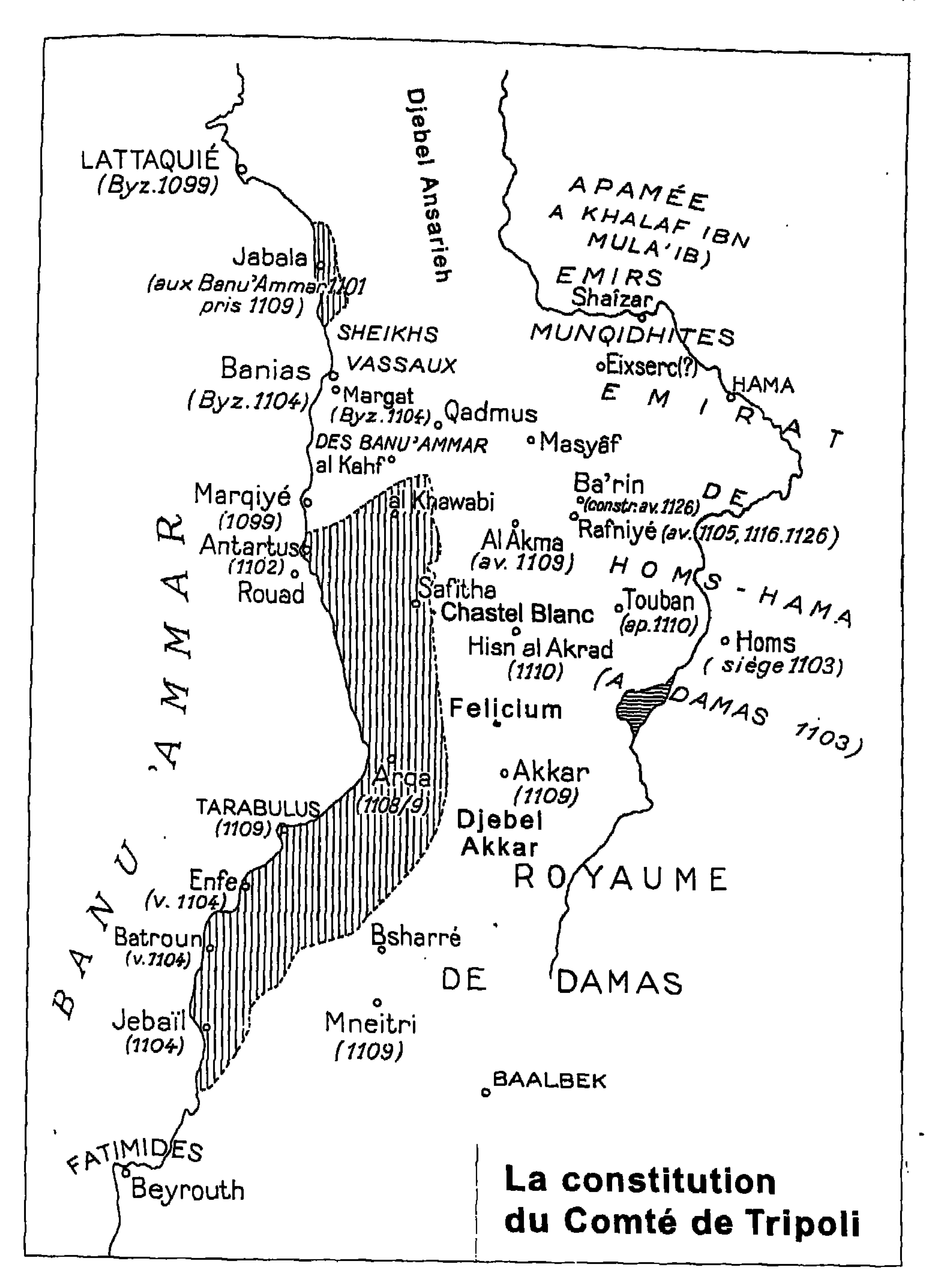
بالسيادة البيزنطية على أنطاكية، خلال حفل رسمي مهين. فرينو يمثل أمامه حاسر الرأس، حافي القدمين وحول رقبته حبل ويضطر إلى مرافقة الإمبراطور في موكب، ساحبًا الجواد الإمبراطوري من لجامه. وعلى مدار عشرين سنة، يهيمن النفوذ البيزنطي في أنطاكية بلا منازع، وذلك بقدر ما أن رينو الشاتيوني يسقط أسيرًا في يدي نور الدين في عام ١١٦١ ويظل ستة عشر عامًا رهين سجونه. ويقوم البازيليوس الذي تزوج ماري، ابنة ريمون دو بواتييه، بحماية المدينة من هجمات المسلمين التي لا يملك الأمير الشاب بوهيموند الثالث احتواءها بمفرده. والحال أن هذه الحماية البيزنطية قد أنقذت الإمارة التي اختزلها صلاح الدين إلى ولاية صغيرة عديمة المكانة. وتشهد الأعوام الأخيرة للقرن الثاني عشر ضعف النزاعات مع الأيوبيين بينما تشهد، بالمقابل، تزايد التناحر بين أنطاكية وأمراء قيليقيا الأرمن، وهو تناحر سوف يميز العقود الأولى للقرن الثالث عشر.

أمًّا مؤسسات الإمارة فهي ليست نسخة مكررة من مؤسسات القدس. فالواقع أن النورمان قد كيفوا مؤسسات أواخر القرن الحادي عشر الغربية مع التقاليد المحلية وهم يتمتعون بمدونة قوانين خاصة، هي أسيز أنطاكية [مجموعة الأحكام التشريعية الإلزامية في إمارة أنطاكية]. فالأمير لا يقدم فروض الولاء **من الناحية القانونية** لملك القدس؛ وهو يمارس سيادة كاملة وغير مقيدة، وله ختمه ويستفيد من سلطة وراثية. وفي بلاطه، والذي يتمثل دوره الرئيسي في الاضطلاع بأمور القضاء، يهيمن كبار الضباط العسكريين (الكونيتابل) [القائد العام للجيش] و[السينيشال) [وزير العدل]. ودخوله، التي يديرها "السيكريت" أو "الديوان"، إنما تجئ من الأملاك ومن الضرائب المفروضة على السوريين ومن المكوس والضرائب المفروضة على التجارة والحرف. وقد قدّم بوهيموند وخلفاؤه امتيازات ضخمة للجاليات الإيطالية، لكنهم يميلون إلى التراجع خلال القرن الثاني عشر عن تقديم هذه الإمتيازات. ومن جهة أخرى، فإن النبلاء، ذوي الأصل الإيطالي ـ النورماني المسيطر، إنما يُعتبرون أتباعًا ملزمين بخدمة الأمير وهم يدينون له بأداء خدمة عسكرية غير مقيدة، وذلك في مقابل تصورات إقطاعاتهم. ويدفع الفلاحون "ضريبة السوريين" ويؤدون رسومًا تجارية يتساوى عبئها، تحت السيطرة الفرنجية، مع عبئها في العهد السابق. وفي إمارة يسكنها الروم أساسًا وبعض المسلمين، يتعين على النفوذ النورماني أن يتماشى مع التقاليد البيزنطية، لكنه، عبر انطاكية، يتغلغل أيضًا في مملكة أرمينيا الصغرى.

٠٣ كونتية طرابلس

يعد ريمون الرابع السانجيلي ــ الذي أُبعد عن أنطاكية وأُبعد عن القدس لكنــــه يلــتزم بالوعد المقدَّم إلى البازيليوس ــ مسئولاً عن إنشاء آخر دولة بين الدول المنبثقة من الحملــة الصليبية: كونتية طرابلس. فبعد أن رد كونت تولـــوز لاودقيـــة وفالينيـــا ومرقليـــة إلـــى البيزنطيين، يزور القسطنطينية، ثم يشارك في الحملة الصليبية لعام ١١٠١ والتـــي تنتـــهي بكارثة. وإذ يرجع إلى سوريا، يستولي على طرطوس، لكنه يفشل أمـــام طرابلـــس التـــي ينجح مع ذلك في سد مخارجها ببناء قلعة. وهو يستولي علـــى جبلـــة فـــي عـــام ١١٠٤، ويموت في العام التالي، مخلفًا تركة يتنازع عليها ابنه، برتران السانجيلي وابن عـــم، هـــو جيوم جوردان. والحال أن تحكيمَ بودوان الأول وموت جيوم جوردان يُبقيـــان طرابلـــس، التي تسقط في عام ١١٠٩، في أيدي السلالة الحاكمة التي جاءت من كونتات تولوز. وفـــي عهود خلفاء ريمون الرابع، بـــون (١١١٢ــ١١٣٧) وريمـــون الثـــاني (١١٣٧ــ١١٥٢) وخاصة ريمون الثالث (١١٥٢ــ١١٨٧)، تبلغ الكونتية أعظم إتساع لها، إذ تمتد من جبلـــة في الجنوب إلى مرقلية في الشمال، حيث تصطدم بزمام الإسماعيليين ("الحشاشين")؛ وهـــي لا تنجح البتة في الوصول إلى مدن الوادي الأعلى لنهر العاصي، والتي تحمـــي الإمـــارة نفسها ضدها ببناء مجموعة من القلاع، من بينها حصن الفرسان الشهير، والذي عُـــهِدَ بـــه إلى جمعية الأوسبتالية. وتظل الكونتية على حالها تقريبًا في عـــــام ١١٨٧ عندمـــا تئـــول الخلافة إلى بوهيموند الرابع، أمير أنطاكية، وذلك بسبب غياب وريث عند موت ريمـــــون الثالث.

وتحتل كونتية طرابلس مكانة أصيلة بين الدول المســـيحية فـــي ســـوريا ــ فلســـطين. فبفضل ميثاق معقود مع بيزنطة، يقدم الأمير لبيزنطة الولاء بالنســـبة للمـــدن الشـــمالية ــ لاودقية وطرطوس ومرقلية، لكن سيادة البازيليوس إسمية تمامًـــا. ويجـــب علـــى كونـــت طرابلس أن يقدم الولاء لملك القدس وأن يقدم إليه مساعدة عسكرية فـــي عـــدة مناســـبات، بينما يمارس الملك وصاية ملكية على الكونتية في حالة موت أو أســـر الأمـــير. ويشـــهد الولاءُ للملك على التضامن بين الأمراء الفرنج لكنه لا يجرد الكونت من أية حرية. وحيـــال أمراء أنطاكية، توجد أيضًا علاقة تبعية دائمة تفسر اتحاد أنطاكية وطرابلس، عنـــد مـــوت ريمون الثالث.



الشكل ١٠- قوام كونتية طرابلس. المصدر :

J.RICARD, Le comté de tripoli sous la dynastie toulousaine, éd. P. Geuthner, Paris, 1945

واعتباراً من عهد جيوم جوردان، اتخذت السلطة الكونتية طابعًا وراثيًا، لصالح السلالة الحاكمة التولوزية. والحال أن كبار الضباط، المؤسّسين وفق النموذج الفرنسي، كانوا غير مشهورين، باستثناء الكونيتابل، قائد الجيش، في غياب الكونت. وتقتصر أعداد العسكريين على نحو مائتي فارس وألفي أو ثلاثة آلاف من المشاة. أمّا الماليات الكونتية، التي تعتمد على الأموال والحقوق الإقطاعية والإيرادات الأميرية وغنائم غارات السلب والنهب، فهي جيدة التوازن. على أنه كان على الكونت أن يتنازل عن عدة حصون مهمة للجمعيتين العسكريتين، فرسان الهيكل وفرسان الأوسبتالية، وذلك، لا ريب، بسبب إنعدام القدرة على نشر أعداد كافية لتأمينها بنفسه. ومن جهة أخرى، يشكل النبلاء البروفانسيون كورية [مجلس] البارونات، الذين يتدخلون في جميع الأعمال الكونتية ويدينون للأمير بالخدمة العسكرية. ويستقر التجار الإيطاليون، البيازنة والجنويون، في طرابلس وفي جبلة، حيث يتمتعون بأعظم حرية تجارية، بينما نجد أن الأهالي، السوريين، اليهود أو الموارنة، يتعاونون إجمالاً مع البروفانسيين في الدفاع عن الكونتية. وفي أواخر القرن الثاني عشر، تضاف الصراعات في صفوف الإيطاليين واستقلال الجمعيتين العسكريتين إلى غياب وريثٍ بما يفضي إلى إضعاف الكونتية وتحويلها إلى ألعوبة لأطماع بوهيموند الرابع في صراعاته ضد أمراء قيليقيا الأرمن.

صراع جوسلان وحلفائه المسلمين
ضد تنكريد وحلفائه المسلمين (١١٠٨)

يعد ابن الفرات (١٣٣٤ ـ ١٤٠٥) مصنّفاً ينقل مصادر أصبح أغلبها اليوم في حكم المفقود. وتلك هي الحال هنا أيضاً مع مروية المؤرخ الحلبي والشيعي ابن أبي طي (١١٨٠ ـ ١٢٢٨/١٢٣٣) الذي غالباً ما قام خصومه السنيون أنفسهم بالسطو على عمله. والحال أن انقسام السلاجقة، إلى جانب التنافسات التي خلقت تعارضات بين القادة الفرنج، قد سهلت ظهور نوع من إندراجٍ للقوى الفرنجية في خفايا السياسة الشرقية. والنزاع الموصوف هنا يدور في عام ١١٠٨. فكونت الرُّها بودوان البوركي وابن عمه جوسلان دو كورتنيه، سيد توربسيل (في الكونتية)، اللذان وقعا في الأسر في عام ١١٠٤ في معركة حرّان، قد أُفرج عنهما للتو. وخلال أسرهما، تولى تنكريد، الوصي على إمارة أنطاكية، تصريف شئون الرُّها. وهو يأبى رد الكونتية والسيادة إلى الرجلين، إلاّ إذا قدّما إليه الولاء، الأمر الذي يرفضانه. ويبحث كل طرف عن حلفاء مسلمين: فيتحالف بودوان وجوسلان مع سجّانهما السابق، جاولّي، أتابك الموصل ويتحالف تنكريد مع رضوان، أمير حلب. والحال أن تدخل بودوان الأول، ملك القدس، يضع حدّاً لهذا النزاع ولهذه التحالفات التي تتنافى مع طبائع الأمور:

كانت بين جوسلان الفرنجي[١] وتنكريد[٢]، صاحب أنطاكية، معارك عديدة وعداوة كبرى، على أثر ظروف أدت إلى الشقاقات والحرب. وكان تنكريد هو الأقوى، وذلك بفضل امتلاك أنطاكية؛ أمّا جوسلان فكان الأضعف، نظراً لمحدودية نفوذه وموارده. وهكذا، فعندما أدرك جوسلان أنه عاجز عن القضاء على تنكريد، عهد إلى ابنه[٣] بحراسة البلد وجُهزَ حصونه بما يلزمها ثم سار إلى ملك الروم[٤] حيث جثا عند قدميه متوسلاً عونه. وقد حصل منه على خمسة عشر ألف دينار وعاد، دون أن يمر بأية مدينة مسيحية إلاّ وطلب منها ونال منها مساعدات. ثم دخل اللعين على أمه دون أن يبّدلَ الثياب التي كان قد سافر بها والتي كانت قد تهلهلت تماماً. ووزّعَ الأموال على الجند وحشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومن آخرين.

وفي تلك الأثناء كان قد تم الإفراج عن اللعين بودوان[٥]. فانضم إليه جوسلان بجيش جرار وشرع في شن غارات السلب والنهب على تخوم أراضي تنكريد. وعندما اضطر تشاولي (جاولي)[٦] إلى اللجوء إلى جوسلان، نَهَبَ قرية تتبع تنكريد، فقام هذا الأخير باستعداداته الحربية، ثم خرج من أنطاكية. وقد سانده دعمُ رضوان[٧] الذي مرّ بنا ذكره، ودارت معركة قرب تل باشر، في موقع يدعى أبعر[٨]. وفزع تنكريد من المسلمين الموجودين في الجيشين، فتقدم بين الصفوف ونادى جوسلان الذي تحادث معه. وراقب تشاولي ما يحدث ولم يكن يعلم أن من العادات الفرنجية أن يلتقي العدو بعدوه ويوضح له الموقف ويتحادث معه، دون أن يخشى أحدهما أي أذى من الآخر، الأمر الذي أدخل الخوف في صدر تشاولي فتصور أنهما ربما كانا بسبيلهما إلى الاتفاق ضده. على أن تنكريد كان يكلم جوسلان عن مسألة المسلمين، لكن جوسلان لم يقبل شيئاً من كلامه، فرجع تنكريد إلى جماعته. وعندئذ تعالى النداء إلى المعركة.

وعاين جوسلان أن تشاولي قد وقف على مبعدة من الجيش. فسار إليه وقال له: "سيدي، ذلك هو نهجنا، فلا تتصوّرن شيئاً خلاف ذلك". لكن تشاولي لم يستسلم لهذا الكلام وظل بمنأى عن الجيش. على أنه أمر صديقه سُنقُر دراز بأن يلقي بنفسه في أتون المعركة. فأقامه الفرنج على الجناح الأيمن. وهجم تنكريد على جوسلان وتلا اشتباكٌ هذه الهجمة الأولى ــ وهي من أعنف هجماتهم ــ وقتل سُنقُر عدداً كبيراً من الفرنج. ثم تباعد الجيشان، فعاد كل جيش إلى مخيمه واستعدّا للهجمة الثانية؛ فشن كل من القائدين هجوماً ضد خصمه، يتبعه جيشه، ولم يكن جوسلان يريد إلاَّ تنكريد ولم يكن تنكريد يريد إلاَّ جوسلان. فراحا يتبادلان ضربات الرمح والسيف وأثبت كل منهما للآخر بسالته. ثم عاد الجنود من جديد إلى مخيمهم، وقال تنكريد: "بقيت هجمة، فإمّا أن يقتلني أو أقتله". ثم بدّل جواده، وأخذ رمحاً جديداً ونادى بالانتظام واستأنف الهجوم؛ وفعل جوسلان الشيء نفسه، وتواجها، فراح كل منهما يضرب الآخر، لكن ضربة تنكريد سبقت ضربة جوسلان، فسقط عن جواده. عندئذ هجم صاحب مرعش على تنكريد وطرحه بدوره أرضاً. غير أنه ساد الظن بأن جوسلان قد لقي مصرعه، وبما أن صاحب مرعش كان حامل لوائه وأن الضربة التي وجهها إلى تنكريد كانت بهذا اللواء، فقد رأى رجال جوسلان ليس فقط سقوط قائدهم وإنما أيضاً سقوط لوائهم فلاذوا بالفرار. ولم يقتل فرنجي فرنجياً اخر، لكن المسلمين تدخلوا وقاموا هم بقتل فرنجيين.

أمّا فيما يخص جوسلان، فقد نهض واتجه إلى قلعته. لكن أمــه منعتــه مــن الدخــول وقالت: "من أين جئت؟ لتكن مشيئة الرب أن لا يكون لك شيء عندي". فأجاب: "أنــا لــم أهرب، لقد وجّه إليّ تنكريد ضربة رمح حقيقية. وقد واجهته في معركة حقيقيــة: وهــذه يدي تشهد على صدق ما أقول". لكنها قالت: "كنت لأفضل أن يصلني نبأ مصرعك علــى أن يصلني نبأ هزيمتك. لا أريد أن أصدق كلامك قبل أن أخرج للقاء تنكريد وسؤاله مـا إذا كنت صادقاً ". ثم خرجت في التو والحال وذهبت إلى تنكريد الذي استقبلها ببالغ الاحــترام وقالت له: " أتعرف لماذا جئت إلى هنا ؟ " فأجابها: " لا "، فقالت: "كنت لأفضل أن يميتــه الرب على أن أراه يهرب"، فقال: " لكنه يا خالتي لم يهرب ولم يخف من ضربة الرمـــح، وقد سقط على الأرض مُرغماً ففر رجاله منهزمين. وقد أصابني فــي الــهجمات الثـلاث ووجهتُ إليه الكثير من الضربات". وأكد عدة فرسان كلام تنكريد فانصرفت أم جوسلان..

المصدر: ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك ترجمة كلود كاهن تحت عنوان:

Histoire des dynasties et des rois "Une chronique shi'ite au temps des croisades", *Comptes-rendus de L'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1935.*

[أعدنا ترجمة المقتطف عن الفرنسية لتعذر الوصول إلى الأصل العربي. ـــ المترجم].

---

١ ـــ جوسلان الأول دو كورتنيه، منحدر من الجاتينيه، جاء مـــع الحملــة الصليبيــة الأولى وتملك اقطاعة توربسيل (في غرب كونتية الرُها) التي منحــه إياهــا ابــن عمــه، بودوان البوركي الذي خلفه جوسلان كونتاً على الرُها في عام ١١١٩.

٢ ـــ تنكريد دو أو تفيل، ابن أخت بوهيموند، هو الذي كفــل الوصايــة علــى إمــارة أنطاكية خلال أسر ثم غياب هذا الأخير. وقد مات في عام ١١١٢.

٣ ـــ الكونت جوسلان الثالث فيما بعد (١١٣١ـــ١١٤٥).

٤ ـــ الأرجح أنه السلطان السلجوقي على الروم (قونية) في آسيا الصغرى.

٥ ــ بودوان البوركي، ابن هيج دو ريتيل، وابن عم بودوان الأول، الذي خلفه بـودوان البوركي في الرُّها في عام ١١٠٠، قبل أن يخلفه في مملكة القدس في عام ١١١٨.

٦ ــ جاولي، أتابك الموصل، وهي وظيفة انتزعها من جيكيرميش فـي ١١٠٦/١١٠٧، قبل أن يجرده منها السلطان السلجوقي محمود لصالح مودود. ولأجل الوقوف ضـد هـذا الأخير، قام بالإفراج عن بودوان واقترح عليه التحالف لمحاربة الأتابك الجديد.

٧ ــ رضوان، أمير سلجوقي، ابن تُتُش، كان أميراً على حلب من عـام ١٠٩٨ إلـى عام ١١١٣.

٨ ــ توربسيل عند الفرنج.

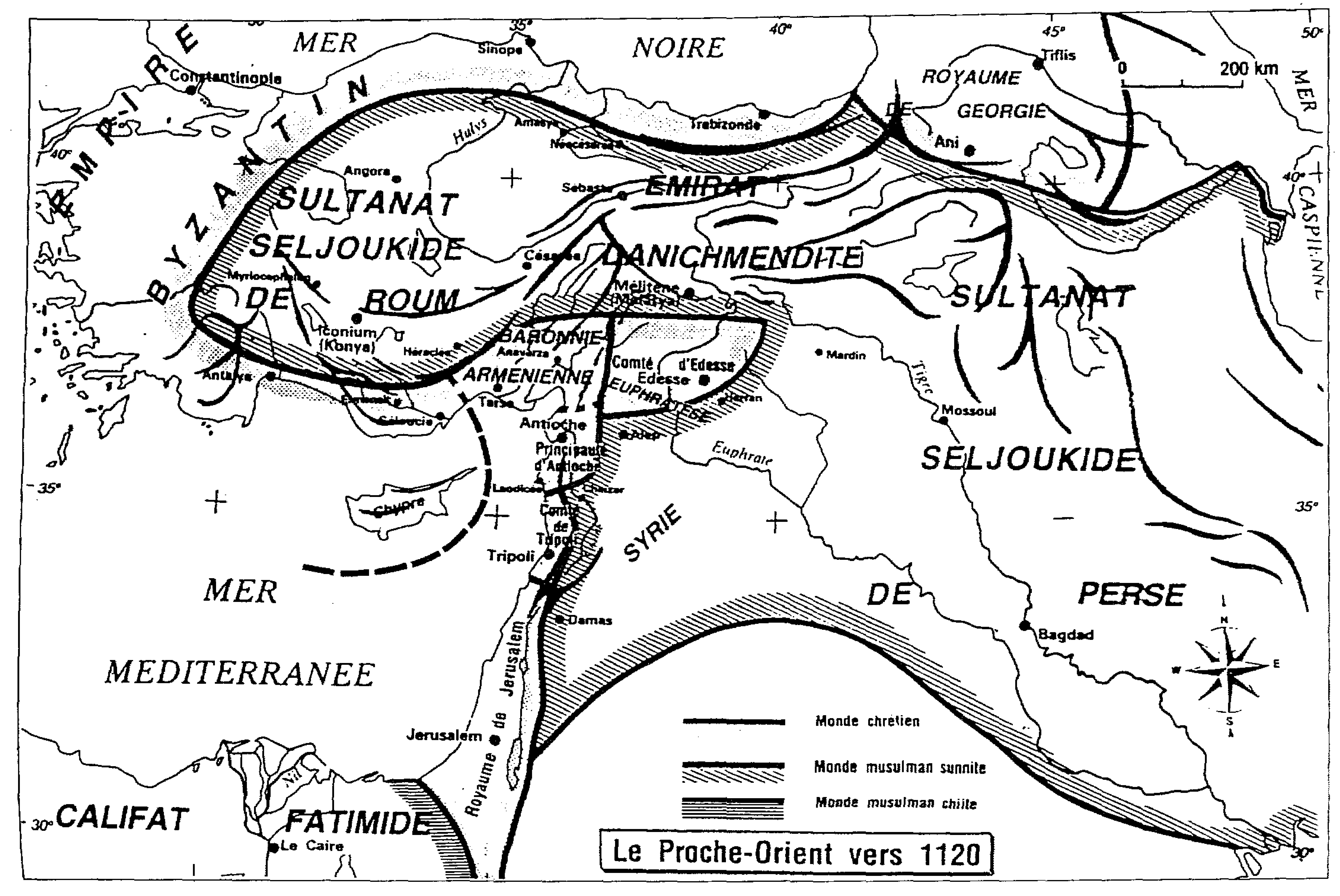
الفصل الخامس
مملكة القدس اللاتينية
في القرن الثاني عشر

في الخامس عشر من يوليو/ تموز ١٠٩٩، يستولي الصليبيون على القدس. وبمجرد انتهاء أعمال السلب والنهب، يثار السؤال التالي: ما الذي يجب إقامته لحكم الأماكن المقدسة ؟ والحال أن ثلاثة مفاهيم مختلفة تتصادم في الجيش. فالبعض، وأغلبهم من الكهنة، يرون أن الحملة الصليبية هي حملة هادفة إلى تحقيق النبوءة وتدار تحت رعاية الرب والكرسي الرسولي. ولا يمكن تنظيم الفتوحات إلاّ في دولة بابوية، يحكمها خليفة القديس بطرس الرسول أو نوابه. وبالمقابل، يعتبر آخرون الحملة الصليبية حملة فتح مآلها إقامة دولة مسيحية في الأرض المقدسة، يحكمها أمير زمني. وتتميز جماعة ثالثة، تتألف من الفقراء خصوصًا، بنزعة إنجيلية متطرفة: فليست هناك ضرورة إلى حكومة، لأن مملكة الرب مدعوة إلى العودة على الأرض، الأمر الذي يجعل من المستحيل انتخاب قائد زمني.

١ ، من الهجوم إلى الكارثة (١٠٩٩ ــ ١١٨٧)

١-١ ، جودفروا البويّوني، قيّم القبر المقدس

حيال الخطر الإسلامي الماثل دائمًا، لا تدوم الترددات طويلاً. فمنذ ١٧ يوليو/ تموز، يجتمع قادة الحملة. ويطلب مندوبو كبار رجال الدين الاتجاه أولاً إلى انتخاب بطريرك، ثم إلى انتخاب أمير، بما يشكل علامة على إقامة حكومة ثيوقراطية يستمد فيها الأمير الزمني سلطته من البابا أو من بطريرك القدس. وبما أن البابا لم يعلن قط أنه يريد أن يقيم في فلسطين " إرثاً " جديداً لــ " القديس بطرس الرسول "، فقد نجح قادة الحملة في اعتماد مبدأ الانتخاب. وكان هناك مرشحان: جودفروا البويّوني وريمون السانجيلي، حيث كان القادة الآخرون في سوريا أو كانوا لا يريدون شيئاً سوى العودة إلى الغرب. والحال أن كونت تولوز، الذي يُنظر إليه باعتباره بالغ الغطرسة ومفرط التشدد، لا يلقى دعم النبلا.



الشكل ١١ الشرق الأدنى نحو عام ١١٢٠. المصدر: أطروحة غير منشورة G.DEDEYAN,

ورجال الدين. فينسحب ويقع الاختيار على جودفروا البويّوني، وهو شخصية أقل شهرة، لكن انتخابه سوف يستثير في الغرب حماسة كبرى، إلى حد أنه تجري هناك إعادة كتابة لتاريخ الحملة الصليبية تبرز فضائل المنتخب المحظوظ. ويتخذ هذا الأخير لقب القيّم، أي حامي أو المدافع عن القبر المقدس، الأمر الذي يترك الباب مفتوحاً أمام مفاوضات تالية حول طبيعة الدولة الجديدة.

١-٢-٠ بودوان الأول (١١٠٠ ــ ١١١٨)

يؤدي موت جودفروا البويّوني في يوليو/ تموز ١١٠٠ إلى إعادة طرح المسألة الأساسية، مسألة الحكم المدني أو الثيوقراطي للمملكة. وتتعقد المسألة بسبب موقف دايمبرت، أسقف بيزا، بطريرك القدس الجديد. فهذا الرجل لا يخفي تطلعاته: فهو يريد أن يدشن لحسابه حكماً ثيوقراطياً ليس فقط على القدس، بل وعلى مجمل الفتوحات التالية. وبسبب انزعاجهم من هذا الموقف، يستدعي أتباع جودفروا إلى السلطة شقيقه، بودوان، الذي كان آنذاك كونتاً على الرُّها. ويقوم هذا الأخير بتتويج نفسه ملكاً على القدس في ٢٥ ديسمبر/ كانون الأول ١١٠٠ في بيت لحم، حيث تقتصر صلاحية البطريرك الوحيدة على مسح الملك الجديد. واعتباراً من ذلك التاريخ، سوف يجري تتويج خلفاء بودوان في القدس ولن يستعيد أي من البطاركة المتعاقبون دعاوى دايمبرت.

والحال أن بودوان الأول، وهو محارب لا يكل وذو حيوية نادرة، سوف يناضل على جميع الجبهات لأجل توسيع المملكة. فهو ينجح في احتلال مجمل المنطقة الساحلية الممتدة من شمال عسقلان إلى جنوب صور: فتح أرسوف وقيسارية في عام ١١٠١، استسلام عكا في عام ١١٠٤، الاستيلاء على بيروت وصيدا في عام ١١١٠. وفي الجهة الشرقية، يوسّع الاحتلال الفرنجي إلى ما وراء نهر الأردن؛ ويأمر ببناء حصن مونريال (الشوبك) في عام ١١١٥، لكي يسيطر على قبائل البدو وطريق القوافل الممتد من دمشق إلى القاهرة؛ بل إنه يصل إلى العقبة. وفي الجهة الجنوبية، يحتوي الجيوش المصرية القادمة لتعزيز حامية عسقلان ويهزم في عام ١١٠٥ إئتلافاً للمصريين والدمشقيين. واعتباراً من عام ١١١٠، يرتبط مصير المملكة بمصير الإمارات الفرنجية في الشمال؛ وفي عام ١١١٣، يتغلغل في الجليل تغلغلاً عميقاً جيشٌ موصلي وحلبي ودمشقي مشترك، وينجح في إستثارة تمرد للفلاحين السوريين ضد الفرنج، ويصل إلى تخوم القدس، التي يتم إنقاذها في أخر لحظة. وعندئذ، يؤدي المال الصقلي الذي جاءت به أدالاسيا، زوجة الملك الجديدة، أرملة الكونت روجيه الأول، إلى إنقاذ المملكة، التي كانت مالياتها تنوء تحت

عبء دفع أجور المرتزقة. ويموت بودوان الأول في ٧ أبريل/ نيسان ١١١٨ لدى عودته من حملة خاضها على حدود مصر.

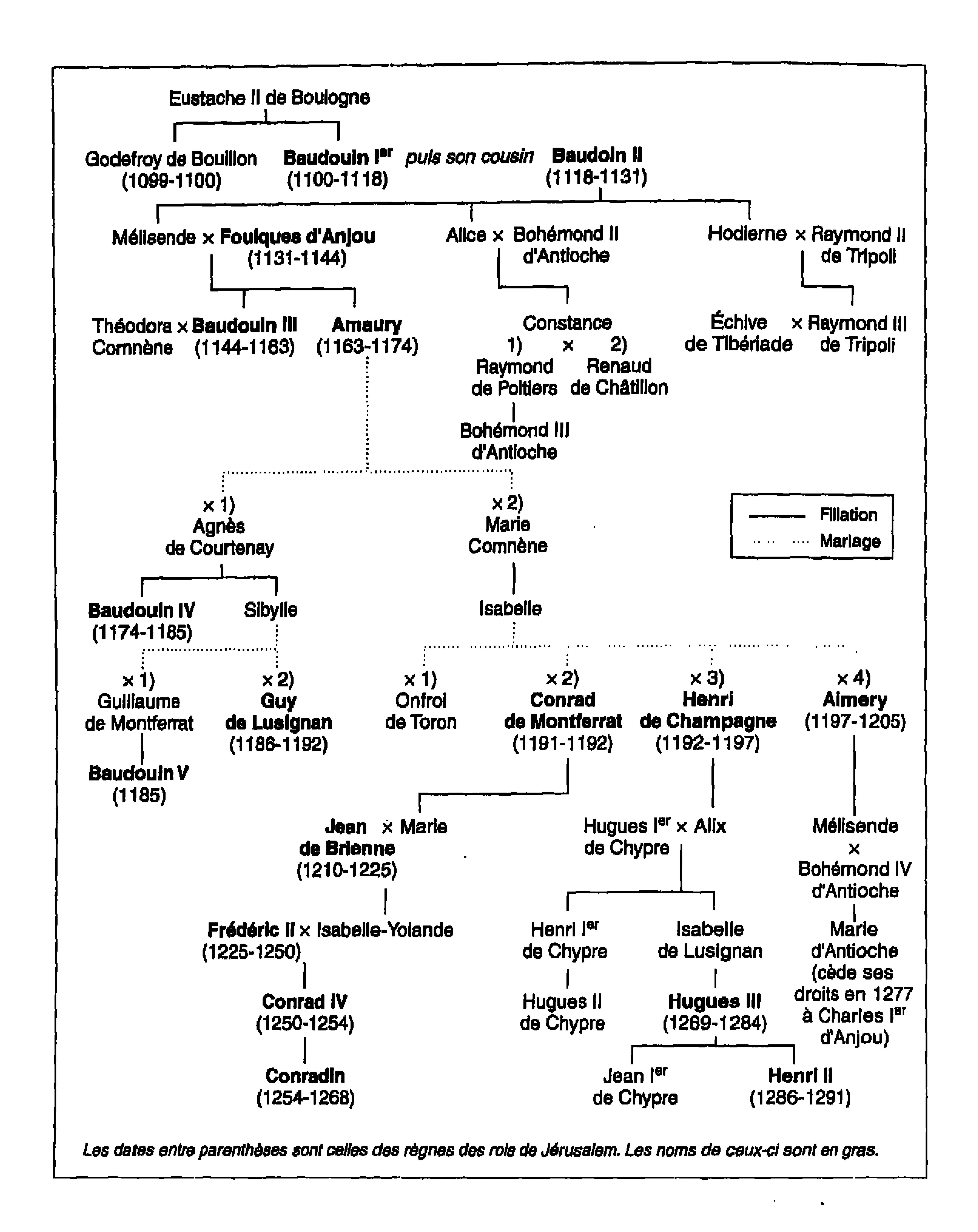
والواقع أن بودوان الأول، الباني الحقيقي لمملكة القدس والمخطط العنيف المتهور، قلّما اهتم بالتخطيط لخلافته. إن ثلاث زيجات متعاقبة، أخيرتها أدانتها الكنيسة بسبب اجتماعها مع زيجة أسبق، لم تؤد إلى إنجاب أي وارث له، الأمر الذي يفسره بعض مدوني الأخبار بميل الملك إلى اللواط. وهكذا، فعند موته، ينقسم أتباعه إلى جماعتين، تؤيد إحداهما أوستاش الثالث دو بولونيا، شقيق المتوفي، بينما تؤيد الأخرى كونت الرُّها، بودوان البوركي، ابن عمه. والحال أن هذا الأخير، الموجود في القدس لحضور جنازة بودوان الأول، إنما يجري تكريسه في ١٤ أبريل/ نيسان ١١١٨، لكنه لن يتوّج إلاّ في ديسمبر/ كانون الأول ١١١٩ في بيت لحم.

١-٣-٠ بودوان الثاني (١١١٨ ـ ١١٣١)

يواصل بودوان الثاني سياسة سلفه الهجومية ويضطر إلى القتال على جميع حدود المملكة، مع تأكيده للأمن في الداخل، والذي تتهدده غارات النهابين الساراسان. ومنذ العام الأول لعهده، يزيح جيشاً دمشقياً وفاطمياً جراراً كان قد احتشد في عسقلان. وإذ يتجه إلى سوريا الشمالية لتوفير السكينة لإمارة أنطاكية، بعد موت أميرها روجيه، فإنه يخوض هناك أربع حملات متتالية، لكنه يسقط أسيراً في عام ١١٢٣. ويستفيد الفاطميون من ذلك لكي يهاجموا يافا. وتؤدي المقاومة التي يقودها أوستاش جرانييه ووصول أسطول بندقي إلى فك الخناق ويسمحان بفتح صور، آخر المدن الكبرى على الساحل (باستثناء عسقلان، التي لا يجري فتحها إلاّ في عام ١١٥٣) التي كان قد تسنى لها الإفلات من سلطة الفرنج. وبمجرد الإفراج عن بودوان الثاني في عام ١١٢٩، يخطط لفتح دمشق، لكن حملتين جرى شنهما في عامي ١١٢٦ و١١٢٩ لا تنجحان في الوصول إلى هذا الهدف. وعند موته في عام ١١٣١، كان قد تم احتواء الفاطميين، غير أن صعود زنكي إلى سدة الحكم في حلب يهدد الممتلكات الفرنجية في شمالي سوريا.

١-٤-٠ فولك دانجو (١١٣١ ـ ١١٤٣)

تتسبب وصية بودوان الثاني في حدوث التصدعات الأولى في حياة المملكة. إذ يقال إنه بعد أن زوّج ميليساندا، وريثته، كونت آنجو، فولك الخامس، تنازل وهو على فراش



الشكل ١٢ – البيت الملكى الحاكم للقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر

الموت عن السلطة الملكية للثلاثي المؤلف من صهره وابنتـــه والأمـير الحـدث، ثمـرة زواجهما، بودوان الثالث فيما بعد. والحال أن فولك يريد أن يكون السيد الوحيـــد. وتنشأ عن ذلك توترات بين الزوجين، حيث تعتمد الملكة ميليساندا، المتعطشة إلى السلطة، علـى هيج دي بويزيه، كونت يافا، الذي يتمرد على الملك، وإن كان يضطر إلى الرحيـل إلـى المنفى. وبقدر كبيرٍ من الحرص، ينجح الملك فولك في توطيد مكتسـبات أسـلافه. فعلـى جهة مصر، يزود الإقليم الحدودي بعدد من الحصون ــ بلانشجارد [تل الصافي]، جيبيـلان [بيت جبرين]، ايبلان [يبنا] ــ لإحباط اختراقات الجيوش الفاطمية. وعلى الجهة الشـرقية، وعيًا منه بالخطر الذي قد تمثله هيمنة زنكي على دمشق، يغير السياسة مجتهداً في حمايـة استقلال المدينة السورية الكبرى، ويحصل في مقابل ذلك على معقل بانياس. وعلى الجهـة الشمالية، يتعين عليه، كأسلافه، أن يتدخل لإنقاذ أنطاكية التي يهددها زنكي.

١-٥٠ بودوان الثالث (١١٤٣ ــ ١١٦٣)

عند موت فولك في عام ١١٤٣، كان بودوان الثالث ما يزال قـاصراً. وتسـتفيد أمـه ميليساندا من ذلك لكي تتولى جماع السلطة، مع حمايتها لابنها الآخر، أموري، الذي ولـد في عام ١١٣٦. وتتلو ذلك حرب أهلية حقيقية بين الأم والابن، تنتهي بهزيمـة ميليسـاندا في عام ١١٥٢ وتتويج بودوان الثالث. ويضطر الملك الشاب إلى مواجهـة آثـار سـقوط الرُّها في عام ١١٤٤ وصعود نور الدين إلى سدة الحكم، بعد موت زنكي في عـام ١١٤٦. وفي السنة التالية يخوض حملة فاشلة ضد البصرة. وفي عام ١١٤٨، تصل إلى المملكـة قوات الحملة الصليبية الثانية، بعد أن كان لويس السابع قد رفض الاشتراك مع ريمـون دو بواتييه في القيام بعمل مشترك ضد حلب. ويجتمع مجلس البارونات في عكا فـي يونيـو/ حزيران ١١٤٨؛ ويقرر لويس السابع وكونراد الثالث شن حملة على دمشق، وهـو عمـل يتنافى تماماً مع السياسة التي إتبعها حتى ذلك الحين ملـوك القـدس. وتنجـح الجيـوش الألمانية والفرنسية في الاستقرار في الغوطة، إلاّ أنها تضطر إلى الانسحاب عنـد سـماع خبر وصول قوات نور الدين. ويتشتت شمل الحملة الصليبية الثانيـة دون أن تنجـح فـي عمل شيء. وينجح بودوان الثالث في استعادة حماية فرنجية على دمشـق فـي الأعـوام التالية، لكنه لا يقدر على الحيلولة دون انفتاح المدينة على نور الديـن فـي عـام ١١٥٤. وتشهد أواخر عهد بودوان الثالث تناوب النجاح ــ الاستيلاء على عسـقلان ــ والفشـل: هزيمة الجيش الفرنجي في مخاضة يعقوب والعجز عن السيطرة على شيزر التـي أمكـن فتحها، وذلك بسبب نزاع بين تييري، كونت الفلاندر ورينو الشاتيوني، وفشل الوساطة فـي

أنطاكية بين هذا الأخير والبازيليوس مانويل الأول كومنينوس، الذي كان بودوان الثالث قد تزوج إحدى بنات أخواته. وعندئذ ترتسم معالم حمايةٍ بيزنطية على مملكة القدس، بأكثر من معالم حلف بين دولتين على قدم المساواة.

١-٠٦ آموري الأول (١١٦٣ ـ ١١٧٤)

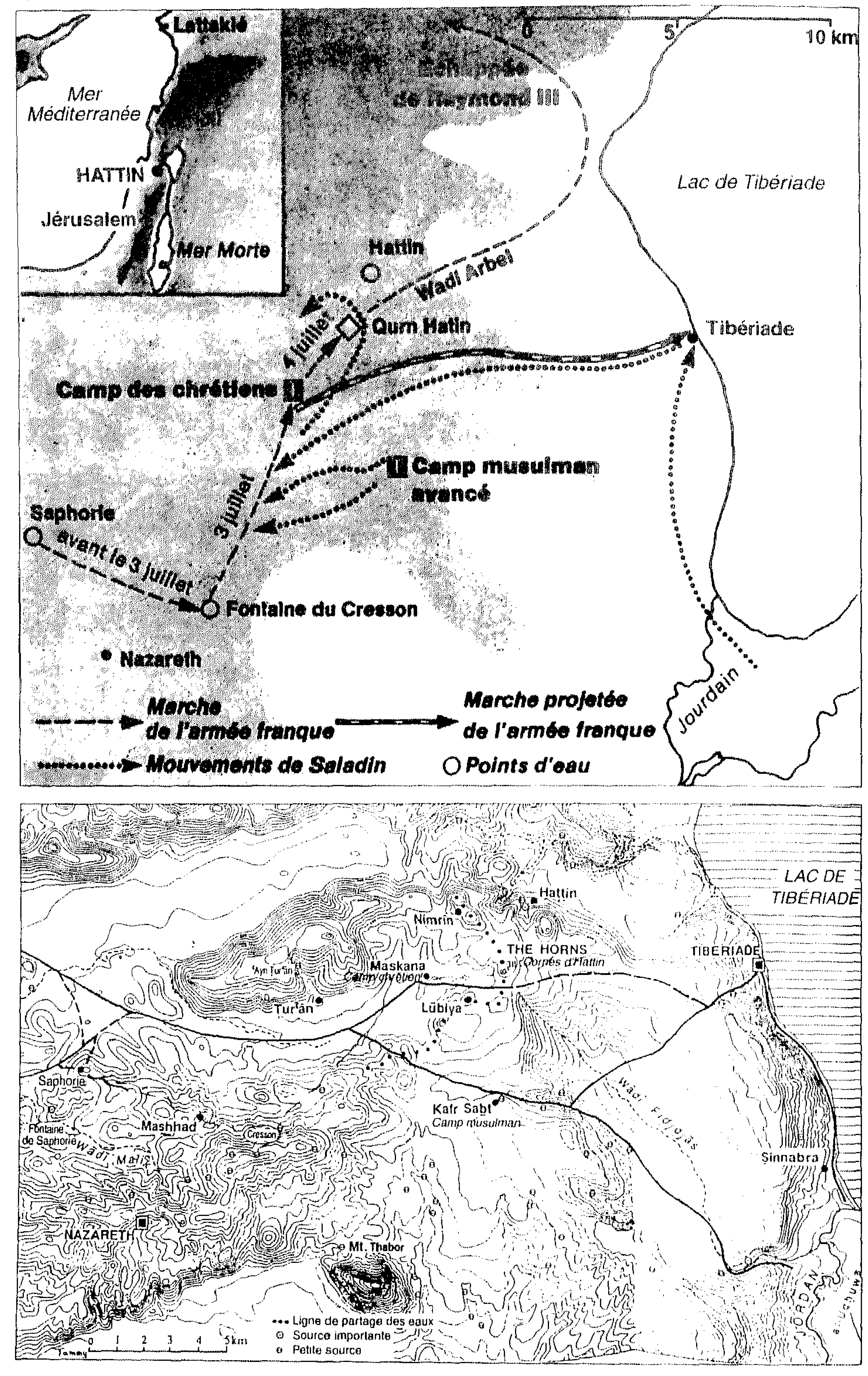
مع آموري، وهو أخ لبودوان، سوف تسيطر مسألة مصر على سياسة مملكة القدس التي سوف تسعى إلى تعزيز التحالف الذي عرضته بيزنطة على المملكة. والواقع أن النضال من أجل السيطرة على مصر، والتي تعتبر "مفتاح الأرض المقدسة " إنما يعد الشاغل الرئيسي للعهد. ويتدخل آموري في مصر على أثر النزاعات الداخلية من أجل الحصول على الوزارة، وهي السلطة الفعلية الوحيدة في مواجهة خلافة شاحبة. ويسعى تدخل أول للجيش الفرنجي في عام ١١٦٣ إلى تأمين دفع إتاوة للملك. وفي العام التالي، بسبب نزاع بين اثنين من المتنافسين على نيل الوزارة، هما ضرغام وشاور، ينتقل آموري إلى مصر، مستجيباً لنداء من الأخير، إلاّ أنه يضطر إلى مغادرة البلد سريعاً، لأن نور الدين، الذي كان قد هَزَمَ للتو جيش بوهيموند الثالث في حارم، صار يهدد المملكة أيضاً. وتترتب حملة ثالثة في عام ١١٦٧ على تدخل في مصر من جانب جيش شيركوه، نائب نور الدين. ولا يقدر آموري على أن يقف مكتوف اليدين وهو يرى مملكته محاصرة بجيشين جد قويين. وينتقل الجيش الفرنجي إلى وادي النيل: وتدور المعارك في صعيد مصر، حيث وجد شيركوه ملاذاً، وفي الإسكندرية التي يدافع عنها صلاح الدين، ابن أخيه. ويحصل آموري على دفع إتاوة وينسحب الجيشان، الدمشقي والفرنجي.

ولا يتخلى ملك القدس عن هدف فتح مصر؛ ولكي ينجح في ذلك، يحتاج إلى التحالف مع بيزنطة، وسعياً إلى الوصول إلى ذلك، يرسل إلى القسطنطينية وليم الصوري، مستشاره. لكنه، بعد أن عقد معاهدة مع جمعية الأوسبتالية ورغبة منه دون ريب في الإستئثار لنفسه بمكتسبات الفتوحات، لا ينتظر وصول الأسطول البيزنطي لنقل قواته إلى مصر (نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٦٨). وبعد الاستيلاء على بلبيس، يفشل الجيش الفرنجي أمام القاهرة ويضطر إلى الانسحاب بمجرد الإعلان عن وصول قوات شيركوه. والحال أن نتائج الفشل جسيمة: لقد استفاد نور الدين من بُعد الجيش الملكي [عن مملكة القدس] لكي يزعزع الحدود الشرقية للدول اللاتينية، ثم إن التحالف مع بيزنطة ينهار بسبب انعدام ثقة الفرنج. وفي العام التالي، يجري عقد التحالف من جديد. والحال أن أسطولاً بيزنطياً، يتألف من ٢٠٠ مركب، سوف ينتظر القوات الفرنجية في عكا. إلاّ أنه بسبب الريبة

المتبادلة أو عدم التفاهم، ينتهي حصار دمياط إلى الفشل في ديسمبر/ كانون الأول ١١٦٩. ومع أن آموري يزور البازيليوس في القسطنطينية في عام ١١٧١، إلاَّ أنه لا يحصل على شيء من تحالف مستأنف في جو من الريبة. والشيء الأكثر أهمية أن صلاح الدين يستولي في يناير/ كانون الثاني ١١٦٩ على الوزارة في مصر ويقضي بعد ذلك بعامين على الخلافة الفاطمية. وهو يمثل منذ ذلك الحين تهديداً أخطر على المملكة وذلك بقدر ما أنه يسعى إلى تحقيق وحدة مصر وسوريا، والتي أصبحت ممكنة بسبب موت نور الدين في عام ١١٧٤.

١-٠٧ بودوان الرابع (١١٧٤ ــ ١١٨٥)

في هذا العام بالتحديد، يرحل أموري عن الوجود. وتنتقل السلطة إلى ابنه، بودوان الرابع، الملك الأجذم. وبالرغم من مرضه، سوف يجتهد الملك في احتواء الضغط متزايد القوة الذي يمارسه صلاح الدين الذي يسعى إلى إخضاع إمارتي الزنكيين في حلب والموصل، رامياً إلى تكوين دولة متجانسة وإلى الاضطلاع في ظروف مناسبة بالاسترداد الإسلامي لفلسطين. على أن مشروعاً بشن حملة جديدة على مصر، بالاتفاق مع بيزنطة إنما ينتهي إلى الفشل، وذلك بقدر ما أن مانويل الأول كومنينوس يُمنى أمام الترك بهزيمة كارثية في ميريوكيفالون (١١٧٦). ومنذ ذلك الحين، لا تعتمد مملكة القدس إلاَّ على قواها الخاصة. وفي عام ١١٧٧، تتمكن من احتواء غارة شنها صلاح الدين الذي تُلحق به هزيمة دامية في مونجيسار. ويجتهد بودوان الرابع على أثر ذلك في تحصين حدود الجليل، لكن صلاح الدين يستولي على قلعة مخاضة يعقوب، بعد شهور قليلة من بنائها. بل إن أسطولاً أيوبيًا سوف يتمكن من إحراق السفن المسيحية في موانئ عكا وبيروت وطرطوس. وفي عامي ١١٨٢ و١١٨٣، يُلحق صلاح الدين الدمار بأرياف الجليل، رداً على غارات رينو الشاتيوني في بلاد العرب وفي البحر الأحمر. وينجح بودوان الرابع بصعوبة في وقف معركة فوربليه [كفر بلية]. وفي يونيو/ حزيران ١١٨٣، يستولي الأيوبي على حلب ويحقق وحدة سوريا المسلمة. وفي العام التالي، تتجه غاراته إلى السامرة، ثم يفشل أمام الحصن. وإذ يتجه إلى الموصل، يعقد هدنة مع الفرنج الذين كانوا قد توجهوا بالنداء إلى الغرب دون أن ينجحوا في الحصول على دعم.



الشكل ١٣ فوق : معركة حطين . تحت : ساحة معركة حطين المصدر :

L'Histoire n° 47, B.Z.KEDAR, The Horns of Hattin, ed. Variorum Reprints, Londres,: 1972

١-٠٨ من عام ١١٨٥ إلى عام ١١٨٧

عند موت بودوان الرابع (مايو/ آيار ١١٨٥)، كانت مملكة القدس خائرة القوى. فــهي في الداخل نهب لدسائس العشائر البارونية. وهكذا تنشأ مواجهة بين سيبيل، أخت بــودوان الرابع وزوجة سيد صغير ينحدر من بواتو، هو جي دو لوزينيان، مدعومةً مــن أستاذ جماعة الهيكل، جيرار الريدفوري، من جهة، والتابع الرئيسي للملــك، بــودوان الثــالث، الطرابلسي، المدعوم من عشيرة الإبلان القوية، من جهــة أخــرى. والحــال أن بــودوان الرابع، حين استشعر دنو أجله، كان قد عهد في لحظة أولى بالوصاية على المملكة لصــالح بودوان الخامس الحدث، الذي كان ثمرة زيجة أولى من سيبيل، إلى جي دو لوزينيــان. إلاّ أنه سرعان ما اختلف معه وأمر بتتويج بودوان (الخامس) الحدث، قبل موته هــو، عــاهداً بالوصاية لمدة عشر سنوات إلى ريمون الثالث. إلاّ أنه عند موت بودوان الخامس الحــدث في سبتمبر/ أيلول ١١٨٦، قام السينيشال جوسلان الثالث دو كورتنيه، الذي كــان يتولــى حراسة الطفل الملكي، بتدبير انقلاب وبتتويج كل من ســيبيل وجــي دو لوزينيــان فــي القدس، وقد سارع غالبية البارونات إلى الالتفاف حولهما دعماً لــهما. ويــنزوي ريمــون الثالث، الساخط، في طبرية، بل وسوف يمضي إلى حد التفاوض مع صلاح الديــن سـعيًا إلى استعادة حقوقه.

في تلك اللحظة يؤدي هجوم مشؤوم على قافلة من جانب رينو الشاتيوني، وهو هجــوم يشكل خرقاً للهدنة المعقودة مع صلاح الدين، إلى تدشين الكارثة التي سوف تخضــع لــها المملكة. وبما أن سيد ما وراء الأردن يرفض تسليم غنائمه، فإن الأيوبــي يحشــد جيشــاً جّراراً، ويغزو ممتلكات رينو في مارس/ آذار ١١٨٧ ويجتاح الجليل. وإذ يتصالح ريمــون الثالث مع جي دو لوزينيان أمام الخطر، يقترح الأول بلا طــائل اتخــاذ موقــف إرجــاء المواجهة، بالرغم من أن الجيش المسلم يتوجه نحو أنطاكية، حيث كانت زوجته معتكفــة. وعلى العكس من ذلك، يتمكن جيرار الريدفوري من إقناع الملك جــي بمطــاردة صــلاح الدين. وتحدث المواجهة في أسوأ الظروف عند قرون حطين، قرب طبرية (٤يوليو/ تمـوز ١١٨٧). وفي حر الصيف الخانق، يباد الفرسان الفرنج المحرومون من مصــادر المــاء. وفي مساء المعركة، يسقط الملك في الأسر، كما يسقط معه فيه رينو الشاتيوني وكثير مــن فرسان الهيكل والأوسبتالية. وتجري معاملة جي دو لوزينيان برقة، لكــن صــلاح الديــن يقطع رأس سيد ما وراء الأردن الذي تصدى له ويأمر بإعدام أفراد الجمعيتين العســكريتين الأسرى. وفي الأسابيع التالية، يستولي صلاح الدين على مجمل المملكة تقريبــاً. ذلــك أن

القدس، التي لم يبق فيها غير فارسين، تسقط في ٢ أكتوبر/ تشرين الأول. ولا يتمكن من الصمود غير صور، التي تمكنت من الوصول إليها بمعجزة سفينةُ كونراد دو مونفيرات. وفي أواخر عام ١١٨٧، لا يعود لمملكة القدس من وجود. والحال أنه لا يمكن إنقاذها إلاّ بهبّة من الغرب: وسوف تكون الحملة الصليبية الثالثة هي هذه الهبّة.

٢ . مؤسسات المملكة في القرن الثاني عشر

٢-١ . السلطة الملكية

إن الدولة الجديدة التي أقامها بارونات وفرسان قادمون من فرنسا، إنما تتبنى بالطبع الهياكل الفرنسية، على نحو ما كانت عليه في أواخر القرن الحادي عشر، مع هذا الفارق البسيط الذي يتمثل في أن هذه الدولة إنما تولد من حق الفتح لا من تخويل إمبراطوري أو بابوي للسلطة.

وهي تستند من الناحية النظرية على انتخاب ملك من جانب البارونات. ولا يخطئ حقوقيو القرن الثالث عشر عندما يذكرون بأن جودفروا البويّوني قد أختير من جانب أنداده وأنه لم يكن غير الأول بينهم. وهذه خدعة حقوقية لتبرير هيمنة النبلاء على ملكية تترك لهم الحبل على الغارب. لكن الحال لم تكن هكذا في مستهل القرن الثاني عشر، فبعد تتويج بودوان الأول، كان الملك يتمتع بسيادة كاملة، وكان ينقل سلطته بالوراثة، إلاّ في عام ١١١٨، حيث يجري استدعاء بودوان البوركي، ابن عم الميت، نظراً لعدم وجود وارث. ويمكن للمنصب الملكي أن ينتقل إلى النساء، ففي عام ١١٣١، ترث التاج ميليساندا، ابنة بودوان الثاني، لكنها تضطر إلى نقل حقوقه إلى زوجها، فولك دانجو. والقَسَمُ، الذي يؤديه الملك عند تتويجه، إنما يلزمه باحترام قوانين وأعراف المملكة ويخلق حلفاً اجتماعياً مع أولئك الذين انتخبوه أو أيدوه، وفي المقام الأول النبلاء. ويجري إعلان الملك "سيداً أعلى"، أي أنه يوضع على رأس الهرم الإقطاعي، لأن شبكة العلاقات والتبعيات الإقطاعية تشكل البنية الداعمة للمملكة وللمجتمع برمته. والحال أن هيبة التاج، التي لم ينل منها شيء في عهدي الملكين الأولين، إنما تهتز خلال أزمة خمسينيات القرن الثاني عشر، عندما تنشأ مواجهة بين الملكة الأم ميليساندا وابنها، بودوان الثالث، وخاصة في عام ١١٨٥، عند خلافة بودوان الرابع. وتؤدي الوصايات التي يُعهد بها إلى أقرب قريب للملك الذي لا يملك ممارسة المُلك، إلى إضعاف السلطة الملكية، حتى عندما تُمارسُ هذه الوصاياتِ شخصياتٌ لها كفاءتها (ريمون الثالث). وعند انتهاء الحملة

الصليبية الثالثة، ينتقل التاج من جي دو لوزينيان، المستبعد لعجزه العسكري، إلى كونراد دو مونفيرات ثم إلى هنري دو شامبانيا، بعد اغتيال السابق، حيث كانت ايزابيل، ابنة الملك آموري، قد نقلت حقوق التاج إلى زوجيها المتعاقبين.

٢-٢-٠ النظام الإقطاعي

يترافق فتح عام ١٠٩٩ مع اقتسام للأراضي بين الملك والبارونات، المرتبطين بالملك عن طريق الولاء. وهكذا تحتوي شبكة من الإقطاعات الأراضي المفتوحة، وتتبنى مملكة القدس إقطاعاً مستورداً يمنحها بنيتها السياسية والعسكرية لقرنين من الزمان، وذلك بالرغم من أن العلاقات بين النبلاء والمَلَكية قد تطورت كثيراً خلال تلك الفترة.

وإلى جانب الزمام الملكي، الذي يظل اتساعه ملحوظاً في القرن الثاني عشر، خاصة في اليهودية والسامرة، تتشكل إقطاعات ممنوحة لبارونات الحملة الصليبية: "إمارة" الجليل التي مُنحت في البداية لتنكريد، وإن كانت قد عادت إلى الزمام الملكي في عدة مناسبات، وكونتية يافا وعسقلان وإقطاعات بيروت وصيدا وتورون [تبنين] وسكاندليون [إسكندرونة] والناصرة وحيفا وقيسارية وما وراء الأردن، على سبيل المثال. وقد مال حقوقيو القرن الثالث عشر إلى التمييز بين أربع بارونيات كبرى (الجليل، يافا ــ عسقلان، حصن مونريال [الشوبك]، صيدا)، حيث تتميز إقطاعات أخرى بخدمة أكثر من مائة فارس وبإمتياز الحاصلين عليها بعدم إمكان محاكمتهم إلاّ أمام الكورية العليا [المجلس الأعلى]، إلاّ أنه يبدو ان هذا التمييز لا يستند إلى أساس من الناحية التاريخية.

ويمكن للإقطاعات الممنوحة للفرسان أن تتفاوت من إمارة، كالجليل، إلى أراضٍ أقل أهمية، ثم إلى قرية لأصغر الأتباع. وليست كل الإقطاعات ذات طابع عقاري. فإلى جانب " الإقطاعات على شكل أرض "، توجد عدة فئات من الاقطاعات ــ الريعية أو الإقطاعات " الموحّدة "، والتي تتألف إمّا من مدفوعات سنوية يؤديها السيد أو الملك إلى أحد الأتباع، أو من حصولٍ على إيرادات قرية من القرى، أو من حصولٍ على الإيرادات التي يجري جمعها في مدينة عن طريق " السيكريت " (الديوان المالي) لأحد السادة. وتسمح المرونة الكبيرة التي تتميز بها الإقطاعات ــ الريعية لكثير من الفرسان بالعيش في المدينة، قرب مصادر دخولهم؛ وعندما تصبح الأراضي قليلة في القرن الثالث عشر، تصبح

الإقطاعات ــ الريعية وسيلة مهمة لصون الولاءات الشخصية والخدمات واجبة الأداء للفوز بإقطاعة.

وإذا كانت الإقطاعات الأهم تتمتع بحقوق القيادة وبالحقوق القضائية على رجال أراضيها، فإن الأتباع يظلون على الأخص ملزمين، بفضل الولاء الذي قدموه، بالإخلاص لسيدهم وللملك وبالتفاني في أداء خدمات إجبارية. وفي المقام الأول من هذه الخدمات الخدمة العسكرية، دون تحديد لمدة في داخل المملكة، وذلك بالنظر إلى حالة الحرب شبه الدائمة. فيكون الأتباع تحت تصرف السيد أو الملك مجهزين بجياد وبأسلحة على مدار العام عندما يستنفرون إلى ذلك، ويتعين عليهم الخدمة بأشخاصهم حتى بلوغ الأربعين من العمر. والحال أن يوحنا الإبلاني، أشهر حقوقيي القرن الثالث عشر، يصنف الإقطاعات بحسب عدد الفرسان والرقباء الذين يجب أن تقدمهم إلى الــ *ost* (الجيش) الملكي. لكن الخدمات تشمل أيضاً أداء واجبات الحاميات والــ *consilium* (إبداء الرأي) والتي تلزم التابع بالحضور إلى كورية السيد وبالتصرف كرسول أو بالمشاركة في التحقيقات.

والحال أن الالتزام بتقديم الخدمة العسكرية يقيد إمكانية التصرف في الإقطاعة. فهذه الأخيرة لا يمكن بيعها لمن ليس فارساً أو لسوري أو للكنائس، فهؤلاء كلهم لا يمكنهم تولي إلتزامِ مقاتلٍ؛ وتظل الإقطاعة ممنوحة لخلفاء حائزها الذي يموت، إلاّ أنه لا يمكن اقتسامها. فماذا لو كان الوارث قاصراً ؟ عندئذ يضع السيد الإقطاعة تحت حماية خارجية إلى أن يبلغ التابع سن الرشد. وماذا لو كان الوارث إمرأة ؟ عندئذ يجب على الوارثة أن تقبل اليد التي يقدمها لها السيد، ويمكن إجبار الأرملة على الزواج من جديد في ختام سنة ويوم. وتترتب على ذلك تجارة حقيقية في المواريث تسمح للملك بالسيطرة على نقل الإقطاعات. وقد رأى آموري أن يعزز هذه السيطرة من خلال الــ *Assise sur La Ligèce* [أسيز بصدد دورية خدمة الأتباع العسكرية] الذي صيغ نحو عام ١١٦٥. فهذا النص يحظر على السيد حرمان أحد الأتباع من إقطاعته دون حكم صادر عن كورية إقطاعية، كما يعمم هذا النص، بالأخص، تقديم ولاء ــ التبعية واجب الأداء للملك على جميع الأتباع في المملكة: وهكذا ينشئ هذا الواجب صلة مباشرة بين المَلَكية وجميع الفرسان. على أن هذا القرار، الذي بدا من الناحية الظاهرية كنجاح أحرزته المَلَكية، سوف يرتد إلى نحرها، إذ يخلق بين الأتباع الصغار، من خلال الكورية الإقطاعية، صلات أفقية لم تكن موجودة حتى ذلك الحين، وإذ يعزز الكورية العليا، التي يسيطر عليها النبلاء، والتي يمكن منذ ذلك الحين لجميع الأتباع أن يلجأوا إليها. والحال أن

الأرستقراطية الإقطاعية، خاصة في القرن الثالث عشر، إنما تستخدم الأسيز لإضعاف المَلَكية ولتحويل الكورية العليا إلى مركز لآلية الحكم. وعلى المدى الطويل، فإن النظام الإقطاعي ــ التابعي الذي ازدهر في مستهل القرن الثاني عشر على شكل مَلَكية إقطاعية "تميزها حصاة بيضاء" [أي لها مرجعيتها]، سوف ينقلب ضد الملك.

٣-٢-٠ المؤسسات المَلَكية

لم تكن تلك هي الحال بعدُ في مستهل القرن الثاني عشر. فالسلطة الملكية تستند أولاً إلى الزمام الملكي، وإلى إيرادات مهمة. والزمام الملكي، الواسع في اليهودية والسامرة، والأقل بكثير في الجليل، إنما يشمل المدن الرئيسية للمملكة ــ نابلس وعكا وبيروت وصور ــ وقرى أو casaux [دساكر] يأخذ الملك عنها ضريبة التِّراج [أي الخراج ــ ضريبة الأرض] وضريبة الرأس وأعمال السخرة والإلزاميات [الإكراه على استعمال أملاك للملك كالأفران والمطاحن مقابل دفع أجر] والـ *exenia* أو الهدايا العينية. وفي المدن، كانت رسوم الفوند [غرفة السوق] والضرائب على الطرق وعلى البوابات وفي الموانئ ورسوم رسوّ السفن، هي التي أدت إلى إغناء "السيكريت" [الديوان المالي] الملكي. وقد أدى امتلاك البيوت واستغلال مصائد الأسماك ومعامل السكر أو دار سك النقود إلى تكميل الإيرادات المَلَكية.

والحال أن الكورية العليا، المنظمة وفق نموذج الـ *Curia regis* [الكورية المَلَكية/ المجلس الملكي] الفرنسي، وذات التكوين الإقطاعي على وجه الحصر، إنما تظل الجهاز الرئيسي للحكم. ففيها يوجد كبار النبلاء والأتباع المباشرون الذين يمسكون بأملاك التاج. وبعد عام ١١٦٥، تنفتح الكورية العليا على جميع الأتباع، ثم على الأساقفة وممثلي الكومينات الإيطالية. وهي تتدخل في ترتيب الخلافة الملكية، كما حدث عندما استدعت بودوان البوركي إلى خلافة ابن أخيه، بودوان الأول، في عام ١١١٨. وهي تقدم موافقتها على فرض ضرائب على المنقولات في عامي ١١٦٦ و١١٨٣. وفي المجال التشريعي، تدرس وتوافق على نصوص الأسيزات التي تحدد الأحكام في الشأن الإقطاعي والمدني والجزائي. وهي تنعقد بصفة دائمة على هيئة محكمة عدل، فتجتذب إليها جميع الدعاوى الإقطاعية. إلاّ أنها، خلافاً لما يحدث في الغرب، تتحجر في أواخر القرن الثاني عشر، لعجزها عن التطور والتحول إلى أجهزة متميزة عن الحكومة. وقد تشكلت كوريات أخرى في المملكة؛ ففي كل إقطاعة كانت توجد كورية للسيد وأتباعه؛ أمّا بالنسبة لأهالي البلد الأصليين، فقد كانت هناك كوريات يرأس كلاً منها رئيس للفصل في الدعاوى

البسيطة؛ وبالنسبة للاتين من غير النبلاء، كانت هناك كوريات للبورجوازيين [البُرجاسية] [مجالس سكان المدن]، "cours de borgesie" ؛ وكانت هناك محاكم خاصة للجاليات الإيطالية في الأحياء الحضرية التي مُنحتْ لها؛ وذلك إلى جانب كوريات تجارية، أخيراً، هي كوريات " السلسلة " [أو "مجالس السلسلة " التي سميت بهذا الاسم لأنه لم يكن من النادر أن تسد سلسلةٌ مدخل الميناء] للنظر في الدعاوى المتصلة بالحياة البحرية ثم كورية الفوند [غرفة السوق]، للنظر في الدعاوى المختلطة بين الفرنج والسوريين.

التنظيم القضائي لمملكة القدس في القرن الثاني عشر

الفاتحون	النبلاء ← الكورية العليا والكوريات الإقطاعية
	" البورجوازيون " ← كورية البورجوازيين
الأهالي	الأحرار ← كورية السوريين: الرئيس؛ كورية الفوند
	العبيد وأحلاس الأرض ← كورية سيدهم

أمّا الأجهزة التنفيذية فهي محدودة الدور. فكبار ضباط التاج يختارهم الملك لدى ارتقائه العرش. والكونيتابل، الذي يرأس الكورية العليا، في غياب الملك، يقود الجيش، بمساعدة الماريشال، الذي يهتم بـ *restor* [رعاية] الجياد. وماليات المملكة تدار من جانب السينيشال الذي يشرف على تحصيل إيرادات الملك ويختار المشرفين الملكيين ويراقب عملهم. أمّا المستشار، الذي يتم اختياره من بين رجال الدين ــ ووليم الصوري واحد من أبرزهم ــ فهو يقوم بدور أقل من دوره في الغرب وقلّما يؤثر على السياسة الملكية. وأمّا الحاجب، فهو ضابط منزلي، يدير مقر السكن الملكي. وكان كبار الضباط يعتبرون جد ثانويين في الصراع على السلطة بحيث إن الكورية العليا لا تبذل أي جهد لوضع يدها على تعييناتهم.

٣. الكنيسة اللاتينية والجمعيات العسكرية

٣-١. الكنيسة اللاتينية

عند الفتح الذي تم في عام ١٠٩٩، يجد الفرنج أنفسهم حيال تنظيم للكنيسة يرجع إلى عصر جوستينيان، لكن الفتح العربي في القرن السابع كان قد زعزعه. ومن الناحية النظرية، كانت بطريركية القدس تضم أربعة كراسٍ مطرانية، هي قيسارية وسكيثوبوليس وموآب ربّة والبصرة. وتبعاً لتقدم الفرنج، يضعون أساقفة مختارين من جانبهم على الكراسي الشاغرة وينصبون بطريركاً لاتينياً في القدس، حيث إن الحائز الرومي على المنصب كان قد ترك كرسيه شاغراً بهربه إلى قبرص. وهذا التنظيم الجديد لا يتم دون مشاكل: فأرنولف، البطريرك الأول الذي أختير في عام ١٠٩٩، يجري خلعه عند وصول دايمبرت البيزاوي، مندوب البابا. وبعد انتخاب دايمبرت، يجري خلعه بدوره في عام ١١٠٠، ثم يعاد ثم يُخلع من جديد في عام ١١٠٢ لصالح إفرمار (١١٠٢ ــ ١١٠٨) ثم لصالح جيبلان السابراني، الذي يحل محله في عام ١١١٢ أرنولف، أول بطريرك معين. وأول شخصية مهمة تحتل العرش البطريركي هو جارمون دو بيكيني الذي يعقد مجمعاً في نابلس في عام ١١٢٠. وفي ذلك الحين، لم يكن هناك بعدُ غير أربعة أساقفة لاتين. وقد أصبحوا ثلاثة عشر في أواخر القرن الثاني عشر، وكانوا موجودين بالأخص في المدن الكبرى الساحلية وفي أماكن العبادة والحج التي يسيطر اللاتين عليها. وقد طرد الفرنج الأساقفة الأرثوذكس من أسقفياتهم وطردوا رجال الدين الأرثوذكس من الكاتدرائيات، لكنهم تركوا للملكانيين الحرية الدينية تحت سلطة أساقفة لاتين. وخلال القرن الثاني عشر، أدت نزاعات على السلطة إلى خلق مواجهة بين بطريرك القدس ونظيره في أنطاكية، بصدد كرسي صور، الموجود في المملكة، لكنه يخص تاريخياً بطريرك أنطاكية.

وقد أنشأ الفرنج من جهة أخرى عدداً من الأديرة، إلى جانب الأديرة التي كانت موجودة قبل الحملة الصليبية؛ وهكذا انضمت أديرة نوتردام في يوشافاط وجبل صهيون والهيكل ودير جبل الزيتون إلى دير سانت ماري اللاتينية ودير سانت ماري مادلين، اللذين كانا قد أقيما في القرن الحادي عشر. والحال أن الكنيسة اللاتينية التي شغلت الأملاك التي كانت تملكها المؤسسات الكنيسة الرومية وأغنتها هباتُ الملوك والسادة، قد أصبحت تحوز في الأرض المقدسة أملاكاً جد واسعة. وهي تستخدم إيراداتها للانفاق على

دور الضيافة المنشأة لرعاية الحجاج وعلى المدارس ومستشفيات الجذام، مع قيام الكنيسة، هي أيضاً، بتقديم وحدات من الرقباء إلى الجيش الملكي.

ويواجه الفاتحون أيضاً وجود المسيحيين الشرقيين: فما هي السياسة التي يجب تبنيها حيالهم ؟ إذا كان الفرنج يحرمون الروم الأرثوذكس من وجود هيراركية كنسية، فإن كنائس وأديرة القرى تحتفظ برجال دينها تحت السيطرة اللاتينية. والعلاقات أكثر ودية مع الكنائس القائلة بوحدة طبيعة المسيح ــ اليعاقبة والأقباط والنساطرة والأرمن ــ وذلك بسبب الجدل المستمر الذي وضع تلك الكنائس في مواجهة الكنيسة الأرثوذكسية المتبنية لمواقف مجمع خلقدونية، حتى وإن كانت تلك الكنائس تمثل كنائس الأهالي الذين تم فتح بلدانهم. وسوف يصل الأمر بالموارنة إلى حد قبول اتحادهم مع روما في عام ١١٨٢، مع الآثار السياسية والثقافية التي ترتبت على هذا الحدث إلى اليوم.

٣-٢ • الجمعيات العسكرية

من المؤكد أن إنشاء الجمعيات العسكرية هو كبرى أصالات الأرض المقدسة في القرن الثاني عشر. فهو يحقق الجمع بين مثلين أعليين متناقضين من الناحية الظاهرية، وهما الفروسية والرهبانية. والحال أن الجمعيات التي كانت قد أنشئت أصلاً لإغاثة الحجاج الفقراء والمرضى، سوف تعزز تاريخياً وظيفتها العسكرية ودورها في تاريخ الأرض المقدسة: إن ممتلكاتها العقارية، المتزايدة باستمرار من جراء هبات وإيرادات (*responsiones*) كومانديريات الغرب وامتياز الإعفاء الذي تتمتع به من الخضوع للإدارة المحلية الكنسية والزمنية، كل هذا يمنحها قوة ملحوظة موضوعة في خدمة سياسة لا تتماشى دائماً مع سياسة الملَكية، ولو أن دورها في الدفاع عن المملكة لا بديل له. ومع تباين أصولها، سوف نجد أن جمعيتي فرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا في القدس [الأوسبتالية] وجمعية سانت ماري للتيوتون أو جمعية سان لازار للمجذومين تمثل باطراد خلال القرن الثاني عشر القوى الحية للمملكة.

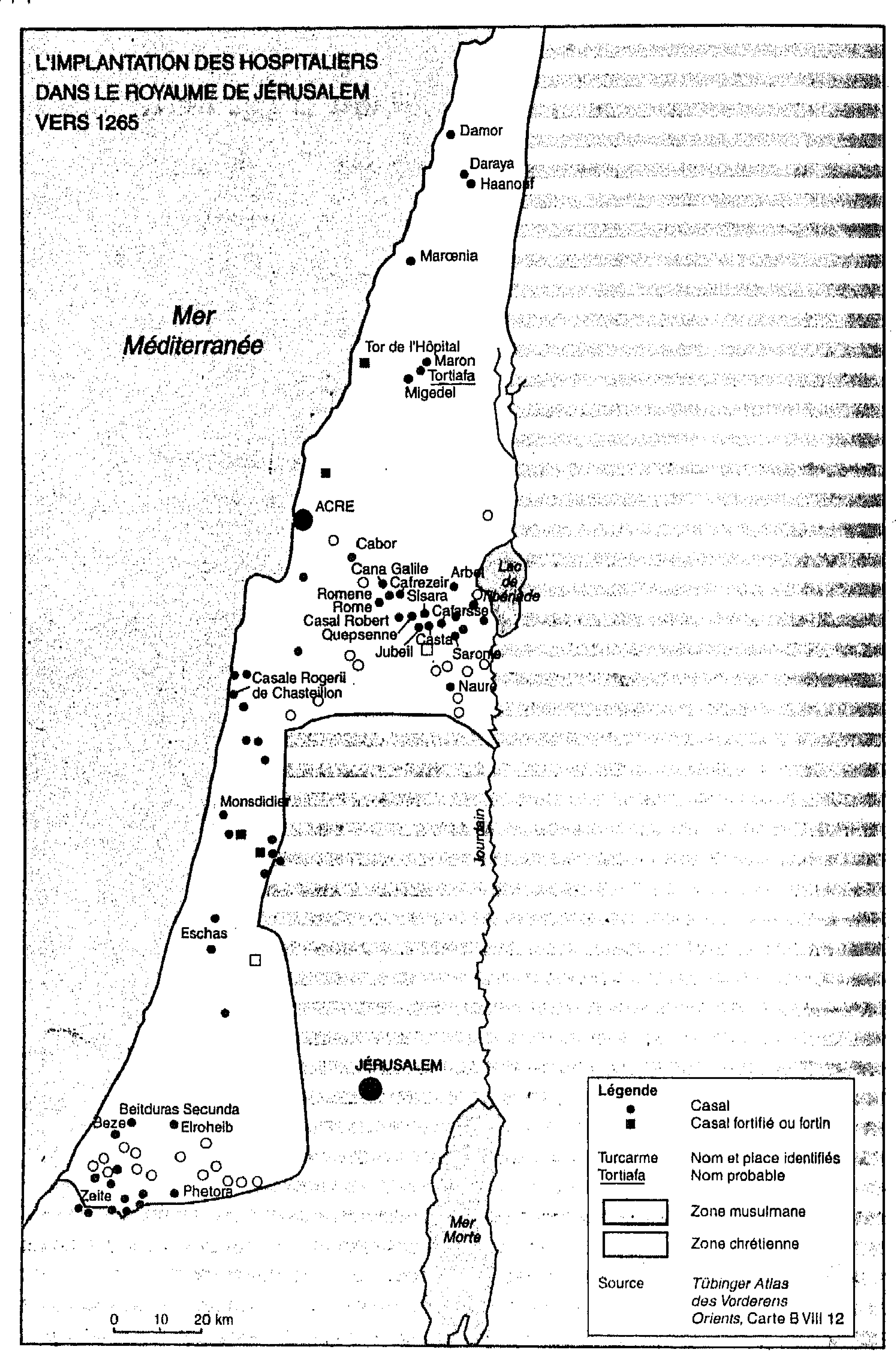
٣-٢-١ • جمعية فرسان القديس يوحنا في القدس (الأوسبتالية)

يرجع تأسيس الأوسبتالية إلى ما قبل الحملة الصليبية الأولى. فنحو عام ١٠٧٠، في الواقع، كان عدد من التجار الأمالفيين قد بنوا قرب كنيسة القبر المقدس ديرين ودار ضيافة لإيواء الحجاج. وهذه المنشأة الأخيرة تكمن في أساس الأوسبتالية. وبعد عام ١٠٩٩، يتولى فارس من بروفانس، هو جيرو، وعدد من زملائه، رعاية منشأة الأمالفيين للاهتمام بالمرضى وبالحجاج. وتعترف البابوية بهم كجمعية مستقلة في عام ١١١٣.

ويحدث الانزلاق من عمل خيري إلى جمعية عسكرية تدريجياً: فالفرسان ـ الكهنة الذين يحمون الحجاج ضد هجمات المسلمين ويحرسون الطرق ويجندون أفرادهم من بين صفوف الأرستقراطية أساساً، إنما يجدون أنفسهم مدفوعين إلى المشاركة في معارك الجميع في الأرض المقدسة. ومنذ عام ١١٢٦، يشار إلى وجود كونّيتابل للجمعية. وبعد ذلك بعشر سنوات، يعهد الملك فولك إلى هذا الأخير بحراسة قلعة جيبلان [بيت جبرين]، قرب عسقلان. وقبل عام ١١٥٣، حددت الجمعية لنفسها نظاماً، مؤسّساً على نظام القديس أوغسطين، إلاّ أنه، حتى عام ١١٧٩، كان فرسان مرتزقة يتولون المهام العسكرية.

وفي ذلك العام تحديداً، تصبح الأوسبتالية جمعية عسكرية مكرسة بالكامل للنضال ضد الكفار، ليس دون تحفظ جزء من الإخوة الذين لا يرتاحون كثيراً إلى سيرورة عسكرة، عَجّلَ منها تسليمُ عددٍ كبير من الحصون في كونتية طرابلس للجمعية. وينقسم الأخوة إلى كهنة وفرسان ورقباء، إلى إخوة مشتركين أو دونات. وكل بيت للأوسبتالية هو دير، يقع في دائرةٍ أو كومانديرية. ويجري تجميع هذه الأخيرة في ولايات، موزعة هي نفسها على سبع كومانديريات كبرى. ويقود الجمعية أستاذ يساعده مجلس وثمانية مشرفين رهبانيين. وفي تنظيمها، تعد الأوسبتالية جد قريبة من جمعية فرسان الهيكل، لكن دورها الخيري لاشك أنه أكثر تميزاً.

ويمكن تفسير الثراء السريع للجمعية بأفضال الحجاج الذين منحوا الجمعية، منذ عام ١١١٠، أملاكاً متفرقة في مختلف إقطاعات مملكة القدس. ويجري افتتاح دور ضيافة في الغرب في كبرى موانئ الرحيل إلى الأرض المقدسة. والواقع أن الجمعية تنظم عمليات نقل منتظمة للحجاج و، عن هذا الطريق، تقبل ودائع نقدية، يمكن ردها فيما وراء البحر. وهي تحصل على أملاك كبرى في الدول اللاتينية، بين الخليل وعسقلان، وفي غرب القدس وحول حصن الفرسان ومَرْجَت [مرقب]. وهي تولي انتباهاً كبيراً إلى المحاصيل الزراعية، الضرورية لإعاشة الإخوة وخدمهم وعدد كبير من الفقراء. وفي كونتية طرابلس، تفوز الجمعية بموقع استثنائي وذلك بسيطرتها على الحصون الكبرى كمرجت [مرقب] أو حصن الفرسان. وشأن فرسان الهيكل، يمثل الأوسبتالية جيشاً جيد التسليح وشبه دائم. وهم يلعبون دوراً عظيماً في التطور السياسي للدول الفرنجية: فالأستاذ الأكبر جيلبير داسايي، يدفع الملك أموري الأول إلى حملاته المغامرة في مصر. وفي القرن الثالث عشر، تدعم الجمعية مبادرات فريدريك الثاني والحزب الإمبراطوري وبهذا تنضم إلى الحزب المعارض لحزب الهيكليين.



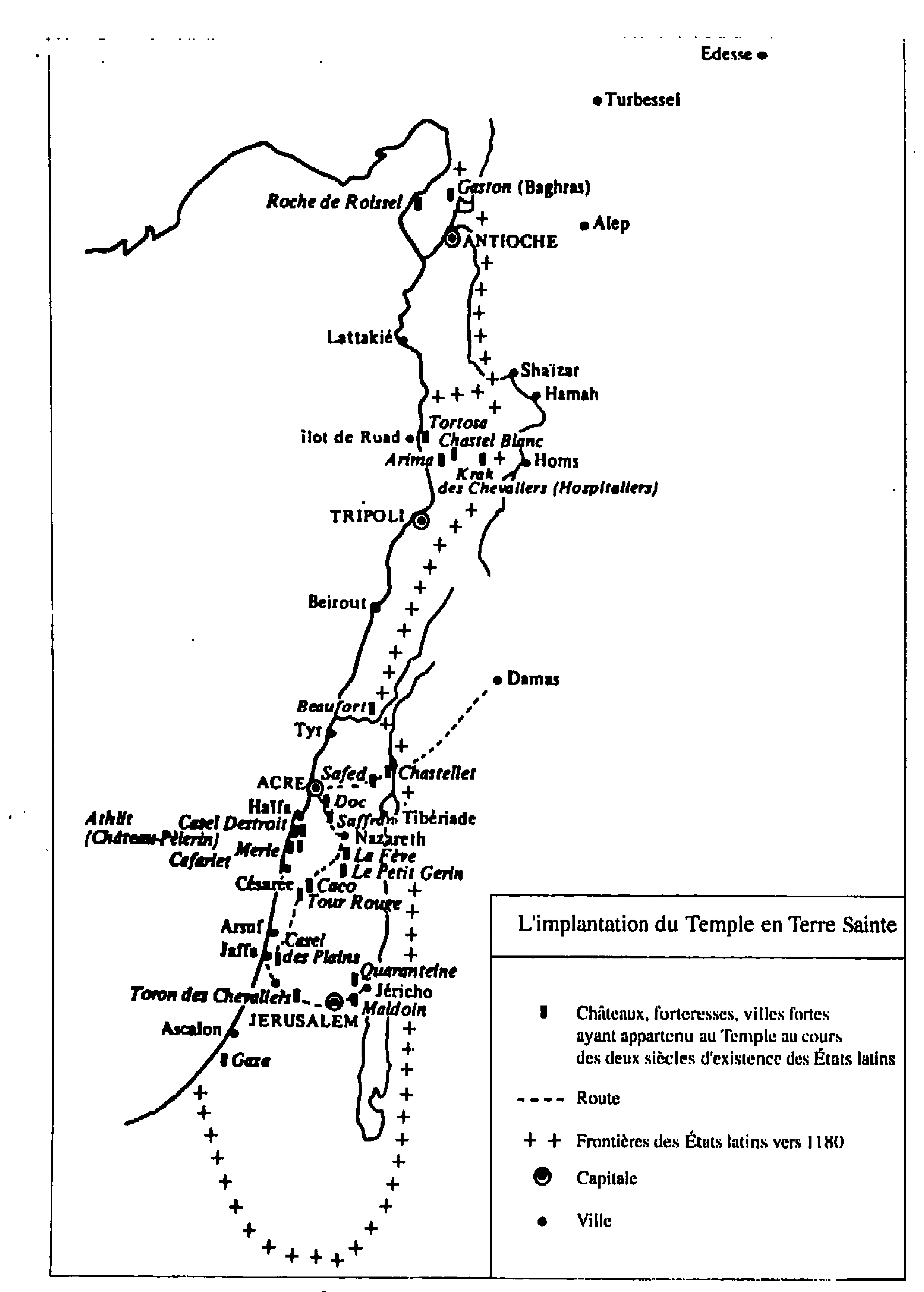
الشكل ١٤ – إنغراس الأوسبتالية فى مملكة القدس نحو عام ١٢٦٥ . المصدر: ميشيل بالار

وتواصل الأوسبتالية حياتها بعد اختفاء الدول الفرنجية في الأرض المقدسة. فتستولي على جزيرة رودس في عام ١٣٠٩ وتبقى هناك إلى الفتح العثماني، الذي يرغمها على الانسحاب إلى جزيرة مالطة (١٥٣٠). واليوم، أيضاً، يُعَدُّ فرسان القبر المقدس ورثة الإخوة ذوي الرداء الأحمر، الموسوم بصليب أبيض ذي ثمانية أطراف، فرسان جمعية فرسان القديس يوحنا في القدس.

٣-٢-٢. جمعية فرسان الهيكل

يولد تكوين جمعية فرسان الهيكل، كتكوين الجمعيات العسكرية الأخرى، من تجربة الأرض المقدسة والحملة الصليبية. وبدايات هذه الجمعية ليست معروفة جيداً. فنحو عام ١١١٨، يقوم فارس من شامبانيا، هو هيج دو باينس، الذي يحتمل أن يكون من أقارب سان برنار، بتكريس نفسه مع عدد من الأصدقاء لحماية الحجاج على الطرق المؤدية إلى القدس وإلى أريحا. ويحصل " فرسان المسيح الفقراء" هؤلاء على دعم من صليبيين بارزين، كفولك دانجو وهيج دو شامبانيا. وهم يقررون العيش في الفقر واعتماد نظام الكهنة النظاميين الأوغسطينيين. ويوجههم الملك والسلطات الدينية في الأرض المقدسة نحو مهمات الحماية والقتال.

والحال أن أسلوب الحياة هذا يستثير تحفظات في الغرب بل وفي صفوف أعضاء الجمعية المنزعجين من الأهداف الجديدة المحددة لإناس يكرسون أنفسهم للرب. على أن تمجيد " فرسان المسيح "، وفكرة أن الحملة الصليبية هي نوع من السمو بالمهنة الحربية، والحمايةُ المقدمة من سان برنار إنما تسهل صوغ النظام الخاص بالجمعية والذي يجري اعتماده في عام ١١٢٨، خلال مجمع تروا. فيتعين على الإخوة أن يحاربوا بجسارة أعداء الدين؛ وبما أنهم يخضعون لأستاذ ولمجلس الجمعية وللبابا، فإنهم يعفون من كل سلطة كنسية، فيما عدا سلطة البابوية. ويصدق البابا اينوشنتيوس الثاني على نظام الجمعية في عام ١١٣٩، بينما يتولى سان برنار، من خلال بحثه الذي يحمل عنوان: *De Laude novae militiae* [في الثناء على جمعية الفرسان الجديدة]، تبديد آخر الشكوك حول رسالة الإخوة.



الشكل ١٥ – انغراس جمعية فرسان الهيكل فى الأرض المقدسة. المصدر :

A.DEMURGER, Vie et mort de l'ordre du Temple, éd. Seuil, Paris, 1985

ويعتمد تنظيم جمعية فرسان الهيكل على كوماندريات، مجمّعة في ولايات، موضوعة هي نفسها تحت سلطة كوماندريات الأقاليم أو البريسيبتورات [المؤدبون]. ويحكم الجمعية أستاذ منتخب من جانب ثلاثة عشر رجلاً من أبرز رجال الجمعية. وبين صفوف الإخوة، يتمايز أولئك الذين يقاتلون ــ الفرسان والرقباء، وأولئك الذين يقيمون الصلوات ــ الكهنة ــ، وأولئك الذين يعملون ــ إخوة الصنائع والحرف.

وتطور الجمعية مترتب على الهبات المقدّمة لها: إن قصر الملك، في ساحة الهيكل، إنما يمنح اسمه للجمعية بأكملها. وخلال جولاتهم في الغرب، يحصل هيج دو باينس وزملاؤه على أملاك عقارية جد واسعة، تشكل دعامة لشبكة الكوماندريات الموجودة في الغرب. وتتنامي ثروة جمعية فرسان الهيكل بأساليب أخرى: حق الحصول على هبات، وإيرادات التركات الموصى بها لها [ما يناظر إيرادات الأوقاف الإسلامية] وتنظيم عمليات نقل الحجاج إلى ما وراء البحر والعمليات المصرفية وعمليات الصرافة التي أصبحت ضرورية بين الشرق والغرب. وبما أن الجمعية كانت تحوز في واقع الأمر بيوتاً هنا وهناك، فقد كانت تتميز بتنظيم مماثل لتنظيم منشأة متعددة الفروع. وهي تتلقى ودائع مالية منتظمة من الأمراء والملوك؛ فملوك فرنسا وإنجلترا يعهدون بالخزينة الملكية إلى فرعي الجمعية في باريس ولندن. كما تحصل على مجوهرات وتحف ثمينة وتتولى دفع الريوع والكفالات ونقل الأموال إلى مسافات بعيدة، كلما تطلب الأمر ذلك، وهذا بموافقة تجار إيطاليين. وباختصار، فإنها تلعب دوراً محورياً في الحياة المالية لأوروبا وتكتسب سمعة امتلاك ثروة طائلة، لاشك أنها سمعة مبالغ فيها وسوف تؤدي إلى هلاكها.

وفي تاريخ الحملات الصليبية، تحتل جمعية الهيكل مكاناً أساسياً. فمن الناحية العسكرية، تمثل جيشاً مجرّباً، شبه محترف ويمكن حشده في أي وقت: ثلاثمائة فارس ورقباء وتوركوبلات وقوات من المشاة. وتكاد هذه القوة أن تكون مستقلة عن السلطة الملكية، الأمر الذي يطرح في حال النزاع مشكلة وحدة القيادة. ومن جهة أخرى، من حيث كون الجمعية حارسة لحصون كبرى في الأرض المقدسة (طرطوس، صفد، قلعة الحُجاج [عتليت]، بوفور [شقيف أرنون]، القلعة البيضاء [صافيتا]، القلعة الحمراء [قلعة يحمور]، الخ)، فإنها تلعب دوراً حاسماً في حماية الدول الفرنجية في سوريا ــ فلسطين.

ومن الناحية السياسية، تعد أهمية جمعية الهيكل عظيمة أيضاً. إن ضعف السلطة الملكية في القدس كان مريعاً منذ سبعينيات القرن الثاني عشر بحيث إن الأستاذ جيرار

الريدفوري يخوض المعارك ضد صلاح الدين بما يستتبع هزيمة الجيش الفرنجي في معركة حطين. ويعقد الهيكليون أحياناً علاقات ديبلوماسية مباشرة مع المسلمين، دون أن يأخذوا في الحسبان المصالح الأخرى محل الرهان. وهم ينحازون في القرن الثالث عشر إلى الحزب الباروني والمعادي للحزب الإمبراطوري في مملكة القدس، فيقفون بذلك في وجه الأوسبتاليين، الأكثر تمسكاً بالشرعية. إنهم، بإختصار، يصبحون السادة الحقيقيين للشرق اللاتيني في القرن الثالث عشر.

على أن سقوط الدول اللاتينية في عام ١٢٩١ يؤدي إلى تهديد الجمعية نفسها. ألم تكن رسالتها مرتبطة بالحركة الصليبية ؟ وهكذا نرى إزدهاراً جديداً للاتهامات الموجهة إلى الجمعية والتي تتحدث عن غطرستها وتكبرها وجشعها، كما نرى أيضاً انتعاشاً جديداً لمشاريع دمج مختلف الجمعيات العسكرية. ومن المعروف كيف أن مستشاري فيليب الجميل قد استخدموا هذه الانتقادات، التي أضافوا إليها اتهامات باطلة بالهرطقة، لكي يهدموا جمعية فرسان الهيكل في أكتوبر/ تشرين الأول ١٣٠٧ ولكي يقنعوا البابا الضعيف اينوشنتيوس الخامس بحل الجمعية في مجمع فيينا في عام ١٣١٢. وهكذا آلت ممتلكات الهيكليين إلى الأوسبتاليين؛ أمّا فيما يتعلق بالأستاذ الأكبر جاك دو مولاي، فيجري إعدامه حرقا في ١٨ مارس/ اذار١٣١٤، قبل وقت قصير من إختفاء متّهِمه، فيليب الرابع الجميل، وشريكه، البابا كليمانس الخامس.

٣-٢-٣٠ جمعية سانت ماري للتيوتون

تتمايز جمعية "إخوة بيت ضيافة نوتردام للألمان في القدس" عن الجمعيات العسكرية الأخرى بطابعها القومي المحدد: فتأسيسها وتجنيدها هما من فعل عناصر جرمانوفونية. والحال أنه ينشأ نحو عام ١١٢٨، في داخل الأوسبتاليين، فريق من الفرسان ذوي الأصل الجرماني، الذين يكرسون أنفسهم لخدمة الحجاج المنتمين إلى " أمتهم ". وفي عام ١١٥٣، يؤسس حاجان ألمانيان في القدس دار ضيافة وكنيسة، هي كنيسة سانت ماري، في الموقع الذي سوف يقوم عليه فيما بعدُ الحيّ اليهودي في المدينة القديمة: ويصبح المبنى مركزاً لجمعية أوسبتالية، تعتمد نظام القديس أوغسطين، ولو أن البابوية تمتنع عن منحها وضعية جمعية مستقلة. والحال أن وثيقة وحيدة ترجع إلى عام ١١٨٦ إنما تجعلنا نتعرف على "رئيس" أوسبتالية سانت ماري. وتختفي الجمعية على أثر كارثة حطين واستيلاء صلاح الدين على القدس (١١٨٧).

على أنها تعاود الظهور في عام ١١٩٠. ذلك أن عدداً من تجار بريمن [في ألمانيا] ولوبيك [في ألمانيا أيضاً]، مرافقين لقوات كونت هولشتاين القادمة للمشاركة في حصار عكا، إنما ينشئون في أحد أجنحة سفائنهم دار ضيافة عائمة لرعاية المرضى المتحدثين بالجرمانية. وبعد الاستيلاء على المدينة، تستقبل ساحةٌ قرب كنيسة القديس نقولا هذه الجمعية التي يعترف بها البابا كليمانس الثالث في عام ١١٩١. وهي تتبنى في البداية نظام الأوسبتاليين وتحصل على أملاك في عكا، بالتأكيد، وإنما أيضاً في يافا وصور وقيسارية. وفي عام ١١٩٧، بحفز من كونراد الهيلدسهايمي وكونراد الفيتلسباخي، أسقف ماينس، تتحول إلى جمعية عسكرية، بحسب نظام فرسان الهيكل. وقد جرى الاعتراف بـ "فرسان سانت ماري التيوتون" كجمعية مستقلة من جانب اجتماع واسع للبارونات ولفرسان الجمعيات العسكرية عقد في عكا في ٥ مارس/ آذار ١١٩٨. وفي العام التالي، قام البابا اينوشنتيوس الثالث بالتصديق على نظامها.

والحال أن الجمعية التي يرتدي أعضاؤها من النبلاء رداءً أبيض عليه صليب أسود، إنما تشمل ثلاث فئات: الفرسان ذوي الأصل النبيل، والإخوة المتعهدين بالخدمة الربانية وبرعاية المرضى، والإخوة ــ المساعدين الذين يشكلون قوة فرسان خفيفة معاونة. ويقود الجمعية أساتذة كبار، كان أشهرهم في مستهل القرن الثالث عشر هو هرمان السالزاوي (١٢١٠ ــ ١٢٣٩)، وخمسة رجال من أبرز رجال الجمعية. وبفضل هبات عديدة، سرعان ما تتمتع الجمعية بأملاك شاسعة، أكانت في الأرض المقدسة أم في الغرب. وهي منظمة في ولايات ــ الأرض المقدسة، أرمينيا، قبرص، رومانيا [بيزنطة]، آخايا، ألمانيا، بروسيا، ليفونيا ــ وفي كومانديريات يحكمها بريسيبتورات [مؤدِّبون] يجتمعون في مجلس عام، حول الأستاذ الأكبر الذي يُنتخب في عيد الصليب المقدس في سبتمبر/ أيلول.

وفي تاريخ الحملات الصليبية، تلعب الجمعية التيوتونية دوراً شبه مساوٍ لدور الهيكليين أو الأوسبتاليين. وفي عام ١٢١٨، تهتم بتحصين عتليت (قلعة الحجاج). وبعد ذلك بعامين، وبفضل هبة من دوق النمسا، ليوبولد، تحصل على أراضي مونفور [قلعة قُرَيْن] في الجليل وتبني هناك، بدعم من البابا جريجوريوس التاسع وفريدريك الثاني، قلعة قوية تصمد للمماليك إلى عام ١٢٧١. ويستولي عليها بيبرس بعد حصار صعب ويُنهي بذلك السيطرة الفرنجية في الجليل. وتنظم الجمعية " انتقالات " الفرسان الألمان والحجاج من إيطاليا الجنوبية إلى الأرض المقدسة، وذلك على سفن صقلية أساساً؛ وفي عام ١٢٢١، يجري على هذا النحو نقل قوات دوق بافاريا المرسلة إلى دمياط، ثم قوات دوق

ليمبورج (١٢٢٨)، التي تتألف من ٨٠٠ " فارس ــ حاج " و ١٠٠٠٠ رجل من المشاة، متجهين إلى قبرص وسوريا.

وتستفيد الجمعية من حظوات إمبراطوريةٍ، وهو ما يعني أنها تشكل في الأرض المقدسة، مع كومينة بيزا، السند الأرسخ للحزب الجيبلاني. وفي عام ١٢٢٩، يرافق هرمان السالزاوي وفرسانه التيوتون فريدريك الثاني في رحلته إلى جنوب المملكة، ثم إلى القدس، حيث يلبس الإمبراطور المحروم كنسياً التاج الملكي. وتحصل الجمعية في المقابل على أملاك متزايدة في عكا وفي الجليل. وبعد رحيل فريدريك الثاني، تدعم الجمعية التيوتونية الأوصياء الإمبراطوريين وتكبح حماسة الصليبيين العدوانية تجاه مصر. وفي عام ١٢٤١، تشترك الجمعية في تحصين عسقلان، وبعد ذلك بسنوات ثلاث، تشارك في معركة لا فوربي [قرب غزة] حيث يختفي أربعمائة من فرسانها. وخلال حرب الكومينات في عكا (١٢٥٨)، تسعى عبثاً إلى التدخل كوسيط بين جنوة والبندقية. وفي عام ١٢٦٠، تُحبط التحالف الذي يعرضه السلطان المملوكي قطز على الفرنج ضد المغول.

وبعد عام ١٢٧١، لا يبدو أن التيوتون قد لعبوا دوراً كبيراً في الدفاع الأخير عن مملكة عكا. والواقع أن الجانب الرئيسي من نشاطهم إنما يدور في ساحة فعل أخرى، هي أوروبا الشرقية. وعندما يُدعى هرمان السالزاوي إلى تقديم المساعدة من جانب دوق مازوفيا البولندي غداة الحملة الصليبية الخامسة، فإنه يحصل من الإمبراطور فريدريك الثاني في عام ١٢٢٦ على قرار ذهبي يمنح جمعيته إقليم كولم (كيلمنو) على الضفة اليمنى لنهر الفستولا، إلى جانب جميع الأراضي التي يمكن إنتزاعها من البروسيين الذين مايزالون وثنيين. واعتباراً من عام ١٢٣١، وتحت سلطة الأسقف هرمان بالك، يضطلع التيوتون بفتح منهجي لبروسيا، دون أن يتركوا للأهالي على الأغلب غير الاختيار بين اعتناق المسيحية أو القتل. وبعد أن يدمجوا في صفوفهم جمعية حَمَلَةِ السيوف في عام ١٢٣٧، ينتقلون إلى بلاد البلطيق، ثم إلى روسيا، حيث يوقفهم الكسندر نيفسكي على جليد بحيرة بيبوس (١٢٤٠) ثم يصدهم المغول في العام التالي. وحول القلاع التي يبنونها، يتطور نشاط استيطاني منهجي. والحال أن ممتلكات الجمعية التيوتونية، المحكومة من مركز مارينبورج القيادي (١٣٠٩) إنما تشكل في أوروبا الشرقية دولة عسكرية وديرية، وموقعاً أمامياً للجرمانية في مواجهة العالم السلافي.

٠٤ الدفاع عن الأرض المقدسة

بما أن الدول اللاتينية في سوريا ــ فلسطين محاطة بعالم إسلامي مناوئ لــــها، فإنــها تحيا من الناحية العملية في حالة حصار دائم. والاحتفاظ بالأراضي المفتوحة فــي ختــام الحملة الصليبية الأولى إنما يعني توافر مقاتلين مدربين على فن الحرب في إقليم صعـــب التضاريس وفي ظروف مناخية جد مختلفة عن الظروف المناخية في الغرب، كما يعنـــي توافر نقاط ارتكاز للسيطرة على الحدود والممرات التي لا يمكن تجنــب المــرور بــها، ولتأمين سيطرة إقليمية. والحال أن الحصون هي التي تشكل العنصر المحوري للدفاع عــن الأرض المقدسة.

٤-١٠ قوام الجيوش

تجئ جيوش الحملة الصليبية، حاملةً معها تقاليد الغرب الحربية، لكنها تتعلم من خــلال التجربة استعمال أسلحة أخرى جد معروفة في الشرق، وتستخدمها أحياناً. فمــن الواضــح أن حرب الحركة تتطلب أسلحة مختلفة عن الأسلحة التي يستخدمها جيش يفرض حصاراً.

"*Milites peditesque*": تتألف قوات الحملة الصليبية عموماً من فرسان ومشاة. وفــي أواخر القرن الحادي عشر، يشكل الــ *milites* [الفرسان] طبقة معترفاً بــها، تجــئ مــن صفوف الأرستقراطية وتتميز بحفل التدريع؛ ويصبح الفرسان فئة مغلقــة علــى نفســها. ويلبس الفرسان دروعاً تصبح بمرور الزمان أكثر فأكثر ثقــلاً. وهــي دروع مبــالغ فــي تعقيدها ومكلِّفة؛ ومنذ ذلك الحين، يتمايزون عن المقاتلين الآخرين من راكبــي الجيــاد ــ الرقباء ــ بالنبالة وبالمولد وبإمتياز عتادهم. ويلازم كلَّ واحد منهم ســلاحداران يحرســان الأسلحة لكنهما لا يشاركان عموماً في القتال. وهم يحملون سيفاً وحربة، حيــث تســتخدم هذه الأخيرة إمّا كمقذوفة أو كصدّامة، ويحتفظ بها الفارس تحت ذراعه اليمنى. أمّــا اليــد اليسرى فهي تمسك بأعنة الجواد وبالترس. وهجمة سلاح الفرسان الأمامية، مع أنها غالبــاً ما تكون غير منظمة، هي التي تشكل القوة الرئيسية للجيوش الفرنجية.

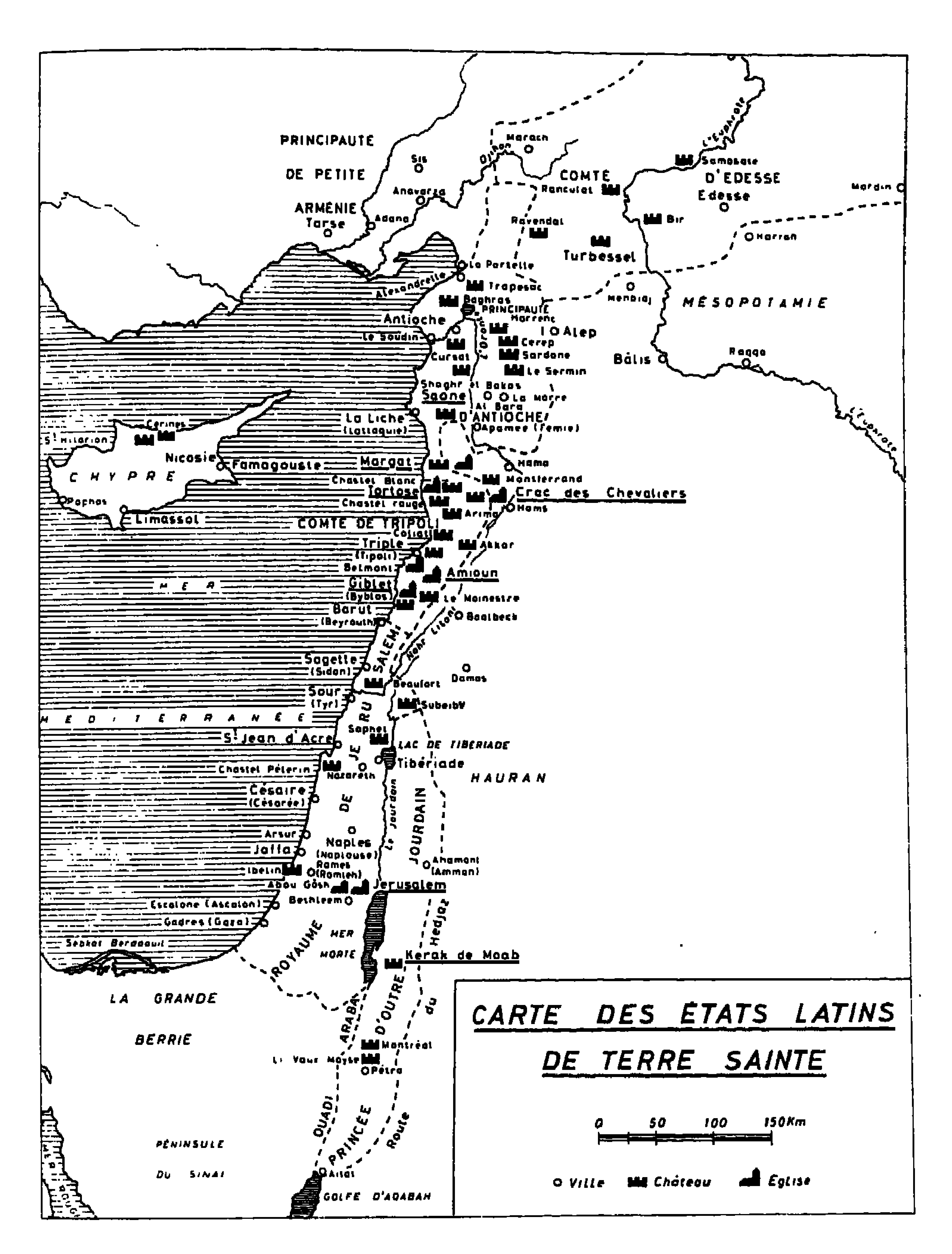
أمّا مصطلح الــ *pedites* [المشاة] فهو يشير إلى مقــاتلين جــد متبــاينين كالحجــاج المزودين بسلاح والمقاتلين الذين يقاتلون دون ركوبة. ويجئ الأولون إلى الحملة الصليبيــة بثيابهم المعتادة ويحملون هراوة أو قوساً أو رمحاً. أمّــا الأخــيرون فيحتمــون بــدرع أو بمعطف فوقي من الجلد أو من الكتان المبطّن ويتسلحون برمح أو بقوس أو بقذّافة [قـــوس

قديمة لقذف السهام والكرات والحجارة، الخ]. وفي المعارك المخطَّطة، يشكلون ساتراً بين العدو وسلاح الفرسان الذي يفتحون له ممراً عند إعطاء إشارة الهجوم.

وعلاوة على ذلك، فإن الـ *turcoples* ، الذين لاشك في أنهم يجنَّدون من بين أهالي سوريا، إنما يشكلون سلاح فرسان خفيفاً يسد ثغرة الضعف العددي لسلاح الفرسان الغربي، وليس من المؤكد أنهم كلهم رماة سهام من الراكبين، جد سريعين ومرنين كسلاح الفرسان السلجوقي الذي يعجب به الفرنج ويخافونه.

والحال أن أسلحة الفرسان والمشاة، دفاعية كانت أم هجومية، لا نفع لها بالمرة عندما يتعين الاستيلاء على مدينة حصينة أو قلعة. وعندئذ تكون آلات الحصار وأدوات أخرى ضرورية؛ ويتعين إقامتها في الساحة. ويستخدم الصليبيون الحجارة أو منجنيقات لقذف الحجارة على الأسوار، و" قططاً " ترشق كلاّبات حديدية مربوطة بحبال لمسك الأجزاء البارزة من الأسوار لزعزعتها بعد ذلك بسحب الحبال، ومنجنيقات موجودة في أبراج من الخشب وتصدم الأسوار بكمرات ضخمة مسلحة برؤوس من الحديد لإسقاط السور. وأداة الحصار بإمتياز هي البرج المتحرك الذي يمكن دفعه للاقتراب من الأسوار. وهذا البرج الذي يتألف من عدة طوابق، والأعلى من السور المجاور، مزود بمنجنيق في الطابق الأسفل، وبرماة للسهام وقذّافين في الطوابق الأخرى، وبجسر عبور صغير على قمته يمكن تعليقه برأس السور. وخلال حصار القدس، نجد أن البرجين المتحركين، اللذين بناهما الصليبيون باستخدام خشب المراكب الجنوية التي وصلت إلى يافا، قد لعبا دوراً حاسماً. وأخيراً، يحفر النقّابون ممرات تحت غطاء، لكي يقرّبوا المهاجمين من قاعدة الأسوار.

وتخشى جيوش الحملة الصليبية خاصة سلاحين يستخدمهما خصومها: سلاح رماة السلاجقة الراكبين الذي يمطر وابلاً من السهام على الجيش الزاحف الذي يسعى هذا السلاح إلى زحزحته؛ و" النار الإغريقية "، وهي مقذوفة حارقة تتكون من مزيج من النفط والكبريت والقطران والزيت؛ والحال أن " النار الإغريقية "، التي يجري قذفها في أوعية من الفخار، إنما تهدد آلات الحصار والأبراج المتحركة، مع أن الفرنج يغطون هذه الأبراج بجلود حيوانية مشربة بالخل. وإذا كان الصليبيون قد تمكنوا، بفضل انضباطهم، من الحد من الخسائر التي ألحقها بجيوشهم الرماةُ السلاجقةُ الراكبون، فسوف نجد، في المقابل، أن سر تركيب " النار الإغريقية " يبدو أنه قد خفيَ عليهم.



الشكل ١٦ - خارطة الدول اللاتينية فى الأرض المقدسة

والقوة العسكرية للاتين، في بداية القرن الثاني عشر على الأقل، تعتمد على عدد من الفرسان القادرين على الفوز بإقطاعات و" العيش كما يحلو لهم " فيها، وذلك بفضل الضرائب التي تتم جبايتها من الفلاحين أو التجار أو البدو المحميين. وبما أن الأرض تُعَدُّ بهذا الشكل القاعدة الرئيسية للسيطرة اللاتينية، فإن الحرب تُعَدُّ أداةً سياسية، تُستخدم في أغراض التوسع الترابي والدفاع. لكن الصمود للغزو، وكذلك الصمود للفتح، إنما يعتمدان على امتلاك مدن حصينة وقلاع.

ويستند تجنيد الجيوش على استنفار الأتباع واستدعاء الرجال الأحرار والمرتزقة واستجابة الحجاج الموجودين والجمعيات العسكرية. ويشكل الفرسان الذين يتوجب عليهم الخدمة لقاء إقطاعاتهم عمادَ جيش الدول اللاتينية. وعددهم غير معروف، اللهم إلاَّ استناداً إلى كتاب يوحنا الإبلاني، المحرر نحو عام ١٢٦٥. فوفقاً لهذا المصدر المتأخر، كان يتعين على البارونيات الكبرى في مملكة القدس تقديم ٥٧٧ فارساً، متوافرين في جميع الأوقات ودون قيد على مدة الخدمة الواجبة الأداء. ويدفع الملك لهم رواتب ويراقب عمليات نقل الإقطاعات وزيجات الوارثات، سعياً إلى تأمين أداء الخدمات المسلحة أداءً فعّالاً. وقلّما يتسنى لكونتية طرابلس أن تقدم أكثر من مائة فارس؛ وتحشد إمارة أنطاكية نحو ٧٠٠ منهم في عام ١١١٩ حول الأمير روجيه الأنطاكي، لكن عددهم يتناقص بسرعة خلال القرن الثاني عشر، بسبب الخسائر التي ألحقتها بهم جيوش زنكي ونور الدين. وسعياً إلى استكمال الـ ost (الجيش الاقطاعي)، يتعين على الكنائس والمجتمعات المدينية أن تقدم رقباء ومشاة، يستدعون في حالة " الحاجة القصوى ". ويقول يوحنا الإبلاني إنه كان هناك أكثر من خمسة آلاف منهم. ويرجع استخدام المرتزقة إلى الحملة الصليبية الأولى وقد استمر خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وخلال معركة حطين (١١٨٧)، كان يتم دفع رواتب لكثير من الجنود وذلك بفضل مبالغ أرسلها إلى سوريا هنري الثاني، ملك إنجلترا. ويترك القديس لويس [لويس التاسع] وحدة قوية تتألف من مائة فارس، تتكفل الخزانة الملكية بدفع رواتبهم على نحو منتظم.

ويشكل الحجاج القادمون من الغرب قوةً معاونةً، أكانوا حجاجاً منفردين راكبين على السفن الشراعية الإيطالية أم أميراً مع حاشيته، شأن تييري، كونت الفلاندر الذي يشترك، في عام ١١٣٩، في حملة في شرقي الأردن. لكن موقفهم لا يتماشى دائماً مع ما يحق للفرنج المستقرين في الأرض المقدسة انتظاره منهم: فهم، منذ وصولهم، يريدون الاشتباك

مع المسلمين، دون أن تكون لديهم دراية بالساحة ولا بـــالظروف السياسـية والعسـكرية للمملكة. وهكذا يمكن تفسير فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق.

لكن الجمعيات العسكرية هي التي سوف تلعب شيئاً فشيئاً دوراً رئيسـياً فـي القـوات اللاتينية. والواقع أنها تمثل جيشاً مجرّباً، شبه محترف، تسهل تعبئته ووفير العدد بالنسـبة لذلك العصر. وفي معركة لافوربي [قرب غـزة] (١٧ أكتوبـر/ تشـرين الأول ١٢٤٤) يتمكن فرسان الهيكل من حشد ٣١٢ فارسـاً و٣٢٤ توركوبـلاً، بينمـا يحشـد فرسـان الأوسبتالية ٣٢٨ فارساً و٢٠٠ توركوبل، على حين ينجح فرسان الجمعية التيوتونيـة فـي حشد ٤٠٠ فارس، تضاف إليهم وحدة من الفرسان المجذومين المنتمين إلى جمعيـة سـان لازار..

على أن قوة الجمعيات العسكرية ليست عديمة المشاكل. فهي ناشئة عن الفقر والذبـول اللذين أصابا الطبقة الإقطاعية؛ إذ تؤدي استردادات زنكي ونور الديـن للأراضـي إلـى تناقص الإقطاعات المتاحة، ومن ثم تناقص الموارد العسكرية الإقطاعيـة؛ ويـؤدي دفـع الفدى [جمع فدية] إلى إفقار الأتباع ويخلق سوقاً عقارية تستفيد منها الجمعيات العسـكرية. لكن هذه الجمعيات لها سياساتها الخاصة التي تتباين من جمعية إلى أخرى. وأخيراً، فـإن من المستحيل أن يتوافر في آن واحد جيش ضخم من القوات التي تخوض حملة وحاميـات كافية في المدن الحصينة والقلاع. وهكذا ففي عام ١١٨٧، لا يبقى في لا فوف (الفولـة) غير رجلين مريضين للدفاع عن القلعة الصغيرة هناك. وبعد معركة حطين، لا يجد باليـان الإبلاني غير فارسين في القدس ويتعين عليه أن يجهز بالدروع في عجلةٍ ستين من أبنـاء البورجوازيين لتهيئة المدينة للدفاع. والحال أن عدم كفاية أعداد الجنود هو العامل الرئيسي في ضعف الدول اللاتينية.

٤-٢٠ الاستراتيجية والتاكتيك

لاشك أن أهداف الحرب التي يحددها الفرنج لأنفسهم، وتنظيمها السياسي والاجتمـاعي وطبيعة تسليحهم وتسليح خصومهم، هيّ التي تقرر إلى حد بعيد الاسـتراتيجية والتـاكتيك اللذين تعتمدانهما جيوش الحملة الصليبية.

والأهداف بين عامي ١٠٩٧ و١٠٩٩ واضحة للجميع: الوصول إلى القـدس وتحريـر القبر المقدس. والاستيلاء على المدينة يفرض أهدافـاً جديـدة: الدفـاع عـن الأراضـي

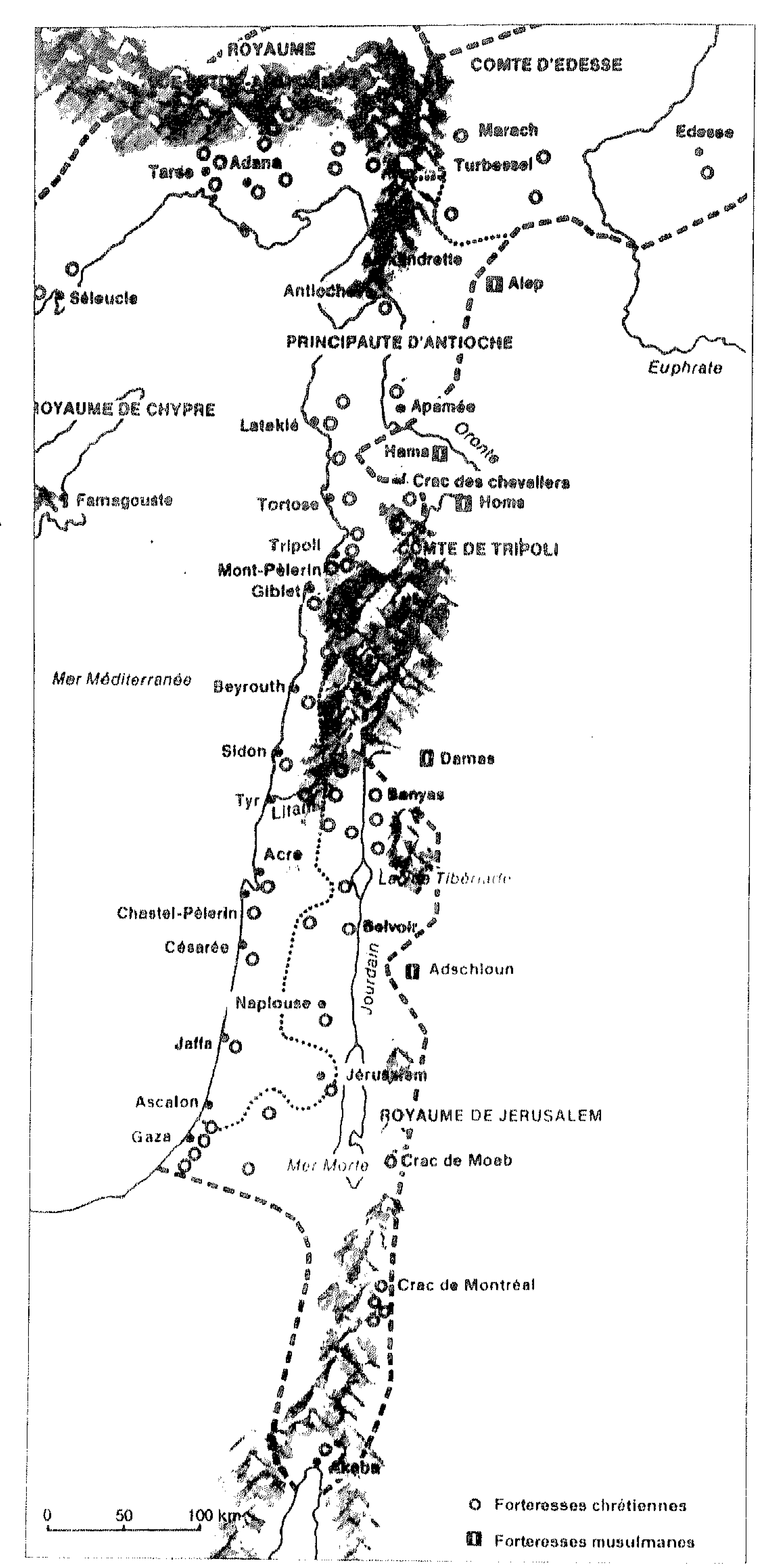
المفتوحة، وهو ما يعني الاستقرار في المدن الساحلية في سوريا ــ فلسطين لصون الاتصالات مع الغرب، والسيطرة على الطرق الممتدة من السهل الساحلي إلى الممتلكات الموجودة في الداخل، وامتلاك المدن المحصنة والقلاع، فهي وحدها القادرة على تأمين السيطرة على الأرض والتي تشكل الأساس المادي للحكم الفرنجي بتوفير الإقطاعات والدخول. وفي سوريا ــ فلسطين، يتمثل هدف النشاط العسكري في الاستيلاء على المواقع الحصينة أو الدفاع عنها، وليس البتة في القضاء الكامل على الخصم، فهذا هدف لا يسمح العدد الضئيل للمقاتلين ببلوغه.

وعلى الطريق إلى القدس، يختلف الأمر تماماً. إذ يتعين على الصليبيين شق طريقهم، في أرض يجهلونها ومعادية لهم غالباً. ويحول عدم تجانس القوات دون وحدة القيادة؛ وتؤدي التباينات القومية إلى إضعاف الجيش؛ كما أن المشاة والفرسان لا يحسنون تنسيق تحركاتهم. وتعيّن مدنٌ حصينةٌ المسار؛ ولا تملك القوات أدوات الحصار للاستيلاء عليها. وهي تجتاز أقاليم سهبية، كآسيا الصغرى، حيث يشح الماء والمؤن؛ وحرارة الشمس تجعل ارتداء الدرع خانقاً؛ أمّا الجياد، المحرومة من العلف، فإن الإنهاك ينال منها وتموت. وتشكل شعاب جبال البلقان وطوروس شراكاً جسيمة لطابور زاحف، متقل بالأمتعة وبغير المقاتلين. ولا مهرب من الزحف وسط بيئة مناوئة والتغلب على أخطار الخصم والطبيعة.

وفي وجه الفرنج، يقف عدو متنوع ومتفاوت القوة. فالسلاجقة لا يتصدون للجيوش الصليبية إلاّ بقدر مرورها عبر الأناضول؛ أمّا فيما وراء الأناضول، فإنهم لا يهتمون بها. وهم نادراً ما ينجحون في التوحد ضد الفرنج؛ فقواتهم متباينة العناصر والأمراء، الحريصون بالأخص على حماية الأرض والإدارة التي تنازل لهم السلطان عنها على شكل إقطاعات، لا يرتاحون لقبول قيادة موحدة. وفي سوريا ــ فلسطين، لا يستطيع نور الدين الاعتماد إلاّ على مساعدة من بغداد؛ وعندما لا يكون بوسعه الاعتماد إلاّ على قواته العسكرية وحدها، فإنه يضطر إلى قبول فترات طويلة من عدم الفعل بين حملة وأخرى من حملاته. بل إن صلاح الدين، بالرغم من استفادته من قوات غفيرة وفرضه لقيادة موحدة، لا يمارس دائماً سيطرة كاملة على جيشه. والحرب موسمية والخدمة التي يقدمها الأمراء تتوقف على الظروف. والحال أن الجيوش الإسلامية التي يحركها الأمل في الفوز بمكاسب مادية بأكثر مما يحركها الثواب الخالد الذي يَعِدُ به الجهاد، إنما تنحل ما أن يتبدد الأمل في الغنيمة أو ما أن يحل الشتاء. ومن المستحيل خوض حملة طويلة الأمد.

أمّا الجيوش الفاطمية، التي تتباين عناصرها تبايناً شديداً، فــهي أقــل خطــورة علــى الفرنج؛ وبما أنها تتألف من رماة مشاة ومن فرسان ينتظرون الهجوم، فإنها تعد أضعـــف، حين تواجه سلاح الفرسان الفرنجي. وفي مواجهة الأيوبييـــن والممـــاليك، تتمـيز دونيــة الصليبيين العددية بثقل حاسم. ويرجع فشل الحملة الصليبية الخامســـة وهزيمــة القديــس لويس [لويس التاسع] إلى إنعدامٍ طويلٍ جداً للحركة، انتظاراً لوصـــول تعزيــزات، وإلــى الجهل بالساحة، حيث يعرف الخصم كيف يستغل فيضانات النيل لكي يباغت الصليبيين.

وبالنسبة لهؤلاء الأخيرين، يفرض التعقل نفسه. فدونيتهم العددية هـــي مـــن الجسـامة بحيث يتعين عليهم التمكن من تفادي خوض المعركة وحساب النتائج الخطيرة لهزيمتـــهم. فالهجمة غير المدروسة التي يشنها روبير دارتوا الذي ينزوي ويهلك في المنصورة تجــر إلى فشل مجمل حملة القديس لويس [لويس التاسع] ضد مصر. ويتعيـــن علــى الجيــوش الصليبية أن تُبدي خلال زحفها أمارات الانضباط والتلاحم والتنظيـــم؛ ويحــاط الطــابور الرئيسي بحرّاس على الجانبين يحمونه من غارات الرماة الترك؛ وهكذا يتســـنى للويــس السابع، في عامي ١١٤٧ و١١٤٨، أن يتقدم، دون كمائن كثيرة، فـــي وادي ميــاندر وأن يصل إلى أضاليا، في حين أن جيش كونراد الثالث لم يتمكن من الصمود أمام الســـلاجقة. والواقع أن المعارك المنظمة نادرة، إذ ينبغي إرغام الخصم على القتال. وفـــي دوريليــون [دوريلة] في عام ١٠٩٨، وفي عسقلان بعد ذلك بعام، يُقسّمُ الفرنج الجيش إلـــى وحــدات صغيرة تزحف وفق نظام محدد سلفاً. ويحمي المشـــاة برماحـــهم الفرســـان، ويتجنبــون التطويق إلى اللحظة التي يمكن فيها شن الهجمة اللاتينية ضــد القــوة الرئيســية للجيــش المعادي. وليس للقيادة دائماً من سيطرة على سلاح الفرسان المتهور الذي يســـمح لنفســه بالانجرار إلى خارج حدود ساحة المعركة؛ ومن ثم يتعين على القيادة تكويـــن احتيــاطي تاكتيكي من عدة مستويات من الفرسان، وذلك لمواجهة أية انتكاسة. وعـــدم كفايــة أدوات الحصار يرغم الصليبيين على محاذاة المدن الحصينة دون فتحها؛ إلاّ عندما يتعلق الأمــر بمواقع يعتبر إمتلاكها ضرورياً لنجاح الحملة: إن أنطاكية في عام ١٠٩٨ والقدس في عــام ١٠٩٩ هما هدف حصار منتظم، في حين أن فتح المدن الساحلية السورية يمكن أن ينتظــر إلى الأشهر التالية لتحرير الأماكن المقدسة. وفي عام ١٢٠٤، يصبح فتـــح القســطنطينية الهدف الحربي الرئيسي للصليبيين، كما أن الاستيلاء علـــى دميــاط فـــي عــامي ١٢١٨ و١٢٤٩ يعد مقدمة ضرورية لفتح دلتا النيل.



الشكل ١٧ دفاعات الدول اللاتينية في الشرق المصادر : L'Histoire, n° 47

واستراتيجية وتاكتيك الصليبيين ليسا ثابتين. فالفرنج الذين يدينون بالكثير للتجربة البيزنطية خلال الحملة الصليبية الأولى قد تعلموا حساب جوانب ضعف الخصم، إلاّ أنهم أضطروا بعد عام ١١٣٠ إلى اعتماد استراتيجية دفاعية، وذلك بسبب دونيتهم العددية. وقد تسنى عندئذ للجمعيات العسكرية، التي تسيطر على الحصون، أن تُوَسِّعَ دورها، على حساب الخدمة التي يقدمها الأتباع والصليبيون القادمون من الغرب الذين، إذ يحلمون بالاشتباك مع المسلمين، لا يدركون دائماً الأهداف العسكرية المحدودة التي يفرضها التنظيم الاقتصادي والاجتماعي للدول اللاتينية في الشرق.

٤-٣-٠ الحصون

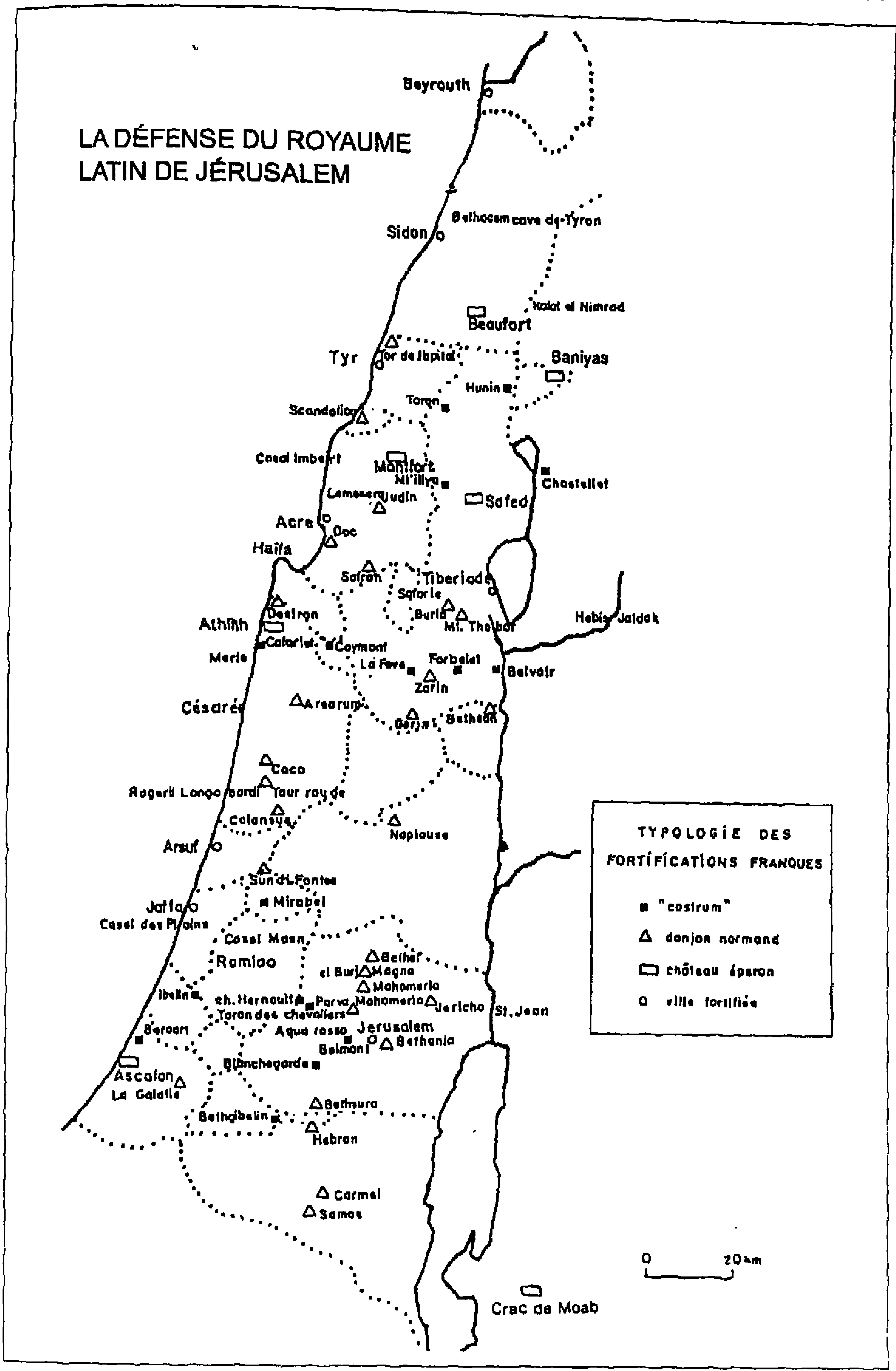
تسعى الحصون إلى علاج قصور الفرنج العددي. وهي تشكل قواعد دائمة للهجوم وبؤراً دائمة للمقاومة، مع استمرار كونها أدوات للاستيطان ولاستغلال الأهالي، في أيدي سادة زمنيين أو جمعيات عسكرية، لكنها نادراً ما تكون في أيدي السلطة العامة نفسها. وهي ليست مندمجة دائماً في منظومة دفاع مخطَّط، وذلك بقدر ما أن الفرنج قد احتلوا حصوناً قديمة، كانت تميز قبل القرن الثاني عشر الحدود بين بيزنطة والعالم الإسلامي. والواقع أن الكثير من الحصون قد انبثق من أوضاع سياسية وعسكرية سابقة على الحملات الصليبية. على أن شكل إنغراس هذه الحصون قد أملته مع ذلك ضرورات استراتيجية. والحال أن الفتح الذي تم في الشطر الأول من القرن الثاني عشر إنما يعني أولاً السيطرة على مجمل الساحل السوري، وذلك لتيسير المواصلات مع الغرب الذي تجئ منه تعزيزات. ومن جهة أخرى، فقد سعى الفرنج إلى مد الحدود القارية إلى تخوم الصحراء السورية. على أنهم لم ينجحوا دائماً في ذلك: فهم لم يتمكنوا مثلاً من السيطرة على سهول حماة وحمص ولا من الاحتفاظ بجيراسا (جيّراس). ومن ثم فإن هذه الظروف الجغرافية السياسية تحتم إنشاء خطين دفاعيين، واحد على الساحل، سعياً إلى إتّقاء أي هجوم من جانب البحرية المصرية، والآخر على المنحدر الشرقي للجبال السورية، سعياً إلى مواجهة العدو هناك، قبل أن يتغلغل تغلغلاً بالغ العمق في الأراضي المسيحية.

والواقع أن الدول اللاتينية تشكل شريطاً بالغ الهشاشة أمام الهجمات القادمة من الشرق، والتي تأخذ الممرات الشرقية ـ الغربية التي تقطع الحاجز الجبلي: منخفض الخليل الذي يؤدي إلى جنوب البحر الميت، والمجازات الموجودة على جانبي بحيرة طبرية والتي تيسر المواصلات بين دمشق والساحل، ووادي النهر الكبير في شمالي طرابلس والذي يسمح بالوصول بسهولة إلى المجرى الأعلى لنهر العاصي. ومن ثم فمن

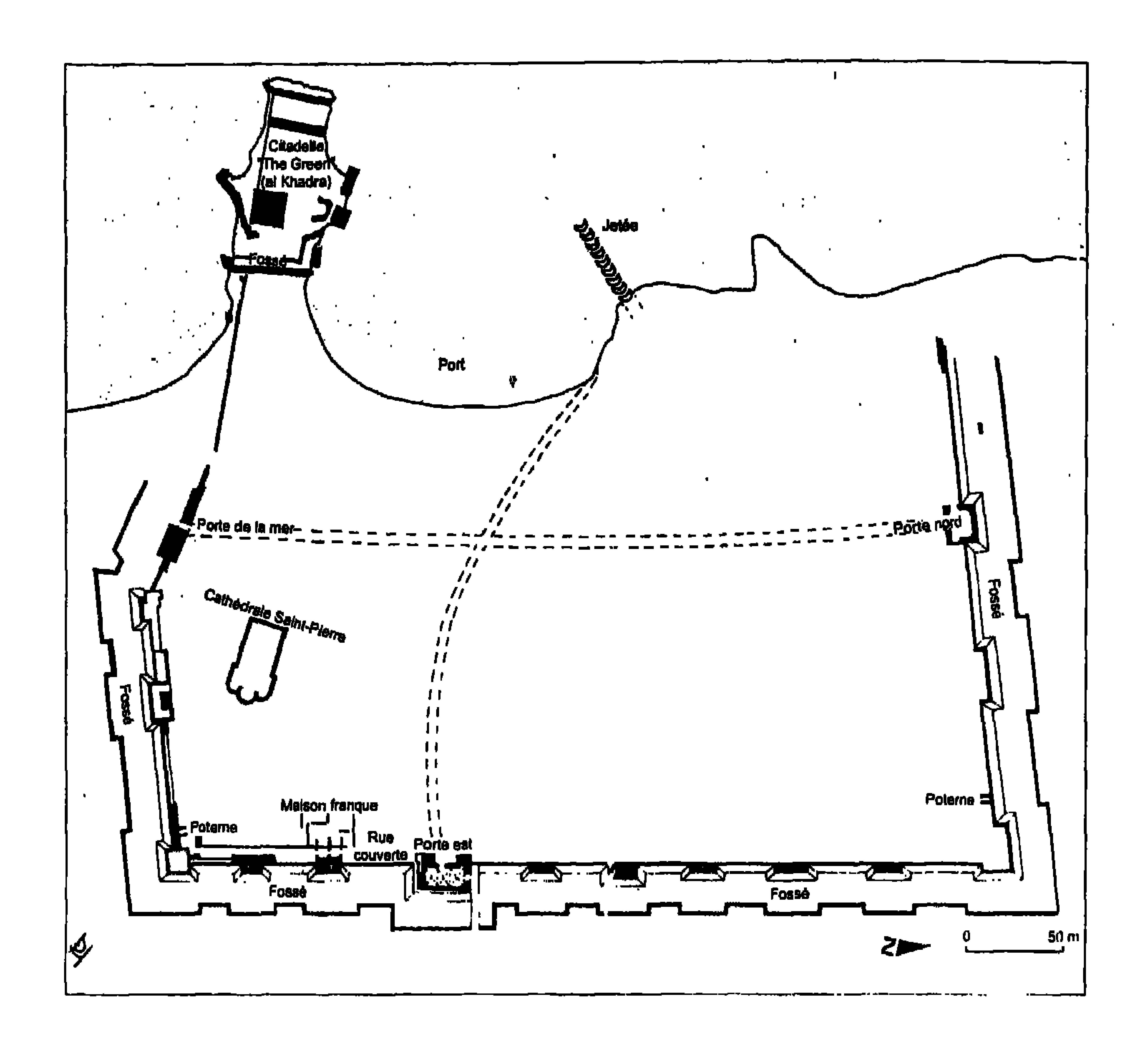
الضروري السيطرة على الممرات، وهي طرق طبيعية للغزوات، وبناء حصون هناك. إلاّ أنه هنا أيضاً لا توجد أية خطة منهجية؛ فالطريق من دمشق إلى بانياس والذي يفتح مدخلاً إلى موانئ المملكة اللاتينية قلما يلقى حماية، ناهيك عن المدخل إليها من جنوب بحيرة طبرية والذي لا يلقى حماية جيدة قبل أواخر القرن الثاني عشر.

كما يجب مراعاة الظروف الديموغرافية والعسكرية، الأنسب بكثير للمسلمين ممّا للمسيحيين. فبما أن هؤلاء الأخيرين يُعَدّون أدنى إلى حد بعيد من حيث العدد، فإنهم بحاجة إلى الحصول بسرعة على معلومات عن تحركات الخصم. وهم يسعون إلى إنشاء نقاط رصد للعدو، حتى يتسنى لهم أن يحشدوا بسرعة في المؤخرة جيش تدخل. وفي هذه الظروف، تُعَيِّنُ قلاع الصليبيين خط دفاع، وتسيطر على الممرات الرئيسية، وتنبه إلى الخطر بإشارات مرئية، أو بإرسال الحمام الزاجل، وهي تُعَدُّ بمثابة أرصفة للمقاومة. وحتى عام ١١٦٠، عندما كان الهجوم مازال هو السائد، لم تكن القلاع تدافع عن نفسها بنفسها، بل كانت مندمجة في منظومة دفاعية عميقة. وماله أهمية ليس قوة القلاع الخاصة، بل حالتها وعلاقاتها بالحصون الأخرى وبالمدن وبجيوش الميدان. وبعد عام ١١٦٠، يؤدي تطور الظروف الاستراتيجية والتاكتيكية إلى تعديل دور الحصون وملمحها.

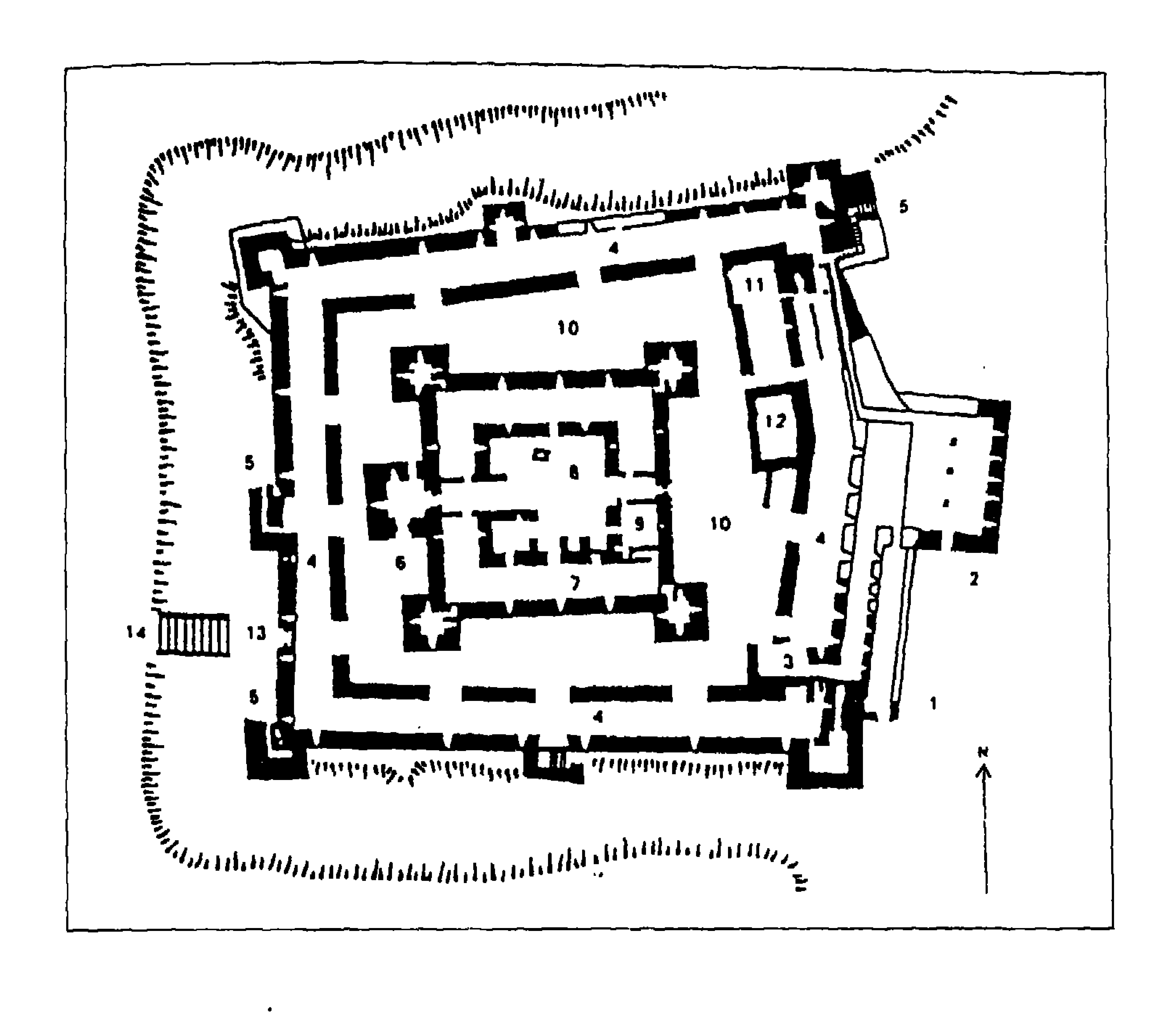
وشكل إنغراسها يستجيب لهذه الضرورات. فالدفاع عن الساحل يستند إلى المدن الحصينة. ويعيد اللاتين استخدام الأسوار البيزنطية ويستكملونها؛ وبوجه عام، يتعايش هناك سور خارجي قوي مع قلعة، هي جهاز دفاعي مستقل. كما شيَّد الفرنج قلاعاً على التلال القريبة من المدن الساحلية: حول صور مثلاً، وخاصة حول عسقلان، سعياً إلى إتِّقاء غارات المسلمين وعزل الموقع، الذي سيطر عليه الفاطميون حتى عام ١١٥٣. وفي القرن الثالث عشر، عندما كانت الدول اللاتينية في موقف الدفاع، جرى بناء حصون بحرية، بعيدة عن المدن، لمواجهة عدو قادم من الداخل: تلك حالة عتليت (قلعة الحجاج) التي شيدت في جنوب حيفا. وشأن الساحل، تتعين الحدود البرية بخط حقيقي من الحصون يمتد من الشمال إلى الجنوب، من بوفور [شقيف أرنون] إلى قلاع ما وراء الأردن (حصن موآب)، مروراً بكاستليه [بناحية القيطية] وبلفوار [كوكب] وبيتسان [بيسان] وأريحا. وعلى مسافة أبعد شمالاً، في إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، يمكن رصدُ إصطفافٍ شمالي ــ جنوبي مماثلٍ للحصون، من بغراس، في شمال أنطاكية، إلى حصن الفرسان.



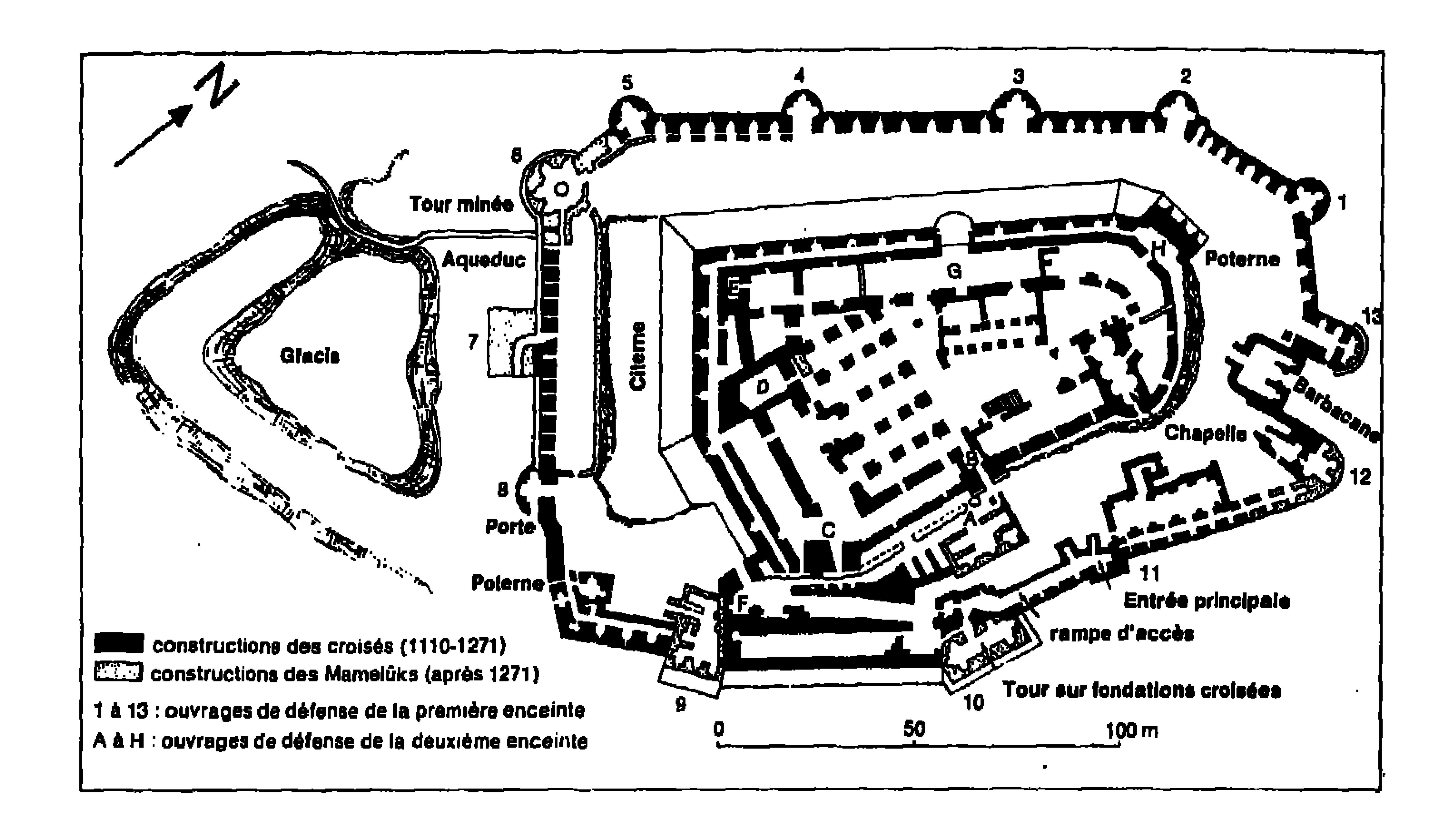
الشكل ١٨ - أنماط الحصون الفرنجية



الشكل ١٩ – قيسارية البحرية. المصدر:
M.BENVENISTI, The Crusaders in the Holy Land, Jérusalem, 1970



الشكل ٢٠ – بلفوار (كوكب). مخطط القلعة. المصدر :
M.BENVENISTI, The Crusaders in the Holy Land, Jérusalem, 1970.



الشكل ٢١ – حصن الفرسان. المصدر :
L'Histoire ,n° 74

وسعياً إلى استكمال هذه الخطوط الدفاعية الرئيسية، جرى تركيز مواقع حصينة من أجل السيطرة على الممرات الاستراتيجية التي تربط موانئ الساحل بالهضبة السورية. وفي كونتية طرابلس، فإن منظومة دفاعية حقيقية قوامها حصن الفرسان والقلعة البيضاء [صافيتا] والقلعة الحمراء [قلعة يحمور] ومونفيّران [بعرين] إنما تحمي الممر الطبيعي الذي يربط الوادي الأعلى لنهر العاصي بسهول طرابلس وطرطوس. وفي شمالي صور، يتم الدفاع عن وادي نهر الليطاني عن طريق حصون بوفور [شقيف أرنون] وتبنين وهونين وسُبيبه. وفي إقليم بحيرة طبرية، يجري إنشاء شبكة جد مركزة من الحصون، فنجد صفد وكاستليه [بناحية القيطية] ومونفور [قلعة قُرَيْن] في الشمال، وبلفوار [كوكب] وبيتسان [بيسان] ولافوف [الفولة] وفوربليه [كفر بليه] في الجنوب. وأخيراً. يتعين منخفض الخليل بقلاع الخليل والكرمل والسموع والزويرة. وينتج عن ذلك تربيع للأرض وتركيز للإمكانات الدفاعية على النقاط الاستراتيجية. وهكذا يجري تنسيق الدفاع وبناء بنية هيراركية له: إن الحصن الكبير دائماً ما يكون محاطاً بحُصينات ثانوية على مسافة شاسعة إلى هذا الحد أو ذاك. والحال أن الموقع الجغرافي والأهداف المحددة للحصون إنما تحدد أنماطها جد المتباينة.

ويميز المتخصصون من بينها ثلاثة أنماط أساساً. فالنمط الأبسط هو " البرج الرئيسي النورماني"، وهو برج معزول أو محاط بسور صغير. وهذا هو النمط الدفاعي الأكثر انتشاراً بالنسبة للقرى وللبلدات الصغيرة في سوريا ــ فلسطين. وتخطيطه مربع، وأسواره ذات سمك يمكن أن يصل إلى ثلاثة أمتار، وتتكفل أقواس حجرية بدعم الطوابق. وهذه الأبراج توفر حماية جيدة ضد قوات الجنود غير النظاميين وعصابات النهابين، كما تخدم كأبراج رصدٍ أو نقلٍ للإشارات المرئية. وهي تسمح بدفاع سلبي، وذلك بفضل رسوخ أسوارها التي لا يقيم في داخلها إلاّ عدد صغير من السكان.

والنمط الثاني هو نمط الــ "castrum" [الموقع الحصين]. فالسور المربع الذي يحتوي في كل زاوية من زواياه برجاً إنما يُدرج في مركزه برجاً نورمانياً. والــ "castrum" ليس له عموماً غير مدخل واحد ولا توجد به خنادق. وهو يُبنى بسرعة بالغة، في بلد مكشوف، كما يُعَدُّ أداة دفاع إيجابي. إلاّ أنه لا يستطيع الصمود طويلاً أمام حصار يفرضه جيش قوي. وهو يخدم في آن واحد كقاعدة للعمليات أو كموقع مراقبة لطريقٍ أو لحدودٍ أو لممر. ويتعين على المدافعين عنه شن غارات عديدة لإحباط معنويات المهاجمين ولمنع اقتراب أدوات الحصار، مع احتفاظ المدافعين باتصالاتهم مع المؤخرة.

وقد بُنيت غالبية الحصون من هذا النمط بين عامي ١١٣٠ و١١٧٠: تلك حالة حصن بلفوار [كوكب] الذي يشكل "castrum" مزدوجاً متداخلاً بناه الأوسبتاليون اعتباراً من عام ١١٦٨، على ارتفاع يهيمن على منخفض الأردن. والحال ان الـ "castrum" نمط تحصين جد مناسب لاستراتيجية حركة ويتماشى بناؤه مع فترة توسع وهجوم الدول الفرنجية.

تبقى الحصون الكبرى، قلاع الفرسان، كحصن موآب وعتليت وصفد ومونفور [قلعة قُرَيْن] وسُبيبه وبوفور [شقيف أرنون] أو حصن الفرسان الذي يُعَدُّ واحداً من أبقى قلاع الأرض المقدسة. وتحتل هذه الحصون عموماً لساناً جبلياً ذي منحدرات وعرة تشكل بالنسبة لها دفاعاً طبيعياً. وبحكم كتلتها، يتعين عليها أن تتمكن من الصمود لحصار قد يمتد شهوراً طويلة، بل وسنوات. والواقع أن من الصعب الوصول إلى مواقعها؛ وقد كان بناؤها موضع اهتمام كبير ـ فقد جرى شن ثلاث حملات متعاقبة على حصن الفرسان. وتضم مستودعاتها تحت الأرض وخزاناتها الضخمة احتياطيات من المواد الغذائية والمياه تكفي لتحمل حصار طويل. وتتماشى هذه الحصون مع استراتيجية دفاعية؛ فقد بُنيت أو جرى توسيعها في اللحظة التي تخلت فيها الدول اللاتينية عن مهاجمة العدو في حملة سافرة. وهي تُثبّتُ حاميةً وفيرة العدد ـ أكثر من ٢٠٠٠ شخص في حصن الفرسان. والحال، في الشطر الثاني من القرن الثالث عشر، أن السادة الزمنيين والجمعيات العسكرية سواء بسواء لم يعد بوسعهم توفير الموارد الكافية من الرجال لتأمين دفاعٍ طويل الأمد.

وهكذا، ففي الوقت الذي يجري فيه التخلي في الغرب عن هذه الحصون القوية لحساب قلاع تعرف بالقلاع القوطية، وفق نمط الـ "castrum"، تعهدُ دول الشرق اللاتينية بدفاعها إلى قلاع الفرسان، بما يشكل برهاناً حاسماً على ضعفها. والحال أن اختفاء سلطة ملَكية قوية، والتنافسات بين الجمهوريات التجارية الإيطالية وخاصة قلة الرجال الحرجة إنما تحكم على اللاتين بترك زمام المبادرة للمهاجمين وبالإكتفاء بدفاع سلبي ليس من شأنه إدامة الوهم طويلاً.

٥. سكان المملكة: الفرنج والشرقيون

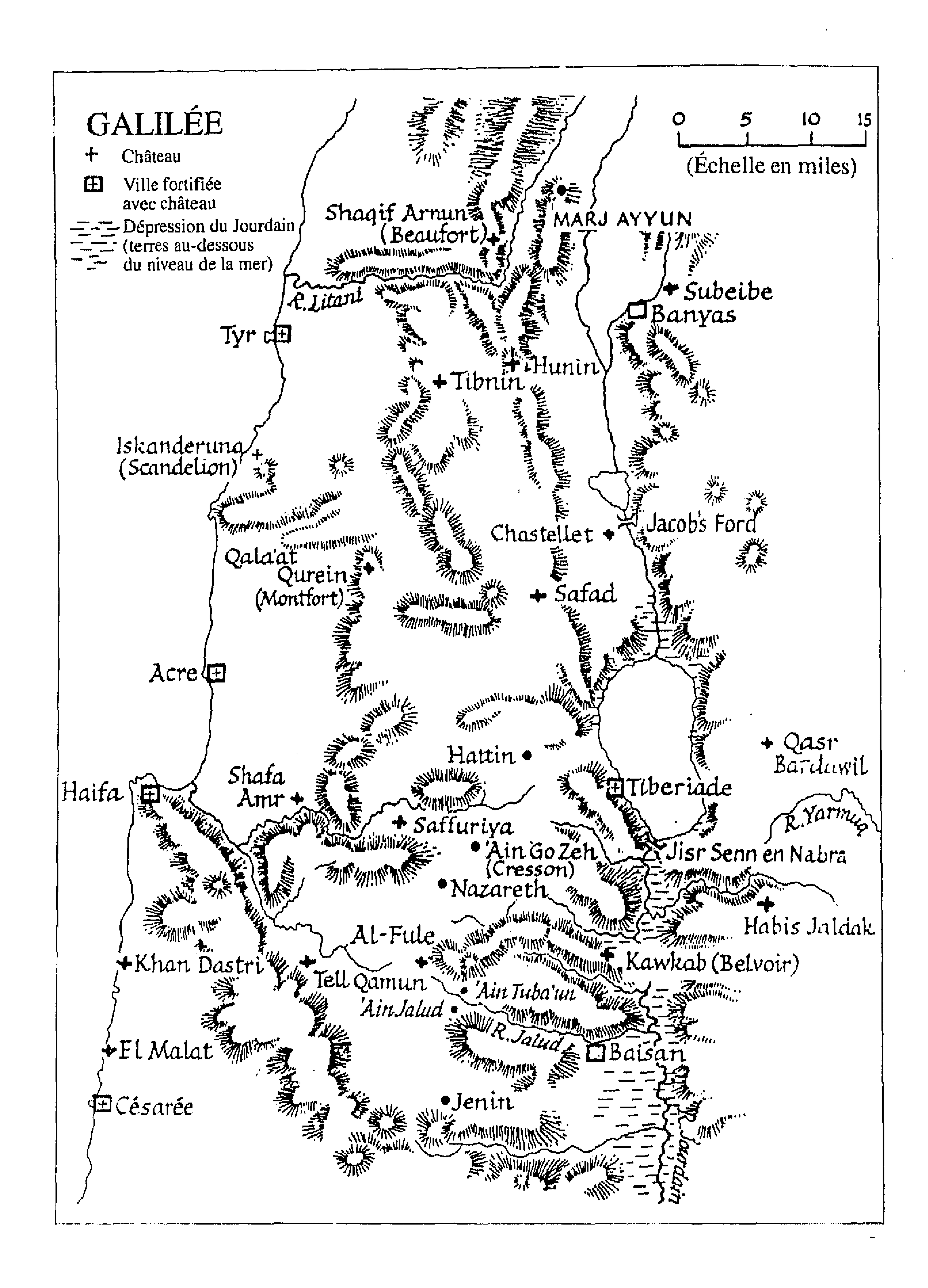
بين الصليبيين الذين يقبلون البقاء للدفاع عن الأماكن المقدسة في فلسطين بعد عام ١٠٩٩ والاستقرار في الأرض المقدسة، يبرز أناس من أصول جد متباينة: فرنسيون من

الزمام الملكي وفلمنكيون وبيكارديون وبروفانسيون ولا نجدوكيون، سوف ينضم إليهم بمرور الزمن ألمان وإنجليز وإيطاليون ومجريون، يمتزجون بالمسيحيين الشرقيين، ويعتبرون أنفسهم، بعد جيل من وصولهم إلى الأرض المقدسة، شرقيين، بولان، ناسين أصولهم، كما تُذَكِّرُ بذلك الفقرة الشهيرة من فوشيه الشارتري: " نحن الذين كنا غربيين، صرنا الآن شرقيين. فمن كان رومانياً [إيطالياً] أو فرنجياً هو الآن في هذه الأرض جليلي [نسبة إلى الجليل] أو فلسطيني. ومن كان رانسياً [نسبة إلى رانس في فرنسا] أو شارترياً [نسبة إلى شارتر في فرنسا] هو الآن صُوري [نسبة إلى صُور] أو أنطاكي". فالحال أن مجتمعاً استيطانياً حقيقياً يولد فيما وراء البحر. ويجب أن نرصد عناصره المختلفة، متذكرين مع ذلك أنه في عام ١١٣١، كان ١٧,٥% فقط من المستوطنين المعروفين في الأرض المقدسة هم الذين تناولوا الصليب في عامي ١٠٩٥ و١٠٩٦ (ج. رايلي سميث). وهو ما يدل على الأهمية التي تميزت بها الهجرة السلمية، التالية للحملة الصليبية.

٥-١٠ المستوطنون و" البولان "

يشير مصطلح الـ "Poulains" الذي كثيراً ما استخدمه الكتاب الغربيون والكتاب المولودون فيما وراء البحر إلى الفرنج المولودين في الأرض المقدسة والذين لهم مستقر دائم في سوريا، تمييزاً لهم عن الصليبيين الذين يجيئون ثم يرحلون. وبما أن البولان هو ابن الفَرَس [أي المُهر]، فإن فرنج الأرض المقدسة هم أبناء الجيل الأول من الصليبيين الذين استقروا في المملكة اللاتينية الشرقية.

وتحمل الكلمة في أواخر القرن الثاني عشر شحنة عاطفية قوية؛ لكنها تشهد انحطاطاً دلالياً يفسر تداعي الصلات بين الغرب ودول الشرق الفرنجية. فمدونو الأخبار الغربيون يأخذون على البولان أسلوب حياتهم اليومي جد المماثل لأسلوب حياة المسلمين، وذلك إلى درجة إتهامهم بإفساد دينهم وبإبداء تسامح كان يُساء فهمه في ذلك الزمن. وتجري الإشارة إلى عجزهم العسكري وإلى ميلهم إلى التحالف والتواطؤ مع المسلمين وإلى اعتبار التعاون مع الصليبيين ضد العدو المشترك دليلاً على سوء القصد. وفي القرن الثالث عشر، يشكل البولان جماعة سياسية متجانسة؛ وبما انهم يعتبرون الدول اللاتينية أرضهم، فإنهم يؤكدون هوية منفصلة عن هوية الغربيين. ولذا فليس هناك ما يدعو إلى الدهشة إذا ما كان هؤلاء الأخيرون يستخدمون كلمة " بولان " كشتيمة، إذ يدركون اتساع الشقة بينهم وفرنج الشرق.



الشكل ٢٢ – الجليل.



الشكل ٢٣ – فلسطين الجنوبية

ويشمل هؤلاء كلاً من بيوت النبلاء المستقرين في المملكة، وهي بيوت تتميز بينها في المقام الأول عشيرة الإبلان، و" البورجوازيين " والمستوطنين من غير رجال الدين ومن غير النبلاء. وبين هؤلاء حرفيون وتجار يحيون في المدن كالجواهرجية والقمّاشين والصيارفة، لكن بينهم أيضاً مستوطنو الأرياف الذين يحصلون على " أرضٍ ممنوحة كحيازة بورجوازية "، يتعين عليهم أن يقدموا في مقابلها للسيد الإقطاعي جزءً من المحصول وأن يدفعوا للكنيسة ضريبة العُشر. وقد ساد الظن لوقت طويل بأن هؤلاء المستوطنين الريفيين كانوا جد قليلين وأن اللاتين كانوا في غالبيتهم يسكنون المدن. فهل خلق الاستيطان الغربي مجتمع تمييز عنصري شامل ونظامي، بحيث يحيا الغربيون في المدن بينما يحيا السوريون في الريف ؟

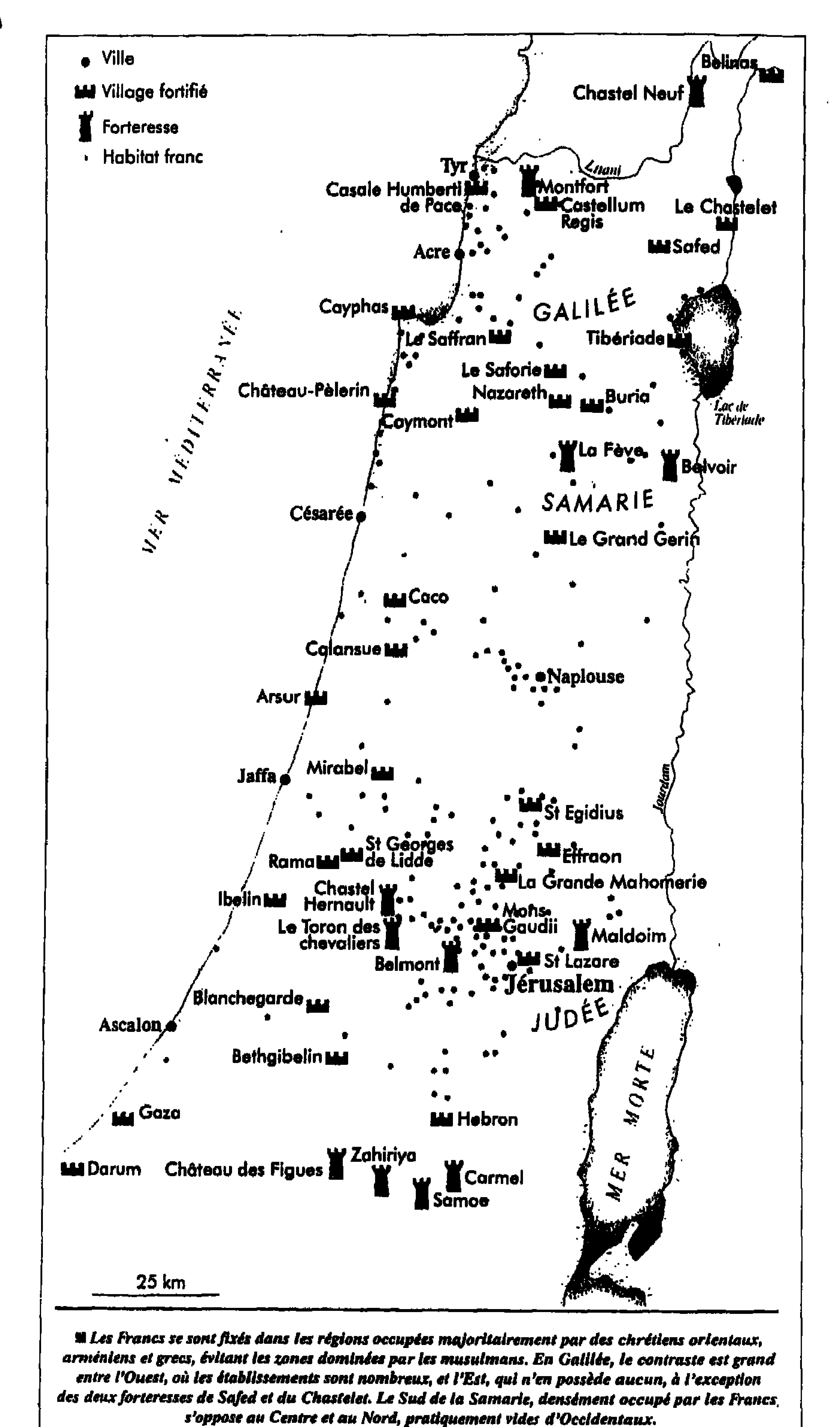
إن عملَ رونّي ايلينبلوم، المستند إلى تنقيبات آركيولوجُية ممتازة، قد أثبتَ وجوداً فعلياً لاستيطان غربي ريفي مستقر بشكل متفاوت في المملكة، وخاصة في الأقاليم التي تتألف غالبية سكانها من مسيحيين شرقيين، أرمن وروم، أو في مناطق ذات جماعات سكانية ريفية محدودة. وفي الجليل، يبدو التباين مدهشاً بين الغرب، حيث تعد المستوطنات الفرنجية عديدة، والشرق، الذي لا توجد فيه أية مستوطنة فرنجية، باستثناء حصني صفد وكاستليه [بناحية القيطية]. أمّا جنوبي السامرة، الذي يتميز بإستيطان فرنجي كثيف، فهو يتمايز عن الوسط والشمال، شبه الخاليين من الغربيين. والحال أن هذه الحدود، الثقافية بأكثر من كونها استراتيجية، إنما تتماشى بالضبط مع حدود العصر البيزنطي، والتي تفصل المسيحيين الأرثوكس عن اليهود والسامريين. وقد شهدت المناطق التي يحتلها هؤلاء الأخيرون سيرورة أسلمة وتعريب أسرع من سيرورة أسلمة وتعريب الأقاليم التي يحتلها المسيحيون الشرقيون. ولذا فلا غرابة في أن توزيع وكثافة الاحتلال الفرنجي يتناسبان على نحو مباشر مع توزيع وكثافة استقرار المسيحيين الشرقيين، الثابت من القرن السابع إلى وصول الصليبيين. وقد اختار هؤلاء الأخيرون في البداية الاستقرار في شمالي القدس، ثم، اعتباراً من منتصف القرن الثاني عشر، استوطنوا الجليل الغربي، القريب دائماً من قرى المسيحيين الشرقيين، متجنبين الأقاليم التي تهيمن عليها الجماعات السكانية المسلمة. والحال أن الاستيطان الذي استفاد على مدار خمسين عاماً (١١٢٠ ـ ١١٧٠) من سلام بلا متاعب كبرى، قد تمكن من التطور في المناطق الريفية في سوريا ـ فلسطين، بما أدى إلى خلق مجتمع " حدودي، مسيحي، تحت الهيمنة الفرنجية "، مجتمع

يمكن وصفه بأنه فرنجي ـ سوري، شريطة استبعاد العنصر المسلم منه. وقد تمكن هذا الإستيطان من البقاء إلى عام ١١٨٧، عندما أغرقت الموجات الكردية والتركية الهجرة الفرنجية، الأدنى عدديا.

٥-٢ ، المسيحيون الشرقيون

يعد تكاثر الكنائس المسيحية في سوريا ـ فلسطين زمن الحملات الصليبية إرثاً تاريخياً: فالجماعات القومية، المناوئة للسلطة البيزنطية، قد سعت منذ القرن الرابع إلى القرن السابع إلى التمايز عن القسطنطينية وعن الكنيسة الرومية، وذلك بتبنيها لمذاهب اعتبرتها الأرثوذكسية هرطوقية. والحال أن هذه الجماعات، المعرَّضة للملاحقات من جانب السلطات الإمبراطورية، قد وجدت ملاذاً على أطراف الإمبراطورية واستقرت هناك بعد الفتح الإسلامي في القرن السابع.

وعند وصول الصليبيين، لاشك أن الكنيسة الرومية هي الأغنى والأفضل تنظيماً بين جميع الكنائس المسيحية في سوريا ـ فلسطين. فهي تملك المؤسسات الدينية الرئيسية في الأرض المقدسة، إذ تحوز القبر المقدس وكنائس بيت لحم والناصرة وجبل طابور. ويعتبرُ البازيليوسُ نفسه الحاميَ الرسمي للأماكن المقدسة. وإذا كان الروم، الذين يسمون بالملكانيين، لا يعدون كثيرين في القدس نفسها، فيما عدا كهنتهم ورهبانهم، إلاّ أنهم يشكلون أقوى جماعة قومية في أنطاكية، بما يبرر تطلعات الإمبراطورية إلى استرداد أقاليم وادي نهر العاصي التي فتحها الصليبيون. وتحت السيطرة اللاتينية، تتعرض الكنيسة الرومية لمضايقات لا تُحتمل، ليس البتة بسبب الخلافات المذهبية التي تظل طفيفة ـ " انبثاق الروح القدس من الأب والابن " مثلاً ـ أو بسبب اختلافات ثانوية في ممارسة الطقوس، بل بسبب وحدة الكنيسة التي يدعي الفرنج فرضها. فهؤلاء الأخيرون يرفضون الخضوع لبطريرك رومي، ولا يقبلون هيراركية كنسية مزدوجة ويقومون على نحو منهجي بخلع البطاركة والأساقفة لإحلال غربيين في محلهم. وينتج عن ذلك توتر دائم بين الروم واللاتين، وذلك بقدر ما أن هؤلاء الأخيرين لا يتورعون عن إغتصاب ممتلكات الكنائس الرومية أو عن إذلال رجال الدين الأرثوذكس. لكن رجال الدين هؤلاء لا يقل مع ذلك نجاحهم في الإبقاء على إقامة طقوسهم الخاصة في الأماكن المقدسة وعلى جماعات مستقرة في أديرة اليهودية ووادي الأردن.



■ *Les Francs se sont fixés dans les régions occupées majoritairement par des chrétiens orientaux, arméniens et grecs, évitant les zones dominées par les musulmans. En Galilée, le contraste est grand entre l'Ouest, où les établissements sont nombreux, et l'Est, qui n'en possède aucun, à l'exception des deux forteresses de Safed et du Chastelet. Le Sud de la Samarie, densément occupé par les Francs, s'oppose au Centre et au Nord, pratiquement vides d'Occidentaux.*

الشكل ٢٤ الاستيطان الفرنجي. المصدر : Les collections de L'histoire, nº 4, 1999

أمّا الطوائف المسيحية الأخرى، المضطهَدة من كنيسة القسطنطينية، فقد رحبت بوصول الغربيين. ويشكل السوريان أو اليعاقبة جمهرة السكان المسيحيين في مملكة القدس اللاتينية، وهم أوفر عدداً حول أنطاكية، مقر بطريركيتهم. وتدين الكنيسة اليعقوبية باسمها لمؤسسها يعقوب بارادايوس الذي انفصل في القرن السادس عن الأرثوذكسية خلال المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح بعد تجسده. فاليعاقبة، الذين تتألف نواتهم من جماعة سكانية أهلية قديمة حافظت على هويتها تحت الحكم الإسلامي، إنما يرون أن المسيح ليست له غير طبيعة واحدة (*monophysis*)، ومن هنا اسم المونوفيزيت الذي سموا به. وهم يستخدمون السوريانية في طقوسهم، لكنهم يستخدمون العربية في كلامهم. ومحرابهم الأكبر، بارسوما، موجود في أرض إسلامية، أمّا في القدس، فإن دير سانت ماري مادلين هو مركز الكنيسة اليعقوبية. ولمّا كان اليعاقبة معارضين للكنيسة الرسمية للدولة البيزنطية، فقد نالوا حظوات الفاتحين العرب ثم حظوات السلاجقة. أمّا الفرنج فقد اعتبروهم مساوين لجميع الآخرين من غير الفرنج.

والحال أن كنائس أخرى قائلة بوحدة طبيعة المسيح، وذات طابع قومي، إنما تعد ممثَّلة في سوريا ـ فلسطين في أواخر القرن الحادي عشر، وقد استفادت عموماً من الفتح اللاتيني. فالأرمن، الذين يشكلون بضع نويات متناثرة في مملكة القدس، فيما عدا في المدينة المقدسة حيث يحتلون حياً كاملاً حول كنيسة القديس يعقوب، والتي أعيد بناؤها نحو عام ١١٥٠، إنما يعدون أوفر عدداً في إمارة أنطاكية ويمثلون الغالبية في كونتية الرُها. ويرأسهم "*catholicos*" [جاثليق]، أو بطريرك أرمني له كرسيه في قيليقيا، حيث يمثلهم لدى بلاط ملوك أرمينيا الصغرى، المتأثرين إلى حد بعيد بالمؤثرات الغربية، وخاصة الفرنسية، في القرن الثالث عشر. أمّا الطوائف الثلاث الأخرى القائلة بوحدة طبيعة المسيح، وهي طوائف الجريجوريين والأقباط والإثيوبيين، فهي ليست غير جاليات من الكهنة والرهبان المجاورين للأماكن المقدسة والذين قلّما يلعبون دوراً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للدول الفرنجية.

والحال ليست كذلك مع الموارنة، المستقرين في الأجزاء الشمالية من مملكة القدس وفي كونتية طرابلس. ووفقاً لمروية، لم تتمكن المصادر التاريخية من التثبت منها، فإنهم يستمدون اسمهم من مؤسس طائفتهم، المدعو يوحنا مارو، الذي يقال إنه كان بطريرك أنطاكية في أواخر القرن السابع. والواقع أن هؤلاء الفلاحين المسيحيين المستقرين في لبنان قد سعوا إلى صون خصوصيتهم في مواجهة السلطة الإمبراطورية وكنيسة

القسطنطينية، متبنين في البداية الأطروحات القائلة بوحدة طبيعة المسيح، وهي هرطقة لا تعترف إلاّ بمشيئةٍ أو مقدرةٍ واحدةٍ في شخص المسيح بعد تجسده، في حين أن الكنيسة الرسمية، بعد كثير من المجادلات في عهد الإمبراطور هرقليوس، قد مالت إلى الإيمان بمشيئة مزدوجة، بشرية وإلهية. وقد تمكن موارنة وديان لبنان الجبلية من صون استقلالهم في ظل الحكم الإسلامي. وهم يتقاربون مع الفرنج خلال القرن الثاني عشر ويوافقون في عام ١١٨٢ على التخلي عن القول بطبيعة المسيح الواحدة ويقبلون صدارة كنيسة روما، بما يقود إلى اتحاد دائم للكنيستين مايزال قائماً إلى اليوم.

وتلك هي المحاولة الوحيدة الناجحة التي قام بها الفرنج لإجتذاب الكنائس الشرقية. فالواقع أن الطاعة التي فرضها بطريرك القدس اللاتيني على جميع رجال الدين من الأهالي والاذلال الذي تم تحسسه على أثر خلع الهيراركية الكنسية الشرقية سرعان ما يولّدان رد فعل يتسم بالرفض. ومنذ أواخر القرن الثاني عشر، يشعر المسيحيون الشرقيون، باستثناء الموارنة، بأنهم أقرب إلى المسلمين ممّا إلى اللاتين. والحال أن وحدة الكنائس التي تحققت في مجمع فلورنسا (١٤٣٩)، لن تبقى بعد فتح الأتراك للقسطنطينية.

٥-٣٠ المسلمون

عند الفتح الفرنجي لفلسطين، تتألف غالبية السكان من مسلمين. وبعضهم ـ وهم أقلية ـ أحفاد للفاتحين العرب الذين أجهزوا في القرن السابع على السيطرة البيزنطية على سوريا وفلسطين ومصر. وبعضهم الآخر ـ وهم أغلبية ـ أحفاد لشعوب آرامية وكنعانية قديمة، تأغرقت ثم ترومنت ثم تنصّرت ثم تحولت أخيراً إلى اعتناق الإسلام اعتباراً من القرن السابع. والجماعة السكانية الإسلامية تهيمن في كونتية طرابلس وفي مملكة القدس اللتين لم تعرفا في القرن العاشر عودة السيطرة البيزنطية؛ لكن هذه الجماعة أقل كثافة في إمارتي الرُّها وأنطاكية الشماليتين حيث تهيمن سيادة القسطنطينية إلى عشية الحملة الصليبية الأولى تقريباً. على أن العربية هي لغة الكلام السائدة في كل مكان، بين السكان المسلمين والمسيحيين على اختلاف أصولهم واليهود والسامريين على حد سواء. ولا يستمر استخدام اليونانية والسوريانية إلاّ في أداء الطقوس.

والمسلمون موجودون في مدن الدول اللاتينية كما في الأرياف. لكنهم ليسوا غير أقلية في عواصم الصليبيين. فالواقع أن المسلمين، عند الفتح الصليبي، إمّا أنهم يُبادون أو يطردون. والقدس، بعد عام ١٠٩٩، مكان محظور على المسلمين أن يقيموا فيه. وفي

المقابل، ينجح هؤلاء الأخيرون في الإقامة من جديد في المراكز الحضرية الصغيرة، دون متاعب تُذكر. وهم عموم سكان الأرياف. والقرى ـ أو الدساكر ـ تظل فيها مساجد صغيرة حيث يؤدي القضاة والعلماء المحليون مهامهم. وتدار المجتمعات الإسلامية عموماً من جانب الشيوخ أو الرؤساء الذين يفصلون في الخلافات بين أفرادها بحسب الشريعة ويمثلون القرى لدى السلطات اللاتينية ويتولون جباية الإتاوات الإقطاعية لحساب الفاتحين. والواقع أن الفلاحين المسلمين يحتكرون الزراعة؛ وهم لم يفعلوا غير تغيير سادتهم؛ ومن جراء إختزالهم إلى درك أسفلِ واحد، فإنهم يدفعون ضريبة الرأس وضرائب عقارية تساوي ثلث أو ربع المحصول. ومع كونهم مستغلّين، فإن حالتهم، إذا ما صدقنا كلام الرحالة المسلم ابن جبير، ليست جد سيئة في أواخر القرن الثاني عشر. وتضاف إلى السكان المستقرين قبائل البدو والتركمان التي تنتقل فيما بين مصر وبلاد الرافدين؛ وقد أقام الفرنج معهم تعايشاً: وبما أن هؤلاء الأخيرين يسمحون لهم بعبور المناطق الشرقية والغربية للمملكة، فإنهم يحصلون منهم في المقابل على ضريبة يتوقف حجمها على عدد خيامهم.

وإذا كان قد تسنى تطورُ احترامِ متبادلِ بين الطبقات العليا المسلمة والمسيحية، كما تشهد على ذلك مذكرات أمير شيزر، أسامة بن منقذ [في كتاب الإعتبار]، فإن جمهرة المسلمين في الدول اللاتينية تحيا في وضعية المستغلّين، الأمر الذي يجعل هذه الجمهرة على استعداد للتجاوب مع الدعوات إلى الجهاد، والصادرة من حلب أو دمشق أو القاهرة.

٥-٤ • الدروز

لابد من إفراد مكان خاص للحديث عن الدروز. فهم يشكلون نحلة مغلقة على نفسها، ظهرت في العقد الثالث من القرن الحادي عشر، على أثر الدعاية الدينية التي قام بها الدَرَزي ثم واصل القيام بها حمزة بن علي، لصالح الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي في مصر (٩٩٦ ـ ١٠٢١) والذي جرى اعتباره التجسد الأخير للربوبية على الأرض. والحال أن أتباع عبادة الحاكم بأمر الله، الحريصين من خلال المعرفة على تطهير أنفسهم والعودة إلى الواحد الكوني، إنما يترقبون عودة الحاكم بأمر الله الذي "انسحب" من العالم لكي يمتحن أصحابه. وهؤلاء يعفون أنفسهم من إعلان الشهادتين ومن صوم رمضان ويؤمنون بعودة الأرواح إلى التجسد فور الموت. وعندما تُمنى الحركةُ بالفشل في مصر، تتجه، خلال أزمنة التمردات الفلاحية، إلى حوران، وهي سلسلة جبال في شرق بيروت وصيدا. وإذ يستقر الدروز على قرب من قلعتي بوفور [شقيف أرنون] وبانياس، فإنهم

يشكلون طوائف دينية مغلقة على أنفسها، ويبدو أنها قد تعايشت، إن لم تكن قـــد تعـــاونت، مع الفرنج في القرن الثالث عشر.

٥-٥ ، اليهود

في سوريا ــ فلسطين، كانت عشر مجتمعات يهودية مستقرةً في أواخر القرن الحـــادي عشر في المدن الساحلية الكبرى وفي الرملة وطبرية والقدس. وهي تنقسم إلـــى الربـــانيين ــ اليهود الأرثوذكس ــ، السامريين، حول نابلس، والقرائين الذين يرفضـــون التلمـــود ولا يقبلون مرجعية سوى مرجعية التوراة. وقد تناقصت الجماعة السكانية اليهودية كثيراً منـــذ الفتح السلجوقي. وإذ تصل إلى علمها أنباء المذابح المرتكبة في الغرب [ضد اليهود]، فإنـــها تترقب وصول الصليبيين في رعب، وإن كان أيضاً في أمل مســـياني بمجـــيء مخلّـص. ويجد يهود البلدات الصغرى ملاذاً في مواقع أفضل تحصيناً ؛ ويقوم يهود الرملـــة ويافـــا بالرحيل عن مدينتيهما قبل وصول الصليبيين ؛ وقد ساد الاعتقاد لوقت طويل بأن اجتيـــاح ١٥ يوليو/ تموز ١٠٩٩ الصليبي للقدس قد تلته مذبحة عامة للسكان اليهود الذين لجـــأوا إلى الكنيس. إلاّ أن هناك الآن تهويناً من آثار الفتح. فوفقاً لوثائق الجنيزة، التـــي عكـــف س. جواتيين على دراستها، قام " الصليبيون بإنهاء طائفة كانت في حال انتـــهاء بـــالفعل". ومن المؤكد أن الكنيس، الذي يبدو قليل الأهمية، قد جرى إحراقـــه كمـــا جـــرى إحـــراق مخطوطات التوراة. لكن كثيرين من اليهود الأسرى تم افتداؤهم بثمن جـــد بســـيط مـــن جانب إخوتهم في الدين من يهود إيطاليا ومصر ؛ وقد تمكن القراءون مـــن أن يســـتردوا من الصليبيين أكثر من ٣٥٠ مخطوطاً تخص مكتبتهم في القدس. وفي الجليل، يعفو الفتـــح السريع الذي قاده تنكريد عن الطوائف اليهودية الصغيرة فـــي القـــرى؛ وفـــي المقابــــل، يجري ذبح يهود حيفا عند الإستيلاء على المدينة في صيف ١١٠٠.

وخلال القرن الثاني عشر، تظهر من جديد أحياء يهودية فـــي الأرض المقدســـة: فـــي قرى الجليل، كطبرية وصفد، وكذلك في المدن الساحلية، حيث يحصي الرحالة الإســـباني بنيامين التوديلي نحو عام ١١٧٠ خمسمائة يهودي في صـــور ونحوهـــم فـــي عســـقلان. والقدس وحدها هي المكان المحظور على اليهود أن يقيموا فيه، فيما عدا أسر قليلـــة مـــن الصباغين الذين يحيون في ملحقات قصر الملك. وقد اســـتمدت هـــذه المجتمعـــات تدفقـــاً للهجرة من أوروبا المسيحية، وهي تقيم علاقات وثيقة مع الغرب كما مع مصر.

والواقع أن كل استعداد لحملة صليبية إنما يفجر موجات جديدة من معاداة السامية. ففي عام ١١٤٦، يقوم بطرس المبجل، رئيس دير كلوني، بإسداء النصح إلى لويس السابع بانتزاع الأموال من اليهود لتمويل حملته الصليبية؛ لكن الملك يرفض ذلك. أمّا في الإمبراطورية [الرومانية المقدسة]، فإن راهباً من الرهبان السيسترسيين يهيج المؤمنين ضد الجاليات اليهودية، سعياً إلى وضعهم أمام الاختيار القديم بين الإرتداد قسراً عن ديانتها أو القتل. وقد وقعت أعمال اضطهاد في ورمس وماينس وباخاراخ وفورتسبورج وستراسبورج. لكن الأساقفة الألمان المنزعجين ممّا يحدث إنما يتوجهون بالنداء إلى سان برنار. والحال أن هذا الأخير، رئيس دير كليرفو، يتولى الدفاع عن اليهود، عند مجيئه إلى الأقاليم الرينانية للدعوة إلى الحملة الصليبية ؛ فهو يبين أنهم أصحاب وعد إلهي لم يتحقق بعدُ؛ كما أنه لا يجوز في أية حال إجبار أحد منهم على التحول إلى اعتناق المسيحية. وينجح برنار في تهدئة حنق الجماهير، ليس دون صعوبات.

وتتكرر المخاوف نفسها والحوادث نفسها خلال الدعوة إلى الحملة الصليبية الثالثة. فتتشتتُ الجالياتُ اليهودية التي تحيا في المدن الرينانية، وهي الجاليات التي تعرضت للاضطهاد بالفعل في عامي ١١٤٦ و١١٤٧، وذلك بالرغم من أن الإمبراطور فردريك الأول بربروسّا كان قد كفل لهذه الجاليات حمايته وبالرغم من أن الأساقفة قد هددوا بالحرمان الكنسي كل من يعتدي على اليهود في أشخاصهم أو ممتلكاتهم. وقد وقعت الحوادث الأكثر جسامة في إنجلترا، على أثر تتويج ريتشارد قلب الأسد. فقد أدت تمردات في لندن في سبتمبر/ أيلول ١١٨٩ إلى مصرع ثلاثين شخصاً. وبعد ذلك بستة أشهر في مدن الأقاليم الكبرى كنورويتش ولنكولن وستامفورد وخاصة يورك، تسعى الجماهير التي حرّكها عددٌ من النبلاء المدينين للمرابين إلى تكوين ثروات من أسلاب اليهود وإلى إعدام إقرارات المديونيات التي يحوزها هؤلاء. وهكذا يجري محو جاليات يهودية مزدهرة.

وخلال القرن الثالث عشر، تكمن مسألة الديون واجبة السداد لليهود في صميم موقف الكنيسة والسلطات المدنية. والحال أن رسالة من اينوشنتيوس الثالث، تُستعاد في دستور *Ad Liberandam* لمجمع لاتران الرابع (١٢١٥) إنما تطلب من الملوك ومن الأمراء فرض تأجيلٍ لسداد الديون المستحقة لليهود وإلزام هؤلاء بالتخلي عن أخذ فوائد [ربوية] من الصليبيين. على أن ملوك الغرب لم ينتظروا هذه الوصية الكنسية حتى يشركوا اليهود في تمويل حملتهم الصليبية. ففي عامي ١١٨٩ و١١٩٠، جرى إجبار اليهود الإنجليز على أن يدفعوا للملك ريتشارد نسبة ٢٥% من دخولهم. وفي عام ١٢٣٠، يتخذ القديس لويس

[لويس التاسع] قراراً ضد المرابين اليهود ثم، قبل رحيله إلى الأرض المقدسة، يصادر ممتلكاتهم لحساب الحملة الصليبية. وعندما يسقط أسيراً في أيدي المماليك، فإنه لا يرى سبباً لفشله سوى تسامحه مع نشاط المرابين في المملكة؛ وهو يقرر طرد اليهود، إلاَّ أنه لا يُصدِرُ أي قرار في هذا الاتجاه إلاَّ بعد عودته من الأرض المقدسة في عام ١٢٥٨. غير أن نص القرار، البعيد عن التطبيق الحرفي له، يسمح لليهود بالإعفاء من الطرد مقابل أداء مدفوعات نقدية. وبالنسبة للملك، يتماشى الحرص على تهذيب أخلاق سوق المال مع الحث على تحول اليهود إلى اعتناق المسيحية؛ وكل تحول كهذا يغمره بالفرح ويدفعه إلى تقديم معاشات وهدايا إلى حديثي العهد باعتناق المسيحية.

والظاهرة المصاحبة لتدهور حالة اليهود في الغرب هي ازدهار فكرة العودة إلى الأرض المقدسة واستئناف الاستيطان اليهودي في فلسطين في القرن الثالث عشر. ومنذ عام ١١٨٧، يسمح صلاح الدين لليهود بالعودة إلى القدس، التي يضطرون إلى هجرها في عام ١٢٤٤، عند نهب المدينة على أيدي القوات الخوارزمية. وكانت الهجرة، القادمة من فرنسا ومن الدول المسيحية في إسبانيا ومن الإمبراطورية [الرومانية المقدسة]، قد بدأت خلال سنوات العقد الأول من القرن الثالث عشر و، بعد توقف بين عامي ١٢٤٤ و١٢٦٧، تستأنف مسيرتها في سبعينيات وثمانينيات القرن الثالث عشر. وتستقر جاليات عديدة في الجليل، لكنها تستقر بالأخص في المدن الساحلية، كعكا وصور، حيث يحدث، تحت تأثير حاخامات فرنسيين [مثل يهئيل الباريسي] واسبان [مثل نحمان]، إزدهار للبحوث حول النصوص المقدسة وتنتظم مساجلات حول كتابات موسى بن ميمون. على أن الفتح المملوكي في عام ١٢٩١ يجهز على هذه البؤر اليهودية التي تسامح الفرنج معها وقاموا أحياناً بحمايتها.

ومن ثم فقد حركت الحملات الصليبية تياراً عنيفاً من تيارات معاداة السامية في الغرب كما ساعدت في الوقت نفسه بشكل غير مباشر على ازدهار الجاليات اليهودية في الأرض المقدسة.

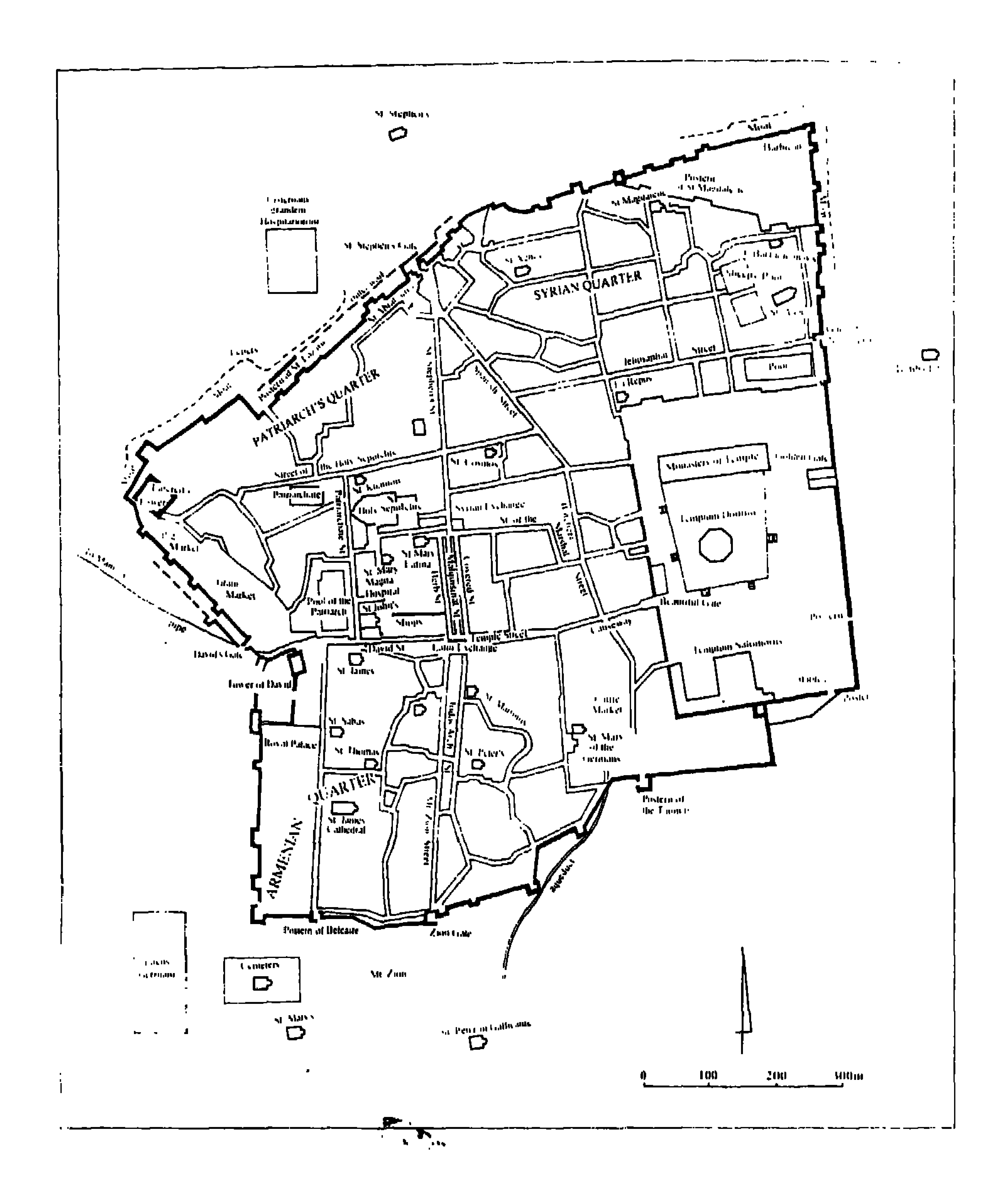
٠٦ عاصمة ثم أخرى: القدس وعكا

٦-١ ٠ القدس

اسم المدينة المقدسة [أورشليم] يستثير الفرح والتأثر ويحرك الدموع والأمل في أفئدة المسيحيين واليهود والمسلمين على حد سواء في العصر الوسيط. وذلك لأن المدينة لها وجوه كثيرة. فهي بالنسبة للشعب اليهودي في الدياسبورا أرض الميعاد القديمة. والأعياد السنوية ــ عيد الفصح وعيد المظال مثلاً ــ تجتذب إلى المدينة عائلات بأكملها من اليهودية ومن الجليل، وإن كانت تجتذب أيضاً جاليات متناثرة في العالم المتوسطي والغربي. وتوجد في القدس مدارس حاخامية؛ ويسهم عدد من الرحالة، كبنيامين التوديلي، في إكساب اليهود وعياً بأنهم "أمة في المنفى" وفي تمجيد أرض الأسلاف. ومنذ اختفاء الحاخامية اليهودية في عام ٤٢٥، لا تعود الأرض المقدسة القلب الفيزيقي للأمة، لكن جاليات الدياسبورا، إلى جانب جاليات فلسطين، تحفظ الذكرى المتقدة عن هيكل سليمان وتابوت العهد والأواصر التاريخية المميزة بين المدينة والشعب المختار، إسرائيل.

وبالنسبة للمسلمين، تحتل القدس أيضاً مكانة بارزة في الوحي. فهي محل تبجيل بوصفها وطن الأنبياء بامتياز. ونحن نعرف أهمية التراث النبوي في دعوة محمد. وهي المدينة التي كانت قبلة المسلمين في صلواتهم إلى عام ٦٢٤؛ وهي مبدأ معراج النبي ليلاً إلى السماء (سورة الإسراء) بعد أن صلىَّ على الصخرة وترك عليها أثر قدميه. وفي هذا الموقع، يبني عبد الملك بين عامي ٦٨٧ و٦٩١ مسجد الصخرة أو قبة الصخرة التي تسمىَّ الآن خطأ بمسجد عمر. وعلى مقربة من هذا المسجد، بنى الوليد بين عامي ٧٠٥ و٧١٥ المسجد الأقصى. وهكذا تعتبر القدس ثالث الحرمين، مع الحرم المكي ومسجد المدينة المنورة؛ والحج إلى القدس هو الحج الوحيد الذي يجيزه الفقه الإسلامي كمكمل للحج الكبير إلى المدينتين المقدستين في جزيرة العرب.

وترث المسيحية أواصر عاطفية تربط شعب إسرائيل المختار بفلسطين عموماً وبالقدس خصوصاً. وفي التصور المسيحي للعالم، تعد الأماكن التي شهدت حياة المسيح وآلامه وقيامته الأماكن المقدسة بامتياز حيث يتحرق كل مؤمن إلى إقتفاء آثار يسوع والرسل، لكي يكتسب شيئاً من قداستهم. ومرويات الحجاج لا تبالي البتة بواقع فلسطين في زمانهم؛ إذ لا أهمية هناك إلاَّ لوصف الأماكن المقدسة، والحديث عن الآثار المقدسة التي تشكل مصادر نعمة بالنسبة للمؤمنين. وفي القدس أيضاً تضع التصورات الأخروية

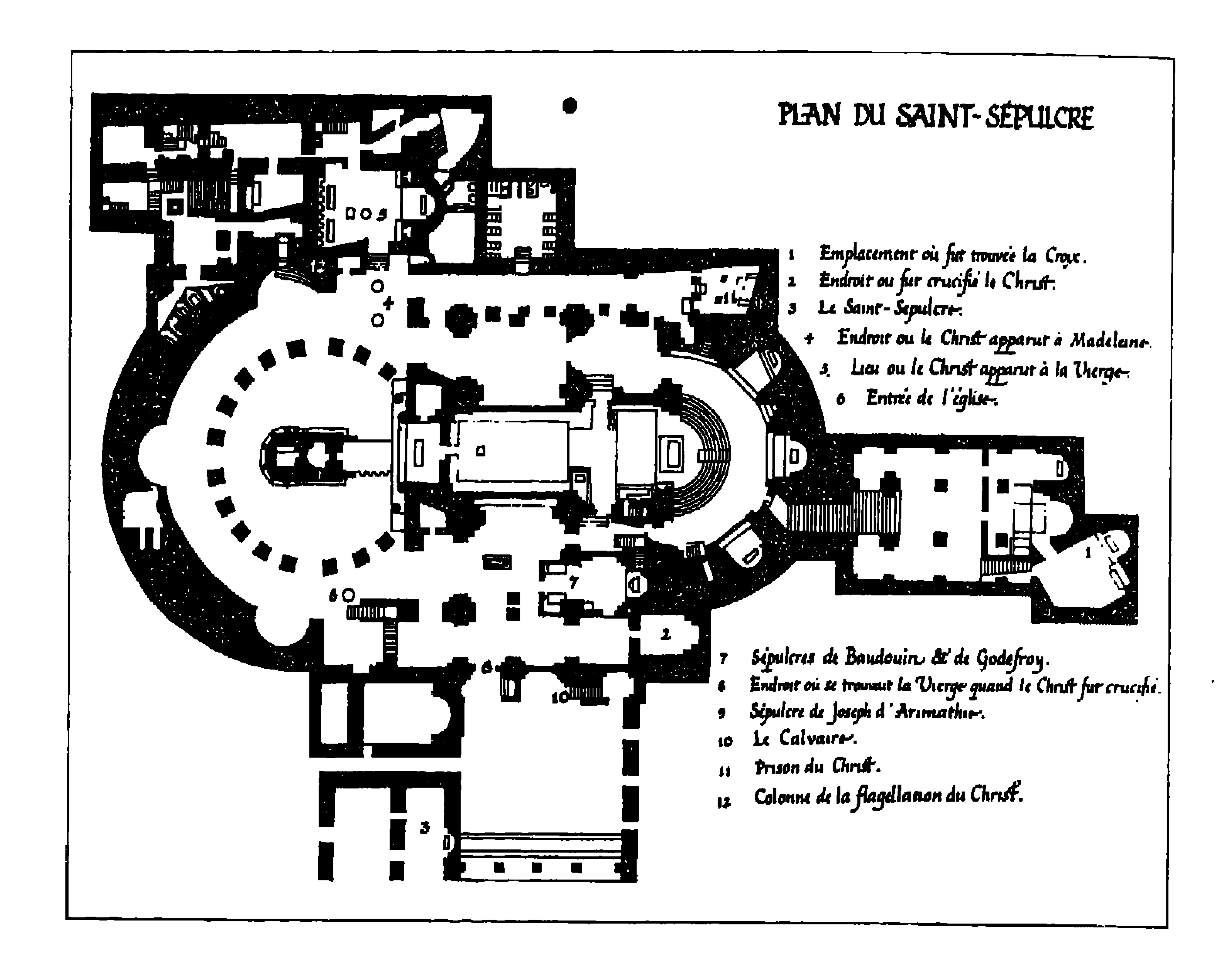


الشكل ٢٥ – القدس. المصدر : م. كابلان

المسيحية نهاية الزمان، عندما يكون المسيح العائد إلى هذا العالم الـــهازم الأخـــير لقـــوى الشر. وبالرغم من أن تعاليم آباء الكنيسة تجتهد في أن تفصل عن القدس الدنيويـــة أســـاس الدين، فإن هذه القدس الدنيوية تظل مع ذلك محفورة في التمثيل المسيحي للعـــالم والـــذي تحتل مركزه: إن القدس، "محور الكون"، هي أيضاً تركة المسيح وهـــي، بـــهذه الصفـــة، تخص الجماعة المسيحية بالطبع. وبالنسبة للمؤمنين في القرن الحادي عشر، الذين تحـــرك أفئدتهم جيشانات النزعة الألفية، ليس هناك ما هو أكثر أهمية من الذهاب والعيش في عيـــن المكان الذي مات فيه المَسيح ولابد أن يرجع إليه! والقدس الدنيوية تفتح أمام المؤمن ســـبل أورشليم السماوية، فهي المَدخل إلى مدينة الرب. وبالنسبة للمشاركين في الحملة الصليبيـــة الأولى، تختلط الأسطورة بالواقع؛ وهما لن يتمايزا إلاَّ ببطء خلال القرن الثالث عشر.

وفي عام ١٠٩٩، قلما يختلف ظاهر المدينة القديمة عما هو عليه اليوم؛ فالأسوار التـــي ماتزال قائمة، والتي بنيت بأمر من السلطان سليمان القانوني بين عـــامي ١٥٣٨ و١٥٤٠، إنما تستند على المحيط الدائري لزمن الحملات الصليبية. والفرنـــج أنفســـهم لـــم يقومـــوا بتجديدات تذكر، إذ إنهم قد اكتفوا بعمليات ترميم في عامي ١١١٦ و١١١٧ للأسوار التـــي كانت قد بنيت في أزمنة البيزنطيين والفاطميين. والمدينة في عام ١٠٩٩ جيدة التحصيـــن؛ فهناك دفاعات طبيعية تحميها من الشرق ــ وادي سيدرون أو يوشافاط ــ ومن الجنـــوب ــ وادي هنّوم؛ ومن هذه الجهة، كان قد جرى بناء سور جديد بعد زلـــزال عـــام ١٠٣٣؛ وهذا السور يترك كنائس جبل صهيون خارج المدينة. وفي الشمال ــ الشرقي، كانت قـــد شيدت حصون جدديدة نحو عام ١٠٦٣ بمساعدة البازيليوس، بعد مناشدات من مســـيحيي الموقع. وبعد الفتح التركي في عام ١٠٧٣، يجري بناء ســـور أمـــامي مســـبوق بخنـــدق عرضه ١٩ متراً وعمقه ٧ أمتار، وذلك بدءً من البرج المربع، في الزاويـــة الشـــمالية ــ الغربية وحتى باب يوشافاط في الشرق. ومن ثم فإنـــه يحـــاذي مجمـــل الخـــط الشـــمالي للأسوار، وهو الخط الأكثر انكشافاً بين جميع الخطوط الأخرى. والحـــال أن بـــرج داود، المقام على كتل هيرودية ضخمة ويفصله عن المدينة خندق، إنما يشمل قلعة القدس، حيـــث يجري تخزين احتياطيات من الحبوب والمياه.

ومخطط القدس في القرن الحادي عشر يتطابق مع مخطط مدينة آيليا كابيتولينـــا فـــي العصر الروماني، والتي بنيت بعد عام ١٣٥ على أنقاض المدينة اليهودية [أورشليم] التـــي هدمها الإمبراطور الروماني يوليوس سيفيروس. والحال أن الـــ *cardo* [المحور]، الـــذي



الشكل ٢٦ – مخطط موقع القبر المقدس. المصدر :

L'Histoire, nº 47

يمتد من باب سانت ايتيان (باب دمشق اليوم) في الشمال إلى باب صهيون في الجنوب، والـ *decumanus* [البوابة الرئيسية للمعسكر الروماني القديم] التي تربط باب داود (باب يافا اليوم) في الغرب بساحة الهيكل وبالباب الذهبي، إنما يتقاطعان بزاوية قائمة في وسط المدينة، ويعيّنان حدود أربعة أحياء رئيسية: ففي الشمال ـــ الغربي، نجد أن حي البطريرك، وفي مركزه القبر المقدس، سوف يصبح بعد عام ١٠٦٣ الحي السكني للمسيحيين؛ وفي الجنوب ـــ الغربي، يضم الحي الأرمني روماً ويهوداً أيضاً؛ وفي الشمال ـــ الشرقي، نجد أن الحي اليهودي سوف يصبح، بعد اختفاء معظم سكانه في عام ١٠٩٩، حياً للسوريان الذين اجتذبهم الملك بودوان الأول إلى المدينة؛ وفي الجنوب ـــ الشرقي، أخيراً، نجد أن حي المسلمين، الذي تم هجره في عام ١٠٩٩، سوف يمتلئ شيئاً فشيئاً بالفرنج، خاصة الصليبيين ذوي الأصول الجرمانية.

تلك هي المدينة التي يكتشفها المشاركون في الحملة الصليبية الأولى، عندما يصلون في ٧ يونيو/ حزيران إلى تل قريب، هو تل النبي صمويل. والحال أن الحصار، الذي جرى فرضه على الفور، سوف يستمر لمدة خمسة أسابيع (٧ يونيو / حزيران ـــ ١٥ يوليو/ تموز). ويكثّفُ المحاصيرون في البداية حشد قواتهم حول القلعة: فأغلبية الفرسان الـ ١٢٠٠ وجنود المشاة الـ ١٢٠٠٠ تتخذ موقعها هناك، تحت قيادة جودفروا البويّوني وريمون السانجيلي وتنكريد وروبير الفلاندري وهيج السانبولي؛ والحال أن قوة صغيرة واحدة فقط، تحت قيادة روبير النورماندي، سوف تنتشر في جهة الشمال، قرب كنيسة سانت ايتيان. وعندما تتكشف الصعوبة القصوى لحصار القلعة، ينقل ريمون السانجيلي رجاله إلى جبل صهيون، بينما تنتشر بقية الجيش من البرج المربع إلى ما وراء باب سانت ايتيان.

ويسمح هجوم ١٣ يونيو/ حزيران بتدمير السور الأمامي، إلاّ أنه يفشل أمام السور الرئيسي، حيث لا يملك الصليبيون غير سلم واحد ولا يملكون أية أداة من أدوات الحصار. على أن تفكيك أخشاب السفن الجنوية التي وصلت إلى يافا سوف يسمح لهم، إعتباراً من ١٥ يونيو/ حزيران، بتركيب برجي حصار عملاقين، من ثلاثة طوابق، حيث ينتصب البرج الأول قرب كنيسة سانت ايتيان، بينما ينتصب البرج الثاني جنوباً قرب كنيسة سانت ـــ ماري جبل صهيون. ويعلن صوم عام وطواف قاده في ٨ يوليو/ تموز رجال الدين حول الأسوار بدء الهجوم الحاسم. ويردم الصليبيون الخندق قرب باب هيرود

ويحركون البرج الأول، مسبوقاً بمنجنيق هائل يدمر السور الخارجي. وبالرغم من قيام المحاصَرين بإطلاق قذائف المنجنيقات وبإلقاء مواد ملتهبة، إلاّ أنه يتسنى نصبُ البرج بمحاذاة السور الرئيسي. وفي ١٥ يوليو/ تموز، يتسنى إرساء جسور عبور صغيرة تربط البرج بالسور، فيندفع رجال جودفروا البويّوني ولودولف وانجلبير دو تورنيه إلى المدينة مجبرين المسلمين على الفرار ثم يقتحمون باب يوشافاط، الذي يتدفق الجيش من خلاله. وفي الجنوب، لا يحالف نجاح كهذا ريمون السانجيلي: فالبرج الذي يستخدمه في الحصار في حكم المحترق؛ ويضطر رجاله إلى استخدام سلالم وحبال لاجتياز السور الذي جلت عنه الحامية الفاطمية. على أنهم يتوصلون إلى الفوز باستسلام القلعة، بينما ينجح تنكريد، باجتيازه ثغرة السور الشمالي، في الاستيلاء على قبة الصخرة. وعلى مدار ستة أيام، تباح المدينة لأعمال السلب والنهب والقتل. ويُباع اليهود الناجون كعبيد. أمّا المسلمون، المطارَدون من بيت إلى بيت، فيجري الإجهاز عليهم في المسجد الأقصى الذي لاذوا به. ولا يصل إلى عسقلان سوى حراس القلعة الذين نالوا الأمان فجرى ترحيلهم.

والحال أن الحياة الجديدة للمدينة، التي صارت فرنجية، إنما تنشأ على أطلال. إن قليلين من الصليبيين هم الذين يبقون، وعددهم بضع آلاف بالكاد. ولذا يتوجب العمل على إحضار مسيحيين سوريين من وراء نهر الأردن، بوعدهم بتقديم أراضٍ لهم، وحث الحجاج على الاستقرار في أملاك الأوسبتالية أو كنيسة القبر المقدس، واجتذاب تجار إيطاليين، وإن كان دون نجاح كبير. وبما أن المدينة عاصمة للمملكة اللاتينية، فإنها تصبح من جديد مأهولة بالسكان، ولكن ببطء؛ ويستقر في المدينة بلاط الملك وأجهزة الحكم وحامية صغيرة؛ وبعد عام ١١٢٠، يجري السماح للمسلمين أيضاً بالعودة. وهكذا، فعلى مدار نحو تسعين سنة، يتسنى الحفاظ بشكل مصطنع على وجود القدس، المدينة المسيحية، لأسباب روحية وسياسية.

ويحتم ولاء المؤمنين الروحي إعادة إعمار وتوسيع الكنائس التي خرّبها الفتح أو طالتها يد الإهمال في زمن سيطرة المسلمين. وهكذا فإن كنيسة القبر المقدس، التي كان البازيليوس قسطنطين التاسع قد رممها جزئياً في عام ١٠٤٨، تصبح كنيسة رومانية جميلة تجمع بين طارمة القبر وصخرة الصلْب والمصلى الذي اكتشفت فيه القديسة هيلانة الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه المسيح. والحال أن عدداً من الرسوم الجدارية والفسيفسائيات وبرج أجراس سوف تشكل استكمالاً للمبنى الذي يتم تكريسه كنسياً في ١٥ يوليو/ تموز ١١٤٩. وفي ساحة الهيكل، تصبح قبة الصخرة هيكل السيد (*Templum*

Domini) الذي يُعهد به إلى كهنة أوغسطينيين، بينما يجري تسليم المسجد الأقصى إلى الهيكليين. ويعاد بناء دار ضيافة الأوسبتالية نحو عام ١١٥٠، وكذلك دير سانت ماري اللاتينية الذي كان الأمالفيون قد أنشأوه في القرن الحادي عشر. وعلى جبل صهيون، في وادي سيدرون (نوتر ـ دام ـ دو ـ يوشافاط، جيتسماني [بستان الزيتون])، وعلى جبل الزيتون، وفي موقع بيت القديس يواقيم والقديسة حنّه (كنيسة القديسة حنّه الرومانية). وفي بيتانيا وفي أماكن مقدسة أخرى قريبة من القدس، يعيد الصليبيون بناء أو يشيدون كنائس وأديرة، بفضل الهبات التي تتدفق من الغرب أو التي يقدمها ملوك وبارونات الدول اللاتينية [الشرقية]. والحال أن القدس، التي قال عنها أحد رفاق صلاح الدين إنها "جنة النعيم"، إنما تعد تعبيراً بصرياً عن إيمان الصليبيين وشهادة عمائرية ضخمة على إخلاصهم لبشرية المسيح.

وبعد انتصار صلاح الدين في حطين، يحاصر القدس في ٢٠ سبتمبر/ أيلول ١١٨٧. وكان قد لجأ إليها كثيرون من المسيحيين الهاربين من زحف جيوش المسلمين في السامرة وفي اليهودية؛ إلاّ أنه لا يوجد بين سكانها الـ ٦٠٠٠٠ غير فارسين وعدد قليل جداً من الرجال المسلحين. ويقبل باليان الإبلانى، الممثل الوحيد للنبلاء الفرنج في المدينة، قيادة الدفاع، شريطة الاعتراف به سيداً عليها. وشأن الصليبيين في عام ١٠٩٩، يحاول صلاح الدين في البداية محاصرة برج داود، ثم ينقل قواته إلى السور الشمالي. وفي اللحظة التي يبدأ فيها نقّابوه في زعزعة السور، في عين الجهة التي كان جودفروا البويّوني قد دخل منها، يقرر البطريرك هرقليوس وأساتذة الجمعيات العسكرية أن يتفاوضوا. ويقبل صلاح الدين أن يفتدي سكان المدينة بعد استسلامها أنفسهم بمبالغ تتراوح بين بيزنطين للطفل وعشرة بيزنطات للرجل. وبعد عد الفرنج واحداً فواحداً، يتسنى لهم مغادرة المدينة، وذلك باستثناء ١٥٠٠٠ من الفقراء غير القادرين على دفع الفدية ومن ثم يجري سوقهم كعبيد إلى مدن المسلمين، أمّا المسيحيون الشرقيون فيُسمح لهم بالبقاء في القدس. واعتباراً من عام ١١٩٢، يصبح دخول كنيسة القبر المقدس متاحاً من جديد للحجاج الغربيين. وفي ربيع عام ١٢١٩، بناءً على أوامر من السلطان المعظم، الذي يخشى من سقوط القدس في أيدي الفرنج، يجري تفكيك حصون المدينة وتفريق سكانها المسلمين. وبعد ذلك بعشر سنوات، وبموجب معاهدة يافا، يسترد الإمبراطور فريدريك الثاني المدينة المقدسة، فيما عدا ساحة الهيكل؛ ويتسنى له إعادة إعمارها بالسكان وتحصينها. وهو نجاح قصير العمر؛ فالمدينة التي أصبحت مسيحية من جديد إنما تصبح شبه مهجورة من جانب الفرنج

وذلك لتعرضها لغارات المسلمين ولهيمنة الحزب الإمبراطوري عليها. ولا يتم بناء غير عدد قليل من الحصون قرب برج داود، من جبل صهيون إلى باب سانت ايتيان.

وهذه الحصون لا تكفي في عام ١٢٣٩ لوقف زحف قوات الناصر داود، أمير الكرك، الذي يهدم القلعة. وبعد ذلك بخمس سنوات، في ٢٣ أغسطس/ آب ١٢٤٤، تقوم القوات الخوارزمية التي دعاها السلطان للتصدي لائتلاف سوريٍ ــ فرنجيٍ، بنهب المدينة وسكانها. وعند رحيل هذه القوات، يحتل ملوك مصر القدس التي تبقى تحت سيطرتهم إلى الفتح العثماني في عام ١٥١٦.

٦-٢-٠ عكا

إن عكا ، وهي مدينة من أقدم المدن (حيث يرد ذكرها في العهد القديم باسم **عكّو** وكانت تدعى **بطليموسة** زمن حكم الإغريق)، سوف يعاد بناؤها، بعد الحروب بين البيزنطيين والعرب، على يد الخليفة معاوية (٦٦٠ ــ ٦٨٠) الذي يمنح المدينة ملمحها الحضري وطُبوغرافيتها اللذين يرثانهما الصليبيون. وكانت عكا قد سقطت في أيدي الفاطميين في مستهل القرن الحادي عشر ثم في أيدي السلاجقة، لكنها ترجع إلى سلطة مصر، قبل وقت قصير من وصول الحملة الصليبية الأولى.

ففي يوليو/ تموز ١١٠٠، يحاول الفرنج، تحت قيادة تنكريد، الاستيلاء على المدينة. ويوقف موت جودفروا البويّوني هذا المشروع. وفي مارس/ أذار ١١٠٣، يُمنى الحصار الأول لعكا بالفشل، نظراً لعدم وجود مراكب. وفي العام التالي، تؤدي المساعدة التي يقدمها أسطول جنوي إلى نجاح الحصار الثاني: فتستسلم المدينة في ٢٦مايو/ أيار ١١٠٤، وتصبح جنوة أول قوة غربية تحصل فيها على إمتياز حيازة أحد الأحياء وعلى امتيازات قضائية وتجارية. وتحصل الكومينات الأخرى على إمتيازات مساوية، وهو ما يحدث مع مارسيليا في عام ١١١٥ والبندقية في عام ١١٢٤ وبيزا في عام ١١٦٨. وخلال القرن الثاني عشر، تصبح عكا الميناء الدائم لأسطول مملكة القدس والمرفأ الذي ترسو فيه السفن القادمة من الغرب. وهي أيضاً مدينة ملكية، فهي العاصمة الثانية للمملكة، بعد القدس؛ وغالباً ما تقضي العائلة الملكية الشتاء فيها. وفي هذه المدينة أيضاً، تتركز قوات اللاتين المسلحة: ففي يونيو/ حزيران ١١٨٧، يجري تجميع القوات هناك قبيل خروجها إلى ساحة معركة حطين. وعلى أثر انتصار صلاح الدين، يحصل السكان

في ٩ يوليو/ تموز ١١٨٧ على "أمان"، معاهدة استسلام، ويرحلون عن المدينة في صباح اليوم التالي. ويقيم صلاح الدين، ثم الوالي المسلم، في قصر فرسان الهيكل.

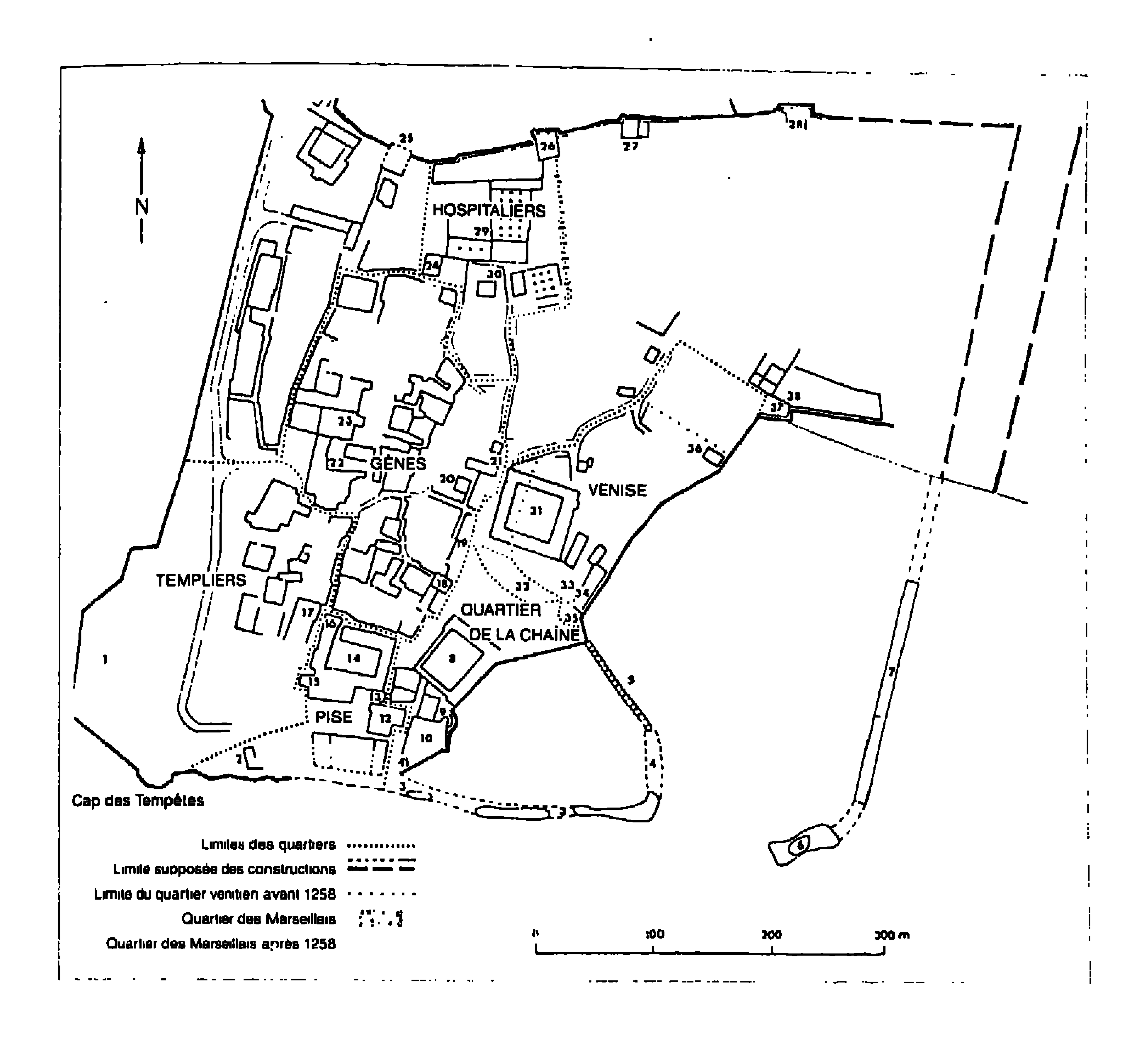
وبعد ذلك بعامين يتولى جي دو لوزينيان، الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه، قيادة جيشه أمام عكا و، بمساعدة الهيكليين والأوسبتاليين، يبدأ حصار المدينة، من تل فوخاذ، وهو رابية جد قريبة. ومع أن القوات الفرنجية تتعرض بدورها للحصار من جانب قوات صلاح الدين، إلاّ أنها تصمد وتخوض حرب مواقع، مع قيامها بغارات جسورة. وفي عام ١١٩٠، تفرض حصاراً منظماً. لكن وصول تعزيزات (هنري دو شامبانيا وفردريك، دوق شوابيا)، ثم وصول قوات الحملة الصليبية الثالثة في ربيع عام ١١٩١، هو وحده الذي يرغم المدينة على الاستسلام في ١٢ يوليو/ تموز ١١٩١. وعندئذ يصبح دورها رئيسياً في مملكة لاتينية ممزقة ومختزلة إلى مجرد شريط ساحلي: وهكذا تصبح عكا العاصمة الفعلية والمركز الإقتصادي لفلسطين الفرنجية، حيث تعاود الكومينات الإيطالية الاستقرار فيها. وينمو سكانها ويتجاوزون السور وينشئون في الشمال ضاحية مونميسار التي لا يجري تحصينها إلاّ بعد عام ١٢٥٠، خلال إقامة القديس لويس [لويس التاسع].

لكن المدينة منقسمة انقساماً عميقاً، " إنها وحش لـه تسع رؤوس، كل رأس تقاتل الأخرى"، كما يصفها أسقفها جاك دو فيتري. ففي حمى حصونها ودفاعاتها الطبيعية التي تشكل الخط الساحلي، تنقسم المدينة إلى أحياء تكاد تكون كلها محصنة في القرن الثالث عشر، وذلك من جرّاء الصراعات المتصلة فيما بين الكومينات الإيطالية. وتمتد أحياء الكومينات من الغرب إلى الشرق حول الميناء. فالجنويون يقيمون في أوسع حي، لكنه بلا منفذ مباشر على الميناء. وشارع السوق يفصلهم عن البنادقة، الذين ينتظم حيهم حول فندق متراميَ الأطراف، هو في آن واحد نزل ومخزن وسوق. أمّا البيازنة فلهم حي صغير في جنوب حي الجنويين، الذين تفصلهم عنهم أسوار وأبراج قوية. ويقيم البروفانسيون حول كنيسة سانت ماري. أمّا المجموعة السكانية الثانية فهي تتألف من الجمعيات العسكرية. وهكذا يحصل فرسان الهيكل على القلعة القديمة في جنوب ــ غربي المدينة. بينما يملك الأوسبتاليون أوسع أحياء عكا في شمالي المدينة، على مسافة جد قريبة من الحي الجنوي: إن الجران مانير، مقر الأستاذ الأكبر، وقاعة تناول الوجبات ودار الضيافة والفوت (Vote)، وهو محل واسع، ماتزال تشهد إلى اليوم على قوة الجمعية. ولكن من التيوتون والبطريرك زمام في الجزء الشمالي ــ الشرقي من المدينة حول

كاتدرائية الصليب المقدس. وكل ماعدا ذلك ملك للملك أو لأفراد: إقليم القلعة في الشمال والمبنى الجمركي المخصص للأهالي، ثم أحياء الميناء.

والواقع أن عكا هي أفضل مرسى في مجمل الساحل الشرقي للبحر المتوسط. فالمرفأ مفتوح في جميع الفصول وفي كافة الأوقات، لأنه محمي من الشمال والغرب والشرق بفضل التضاريس الطبيعية ومحمي من الجنوب بفضل الأرصفة التي أقامها العرب. ولذا يمكن فهم السبب في أنه قد شكل المحطة النهائية لطريق القوافل الذي يجتاز الشرق الأدنى والوجهة شبه الإلزامية لجميع الأساطيل الغربية، أكانت أساطيل التجار الإيطاليين أم الحجاج أم " الرحلات إلى ما وراء البحر". والواقع أن الميناء مزدوج: فمدخل الميناء الخارجي يسيطر عليه برج الذباب، ومدخل الميناء الداخلي تسيطر عليه سلسلة. وعلى طول المدخل الأول يتطور حي السلسلة، العامر بالمحال وبالمستودعات والذي توجد فيه الترسانة الملكية؛ وفي وسط المدخل الثاني، توجد كورية السلسلة التي هي في أن واحد جمرك ومحكمة عدل مختصة بالشئون البحرية، وإن كانت تفقد شيئاً فشيئاً كل نفوذ لها، وذلك بسبب الإعفاءات الكثيرة التي يتمتع بها المنحدرون من الكومينات الغربية.

وخلال القرن الثالث عشر، تصبح المدينة حلبة للتنافسات فيما بين مختلف جماعاتها السكانية. والحال أن سيطرة الكومينات الإيطالية التي تمثل المدينة بالنسبة لها مستودعاً ذا أهمية من الدرجة الأولى إنما تعد سيطرة عظيمة بحيث إن ما يحدد إيقاع الحياة السياسية في عكا هو النزاعات فيما بين البيازنة والجنويين والبنادقة. وفي عام ١٢٢٨، يهاجم البيازنة الحي الجنوي. وفي عام ١٢٥٦، تنشب بين الجنويين والبنادقة الحرب المسماة بحرب سان ساباس؛ وفي ختامها، يجري طرد الجنويين من عكا وهدم قصورهم على أيدي خصومهم. ثم إن هذه النزاعات تتدخل مع صراعات العشائر البارونية. وفي أبريل/ نيسان ١٢٢٩، يحرّك البطريرك جيرولد وقادة الجمعيات العسكرية والإبلان السكان ضد فريدريك الثاني الذي تجاسر، بالرغم من حرمانه كنسياً، على لبس تاج ملك القدس. وفي عام ١٢٣١، يضطر الوصي الإمبراطوري فيلا نجييري إلى مواجهة كومينة أقامها النبلاء تحت قيادة عشيرة الإبلان ضد الحزب الإمبراطوري. وعلى مدار أكثر من عقد من الزمان، يسيطر الإبلانُ على عكا، بينما يستقر الحزب الإمبراطوري في صور؛ والحال أن عاصمة المملكة لا تعود غير المدينة الرئيسية لدولة منقسمة ولمملكة دون ملك أو لجمهورية أرستقراطية بلا رئيس.



الشكل ٢٧ – مخطط عكا قبل حرب سان ساباس، ١٢٥٦ – ١٢٥٨ .

وتؤدي هذه النزاعات إلى إضعاف المدينة. وبعد عام ١٢٦٠، تبدأ هجمـات المماليك الأولى، بينما تدور رحى الصراع على أشلاء المملكة بين آل لوزينيان الذين يحكمون قبرص والآنجويين. وتؤدي هُدَنٌ مديدة (١٢٧٤ ــ ١٢٨٢) إلى تأجيل النهاية. والحال أن السلطان قلاوون، الذي يتمكن من الاستيلاء على طرابلس (١٢٨٩) إنما يقضي نحبه قبل أن يتسنى له حصار عكا. وفي ربيع عام ١٢٩١، يحشد ابنه الأشرف خليل جيشاً مصرياً وسورياً قوياً. ويحمل هذا الجيش عدداً من آلات الحصار ويتخذ مواقع أمام المدينة في ٥أبريل/ نيسان. وتُمنى بالفشل محاولات المحاصَرين شن غارات. وتشرع منجنيقات المسلمين بقصف المدينة، بينما ينكبُّ النقابون على تطبيق فنهم على أضعف نقاط الدفاع، أي الزاوية الشمالية ــ الشرقية. وفي ١٨ مايو/ آيار، يصدر السلطان أمره بشن الهجوم الشامل. وفي غضون بضع ساعات، تجتاح الموجة المملوكية المدينة. وينجح بعض الهاربين في الوصول عن طريق البحر إلى قبرص أو إلى أرمينيا الصغرى. بينما يجري ذبح غالبية السكان ولا تعود المدينة غير مجرد أطلال. والحال أن سقوط عكا في ١٨ مايو/ آيار ١٢٩١، والذي تلاه استسلام آخر المدن والحصون التي كانت ماتزال بأيدي اللاتين، إنما ينهي قرنين من الاستيطان الغربي في سوريا ــ فلسطين.

وليم الصوري يحلل أسباب نجاحات صلاح الدين

ولد وليم الصوري نحو عام ١١٣٠، وقد أجرى دراسات في اللاهوت والقانون في باريس وفي بولونيا [بإيطاليا]. وعندما عاد إلى مملكة القدس في عام ١١٦٥، تولى الوصاية التربوية على الحدث بودوان الذي سيصبح فيما بعد الملك بودوان الرابع. وقد عُيّن مستشاراً لمملكة القدس في عام ١١٧٤ ثم أصبح أسقف صور في العام التالي. وكان وليم الصوري شاهداً على جميع الأحداث التي أثرت على الدولة اللاتينية بين عامي ١١٦٥ و١١٨٦، وخاصة على النجاحات التي أحرزها نور الدين وصلاح الدين. وقد حرّرَ بناء على طلب من الملك آموري الأول (مات في عام ١١٧٤) مدونة أخبار هي المصدر الرئيسي لمعارفنا عن الشرق اللاتيني قبل عام ١١٨٤. وهو يُرجع نجاحات صلاح الدين إلى ثلاثة أسباب: خطايا المسيحيين الذين شاء الرب معاقبتهم، وتوقف التدريب على استخدام السلاح خلال فترات السلم التي عرفتها مملكة القدس، ثم بالأخص وحدة العالم الإسلامي التي تمكن الزنكيون من تدشينها:

أرجو السماح لي بالتوقف قليلاً عن سرد أحداث التاريخ، لا لكي أخبط خبط عشواء بلا مرام، وإنما لكي أتحدث عن أمر ليس عديم الثمار. إذ غالباً ما يثار السؤال، ويبدو أنه يثار بشكل مشروع، حول السبب في صمود آبائنا المتميز، مع كونهم أقل عدداً، لهجوم أعدائنا الأوفر قوة، وإجهازهم على جموعهم الغفيرة بقوات متواضعة ..

عندما ننظر في حالتنا ونناقشها باهتمام، يظهر لنا سبب أول، مرده إلى الرب مدبر كل شيء، فمحل آبائنا الذين كانوا متدينين ويخشون الرب، حل أبناء طائشون، أبناء فاسقون، خارجون على الدين المسيحي، يسارعون على غير هدى ودون تبصر إلى كل ما هو محرّم، كالأشرار الذين يقولون للرب سيدهم: " ابتعد عنّا، نحن لا نريد سبل معرفتك". وهكذا يسحب السيد نعمته، وقد تملكه الغضب، محقاً في ذلك وبسبب ما توجبه خطاياهم. أولئك هم رجال عصرنا، خاصة من يحيون منهم في الشرق. ومن يحاول أن يتتبع بريشته المثابرة عاداتهم، أو بالأحرى فظاعة رذائلهم، سوف يئن تحت جسامة المادة وينتقل بالأحرى إلى الهجاء ممّا إلى كتابة التاريخ. ويلوح لنا سبب ثان: هو أنه في الزمن المنصرم، عندما كان أولئك الرجال المبجلون المهتدون بحماسة ربانية والمفعمون في أعماقهم بإيمان متقد يتصدرون النزول إلى الأقاليم الشرقية، كانوا معتادين على الانضباط الحربي ومدربين على القتال وعليمين باستخدام السلاح. وخلافاً لذلك، فإن

الشعب الشرقي [اللاتيني] الذي تراخت عزيمته من جرّاء سلمٍ مديد، وغير المسلح، وعديم الخبرة في أصول القتال، قد عاش في فراغ. وهذا هو السبب في أنه لا يجب الاستغراب من أن عدداً قليلاً قد صمد لعدد أوفر صموداً أسهل أو أنه بعد فوزه، صارت له اليد العليا في أحداث الحرب ..

ويُفرض علينا من جديد سبب ثالث أيضاً، ليس أهون ولا أقل فعالية: هو أنه في الأزمنة السابقة كان لجميع المدن سادة مختلفون بحيث إنها، إذا ما تكلمنا بأسلوب أستاذنا أرسطو، لم تكن في وضعٍ تابعٍ ونادراً ما كانت ولاءاتها واحدة، بل كانت في الأغلب متناقضة. وكان يجري شن الحرب، دون خطر يذكر، ضد من كانت ثقافتها مختلفة، بحيث إنها غالباً ما كانت تخاف إحداها الأخرى. والحال أنها، لأجل دفع الأخطار المشتركة، لم تكن قادرة بسهولة على الاتحاد أول لم تكن تريده. وأولئك الذين كانوا يخافون بني ملتهم بأكثر من خوفهم منّا قلما حملوا السلاح سعيًا إلى القضاء علينا. لكن الممالك المتاخمة لنا أصبحت الآن، ولا رادَّ لمشيئة الرب، تحت سلطة واحدة. وذلك لأنه في الماضي القريب قام رجل بالغ التوحش يمقت الاسم المسيحي مقته للطاعون، وهو زنكي، أب نور الدين[١] ذاك الذي مات مؤخراً، قام باحتلال ممالك أخرى بالقوة، وهذا في ذاكرتنا، ثم احتل بالقوة راجيس الجميلة وحاضرة الميديين الشريفة، والتي تعرف أيضاً بايدسّه [الرُها] حتى حدودها، بعد أن قتل جميع المؤمنين الذين كانوا داخلها. وكذلك الحال مع ابنه، نور الدين، الذي، بعد أن طرد ملك دمشق، بفضل خيانة جماعة [الأخير] له لا بفضل جنوده هو، إدعى لنفسه الحق في هذه المملكة وضمها إلى ما ورث عن أبيه من ممتلكات. ومؤخراً جداً، قام نور الدين هذا نفسه، بمساعدة من شيركوه[٢] وبدهاء منه، بإخضاع مملكة مصر العريقة والثرية، كما سبق لنا شرح ذلك بإسهاب عند كلامنا عن عهد السيد أموري[٣]. وهكذا، كما سبق لنا القول، فإن جميع الممالك المجاورة أصبحت تخضع لسلطة رجل واحد وتأتمر بأمر رجل واحد، حتى وإن كان على كره منها، وتحمل السلاح وتتحرك كرجل واحد مستجيبة لنداء رجل واحد لإيقاع الأذى بنا: فلا أحد من بين رجالها تستحوذ عليه ولاءات مختلفة ولا أحد يخرج على أوامر سيده دون عقاب. وكل هذا إنما يملكه صلاح الدين[٤] بالكامل، صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً. وهو رجل من منبت متواضع، رجل كان رقيق الحال، ابتسم له الحظ فيما بعد أيمّا ابتسام. فهو يملك وفرة من الذهب بالغ النقاء، والمسمى بالابريز، الذي يجئ من مصر ومن البلدان المتاخمة لها،

ويجئ إليه من ولايات أخرى فرسان مقاتلون وقوات لا حصر لها متعطشة إلى الذهب، فمن أيسر الأمور حشد مثل هذه القوات عندما يكون المرء حائزاً لوفرة من الذهب.

المصدر:

Guillaume de Tyr, *Chronica*, ed.
R.B.C. Huygens, 2 vol.,
Turnhout 1986, t. 2, p. 969 - 97

١ـ نور الدين (١١١٨ ـ ١١٧٤)، ابن زنكي، يرث عند موت أبيه إمارة حلب، ويستولي على دمشق في عام ١١٥٤ ويخوض النضال ضد الفرنج، في روح جهاد. وتشهد أواخر عهده الحملات الثلاث التي يرسلها إلى مصر ضد اللاتين الذين يحاولون الاستيلاء على البلد الذي يُعتبر "مفتاح فلسطين".

٢ـ مساعد كردي لنور الدين وعم لصلاح الدين.

٣ـ أموري الأول، ملك القدس (١١٦٣ ـ ١١٧٤).

٤ـ إن صلاح الدين، وهو ابن ضابط كردي اسمه أيوب، إنما يصاحب شيركوه إلى مصر، ويصبح وزيراً لها في عام ١١٦٩، ثم يصبح مؤسساً لأسرة الأيوبيين الحاكمة الجديدة في عام ١١٧١، عند موت آخر خليفة فاطمي.

الفصل السادس
تتابُعُ الحملات الصليبية

٠١ الحملة الصليبية الثانية (١١٤٥ ــ ١١٤٨)

١-٠١ أصلها والدعوة إليها

تسمي الكتابةُ التاريخيةُ التقليديةُ الحملاتِ التي قام بها إلى الشرق لويس السابع، ملك فرنسا، والإمبراطور الجرماني كونراد الثالث، بتحريض من البابوية ومن سان برنار، بالحملة الصليبية الثانية. وذلك بالرغم من أنه بين عامي ١٠٩٩ و١١٤٧ كانت قوات أخرى عديدة قد شقت الطريق إلى الأرض المقدسة، على أثر الحملة الصليبية الأولى.

وكانت العقود الثلاثة الأولى للقرن الثاني عشر هي عقود التوسع الفرنجي في سوريا ــ فلسطين. أمّا ثلاثينيات القرن الثاني عشر فقد شهدت بالمقابل يقظة الإسلام. ففكرة الجهاد، التي جرت الدعوة إليها في المساجد، قد عبرت عن نفسها في أبحاث وفي كراسات، ولقيت تأييداً شعبياً حقيقياً. وقد استغلها زنكي، والي الموصل (١١٢٧ ــ ١١٤٦)، الذي يسعى إلى مد سلطة السلطان السلجوقي ــ سلطته هو في واقع الأمر ــ إلى إمارات سوريا وبلاد الرافدين. وهو يستولي على حلب، وعلى أقاليم فرنجية إلى الشرق من نهر العاصي، ويهدد كونتية طرابلس ومدينة دمشق، ويستغل الخلافات بين الفرنج والبيزنطيين على أنطاكية، وبين ريمون دو بواتييه، أمير أنطاكية، وجوسلان الثاني، أمير الرُّها، لكي يوسّع مجال نفوذه. وفي ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٤، يدخل الرُّها، بعد حصار لها دام شهراً. وهكذا تسقط في أيدي المسلمين عاصمة أول إمارة أسسها الفرنج.

ويجد سقوط الرُّها صدى واسعاً في الغرب. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٤٥، تصل سفارة لاتينية ووفد من أرمن الشرق لإجراء محادثات مع الكورية البابوية. وفي أول ديسمبر/ كانون الثاني ١١٤٥، يصدر البابا أوجينيوس الثالث مرسوماً داعياً المسيحيين إلى الحملة الصليبية، لاسترداد الرُّها وللثأر للدين الحق؛ وهو يتوجه بالخطاب في المقام الأول إلى النبلاء الفرنسيين وملكهم لويس السابع، ويمنح المشاركين وفرة من

الامتيازات المادية والروحية بموجب المرسوم الصادر تحت عنوان *Quantum Praedecessores* [قَدْرَ الأسلاف] (أول ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٥). وبتكليف شرعي من البابوية، يقوم سان برنار، وهو أكبر حجة روحية في ذلك العصر، بتأمين الدعوة معتمداً على قوة بلاغة نادرة. وينظم سان برنار حملة حقيقية؛ فهو يرسل رسائل، ثم يرسل دعاة متأثرين به، وينتقل بشخصه من مكان إلى آخر لكي يقوم بالدعوة في المراكز الحضرية الكبرى أو في بلاطات الأمراء. وبالرغم من إدراك برنار للمخاطر التي تتهدد مستقبل القدس، إلاَّ أنه يرى في الحملة الصليبية علاجاً يصفه الرب للبشر، وطريقاً إلى الخلاص. والإعداد الروحي مهم قبل ماعداه؛ والمشاركة الجسدية في الحملة إنما تشرك الإنسان الخاطئ في آلام المسيح من أجل خلاص البشر. وهذه الأفكار التي تتميّز بسمو روحي عظيم، إنما يطورها الداعية ببلاغة مشبوبة العواطف تحفز من يستمعون إليها إلى تناول الصليب. وهو يؤثر تأثيراً عميقاً على الدعوات التالية إلى الحملات الصليبية.

والواقع أن الرجل هو الذي أقنع ملكين بتناول الصليب. ففي بورج أولاً (عيد الميلاد، ١١٤٥)، ثم في فيزليه (عيد القيامة، ١١٤٦)، يقرر الملك من آل كابيه الرحيل، جاراً معه أكابر المملكة. وتتجاوز دعوة سان برنار الأهداف البابوية؛ فبينما ارتأى أوجينيوس الثالث حملةً يقودها النبلاء الفرنسيون، يدعو الراهب السيسترسي إلى الحملة الصليبية بوصفها طريق خلاص يصفه الرب للخاطئين، بوصفها سنة يوبيلية لإسقاط الديون وللعفو عن الخطايا. وهو يحض على التوبة والندم: فهو يوقظ بشكل ما الحماسة الروحية التي ميزت الحملة الصليبية الأولى. وحملته الدعائية تقوده إلى الفلاندر وإلى اللورين، ثم إلى الإمبراطورية [الرومانية المقدسة]، حيث يصطدم بسيسترسي آخر، هو الراهب رودولف، الذي يحرض المسيحيين ضد الجاليات اليهودية. وتتكرر مشاهد مماثلة لمشاهد عام ١٠٩٦ في وِرمس وماينس وستراسبورج وفورتسبورج. وهو ينجح في تهدئة سخط الجماهير على اليهود كما في تهدئة الخلافات بين الفيلفيين والإمبراطور، ثم ينجح في إقناع الأخير بتناول الصليب (٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٦). ويتجاوز نجاحُهُ كلَّ التوقعات: إن إناساً من شتى المراتب الاجتماعية، في فيزليه كما في الإمبراطورية، منفعلين بدعوته، يقصون صلباناً من قطع القماش، ويتخلون عن كل شيء للَّحاق بنقاط تجمع الجيش. وبالرغم من كل شيء، وحرصاً على الكفاءة التقنية، يفرض سان برنار حملة صليبية تكون حملة أكابر، مع إدانة المحاربين الذين لا يفكرون، عند رحيلهم، إلاَّ في العودة.

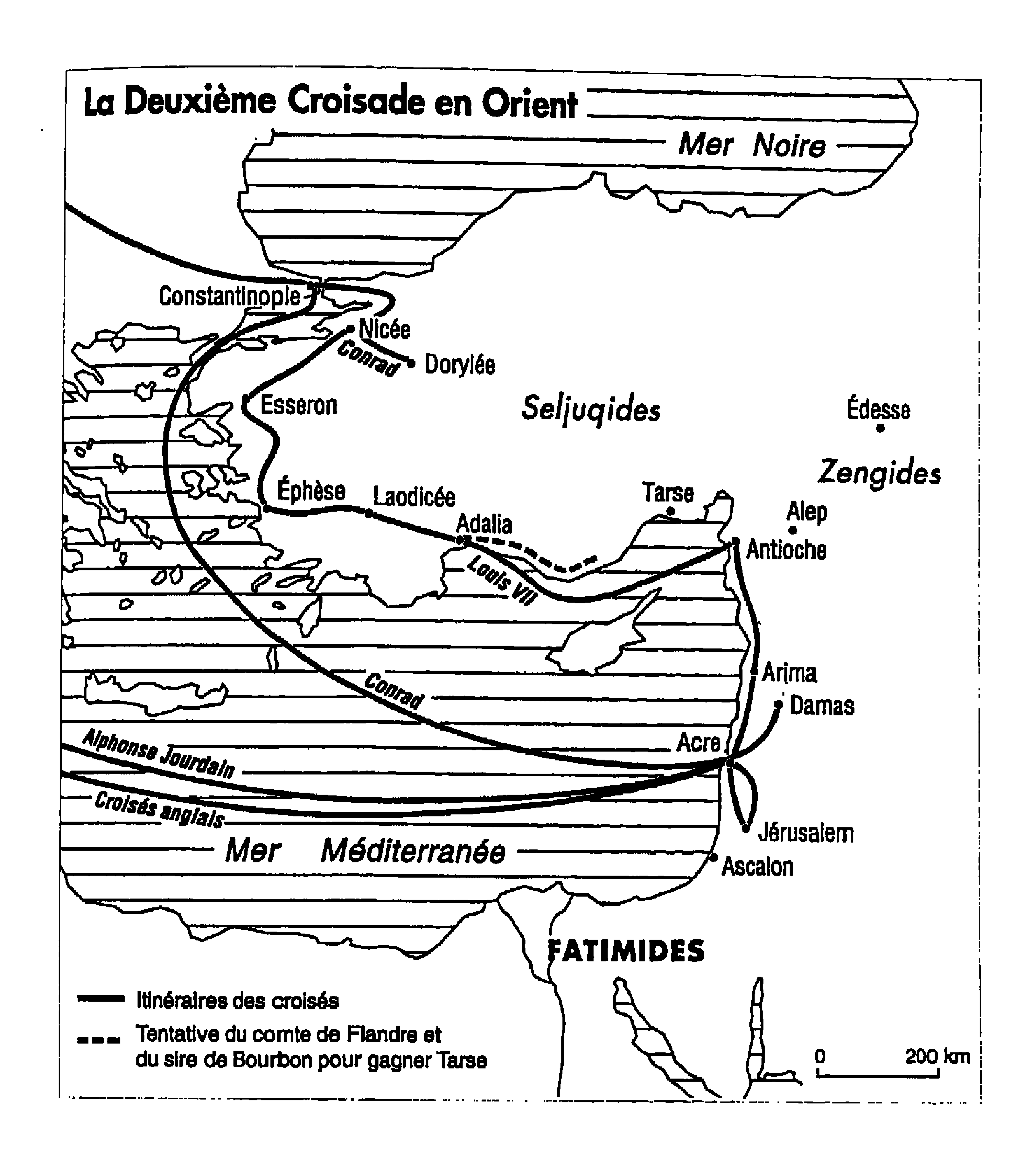
١-٢-٠ التجنيد والأعداد

تاريخ الحملة الصليبية الثانية معروف لنا بالأخص من الراوية التي يقدمها لها أودو الديلي، راهب دير سان دوني وقس لويس السابع الخاص خلال الحملة الصليبية من عام ١١٤٧ إلى عام ١١٤٩. ولدى عودته إلى فرنسا، يكلفه سوجر، رئيس دير سان دوني بإصلاح دير سان كورنيل دو كومبينيه. وفي عام ١١٥١، يجري انتخابه خليفة لسوجر؛ وخلال رئاسته للدير، يتعرض للإتهام بإرتكاب جريمة قتل وبإختلاس ممتلكات الكنيسة؛ وفي سعيه إلى الدفاع عن نفسه، يلقى مساندة من سان برنار ومن البابا أنستاشيوس الرابع. وهو يموت في عام ١١٦٢، دون أن يكون قد لعب دوراً سياسياً يضاهي دور سلفه.

والحال أن كتابه الذي يحمل عنوان: *De Profectione Ludovici VII in Orientem* [عن رحلة لويس السابع إلى الشرق]، إنما يقدم رواية للحملة الصليبية التي قام بها ال كابيه، وخاصة لأعمال الملك، الذي يجري الثناء عليه لحكمته ولشجاعته. وهذا السرد، الذي كُتبَ دَفْعَةً واحدةً خلال الأسابيع السابقة على الهجوم على دمشق (صيف ١١٤٨)، هو سرد رشيق، جيد التأليف وجيد الدراية، وذلك بفضل مشاركة الكاتب في مجلس الملك. والحال أن أودو الديلي، الذي انبهر بجمال القسطنطينية، يتقاسم مع ذلك نفور الجيش من الروم. وكتابه وثيقة رئيسية بالنسبة لتاريخ الحملة الصليبية الثانية وبالنسبة لدراسة تطور الشعور المعادي للروم بين الغربيين.

ووفقاً لهذا السرد، تضم الحملة الصليبية جانباً كبيراً من الفرسان الفرنسيين في جيش لويس السابع ونخبة نبلاء الإمبراطورية في جيش كونراد الثالث. لكننا نجهل عددهم كما نجهل عدد جنود المشاة.

ويطرح تمويل الحملة مشكلات ضخمة. فلكي يتمكن لويس السابع من هذا التمويل، لا يمكنه الاكتفاء بموارده المعتادة. ومن ثم فإنه يضغط على كنائس الزمام الملكي ويساوم بتشدد على الإكتتابات التي يطلبها منها. كما أنه يطلب عوناً من أتباعه.



الشكل ٢٨ – الحملة الصليبية الثانية فى الشرق. المصدر :
J.RICHARD, Histoire des Croisades, éd. Fayard, Paris, 1996

١-٣٠ ملكان على رأس الحملة الصليبية

١-٣-١٠ لويس السابع

هل كان حاجاً راغباً بالأخص في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، أم قائداً لجيش من الصليبيين يريد الثأر للجماعة المسيحية من ضياع الرُها ؟ لقد تباينت تقديرات المؤرخين لمشاركة الملك من آل كابيه في الحملة الصليبية الثانية.

على أن أمرين لاشك أنهما قد دفعا الملك إلى القيام بالحج إلى القدس. ففي عام ١١٤٢، خلال حرب خيضت ضد تيبو دو بلوا ـ شامبانيا، قامت القوات الملكية بإحراق كنيسة فيتري؛ وقد هلك في ذلك الحادث نحو ١٣٠٠ إنسان. ويقال إن الملك قد شعر بتبكيت عظيم للضمير بسبب هذه المأساة التي أحسَّ أنه مسئول عنها. وكان لويس السابع قد عارض في العام السابق انتخاب بيير دو لاشاتر كأسقف لبورج وأقسم دون تروٍ بألاّ يسمح أبداً لهذا الشخص، الذي يؤيده كونت شامبانيا والبابا اينوشنتيوس الثالث، بالجلوس على الكرسي الأسقفي. وقد أصدر البابا منعاً كنسياً لم يلغ إلاّ في عام ١١٤٤، على أثر وساطة من سوجر، أسقف دير سان دوني ومن سان برنار. ويكتسب هذا الأخير نفوذاً عظيماً على الملك والملكة وقد تمكن من حث لويس السابع على زيارة القدس حاجاً، وهي خطوة لم يتمكن لا والد ولا أخ الملك من القيام بها، مع أنهما كانا قد قدّما وعد المشاركة في الحملة الصليبية. ويفصح الملك عن مشروعه للبابا أوجينيوس الثالث، الذي يؤدي مرسومه *"Quantum Praedecessores"* (أول ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٥)، والموجه إلى لويس السابع وإلى أكابر المملكة، إلى تشجيع العزم الملكي. ومن ثم فإن نبأ سقوط الرُها ليس غير ذريعة تحوّل خطوةً تكفيريةً يقوم بها الملك إلى حملة صليبية.

وخلال الحملة الصليبية (١١٤٧ ـ ١١٤٩)، يظل لويس السابع مخلصاً لنذره كحاج. ففي القسطنطينية، يرفض أن يتحول إلى قائد حربي لحصار المدينة ولمعاقبة غدر الروم، الذي يُشَهّرُ به عدد من أكابر جيشه. وهو، على العكس من ذلك، يقوم بزيارة تَقَوِيةٍ إلى مزارات العاصمة التي يرافقه اليها البازيليوس مانويل الأول كومنينوس.

وخلال إجتياز آسيا الصغرى، وبعيداً عن أن يبدو كقائد عام لجيش، يُبدي قدراً من السلبية ويترك المبادرة للأكابر. والمواجهات مع الأتراك تبدو له بمثابة ملمات مألوفة يواجهها الحجاج، كما يبدو له الزحف على أضاليا مشاركة في آلام المسيح. وفي أنطاكية، يدخل لويس السابع في نزاع من الأمير ريمون دو بواتييه؛ وهناك من يميل إلى أن يرى

في ذلك النزاع ملمحاً للغيرة، بسبب العلاقات بين آلينور داكيتين [زوجة الملك الفرنسي] وعمها [أمير أنطاكية]. أمّا واقع الأمر فهو أن الملك يؤكد في مواجهة أمير أنطاكية، الذي يريد استخدام الصليبيين في حملة ضد حلب، عزمه على القيام قبل كل شيء بحج إلى الأماكن المقدسة وألاّ تحوله عن القدس حملة تسعى إلى تعزيز مكانة إمارة أنطاكية في الإقليم.

ويصل لويس السابع إلى القدس في مايو/ آيار ١١٤٨. وبدلاً من أن ينسق مع كونراد الثالث والأمراء الألمان الذين سبقوه إلى المدينة المقدسة، لتحديد هدف عسكري، يقضي الملك عدة أسابيع في زيارة المزارات. ولا يُتّخَذُ قرار الهجوم على دمشق إلاّ في أواخر يونيو/ حزيران، خلال اجتماع للكورية العليا في عكا. وخلال الحملة الفاشلة التي تحسم إخفاق الحملة الصليبية، يبدو أن لويس السابع قد اتخذ موقفاً سلبياً: ومن المؤكد أنه قد جرى الرجوع إليه لاستشارته، لكن المبادرة بالعمليات كانت من اختصاص كونراد الثالث وملك القدس، بودوان الثالث. والكارثة لا تلطخ سمعة الملك من آل كابيه؛ على العكس، إن إقامته المديدة في الأرض المقدسة إلى ربيع ١١٤٩، ونسكه وعبادته في الأماكن المقدسة، وخاصة في بيت لحم، مدينة المهد والملك داود، وصدقاته العديدة، إنما تزيد من هيبته وتجعل منه "داوداً جديداً "، حاجاً مهتماً قبل كل شيء بأداء فرائضه الروحية.

وكما حدث مع القديس لويس [لويس التاسع] بعد قرن من ذلك، تصبح إخفاقات الملك حسنات. وتخلع الحملة الصليبية على الملك من آل كابيه صورة ملكية جديدة تستفيد منها أسرته الحاكمة كلها.

١-٣-٢ ، كونراد الثالث

لا يقرر الإمبراطور الجرماني بحماسةٍ الخروج من أجل الحملة الصليبية، على أثر دعوة سان برنار في فرانكفورت ثم في ريخستاج شبيير (نوفمبر/ تشرين الثاني – ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٦). على أن هدنة معقودة مع عدوه القديم، الدوق فيلف السادس، وتهدئة نزاع بين كونت نامور وكبير أساقفة تريف، بفضل سان برنار، تدفعانه إلى تناول الصليب في ٢٧ ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٦. ويحذو حذوه جانب كبير من النبلاء الألمان، باستثناء أمراء ساكس الذين يقررون خوض حملتهم الصليبية الخاصة ضد الفيند [سلاف ألمانيا]، على أطراف الإمبراطورية.

وتتجمع القوات في راتيسبون [ريجينسبورج في بافاريا] في أبريل/ نيسان ١١٤٧ وتأخذ عبر المجر والأراضي البيزنطية الطريق البري المعتاد إلى القسطنطينية التي تصل إلى مشارفها في سبتمبر/ أيلول ١١٤٧. ولا يتمكن كونراد الثالث من منع الخسائر التي يحدثها الجنود غير النظاميين والنهابون. وهو يرفض حَلْفَ يمين الولاء الذي يعرضه عليه البازيليوس ثم ينتقل إلى آسيا الصغري، عند إعلان قرب وصول القوات الفرنسية. ودون أن ينتظر هذه القوات، يقوم بتقسيم جيشه إلى فرقتين يُلحِقُ بهما السلاجقةُ هزيمةً قاسيةً في آسيا الصغرى. ويصل الناجون إلى سوريا عن طريق البحر. بينما لا يصل إليها كونراد إلاَّ في أبريل/ نيسان ١١٤٨.

وفي اجتماع عقد في عكا في يونيو/ حزيران، يقنع كونراد لويس السابع بالتخلي عن مهاجمة الرُّها، هدف الحملة، وبقيادة قواتهما المشتركة ضد دمشق. ويفشل المشروع فشلاً ذريعاً؛ ومن جهة أخرى، يدفع الهجومُ الغربي سكان دمشق إلى أن يقبلوا بعد ذلك ببضع سنوات حماية نور الدين لهم. واعتباراً من ٨ سبتمبر/ أيلول، يغادر كونراد الثالث الأرض المقدسة، وعلى طريق العودة، يعقد مع مانويل الأول كومنينوس حلفاً موجهاً ضد النورمان. والحال أن فشل الجيش الجرماني وفشل قائده سوف يؤديان إلى تأجيل طويل الأمد للمشاريع الجديدة للحملات الصليبية وسوف يستثيران الشعور بالمرارة وبالنقمة في الغرب.

١ – ٤ ، الحملة

وهكذا فإن ملكين بارزين سوف يقودان الحملة، ولكن على رأس قوتين منفصلتين. والجيش الألماني هو الذي يبدأ بالرحيل، في أبريل/ نيسان ١١٤٧، ويسلك طريق الحملة الصليبية الأولى، عبر راتيسبون [ريجينسبورج] وطريقِ الدانوب، ثم يجتاز البلقان. ومع أن القوات تحصل على مؤن من السلطات البيزنطية، إلاَّ أنها تنحل وتصطدم بقوات البازيليوس الذي عمل منذ وصول القوات الألمانية تحت أسوار القسطنطينية (سبتمبر/ أيلول ١١٤٧) على نقلها بسرعة إلى الضفة الآسيوية. ويغادر الجيش الفرنسي متز في يونيو/ حزيران ١١٤٧ وعبر وُرمس وراتيسبون [ريجينسبورج] يقتفي أثر الألمان؛ وهو يصل إلى القسطنطينية في مستهل أكتوبر/ تشرين الأول. ويسعى مانويل الأول كومنينوس، مستعيداً سياسة اليكسيوس الأول كومنينوس، إلى الحصول من الملكين على يمين الولاء، لكنهما يرفضان ذلك. وتستثير مطالبه نقمة عميقة بين الصليبيين، المنزعجين من أساليب البلاط البيزنطي المداهنة. ومن جَرّاء انزعاج البازيليوس من الهجوم الذي

يشنه الأسطول النورماني ضد كورنثه وثيبيس، فإنه يفضل التخلص من القوات الصليبية والتعامل مع مسعود، سلطان ايكونيوم (قونية)؛ وهو يأمل بذلك في مواجهة تعزز وجود الفرنج في سوريا ـ فلسطين، والذين قد يتمكنون من التصدي لاتجاه بيزنطة إلى امتلاك أنطاكية.

ومن ثم فإن الظروف قلّما تكون ملائمة لزحفٍ آمنٍ للجيوش الصليبية في آسيا الصغرى: فالواقع أنها سرعان ما تصطدم بالقوات السلجوقية. إن قوة ألمانية أولى، بلا موارد، إنما تُباد أمام دوريليون [دوريلية] في أكتوبر/ تشرين الأول ١١٤٧؛ ويقود الإمبراطور الباقين إلى نيقية، في أسوأ الظروف. ويهزم السلاجقةُ قوةً أخرى قرب لاودقية ويتم ذبح الناجين في فبراير/ شباط ١١٤٨ على طريق أضاليا. ويختار لويس السابع طريقاً أطول، لكنه أكثر أمناً، على طول ساحل بحر ايجة. وهو يصطدم بالسلاجقة قرب جبل قدموس، ويكابد هزيمة قاسية، إلاّ أنه ينجح في الوصول إلى الساحل في أضاليا. ويقوم أتباع بيزنطيون بالتقاط الملك وفرسانه وينقلونهم إلى أرمينيا الصغرى؛ والحال أن البهائم، التي جرى تركها بسبب عدم وجود مكان لها على متون السفن، إنما يذبحها الأتراك أمام أسوار أضاليا. أمّا الفرسان الألمان الناجون، الملتفون حول الإمبراطور كونراد الثالث، فيجري نقلهم إلى عكا على أسطول بيزنطي. وهكذا، ففي أقل من عام، تنهار على الطريق القوات الضخمة التي جندتها دعوة سان برنار؛ وفي ربيع ١١٤٨، لا يصل إلى الأرض المقدسة غير وحدات صغيرة.

وكان موت زنكي في سبتمبر/ أيلول ١١٤٦ قد غيَّرَ الموقف السياسي تغييراً عميقاً. إن ابنيه يقتسمان التركة، فتصبح الموصل من نصيب ايلغاري، بينما تئول حلب إلى نور الدين. والحال أن هذا الأخير سرعان ما يبدي أطماعه والتي تتمثل في الاستيلاء على إمارة أنطاكية ودمشق والدول اللاتينية [الشرقية]. أمّا التقارب بين القدس ودمشق، والذي يوجب الدفاع ضد العدو المشترك، فهو يتداعى من جراء السياسة المغامرة التي ينتهجها الملك الشاب بودوان الثالث، الذي يسعى إلى الاستيلاء على ثلاث قلاع تتبع دمشق في حوران، الأمر الذي يدفع دمشق إلى طلب تدخل نور الدين. وفي تلك اللحظة تصل جيوش الحملة الصليبية الثانية. وبدلاً من الهجوم على حلب، لاسترداد الرُّها بعد ذلك، كما يرى ريمون دو بواتييه، أميرُ أنطاكية، يتحرك لويس السابع إلى القدس التي كان كونراد الثالث قد وصل إليها بالفعل. وتجتمع الكورية العليا للمملكة في عكا في يونيو/ حزيران ١١٤٨ في حضور الملكين؛ وهناك يتم اتخاذ قرار بشن حملة ضد دمشق. وبين ٢٤ و٢٨ يوليو/

تموز، يهاجم الصليبيون المدينة دون طائل. وعند إعلان قرب وصول قوات الموصل وحلب، تحت قيادة ابني زنكي، تنسحب الجيوش الفرنجية إنسحاباً يدعو إلى الرثاء. وتصبح هزيمتها كاملة: ويلقي فرنجُ الأرض المقدسة بالمسئولية عن هذه الهزيمة على العجز العسكري للغربيين؛ بينما يتحدث هؤلاء الأخيرون عن حسد البولان، المتهمين بتخريب عمليات الحصار، حتى لا يشهدوا انتقال دمشق المفتوحة تحت سلطة تيري الألزاسي، كونت الفلاندر.

وفي الغرب، يجري تحسس الفشل بقسوة: فيبدأ الناس في الشك في أن الحملة الصليبية عمل من أعمال التقوى، مادام الرب يتخلى عن أولئك الذين يقاتلون في سبيله. ويجري اتهام داعية ومنظم الحملة، سان برنار الذي يلجأ، بكل تواضع، إلى مواجهة النقد بإبراز العيوب التي تشكو منها الكنيسة في ذلك الزمان [في كتابه "في التأمل"]. بينما يقوم آخرون بتحويل مانويل كومنينوس إلى كبش فداء أو يتحدثون، بأسلوب تقليدي أكثر، عن عجز القادة والعقاب الذي أنزله الرب بالصليبيين، بسبب خطاياهم. ومن جهة أخرى، يتجه بعض مدوني الأخبار، المنفردين مايزالون، إلى إتهام فرنج الشرق الساعين إلى اجتذاب المعونات والحجاج دون أن يفكروا في شيء سوى الكسب. وكل هذه الانتقادات الجديدة تماماً إنما تضعف فكرة الحملة الصليبية.

ويتبدد الهدف الرئيسي، لأن الحملة ضد الفيند [سلاف ألمانيا] والتي يخوضها دوق ساكس، والحملة ضد لشبونة، والتي يقودها أسطول إنجليزي ــ فلمنكي مشترك؛ يجري اعتبارهما أيضاً حملتين صليبيتين. وبالرغم من حماسة ثلاثة أساقفة كبار، هم بطرس المبجل، رئيس دير كلوني، وسوجر، رئيس دير سان دوني، وسان برنار نفسه، راغبين في التعويض عن فشل الحملة الصليبية الثانية، إلاّ أنه لا يتسنى لأي مشروع لحملة جديدة أن يصل إلى مراده، قبل أن تؤدي كارثة حطين واستيلاء صلاح الدين على القدس (١١٨٧) إلى زلزلة الجماعة المسيحية من جديد.

٢. الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٨-١١٩٢)

٢-١. أصلها والدعوة إليها

إذ تصبح مملكة القدس نهباً للخلافات بين ريمون الطرابلسي، زعيم النبلاء الفرنج فيما وراء البحر، وجي دو لوزينيان، الذي صار ملكاً في عام ١١٨٦ من خلال زواجه من الملكة سيبيل، فإنها تجد نفسها عاجزة عن التصدي بكفاءة لقوة صلاح الدين. والحال أن

بطل التاريخ الإسلامي في الشرق الأدنى، موحد مصر وسوريا، وسيد العـراق والداعيـة إلى الجهاد، إنما يستغل انتهاك رينو الشاتيّوني لهدنة موقّعة مع الصليبيين لكي يغزو مملكة القدس، في أواخر ربيع ١١٨٧. ومن جراء نصيحة فاسدة من جانب جيرار الريد فـوري، أستاذ فرسان الهيكل، يهجم جي دو لوزينيان على القوات المسلمة في إقليم طبرية؛ وفـي ٤ يوليو/ تموز، عند قرون حطين، يقضي صلاح الدين على الجيش الفرنجي ويستولى علـى ١٢٠٠٠ أسيراً، من بينهم ملك القدس، ويأمر بإعدام رينو الشاتيّوني إلى جـانب الأسـرى من فرسان الهيكل والأوسبتاليين. ثم تتمكن أربعة طوابير إسلامية، في غضـون أسـابيع قليلة، من الاستيلاء دون مشقة تذكر على مدن وقلاع يسيطر عليها الصليبيـون. وفـي ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١١٨٧، تفتح القدس أبوابها لصلاح الدين. وتكاد المملكـة اللاتينيـة تكف عن الوجود: إذ لا يبقى في أيدي الفرنج غير بضع قلاع، ومدينة صور التي يدافـع عنها بجسارة كونراد دو مونفيرات، ثم، في الشمال، طرابلس وأنطاكية.

وهذه الأنباء الكارثية تصيب الغرب بالذهول. إذ كيف يمكن قبـول أن يرجـع القـبر المقدس، العلامة الملموسة للدين الحق، إلى أيدي المسلمين؟ وفي عين الوقت الذي يوجـه فيه باباوان متعاقبان، جريجوريوس الثامن وكليمانس الثالث، نداء يدعو إلى خوض حملـة صليبية جديدة، فإنه يتعين عليهما شرح مغزى الهزيمة وحض الجماعة المسـيحية علـى التوبة.

ويجري نشر الرسالة البابوية على نطاق واسع من جانب الأساقفة ورجـال الديـن و، خاصة، عن طريق الدعوة التي يقوم بها الكاردينال إنريكو من ألبانو، الرئيس السابق لديـر كليرفو والذي يتخلى عن التاج الحبروي لكي ينكب بالكامل على نشر الرسـالة البابويـة. وهو يستعيد التيمات البرنارية. فهزيمة حطين وسقوط القدس لا يمثلان شيئاً بالقياس إلـى ضعف الإيمان والذي يعد السبب الوحيد لهزيمة المسيحيين. وتجديد الإيمان هو وحده الـذي يمكن أن يكون جديراً باسترداد القدس الدنيوية. والحال أن روحنة الأرض المقدسـة التـي يدعو إليها هذا الداعية سوف تصطدم بالمجريات الواقعية السياسية وبشواغل ثلاثة ملـوك قبلوا الخروج لاسترداد القدس: الإمبراطور فريدريك الأول بربروسّا والملـك الإنجلـيزي ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أوجست، الملك الفرنسي من آل كابيه.

٢-٢-٠ التجنيد والأعداد والتمويل

مع الحملة الصليبية الثالثة يبرز الطابع القومي للتجنيد. فباستثناء دوق ساكس، هنريخ الأسد، تقتفي الأرستقراطية الزمنية والكنيسة الألمانية كلها خطى فريدريك الأول بربروسّا وابنه فريديريك، دوق شوابيا، في عام ١١٨٩. ويؤدي استخدام الجيوش الملكية إلى إدخال تغيير عميق على طابع التجنيد. إن الأتباع في الجيش الإقطاعي الملكي لا يُدعَون إلى الخدمة إلاّ لوقت محدد؛ والحال أن الحملة الصليبية تدوم عدة شهور، بل عدة سنوات. ومن ثم يضطر الإمبراطور إلى تحمل المسئولية عن مجمل أو جزء من إعاشة الجنود. وهكذا يجئ الفرسان والسلاحدارات ورماة السهام والرقباء للخدمة في مقابل أجر. ويتحول جيش الحملة الصليبية إلى قوة من المرتزقة. وفي عام ١١٩١ بالفعل، يسعى فيليب أوجست، الذي خرج مع كتيبة محدودة، إلى تجنيد جنود من الأرض المقدسة؛ ويفضل المحاربون الموجودون أن يعملوا مع ريتشارد قلب الأسد، الذي يدفع أجوراً أعلى.

وأعداد قوات الحملة الصليبية الثالثة معروفة جيداً، ولو من خلال عقود استئجار السفن التي أجازها فيليب أوجست. وفي عام ١١٨٨، يرسل جَيومّ الثاني، ملك صقلية، أسطولاً صغيراً لنجدة الأرض المقدسة، مع مائتي فارس. وفي العام التالي، يحشد الجيش العظيم الذي يقوده فريدريك الأول بربروسّا نحو ١٠٠ ٠٠٠ رجل، من بينهم ٢٠ ٠٠٠ فارس يمثلون كل النبالة الزمنية والكنسية في الإمبراطورية. ولا يصل إلى الأرض المقدسة، بعد غرق الإمبراطور، غير ثلاثمائة فارس، تحت قيادة فريدريك، دوق شوابيا. ويتعاقد فيليب أوجست مع أصحاب السفن الجنويين على نقل ٦٥٠ فارس و١٣٠٠ سلاحدار لا يبدو أنهم كانوا مصحوبين بسلاح مشاة. أمّا فيما يتعلق بريتشارد قلب الأسد، فيبدو أنه يحوز ٨٥٠ فارساً على الأقل، وهو رقم ضخم بالمقارنة مع الـ٥٥ فارس والمشاة الألفين الذين أنزلهم في يافا هنري، كونت شامبانيا! إلاّ أن الحجم الفعلي للقوات قد لا يكون مؤكداً؛ ذلك أن كثيرين من الصليبيين قد عادوا إلى الغرب بعد أداء طقوس حجهم إلى الأماكن المقدسة، دون أن يشاركوا في معارك الأرض المقدسة.

وهذه الأعداد الغفيرة نسبياً يمكن تفسيرها بإنشاء نظام تمويل يُسَهّلُ الرحيل. فالواقع أنه بعد الحملة الصليبية الثانية يجري تدشين نظام جديد للضريبة العامة لنجدة الأرض المقدسة. وفي عام ١١٦٦، ولأول مرة، صار يتعين على جميع رعايا المملكة أن يدفعوا على مدار خمس سنوات ضريبة دنيرٍ على كل جنيه، أي واحد على مائتين وأربعين، مفروضة على ممتلكاتهم ودخولهم. وفي عامي ١١٨٣ و١١٨٥، جرت جباية ضرائب

أخرى لصالح القدس. وفي نشره لمرسومه عن الحملة الصليبية، يجيز البابا جريجوريوس الثامن لملكي فرنسا وإنجلترا جباية ضريبة عامة لتمويل الحملة؛ وهذه الضريبة، المعروفة باسم "عُشر صلاح الدين"، تُفرَضُ على جميع دخول ومنقولات غير الصليبيين، حيث يُسمَحُ للمشاركين في الحملة الصليبية بجبايتها من أتباعهم وتابعيهم. وفي إنجلترا، تتم جباية ضريبة قدرها ١٠% على الدخول، تعود على التاج بـ ٧٠ ٠٠٠ جنيه استرليني، وضريبة قدرها ٢٥% على دخول اليهود، الذين يدفعون نحو ٦٠ ٠٠٠ جنيه. وطبيعي أن الملوك الثلاثة الذين يقودون الحملة الصليبية سوف يستفيدون من هذا المَنّ.

٢-٣٠ قادة الحملة الصليبية

٢-٣-١٠ فيليب أوجست

لم يلعب الملك الفرنسي من آل كابيه دوراً مهيمناً في الحملة الصليبية الثالثة. وهو يغادر فرنسا في أغسطس/ آب ١١٩٠، بعد نحو ثلاثين شهراً من تناوله الصليب (٢١ يناير/ كانون الثاني ١١٨٨)، في حين أن بارونات الاقطاعات الكبرى البورجونيين أو الشامبانياويين أو الفلمنك قد رحلوا إلى الأرض المقدسة منذ عام ١١٨٩، أو في أوائل عام ١١٩٠.

ويركب الملك البحر من جنوة، ويبقى نحو سبعة أشهر في صقلية، حيث تضعه مشكلات خلافة الملك جيوم الثاني ونزاعات زواجية في مواجهة ريتشارد قلب الأسد، القائد الآخر للحملة الصليبية. وإذ يرحل فيليب أوجست من ميسينا في ٣٠مارس/ آذار ١١٩١، فإنه يصل إلى عكا في ٢٠ أبريل/ نيسان، بعد اجتيازٍ سريعٍ للبحر. وهو ينظم حصار المدينة. لكنه ينتظر وصول القوات الألمانية لشن الهجوم الحاسم. وفي ١٢ يوليو/ تموز، تستسلم الحامية الإسلامية في عكا، بعد أن نفدت مواردها، وذلك بالرغم من أن صلاح الدين قد بذل محاولات لإمدادها بالتعزيزات وبالمؤن. وينحاز ملك فرنسا إلى كونراد دو مونفيرات خلال النزاع الذي ينشأ بين هذا الأخير وجي دو لوزينيان على عرش المملكة. وبمجرد التوصل إلى تسوية، يعود فيليب أوجست إلى ركوب البحر متجهاً إلى الغرب في أول أغسطس/ آب ١١٩١، تاركاً لدوق بورجونيا قوة قوامها ٥٠٠ فارس وبضع آلاف من جنود المشاة المرتزقة، للدفاع عن الأرض المقدسة.

والحال أن هذا الرحيل المفاجئ، والذي اعتبره مدونو أخبار الحملة الصليبية خيانة وخذلاناً، إنما يظل دون تفسير مناسب: هل كان الملك مريضاً؟ أم كان غيوراً من ملك

إنجلترا، الأوفر ثراءً وشجاعةً منه؟ أم كان راغباً في الاستيلاء على ممتلكات كونت الفلاندر الذي مات دون أن يكون له وارث؟ لاشك أن فيليب أوجست، السياسي الأريب والذي يحسب حساب كل شيء، قد أراد، بعد أداء ما اعتبره واجباته كملك وكحاج، أن يوطد مملكته ويستغل غياب الملك من آل بلانتاجينه [ريتشارد قلب الأسد]. أمّا في نظر الرأي العام، فإنه يظل مع ذلك " الملك الحانث بيمينه"، الذي خَذَلَ الحملة الصليبية في سبيل المصالح العليا لمملكته.

٢-٣-٢ • فريدريك الأول بربروسّا

تماشياً مع تراث شارلمان، باعث الإمبراطورية الرومانية، يزعم الإمبراطور تولي مهمة الدفاع عن الدين المسيحي؛ وطبيعي أن واجبه يضعه على رأس الفرسان الأوروبيين لاسترداد الأماكن المقدسة. وبعد تناوله الصليب في ٢٧ مارس/ آذار ١١٨٨، يقرر أن من يحوزون السلاح والإمكانات الضرورية لخوض حملة مدتها عامين هم وحدهم الذين سوف يُسمح لهم بالانضمام إليها. انها حملة صليبية للفرسان وليست بعدُ حملة صليبية شعبية، ذلك هو معنى القرارات المتخذة في الإمبراطورية. ويتأخر الإمبراطور الجرماني عن مشاريعه الخاصة بالرحيل إلى الشرق بسبب التنافس الذي يضعه في مواجهة دوق ساكس، هنريخ الأسد. وبعد لقائه في نورنبورج مع سفارة من البازيليوس، لتدارس مرور القوات عبر الإمبراطورية البيزنطية، يغادر راتيسبون [ريجينسبورج] في مايو/ أيار ١١٨٩، مصحوباً بأتباعه الرئيسيين، على رأس جيش جرار قوامه نحو مائة ألف رجل. على أن اجتياز البلقان، حيث يثور الصرب والبلغار على بيزنطة، ليس أمراً سهلاً؛ ومن جهة أخرى، فإن البازيليوس اسحق الثاني آنجيلوس، الذي كان قد تفاوض مع صلاح الدين لكن سلطته تتفكك في إمبراطوريته هو، يتورط في حبس سفارة جرمانية في القسطنطينية. ويرد فريدريك الأول على ذلك باحتلال فيليبوبوليس [بلوفديف الآن] ثم آندرينوبل وباجتياح وتخريب تراقيا. وهو يهدد بالهجوم على القسطنطينية براً وبحراً، بأسطول يطلب من ابنه هنريخ ارساله: فيرغِمُ البازيليوس على التراجع. وبموجب معاهدة آندرينوبل، يضع اسحق الثاني تحت تصرف الإمبراطور مؤناً وسفناً لاجتياز الدردنيل (مارس/ آذار ١١٩٠). وهذه الحوادث تؤيد الفكرة التي تذهب إلى أن القسطنطينية عقبة في طريق نجاح الحملات الصليبية وهي فكرة تشق طريقها إلى الغرب: والحال أن الاستيلاء على المدينة سوف يكون هدف الحملة الصليبية الفاشلة التي يقودها هنريخ السادس (١١٩٧).

وفي آسيا الصغرى، تتقدم الحملة الصليبية الألمانية عن طريق فيلادلفيا ولاودقية، وتستولي على قونية في ١٨ مايو/ آيار، بعد معركة صعبة ضد السلاجقة. ثم يصل الإمبراطور إلى ممرات جبال طوروس ويهبط في سهل قيليقيا؛ وفي ١٠ يونيو/ حزيران، يغرق عند اجتيازه مخاضة على نهر سيليف [اللامس]. ويؤدي غرق الإمبراطور إلى اختفاء الجيش الجرماني الجرار: فلا يصل إلى أنطاكية غير بضع قوات، إلاّ أنها بلا فائدة في الصراع ضد صلاح الدين.

ومع الحملة الصليبية الإمبراطورية تنتشر فكرة أن القسطنطينية تشكل بالنسبة لمسيحيي الغرب عقبة على الطريق إلى القدس. والحال أن مشروع فتح العاصمة البيزنطية والذي صاغه منذ عام ١١٨٩ فريدريك الأول بربروسّا، واستعاده ابنه هنريخ السادس في عام ١١٩٦، سوف يطبّقه الصليبيون في عام ١٢٠٤.

٢-٣-٣٠ ريتشارد قلب الأسد

كان من المقرر أن يكون قائد الحملة الصليبية الإنجليزية هو الملك هنري الثاني، الذي حثه البابا على التكفير عن قتل توماس بيكيت (١١٧١) بالذهاب إلى القدس؛ لكن النزاع الذي يضع الملك في مواجهة فرنسا آل كابيه يعد مناسبة لتأجيلات مديدة. وفي يناير/ كانون الثاني ١١٨٨، في لقاء جيزور، يقسم الملكان، المتأثران بضياع القدس، على وقف العداوات ويتناولان الصليب. ويموت هنري الثاني في ٦ يوليو/ تموز ١١٨٩، تاركاً عرش إنجلترا لابنه ريتشارد، كونت بواتو، الذي كان في تمرد متكرر ضده. ويؤجل ريتشارد رحيله، بسبب التمردات العنيفة التي تسقط ضحية لها الجالياتُ اليهوديةُ في لندن وفي الأقاليم، بمناسبة جباية ضريبة العشر عن جميع الدخول والمنقولات لتمويل الحملة الصليبية. وهو يركب البحر من مارسيليا في أغسطس/ آب١١٩٠، لكنه، خوفاً منه من أخطار البحر، يدع أسطوله يرحل إلى ميسينا التي يصل هو إليها براً بمحاذاة الساحل الإيطالي مع قوة حراسة صغيرة.

وبعد وصول الملك إلى ميسينا في سبتمبر/ أيلول ١١٩٠، يبقى هناك إلى ١٠ أبريل/ نيسان التالي. والواقع أنه يطالب بحصةٍ من تركة الملك جيوم الثاني، زوج أخته [حَنّة]، والتي صادرها تنكريد دو ليتشه؛ وهو يهاجم ميسينا ويحتلها، لكنه يقبل في نهاية الأمر تسوية مع ملك صقلية الجديد. وعلى الطريق إلى الأرض المقدسة، ينزل في قبرص في ٨ مايو/ آيار ١١٩١؛ وهو يستغل تهورات الحاكم البيزنطي، اسحق كومنينوس، لكي

يستولي على الجزيرة، التي تعتبر قاعدة خلفية ضرورية للحملات الصليبية. وعندما يصل إلى عكا في ٨ يونيو/ حزيران، على رأس قوة ضخمة، يسارع ببدء عمليات الحصار ويجبر الحامية المسلمة على الاستسلام في ١٢ يوليو/ تموز ١١٩١. وبعد عودة فيليب أوجست إلى الغرب، يصبح ريتشارد قلب الأسد القائد الوحيد للجيش. وهو يقود هذا الجيش إلى الجنوب ويصد قوات صلاح الدين في معركة أرسوف (٧ سبتمبر/ أيلول). ويتردد مرتين في الهجوم على القدس، ثم ينتهي إلى قبول مقترحات الهدنة التي يعرضها الأيوبي. وهو يغادر الأرض المقدسة في ٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١١٩٢، إلاّ أنه على طريق العودة، [قرب فيينا]، يقع أسيراً بين يدي [ليوبولد]، دوق النمسا والإمبراطور الجرماني هنريخ السادس الذي يبقيه في الأسر إلى مارس/ آذار ١١٩٤.

والحال أن الملك الإنجليزي الذي يتميز بكل من الجاذبية الشخصية والشجاعة والحمية الحربية النادرة، كان يفتقر إلى الحس السياسي ولم يتمكن دائماً من استغلال النجاحات المكتسبة في ساحات القتال. وإذا كان البعض يمجدونه باعتباره القائد الحقيقي الوحيد للحملة الصليبية الثالثة، فإن البعض الأخر ينتقدونه لتردده في استرداد القدس ولإيثاره التفاوض مع صلاح الدين.

٤-٢-٠ الحملة

قبل تحرك القوات الثلاث الرئيسية، تنتظم قوات أخرى لنجدة الصليبيين. ذلك أن جيوم الثاني، ملك صقلية النورماني، يرسل منذ ربيع ١١٨٨ أسطولاً يقل مائتي فارس يسهمون في إنقاذ طرابلس المهددة. وتصل من كولونيا إلى عكا، في أغسطس/ آب ١١٨٩، قوة ألمانية تساعد جي دو لوزينيان، الذي أفرج عنه صلاح الدين، في فرض الحصار أمام المدينة، بينما يقوم أسطول بيزاوي صغير بمحاصرة الميناء. وفي ذلك الوقت، كان الجيش الألماني الكبير، المتجمع في راتيسبون [ريجينسبورج]، قد تحرك على الطريق بالفعل. على ان مصرع الإمبراطور المفاجئ في قيليقيا يؤدي إلى تحلل كامل للحملة الصليبية الألمانية. ولا يصل أمام عكا، في خريف ١١٩٠، غير عدد قليل من الوحدات الموضوعة تحت قيادة ابن الإمبراطور، فريدريك، دوق شوابيا، وذلك في ذات الوقت الذي تصل فيه قوة يقودها هنري دو شامبانيا، ملك المملكة اللاتينية فيما بعد.

ويرحل الجيشان الفرنسي والإنجليزي عن فيزليه في يوليو/ تموز ١١٩٠، لكي يصلا عبر طرق برية مختلفة إلى موانئ رحيلهما. ويمر فيليب أوجست بجنوة ثم يصل إلى

ميسينا في سبتمبر/ أيلول، حيث ينضم إلى ريتشارد قلب الأسد الذي كان قد انتظر في مرسيليا عبثاً وصول أسطوله. ويتأخر الملكان ستة أشهر في الميناء الصقلي، وذلك لحل خلافات سياسية وعائلية بينهما أو مع تنكريد دو ليتشه، مغتصب عرش صقلية. وفي أواخر مارس/ آذار وأوائل أبريل/ نيسان، تتحرك الأساطيل الفرنسية والإنجليزية أخيراً بالفعل صوب الشرق. فيصل الأسطول الفرنسي أولاً إلى عكا، في ٢٠ أبريل/ نيسان ١١٩١؛ أمّا الأسطول الإنجليزي، الذي استولى على جزيرة قبرص في طريقه، فلا يصل إلاّ في ٨ يونيو/ حزيران. وهكذا انقضى ما يقرب من أربع سنوات في استعدادات بطيئة منذ هزيمة حطين.

ويحاول الملكان أولاً التوصل إلى الفوز باستسلام عكا. ومنذ عامين بالفعل، والصليبيون يسدون مداخل الميناء ومخارج المدينة من جهة البر، حيث تقوم قوات المسلمين، المنتشرة من طرف إلى آخر، بمحاصرة الفرنج بدورها. وتحت قيادة جي دو لوزينيان وكونراد دو مونفيرات، يصمد الصليبيون صموداً جيداً، وذلك بقدر ما أن السفن الغربية قد كفلت لنفسها السيطرة على البحر، وذلك برغم محاولات صلاح الدين المتكررة للتمكن من رفع الحصار. ومع وصول الجيوش الفرنسية والإنجليزية، فإن التفوق التقني للمهندسين الغربيين وهجمات الفرسان الفرنج والتي لا يتمكن جنود صلاح الدين، المحبَطون، من وقفها، إنما تتفوق على مقاومة المحاصَرين الذين يضطرون إلى الاستسلام. ويعرض المدافعون عن عكا دفع فدية قدرها ٢٠٠ ٠٠٠ دينار والإفراج عن ٢٥٠٠ أسير مسيحي وردَّ الصليب الحقيقي، الذي كان المسلمون قد استولوا عليه خلال معركة حطين. وفي ١٣ يوليو/ تموز ١١٩١، تصبح عكا من جديد مسيحية؛ وسوف تصبح على مدار قرن عاصمة المملكةِ اللاتينيةِ الثانيةِ.

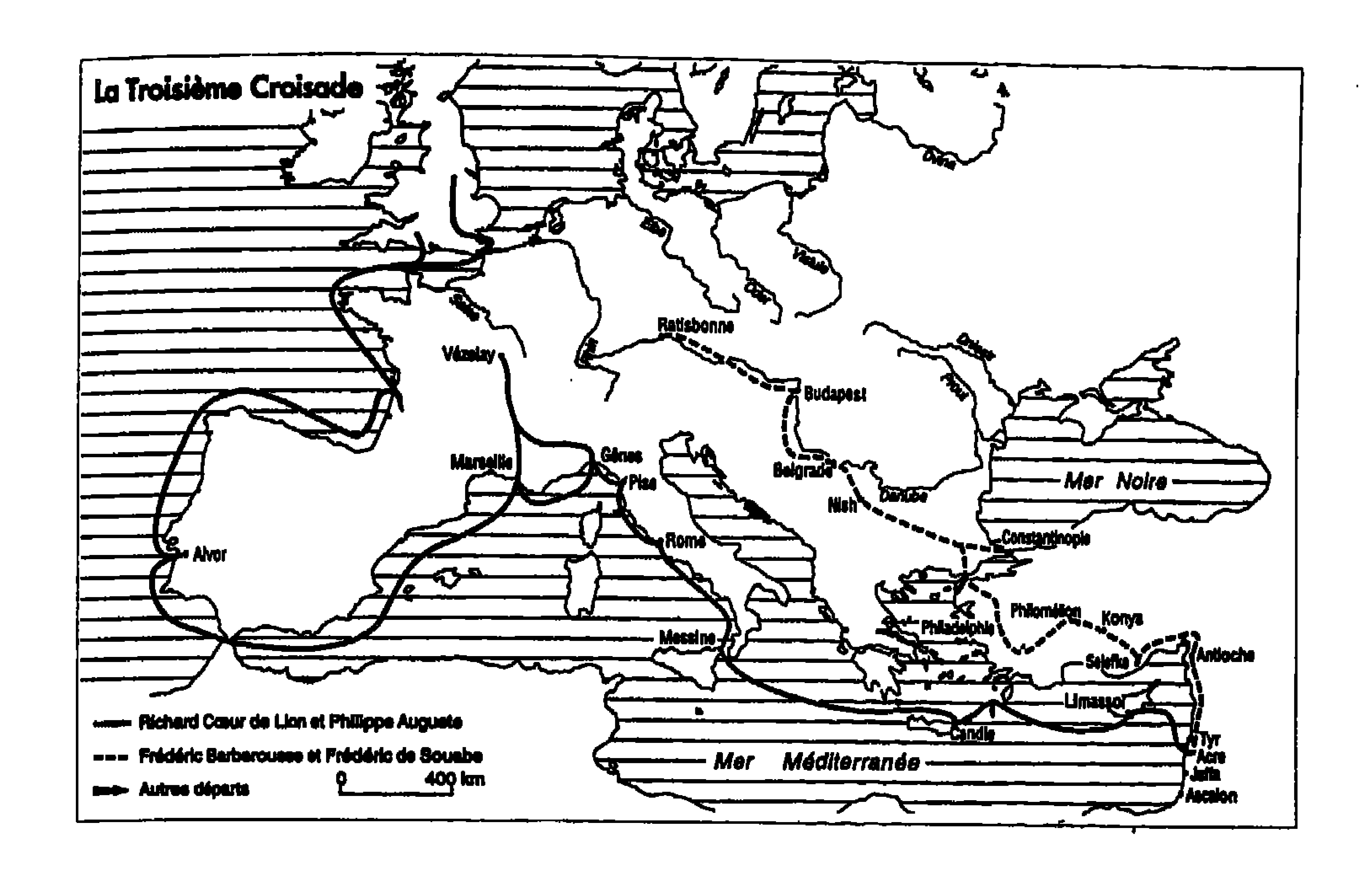
ولا تنتهي الحملة الصليبية الثالثة باسترداد عكا، وذلك مع أن فيليب أوجست قد سارع إلى الرحيل إلى الغرب، تاركاً في الساحة جزءً من قواته (أغسطس/ آب١١٩١). وعندئذ يصبح على ملك إنجلترا مواصلة النضال وتوسيع أسس المملكة الجديدة. لكن ما يمنعه من ذلك هو الخلافات العميقة بين عشيرة كونراد دو مونفيرات وعشيرة جي دو لوزينيان. فمنذ أواخر ١١٨٨، نجد أن كونراد الذي كان قد نَظَّمَ صمود صور في مواجهة المسلمين، يرفض فتح المدينة أمام ملك القدس، الذي فقد اعتباره من جَرّاء الظروف الروائية لإرتقائه العرش في عام ١١٨٦ ومن جَرّاء هزيمة حطين في العام التالي. وفي عام ١١٩٠، تموت الملكة سيبيل والبنتان اللتان أنجبتهما لجي دو لوزينيان؛ وهكذا يفقد هذا الأخير كل

حق على المملكة التي لم يحكمها إلاً بوصفه زوجاً للملكة. ويتجه البارونات الفرنج، وبينهم عشيرة إلابلان القوية، إلى كونراد ويزوجونه أخت سيبيل، ايزابيل، مرغمين هذه الأخيرة، المتزوجة بالفعل، على الانفصال عن زوجها. ويلجأ المتنافسان إلى طلب التأييد من قوى خارجية عن المملكة: فيحصل كونراد على تأييد فيليب أوجست بينما يحصل جي دو لوزينيان على تأييد ريتشارد قلب الأسد.

وهكذا يفيض التناحر بين آل بلانتاجينه وآل كابيه على الأرض المقدسة ويؤدي إلى إنقسام قوى الحملة الصليبية والمملكة. وبعد الاستيلاء على عكا، يؤدي مجلس للبارونات، انعقد في حضور الملكين، إلى اتفاق، يعد ثمرة مفاوضات شاقة: وينص هذا الاتفاق على أن يبقى جي دو لوزينيان ملكاً مدى الحياة بينما يصبح كونراد ولي عهده [أي وريثه المحتمل] ويحصل على صور وبيروت وصيدا كزمام إقطاعي. وبعد ذلك بأشهر قليلة، يتفجر النزاع من جديد بصدد عكا، التي يسعى كونراد إلى الاستيلاء عليها بمساعدة الجنويين. على أن ريتشارد قلب الأسد ينجح في إعادة فرض محميه لكنه، إذ يرصد عدم ارتياح البارونات إليه، يقبل، في أبريل/ نيسان ١١٩٢، أن يتولى كونراد قيادة الحملة الصليبية والمملكة. وبعد وقت قصير من ذلك، يتم اغتيال الملك الجديد على يدي أحد الاسماعيليين؛ وعندئذ تتفجر الأزمة السياسية من جديد. فيختار البارونات الفرنج هنري دو شامبانيا ويزوجونه الملكة ايزابيل. وبعد ذلك بشهر، يجد جي دو لوزينيان تعويضاً: ففرسان الهيكل، الذين كان ريتشارد قلب الأسد قد ترك لهم قبرص، إنما يبيعون له الجزيرة. ويقود ملك القدس المخلوع أنصاره إليها. وسوف تلعب قبرص خلال القرن الثالث عشر دوراً رئيسياً في تاريخ الشرق الأدنى؛ فالواقع أنها تشكل بالنسبة للصليبيين قاعدة خلفية أكيدة ومصدراً للتزود المنتظم بالمؤن.

وبينما تدور هذه الدسائس من أجل حسم مصير مملكة عكا، يواصل ريتشارد قلب الأسد استرداداته. ففي ٧ سبتمبر/ أيلول ١١٩١، يهزم جيش المسلمين في أرسوف ويستولي على يافا وعسقلان، وبعد أن يتوقف قليلاً، يزحف على القدس. وعندئذ يقترح ملك انجلترا على صلاح الدين إنشاء دولة فرنجية ـ مسلمة حقيقية في فلسطين، تكفل للجميع دخول القدس. وقد فشل هذا المشروع في آخر لحظة.

وفي ربيع ١١٩٢، يعاود ريتشارد خوض الحملة؛ فهو يستولي على موقع دارون [الداروم]، الذي يرد للفرنج كل المنطقة الساحلية بين هذه المدينة الواقعة في الجنوب



الشكل ٢٩ – الحملة الصليبية الثالثة. المصدر:

J.RICHARD, Histoire des Croisades, éd. Fayard, Paris, 1996.

وصور في الشمال، ثم يقرر ريتشارد من جديد الزحف على القدس. وبدلاً من مهاجمة المدينة، التي فسّختها الخلافات فيما بين الأكراد والأتراك، يفضل ملك انجلترا الاستيلاء على قافلة ثرية قادمة من مصر، ثم، بالرغم من معارضة القوة الفرنسية، يتذرع بغياب التعزيزات لكي يتراجع إلى السهل الساحلي (يوليو/ تموز ١١٩٢). وهكذا يجري تبديد فرصة فريدة لاسترداد المدينة المقدسة. وينجح ريتشارد في أغسطس/ آب في صد هجوم جرئ لصلاح الدين على يافا، ثم، رغبة منه في العودة إلى انجلترا التي تحولت إلى مرتع لدسائس أخيه جون عديم الأرض ضده، يسارع بتوقيع معاهدة صلح مع صلاح الدين (٢ــ٣ سبتمبر/ أيلول ١١٩٢). ويعترف الأيوبي بالدولة الفرنجية الجديدة والتي تتألف من شريط ساحلي ضيق يمتد من صور إلى يافا، يتسع بالكاد عند جيب الرملة ــ اللد الذي يتقاسمه الفرنج والمسلمون. وسوف يجري هدم أسوار عسقلان وإباحة الدخول إلى القدس للحجاج غير المسلمين. وفي الأيام الأولى لشهر أكتوبر/ تشرين الأول ١١٩٢، يركب ريتشارد قلب الأسد البحر عائداً إلى الغرب.

وهكذا فإن الحملة الصليبية الثالثة التي عبأت أوروبا على مدار خمس سنوات إنما تؤدي إلى نتائج تافهة: فالقدس تبقى في أيدي المسلمين والمملكة اللاتينية تقتصر على شريط ساحلي ضيق تحت رحمة المسلمين. والحال أن موت صلاح الدين في عام ١١٩٣ والنزاعات بين ورثته إنما تتيح للمملكة الفرنجية فسحة لالتقاط الأنفاس. وإلى الفشل النسبي للمشروع يضاف نقد أو إعادة تقييم الحملات الصليبية؛ فسوف يصل الأمر ببعض رجال الدين إلى حد التساؤل عما إذا كان الرب يريدها حقاً، رافضين مشروعية استخدام القوة لإجبار الخصم على الارتداد عن ديانته. ويرى البعض الآخر أن الأمراء المسيحيين قد خانوا رسالتهم بتعاملهم مع صلاح الدين؛ فالهدنة المعقودة لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر إنما هي مرادف لهزيمة الغرب ولعجزه.

ويمكننا أن نفهم أنه بالرغم من وعد ملك انجلترا بتحريك حملة صليبية جديدة لتوطيد مكتسبات النجاحات الأولى، فإنه سوف يتعين انتظار مرور خمس سنوات حتى يتسنى تنظيم "حملة صليبية امبراطورية"، هي حملة الامبراطور هنريخ السادس، وريث نورمان ايطاليا الجنوبية وتطلعاتهم إلى الفوز بعرش بيزنطة. ففي عام ١١٩٧، تمر القوات الألمانية الأولى بسوريا، وتسهم في الاستيلاء على بيروت، لكنها لا تتمكن من الحيلولة دون دمار يافا؛ وفي اللحظة التي تشرع فيها بفرض الحصار على قلعة تبنين، يصلها نبأ موت الامبراطور الذي كان قد أرجأ رحيله. عندئذ يرجع الألمان إلى أوروبا بأسرع ما

يمكن. وفي العام التالي، يرتقي اينوشنتيوس الثالث عرش القديس بطرس الرسول؛ وهو يعيد الدعوة إلى مشاريع حملة صليبية جديدة؛ لكن النتائج بعيدة عما تأمل فيه البابوية والأرض المقدسة اللذين لا تهتم بهما الحملة الصليبية الرابعة.

٠٣ الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـــ ١٢٠٤)

١٣ أبريل/ نيسان ١٢٠٤: الصليبيون القادمون من الغرب يهجمون ويستولون على "روما الثانية"؛ والقسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية ومدينتها المقدسة تباح للسلب وللنهب. كيف أمكن لهذه الفضيحة أن تحدث؟ كيف أمكن لفرسان المسيح أن يصل بهم الأمر إلى حد ذبح مسيحيين آخرين؟ إن أكبر مُدَوِّنَيْنِ لأخبار هذه الحملة سوف يقدمان لنا بعض عناصر الجواب.

٣-٠١ جوفروا دو فيلاردوان وروبير دو كلاري

٣-١-٠١ جوفروا دو فيلاردوان

هو أشهر مدوّن للحملة الصليبية الرابعة وقد ولد نحو عام ١١٥٠ في عائلة من صغار نبلاء شامبانيا. وهو يظهر في عام ١١٧٢ بوصفه أحد أتباع كونت شامبانيا، حيث يصبح ماريشاله في عام ١١٨٥. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٩٩ يشارك في جولة ايكري ويتناول الصليب بحماسة عظيمة، على أثر الكونت تيبو الثالث، المعيّن قائداً للحملة. وفي فبراير/ شباط ١٢٠١، يصبح أحد رسل البارونات الموفدين إلى البندقية للتفاوض على نقل الصليبيين. وبعد موت كونت شامبانيا وامتناع دوق بورجونيا وكونت بار عن تولي قيادة الحملة الصليبية، يقترح أن يتولى هذه القيادة بونيفاسيوس دو مونفيرات، الذي يعد صديقاً له.

وخلال الحملة الصليبية، يُجري مفاوضات صعبة لإقناع اسحق آنجيلوس وأليكسيوس الرابع باحترام تعهداتهما. وهو يشارك في مجالس القادة. وبعد الاستيلاء على القسطنطينية، يُعَيَّنُ ماريشالاً لرومانيا [بيزنطة]؛ وفي أبريل/ نيسان ١٢٠٥، ينظم بشجاعة انسحاب الجيش الصليبي بعد هزيمة آندرينوبل. وهو يحصل من بونيفاسيوس دو مونفيرات على إقطاعة ميسينوبل، ويخطب في الصليبيين محرضاً قبيل معركة فيليبوبوليس ويحرس القسطنطينية، في غياب الامبراطور هنري الفلاندري. ثم يموت في تاريخ غير معروف بين عامي ١٢١٢ و ١٢١٨.

والحال أن "فتح القسطنطينية"، الذي أملاه بعد عام ١٢٠٧، إنما يروي أحداث الحملة الصليبية منذ دعوة فولك دو نويي (١١٩٨) إلى موت بونيفاسيوس دو مونفيرات في سبتمبر/ أيلول ١٢٠٧. وغالباً ما جرى اتهام الكاتب بأنه يحاول، عبر دفاعاته وإن كان أيضاً عبر تهرباته، تبرير انحراف الحملة الصليبية باتجاه القسطنطينية وبتعبيره عن آراء الأكابر، البعيدة تماماً عن آراء عامة الجنود، وهي الآراء الممثّلة في كتاب روبير دو كلاري. والحال أن فيلاردوان، وهو بارون معتبر ومحترم من بارونات شامبانيا، وقائد عسكري شجاع ومتبصر، إلى جانب كونه دبلوماسياً أريباً، إنما يعد حريصاً بشكل خاص على وحدة الجيش وعلى الوصول بالحملة الصليبية إلى نهاية سعيدة. ولذا فهو يتصدى لقوى التحلل ويبرر تسلسل الأحداث غير المتوقعة التي أفضت إلى الاستيلاء على القسطنطينية. لكنه إذ يدرك في آخر العمر الصعوبات التي نجمت عن الفتح، إنما يملي مذكراته كرجل مستميت، يعاين فشل قضيته، مع أنها كانت "الأفضل والأكثر عدالة".

٣-١-٢٠ روبير دو كلاري

أمّا روبير دو كلاري، وهو فارس صغير منحدر من كليري ـ لي ـ بيرنوا في أبرشية أميان، فإنه يقتفي خطي بيير الأمياني في فيلق الصليبيين البيكارديين في عام ١٢٠٢. ونحن لا نعرف شيئاً عن دوره في الحملة. ولا شك أنه يرجع إلى بلده، حاملاً آثاراً مقدسة جاء بها من القسطنطينية ثم سلّمها إلى دير كوربي. وهو يموت بعد عام ١٢١٦، آخر تاريخ في مدونته الإخبارية.

وهذا الرجل صاحب مروية تحمل عنوان **فتح القسطنطينية**، وهو شاهد عيان للأحداث من عام ١٢٠٣ إلى عام ١٢٠٤، لكنه يفتقر إلى الثقافة وإلى حدة النظر. وبما أنه لا ينتمي إلى قادة الحملة الصليبية، فإنه يجهل دوافع سياساتهم؛ وهو يعبر عن نقمة شديدة تجاه كبار نبلاء الحملة، الذين يعتبرهم متغطرسين وجشعين، وتجاه بونيفاسيوس دو مونفيرات، منافس كونت الفلاندر. ثم إنه يترجم في كتاباته، المكتوبة بأسلوب عذب، مشاعر جمهور الجيش المسيحي، المتعطش إلى الأسلاب وإلى الآثار المقدسة والمنبهر بكنوز القسطنطينية. ومن حسن الحظ أن سرده لتفاصيل الفتح يتمم مروية جوفروا دو فيلاردوان، الأكثر جفافاً والأكثر تجرداً من الزخارف.

٣-٢٠ أصلُ الحملة والدعوةُ إليها

تنبع الحملة الصليبية الرابعة، وهي حج مسلح، من مبادرة بابوية. فالحال أن اينوشنتيوس الثالث، بعد شهور قليلة من إرتقائه عرش القديس بطرس الرسول (أغسطس/ آب ١١٩٨) يتوجه بنداء إلى الغرب: إن القدس، التي انتزعها صلاح الدين من الفرنج في عام ١١٨٧، يجب تحريرها! ويجب على المدن والكونتات والبارونات أن يجهزوا قوة ميدانية لمدة عامين! ويجب علي رجال الدين أن يدفعوا ضريبة عامة عن دخولهم للإسهام في النفقات! ثم إن النزاعات بين الملوك يجب أن تتوقف ويجب على الغرب أن يستعيد وحدته للدفاع عن الأرض المقدسة!

ومع اينوشنتيوس الثالث، تصبح الدعوة إلى الحملة الصليبية مشروعاً تنسقه البابوية بالكامل. والواقع أن البرنامج البابوي يستخدم الحملة الصليبية كأداة لتوحيد المجتمع المسيحي من أجل إنجاز خطة ربانية، تحت قيادة الحبر الأعظم. وهكذا يجري توظيف مجمل الهيراركية الكنسية في المشروع: إذ يجب على عظات الآحاد في كل الكنائس أن تحض المؤمنين على المشاركة في تحمل نفقات الحملة؛ وفي مقابل ذلك سوف يتمتع المتبرعون بغفران لخطاياهم. ويقوم المندوبون البابويون وخوري بسيط من الريف، هو فولك دو نويي، بنشر النداء؛ وهم يحضون على التكفير عن الذنوب ويندددون بالربا وبالترف.

٣-٣٠ التجنيد، الأعداد، التمويل

في زخم حمية دينية، يقدم كثيرون عهد المشاركة في الحملة الصليبية. وخلال جولة في ايكري (أسفيلد ـ سور ـ اين)، تتناول نخبة فرسان شمالي فرنسا الصليب وتنتخب لها قائداً هو تيبو، كونت شامبانيا. وينضم إليه الكونت لويس دو بلوا وسيمون دو مونفور ورينو دو مونميراي، في الفلاندر، والكونت بودوان وكونون دو بيتين، في بيكاردي، وهيج السانبولي، في البيرش، والكونت جوفروا وأخوه ايتيان، ولكن ليس ملوك فرنسا وانجلترا والامبراطورية الذين يمتنعون. والحال أن قيامهم بوضع بسالتهم في خدمة الكنيسة، إنما يعني أيضاً بالنسبة لهم الانجذاب إلى المعركة ضد الكفار وربما الاستفادة من فتوحات جديدة أو لعب دور سياسي، على قدم المساواة مع بارونات الحملة الصليبية الأولى. وهكذا فإن نحو مائة سرية تتألف كل سرية بينها من ٨٠ إلى ١٠٠ فارس إنما تصبح مستعدة في الأشهر الأولى من عام ١٢٠٠.

ويجري إرسال أربعة مندوبين مطلقي الصلاحيات، يبرز بينهم جوفروا دو فيلاردوان، إلى البندقية في ربيع ١٢٠١ للاتفاق على "عبور" الحملة الصليبية إلى ما وراء البحر. ويرى مندوبو البارونات الفرنسيين أن بوسعهم أن يحشدوا في العام التالي ٤٥٠٠ فارس و٩٠٠٠ سلاحدار و ٢٠٠٠٠ من جنود المشاة. وقد ساد الاعتقاد لزمن طويل، اعتماداً على مزاعم فيلاردوان وروبير دو كلاري وهيج السانبولي، الساعين إلى تبرير انحراف الحملة الصليبية عن سبيلها، بأن أكثر من نصف القوة التي أعلن عنها قد تغيب عن الحضور، خلال صيف ١٢٠٢؛ والمديونية واجبة الأداء لأصحاب السفن، والتي ترجع إلى قلة الأعداد، إنما تفسر تغيير هدف الحملة. لكن هذا يعني الخلط بين عدد الرجال وجمع الأموال الضرورية للتنفيذ الجيد لعقد استئجار السفن. وقد جرى مؤخراً إثبات أن حجم القوات الامبراطورية، القادمة على أثر بونيفاسيوس دو مونفيرات، لابد أنه قد عوضَ غيابات جميع أولئك الذين تولوا عن البندقية مؤثرين موانئ رحيل أخرى. وهكذا فإن قوات الحملة الصليبية الرابعة إنما تضم نحو ٣٥٠٠٠ رجل. وهو ما يعني أن نقص النقود لا نقص أعداد القوات هو المسئول عن العقد الموقع بين القادة والسلطات البندقية، في الأسابيع السابقة للرحيل. وحملة ١٢٠٣ ــ ١٢٠٤ ليست البتة عمل جيش ــ ناقص.

أمّا فيما يتعلق بالتمويل، فإن اينوشنتيوس الثالث يفرض في عام ١٢٠٠ على نفسه وعلى الكاردينالات ورجال الدين في روما ضريبة لأجل الحملة الصليبية، قدرها ١٠% من دخولهم، وهو يأمر جميع رجال الدين في الغرب بدفع واحد على أربعين من دخولهم. ومن المشكوك فيه أن مثل هذا الأمر قد وجد تجاوباً يذكر. ومن ناحيتيهما، يتفق فيليب أوجست وجون عديم الأرض على الإسهام في نفقات الحملة الصليبية بقيامهما، لا أحد سواهما، بجباية واحد على أربعين من إيرادات زماميهما ومن ممتلكات أتباعهما. أمّا فيما يتعلق بالداعية فولك دو نويي، المفوض من البابوية، فهو ينشئ "خزانة للحملة الصليبية"، يُعْهَدُ بالرقابة عليها إلى السيسترسيين. ويقوم العقد الذي أجازه البارونات الفرنسيون في البندقية على دفع مبلغ قدره ٨٥٠٠٠ مارك فضي، لنقل ٣٣٥٠٠ صليبي إلى ما وراء البحر. ويفسر نقص النقود ونقص الأعداد إنحراف سبيل الحملة الصليبية باتجاه زاره [زادار الآن] ثم باتجاه القسطنطينية.

٣-٤ ، قائدان للحملة الصليبية

الدوج انريكو داندولو وبونيفاسيوس دو مونفيرات

٣-٤-١ ، انريكو داندولو

هذا الرجل، الذي ولد في البندقية نحو عام ١١٠٧، يقضي جانباً كبيراً من حياته كرجل أعمال في الشرق ولا يرجع إلى الوطن الأم إلاّ في عام ١١٧١، بعد مصادرة الممتلكات البندقية في الامبراطورية البيزنطية بأمر من البازيليوس مانويل الأول كومنينوس.

وهو يبدأ بعد ذلك مسيرة عمل عام: فيقوم بسفارتين إلى القسطنطينية في عامي ١١٧٢ و١١٨٤، ويشارك في انتخاب الدوج أوريو ماسترو بيترو في عام ١١٧٨. وبعد أن صار أعمى قبل عام ١١٨٣، يهجر النشاطات التجارية. وفي عام ١١٩٢، في الخامسة والثمانين من عمره، يجري انتخابه دوجاً. وهذا الانتخاب يدعو إلى الاستغراب. ويبدو أن الناخبين، المرتابين ربما من الميول الملكية المنسوبة إلى بيترو زياني، قد فضلوا رجل أعمال عجوزاً يعرف الشرق جيداً ويمكن إلزامه بأداء يمين (*promissio*) تحدُّ كثيراً من سلطات الدوج.

ولاشك أن الكتابة التاريخية المعاصرة بالغت في تقدير دور داندولو في الحملة الصليبية الرابعة. إن فيلاردوان يقدمه كرجل نشيط وشجاع، بارع وحكيم، أمين وكريم. أمّا روبير دو كلاري، خلافاً لذلك، فهو يشدد على قسوة تعامل وازدواجية الرجل الذي يحترم دو كلاري مع ذلك تدخلاته الحاسمة. على أنه يبدو أن الدوج إنما يقابل في عام ١٢٠١ مندوبي البارونات باسم المجلس الصغير. وانحراف السبيل باتجاه زاره ثم باتجاه القسطنطينية ما كان يمكن له أن يحدث دون موافقة الارستقراطية البندقية المشاركة في الحملة الصليبية. وأخيراً، فمن الصعب تصور قيام عجوز في السابعة والتسعين من عمره بتوجيه الهجوم على المدينة الامبراطورية من مقدمة بارجته. وبدلاً من أن يكون قائداً بلا منازع لحملة ذات قيادة جماعية، فإنه يبدو أنه المتحدث بلسان البنادقة الذين تمثل القسطنطينية بالنسبة لهم بندقية جديدة، أكثر مجداً وأكثر جمالاً، منفصلة عن مصالح الكومينة. ومن هنا لقب "سيد رُبع ونصف رُبع إمبراطورية رومانيا" الذي يتخذه داندولو لنفسه بعد الاقتسام الذي تم في عام ١٢٠٤. ولا يبدو أنه كان مرشحاً لتولي عرش الامبراطورية ضد بودوان الفلاندري؛ وبالمقابل، فلا شك هناك في أنه قد تكيف مع

سيرورة نزعة انفصالية حيال البندقية، وهي سيرورة عاشها بنادقة عام ١٢٠٤ الذين كانت لهم مصالح تجارية أو إقليمية ضخمة في الشرق، مثال ذلك آل سانودو، الذين أنشأوا دوقية الأرخبيل. وقد مات داندولو في القسطنطينية في مايو/ ايار أو يونيو/ حزيران ١٢٠٥.

٣-٤-٢٠ بونيفاسيوس دو مونفيرات

هو الابن الثالث لجيوم الخامس دو مونفيرات. وقد ولد نحو عام ١١٥٠، وتولى حكم المركيزية لدى رحيل أخيه كونراد إلى الشرق. وهو يشارك في فتح مملكة صقلية على يدي الامبراطور هنريخ السادس، الذي يعد بونيفاسيوس أحد المخلصين له في ايطاليا الشمالية.

وعند موت تيبو الثالث، كونت شامبانيا، في صيف ١٢٠١، يجري استدعاؤه لتولي قيادة الحملة الصليبية التي ينظمها البارونات الفرنسيون. وهو يصل إلى البندقية في أغسطس/ آب ١٢٠٢، بعد لقائه مع فيليب من شوابيا والبابا اينوشنتيوس الثالث. ولا يشارك بونيفاسيوس في حملة الصليبيين ضد زاره، التي لا يصل إليها إلاّ في ديسمبر/ كانون الأول ١٢٠٢؛ وعندئذ يُقنع القادة بقبول الاتفاق المعقود مع الأمير البيزنطي أليكسيوس. ويعد دو مونفيرات مسئولاً، بالاشتراك مع الدوج انريكو داندولو، عن انحراف الحملة الصليبية عن سبيلها وتوجهها إلى القسطنطينية.

وبعد تتويج أليكسيوس الرابع، يرافق الامبراطور الشابَّ ويساعده على السيطرة على أراضٍ بيزنطية، بين أغسطس/ آب ونوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٠٣. وتتوتر العلاقات بين الروم والصليبيين، إلى الدرجة التي يتمكن فيها تمرد يقوده أليكسيوس الخامس مورزوفل من الإطاحة بمحمي الغربيين [أليكسيوس الرابع]. ويستولي الغربيون على القسطنطينية للمرة الثانية في ١٣ أبريل/ نيسان ١٢٠٤. والحال أن البنادقة، الخائفين من وقوع الامبراطورية اللاتينية الجديدة في يدي بارون قوي [هو بونيفاسيوس دو مونفيرات] قريب من الجنويين ومن آل شتاوفن [الألمان]، إنما ينجحون في تمرير انتخاب بودوان الفلاندري امبراطوراً. ويضطر بونيفاسيوس إلى الإكتفاء بكريت، التي يبيعها من جديد للبندقية، وبمملكة في تسالونيك تشمل مقدونيا الجنوبية وجزءٍ من تساليا وبيوتيا. ويستولي بونيفاسيوس على ثيبيس وأثينا وكورنثه التي يسلمها إلى مقربين إليه كإقطاعة. وفي عام ١٢٠٦، يتقارب مع الامبراطور اللاتيني الجديد، هنري الفلاندري، الذي يهبه بونيفاسيوس

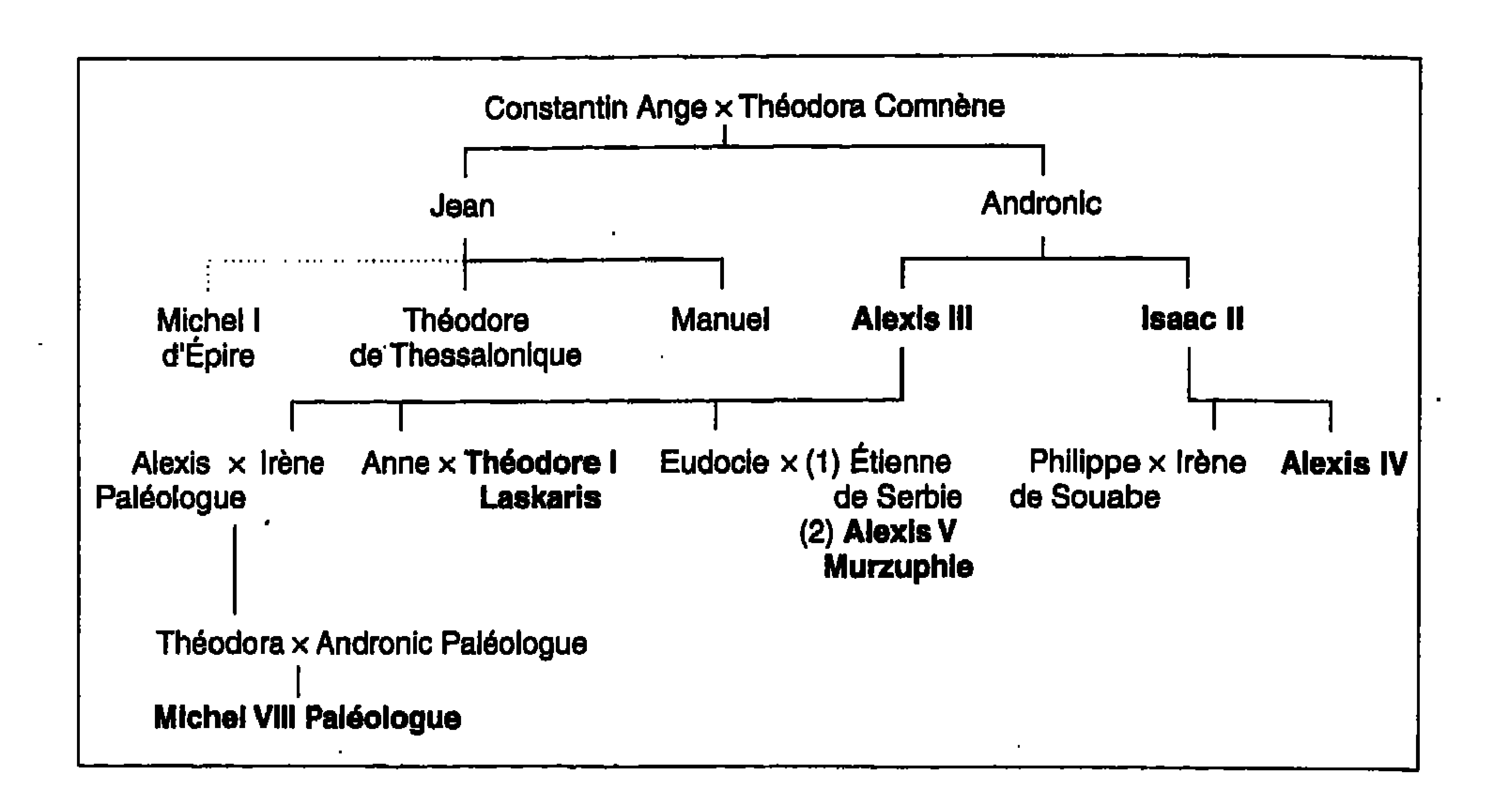
أخته آنياس زوجة له ويعترف بالتبعية حياله. وهو يستعد لكي ينظم معه حملة ضد القوات البلغارية ــ الفالاكية التي يقودها كالويان، حيث يلقي مصرعه على أيدي البلغار في رودوبي في ٤ سبتمبر/ أيلول ١٢٠٧. والحال أن مملكة تسالونيك التي يمزقها النزاع بين البارونات اللومبارديين والامبراطور اللاتيني لا تنجح في التصدي لدسبوت إبيروس [الدسبوت لقب بيزنطي يولي حامله سلطة سياسية تكاد تكون غير محدودة]؛ وفي عام ١٢٢٤، يجري رد تسالونيك إلى وارث بونيفاسيوس، ديميتريوس، الذي كان قد وجد ملاذاً في ايطاليا.

٣-٥، الحملة

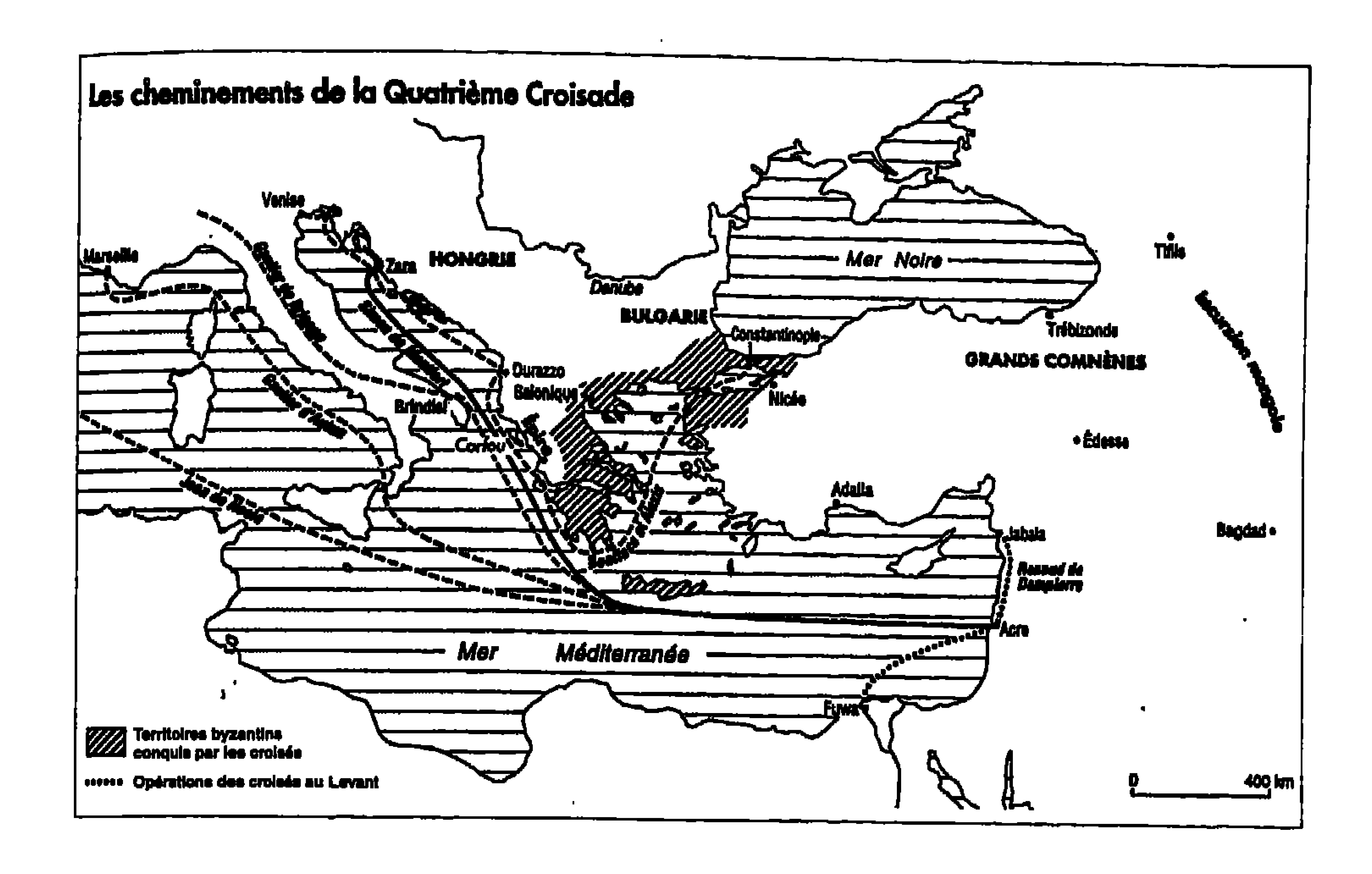
بدلاً من اختيار الطريق البري الذي يمر عبر القسطنطينية وآسيا الصغرى، ذات الكمائن التي لا حصر لها، والتي لم تتمكن الحملات الصليبية السابقة من تفاديها، يرسل اجتماع النبلاء وفداً يقوده كونون دو بيتين وجوفروا دو فيلاردوان ــ مدون أخبار الحملة فيما بعد ــ للتباحث مع الجمهوريات البحرية الإيطالية، القادرة وحدها، بفضل القوى البحرية التي تحوزها، على تنظيم الانتقال إلى ما وراء البحر.

وبما أن بيزا وجنوة في حالة حرب، فإن الاختيار يقع على البندقية. ويصل المندوبون إليها في ربيع ١٢٠١ ويعقدون على وجه السرعة معاهدة. فتتعهد البندقية بتجهيز أسطول لنقل ٤٥٠٠ فارس و٩٠٠٠ سلاحدار و٢٠٠٠٠ من جنود المشاة، وذلك في مقابل سعر جد معقول قدره ٨٥٠٠٠ مارك. وسوف تجهز علاوة على ذلك خمسين سفينة وتتقاسم مع الصليبيين الفتوحات القادمة. ويشير بند سري إلى الهدف: ليس القدس، بل مصر، الخطر الرئيسي على الأرض المقدسة؛ والواقع أن رسل النبلاء قد بالغوا كثيراً في تقدير الأعداد التي يمكنهم حشدها وأدخلوا بالفعل فكرة تحويل الحملة الصليبية عن وجهتها المقررة.

وتنقضي سنة قبل الرحيل ؛ ويموت تيبو، كونت شامبانيا، وجوفروا البرشي. وعندئذ يجري انتخاب بونيفاسيوس دو مونفيرات، الذي تحوز أسرته خبرة طويلة بشئون الشرق، قائداً للحملة الصليبية. وهو يحصل على الدعم الروحي والمالي من الرهبان السيسترسيين، وعلى دعم ملك الرومان [عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة]، فيليب من شوابيا ومجندين من ألمانيا. وعندما يصل الصليبيون الأوائل إلى البندقية في يونيو/ حزيران



الشكل ٣٠ – سلالة انجيلوس الحاكمة (١١٨٥ – ١٢٠٤)



الشكل ٣١ – طرق الحملة الصليبية الرابعة. المصدر :
J.RICHARD, Histoire des Croisades, éd. Fayard. Paris, 1996.

١٢٠٢، فإنهم يجدون السفن مستعدة، وليس ركابها. فالواقع أن جيش الحملة الصليبية لا يتميز بانضباط جيش حديث: فالبعض يفضلون الرحيل عن طريق مارسيليا أو جنوة، أو الاتجاه إلى موانئ أبوليا، أو حتى ركوب البحر من الفلاندر. ومن الأعداد المتوقعة لا يصل غير ثلثهم إلى الملتقى المحدد في جزيرة سان نيكولاس (ليدو دي فينيسيا الحالية)، متحملين بنفاد صبر أسابيع الانتظار الطويلة ونقص النقود وحرّ الصيف. فما العمل ؟ مع أن القادة قد دفعوا، في سبتمبر/ أيلول، كل ما يملكون، إلاّ أنه ما يزال يبقى ٣٤٠٠٠ مارك واجبة السداد، أي نحو ٨٥٠٠ كيلو جرام من الفضة، من الـ ٨٥٠٠٠ مارك التي وعدوا بها أصحاب السفن.

فهل ستنتهي الحملة قبل أن تبدأ ؟ وهل ستذهب أدراجَ الرياح المبالغُ الضخمة التي أنفقها البنادقة على تجهيز سفنهم ؟ عندئذ يقترحُ الدوج العجوز، إنريكو داندولو، على الصليبيين، تأجيلاً لسداد ديونهم إذا ما قبلوا مساعدته على استرداد زاره، وهي مدينة متمردة في دالماسيا، كانت قد وُضعت قبل عشرين سنة خلت تحت سلطة ملك المجر. وبالرغم من ترددات وهواجس الجنود، وبالرغم أيضاً من الأمر الصادر من البابا بعدم الهجوم البتة على مدينة مسيحية، فإن القادة يقبلون هذا الشرط بزعم إنقاذ الحملة الصليبية التي دارت عجلتها بالفعل. وفي مستهل أكتوبر/ تشرين الأول، يغادر أكثر من مائتي سفينة بحيرة البندقية الشاطئية على صوت الأبواق: مشهد عجيب لأشرعة تلطمها الريح ولفرسان في ثياب متعددة الألوان خارجين إلى المغامرة الكبرى وهم يرددون *Veni Creator* [تعَالَ أيها الرب يسوع!].

وفي ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٠٢، يصل الأسطول أمام زاره التي يجري تطويقها على الفور. ويوفد السكان وفدًا، ويعرضون الاستسلام وينصبون الصلبان على أسوارهم. وفي الجيش نفسه، ينتصب الانقسام: إن عدداً من النبلاء ورجال الدين يعارضون الاجتياح؛ ورئيس الدير جي دي فو دو سيرنيه يهدد بحرمان الصليبيين كنسياً. لكن كل ذلك لا يجدي. فالدوج العجوز يطالبهم بالإلتزام بوعدهم. وفي ٢٤ نوفمبر/ تشرين الثاني، يبدأ الاجتياح؛ ويتم الاستيلاء على المدينة وإباحتها لأعمال السلب والنهب. ويقرر القادة قضاء الشتاء في زاره، بما أن الملاحة خطرة جدًا خلال فصل الشتاء.

وبعد ذلك بأسابيع قليلة، تصل إلى زاره سفارة من فيليب من شوابيا، الذي يقترح حلفاً على شقيق زوجته الأمير البيزنطي الشاب أليكسيوس الذي كان أليكسيوس الثالث قد قام في عام ١١٩٥ بخلع أبيه، الإمبراطور اسحق الثاني آنجيلوس عن العرش وسمل عينيه.

وكان أليكسيوس الرابع قد تمكن من الهرب من سجنه في القسطنطينية في أواخر عام ١٢٠١، لكي يلحق في ألمانيا بزوج شقيقته فيليب من شوابيا. وهو [الأمير الشاب أليكسيوس] يقابل بونيفاسيوس دو مونفيرات، القائد الجديد للحملة الصليبية، الذي يطلب منه الأميرُ مساعدته في استرداد عرشه؛ وفي المقابل، يتعهد للصليبيين بدفع مبالغ مهمة وبتقديم قوة لاسترداد القدس كما يعد بتوحيد الكنيستين [الأرثوذكسية والكاثوليكية]. ثم يزور روما، حيث يستقبله البابا اينوشنتيوس الثالث ببرود. وخلال صيف ١٢٠٢، يجدد مقترحاته على بونيفاسيوس دو مونفيرات والبارونات المجتمعين في البندقية. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٢٠٢، تصل إلى زاره، حيث يقضي الصليبيون فصل الشتاء، سفارة من فيليب من شوابيا. وهي تقترح عقد معاهدة بين الصليبيين والأمير البيزنطي، حيث يتعهد الأولون بإعادة أليكسيوس إلى عرش القسطنطينية، بينما يتعهد الأخير بدفع ٢٠٠ ٠٠٠ مارك وبتوحيد الكنيستين وبالانفاق على جيش قوامه ١٠ ٠٠٠ رجل لمدة عام، يكون في خدمة الصليبيين. وهي وعود ضخمة ومغرية بالنسبة للقادة الذين ينقصهم المال، وبالنسبة للدوج الذي يرى في تلك المعاهدة إمكانيةً لاستعادة هيمنة البنادقة التجارية في القسطنطينية، وهي هيمنة يهددها البيازنة والجنويون. وبالرغم من الاعتراض على المشروع من جانب سيمون دو مونفور ورئيس الدير جي دي فو دو سيرنيه، فإن قادة الحملة الصليبية، متفقين مع الدوج إنريكو داندولو، يقبلون المقترحات التي يقسم الأمير أليكسيوس على التمسك بها، غداة لحاقه بالجيش في كورفو في ٢٥ أبريل/ نيسان ١٢٠٣. وينتشر نبأ هذا الاتفاق بين الصليبيين؛ فيهجر الجيش أكثر من ألفين حتى لا يحنثوا بعهدهم [باسترداد القدس]. ويضطر البارونات إلى إيفاد بعثة إلى البابا لشرح موقفهم ولطلب الغفران. وحرصاً منه على عدم وقف الحملة الصليبية، يكتفي اينوشنتيوس الثالث بحرمان البنادقة كنسياً، لكنه يصرح للجيش بمواصلة طريقه. وبعد دك زاره، تركب الحملة البحر في ٧ أبريل/ نيسان ١٢٠٣. ثم تتوقف في كورفو حيث يضطر القادة إلى الركوع أمام الجنود راجين منهم قبول الإنعطاف إلى القسطنطينية. والحال أن رسالة متأخرة من البابا إنما تنهى الصليبيين عن التدخل في شئون الروم؛ لكن اينوشنتيوس الثالث لا يعود قادراً على وقف تداعي الانحرافات عن السبيل.

ففي ٢٤ مايو/ آيار ١٢٠٣، تغادر الحملة كورفو؛ وتصل إلى مشارف القسطنطينية بعد شهر من ذلك. ويستولى الانفعال والتأثر على الجنود؛ فأمامهم، ملكة المدائن، التي يذود عنها ذوداً رائعاً صفان مزدوجان من الأسوار، وقباب الكنائس والكاتدرائيات، وبهاء القصور الإمبراطورية وبذخ مدينة لا نظير لها في أي مكان، وهي مدينة لا يوجد مثيل

لها البتة في الغرب. ولكن ما أعظم خيبة الأمل من أن أحداً لا يترقب عودة الأمير المخلوع، الذي يحاول عبثاً نيل الاعتراف به؛ وما أعظم خيبة الأمل من أن القسطنطينية تسد أبوابها أمام ذلك الشاب الذي يعتبره الجيشُ الإمبراطورَ الشرعي! لابد إذاً من فرضه عليها، ومن ثم اجتياح المدينة.

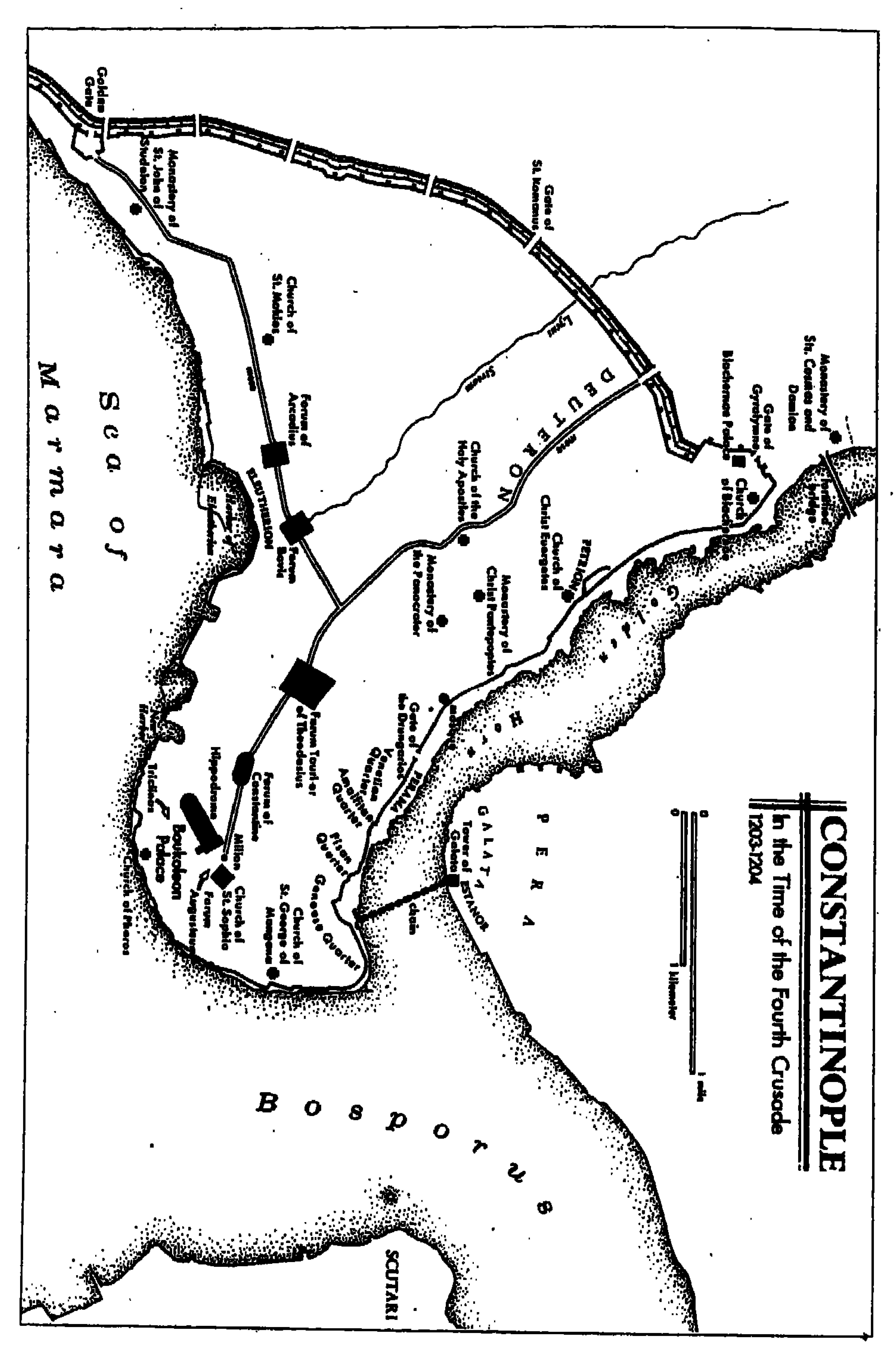
وبناءً على نصائح الدوج، يقرر القادة الهبوط في جالاتا [غَلَطَة]، على الضفة الشمالية للقرن الذهبي. وفي ٦ يوليو/ تموز، ينجح الهجوم ويتم الاستيلاء على برج جالاتا وكسر السلسلة التي تسد مدخل الخليج. عندئذ يمكن للأسطول أن يكون في مأمن من التيارات القادمة من البوسفور، وعلى مقربة من أضعف جزء في أسوار المدينة. ويجري تكليف الفرسان بشن الهجوم على قصر بلاخرنا، وتكليف البنادقة على سفنهم المزودة بالأبراج وبجسور العبور المتحركة بالهجوم على السور البحري للقرن الذهبي. ويفشل الأولون، بينما ينجح الأخيرون في الاستيلاء على عدة أبراج وفي فتح الأبواب، ليس دون إحراق جزء من المدينة. ويحاول الإمبراطور أليكسيوس الثالث شن غارة، لكنه، في ليل ١٧ يوليو/ حزيران، يتخلى عن كل مقاومة ويهرب بكنوزه. أمّا الإمبراطور العجوز، اسحق الثاني، فيجري إخراجه من السجن وإعادته إلى عرشه؛ وتحت الإكراه والإرغام، يصدّقُ على وعود ابنه، الذي يدخل المدينة دخول الظافرين، مع حُمَاته. وفي أول أغسطس/ آب، يجري تتويج أليكسيوس الشاب إمبراطوراً شريكاً [لأبيه] باسم أليكسيوس الرابع.

ويبقى عليه الوفاء بتعهداته، وهو ما ينتظره الصليبيون، الموجودون في جالاتا، لكي يستأنفوا زحفهم على القدس. لكن الإمبراطورية البيزنطية لم تعد ما كانت عليه، وسلطة الإمبراطورين لا تتعدى أسوار المدينة، والخزانة خاوية. والجبايات التي يقومان بها على حساب العائلات الثرية والكنائس سرعان ما تؤدي إلى عداوة الرأي العام لهما، دون أن تشبع اللاتين. أمّا فيما يتعلق باتحاد الكنيستين فهو أمر تتكشف استحالته. ثم إن حملة يقودها أليكسيوس الرابع في تراقيا، بمساعدة الصليبيين، لا تعود بكل النتائج المرجوة؛ والكنيسة والشعب في القسطنطينية يتذمران من حُماتهما المزعجين الذين ينفد صبرهم بدورهم. وتتكاثر الإشتباكات. وعلى طول القرن الذهبي، يقوم الروم بإحراق الأحياء التي يسكنها التجار الغربيون؛ ويهرب الناجون للإحتماء بالصليبيين. وهؤلاء الأخيرون يحرقون حياً مسلماً؛ وتشتعل الحرائق في مجمل الجزء الشرقي من المدينة، حتى مشارف كنيسة آيا صوفيا والقصر الإمبراطوري. ويزداد الكره للاتين تفاقماً.

وفي القسطنطينية، يصبح وضع أليكسيوس الرابع مستحيلاً. فالصليبيون يطالبون بمبالغ جديدة، لا تجيء البتة، ثم يوجهون إنذاراً. ويتهم الروم الإمبراطورين بالتواطؤ. والحال أن حزباً معادياً للاتين، يقوده وجيه إمبراطوري كبير، هو أليكسيوس مورزوفل، قريب أليكسيوس الثالث، إنما يوسّعُ من نفوذه. وفي ٢٩ يناير/ كانون الثاني ١٢٠٤، يتمكن مورزوفل من حبس أليكسيوس الرابع ثم التخلص منه بسرعة؛ بينما يموت اسحق الثاني بعد ذلك بأيام قليلة. وعندئذ يجري تتويج مورزوفل الذي يَعِدُ رعاياه بالدفاع عن القسطنطينية وعن حرية الكنيسة البيزنطية. ويفشل لقاء أخير بين الدوج والإمبراطور الجديد. وتصبح الأعمال العدائية سافرة؛ فالروم يرسلون حرّاقات ضد السفن البندقية، التي تنقذها أطقمها من الكارثة بمجهود رهيب. ويبدي مورزوفل نشاطاً واسعاً: فهو يعزز دفاعات القسطنطينية ويتحدى الصليبيين بكبرياء. لكنه يفشل بشكل يثير الرثاء في كمين يريد نصبه لجماعة من الفرسان اللاتين، كانت تبحث عن مؤن، ويفقد بشكل مخزٍ إيقونة ثمينة للسيدة العذراء.

ولا يعود أمام اللاتين من خيار؛ فهم يشكون من نقص المؤن ولا يمكنهم الحفاظ على حصار مديد. والمخرج الوحيد الممكن هو الاستيلاء على المدينة من جديد، ولكن لحسابهم الخاص هذه المرة. وفي مارس/ آذار، يعقد قادة الجيش والبنادقة معاهدة لاقتسام الغنيمة والفتوحات. وتختلف خطة الهجوم عن خطة عام ١٢٠٣: فالهجوم سوف يُشَنُّ على الأسوار البحرية للقرن الذهبي وحدها. ثم إن الظروف كانت قد تغيرت هي أيضاً: فالروم كانوا قد سدوا الأبواب بالحجارة وقاموا بتعلية الأسوار وبحفر خنادق. وهم مستعدون للدفاع عن أنفسهم مهما كان الثمن. وفي جيش الصليبيين، تسقط الترددات الأخيرة؛ إن غدر الروم، الذي طالما جرى شجبه، إنما يحفز شجاعة القوات.

وفي ٩ أبريل/ نيسان، يصدر الأمر بالهجوم: فتقترب من أسوار المدينة السفنُ، و"العواماتُ" التي تنقل الجياد، والبوارج. ويتعين على كل سفينة أن تحاول شبك جسور العبور المتحركة ببرج من الأبراج. على أن الريح غير المواتية وصمود الروم يؤديان إلى فشل هذه المحاولة الأولى. ويتراجع اللاتين ويتبادلون الآراء ويستمعون بحرارة إلى المواعظ الأخيرة ويكفرون عن ذنوبهم. وفي ١٢ أبريل/ نيسان، يؤدي هجوم جديد إلى وصول السفن المرتبطة اثنتين اثنتين إلى أبراج القسطنطينية. وعلى جسور العبور المتحركة، يصبح المهاجِمون على مرمى سهام المدافعين. ويقوم عدد من اللاتين الذين



الشكل ٣٢ - القسطنطينية زمن الحملة الصليبية الرابعة.

يهبطون على شريط ساحلي ضيق بنقب الأسوار، تحت وابـــل مـــن الحجـــارة والســـهام ومقذوفات الزيوت المشتعلة. وفي مقدمة بارجته، يصدر الدوج العجوز، شـــبه الأعمـــى، أوامره. وعلى رابية، في مؤخرة الأسوار، يشجع أليكسيوس مورزوفل الدفـــاع. وتصبـــح المعركة رهيبة إلى أن يتمكن فارس طويل، هو أندريه دو ايربواز، من العبور إلـــى أحـــد الأبراج ودحر المدافعين عنه: وسرعان ما يقلده فارس شجاع، هو بيير دو براسيو، الـــذي يؤدي منظره إلى تثبيط حمية المحاصَرين. وعلى الفور، يجـــري اقتحـــام بـــاب ســـري، ويسارع بعض الصليبيين إلى النفاذ عبره بما يدفع الإمبراطور إلى الفرار.

والحال أن المهاجمين، الذين دخلوا بالكاد، إنما يتوقفون، جرّاء هبوط الليل. وسعياً إلـــى الإحتماء من الأعداء، يشعل فرسان ألمان النار في عدد من البيوت مدشنين بذلـــك حريـــق القسطنطينية الثالث. وفي الصباح، تنهار المقاومة. ويفشل مورزوفل في حشـــد المدافعيـــن ويهرب، فيحذو حذوه كل من كان ما يزال بوسعهم الهرب. ويسارع النبلاء إلـــى تتويـــج ثيودورس لاسكاريس؛ فيحاول الإمبراطور الجديد عبثاً إحياء المقاومة، ثم يرحل إلى آســـيا الصغرى. وفي ١٣ أبريل/ نيسان ١٢٠٤، تسقط المدينة وتباح علـــى مـــدار ثلاثـــة أيـــام لهيجان الظافرين. ففي كنيسة أيا صوفيا، وهي مزار مقدس يجلّه الكافة، يتنـــازع الجنـــود فيما بينهم على خزائن البطريرك، محطمين طاولة الهيكل ومنتزعين الأحجـــار الكريمـــة. وتدخل بغال لحمل الأسلاب، بينما ترقص مومس عاهرة أمام العرش البطريركي. ويجـــري فتح مقابر الأباطرة وتجريد جثثهم من المجوهرات. أمّا التماثيل البرونزيـــة التـــي تزيـــن الميادين والشوارع فيجري تحطيمها. وينهب الكهنة اللاتين ذخائر الكنائس المقدســـة بينمـــا ينهب البنادقة التحف الفنية، ومن بينها الكوادريج [مجموعة نحتية برونزية] التـــي تزيـــن اليوم واجهة كاتدرائية القديس مرقس. ويستولى بونيفاسيوس دو مونفيرات علـــى القصـــر الكبير بينما يسطو هنري، شقيق كونت الفلاندر، على قصر بلاخرنا. وعلى مـــدار ثلاثـــة أيام، لا يكون هناك سوى الحرائق والسلب والنهب والذبح والقتل.

فيا لها من حملة صليبية لا تضرب الكفار وإنما تضرب المسيحيين، ولا يقـــدر البابـــا، المبادر بها، على وقفها ! كيف حدث هذا ؟ أيجب تصديق جوفروا دو فيـــلاردوان الـــذي، لحرصه على وحدة الجيش، يفسر كل ما حدث بالتسلسل الحتمي لظروف غـــير متوقعـــة، ليس للبشر من سيطرة عليها ؟ أم يجب بالأحرى أن نصدق روبير دو كلاري، المتحـــدث بلسان قواعد الجيش، والذي يشتبه في القادة، وخاصة فـــي بونيفاســـيوس دو مونفـــيرات، الطامع في تكوين إمارة له في الشرق ؟ أم يجب أن نرى في انحراف الحملـــة الصليبيـــة

القاتل عن سبيلها محصلة لدسائس آل هوهنشتاوفن (البيت الإمبراطوري الجرماني) الراغبين في تركيع بيزنطة ؟ أم الأطماع التجارية للبنادقة الذين يريدون أن يصبحوا السادة الوحيدين لتجارة البحر المتوسط الأعلى ربحية ؟ أم يجب أن نتهم أخيراً البابوية التي لا تريد وقف حملة تحقق من **الناحية الفعلية** ـ ولكن ما أفدح الثمن ؟ ـ وحدة الكنيستين، بتنصيب هيراركية رومانية [كاثوليكية] في بطريركية القسطنطينية ؟

منذ فيلاردوان، لم يتوقف الجدل. وبدلاً من البحث عن المتهمين، من الأجدر أن نحاول فهم بواعث ومشاعر الصليبيين. إذ لا شك أن الغالبية كانت ضد انحراف الحملة عن سبيلها، أينما جنحت: وتشهد على ذلك المساجلات وحالات الهرب والفرار في كل مرحلة من مراحل الطريق، من زاره إلى القسطنطينية. وباسم وحدة الجيش الذي يأملون في السيربه دون مشاكل إلى القدس، تمكن القادة، وهم تاكتيكيون دهاة، من اقناع القوات باجتياح القسطنطينية. وإذا كانوا قد تمكنوا من ذلك، فلا ريب أن مرجع ذلك هو أن العلاقات بين طرفي الجماعة المسيحية كانت قد انحطت انحطاطاً متميزاً منذ قرنين. وقد أدت حوادث عديدة، من بينها الحادث الشهير في عام ١٠٥٤، إلى الفصل تدريجياً بين الكنيستين. والحال أن فكرة الحرب المقدسة التي تبلغ ذروتها في فكرة الحملة الصليبية قد تبناها فرسان الغرب بحماسة، لكنها ظلت غير مفهومة من جانب الجماعة المسيحية الشرقية. وكانت بيزنطة قد رفضت الارتباط بالحملات الصليبية وغالباً ما اعترضت سبيلها، بحيث وصل بها الأمر إلى حد التحالف مع صلاح الدين. ومن ثم فلا غرابة في أنه تتأكد في الغرب منذ ذلك الحين، خلال القرن الثاني عشر، صورة الرومي الغادر الثرثار الانقسامي، لأنه منفصل عن روما، بينما تتأكد في الشرق صورة اللاتيني المتوحش عديم الذمة ولكن المفتون بسراب بيزنطة وثرواتها الخرافية وذخائرها المقدسة العظيمة، ومن بينها الصليب الحقيقي.

فما هو الأكثر مشروعية من تجريد الانقساميين الساقطين من جميع الكنوز التي يتعزز بها الدين والإيمان؟ وهكذا فباسم الصليب الحقيقي، يقوم جيش من الصليبيين، مغتنماً فرص انحرافٍ متعاقبة عن السبيل، بفتح القسطنطينية، "المدينة التي يحرسها الرب"، وذلك على حساب مسيحيين آخرين، ويحولها إلى مركز لإمبراطورية لاتينية تقوم على أطلال الإمبراطورية البيزنطية المقسّمة بين الظافرين. والحال أن الفظائع التي اقترفها اللاتين في عام ١٢٠٤ سوف تعزز الروح القومية اليونانية في مواجهة الغرب، وتقوى عداء الأرثوذكسية لروما. وهكذا يتفاقم الانفصال بين الكنيستين. وهو ما يزال متفاقماً إلى اليوم.

ولا جدال في أن التمزق بين طرفي الجماعة المسيحية إنما يرجع إلى الحملات الصليبية التي هزت بيزنطة، الضحية في آن واحد لإمبريالية النورمان العسكرية وللإمبريالية الاقتصادية للمدن البحرية الإيطالية. ويظل المثل الأعلى الديني للحركة الصليبية غير مفهوم البتة في الشرق الرومي الذي يجهل فكرة الحرب المقدسة. ولم يكن من الوارد في أية لحظة أن تقوم بين الروم واللاتين جبهة مشتركة على المستوى الديني. فالأولون يعتبرون الحملة الصليبية خطرة على وجود الإمبراطورية ذاته؛ والأخيرون يحتجون على ارتياب البازيليوس، الذي ينسبون إليه المسئولية عن إخفاقاتهم؛ وهم يرفضون أن يعيدوا الأراضي، التي كانت رومية فيما مضى، حال استيلائهم عليها. واستيلاء اللاتين في عام ١٢٠٤ على القسطنطينية هو محصلة هذا الانعدام المتبادل للتفاهم. وهذا الاستيلاء يوضح أن بيزنطة، لا الإسلام، هي الضحية الكبرى لحرب الغرب المقدسة؛ وهو يخلق في صدور الروم شعوراً بالهوان وكراهية مقيمة لأولئك الذين أزالوا دولتهم ودمروا "ملكة المدائن".

٣-٠٦ الـ " *Partitio Romanie* "

يشير هذا المصطلح إلى اقتسام الإمبراطورية البيزنطية الذي قام به الصليبيون بعد الاستيلاء على القسطنطينية، في ١٢ أبريل/ نيسان ١٢٠٤. ففي الشهر السابق، بعد أن رصد قادة الحملة الصليبية أنه لم يعد بالامكان التوصل إلى أي اتفاق مع أليكسيوس الخامس مورزوفل، حددوا أهدافهم من الحرب، قبل الهجوم. فهم يعتبرون إمبراطورية ومدينة القسطنطينية غنيمة يجب الفوز بها ثم اقتسامها، تبعاً لحقوق المشاركين في الحملة. فيكون من نصيب البنادقة ثلاثة أرباع الغنيمة إلى مبلغ الدين الذي تعاقد عليه أليكسيوس الرابع، ونصف الفائض؛ ويئول إلى الصليبيين ربع الغنيمة ونصف الفائض. ويتعين انتخاب إمبراطور من جانب لجنة مشكلة من البنادقة والصليبيين مناصفةً؛ على أن يحصل على ربع الإمبراطورية وربع العاصمة. ويتعين اقتسام الأرباع الثلاثة الأخرى بالتساوي بين الصليبيين والبنادقة، ومن هنا لقب الدوج: " سيد ربع ونصف ربع إمبراطورية رومانيا ". كما يرتأي نص الاتفاق تنظيماً كنسياً للإمبراطورية وتعريفاً لخدمات الأتباع واجبة الأداء على جميع من يحصلون من الإمبراطور على إقطاعات وإنعامات.

والحال أن الاقتسام الترابي للإمبراطورية، والمعروف من خلال نص اقتسام رومانيا [بيزنطة]، إنما يحدث خلال الأسابيع التي تتلو الاستيلاء على القسطنطينية (١٢ أبريل/ نيسان١٢٠٤)، ربما حتى قبل انتخاب الإمبراطور، بودوان الفلاندري، في ٩ مايو/ أيار

١٢٠٤. والوثيقة، المبنية على مصادر خاصة بالضرائب ذات أصل بيزنطي، إنما تجعل من نصيب الإمبراطور بعض مدن تراقيا وجزر بحر ايجة والمعاقل الرئيسية في آسيا الصغرى. ويقتسم الصليبيون ممتلكات عقارية في تراقيا ومقدونيا وتساليا. أمّا فيما يتعلق بالبنادقة، كبار المستفيدين من تفتيت الإمبراطورية، فهم يحصلون على المواقع الساحلية التي تسيطر على الطريق البحري من البحر الأدرياتي إلى القسطنطينية، كما يحصلون على المدن الواقعة على الطرق الكبرى عبر البلقان، وكل البيلوبونيز التي تشكل، منذ القرن الثاني عشر، سوقاً مهمة لرجال أعمالهم. وأمّا العاصمة نفسها فيجري تقسيمها بحسب شروط اتفاق مارس/ آذار ١٢٠٤. ويتجاهل نص اقتسام رومانيا [بيزنطة] الأقاليم التي تشكل منذ ١٦ مايو/ أيار ١٢٠٤ مملكة تسالونيك التي يجري منحها لبونيفاسيوس دو مونفيرات.

يبقى الاستيلاء على الأراضي التي جرى تقسيمها بهذا الشكل: وبفضل قواتهم البحرية، ينجح البنادقة في ذلك بأكثر من نجاح الإمبراطور والصليبيين الذين يضطرون إلى مواجهة البلغار الذين يقودهم كالويان وروم نيقية وديسبوت ايبيروس. والحال أن قسمة عام ١٢٠٤ إنما تعود بالفائدة العظمى على البندقية التي تؤكد هيمنتها الاقتصادية ــ البحرية في إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية الجديدة.

٤. حملة الأولاد الصليبية (١٢١٢)

مع انعطاف الحملة الصليبية الرابعة باتجاه القسطنطينية ، تبدو روح الحركة الصليبية مطعونة: فلا البابوية ولا الملوك ولا فرسان الغرب يبدون قادرين بعد على خدمة الأرض المقدسة وتحرير قبر المسيح. ولا يمكن بلوغ الهدف الرئيسي المنشود إلاّ من خلال معجزة تكون من اجتراح الفقراء والأبرياء، دون لجوء إلى السلاح.

وفي هذه الروح، تتشكل في عام ١٢١٢ مجموعات من الأولاد، في فرنسا الشمالية وحول كولونيا. ويسير فلاحون ومدينيون أحداث في أثر زعيمين ملهَمَين يزعمان قدرتهما على اجتراح المعجزات، هما ايتيان من كلوا ونيكلاس من كولونيا: وهم يتحركون في جماعات تتخذ شكل مواكب ويريدون، كبني إسرائيل عند خروجهم من مصر، اجتياز البحر سعياً إلى النجاح فيما فشل فيه الأكابر، المدموغون بالخطيئة. ومن جراء فوزهم، على ما يبدو، بتعاطف الطبقات الشعبية، فإن رجال الدين الرسميين يتبرأون منهم. والحال أن الحملة الفرنسية، المنطلقة من الأقاليم الشمالية، إنما تصل إلى مرسيليا حيث يقوم عدد

من أصحاب السفن، عديمي الذمة، بعرض النقل على أفرادها، ثم يتولون بيعهم بعد ذلك كعبيد في بربريا [سواحل بلاد البربر الأمازيج] وفي الإسكندرية. أمَّا الحملة الألمانية، المتضخمة بالنساء وبقطاع الطرق والأوباش، فهي تجتاز جبال الألب، وتصل إلى جنوة حيث يجري ردها على أعقابها: وهي تتبعثر خلال العودة إلى ألمانيا.

وفي هاتين الحركتين غير المنظمتين، يجري النظر إلى الحملة الصليبية على أنها طقس جماعي، طقس هجرة وتطهير. فالأطفال الذين لا يملكون دفاعاً عن أنفسهم والذين لم يقترفوا خطيئة، إنما يعرضون أنفسهم كمضحين أوائل بأنفسهم من أجل خلاص الجماعة المسيحية برمتها. ومنذ ذلك الحين، تميزُ تيمة الإصطفاء الرباني للأطفال روحانية الغرب.

٥ ، الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧ ــ ١٢٢١)

بالرغم من النتائج غير المتوقعة والتي حدثت في عام ١٢٠٤، فإن الحملة الصليبية يجب من منظور اينوشنتيوس الثالث أن تكون العمل الرئيسي للجماعة المسيحية تحت قيادة البابا؛ فهي تمثل فرصة كبرى للتضحية وللاستشهاد، أي لخلاص كل مسيحي. وفي الأرض المقدسة، فإن الأمراء، المهتمين بصون سلم هش تساعد عليه الانقسامات في صفوف المعسكر الأيوبي، إنما يترقبون تعبئة الغرب لقواه من أجل مواصلة الاسترداد.

٥-١ ، أصلُ الحملة والدعوةُ إليها

في ١٣ أبريل/ نيسان ١٢١٣، يعلن البابا اينوشنتيوس الثالث عقد مجمع مسكوني والتحضير لحملة صليبية جديدة. ويجري إرسال دعاة إلى مجمل الجماعة المسيحية: فيذهب روبير دو كورسون إلى فرنسا بينما يجري ايفاد أوليفر السكولاستي [المفتش العام للمدارس الأسقفية] من كولونيا إلى عموم أرجاء الإمبراطورية [الرومانية المقدسة]. وعندئذ، يصبح دعاة الحملة الصليبية وسطاء بين النخبة الكنسية والعلمانيين، الذين ينقلون إليهم لاهوت الحملة الصليبية البابوي. وتشدد مواعظ جاك دو فيتري على ضرورة توبة الصليبيين، وعلى الاخلاص للصليب؛ وهم يدمجون الحملة الصليبية في الحياة الروحية وفي التربية الأخلاقية الكنسية. فهم يستخدمون *exempla* [أمثلة] ومرويات قصيرة وحكايات وأحدوثات أو حكماً وأمثالاً، مشحونة بدلالة مذهبية أو دينية أو أخلاقية. والحال أن الـ *exempla* المجموعة في مصنفات جاك دو فيتري أو سيزار الهسترباخي، إنما ترسم صورة مثالية للصليبي المقدام وتحذر من المصائب التي سوف تكون من نصيب

الصليبي المتردد وتحاول البرهنة على القيمة الروحية للحملة، حتى في أعين الكفار. وهكذا تبدو الحملة الصليبية كأداة للتسامي الأخلاقي للمسيحيين ولمجمل المجتمع المسيحي.

وفي خطبته الافتتاحية للمجمع المنعقد في قصر لاتران (١١نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢١٥)، يتوقف البابا عند معنى الحملة الصليبية: إنها يجب أن تكون حملة جيش مسيحي، جيش مقدس تابع للكنيسة، تنظمه البابوية ويقوده ممثلها، نائب البابا. وتحدد مرسومات المجمع بالتفصيل تنظيم الحملة، التي يتحدد الأول من يونيو/ حزيران ١٢١٧ موعداً لخروجها. والحال أن الإمتيازات الممنوحة في السابق للصليبيين إنما يجري مدها لتشمل أولئك الذين سوف يسهمون في تدبير نفقات الحملة. وتتحمل الكنيسة جانباً من التمويل، بفضل ضريبة على دخول رجال الدين. ثم يجري تحريم كل تجارة مع مصر، تحت طائلة الحرمان الكنسي للمخالفين. أمّا وجهة الحملة فهي وحدها التي لا يجري تحديدها.

وتبذل البابوية كل ما في وسعها لكي تنشر على نطاق واسع النداء إلى الحملة الصليبية وتعمل على تناسي الإخفاقات السابقة. وهي تعتمد على حركة النهضة الدينية العميقة التي تشهد في الوقت نفسه تكوين جمعيات الصدقة. وهي تتمنى تحويل الحملة الصليبية إلى حركة تعبئة عامة لأوروبا المسيحية، يتم الإعداد لها روحياً بالصلوات وبالمواكب الدينية. والحال أن البابا الجديد، أونوريوس الثالث، إنما يواصل خطط سلفه الذي مات في عام ١٢١٦.

٥-٢-٠ التجنيد، الأعداد، التمويل

في جميع الجهات، يجري تفهم النداء، ولكن بالأخص في دول أطراف الغرب التي قلّما شاركت في الحملات السابقة. وتخرج القوات الأولى من النمسا، تحت قيادة الدوق ليوبولد السادس، ومن المجر، تحت قيادة الملك أندراش الثاني. وهي تلتقي في سبالاتو، حيث يتولى أسطول بندقي نقلها من هناك إلى عكا. كما تصل وحدات فلمنكية تحت قيادة جوتييه دافين وقوات قبرصية على رأسها الملك هيج الأول. وفي خريف ١٢١٧، تعج مدينة عكا بالحجاج المدفوعين إلى الاشتباك مع المسلمين، كما يلاحظ ذلك أسقفها الجديد، جاك دو فيتري. ويتجاوز صليبيو الحملة الخامسة من حيث العدد صليبيي حملة ١١٨٩ — ١١٩١. وبعد الاستيلاء على دمياط، يسمح توزيع الغنيمة بإحصاء لهم: فقد كان هناك ١٤٠٠ فارس و٤٢٠٠٠ من المقاتلين الآخرين. وعشية الزحف المشؤوم على

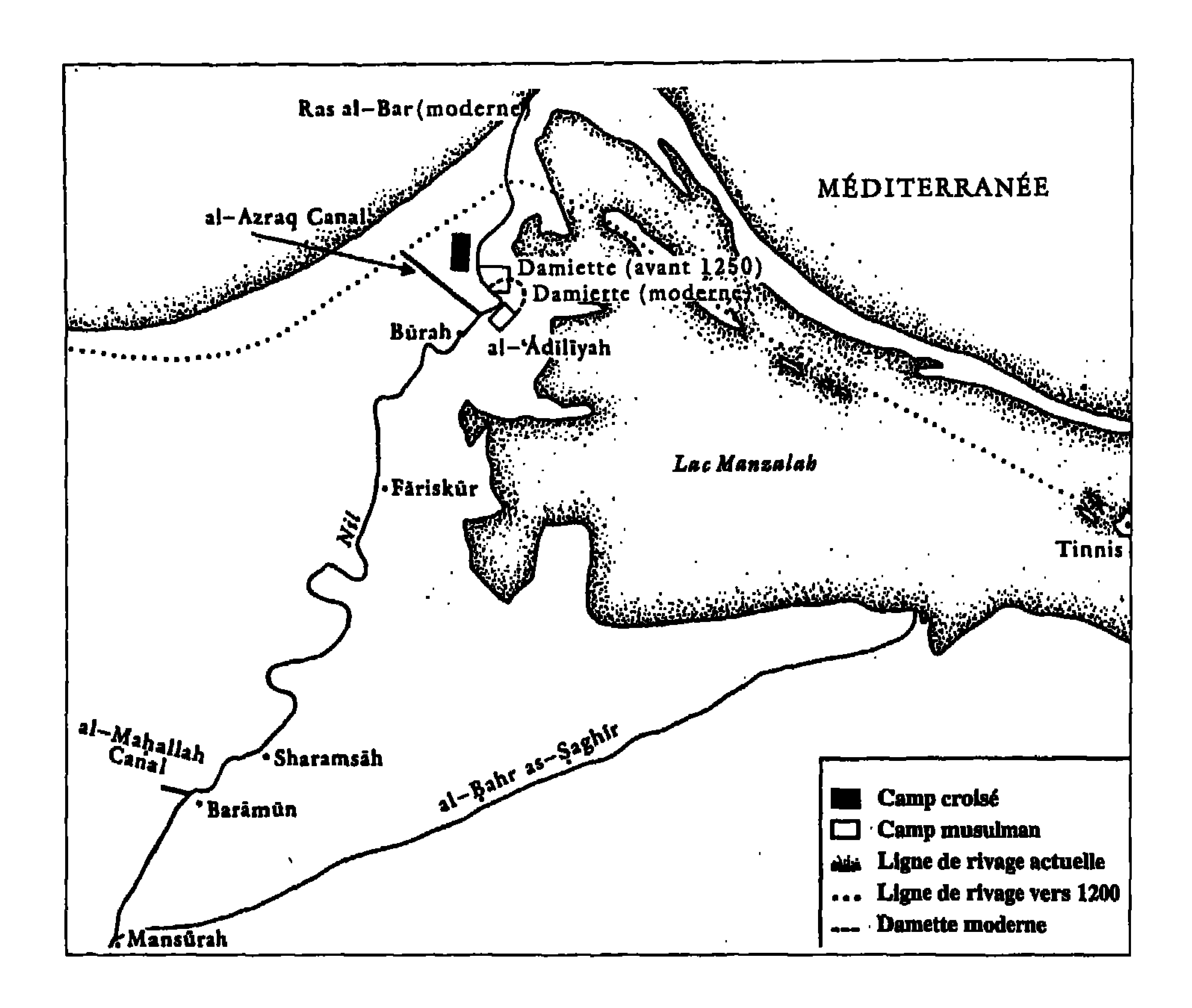
المنصورة، يضم الجيش ١٠٠٠٠ رجل من بينهم ١٢٠٠ فارس، تضاف إليهم حامية دمياط. والأعداد متقلبة إلى أبعد حد، وذلك بحسب إيقاع القادمين والمغادرين. والواقع أنه قد تسنى تقدير أن متوسط مدة الإقامة في مصر بالنسبة لأفراد الأرستقراطية المدنية لا يتجاوز عاماً واحداً، في حين أن جيوش الحملة الصليبية تبقى أكثر من ثلاثة أعوام في دلتا النيل. والحال أن ضعف الأعداد وقلة الإمكانات المالية إنما يفسران إنحدار الغربيين في النهاية.

ومن المؤكد أن مجمع لاتران الرابع، في دستور *Ad Liberandam*، إنما يسعى إلى ترشيد تمويل الحملة الصليبية الجديدة المقررة. ويستفيد صندوق الحملة من ضريبة نسبتها ٥% على دخول رجال الدين و١٠% على دخول البابا والكاردينالات لمدة ثلاث سنوات. لكن ترددات الممولين تجعل هذه المبالغ غير كافية ولا تعوضها دائماً التمويلات من التبرعات الخاصة.

٥-٣٠ الحملة

إن مجلس البارونات، الذي يشكل بديلاً لملك القدس، يوحنا دو بريان، على رأس الحملة، بدلاً من أن يحاول استرداد المدينة المقدسة، يقرر إضعاف قوى المسلمين عبر غارات سريعة: والحال أن الغارة الأولى عبر بيتسان [بيسان] في إتجاه نهر الأردن ورافده نهر اليرموك، ليست غير غارة نهب وسلب، دون نتيجة تذكر؛ أمّا الغارة الثانية فهي تتجه إلى حصن طابور الذي تجري محاصرته دون طائل؛ وأمّا الغارة الثالثة باتجاه بوفور [شقيف أرنون] ووادي الليطاني، فهي غير مثمرة بالمرة هي الأخرى، وذلك بقدر ما أن قوات المسلمين، الأدنى عدداً، تتوارى من أمام الصليبيين وتقوم، في تطبيقها لتاكتيك الأرض المحروقة الذي اتبعه صلاح الدين في الماضي، بتدمير الحصون المهدّدة، والتي كان الفرنج بحاجة إليها للسيطرة على السهل المنبسط. واكتفاءً بمجدٍ سهلٍ، يرحل إلى الغرب في مستهل ١٢١٨ عدة قادة للحملة الصليبية، بينهم ملك المجر.

أمّا الآخرون، ومن بينهم يوحنا دو بريان الذي يستعيد أهميته، فإنهم يستخلصون دروس الفشل. فلأجل استرداد القدس، يجب مد ممتلكات الصليبيين إلى الجنوب وتوفير نقاط إرتكاز على طريق المدينة المقدسة. وينكب دوق النمسا ويوحنا دو بريان وفرسان الأوسبتالية على تعلية أسوار قيسارية التي هُدمت في عام ١١٨٧، بينما يقوم فرسان



الشكل ٣٣ - إقليم دمياط.

الهيكل، والجمعية التيوتونية والفلمنكيون الذين يقودهم جوتييه دافين ببناء حصن عتليت (قلعة الحجاج) الجميل. لكن النفقات وأعداد المقاتلين اللازمين تشكل عبئاً مالياً فادحاً بحيث يستحيل الاضطلاع باسترداد منهجي. وهكذا ففي ربيع ١٢١٨، ومستعيداً لمشروع كان قد نضجَ منذ عام ١١٩١ في أذهان الصليبيين، ينجح يوحنا دو بريان في تمرير قرار بفتح مصر، ليس لأجلها في حد ذاتها، وإنما سعياً إلى حسمٍ عسكريٍ حيال الخصم الرئيسي للفرنج ومن ثم توفير هيمنة نهائية على الأرض المقدسة. ومن جهةٍ أخرى، لا يمكن لرجال الأعمال الإيطاليين إلاّ أن يكونوا مهتمين بأفق السيطرة على السوق الرئيسية على حوض البحر المتوسط، والتي تنتقل عبرها التوابل والمنتجات الثمينة الواردة من آسيا كلها. ويُعهَدُ بقيادة الحملة إلى ملك القدس الذي سوف يمارس سيادته على الفتوحات القادمة.

وبعد إقامة حاميات في مدن الساحل، يبادر الجيش الصليبي الذي عززته قوات قادمة من فريزيا [هولنده] ومن المانيا الشمالية، بالابحار إلى دمياط، التي ينزل إليها في ٢٩ مايو/ أيار ١٢١٨، مباغتاً المصريين تماماً. وهو يسعى إلى استخدام المدينة كقاعدة رئيسية للهجوم على القاهرة. ويقضي ثلاثة أشهر لكي يستولي على برج السلسلة القوي الذي يدافع عن مدخل النيل ويحمي دمياط. ويسقط البرج في ٢٤ أغسطس/ آب ١٢١٨؛ ولدى وصول هذا النبأ، يموت السلطان العادل من الألم. ثم ينجح الفرنج في العبور إلى ضفة النيل الشرقية ويفرضون الحصار على المدينة. وعندئذ يلحق بهم نائب البابا، الكاردينال الأسباني بيلاجيوس، الذي يطالب بالقيادة العسكرية لجيش الكنيسة؛ والحال أن دعاويه المتبجحة إنما تثير الشقاق في صفوف الصليبيين.

وفي مناسبتين، يحاول الكامل، السلطان الجديد، أن يتفاوض. ففي مقابل رفع الحصار والجلاء عن مصر، يعرض رد كل مملكة القدس إلى الصليبيين، ماعدا قلاعهم القديمة في شرقي الأردن، كما يعرض إعادة بناء الحصون التي كان المسلمون قد سووها بالتراب، وعقْدَ معاهدة صلح لمدة ثلاثين سنة. وهذه المقترحات تؤدي إلى انقسام الصليبيين انقساماً عميقاً. فيوحنا دو بريان وأكابر المملكة والفرنسيون يريدون قبول مشروع اتفاق يعيد مملكة القدس ويعيد السلم وينهي الحملة الصليبية. وفي مواجهتهم، يعترض على ذلك الحزب الكنسي الذي يقوده بيلاجيوس ويضم الصليبيين القادمين الجدد وممثلي الكومينات الإيطالية. ويرى مندوب البابا أن سقوط دمياط إنما يبشر بالفتح الكامل لمصر والذي يظن أن وصول تعزيزات قادمة من إنجلترا يجعله ممكناً؛ ويرى الإيطاليون أن السيطرة على

مصبات النيل سوف تسلم لهم أنشط مراكز تجارة المشرق، دمياط وبالأخص الإسكندرية. أمَّا فيما يتعلق بالجنود البسطاء، فإنهم لا يرون سوى الفوز المتوقع بالأسلاب. ولكم يبدو عندئذ أكثر عزلة صوتُ القديس فرانسوا [فرنسيس] الأسيزي الذي يقوم، وسط المعارك، بدعوة السلطان إلى اعتناق المسيحية وبطرح فكرة القيام بتبشير مسيحي بين الكفار! والحال أن حزب مندوب البابا يتغلب ويتم رفض مقترحات الصلح التي يعرضها الكامل.

وفي ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢١٩، يتم اجتياح دمياط وبيع الناجين في أسواق النخاسة. لكن الصليبيين يختصمون فيما بينهم على امتلاكها: وفي نهاية الأمر تئول إلى يوحنا دو بريان، وتحصل الجماعات القومية المختلفة بحكم حق الفتح على حي في المدينة. على أن واقع نجاح الصليبيين في إيجاد موطئ قدم لهم في مصر إنما يترك صدىً جباراً في العالم الإسلامي وبين المسيحيين أنفسهم. فالمسلمون يرون أن فلسطين قد ضاعت ويقومون بتفكيك حصونها، بما في ذلك حصون القدس. ويصدق المسيحيون التنبؤات التي تبشر بسقوط الأسكندرية ودمشق أو بمجئ جيوش خادم السر يوحنا، ملك الهند: فبعونها، سوف يقضي الفرنج نهائياً على الإسلام. كما يجري انتظار الوصول الوشيك لفريدريك الثاني الذي تناول الصليب منذ عام ١٢١٥. فكيف يمكن الرحيل عن دمياط أو التفاوض مع المسلمين بينما يلوح فتح مصر قريباً ويسيراً ؟

لكن الخصومات تتفاقم في المعسكر الصليبي. فيوحنا دو بريان، المتقزز من دعاوي نائب البابا والمفلس من جراء نفقات الحملة، يغادر دمياط في مارس/ أذار ١٢٢٠. وعلى مدار عام كامل، لا يبادر الجيش الفرنجي الموجود في المدينة بعمل شئ، منتظراً تعزيزات وهمية من الغرب. وفي فلسطين، يستولي الملك المعظم، الأيوبي، شقيق السلطان، على قيسارية ثم يحاصر عتليت. ويأمر الكامل بالإسراع ببناء حصن، هو حصن المنصورة، على الزاوية الجنوبية ـ الشرقية للدلتا ويحصل على عون من إخوته في سوريا وبلاد الرافدين. وفجأة، في ٢٩ يونيو/ حزيران ١٢٢١، يصدر بيلاجيوس أمراً بالزحف على القاهرة. لكن الصليبيين يضطرون إلى الاستسلام في ٣٠ أغسطس/ آب ١٢٢١، بعد أن شلت المنصورة وفيضان النيل زحفهم وأحاط بهم المسلمون من كل جانب في المستنقعات. ويتعهد الصليبيون بالجلاء عن دمياط وبرد الأسرى المسلمين ويسمَحُ لهم بحرية العودة إلى عكا، حاصلين على هدنة مدتها ثمانية أعوام. وترحل فلول الجيش المندحر إلى الأرض المقدسة أو إلى أوروبا.

وهكذا تنتهي بهزيمة رهيبة تلك الحملة الجرارة على مصر، والتي كانت قد بدأت بداية محظوظة. والحال أن عناد المندوب البابوي، وضعف أعداد الجنود وأنانية الإيطاليين التجارية قد أدت إلى إضاعة فرصة لاسترداد مملكة القدس دون قتال. وفي الغرب، يصبح الإحباط عظيماً ويجري إلقاء تهمة انعدام المسئولية على القادة، فلا ينجو من الاتهام لا البابا ولا نائبه ولا قادة الجيش. وفي سوريا، فإن الفرنج، المحصورين في ممتلكاتهم الساحلية، دون مؤخرة، إنما يبدون أكثر ضعفاً وانكشافاً حيال جبروت الأيوبيين الموحد، برغم بناء حصن عتليت وحصن مونفور [قلعة قُرَيْن]. ومنذ عام ١٢٢٢، تصبح عكا حلبة للتنافسات فيما بين الكومينات الإيطالية التي يقف الملك حيالها عاجزاً، لإفلاسه ولانعدام إمكاناته. ولا يمكن للنجدة إلاّ أن تجيء من الإمبراطور، الذي يناشده أونوريوس الثالث منذ عام ١٢٢٢ قيادة حملة صليبية جديدة، بينما يصل يوحنا دو بريان إلى إيطاليا متوسلاً عون البابوية والعالم المسيحي. والحال أن لقاءه مع فريدريك الثاني سوف يقرر لوقت طويل مصير الحركة الصليبية والأرض المقدسة.

٦ ـ الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ ــ ١٢٢٩)

في عام ١٢٢٣، لا يبدو أن بالإمكان استعادة فرصة استرداد القدس، وهي الفرصة التي أضاعتها الحملة الصليبية الخامسة، إلاّ بالمشاركة النشيطة من جانب الإمبراطور فريدريك الثاني في حملة جديدة. وكان هذا الإمبراطور قد تناول الصليب منذ عام ١٢١٥، عند اختياره ملكاً للرومان. وطامحاً إلى تزعم الغرب، فإنه يرى أن قيادة حملة إلى القدس ليس من شأنها إلاّ أن تعزز هيبة الإمبراطور الجرماني، وهو ما أدركه بالفعل من قبل والده هنريخ السادس. ومن ثم يتوجب عليه أن يكون قائداً لحملة صليبية تسمح له بضم الأرض المقدسة إلى الإمبراطورية وبتحقيق البرنامج الشرقي لأبيه، إلاّ أنه، بسبب الانشغال بالشئون الجرمانية ثم بالتتويج الإمبراطوري، يكتفي بإرسال أسطول صغير إلى دمياط، يصل إليها في اللحظة التي يُعقَدُ فيها للتو اتفاق استسلام الصليبيين.

وسعياً إلى تزويد الأرض المقدسة بمدد من القوات الإمبراطورية وإلى إجبار فريدريك الثاني على السفر، يرتأي أونوريوس الثالث في عام ١٢٢٣ مشروع تزويج الإمبراطور من ابنة يوحنا دو بريان، ايزابيل، وريثة مملكة القدس. ويجري اتخاذ قرار بالزواج وإعلان الحملة الصليبية وتحديد عام ١٢٢٥ موعداً للرحيل. ومع أن فريدريك الثاني مشغول بإعادة النظام إلى مملكة صقلية، إلاّ أنه يبدو أنه يُعِدُّ بنشاط للحملة الصليبية: إذ يجري بناء أسطول من مائة سفينة حربية ومن خمسين "عوامة"، مهمتها نقل الخيول، في

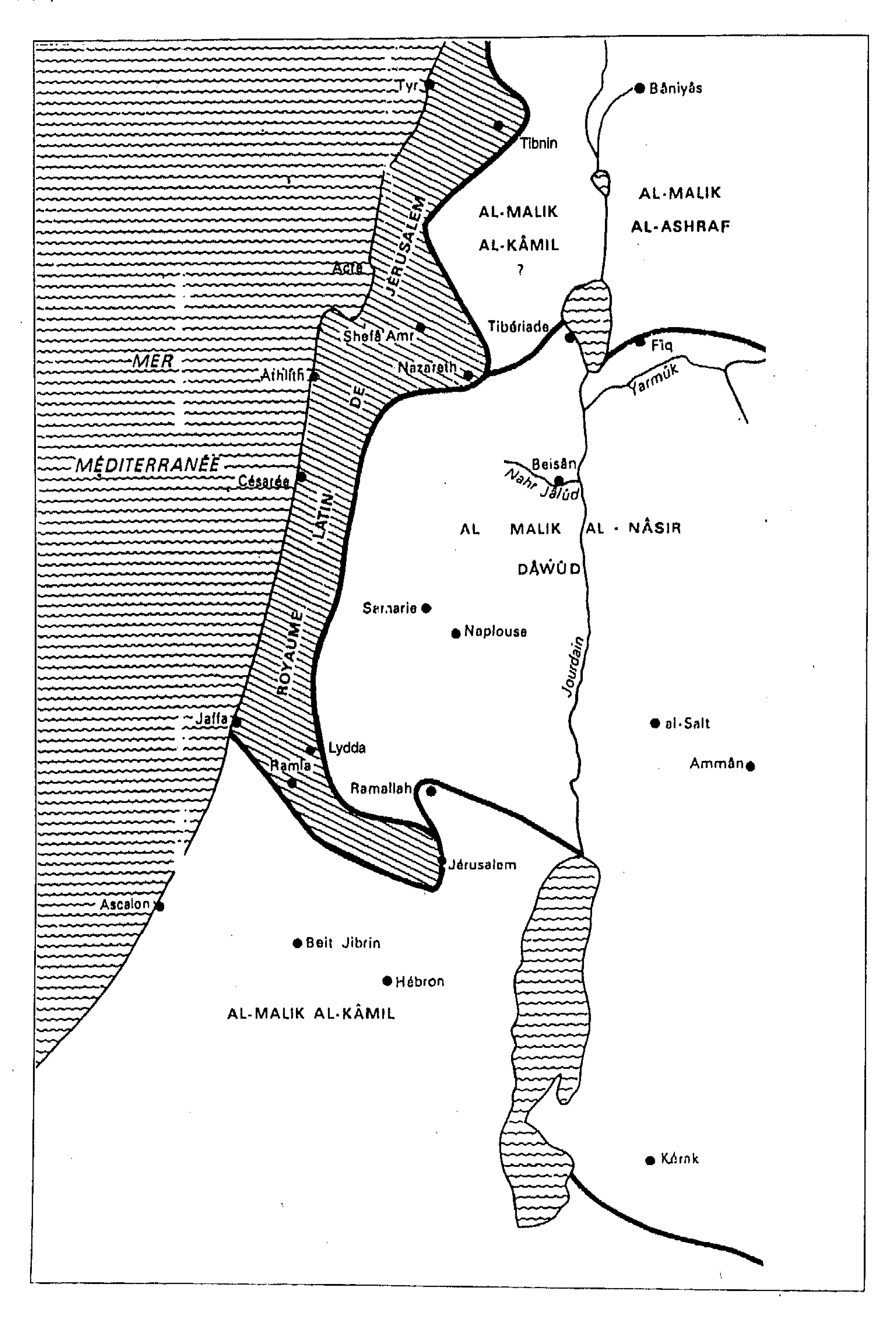
موانئ إيطاليا الجنوبية، لكنها تتخلف عن شق البحر. وفي اجتماع سان جرمانو (صيف ١٢٢٥)، فإن الإمبراطور، المهدَّد بالحرمان الكنسي، يضطر إلى تجديد عهده الصليبي، لكنه يرجئ تنفيذه إلى صيف ١٢٢٧. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٢٥، يحتفل بزواجه، ثم يسارع إلى مطالبة يوحنا دو بريان بتسليمه مملكة القدس التي لا يعتبر من الناحية القانونية غير وصي عليها باسم ابنته. والحال أن ملك القدس الذي أسقط في يده من جراء هذه الخديعة إنما يضطر إلى الرضوخ ثم، بعد تشاجره مع صهره، يجد ملاذاً في روما. وفي عام ١٢٢٦، يجري إرسال توماس داسيّرا لتولي ملكية المملكة باسم فريدريك الثاني.

على أن جريجوريوس التاسع، الذي انتُخب بابا في ربيع ١٢٢٧، يتابع باهتمام الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة ويخطر الإمبراطور بوجوب مراعاة تعهداته. وفي عام ١٢٢٧، تجتمع قوات ألمانية وإنجليزية وإيطالية في موانئ إيطاليا الجنوبية، لكن وباء ينال منها خلال الصيف. ومع ذلك يركب فريدريك الثاني البحر في ٨ سبتمبر/ أيلول من برنديزي، إلاّ أنه يتوقف في أوترانتو بعد مرور مجرد ثلاثة أيام، متذرعاً بمرضه، ويرجئ الحملة، وإن كان يعهد بعشرين سفينة حربية إلى هنريخ، دوق ليمبورج، وإلى بطريرك القدس. وفي ٢٨ سبتمبر/ أيلول، يقوم البابا بحرمان الإمبراطور كنسياً، رافضاً بذلك مزاعم فريدريك الثاني حول ما جرى.

ومن الوارد أن هذا الأخير أراد التحايل، متصوراً أن بإمكانه توسيع مملكته الشرقية ونيل القدس، عاصمتها، بالسبل الدبلوماسية. فالواقع أنه منذ أوائل عام ١٢٢٧، كان رسل من الكامل، سلطان مصر، المتنازع مع أخيه المعظم، ملك دمشق، قد وصلوا إلى إيطاليا لطلب عون فريدريك الثاني، واعدين بتنازل عن القدس في مقابل ذلك العون. وكان من شأن إرسال بضع قوات، هي القوات التي يقودها هنريخ، دوق ليمبروج، أن يكون كافياً. على أن موت المعظم في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٢٧ يثير التساؤلات حول مستقبل الاتفاق. فدمشق، التي تئول إلى ولده الحدث [الناصر داود]، لم تعد تمثل خطراً على سلطان القاهرة؛ وعون الغربيين لا يعود له مبرر؛ ومن الأفضل التعامل مع الأيوبي الآخر، الأشرف، سيد الجزيرة، لاقتسام ممتلكات المعظم: فيكون شرق الأردن وجنوبي فلسطين من نصيب مصر، بينما يئول الجزء المسلم من الأرض المقدسة إلى الأشرف. وعندئذ تبدل القوات الألمانية التي وصلت إلى عكا مهمتها: فهي تنكب على مطاردة مسلمي صيدا وعلى تحصين مونفور [قلعة قُرَين] ثم قيسارية، ترقباً لوصول الإمبراطو

وفي ٢٨ يونيو/ حزيران ١٢٢٨، يقرر هذا الأخير، بالرغم من حرمانه كنسياً، أن يرحل مع أسطول صغير من أربعين سفينة وقوة قوامها خمسمائة فارس؛ وبهذا نكون بعيدين عن الحملة الصليبية الإمبراطورية الكبرى التي كان أونوريوس الثالث يريد تحريكها، كما نكون بعيدين عن الوعود التي قدمها فريدريك الثاني في مناسبات كثيرة. وفي ٢١ يوليو/ تموز، يدخل الإمبراطور ميناء ليماسول في قبرص. وفي الجزيرة، يتولى يوحنا الإبلاني الوصاية لحساب الملك الحدث هنري الأول. وإذ يتذكر فريدريك الثاني أن والده قد منح التاج لآل لوزينيان، وأن مملكة قبرص تُعَدُّ، بحكم هذا الواقع، تابعة للإمبراطورية، فإنه يفرض حقوقه في السيادة، ويطالب بالحصول على ايرادات الجزيرة خلال حداثة الملك، كما يطالب، تأميناً لذلك، بأربعة حصون. ولا مراء في أنه يريد بذلك إصلاح مالياته وخلق قاعدة عسكرية مضمونة، جد قريبة من ساحة العمليات. على أن الإبلان، المعتمدين على الأعراف الإقطاعية لمملكة القدس، يقاومون الامبراطور؛ ويتم تفادي حرب بين الأشقاء في أخر لحظة، وذلك بفضل وساطة الجمعيات العسكرية. ومنذ تلك اللحظة، يتولى بارونات العشيرة الإبلانية قيادة الحزب المعادي لفريدريك.

ولدى وصول الامبراطور، لا يلقي جميع أشكال العون التي كان ينتظرها. ذلك أن الهيكليين والأوسبتاليين يرفضون التعاون مع محروم كنسياً يسئ السكان الفرنج تقدير مفاوضاته مع السلطان. ومن جهة أخرى. فإن هذه المفاوضات التي تستأنف منذ وصوله إلى قبرص، إنما تصبح أكثر حرجاً مما في عام ١٢٢٧، وذلك بسبب انكماش اهتمام السلطان الكامل بالمبادرة الامبراطورية. والحال أن فريدريك الثاني، بعد أسابيع من عدم التحرك في يافا، حيث كان نشرُ مرسوم بابوي قد حظر للتو أي اتصال به، إنما يشن عملية عسكرية بهدف حسم تردد السلطان: فهو يقوم بتحصين يافا، التي كانت قد هُدِمَت في عام ١١٩٧. وهناك يتمكن في ١٨ فبراير/ شباط ١٢٢٩ من عقد معاهدة تعيد للفرنج، دون قتال، مدينة القدس، فيما عدا ساحة الهيكل التي تشمل الأماكن المقدسة الإسلامية. ويعترف السلطان للصليبيين بملكية صيدا وتبنين وإقليم الناصرة، كما يعترف لهم، في الجنوب، بملكية جيب اللد والرملة الممتد إلى القدس وبيت لحم. كما يتعين، على مدار عشر سنوات، أن يمتنع الأيوبيون عن عقد حلف ضد الفرنج مع امتناع الامبراطور عن إرسال تعزيزات إلى الأرض المقدسة.



الشكل ٣٤ – المملكة اللاتينية والدول الإسلامية بعد حملة فريدريك الثانى الصليبية.

وتشكل هذه المعاهدة نجاحاً ملحوظاً: فممتلكات الصليبيين تصبح أكثر اتساعاً وستكون مضمونة لمدة عشر سنوات؛ والوصول إلى الأماكن المقدسة مكفول، ثم إن القدس، وهذا ما لم تنجح في تحقيقه الحملات الصليبية الثلاث السابقة، إنما تصبح مسيحية من جديد. ويصل الامبراطور إليها في مارس/ آذار ١٢٢٩ ويتوج نفسه بنفسه في كنيسة القبر المقدس بينما يجلجل نداء المؤذن إلى الصلاة، الأمر الذي يثير استنكار الحجاج المسيحيين الذين يرافقون الامبراطور. على أن النتائج يساء تقديرها في ذلك الحين: فالبطريرك جيرو اللوزاني يشير إلى أن معاهدة يافا تسلب ممتلكات من الناصر، عاهل دمشق، دون موافقة هذا الأخير؛ وأن الجيوب المسيحية لا تتمتع بحماية كافية نظراً إلى غياب أية شبكة من الحصون. وهو لا يغفر نجاحاً ديبلوماسياً يحققه امبراطور في قطيعة مع الكنيسة: وينشر مرسوم الحرمان الكنيسي في القدس ويلقي بالمنع على المدينة التي تتصالح مع التتويج الامبراطوري. ثم إن فرسان الهيكل، الذين لا يستردون المركز الأصلي لجمعيتهم [ساحة هيكل سليمان]، إنما يعادون الاتفاق، شأن البارونات السوريين، وعلى رأسهم الإبلان. وإذ يشعر فريدريك الثاني بالمرارة تجاه كل هذه العداوات التي تحركها الكنيسة، فإنه يتخلى عن تحصين القدس ويغادر المدينة غداة تتويجه. وعندما يرجع إلى عكا، يعلن القطيعة مع البطريرك ومع الجمعيات العسكرية ويأمر الحجاج بمغادرة الأرض المقدسة ويرحل بحراً في الأول من مايو/ آيار ١٢٢٩، وسط سخريات الجمهور.

والحال أن موقف الإمبراطور، المبني على التسامح حيال الكفار، إنما يستثير الصخب عندئذ: ألن يصل به الأمر إلى حد أن يستقبل على مائدته رسل السلطان أو رسل زعيم الحشاشين ؟ وإلى حد عقد أواصر الصداقة مع الأمراء المسلمين ؟ من الواضح أن فكرة الحملة الصليبية قد لفظت أنفاسها. على أن معاهدة يافا قد سمحت بالتوصل إلى نتائج ليست تافهة، ومن المؤكد أنها نتائج أعظم بكثير من نتائج الحملات الصليبية السابقة: استرداد القدس وحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة وتوسيع أراضي عكا وصور وصيدا، والصلح العام المكفول لمدة عشر سنوات. لكن التدخل الإمبراطوري كانت له أيضاً عواقب وخيمة: فاحترام الهدنة يمنع الفرنج من استغلال الحروب فيما بين المسلمين ومن قبول التحالف مع أتراك قونية ضد الأيوبيين. والهدنة تستثير المعارضة البارونية لممثلي فريدريك الثاني، ومن ثم فهي عامل فتنة وحرب أهلية. وفي مواجهة "الاستبداد الإمبراطوري"، يبدو البارونات الفرنج كمدافعين عن الحرية؛ وبريشة يوحنا الإبلاني، يصوغون نظرية الجمهورية الإقطاعية، وهي عبارة عن فردوس للفرسان: وهم يثيرون

الشكوك حول المؤسسات الملَكية، ومن ثم حول الوحدة الضرورية للمملكة، التــي يرتســم انهيارها في الأفق. وأخيراً، بالنظر إلى غياب الإمكانات المناسبة ــ الرجال والحصــون ــ فإن المكتسبات الجديدة إنما تصبح تحت رحمة تحول مفاجئ في موقف المسلمين أو تحــت رحمة غزو من جانب جيش أجنبي. وفي عام ١٢٤٤، نجد أن القوات الخوارزميــة التــي طردها الغزو المغولي من أراضيها وراء بحر قزوين، سوف تقوم، تجاوباً مع اســتدعاءٍ من جانب مصر، بالاستيلاء على القدس التي سوف تكف، لنحو ســبعة قــرون، عــن أن تكون مسيحية.

٠٧ حملات آل كابيه الصليبية

٧-١ ، حملة تيبو الرابع، كونت شامبانيا (١٢٣٩ ــ ١٢٤٠)

بين الحملات الصليبية الكبرى المرقمة خلفاً عن سلف، تتداخل حمــلات إلــى الأرض المقدسة، أقل اتساعاً، لكنها مع ذلك ليست عديمة النتائج. وحملــة تيبــو الرابــع، كونــت شامبانيا وملك نافار، هي إحدى هذه الحملات. وينتمي الرجل إلى بيت شامبانيا الذي تمــيز على مدار القرن الثاني عشر وحتى أوائل القرن الثالث عشر بمشاركة أفراده في الحمــلات الكبرى إلى الشرق: فقد سبق اختيار تيبو الثالث قائداً للحملة الصليبية الرابعة، الذي حــال مؤته السابق للأوان دون مشاركته فيها.

والحال أن تيبو الرابع، الملقَّب بالمنشد، قد تناول الصليب منذ عام ١٢٣٠. ويبدأ نــواب البابا جريجوريوس التاسع الدعوة إلى الحملة الصليبية إعتباراً من عــام ١٢٣٥، إلاَّ أنــه يتعين الانتظار إلى عام ١٢٣٩ حتى يتبلــور تنظيــم الحملــة. والواقــع أن الإمــبراطور فريدريك الثاني إنما ينكب على ردع الفرسان الغربيين عن تهديد اتفاقيات الهدنة التي كــان قد عقدها في عام ١٢٢٩ مع سودان بابليون [سلطان القــاهرة] ومدتــها عشــر ســنوات. ويتجمع الصليبيون القادمون من كبرى إقطاعات المملكة في ليون فــي يونيــو/ حزيــران ١٢٣٩. وبينهم نبلاء وفرسان يحيون في حاشــية كونــت شــامبانيا: هــنري الرابــع دو جرانبريه، أخ راؤول، كونت سواسون، وفيليب دو نانتيّ، وهو، كتيبــو، مؤلــف أغنيــات للحملة الصليبية، وخصوصاً دوق بريتانيا، بيير موكليرك، وهيج الرابع، دوق بورجونيــا، وجان دو برين، كونت ماكون وفوريه ونيفير، وكونِّيتابل المملكة آموري دو مونفور الــذي يحول إليه القديس لويس [لويس التاسع] ٣٢٠٠٠ جنيهاً. وتشمل القوات إجمالاً مــا بيــن ١٠٠٠ و١٥٠٠ فارس. والعدد كبير بالفعل، قياساً إلى حجم الجيوش في ذلك العصر. لكــن

القوة تشكو من عيبين: فهي تفتقر إلى جنود المشاة، وتفتقر بـالأخص إلـى التلاحـم، إذ تتداخل فيها وحدات إقطاعية بورجونية ونيفيرية وبريتانية، لا تطيع سوى سيدها. وهكـذا تثور مشكلة القيادة بحدة منذ البداية.

ولأجل تمويل الحملة، لا يبدو أن تيبو الرابع قد تمكن من الاستفادة من سخاء القديـس لويس. وكان عليه أن يضغط على أتباعه وكنائسه ومدنه الجميلـة واليـهود والمرابيـن. ويستفاد من رسالة لجريجوريوس التاسع بتاريخ ٢٩ نوفمـبر/ تشـرين الثـاني ١٢٣٨ أن كونت شامبانيا قد نهب "بحكم الضرورة " مبالغ ضخمة من رعاياه ومن يـهود الكونتيـة. ويصرِّحُ البابا له بتكريس هذه الأموال لمساعدة الأرض المقدسة، ومن ثم لتمويـل الحملـة الصليبية. ولاشك أن مملكة نافار، التي تقدم لتيبو قوة من الفرسـان، قـد جـرى إثقالـها بمسندة للحملة، بحسب العرف السائد. أمّا فيما يتعلق بفرسان شامبانيا، فلا مراء فـي أن كونتهم يتولى الإنفاق عليهم بمجرد انتهاء مدة الخدمة الإقطاعية التي لا تزيد عن أربعيـن يوماً.

ومن ليون، سوف يخرج الصليبيون إلى ركـوب البحـر، بعضـهم مـن مارسـيليا، وبعضهم الآخر من برنديزي، وهم يصلون إلى عكا في الأيام الأولى لشهر سبتمبر/ أيلـول ١٢٣٩. وهناك يجتمع مجلس حربي، حول بطريرك القدس وكبير أساقفة صـور وكبـار أساتذة الجمعيات العسكرية. وهو يعهد بالقيادة إلى تيبو الرابع، الذي يقدم له أنـداده قَسَمَ الطاعة، وهو ما لا يمنعهم، بعد ذلك بأسابيع قليلة، من إظهار تحاسدهم وتغطرسهم وسـوء التفاهم فيما بينهم. ويتقرر البدء بزحفٍ على جنوبي فلسطين، لتحصين معقل عسقـلان، قبل شن هجوم على دمشق.

ويغادر الجيش عكا في ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ويتوقف في يافا ـ وينفصل عنه بيـير موكليرك، كونت بريتانيا، خارجاً إلى الاستيلاء على قافلـة مسـلمة والعـودة بالغنيمـة. وتستثير هذه المغامرة حسد أندادِه الذين يقررون، بالرغم من عداوة تيبو لذلـك، مهاجمـة جيش مصري قرب غزة. لكن العدو يباغت قوة فرنجية صغيرة ويمزقها شـر ممـزق. إذ يجري قتل هنري، كونت بار، وأسر آموري دو مونفور وكثيرين من الفرسان الآخريـن. ويتردد الجزء الرئيسي من الجيش في مطاردة المصريين ويتقهقر إلى عكا. وبعـد عـدة أسابيع من انعدام الحركة، يقود تيبو القوات إلى شمال المملكة الفرنجية: فلا يزيـد الأمـر عن غارة عادية بلا نتائج. وهو يقبل حلفاً يعرضه عليه الصالح إسماعيل، سلطان دمشـق، ضد سلطان مصر، الصالح أيوب، في أوائل صيف ١٢٤٠ علـى الأغلـب. والحـال أن

أراضي مهمة حول صيدا وبوفور [شقيف أرنون] وطبرية وصفد إنما يجري ردها إلى الفرنج. لكن حملة مشتركة في جنوب عسقلان تمنى بالفشل، إذ يرفض جنود إسماعيل القتال إلى جانب الصليبيين. وعندئذ يُجري تيبو مفاوضات مع سلطان مصر لاستعادة الفرسان الذين جرى أسرهم في غزة ولاسترداد الأراضي والحصون التي كان فريدريك الثاني قد حصل عليها في عام ١٢٢٩. وهو يقوم بالحج إلى القدس ويعاود ركوب البحر من عكا في ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٢٤٠، دون أن ينتظر وصول الحملة الصليبية الإنجليزية التي يقودها ريتشارد من كورنويل. ويعقد هذا الأخير هدنة مع أيوب ويستكمل تحصين عسقلان ويتوصل بالأخص إلى الإفراج عن الأسرى الذين سبق أسرهم في غزة، وهو ما يعود عليه بسؤدد عظيم.

٧-٢-٠ الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ ـ ١٢٥٤)

٧-٢-١-٠ أصلها والدعوة إليها

في عامي ١٢٤٤ و١٢٤٥، يبدو مستقبل سوريا الفرنجية ميئوساً منه. فالقوات الخوارزمية، التي استدعاها سلطان مصر، قد دمرت القدس وذبحت السكان المسيحيين (٢٣ أغسطس/ أب ١٢٤٤). والجيش الفرنجي، المتحالف مع جيوش الكرك وحمص، كان قد أبيد في ساحة معركة لافوربي، قرب غزة، على أيدي ائتلاف مصري ـ خوارزمي. وهكذا فإن البارونات والجمعيات الدينية، المعارضة لسياسة فريدريك الثاني الخاصة بالتحالف مع مصر، إنما تدفع ثمن انقسام المملكة اللاتينية. وفي غضون بضع أسابيع، يسترد السلطان أيوب كل اليهودية والسامرة، ثم يستولي على دمشق. أمّا عكا والممتلكات المسيحية الأخيرة فهي تترقب هجوماً وشيكاً.

والغرب ليس مستعداً للتجاوب مع النداءات المنزعجة القادمة من الأرض المقدسة. والبابوية تتحسس العبء متزايد الضغط الذي يتمثل في صون الممتلكات المسيحية فيما وراء البحر وتفكر في الاضطلاع بعمل تبشيري بين المسلمين والمغول. وبما أن البابوية منشغلة في إيطاليا في صراع لا يرحم ضد آل هوهنشتاوفن، فإنها لا تملك تقديم دعم لفريدريك الثاني، ملك القدس. فالدعوة إلى الحملة الصليبية العامة والتي جرى إطلاقها في مجمع ليون (١٢٤٥) إنما تترافق مع حرمان الإمبراطور كنسياً وقرار خلعه عن العرش. فكيف يمكن عندئذ تحقيق وحدة الجماعة المسيحية لنجدة الشرق اللاتيني، في حين

أن البابوية تدعو إلى حرب مقدسة حقيقية ضد الجيبلان [الحزب المناصر لآل هوهنشتاوفن] ؟

عندئذ تجد فكرة الحملة الصليبية في شخص القديس لويس مدافعاً غيوراً. والحال أن ملوك آل كابيه الذين سبقوه على العرش كانوا قد شاركوا بنشاط في الحركة الصليبية، أكان في فلسطين أم ضد الآلبيجيين. وقد قام كل من يوحنا دو بريان وبودوان الثاني دو كورتنيه، إمبراطور القسطنطينية اللاتيني، بتوجيه النداء إلى بلاط فرنسا الذي قام، بالقروض أو بالهبات، بتسهيل الحملة الإقطاعية التي قادها تيبو الرابع في عامي ١٢٣٩ و١٢٤٠. لكن هذا ليس كافياً في نظر " الملك المسيحي جداً "، الفارس النموذجي الذي يعتبر مشاركته الشخصية في الحج المقدس واجباً إيمانياً. وفي ديسمبر/ كانون الأول ١٢٤٤، حتى قبل أن يصل إلى الغرب نبأ اندحار الجيش الفرنجي في لافوربي، تعهد الملك بالمشاركة في الحملة الصليبية على أثر مرض أَلَمَّ به؛ وبالرغم من تحفظات الملكة الأم بلانش دو كاستيل والأكابر قليلي الحماس، اعتبر تعهداته نهائية.

والواقع أن الملك من آل كابيه هو العاهل الوحيد الذي نظم حملتين صليبيتين متعاقبتين، وأولى لذلك أهمية ضخمة بحيث إن أسلوب حكمه قد تأثر بذلك تأثراً عميقاً. فالحملة الصليبية إنما تعد بالفعل في نظره بداية وغاية ومعنى حياته، فهي مغامرة عظيمة وتجربة رئيسية سوف تبعده عن مملكته لمدة ست سنوات وسوف توجه عمله على مدار الجانب الأكبر من فترة حكمه. والحال أن العهد الصليبي المقدم في ديسمبر/ كانون الأول ١٢٤٤، وهو عمل من أعمال الإيمان الصوفي، لا يرجع كثيراً إلى الهجوم الكارثي الذي شنته القوات الخوارزمية على القدس (يوليو/ تموز ١٢٤٤) ولا يرجع بالمرة إلى الكارثة التي حاقت بالفرنجة في معركة لافوربي (١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٤٤)، فهي حدث كان ما يزال غير معروف في الغرب عندما اتخذ القديس لويس قراره. فالمسألة في نظره هي مسألة القيام بحج إلى أماكن آلام المسيح التي تمكن للتو من جمع آثارها في المصلى المقدس في قصره. كما أنها مسألة حشدٍ ضد أعداء الجماعة المسيحية للقوى الحية في المجتمع المسيحي الذي يجب تطهيره من خلال فعل التكفير. ولذا فهو يعيد إطلاق فكرة الحملة الصليبية في مجمع ليون في عام ١٢٤٥، لكن المشروع يمر دون انتباه، وذلك بسبب الاهتمام الكبير الذي يوليه البابا اينوشنتيوس الرابع لدفع آباء المجمع إلى إدانة فريدريك الثاني. ومع أن الحملة الصليبية تعد مبادرة شخصية من جانب الملك، إلاّ أنها تنطوي على إعداد روحي مكثف. فالملك يوزع آثار آلام المسيح التي يرسلها إلى كنائس

المملكة في صناديق ذهبية فاخرة؛ وهو يجتهد، دون نجاح كبير، في تهدئة النزاعات داخل الجماعة المسيحية لكي يوحد هذه الجماعة حول مشروعه؛ وهو يأمر بإجراء تحقيق واسع في مملكته سعياً إلى التعويض عن المظالم التي ارتكبها موظفوه ويحظر ارتداء ثياب باذخة؛ كما يقدم تبرعات عديدة إلى جمعيات الصدقة وإلى المستشفيات وإلى أديرة الراهبات لإشراك أهل الصلاة في نجاح الحملة.

ومعه، تصبح المبادرة بالدعوة مسألة ملكية بأكثر مما هي مسألة بابوية، مع أن المندوب البابوي أودو دو شاتورو يقف إلى جانبه. ويريد الملك تهذيب حياة رعاياه أخلاقياً حتى تشارك المملكة كلها في مجهود الحملة: فهو يصدر قوانين لتدبير النفقات ويحظر السكر ومظاهر المروق عن الدين ويلغي الربا، وكل ذلك بهدف إعداد جيش رباني، مطهر من كل خطيئة. ويستَخدم القديس لويس كل سمعته كملك "مسيحي جداً" لكي يقنع شخصياً أكابر حاشيته بتناول الصليب. وعندما تصبح الحملة الصليبية مشروعاً لمحاربين محترفين وعندما يضعف المثل الأعلى الديني الذي يدعمها، فإن الدعوة تفقد طابعها الكوني وتضطر إلى مواجهة الانتقادات التي لم تتخلف إخفاقات الحملات السابقة عن إثارتها.

٧-٢-٢ مروية الحملة الصليبية: جان دو جوانفيل

ولد جان سير دو جوانفيل نحو عام ١٢٢٤ ونشأ في بلاط تيبو الرابع، كونت شامبانيا. وقد التقى بلويس التاسع، ملك فرنسا، في مجلس موسع عقد في سومور في عام ١٢٤١. وبعد أن صار فارساً، تناول الصليب في عام ١٢٤٥ ورافق الملك من آل كابيه في الحملة الصليبية، حيث بقي إلى جواره حتى العودة من الأرض المقدسة في عام ١٢٥٤. إلاَّ أنه رفض المشاركة في حملة الملك الصليبية الثانية في عام ١٢٧٠.

وكتابه *Histoire de Saint Louis* [تاريخ القديس لويس] يشكل المروية الأكثر نبضاً بالحياة والأكثر تفصيلاً لحملة ١٢٤٨. وقد كتب سينيشال شامبانيا هذه المروية فيما بعد، استجابة لطلب من جين دو نافار، ملكة فرنسا، وأهداها في عام ١٣٠٩ إلى لويس لو أوتان، الذي كان آنذاك ملك نافار وكونت شامبانيا. والكاتب غريب عن فكرة الحرب المقدسة؛ وهو يرى أن الحملة الصليبية مشروع في خدمة الرب، الذي يقود البشر. والانتكاسات الحادثة مصدرها الخطايا؛ ولذا يجب التصالح مع الرب عن طريق أداء

طقوس التكفير والصلاة والطواف بالمقدسات. وليست كل حملة صليبية حسنة في حد ذاتها؛ وقبل الاضطلاع بها، يجب مراعاة واجبات الدولة.

والحال أن بشرية الصليبيين، كما يعبر عنها جوانفيل، إنما تضيف إلى القيمة الأدبية للعمل، وهو أحد أهم مدونات الأخبار التي تركها لنا العصر الوسيط.

٧-٢-٣، التحضير

شكلت الاخفاقات السابقة درساً يجب أن يراعى. فعلى مدار ثلاث سنوات، سوف يقوم القديس لويس بالتحضير النشيط للحملة عن طريق المفاوضات الدبلوماسية والتنظيم المادي والمعنوي لمملكته، وحشد الإمكانات المالية والبحرية الضرورية. ويجتهد الملك أولاً في الحصول على دعم من خارج فرنسا، ولكن دون طائل. فالأمراء الأسبان منشغلون بعمليات الاسترداد المسيحي؛ والتوترات بين آل كابيه وآل بلانتاجينه لا تسهل اشتراك الإنجليز، وملك النرويج، المدعو إلى النجدة، يرفض الرحيل. ويحاول القديس لويس التوفيق بين البابا والإمبراطور؛ ولا يؤدي ذلك إلاّ إلى الفشل الذي يحرم الملك الفرنسي من مشاركة ملوك آخرين. وتبقى الحملة الصليبية مشروعاً ملكياً وفرنسياً على وجه الحصر. ثم، تحسباً لغيابه، يهتم الملك بتأمين حماية المملكة، سعيا إلى إتقاء أي هجوم إنجليزي أو أراجوني. وهو يعهد بحكم المملكة إلى بلانش دو كاستيل. ويرسل محققين لتلقي شكاوى كل أولئك الذين يرون أنهم تعرضوا لابتزازات ارتكبها موظفوه. وهو يحظر كل حرب خاصة على مدار ثلاثة أعوام وارتداء الثياب الفاخرة والفراء ويفرض تأجيلاً لسداد الديون. ويرى الملك أن من الواجب إشراك المملكة كلها في مجهود التطهير الروحي الذي يفرضه.

على أن الاستعدادات المادية ليست أقل أهمية: فالقديس لويس يوليها انتباهاً شديداً. فمثل هذه الحملة تستلزم إمكانات مالية ضخمة. وقد صرح مجمع ليون للملك بجباية واحد على عشرين من دخول الحيازات المشروطة الكنسية لمدة ثلاث سنوات؛ ويقرر القديس لويس أن تكون هذه ضريبة قدرها واحد على عشرة. أمّا مصادرة ممتلكات المرابين، وأغلبهم من اليهود، فهي تملأ خزائن الحملة الصليبية. ويتعين على مدن المملكة تقديم قروض إلزامية، ويجرى الضغط عليها في هذا الاتجاه من جانب الموظفين الملكيين، إلى جانب رجال الدين على الأقل. وقد أمكن حساب أن الملكية كانت تحوز ٢٥٠٠٠٠ جنيهاً سنوياً لأجل النفقات العادية، في حين أن تكلفة الحملة الصليبية تقدر بـ ١٥٣٧٥٤٠

جنيهاً، أُنفقت في ستة أعوام. والواقع أن القديس لويس قد أخذ على عاتقه عبئ إعاشة غالبية أفراد الجيش الاقطاعي الملكي وقد اشترى من الجنويين والمارسيليين السفن الضرورية، عبر وساطة أميرالاته ومصرفيين جنيئيين، واستخدم موارد الخزانة الملكية في إعادة بناء العديد من حصون الأرض المقدسة. ومن الواضح، في هذه الظروف، أن المملكة كلها قد أُجبرت على الإسهام في المجهود.

أمّا الجيوش، المؤلفة من متطوعين، فهي تضم أكثر من ٢٥٠٠ فارس و٥٠٠٠ من الرماة و١٠٠٠٠ من جنود المشاة، أي نحو ٢٥٠٠٠ رجل، إذا أضفنا الركابيين والسلاحدارات؛ ويحصل الجميع على أجر إمّا من الخزانة الملكية أو من كبار البارونات: ١٦٠ جنيها تورياً كأجر سنوي للفارس و٨٠ للرامي. ووفقاً لمدون الأخبار متى باريز، فإن تعزيزات لاحقة سوف تؤدي إلى زيادة عدد الفرسان إلى ٣٥٠٠ وعدد الجنود إلى ٢٢٠٠٠، خلال الحملة على المنصورة. وكان القديس لويس [لويس التاسع] قد جنّد في البداية كبار سادة المملكة، وفي المقام الأول منهم اخوته روبير دارتوا والفونس دو بواتييه وشارل دانجو، وكذلك دوقات بريتانيا وبورجونيا وسادة أقل شأناً كالسير دو جوانفيل، الذي سوف يدون فيما بعد أخبار الحملةِ الصليبية وعهدِ لويس التاسع. ومنذ عام ١٢٤٦، كان قد جرى عقد اتصالات مع كل من مارسيليا وجنوة، لأجل تجهيز سفن مناسبة للحملة. وقد جرى تعيين اثنين من الجنويين، هما أوجو ليركاريو وياكوبو دي ليفانتو، "أميرالين لأسطول الملك "، وباسم هذا الأخير، يعقدان اتفاقاً مع أصحاب السفن الذين يتعهدون بوضع سفنهم تحت تصرف القوات في الايج ــ مورت في عام ١٢٤٨. وفي الوقت نفسه يجري القيام بمشتريات ضخمة من أجل تزويد الجيش بالمؤن.

٧-٢-٤٠ الحملة

ومن ثم فإن الحملة الصليبية الملكية قد جرى التحضير لها جيداً. وفي ١٢ يونيو/ حزيران ١٢٤٨، يجري رفع راية سان دوني، رمز الاستنفار. وتمر الحملة بفيزليه ثم تركب البحر في الايج ــ مورت في ٢٥ أغسطس/ آب ١٢٤٨، وفي ١٨ سبتمبر/ أيلول، تصل إلى ميناء ليماسول في قبرص، المحدد بوصفه نقطة التجمع. ويساعد الثغر القبرصي الملك على إعادة النظام بين مسيحيي الشرق ــ فآنذاك كان البيازنة والجنويون يتعاركون في شوارع عكا ــ والحيلولة دون وقوف المسلمين على وجهة الجيش. وكانت هذه الوجهة قد تحددت منذ بداية الحملة: مصر، التي تسيطر على القدس ودمشق، والتي تعتبر مفتاح الأرض المقدسة. وهي وحدها التي يمكنها أن تعود على الصليبيين

بتعويضات حربية كافية لإعادة بناء الحصون السورية المتهدمة وإقامة حاميات فيها، يستحيل دونها الاحتفاظ بالمملكة المستردّة. ثم إن الملك يرتأي استيطاناً غربياً في مصر ويهتم بمقترحات التحالف مع المغول الذين يرسل إليهم سفيراً هو آندريه دو لونججيمو.

وبعد أشهر طويلة من انعدامٍ وخيمٍ للحركة، تنتقل القوات الفرنسية، التي ينضم إليها فرسان إمارة المورة، إلى مغادرة قبرص في ١٣ مايو/ آيار ١٢٤٩. و،بعد اجتياز صعب للبحر، تصل إلى مشارف دمياط في ٤ يونيو/ حزيران. وهي تهبط، وتجبر على الفرار قوات فخر الدين، أحد أفضل قادة السلطان الأيوبي العسكريين، وتدخل دون مقاومة إلى المدينة التي هجرها سكانها. وبدلاً من مواصلة هذا النجاح الأول بزحف سريع على القاهرة، يخيم الجيش على مدار ستة أشهر انتظاراً لوصول تعزيزات ولانقضاء موسم فيضان النيل.

على أن السلطان، مع اقتراحه مرة أخرى مبادلة دمياط بالمعاقل الرئيسية لمملكة القدس، إنما يتمكن من إعادة تكوين قواته والاستعداد للقتال. وفي ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني، بينما ينصح البعض بالاستيلاء على الإسكندرية، يزحف الجيش إلى الجنوب ويسلك الطريق الذي سبق أن سلكته الحملة الصليبية الخامسة. وعلى الطريق إلى القاهرة، تنتصب قلعة المنصورة القوية؛ ويأمر القديس لويس قواته باتخاذ مواقع لها في مواجهة المعسكر المصري، على الضفة الشمالية لنهر النيل، فرع تانيس. ثم ينجح في تحقيق اجتيازها للنهر عبر إحدى المخاضات. وما تكاد المناورة تبدأ حتى ينقض روبير دارتوا، قائد الطليعة، على المعسكر المصري ويستولي عليه، ثم، دون انتظار الجزء الرئيسي من الجيش، يطارد العدو المندحر حتى المنصورة، إلاّ أنه يتوقف هناك ويجري قتله هو وفرسانه (٨ فبراير/ شباط ١٢٥٠). ويجتهد الملك في حشد بقية الجيش. لكن الخسائر التي أحدثها الرماة الأعداء جسيمة. وبدلاً من الانسحاب أو معاودة الهجوم، تخيم القوات في معسكرها نحو شهرين ويجتاحها وباء. ويجد المصريون الوقت الكافي لبناء أسطول صغير يقطع خطوط الاتصال بين دمياط والفرنج. وعندئذ يقرر الملك تنظيم الانسحاب، ويسعى دون طائل إلى التفاوض مع السلطان، ثم يستسلم دون شروط؛ ويجري اقتياده أسيراً إلى القاهرة (٦ أبريل/ نيسان ١٢٥٠).

وتؤدي الثورة التي ترفع المماليك إلى سدة السلطة إلى إطالة محادثات الصلح. وفي أوائل مايو/ آيار، يتم عقد الاتفاق: فيتعهد الفرنج برد دمياط وبدفع ٨٠٠ ٠٠٠ بيزنط كفدية للأسرى وبالإفراج عن الأسرى المسلمين: ويثبّتُ السلطان للصليبيين ملكية الأرض

المقدسة، على الحالة التي كانت عليها في عام ١٢٤٨. وبعد شهر من الأسر، يتم الإفراج عن الملك فيغادر دمياط، التي يتم تسليمها إلى المماليك، متجهاً إلى عكا، حيث ينكب على تدعيم المملكة الفرنجية. وفي الغرب، يؤدي نبأ الهزيمة وأسر الملك إلى إثارة الفزع: أمن المعقول أن يتخلى الرب عن ملكٍ على هذه الدرجة من التقوى في مشروعه الذي يخدم الكنيسة والشرق المسيحي؟ والحال أن ما بقي من الحماس للحملة الصليبية إنما يتأثر تأثراً عميقاً من جراء ذلك.

وعندئذ تنبثق من جديد، مع تمرد الرعاة، تيمة الاصطفاء الرباني للفقراء. فمدفوعين بفورة تقوى شعبية، يقوم فلاحون بسطاء، تحت قيادة المدعو جاك المجري، بالرد على فشل حملة القديس لويس في مصر ويهجمون على الكنائس والنبلاء ورجال الدين واليهود، خاصة في أميان وباريس وأورليان وبروج. ويجري ذبح غالبيتهم في بواتو؛ وتنجح أقلية [من المتمردين] في ركوب البحر والوصول إلى عكا للخدمة في جيوش الملك الفرنسي هناك.

٧-٢-٥ . الإقامة في الأرض المقدسة

من الواضح أن مملكة عكا، التي صارت نهباً للمصالح الخاصة للأوليجاركية البارونية التي يقودها الإبلان، كانت عام ١٢٥٠ بحاجة ماسة إلى عون آل كابيه. والحال أن القديس لويس، الذي يقيم هناك أربع سنوات، إنما يهتم أولاً بالإفراج عن الأسرى الذين مايزالون في أيدي المصريين. ثم يضطلع بتحصين ما بقي من المملكة اللاتينية. وفي عكا، تجري إحاطة ضاحية مونموسار، في شمالي المدينة، بسور سوف يحاذيه سور آخر في السنوات التالية. وتجري إعادة بناء قيسارية بالكامل وتوفير الحماية لها بأحدور وخندق وسور مزود بأبراج مربعة قوية. وتستفيد كيفاس (حيفا) وعتليت ويافا وصيدا من براعة المهندسين الفرنسيين وسخاء الملك. فهذا الأخير يريد أن يجعل من هذه المدن الحصينة التي أعيد بناؤها مراكز للإسكان وللإستيطان.

وفي مجال الدبلوماسية، يبدو النجاح أقل شأناً. على أن بالإمكان الاستفادة من الخلافات بين المماليك وأيوبيي دمشق وحلب الذين لا يقبلون ثورة القاهرة. وبما أن القديس لويس سياسي أقل براعة من فريدريك الثاني ويعتبر نفسه ملزماً بالقَسَم الذي أداه، فإنه يرفض التحالف مع ملك حلب، الناصر يوسف؛ وهو يقف متفرجاً على هزيمة القوات الأيوبية على أيدي المماليك (فبراير/ شباط ١٢٥١). وفي العام التالي، يتفاوض على

تحالف مع مصر التي تريد استرداد دمشق؛ فيتوصل إلى استرداد مجمل فلسطين غربي نهر الأردن، فيما عدا أربعة معاقل، وسوف يتم عقد هدنة مدتها خمسة عشر عاماً مع المصريين. إلاّ أن من سوء الحظ أن الاتفاق لا يتم تطبيقه؛ لأن خليفة بغداد، المنزعج من الضغوط المغولية، ينجح في التوفيق بين دمشق ومصر، التي لا تعود من ثم بحاجة إلى عون الفرنج.

وعندما يرحل لويس التاسع إلى الغرب في ٢٥ أبريل/ نيسان ١٢٥٤، يترك في الأرض المقدسة مائة فارس على حسابه، تحت قيادة جوفروا دو سيرجين. وهكذا فإن المملكة اللاتينية التي لم يعد بوسعها انتظار شيء يذكر من الغرب غير المبالي بمصيرها إنما تُترك لقواها الخاصة؛ وأكيد أنها قد أصبحت أفضل تحصيناً، غير أنها لعجزها عن توثيق أواصرها مع الدول اللاتينية الأخرى، أنطاكية وطرابلس وقبرص، سوف تغرق سريعاً في الصراعات الحزبية العقيمة التي كانت السلطة الأجنبية القوية للملك الفرنسي قد نجحت في كبتها على مدار عدة سنوات، ولكنها تعود إلى الظهور بشكل أفدح بعد رحيله. والحال أن حصون سوريا وفلسطين هي النتيجة الملموسة والمقيمة الوحيدة لحملة صليبية أبعدت القديس لويس عن مملكته لمدة ست سنوات. وعندما يرجع إلى باريس في ٧ سبتمبر/ أيلول ١٢٥٤، يتعذر القول ما إذا كان يريد مجرد مواصلة مساعدة الأرض المقدسة بإرساله إعانات إليها أو ما إذا كان يفكر بالفعل في الرحيل مرة أخرى. فروح الحملة الصليبية التي وصلت إلى أدنى مستوى لها في الوعي الغربي لا يعود يتمسك بها غير الملك المسيحي جداً.

٧-٣٠ الحملة الصليبية الثامنة (١٢٧٠)

٧-٣-١٠ أصلها

يؤدي ارتقاء المماليك سدة الحكم إلى تغيير عميق للتوازن السياسي في الشرق الأدنى، على حساب المملكة اللاتينية. فبيبرس، الذي صار سلطاناً في القاهرة، سوف يجتهد، اعتباراً من عام ١٢٦٣، بعد إزالته الخطر المغولي (معركة عين جالوت، ٣ سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠)، في تدمير أو فتح المعاقل التي يسيطر عليها الفرنج. فواحدة إثر الأخرى تسقط الناصرة وجبل طابور في عام ١٢٦٣ وأرسوف وقيسارية، وعتليت وحيفا في عام ١٢٦٥، وصفد وهونين وتبنين في عام ١٢٦٦ وبوفور [شقيف أرنون] ويافا وأنطاكية في عام ١٢٦٨. وهكذا فإن الدول الفرنجية إنما تتمزق بالفعل.

والنداءات التي توجهها إلى الغرب قلما تجد صدى. فالبابوية متورطة جداً في النضال ضد آخر آل هوهنشتاوفن بحيث لا يمكنها عمل شيء: وهي تتساءل عن فعالية تحالف مع المغول، في حين أن شارل دانجو، سيد إيطاليا الجنوبية بعد انتصاره في بنيفنتو (فبراير/ شباط ١٢٦٦)، يفكر بالفعل في استئناف البرنامج الشرقي لأسلافه. ولكن بهدف الاستيلاء هذه المرة على القسطنطينية، التي استردها ميخائيل الثالث باليولوجوس في عام ١٢٦١. ومرة أخرى، يشفق الملك الفرنسي [لويس التاسع] على الشرق اللاتيني الذي حلت به المصائب. والحال أن فكرة الحملة الصليبية تسيطر على تفكيره طوال أواخر عهده. وهو يرسل إعانات منتظمة إلى الأرض المقدسة، تصل إلى نحو ٤٠٠٠ جنيه سنوياً. لكن هذا لا يكفي. فالقديس لويس يريد التعويض عن فشل الحملة الصليبية لعامي ١٢٤٩ و١٢٥٠ والذي يعتبر نفسه مسئولاً عنه مسئولية كاملة. وهكذا، ففي ٢٤ مارس/ آذار ١٢٦٧، يقرر تناول الصليب من جديد. ولا يستثير العهد الذي يقدمه الملك حماساً كبيراً. فالشعراء المنشدون والتروبادور [الشعراء المتجولون] يتهكمون على فشل المغامرات الشرقية، وجوانفيل، الرفيق القديم للملك، يرفض مرافقته مرة أخرى.

وأرستقراطية المملكة لها تحفظاتها. والتأييد الوحيد الممكن يجيئ من جاك الأول، ملك أراجون، الذي برز في حرب الاسترداد المسيحي الإسبانية ويحلم بانتصار في الأرض المقدسة لكي يتوج مجده؛ ومن هنري الثالث أيضاً، ملك إنجلترا، الذي يريد الوفاء بعهد قديم بالفعل. والواقع أن ابنه، الأمير ادوارد، هو الذي يقرر الرحيل.

٧-٣-٢، الاستعدادات

كانت الاستعدادات دقيقة دقتها في عام ١٢٤٨. فقد حصل القديس لويس من البابوية على تصريح بجباية ضريبة عُشر لمدة ثلاث سنوات على دخول رجال الدين؛ وهو يحصل على مساعدة من مدن المملكة، على شكل ضريبة اقطاعية مضاعفة على العلمانيين، ويضغط على اليهود، بينما ينجح أخوه، الفونس دو بواتييه، في جمع ١٠٠٠٠٠ جنيه، بجباية ضريبة عن المنازل. وسعياً إلى إقناع الأكابر، يترك الملك لهم جباية بعض الدخول التي تنازلت البابوية له عنها. وهو يُقرض ٧٠٠٠٠ جنيهاً تورياً للأمير الإنجليزي ادوارد لكي يسهل رحيله. وكما في عام ١٢٤٨، يجري عقد اتصالات مع أصحاب السفن الجنويين والمارسيليين الذين يتعهدون، بناء على تعاقد، بأن يقدموا بحسب الترتيب ١٩ و٢٠ سفينة تكون في خدمة الملك في الايج ــ مورت، في بداية صيف ١٢٧٠. وتتميز الوثائق بدقة عظيمة حول حجم السفن وتسليحها ومدة الرحلة وعدد

الثغور التي سوف يتم التوقف فيها، لكنها لا تقول شيئاً عن وجهة الحملة، المتروكة بالكامل لتقدير الملك. ويقع الاختيار على تونس، حتى قبل رحيل القوات. فلماذا هذا الانحراف عن السبيل، في حين أن مصر المملوكية هي الخصم الرئيسي للدول الفرنجية؟ مع أن المصادر المتاحة ليست صريحة تماماً، إلاّ أن هناك ميلاً إلى اعتبار هذا التحول نتيجة لعلاقات معقدة بين القديس لويس وأخيه شارل دانجو، ملك صقلية.

فمنذ فتح إيطاليا الجنوبية، وشارل دانجو على علاقة سيئة مع أمير تونس الحفصي الذي لم يقدم له ولا لرعاياه عين الامتيازات التي يتمتع بها منذ ما قبل عام ١٢٦٦ آل شتاوفن. ومن جهة أخرى، فإن أطماع شارل دانجو في البحر المتوسط، والموجهة نحو القسطنطينية، يبدو أنها تتناقض مع تنظيم حملة صليبية في اتجاه مصر؛ فهذه الأخيرة قد تسعى إلى تحالف مع بيزنطة وتهدد بشكل غير مباشر مشاريع شارل دانجو. على أن سيد إيطاليا الجنوبية، الذي يمارس القديس لويس عليه نفوذاً أدبياً، لا يمكنه التهرب من نداء الملك الفرنسي. وهذا الأخير يرى أن نزولاً في تونس ليس من شأنه أن يحول دون وصول الحملة الصليبية إلى غايتها: ألا يقال إن الجيوش المصرية تجلب مجندين من تونس، وهي بلد لا يبدو، في نظر المعاصرين، بعيداً جداً عن مصبات النيل؟ وهكذا فإن التحول إلى تونس إنما يؤدي إلى التوفيق بين شواغل الأخوين. ذلك ان القديس لويس، بمطاردته للحفصيين، إنما يتماشى مع مثله الأعلى كصليبي؛ في حين أن شارل دانجو، باسترداده لحقوقه في تونس، إنما يستعيد مصالحه السياسية والتجارية. ويتساءل مؤرخون أخرون عن السفارة التي يقال إن أمير تونس قد أرسلها إلى الملك الفرنسي: هل صحيح أن هذا الخير قد حاول تحويل الأمير الحفصي إلى اعتناق المسيحية ؟

٧-٣-٣-٠. الحملة

إن القوات الملكية، الأقل بكثير مما في عام ١٢٤٨ ــ يبدو من المعقول تقديرها بنحو ١٠ ٠٠٠ رجل ــ إنما تركب البحر في ٢ يوليو/ تموز ١٢٧٠ من الايج ــ مورت ومن مارسيليا، متأخرة شهراً، إذ كان يتعين انتظار السفن الجنوية. ويجتمع الأسطول في كاجلياري، حيث يتم كشف الوجهة التونسية للمشاركين الذين يجري التأكيد لهم على أنهم سوف يفوزون بعين الغفران المترتب على محاربة مسلمي الشرق.

وفي ١٨ يوليو/ تموز، يجري الهبوط، دون معارضة كبيرة: فيستقر الجيش في موقع قرطاج القديمة، بينما تتحصن قوات الأمير وراء أسوار تونس. ولا مفر من انتظار

وصول شارل دانجو لمحاولة شن الهجوم. وسرعان ما يؤدي الحر ووباء الطاعون إلى إحداث خسائر جسيمة: إذ يختفي جان دو نيفير؛ ويسقط الملك مريضاً ويموت في ٢٥ أغسطس/ آب، في سبيل الدين. وعندما يصل الجيش الصقلي، يتفاوض شارل دانجو مع الأمير ويقرر الانسحاب. وهو يحصل على تعويض حربي قدره ٢١٠ ٠٠٠ أوقية من الذهب، يعود له شخصياً ثلثها، كما يستعيد امتيازات ملوك صقلية في تونس. ويرحل الأسطول إلى صقلية في ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني، وتلحق به خسائر جسيمة بسبب عاصفة في عرض البحر قبالة ميناء تراباني، وهي خسائر يرى فيها بعض الحجاج عقاباً ربانياً. والحال أن عودة الملك الجديد، فيليب الثالث، إلى فرنسا، إنما تبدو أشبه ما تكون بجنازة: فالأسطول يحمل رفات القديس لويس ورفات عدد آخر من أفراد الأسرة المالكة الذين ماتوا خلال الحملة. وفي هذه الظروف، يتفق البارونات على تأجيل الوفاء بعهدهم الصليبي لمدة ثلاث سنوات.

ولا تقتصر الحملة الصليبية الثامنة البتة على حملة تونس. فالواقع أن جاك الأول، ملك أراجون، مخلصاً لوعوده، يركب البحر في خريف ١٢٦٩، لكنه يهبط إلى البر في الايج ــ مورت، تاركاً سفنه تواصل الرحلة إلى الأرض المقدسة. وتسقط التعزيزات الأراجونية في كمين ينصبه بيبرس في سهل عكا ويجري ذبحها كلها تقريباً. ثم إن أسطولاً صغيراً ثانياً، تحت قيادة الأمير الإنجليزي ادوارد، ينضم في تونس إلى الجيش الفرنسي في لحظة عقد الهدنة مع الأمير الحفصي. على أن الإنجليز، بالرغم من قلة عددهم، لا يتخلون عن الرحلة، ويصلون إلى عكا في ربيع ١٢٧١. وهم يشنون بعض الغارات المحدودة، ويشهدون عاجزين استيلاء المماليك على القلعة البيضاء (صافيتا) وحصن الفرسان ومونفور [قلعة قُرَيْن]. وفي أبريل/ نيسان ١٢٧٢، تعقد بين بيبرس وهيج الثالث، ملك قبرص، معاهدة صلح مدته عشر سنوات تكفل الهدنة لعكا كما تكفل للحجاج الوصول إلى الأماكن المقدسة. أما الأمير الإنجليزي ادوارد، آخر الواصلين لنجدة الأرض المقدسة، فهو لا يجد ما يمكن عمله سوى الرحيل، تاركاً في الساحة قوة صغيرة بعد أن حقق سمعة ضخمة كرجل ورع.

على أن هاتين الحملتين لا تتميزان على أي مستوى بما يداني مجهود القديس لويس المكثف. لكن التحضير المعنوي والمادي الدقيق من جانب الملك لم يؤدِّ إلاَّ إلى كارثة جديدة. وبهذا تنتهي منذ ذلك الحين الحملات الصليبية الكبرى التي قادها ملوك الغرب أو مندوبون بابويون، على رأس سلاح فرسان قوي. ولا تتخلف مشاريع " العبور إلى ما

وراء البحر" عن الظهور بعد عام ١٢٧٠، لكنها لا تستثير غير صدى محـــدود. وسـوف تحدث في القرن الرابع عشر حملات في اتجاه مصر أو في اتجاه بيزنطة التـــي يـهددها العثمانيون؛ وحتى إذا كانت هذه الحملات تتزين بهيبة الحملات الصليبية، فإنها لا تزيد فـي واقع الأمر عن حملات بحرية محدودة، حيث تتحالف بعض القوى المتوسطية بمباركـــة من البابوية ويلمع فرسان مغرمون بالبطولة ومحتفظـــون بـالحنين إلـى فكـرة الحملـة الصليبية. لكن هذه الحملة لا يعود لها وجود.

٠٨ الحملات الصليبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

إن استيلاء قوات الأشرف، السلطان المملوكي، على عكا في ١٨ مايو/ آيـار ١٢٩١، لا ينهي تاريخ الحملات الصليبية. إنه يثير في الغرب شعوراً بالصدمة، لكنه شـعور أقـل حدة من الشعور الذي أعقب فتح صلاح الدين القدس في عام ١١٨٧. والواقع أن الغـرب قد اكتشف أن مسألة الأرض المقدسة ليست بهده الحيوية التي عزيت إليـــها؛ ولاشـك أن قدراً من اللامبالاة قد رافق تقدم المماليك ونجاحاتهم في مواجهة الفرنـــج. علـى أن روح الحركة الصليبية لم تمت بالرغم من كل شيء. فالبابوية تنفخ من حين لآخر فـي الجمـر. وهي تجتهد في حفز وعي الجماعة المسيحية بإبراز فكرة أن اسـترداد الأرض المقدسـة يجب أن يكون شاغل الجميع. وقد لجأ الناجون من كارثة عام ١٢٩١ إلى قبرص، حيـث توجد قيادات الجمعيات العسكرية التي تنتظر ظروفاً أنسب لاستئناف الصراع. والحـال أن نجاحات ايلخان غازان في عام ١٢٩٩ في مواجهة المماليك، إنما تستثير الغرب وينتعـش الأمل في تحالف ممكن بين الجماعة المسيحية والمغول. ويظهر أن هناك سبيلين ممكنيـن لاسترداد الأرض المقدسة. إذ يجب أولاً إضعاف الخصم باسـتخدام السـلاح الاقتصـادي وحظر التجارة مع المسلمين، بل وفرض الحصار على مصر. وعندئـذ يمكـن مهاجمـة الخصم المنهك، بتنفيذ مشروعات الحملة الصليبية التي طرحها منظرون عديـدون، حتـى قبل السقوط النهائي للدول اللاتينية.

والواقع أنه منذ مجمع ليون الثاني (١٢٧٤) تتطور دعاية نشيطة من أجل تنظيم حملـة صليبية جديدة. ذلك أن بحوثاً وكراسات عديدة، هي بحوث وكراسات جيلبـير دو تورنيـه وجيوم الطرابلسي وآمبير دو رومانس، المقدمة إلى البابا جريجوريوس العاشر، بمناسـبة مجمع ليون، إنما تستكشف السبل الأنسب للاحتفاظ بالأرض المقدسة. وبعد سـقوط عكـا، تصبح خطط الاسترداد جنساً أدبياً حقيقياً. وهي مصحوبة بسلسلة من الحمـلات الموجهـة

ضد الدول الإسلامية في الشرق الأدنى، خاصة مصر، وبالأخص عثمانيي آسيا الصغرى الذين تهدد قوتهمُ المتزايدةُ الإمبراطورية البيزنطية وشعوبَ البلقان.

ولا تعود الدعاية إلى الحملة الصليبية مقصورة على وصف المواجهة بين الغرب والإسلام. فهي تسعى ــ شأن البابا اينوشنتيوس الرابع والقديس لويس في القرن الثالث عشر ــ إلى كسب تعاون المغول الذين يجري القيام بينهم بنشاط تبشيري مكثف؛ ويقوم جان دو مونتكورفينو بإنشاء هيراركية كاثوليكية في الصين. ومن حين لآخر يجري إحياء فكرة الحملة الصليبية من جانب الفرسان المتجولين الناجين من دمار الأرض المقدسة، والذين تحرّكُ مروياتهم الوعي الغربي؛ كما أن ملوكاً مسيحيين من الشرق، كبيير الأول، ملك قبرص، وليون السادس، ملك أرمينيا، والبازيليوس يوحنا الخامس باليولوجوس، وخليفته مانويل الثاني، يجيئون إلى الغرب ساعين إلى كسب العون والمؤازرة. وتحبذ بابوية افينيون دعاية ومحاولات الحركة الصليبية، يحدوها الأمل المستديم في كسب تحالفاتٍ مساندةٍ من جانب المغول أو الجيوش الأسطورية التي يقودها خادم السر يوحنا.

وفي الشطر الأول من القرن الرابع عشر، خاصة، تتكاثر خطط الحملة الصليبية. والحال أن تاديوس من نابولي، وهو شاهد على حصار عكا في عام ١٢٩١، إنما يحث أمراء الغرب، في عمله *Hystoria de desolacione...tocius Terre Sancte* [تاريخ دمار ... كل الأرض المقدسة] على توحيد قواهم تحت قيادة الكنيسة لإنقاذ الأرض المقدسة. أما فيدنزيو من بادوا، مستشار البابا نيكولاس الرابع (١٢٨٨ ــ ١٢٩٢)، فهو يرى في عمله *Liber recuperationis Terre Sancte* [كتاب استرداد الأرض المقدسة] فرض حصار بحري على الإمبراطورية المملوكية وتحريك أسطول وقوة برية في آن واحد. ومن جهة أخرى، يصوغ رامون لول خطة حملة صليبية يتخلى عنها فيما بعد لكي يثني على العمل التبشيري في أرض الإسلام؛ وهو يبشر من خلال ضرب مثل شخصي، لكن البربر يرجمونه بالحجارة في بجايه في عام ١٣١٦.

وفي بلاطِ فيليب الرابع الجميل، يعبر عدة دعاة كتابة عن شواغل الملك الفرنسي الذي يدفعه حلمه بالهيمنة في الغرب إلى تولي قيادة الحرب المقدسة. وهكذا فإن بيير ديبوا، مؤلف كتاب *De recuperatione Terre Sancte* [حول استرداد الأرض المقدسة] (١٣٠٦)، يقترح توحيد الجمعيات العسكرية واستخدام ايراداتها لأجل تنظيم حملة صليبية برية وبحرية في آن واحد، تحت قيادة ملك فرنسا؛ وهو لا يستبعد التبشير بالانجيل بين

الكفار في لغة محلية. أمّا فيما يتعلق بجيوم ديران، أسقف ميند، فهو يقترح إرسال إخوةٍ وعاظٍ إلى ما وراء البحر، قبل تنظيم حملة بحرية مهمتها الاستيلاء أولاً على القسطنطينية، قبل أن تصل إلى الأرض المقدسة. ومن جهة أخرى، فإن البندقي مارينو سانودو تورسيلّو، في النسختين المتتاليتين من عمله *liber secretorum fidelium crucis* [كتاب أسرار المخلصين للصليب] (١٣٠٩ و١٣٢٣)، يشدّد على استخدام الوسائل الاقتصادية للتغلب على القوة المملوكية: الحظر الشامل للتجارة مع المسلمين، تدشين حصار إقتصادي لمصر، تحت مراقبة السفن البابوية، منع تجارة العبيد مع الإسكندرية، فكل هذا لابد أن يسهل نجاح حملة صليبية.

على أن اللاهوتيين والسياسيين ينقسمون حيال الأهداف: فالدومينيكي الإنجليزي روبرت هولكوت يرى، نحو عام ١٣٤٠، تحويل المسلمين بحد السيف إلى اعتناق المسيحية، وبعد ذلك بخمسين سنة، يرفض مواطنه جون جوور بالكامل فكرة الحملة الصليبية، في حين أن المستشار السابق لمملكة قبرص، فيليب دو ميزيير، يريد استرداد شرف الجماعة المسيحية بحفز فروسية جديدة (فروسية آلام المسيح)، تكون رأس حربةٍ لحملةٍ صليبية شاملة يقوم بها الغرب.

ولا مراء في أن هذه الأعمال الدعائية تسهم في إيقاظ اهتمام الغرب من آن لآخر بمصائر الأرض المقدسة، أو مخاوفه حيال الزحف العثماني. وفي عام ١٣٤٤، يشكل البابا كليمانس السادس عصبة مقدسة تجمع البابوية والبندقية وملك قبرص وأوسبتالية رودس. وتحت قيادة الجنوي مارتينو زكريا، يستولي أسطول من عشرين سفينة حربية على سميرنا [أزمير] التي تبقى في أيدي المسيحيين إلى عام ١٤٠٢. على أن حملة الدوفاني أمبير الثاني دي فيينوا في بحر ايجة لا تنجح في توسيع هذا النجاح الأول ضد الأتراك. أمّا حملة بيير الأول، ملك قبرص، الأفضل تحضيراً، فهي تريد أن تكون " عبوراً شاملاً " للجماعة المسيحية؛ وبعد استيلائه على أضاليا، على الطريق الجنوبي لآسيا الصغرى، يقوم الملك بجولة مدتها ثلاث سنوات في أوروبا، حيث يجمع العون والعتاد. وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٣٦٥، يبحر أسطول من ١٦٥ سفينة إلى الإسكندرية، الميناء التجاري العظيم في المشرق. ويجري اجتياح المدينة وسَلبها ونهبها على مدار خمسة أيام، يرحل بعدها الأسطول الجبار بعد أن جمع غنائم ضخمة، مكتفياً بنجاح عابر. وعند وصول نبأ اجتياح الإسكندرية، يتعاظم الحماس في الغرب. فيقوم أميديه السادس، كونت سافوا، الذي تناول الصليب، بحشد عدد من المرتزقة ويقرر

الخروج لمساعدة ابن عمه، البازيليوس يوحنا الخامس، في محاربة الأتراك. وهو يستولي على غاليبولي، أول موقع أوروبي استولى عليه الأتراك في عام ١٣٥٦، ثم يعبر إلى البحر الأسود، ويكتفي بتحرير يوحنا الخامس، أسير البلغار، وبانتزاع بعض المدن الساحلية من هؤلاء الأخيرين (١٣٦٦ ــ ١٣٦٧)، أمّا الحملة الصليبية على بلاد البربر في عام ١٣٩٠، فيشترك فيها الأسطول الجنوي وقوات فرنسية، تحت قيادة الدوق لويس الثاني البوربوني، وهي تفشل أمام المهدية في عام ١٣٩٠ ولا تصل إلاّ إلى هدنة مدتها عشر سنوات تتوقف خلالها أعمال القرصنة من جانب البربر، مع وعد بدفع إتاوة.

والحال أن المحاولتين الأكثر جدية لنجدة القسطنطينية والبلقان من الضغط العثماني إنما تفصل بينهما خمسون سنة. ففي عام ١٣٩٦، يتحمس النبلاء الفرنسيون والبورجونيون للخروج لمحاربة الأتراك، إلى جانب ملك المجر سيجيسموند وقوات قادمة من الإمبراطورية ومن بولندا وفالاكيا، بل ومن إنجلترا وإيطاليا وإسبانيا. وتحت قيادة جان دو نيفير، الذي سوف يُدعى فيما بعد بجان الذي لا يعرف الخوف، ينضم الجيش الفرنسي ــ البورجوني إلى قوات الملك سيجيسموند في بودا في أغسطس/ آب ١٣٩٦. والحال أن نحو ١٠٠ ٠٠٠ رجل، لكنهم غير منضبطين إلى أبعد حد، سوف يحاصرون معقل نيكوبوليس على نهر الدانوب، انتظاراً للوصول المتوقع لأسطول بندقي. على أن السلطان بايزيد الأول يرفع الحصار عن القسطنطينية ويزحف بسرعة إلى نيكوبوليس؛ وفي ٢٤ سبتمبر/ أيلول، يدحر جيش الغرب؛ ويهرب سيجيسموند عن طريق الدانوب، بينما يتعين على النبلاء البورجونيين، الأسرى، أن يدفعوا فدية قدرها ٢٠٠ ٠٠٠ فلورين. وهكذا فإن اندحار الفرسان الغربيين في نيكوبوليس إنما يبدد منذ ذلك الحين كلّ أمَل في الانتصار على الإمبراطورية العثمانية.

أمّا المحاولة الأخيرة فهي محاولة الحملة الصليبية المسماة بحملة فارنا. ففي مجمع فلورنسا (١٤٣٩)، كان الوفد البيزنطي قد وافق على اتحاد الكنيستين، وذلك في مقابل وعد بالحصول على غون عسكري من الغرب. والواقع أن شعوب البلقان والبولنديين والرومانيين والمجريين هم وحدهم الذين يلبون النداء الذي نقلته البابوية. إلاّ أنه في ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٤٤٤، تنجح قوات السلطان مراد الثاني في سحق جيش قوامه ٢٥ ٠٠٠ رجل بقيادة ملك بولندة ــ المجر، فلاديسلاف الثالث، وفويفود [قائد] ترانسلفانيا، يانوش كورفان هونيادي. وفي ذات الوقت الذي ينفتح فيه الطريق أمام العثمانيين لفتح القسطنطينية، فإنَ اتحاد الكنيستين يهلك في فشل فارنا.

ولكن هل يظل من الممكن في تلك الظروف الحديث عن حملة صليبية ؟ على مدار القرنين الرابع عشر والخامس عشر، يكف ملوك الغرب، ربما فيما عدا آل كابيه، عن الاهتمام بالمشروع، ولا تقدم له الجمهوريات البحرية الإيطالية غير عون محدود. والحال أن الحملة الصليبية التي تشجع عليها البابوية ـ حتى بعد سقوط القسطنطينية ـ ويثني عليها عديدون من الدعاة، إنما تكف عن أن تكون " عبوراً شاملاً " من جانب الجماعة المسيحية لاسترداد الأماكن المقدسة. فهي تُختزَلُ إلى حملات محدودة تحاول وقف التوسع العثماني ولا يكون من شأنها إلاّ زيادة حدة حنق الروم على الغرب العاجز عن إنقاذ إمبراطوريتهم. وكما كتب فيليب دو ميزيير، مستشار مملكة قبرص، فإن من يسعى إلى التشجيع على اتحاد الغرب من أجل شن حملة صليبية، إنما ينتمي إلى الماضي في عالم غيَّرَ مثله الأعلى.

زيارة فريدريك الثاني إلى القدس (١٢٢٩)

ابن واصل (١٢٠٨ ــ ١٢٩٨) قاض وعالم من مدينة حماة، دخل في خدمة المماليك وقام بتدريس الفقه وكتب بحوثاً في المنطق والفلك وترك، بالأخص، مدونة أخبار عنوانها مفرِّج الكروب عن حياة سوريا زمن أواخر الأيوبيين وأوائل المماليك:

ولمّا تم أمر الهدنة، استأذن الأنبرطور السلطان في زيارة القدس، فأذن له وتقدم السلطان إلى القاضي شمس الدين، قاضي نابلس ــ رحمه الله ــ وكان جليلاً في الدولة متقدماً عند ملوك بني أيوب، أن يلازم خدمة الأنبرطور إلى أن يزور القدس ويرجع إلى عكا. فحكى لي شمس الدين ــ رحمه الله ــ قال: لما قدم الأنبرطور القدس لازمته كما أمرني السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف، فرأى ما فيه من المزارات. ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى(١) فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة(٢). ولما وصل إلى محراب الأقصى(٣) أعجبه حسنه وحسن المنبر(٤)، وصعد في درجة إلى أعلاه، ثم نزل وأخذ بيدي وخرجنا من الأقصى، فرأى قسيساً وبيده الانجيل، وهو يريد دخول الأقصى، فصاح عليه صيحة منكرة وقال: " ما الذي أتى بك إلى هاهنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هاهنا لأخذن ما في عينيه، نحن هنا مماليك هذا السلطان الكامل وعبيده، وإنما تَصَدّق عليَّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم طوره ". فمضى ذلك القسيس وهو يرعد خيفة منه. ومضى الأنبرطور إلى الدار التي عُيِّن نزوله فيها، فنزل بها.

قال القاضي شمس الدين: وأوصيت المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة إحتراماً له، فلمّا أصبحنا ودخلت عليه قال لي: " يا قاضي لِمَ لَمْ يؤذن المؤذنون على المنابر على جري عادتهم؟ ". فقلت له: " إن المملوك منعهم من ذلك إعظاماً للملك واحتراماً له ". فقال لي: " أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع اذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل "، ثم رحل إلى عكا.

ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفرنج، أخذ الملك الناصر(٥) [داود] في التشنيع على عمه الملك الكامل. وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف، سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزي الواعظ ــ وكان له قبول عند الناس في الوعظ ــ في أن يجلس بجامع دمشق للوعظ، ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يُحزن الناس

ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والعــار. وقصد بذلك تنفير النــــاس من عمه ليناصحوه في قتاله.

المصدر:

جمال الدين محمد بن سالم بن واصل:

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٢، الجزء الرابع، ص ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

---

١ ـ المسجد الأقصى بناه الخليفة الأموي الوليد الأول، بين عامي ٧٠٥ و٧١٥.

٢ ـ مسجد قبة الصخرة، المسمى اليوم خطأ بمسجد عمر، بناه الخليفة الأموي عبد الملـك، بين عامي ٦٨٧ و٦٩١.

٣ ـ المحراب، كوة مزخرفة تشير إلى اتجاه الكعبة، قبلة الصلاة.

٤ ـ المنبر، منصة خشبية، كانت مخصصة في الأصل للنبي ولخلفائه، الذين كانوا يتلقـون أمامها البيعة من المسلمين، وقد أصبحت منصة مدرجة، يتلو الإمـــام الخطبــة مــن فوقها.

٥ ـ صاحب دمشق من عام ١٢٢٧ إلى عام ١٢٢٩، ثم صاحب الكرك من عــام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٩.

الفصل السابع
الإسلام والحملات الصليبية

هذا العنوان الفضفاض قد يفسح مجالاً لسوء الفهم. فهو يميل إلى تعزيز الفكرة الزائفة التي تتحدث عن تعارض جذري بين الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي، عن صراع مهول ما تزال نتائجه لها حاليتها. إلاّ أنه ليس هناك ما هو أكثر بطلاناً من هذه الفكرة. أولاً لأن الإسلام مفهوماً بوصفه كياناً جغرافياً ــ سياسياً لا يبدو أنه يشكل وحدة في عصر التوسع الغربي في الشرق. فمن المعروف أنه ينقسم إلى كيانين كبريين، لا يمكن اختزال أحدهما في الآخر: العالم السلجوقي، السني، الذي يجمع إيران والعراق وسوريا وآسيا الصغرى، وإن كان ينقسم إلى إمارات وسلطنات مستقلة إلى هذا الحد أو ذاك، من جهة؛ والعالم الفاطمي، الشيعي، الذي يتألف من مصر، من جهة أخرى. وبين هذين الكيانين، تشكل سوريا رهاناً، يقع أحياناً في أيدي السلاجقة، ويقع أحياناً أخرى في أيدي الفاطميين، في الشطر الثاني من القرن الحادي عشر. والحال أن سوريا وحدها هي المعنية حقاً بالحملات الصليبية التي لا تمس غير هامش جد محدود من العالم الإسلامي. ففيها تدور المعارك وتحدث فتوحات الغربيين وينشأ شكل أول للاستيطان وللاستعمار. وقد تمكن الصليبيون من الاستفادة في أواخر القرن الحادي عشر والعقود الأولى من القرن الثاني عشر من الانقسام العميق للعالم الإسلامي السوري. واعتباراً من اللحظة (نحو عام ١١٣٠) التي يكرس فيها الزنكيون كل طاقتهم لإعادة تكوين وحدة سوريا المسلمة، فإن أيديولوجية الجهاد تعاود الظهور ويجري تصوير الاسترداد الإسلامي في صورة مثل أعلى لكل مؤمن، ومن ثم تصبح الممتلكات الفرنجية عرضة للتهديد. إلاّ أنه سوف يكون من الوهم اعتبار الحرب المقدسة الإسلامية معطى مستديماً: ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر، تتناوب أزمنة صعبة مع أزمنة التقاط للأنفاس، إلى حين تمزق واختفاء الدول اللاتينية في الأرض المقدسة، في أواخر القرن الثالث عشر، تحت ضربات المماليك الشديدة.

٠١ الحملات الصليبية من وجهة نظر المسلمين

مع أن المسلمين كابدوا الصدمة الرئيسية للحملات الصليبية، إلاّ أنهم قلما فهموا خصوصيتها. ويبدو أن تعبير حرب الصليب قد صيغ في العصر العثماني، في الأوساط المسيحية في الشرق؛ فهو غير معروف بالمرة في العصر الوسيط في المصادر المسلمة التي تشير إلى الصليبيين باسم الفرنج، المعرّفين بجنسهم بأكثر مما بديانتهم. وكانت دوافعهم العميقة غير مفهومة بالنسبة للفلاسفة ورجال الدين المسلمين. بل إن المقارنة بين نظرية الحركة الصليبية والجهاد لا يجري عرضها. والحال أن الحملة الصليبية ذات هدف محدد وأمد محدود: حماية أو تحرير المسيحيين المضطَهَدين ورد الأماكن المقدسة في فلسطين إلى الجماعة المسيحية. أمّا الجهاد، خلافاً لذلك، فله هدف كوني يفرض نفسه على جميع المسلمين: إظهار دين الحق على الدين كله. وفي هذه الظروف، لا يرى المسلمون في الصليبيين غير أعداء للإسلام، لا يسعون إلاّ إلى الاستيلاء على أراضيهم، شأن البيزنطيين، الخصوم التقليديين للمسلمين على تخوم الأناضول وسوريا. والحال أن الغزو التركماني لهذه التخوم هو الذي يحيي أيضاً ممارسة **الغزوة**، التغلغل المحدود في الأقاليم الحدودية، سعياً إلى الفوز بالغنائم.

ولا تمس الحملات الصليبية غير هامش محدود من الأرض الإسلامية. وهي لا تعني في شئ مراكز الإسلام الاقتصادية والسياسية الكبرى. وأتراك آسيا الصغرى لا يهتمون بها ولا يشاركون في الصراع إلاّ بقدر مرور الجيوش الغربية في أراضيهم. أمّا سوريا، وبدرجة أقل مصر، فهما وحدهما اللتان تعانيان من التوسع الفرنجي ومن ضرورة الرد عليه. على أن الظاهرة تؤثر بشكل غير مباشر على أقاليم أوسع.

ويتعرض كيان الشرق الأدنى للتهديد عندما يؤدي تفوق الأساطيل الإيطالية إلى تعطيل الاتصالات البحرية فيما بين البلاد الإسلامية وعندما يسعى الصليبيون العابرون إلى ما وراء نهر الأردن إلى السيطرة على الطرق التقليدية للقوافل. ومغامرات الفرنج لها أصداء سيكولوجية جد عظيمة؛ فالاستيلاء على القدس في عام ١٠٩٩ يستثير ألماً عميقاً، وإذلال الاخوة في الدين الذين يسقطون تحت سيطرة الفرنج إنما يحرك شعوراً أليماً بالمرارة في سوريا؛ وبالمقابل، لا يظهر أو لا يكاد يظهر أي رد فعل في الغرب الإسلامي أو في خلافة بغداد.

لكن العالم الإسلامي في مستهل القرن الثاني عشر جد ممزق بحيث إن كل مُلَيْك سوري يسعى إلى الدفاع عن مصالحه المباشرة: فمن الأفضل التفاهم مع السادة الجدد، بتقديم تنازل ما، بدلاً من الاختفاء بعد انتظار عون الجار بلا طائل. إلاّ أنه اعتباراً من عشرينيات القرن الثاني عشر تحدث يقظة للعالم الإسلامي؛ ويجري إحياء تيمة الجهاد ضد الفرنج في الأوساط المتدينة في حلب ودمشق. وتكمن كل مأثرة زنكي وخليفتيه، نور الدين وصلاح الدين، في فهم الطابع التعبوي للجهاد وفي ظهورهم كأبطال له وفي قيامهم، حول تجديد المذهب السني، بتشجيع توحيد العالم الإسلامي. كما أن حمية إيمانهم تخدم مصالحهم. فمع الزنكيين، لا يعود الاهتمام بالنضال ضد الفرنج مقصوراً على سوريا وحدها، بل يتسع ليشمل منطقة شاسعة تمتد من الجزيرة إلى مصر. وبعد موت صلاح الدين (١١٩٣)، يتم تدشين سياسة تعايش، بفضل هُدَنٍ يجري تمديدها على مدار نحو نصف قرن. فهل كان بالإمكان أن ينشأ تعايش بين العالمين ؟ الواقع أن مبادرات الحملات الصليبية المتخذة في الغرب إنما تهدد التوازن الهش بين الفرنج والمسلمين. أمّا تدفق الغزو المغولي، الذي يرحب به لاتينيو الأرض المقدسة على أمل استخدامه ضد الإسلام، فهو يحفز في مصر استنفاراً لجميع طاقاتها. والحال أن المماليك، بانتصابهم ضد المغول، سوف يمحون أيضاً من الخارطة بقايا السيطرة الفرنجية في سوريا. وبشكل غير مباشر، فإن الحملات الصليبية قد ساعدت على تحقيق قدر من الوحدة في العالم الإسلامي حول المماليك.

٢ • سوريا وبلاد الرافدين في مستهل القرن الحادي عشر

هذا الإقليم ينتمي إلى الامبراطورية السلجوقية التي تميل إلى الانقسام على نفسها.

٢-١ • السلاجقة

إن السلاجقة، وهم من الأتراك الأوغوز الذين اعتنقوا الإسلام، سوف ينتشرون تحت قيادة ألب أرسلان وملك شاه في آسيا الصغرى، بعد انتصارهم على الجيش البيزنطي في معركة مانزكرت (١٠٧١). وفي عام ١٠٩٧، سوف يسيطر السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول على طريق طوروس وسوريا، في حين أن قبيلة تركية أخرى، هي الدانشمند، سوف تسيطر على الطريق الشمالي عبر أنقرة وقيصرية وسيواس. والحال أن عبور الصليبيين في عام ١٠٩٧، الذي يُعَرِّضُ هذه المدن لمحن قاسية، قلما تترتب عليه

آثار مقيمة بالنسبة للقبائل التركية في آسيا الصغرى، فهي قبائل شبه مترحلة ومعتادة على حرب الحركة، إن لم يكن على الانسحاب من الأقاليم الساحلية إلى هضاب الداخل. ولا شك أن الانتصارات التي يحرزها الصليبيون (نيقية، دوريليون [دوريلة]) إنما تفيد خاصة الامبراطورية البيزنطية التي يمكنها إعادة احتلال وادي مياندر والساحل الشمالي حتى تربيزوند [طرابزون] واستعادة الصلة مع قيليقيا وسوريا. ثم إن عبور الصليبيين يزيد من الخلافات فيما بين السلاجقة والدانشمند.

وفي عام ١١٤٧، تصبح الأراضي السلجوقية من جديد عقبة أمام تقدم الحملة الصليبية الثانية. فيرغم الأتراك كونراد الثالث ولويس السابع على الانسحاب ويستفيد سلطانهم مسعود من اختفاء كونتية الرُّها لكي يمد نفوذه إلى تخوم سوريا. وخلال الحملة الصليبية الثالثة، يتفاوض فريدريك الأول بربروسّا على عبور قواته مع رسل قلج أرسلان الثاني. لكن اشتباكات مع تركمانيين غير نظاميين تقنعه بغدر الخصم. ويخرب الألمان قونية قبل أن يواصلوا طريقهم إلى قيليقيا، حيث يلقى الامبراطور مصرعه (يونيو/ حزيران ١١٩٠).

٢-٢-٠ الإمارات السورية

* الموصل تحت سيطرة الأتابكة، أي مؤدبي أبناء السلطان: فيسيطر أولاً كرُبغا، الذي يهزمه الفرنج أمام أنطاكية في عام ١٠٩٨؛ ثم، اعتباراً من عام ١١٠٨، مودود، الذي ينظم عمليات سنوية ضد الفرنج بهدف استرداد الرُّها. والواقع أن ساحة المواجهة مع الفرنج هي جنوبي الكونتية التي أنشأها بودوان البويّوني.

* دمشق تحت سيطرة دقاق بن تُتُش، الذي يهتم خاصة بأعالي بلاد الرافدين ولا يستجيب لنداء الفاطميين الداعي إلى الدفاع عن فلسطين ضد الصليبيين. ولذا فهو يجتذب حسن التفات الفرنج. وعند موته في عام ١١٠٤، تنتقل السلطة إلى طغتكين الذي يؤسس سلالة البوريين، سيدة دمشق على مدار نصف قرن، إلى عام ١١٥٤. وتتمثل سياستهم في صون استقلال المدينة تجاه الموصل وحلب والقدس في آن واحد. وتحفز هذه السلالة تقارباً مع الفرنج، للاحتماء من منافسيها في الشمال، خاصة ضد نور الدين.

* سهل البقاع، وهو سهل مرتفع يقع بين جبال لبنان وشرقي لبنان، ويسيطر على الطريق بين دمشق وحمص، وهناك نزاع حاد على هذا السهل بين حلب وحمص ودمشق.

* حلب تحت سيطرة الأمير السلجوقي رضوان (١٠٩٥ ــ ١١١٣) الذي يضطر إلى مواجهة طائفة الحشاشين كما يضطر في جنوبي مدينة حلب نفسها إلى مواجهة أقلية شيعية قوية. والفرنج يهددون المدينة، لأنها تراقب الاتصالات بين أنطاكية والرُّها. وبعد موت رضوان في عام ١١١٣، يعطي أعيان حلب السلطة لايلغاري، أمير ماردين الأرتُقي، الذي ينجح في تكوين إمارة تشمل بلاد الرافدين وجزءً من سوريا الشمالية. وهو يحوز قوات من المقاتلين التركمان الذين يمكنه توجيههم بسهولة ضد الفرنج، كما في عام ١١١٩، حيث يهزم الفرنج في معركة حقل الدم التي يلقى فيها روجيه الأنطاكي مصرعه. لكن القوات المسلمة لا تواصل تقدمها ومن ثم يتم إنقاذ عاصمة الإمارة من الكارثة.

* الحشاشون (الحشيشية): طائفة إسماعيلية تستقر في مستهل القرن الثاني عشر في الإقليم الجبلي (جبل بحره)، شرقي طرطوس واللاذقية. والحال أن الاسم المستخدم في الأصل بمعنى "العابد" أو "الغيور على الدين" قد أصبح يشير إلى أولئك الذين يقبلون التضحية الكاملة في سبيل أهدافهم. وبعد أن كان اسم "الحشاشين" يشير إلى طائفة معروفة بممارستها القاتلة، أصبح اسماً عاماً يشير إلى القتلة. وهذه الطائفة وليدة الحماسة الدعوية للنزاريين، المخلصين لمرجعية الابن البكر للخليفة الفاطمي المستنصر، الذي أُعدم في الإسكندرية في عام ١٠٩٤. وقد لجأ أنصارها إلى شمال فارس، في قلعة ألموت، حيث نظموا أنفسهم على شكل جمعية سرية تحت قيادة حسن الصباح وخاضوا نضالاً لا يرحم ضد السنية الرسمية وممثليها، خاصة السلطان السلجوقي.

والحال أن دعاة فارسيين قادمين إلى سوريا قد استقروا في قلب الطوائف الشيعية، حيث وجهوا حماسها إلى تدمير النظام السني، بالاستخدام المنهجي للإرهاب وللاغتيال كسلاح سياسي. وإذ كانوا مدعومين من جانب فلاحي المناطق الجبلية، حيث أقاموا حصونهم، وإن كانوا قد لقوا دعماً أيضاً من عوام مدن سوريا الهائجين المتأثرين بدعايتهم، فقد تهجموا على النخبة السنية والأمراء والمسئولين والوزراء، كما على القضاة وكبار رجال الدين؛ وقد سقط تحت ضرباتهم مودود، أمير الموصل، في عام ١١١٣، وبوري، صاحب دمشق، في عام ١١٣١، ثم إن صلاح الدين، الذي يهاجمهم باسم استعادة العقيدة السنية، كاد يكون أحد ضحاياهم في عامي ١١٧٥ و ١١٧٦. وتحت قيادة سنان الذي يسميه الصليبيون بشيخ الجبل، يحتل الحشاشون منطقة فاصلة بين الدول الفرنجية

ومجال النفوذ الأيوبي، في أواخر القرن الثاني عشر: وهم يوجهون ضرباتهم أحياناً إلى الفرنج وأحياناً أخرى إلى الأيوبيين.

وفي ٢٨ أبريل/ نيسان ١١٩٢، يسقط كونراد دو مونفيرات، ملك القدس، صريع عملائهم المشبعين بحماسة مهووسة ربما كان تدخين الحشيش من مسببات عرامتها. وفي القرن الثالث عشر، يضطرون إلى دفع إتاوة للجمعيات العسكرية، يطلبون من القديس لويس إلغاءها. وإذ يصبحون ضحايا لهجوم كل من المغول وبيبرس، فإنهم يذعنون في عام ١٢٧١ للسلطان المملوكي الذي يرحّل زعيمهم إلى مصر. وتحيا طائفة الحشاشين السورية بعد القرن الثالث عشر كهرطقة محدودة الأثر، دون دينامية ودون أهمية سياسية.

وهكذا فخلال الربع الأول من القرن الثاني عشر تعد سوريا منقسمة إلى إمارات مختلفة تسعى إلى صون استقلالها، بالتحالف عند الحاجة مع الفرنج، وإن كانت لا تتردد مع ذلك في طلب العون من اخوتها في الدين في بلاد الرافدين، مع خوفها من تبعات هذا العون. وبسبب غياب الوفاق بين أمراء حلب وحمص ودمشق، لا يولد أي رد فعل متماسك ضد الفرنج. لكن كل شئ سوف يتغير مع صعود زنكي إلى سدة السلطة في الموصل في عام ١١٢٧، ثم في حلب في عام ١١٢٨. ويرمز هذا الصعود إلى استهلال رد الفعل السني ضد الفرنج وإلى نهضة الجهاد.

٠٣ زنكي والجهاد

٣-٠١ زنكي

هو ابن أحد ضباط السلطان السلجوقي ملك شاه. وهو يخدم جميع أمراء الموصل التي يصبح حاكماً لها في عام ١١٢٧. وفي السنة التالية يدخل حلب التي يجعل منها رأس جسر لسياسته السورية، الموجهة في آن واحد ضد الفرنج وضد دمشق. وإذ يعتبره جميع مدوني الأخبار المسلمين باعثاً لفكرة الجهاد، إلاّ أنه لا يبدأ إلاّ في عام ١١٣٧ دعاية مكثفة تشدد على الطابع الديني للحرب ضد الفرنج وعلى الدور القتالي للأمير. وفي الفترة من عام ١١٣٥ إلى عام ١١٣٧ يختزل إلى النصف الإمارات اللاتينية في شمالي فلسطين، باستيلائه على عدة قلاع من بينها قلعة بعرين (مونفيران عند الصليبيين) في كونتية طرابلس. واعتماداً على الأوساط المتدينة في حلب، يحدد للحرب المقدسة هدفاً جديداً، هو الاستيلاء على القدس والشرق اللاتيني. وفي عام ١١٣٨ يتصدى للجيش البيزنطي، إلاّ أنه لا ينجح في الاستيلاء على دمشق إلاّ في عام ١١٤٠. وهو يستفيد من

النزاع بين جوسلان الثاني، كونت الرُّها، وريمون دو بواتييه، أمير أنطاكية، لكي يستولي على الرُّها في ٢٩ ديسمبر/ كانون الأول ١١٤٤ وينهي بذلك وجود أول إمارة أقامها الفرنج في الشرق. وفي ١٥سبتمبر/ أيلول ١١٤٦، يموت صريع أحد طواشييه. وقد لعب زنكي دوراً حاسماً بالنسبة للإسلام بإعطائه من جديد معنى للجهاد وباحتوائه التوسع الفرنجي وبحشده تحت رايته عدداً معيناً من الأمراء المسلمين.

٣-٢-٠ الجهاد

بالمعنى الاشتقاقي، تشير الكلمة إلى الجهد المبذول في سبيل غاية محددة؛ ووفقاً للمذهب الموروث، يتألف الجهاد من العمل المسلح سعياً إلى حماية الإسلام ثم توسيعه. والجهاد ليس هدفاً في حد ذاته؛ فهو وسيلة مشروعة وضرورية يجيزها الله ورسوله للمؤمنين لتوسيع ملكوت الإسلام. على أن ممارسة الجهاد، وهو واجب جماعي، إنما تتوقف على قرار الأمير، الذي يملك وحده تقدير الظروف المناسبة لهذه الممارسة.

وفي عصر الحملة الصليبية الأولى التي تحدث في عالم إسلامي ممزق وضعيف عسكرياً، فإن الدعوات الأولى المنطلقة من حلب ومن دمشق إلى جهاد دفاعي ضد الفرنج لا تلقي غير صدى ضعيف. ولا تحدث اليقظة إلاّ في عام ١١٢٤، عندما يحاصر الفرنج حلب. وزنكي هو أول أمير يدعو إلى الأخوة الإسلامية وإلى فريضة الجهاد ويشدد على تناحر ديني أساسي بين المسلمين والمسيحيين. وتتبلور هذه التيمات خلال فتح الرُّها: فمنذ ذلك الحين تحدد الدعاية الزنكية للحرب المقدسة هدف استرداد القدس ومجمل الشرق اللاتيني. وهي تستند على الأوساط المتدينة في حلب، لكنها لا تحشد بعد قبولاً شعبياً واسعاً. وفي دمشق، كما في مصر، تظل الحساسية إلى الجهاد ضعيفة جداً إلى ستينيات القرن الثاني عشر.

٠٤ نور الدين وصلاح الدين

٤-١٠ نور الدين (١١٤٦ ــ ١١٧٤)

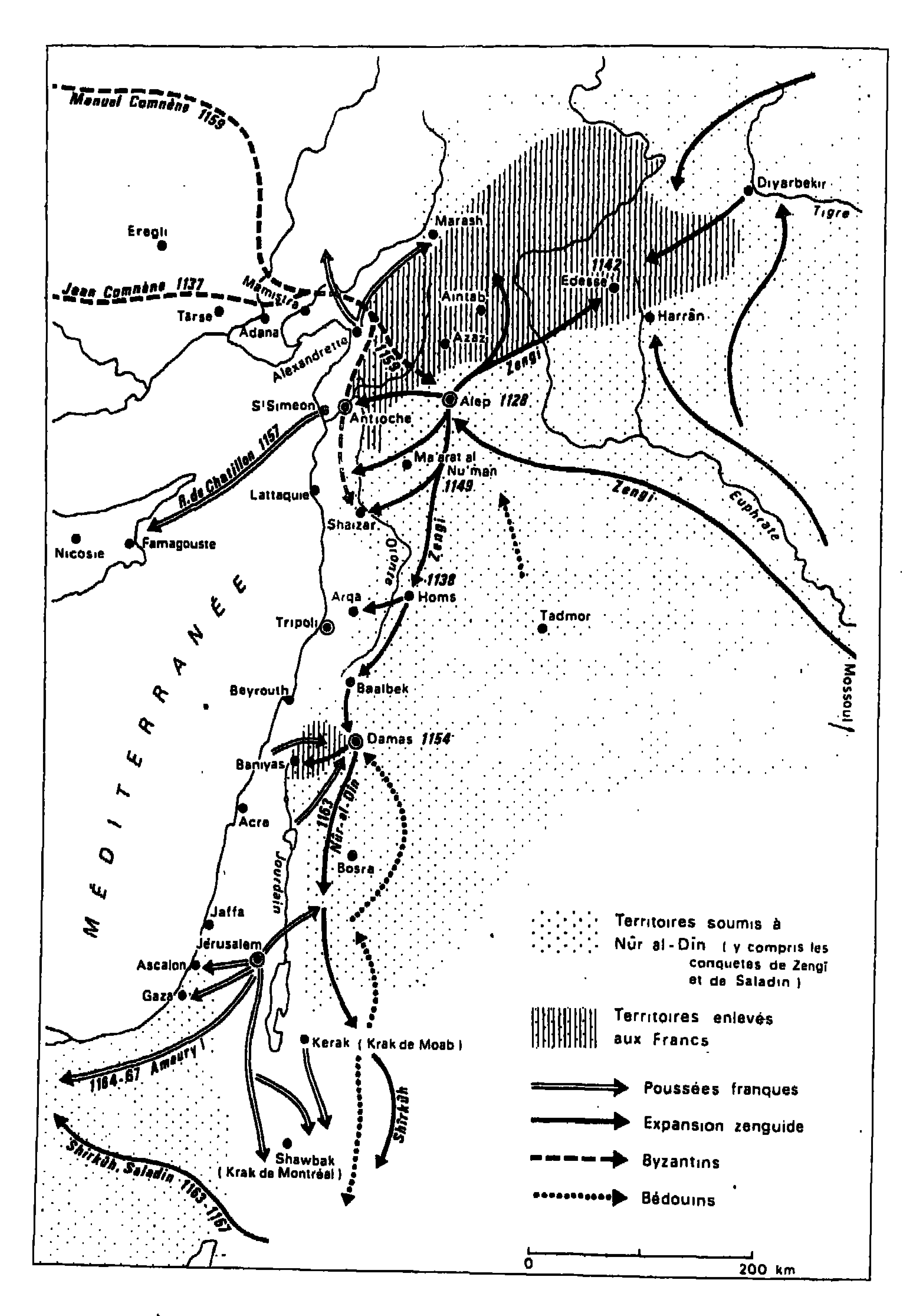
في عام ١١٤٦، يرث نور الدين، ابن زنكي، جانباً من ممتلكات أبيه، حول حلب ودمشق، بينما يرث أخوه الأكبر سيف الدين الموصلَ. وهو يخمد تمرداً من جانب أرمن الرُّها ويدمج المدينة في أراضيه. وفكرته المهيمنة هي استرداد وحدة الإسلام السياسية في

الشرق الأدنى، وذلك بتوحيد سوريا، والذي يشكل مقدمة ضرورية لاسترداد الدول التي يحتلها الفرنج. ومنذ تلك اللحظة تصبح فكرة الجهاد إحدى القوى الرئيسية في الحياة السياسية والروحية: ويجب عليها أن تسهم في إحياء العقيدة السنية وفي إعادة التسليح المعنوي والديني لرعاياه. وينشئ نور الدين جهازاً دعائياً؛ ولنشر الأيديولوجية السنية، يبني مساجد ومدارس وتكايا تجمع طوائف المتصوفة، ويناشد الشعور الشعبي ليظهر بوصفه المجاهد بإمتياز، والمقاتل الفريد في سبيل الدين. وهو يحفز مجهوداً واسعاً من أجل تجديد العقيدة السنية: فالأمير يناضل ضد انتهاك الشريعة الإسلامية وضد الهرطقات المنظّمة، كالشيعية أو الإسماعيلية ويدعم رجال الدين والمتصوفة والعلماء. وتقدم الرسائل والمؤلفات والبحوث والمواعظ والخطب الأميرَ بوصفه المقاتل الفريد في سبيل الدين، الذي يطرح على نفسه مهمة توحيد المؤمنين تحت سلطته لاسترجاع القدس والساحل (الأقاليم الساحلية للشرق اللاتيني). وهو يشجب التعاون بين الفرنج والمسلمين ويَعِدُ الجنود بعزةِ الشهادة. وفي دمشق، بأكثر مما في مصر، وبأكثر مما في العراق خاصة، يُعَدُّ وعيُ الجهاد قوياً.

والحال أن ريمون الأنطاكي، الذي يرى في نور الدين الخصم الرئيسي للصليبيين، إنما يفشل في إقناعِ لويس السابع بتوجيه قواته ضد حلب. وفي اللحظة التي تهاجم فيها الحملة الصليبيةُ الثانيةُ دمشق، التي يسيطر عليها الأتابكة الترك البوريون منذ عام ١١٠٤، يؤدي نبأ اقتراب نور الدين إلى انسحاب الفرنج. وفي عام ١١٤٩، يقتل نور الدينُ ريمون الأنطاكي ويحتل مجمل الضفة اليمنى لنهر العاصي. وبعد ذلك بثلاث سنوات، يستولي على طرطوس ويقطع المواصلات بين كونتية طرابلس وإمارة أنطاكية. وبفضل دعاية نشيطة بين السكان، يحتل دمشق في ٢٥ أبريل/ نيسان ١١٥٤ ويحقق بذلك وحدة سوريا. ويصبح من ثم أقوى أمير في الشرق الأدنى.

وعلى مدار تسع سنوات، يهتم خاصة بتنظيم دولته؛ ويتصدى لملك القدس، بودوان الثالث، الذي يحاول عقد حلف ضده مع بيزنطة؛ على أن "الحملة الصليبية " لعام ١١٥٩ والتي تجمع مانويل كومنينوس بالفرنج إنما تتوقف فجأة بلا أثر.

ومنذ ذلك الحين، تتصدر المسرح مسألة مصر، حيث تتداعى سلطة الفاطميين. ويلجأ الوزير السابق شاور، حاكم صعيد مصر، الذي يخوض صراعاً ضد الوزير ضرغام، إلى مناشدة نور الدين، الذي يرسل إليه في عام ١١٦٤ جيشاً بقيادة شيركوه، وهو كردي وعم



الشكل ٣٥ – سوريا وفلسطين فى زمن نور الدين (١١١٨ – ١١٧٤). المصدر:
N.ELISSEEFF, L'Orient musulman au Moyen Age, éd. A. Colin, Paris, 1997.

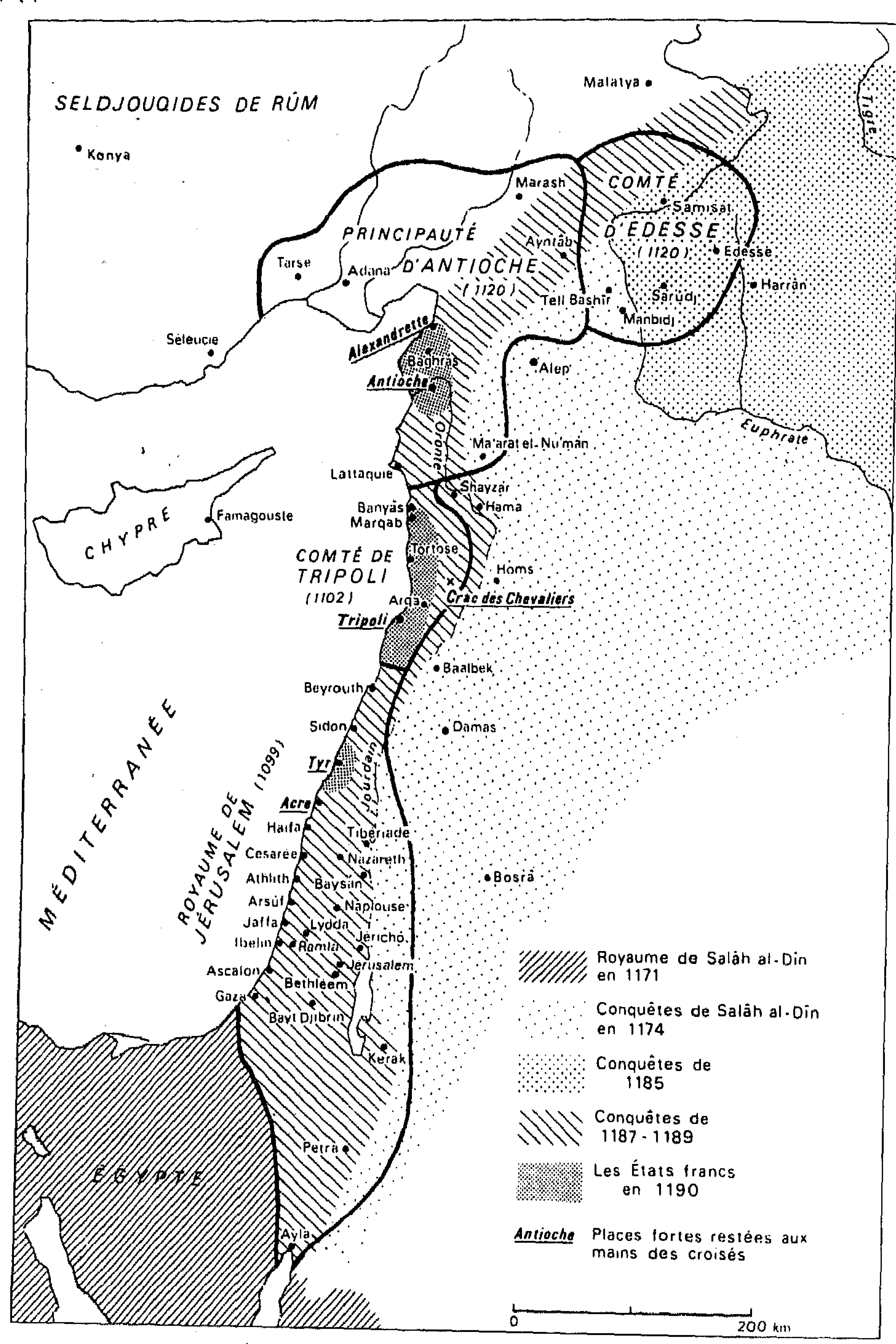
لصلاح الدين. على أن شاور الذي عاد وزيراً إنما ينزعج من قوة حليفه السوري فيتوجـــه إلى الفرنج ويتبع بذلك سياسة تأرجح بين دمشق والقدس. ويتدخـــل المَلــك آمــوري دون نجاح في عام ١١٦٧. وفي العام التالي، يريد فتح مصر لحسابه الخاص، دون أن ينتظــــر وصول التعزيزات البيزنطية. فيلجأ شاور من جديد إلى نور الدين الذي يرســـل شــيركوه مانحاً إياه كل السلطة على الجيش وعلى الماليات في الأراضي التي سوف تُحتَل. ويرغــم الكردي الفرنج على الانسحاب ويتخلص من شاور ثم يصبح وزيراً، وعندما يمــوت فــي عام ١١٦٩، يخلفه صلاح الدين، ابن أخيه، في وزارة القاهرة.

والحال أن الأعوام الأخيرة من حكم نور الدين إنما تتميز بالعلاقات الصعبة بين مصــر وسوريا. ففي مصر، يكتسب صلاح الدين استقلاليته ويعيد السنية لحســـابه، لــدى مــوت العادل، الخليفة الفاطمي، ويريد للبلد أن يكون القاعدة الرئيســية للعمليــات ضــد مملكــة القدس. أمّا نور الدين، خلافاً لذلك، فهو ينتظر من ذلك الذي يعتـــبره تابعــاً لـــه إرســـال إسهامات مالية وعسكرية لدعم النضال ضد الفرنج والذي يـــرى وجــوب تنظيمــة مــن سوريا. وفي عام ١١٧١، تفشل حملة مشتركة ضد قلعة موأب الفرنجية. ويمـــوت نــور الدين في ١٥ مايو/ أيار ١١٧٤، في عين اللحظة التي يتهيأ فيها لخوض الصــــراع ضــد صلاح الدين.

وقد لعب نور الدين دوراً رئيسياً في وثبة الإسلام ضد الفرنج. وبالنسبة له، كان هنــاك تداخل بين الجهاد وإعادة التسليح المعنوي والتمسك بأهداب العقيدة القويمة. والحال أن هــذا المجاهد، الذي تميز باستقامة عظيمة في حياته وبورع عميق، قد ناضل في آن واحد ضــد الانحرافات عن العقيدة القويمة ــ أي ضد الشيعة والاســماعيليين ــ وضــد الكفــار، أي الفرنج. أما برنامجه الخاص بالإحياء السني، بالاعتماد على رجال الديــن وعلــى دعايــة كثيفة في كافة بلاد الإسلام، فسوف يواصله مساعده صلاح الدين، وسوف يواصله، بعــد ذلك بقرن، السلطان المملوكي بيبرس. وعلاة على ذلك فإن مصر، منذ اســتيلاء صــلاح الدين على السلطة، سوف تلعب دوراً سياسياً واستراتيجياً رئيسياً فـــي تــاريخ الحمــلات الصليبية.

٤-٢-٠ صلاح الدين (١١٧١ ــ ١١٩٣)

يصل يوسف صلاح الدين، الكردي الأصل، إلى مصر مع الجيش السوري الذي يقــوده عمه شيركوه؛ وهو يبرز في عام ١١٦٧ بدفاعه عن الإسكندرية ضد جيوش آموري، ملــك



الشكل ٣٦ - فتوحات صلاح الدين. المصدر :
N. ELISSEEFF, L'Orient musulman au Moyen Age, éd. A. Colin, Paris, 1977.

القدس. وعند موت شيركوه، في عام ١١٦٩، يخلفه في الوزارة، مدعوماً من الخليفة الفاطمي. ولدى موت الخليفة، في عام ١١٧١، يعلن ولاءه للخليفة [العباسي] ويعيد من ثم السنية؛ ثم يفرض سلطته الخاصة في القاهرة وفي صعيد مصر (١١٧١ ـ ١١٧٤). ويدخل في تنافس مع نور الدين، وإلى عام ١١٧٤، يستخدم مملكة القدس كدولة فاصلة بين سوريا ومصر. ولدى موت نور الدين، يظهر بوصفه أقوى أمير مسلم. وإذ يستعيد برنامج الزنكيين، يجتهد في توحيد الشرق الأدنى الإسلامي وفي قيادة النضال ضد الفرنج؛ وهكذا يُوضع الإيمان المخلص في خدمة الطموح السياسي.

ومع صلاح الدين، ينتقل تراث الجهاد من سلالة الزنكيين إلى سلالة الأيوبيين. وقلما يتغير محتوى هذا التراث. فعن طريق دعاية ذكية تستخدم الشعر والرسائل والبحوث والمؤلفات والخطب، يحاول صلاح الدين أن يظهر بوصفه المقاتل الوحيد القادر على خوض حرب مقدسة. وهو يتهم بالتقصير القادة المسلمين الآخرين الذين يصل بهم الأمر إلى حد التعاون مع الفرنج. ويسعى إلى خلق قوة جبارة لمحاربة الكفار ويتصرف ذوداً عن شرف القدس. والحال أن استرداد المدينة المقدسة تيمة أساسية من تيمات الجهاد الذي يجري تصويره على أنه فريضة على كل مؤمن. وشأن نور الدين، فإنه يحفز استقامة صارمة للعقيدة الإسلامية ويعتمد على المتصوفة والعلماء ويبني الكثير من دور العبادة والتعليم ويكفل لنفسه دعماً شعبياً عظيماً. فالأمير محور أيديولوجية الحرب المقدسة. وتأييد الخليفة [العباسي] له إنما يعود عليه برأسمال أدبي عظيم تثلمه مع ذلك إخفاقات الأعوام الأخيرة (١١٩١ ـ ١١٩٣). وشأن نور الدين، يحاول صلاح الدين الاستفادة من دعاية الجهاد، لكي يدعم معنويات القوات ويجتذب المتطوعين ويعبئ الرأي العام ويعزز في نهاية الأمر مكانته.

ومصدر قوته هو جيشه الكردي والتركي الذي يحصل على رواتب بفضل موارد مصر، والأسطول الذي يعيد بناءه بفضل مواد أولية يقدمها التجار الإيطاليون الذين يشجع نشاطهم.

وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١١٧٤، يدخل دمشق، التي ينسحب منها ابن ووارث نور الدين متجهاً إلى حلب. فيستولي الأيوبي على حمص وحماه، لكنه يفشل أمام حلب. والحال أن الخليفة يثبّت سلطة صلاح الدين في عام ١١٧٥ على مصر وسوريا واليمن، إلاّ انه يتعين على الأيوبى مواجهة الزنكيين في سوريا. وقبل أن ينخرط في النضال ضد الفرنج، يعيد تنظيم دفاعات القاهرة ويبني أسطولاً يسمح له بشن غارات على الساحل السوري.

وإذ يتخلص من خطر الجيوش البيزنطية التي ألحق السلاجقة الهزيمة بها في معركة ميريوكيفالون (١١٧٦)، يعلن الحرب المقدسة ضد الفرنج. وفي نوفمبر/ تشرين الثاني ١١٧٧، يتعرض جيشه للهزيمة على أيدي جيش بودوان الرابع في مونجيسار، قرب الرملة. وبعد ذلك بعامين، يثأر بمناوشة الفرنج في إقليم بانياس وبالإستيلاء على كاستليه. وفي عام ١١٨٠، يعقد هدنة لمدة عامين. ومتذرعاً بانتهاك رينو الشاتيّوني للاتفاق، يستأنف صلاح الدين الاشتباكات من عام ١١٨٢ إلى عام ١١٨٤، ويجهتد في الاستيلاء على القلاع الفرنجية في شرقي الأردن والتي تهدد الاتصالات بين مصر وسوريا، ثم يهاجم الجليل، في إقليم بحيرة طبرية. وفي فبراير/ شباط ١١٨٣، ينجح الأسطول المصري في القضاء على الأسطول الفرنجي عند مروره في البحر الأحمر، وفي يونيو/ حزيران ١١٨٣، يستولي صلاح الدين على حلب، موحداً بذلك سوريا كلها. والحال أن عمليات ضد الموصل سوف تحوله عن الدول الفرنجية إلى عام ١١٨٦، لأنه مضطر إلى مواصلة النضال ضد منافسيه المسلمين في سوريا الشمالية وفي الجزيرة، حيث يطارد الزنكيين.

وحرصاً منه على تهدئة الخلافات بين صفوف عائلته، يعاود الجهاد، ويستغل التناحر بين جي دو لوزينيان وريمون الطرابلسي، فيتذرع بانتهاك رينو الشاتيّوني للهدنة المعقودة مع الفرنج لكي يشن الهجوم الحاسم في عام ١١٨٧. وفي ٤ يوليو/ تموز، يُجهز على الجيش الصليبي في حطين. وهذا الانتصار يفتح له فلسطين؛ فتستسلم طبرية وعكا؛ ويتم الاستيلاء على جميع المدن ماعدا صور التي يستميت كونراد دو مونفيرات في الدفاع عنها، وطرابلس وأنطاكية. وفي ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١١٨٧، يدخل صلاح الدين القدس؛ وتبرز دعايتهُ الطابع التاريخي للحدث ويحتفل بنبرة سامية بالفتح الذي يجعل من الساحل، هذا "الخط الأخضر"، أرضاً مسلمة من جديد.

على أن الاخفاقات سرعان ما تعقب هذا النجاح الباهر. فصلاح الدين لم ينجح في أن يكسب إلى الجهاد أقاليم أخرى غير سوريا ومصر؛ وهو يشهد انحلال ولاء قواته. والمال غير متوافر لمواصلة الحملات. وهو يضطر إلى رفع الحصار عن صور في أول يناير/ كانون الثاني ١١٨٨ ولا ينجح في زحزحة الفرنج الذين يحاصرون عكا. وعند وصول قوات الحملة الصليبية الثالثة يطلب عبثاً العون من الخليفة المقيم في بغداد والذي لا يهتم بالهجوم الغربي. ويؤدي استرداد عكا وأرسوف ويافا إلى إدخال اليأس على قلب صلاح الدين. والحال أن عبء حرب لا يُثقل إلاّ على مصر وسوريا إنما يدفعه إلى عقد هدنة مع

ريتشارد قلب الأسد في الرملة، في ٢ سبتمبر/ أيلول ١١٩٢؛ وهو يعترف للفرنج بالشريط الساحلي من صور إلى يافا وبمملكة عكا الجديدة ويوافق على حرية مرور الحجاج إلى القدس.

ويقضي صلاح الدين نحبه في ٣ سبتمبر/ أيلول ١١٩٣. وليس من المؤكد أن النضال ضد الفرنج قد احتل الصدارة في عمله؛ إذ يبدو بالأحرى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضاء على الزنكيين وبالفوز بممتلكاتهم لحساب أفراد أسرته.

ولدى موته، يقتسم هؤلاء التركة؛ وبذا تنتهي وحدة الامبراطورية الأيوبية؛ وسوف يعرف النضال الكثيف ضد الفرنج توقفاً لنحو سبعين سنة. والحال أن صلاح الدين الذي يجمع بين القسوة والشهامة إنما يعد شخصية يحتفي بها الأدب الغربي في أواخر العصر الوسيط بوصفها النموذج الأولي للفارس الذي يتخيل البعض أنه تحول إلى اعتناق المسيحية على فراش موته، وهو انقلاب تجيزه المخيلة الغربية لأن صلاح الدين ليس عربياً ولا تركياً بل كردي. وفي المقابل، تحتفي به الكتابة التاريخية العربية بوصفه بطل وثبة الإسلام الموحَّد في مواجهة الغرب.

٥. الأيوبيون (١١٩٣ ـ ١٢٥٠)

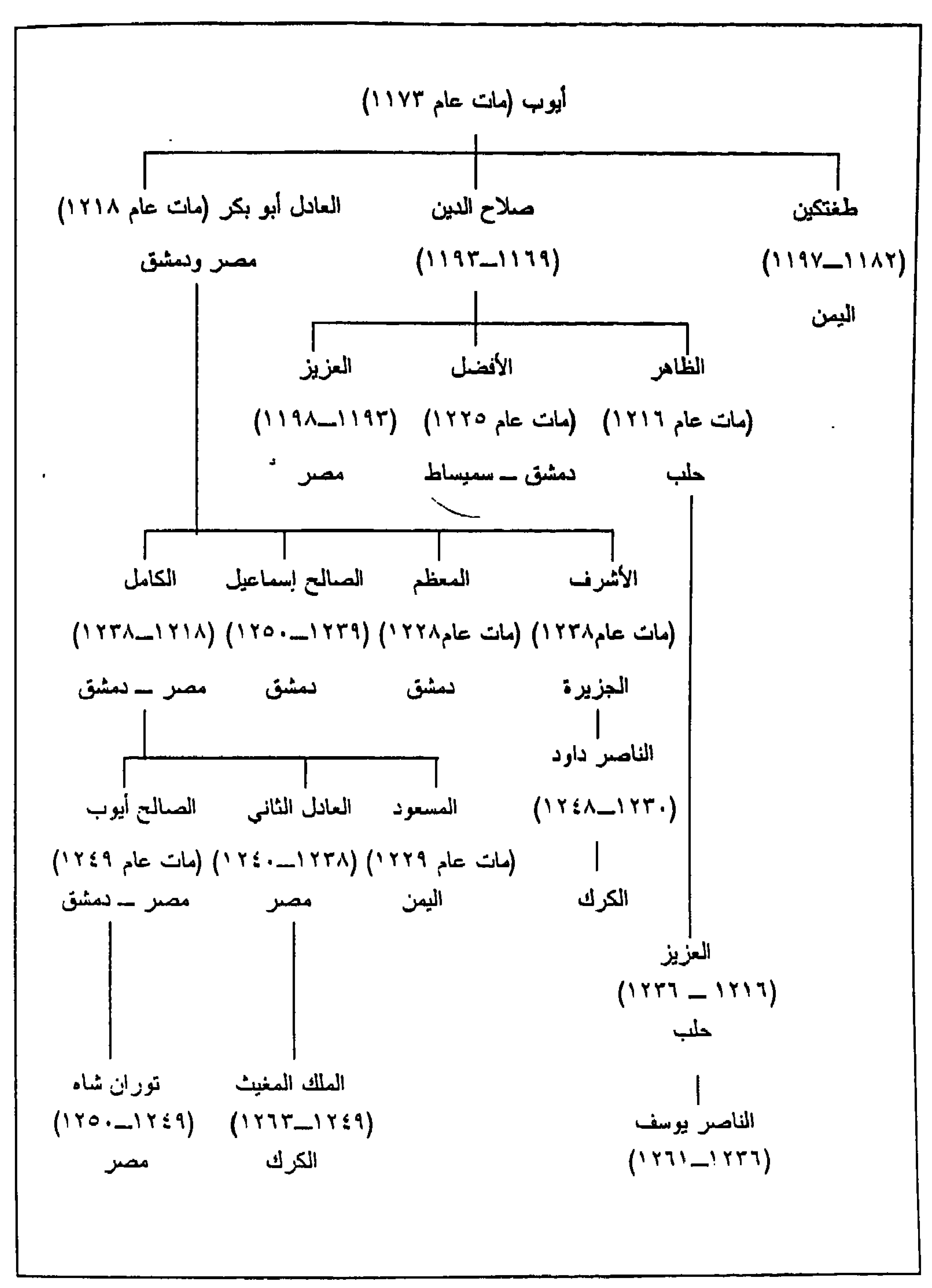
يشير الاسم إلى مجموع السلالة الحاكمة التي أسسها صلاح الدين والتي تستمد اسمها من أيوب بن شادي، وهو الأب الكردي لصلاح الدين، وقد خدم زنكي في عام ١١٣٨.

وتحت حكم خلفاء صلاح الدين الأوائل (إلى موت الملك الكامل في عام ١٢٣٨)، يفقد الجهاد حيويته. والسبب في ذلك هو انقسامات الدول الأيوبية والتنافسات المترتبة على ذلك إلى زمن صعود العادل، أخ صلاح الدين، إلى سدة الحكم في مصر، في عام ١٢٠٠. والواقع أن ورثة صلاح الدين إنما يسعون إلى نوع من التعايش السلمي مع الفرنج، وهو ما لا يستبعد حدوث صدامات عسكرية محدودة. لكن الأيوبيين، بحكم الإخلاص لذكرى الملك المؤسس للسلالة، سوف يستخدمون الجهاد لأجل تعزيز مكانتهم بأكثر مما لأجل توجيه قوى الإسلام الحية ضد الفرنج. ولذا فإنهم يواجهون معارضة من جانب الأوساط المتدينة، الحساسة لقيم الحرب المقدسة والتي تأخذ على الأمراء تخليهم عن أراض للفرنج والتعاون العسكري معهم والامتناع عن الرد عندما تتعرض أرض مسلمة للهجوم. على أن الاحتجاجات على استرخاء الجهاد لا تجد صدى قوياً، وذلك إلى حين ظهور قوة جديدة

في الشرق الأدنى، هي المغول. إلاّ أنه لا مفر من انتظار سقوط بغداد ومحو الخلافة العباسية (١٢٥٨) حتى يتسنى بروز الطابع الديني للنضال ضد المغول.

وتجاه الفرنج، يسعى الأيوبيون إلى صون الصلح بتفادي كل عمل حربي وإلى تنمية علاقات مثمرة مع التجار الإيطاليين. ففي عام ١٢٠٤، يرد الملك العادل للفرنج المعاقل الساحلية التي يسيطر عليها في سوريا الشمالية، ما عدا اللاذقية، المنفذ البحري لإمارة حلب. وخلال الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ـ ١٢٢١)، بينما يهبط الجيش الغربي إلى دلتا النيل ويحتل دمياط، يقترح الملك الكامل في عدة مناسبات التنازل للفرنج عن القدس، في مقابل جلائهم عن دمياط. على أن تعنت القادة الصليبيين يقود إلى رفض هذه العروض بما يجر الجيش إلى الكارثة. وفي خلاف مع أخيه، المعظم، ملك دمشق، ينفتح الملك الكامل على فريدريك الثاني، وهو انفتاح سوف تؤكده معاهدة يافا (١٢٢٩)، بعد أن كان الامبراطور قد قام باستعراض للقوة، وذلك سعياً إلى تجنب اللجوء إلى السلاح. والحال أن رد القدس "سلمياً" إلى المسيحيين إنما يثير الاستنكار في صفوف الأوساط المتدينة المسلمة كما في صفوف خصوم الامبراطور في الغرب. على أن الامبراطور لا يختزل مع ذلك علاقاته الودية مع الكامل كما أنه يتمسك بصون الهدنة التي أقرتها معاهدة عام ١٢٢٩ على مدار عشر سنوات.

ويدشن موت الكامل عهد شك وتوتر. فالأمراء الأيوبيون يعارضون بعضهم البعض ويسعون إلى التحالف مع الفرنج أو إلى كسب حيادهم على الأقل. وفي عام ١٢٤٠، يتسنى لتيبو دو شامبانيا، الذي هُزمت قواته في غزة على أيدي جيش مصري، أن يتفاوض بالتناوب مع سلطان دمشق ثم مع سلطان القاهرة ويحصل من ثم على تنازلات إقليمية مهمة. لكن الصالح أيوب، الذي يطرد من القاهرة أخيه العادل، سوف يعيد بناء وحدة قيادة الدول الأيوبية ويعتمد على جيش قوي مؤلف من قوات ضخمة من الأرقاء الأتراك. وضد أعدائه في الجزيرة وسوريا الشمالية، والذين تحالفوا مع الفرنج، سوف يستدعي القوات الخوارزمية؛ وسوف يتمكن بمساعدتها من إلحاق الهزيمة بالائتلاف السوري ـ الفرنجي في لافوربي، قرب غزة (أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٤٤) ومن إعادة احتلال القدس وكل اليهودية والسامرة. في حين أن الخوارزميين سوف ينشرون الرعب في سوريا على مدار عامين.



الشكل ٣٧ــ شجرة عائلة مبسطة للسلالة الحاكمة الأيوبية.

وترجع نجاحات الصالح أيوب بالدرجة الأولى إلى قوة وتلاحم الفصائل المسلحة من الأرقاء الأتراك، المماليك. وعندما يسيطر هؤلاء على الموقف بعد موت الصالح أيوب (نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٤٩)، ينشطون في مقاومة حملة القديس لويس الصليبية في مصر، ويتخلصون في عام ١٢٥٠ من توران شاه، آخر الأيوبيين، ويعلنون أحدهم، عز الدين أيبك، أتابكاً ثم سلطاناً. والحال أن صعود النظام المملوكي إنما يعطي مساراً جديداً للنضال ضد الفرنج، بينما يؤدي وصول المغول إلى سوريا الشمالية إلى اختفاء آخر الإمارات الأيوبية.

٦. المماليك

يشير المصطلح إلى الأرقاء الأتراك، القادمين من وسط آسيا، والذين يشكلون الفصائل الرئيسية للجيش في مصر في أواخر عهد الأيوبيين. والواقع أن إحدى هذه الفصائل التي شكلها السلطان الصالح أيوب، الفصائل البحرية، سوف تلعب دوراً حاسماً في الانتصار الذي تحرزه القوات المصرية على الصليبيين في المنصورة (فبراير/ شباط ١٢٥٠). وفي مايو/ أيار ١٢٥٠، يتخلص الأمراء الذين يقودونها من السلطان الأيوبي توران شاه، ويعهدون بالسلطة لأحدهم، الأمير أيبك التركماني. وهكذا تولد السلالة المملوكية، المنحدرة من أرستقراطية عسكرية، يحاط فيها السلطان المختار باتفاق الأمراء بفئة مغلقة على نفسها من المماليك، الذين يسيطرون على كل القيادات العسكرية ووظائف البلاط. واعتباراً من عهد بيبرس، المدشِّن في عام ١٢٦٠، تتصدر السلطنة المملوكية النضال ضد الصليبيين؛ وهي تعتبر وجود المستعمرات الفرنجية على الساحل السوري خطراً ورجساً، وتتخذ استعداداتها ضد كل حملة صليبية قد ينظمها الغرب.

والواقع أن فكرة الجهاد سوف تعرف، بحفز من المماليك، نهضة في الشطر الثاني للقرن الثالث عشر. وهي تستند إلى الحماسة التي فجرها انتصار الجيوش المملوكية على المغول في عين جالوت (سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠). وبالنسبة لخلفاء القاهرة ودعايتهم، فإن الحرب تحمي وجود الدولة المملوكية ذاته وتساعد على عودة السيطرة الإسلامية على الأراضي التي سقطت تحت النير المغولي. والجهاد المعادي للمغول يهم كل العالم الإسلامي ويجب أن يزود الدولة المملوكية بحلفاء وبتعزيزات عسكرية. وقياساً إلى هذا الهدف الرئيسي، لا يعد الجهاد المعادي للفرنج غير هدف ثانوي. على أن السلاطين المماليك لا يمكنهم أن يسمحوا بوجود جيب أجنبي في أراضيهم. ومع بيبرس، يجري اعتبار الحرب هجومية: فالهدف هو الاستيلاء على مجمل الساحل السوري —

الفلسطيني، بل ومملكة قيليقيا الأرمنية. ومن ثم فإن الجهاد المملوكي يقترح حرباً مقدسة متعددة الجوانب، تعلي من شأن قوة فصائل النخبة، فئة المماليك المغلقة على نفسها، المدعومة من النخبة الدينية.

ويترافع الفقهاء والمتصوفة والعلماء ضد المغول والفرنج ويدعمون معنويات الجيش. وفي داخل الدولة المملوكية، تتعرض الأقليات الطائفية للاضطهاد. وتتسع الدعاية عند حصار عكا (١٢٩١) والذي يعتبر ذروة الحرب ضد الدول الفرنجية: ويؤدي سقوط المدينة إلى تظاهرات متعددة للفرحة الشعبية وإلى عدد غزير من كتابات المديح للظافرين.

وبما أن الجهاد المملوكي هو بحكم التعريف حرب أبدية ضد الكفار، فإنه لا يختفي في عام ١٢٩١. ذلك أنه سرعان ما يجد أهدافاً أخرى: قيليقيا الأرمنية واسترداد بغداد. فسقوط عكا، وهو حدث رئيسي بالنسبة للغرب، ليس في نظر المماليك غير حادث بسيط في مسيرة حرب مقدسة لا حدود لها.

وفي عام ١٢٥٠، كنا ما نزال بعيدين عن ذلك. فالواقع أن العقد الأول للنظام المملوكي مكرس بالكامل للنضال ضد الأمراء الأيوبيين في سوريا وضد الغزاة المغول. ففي سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠، يسحق الجيش المملوكي في عين جالوت القوات المغولية ويمد سيادة السلطنة على مجمل سوريا وفلسطين المسلمتين. وبيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧)، الذي يصل إلى السلطة باغتيال سلفه قطز، هو المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية. وقد ولد نحو عام ١٢٢٣ واقتيد من كيبتشاك (جنوبي روسيا) إلى مصر وبيع كعبد إلى السلطان الأيوبي الصالح. وقد تميز في معركة المنصورة، حيث تم أسر القديس لويس؛ ثم أمر باغتيال السلطان توران شاه، مدشناً حلول المماليك محل السلالة الأيوبية (١٢٥٠). وبعد ذلك بعشر سنوات، وعلى رأس الجيش المصري، يلعب دوراً حاسماً في الانتصار المحرز في عين جالوت على المغول؛ واعتماداً على الانتصار الذي أحرزه، يأمر باغتيال السلطان قطز ويرتقي العرش. ويعلن في منصب الخليفة أحد أبناء العباسيين الناجين من المجزرة المغولية في عام ١٢٥٨ ويحصل من الخليفة الجديد على لقب سلطان جميع البلدان الإسلامية الخاضعة لسلطته. وهكذا تكتسب سلطتهُ الشرعيةَ.

وبوصفه محارباً لا يكل، يبذل نشاطاً دءوباً على رأس الجيش. ففي غضون سبعة عشر عاماً، يقود ثماني وثلاثين حملة في سوريا، خاصة ضد الفرنج وكذلك ضد المغول وأرمن قيليقيا والإسماعيليين. ويبدأ الهجوم العظيم ضد الفرنج في عام ١٢٦٥ ويستمر إلى

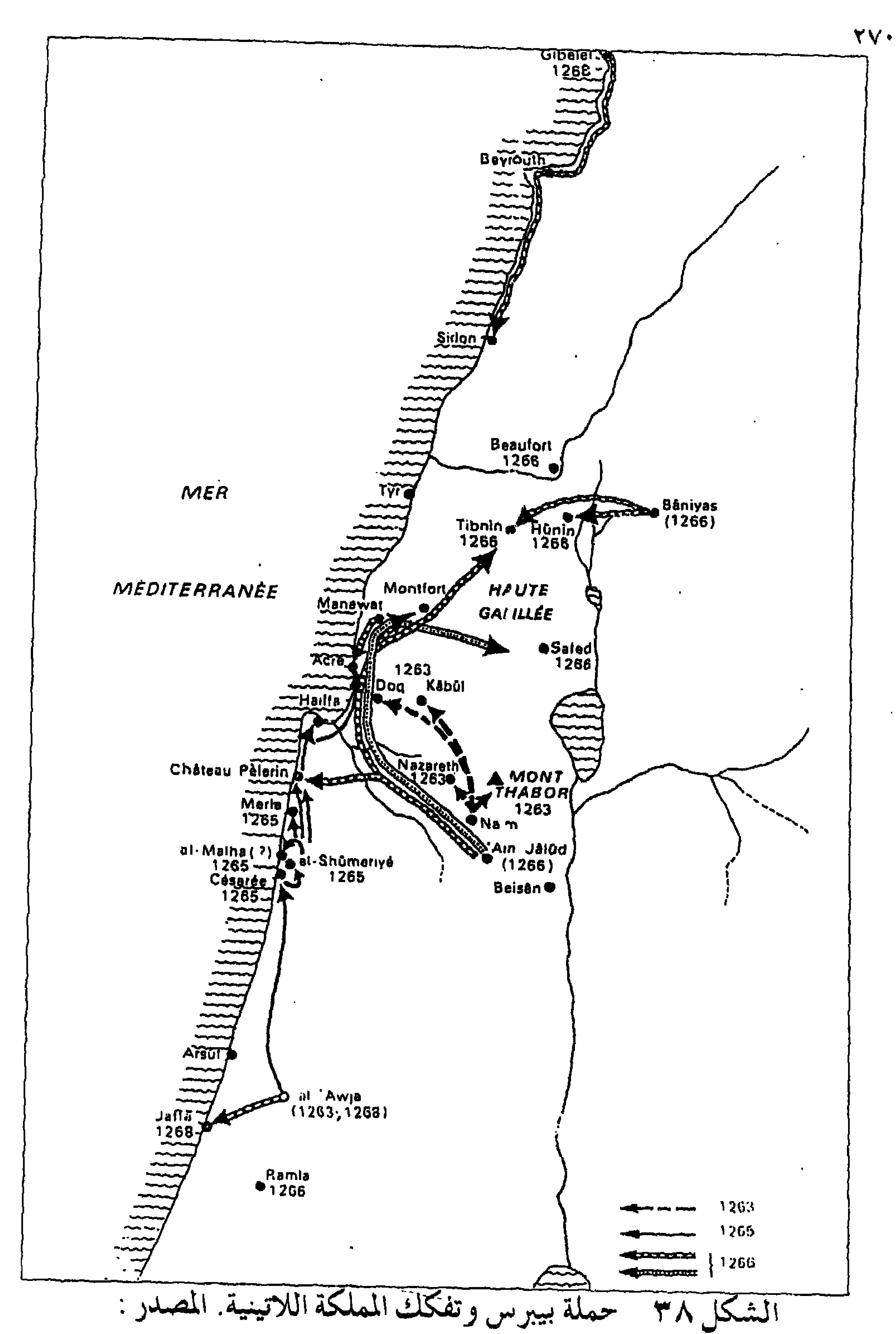
عام ١٢٧١: ذلك أن سلسلة من الحملات المحدودة والمدمرة تسمح للسلطان بالاستيلاء على قيسارية وعتليت وحيفا وأرسوف في عام ١٢٦٥، وصفد في عام ١٢٦٦، ويافا وبوفور [شقيف أرنون] وأنطاكية وجزء من أرمينيا الصغرى في عام ١٢٦٨، وصافيتا وحصن الفرسان وعكّار في عام ١٢٧١. وبعد ذلك بأربع سنوات، يستولي على أياس وسيس في أرمينيا الصغرى، ثم على قيصرية وقبدوقية، بعد إلحاق الهزيمة بجيش المغول والسلاجقة المشترك. وهو يموت في دمشق في عام ١٢٧٧، بعد أن شرب كأساً مسمومة، كان المقصود بها رجل آخر.

والحال أن النجاحات التي أحرزها بيبرس إنما تختزل إلى العدم إمارة أنطاكية وتنقل الحدود الجنوبية للملكة اللاتينية من يافا إلى عكا. ومنذ ذلك الحين، يقتصر الفرنج على شريط ساحلي ضيق، وتفرض مصر مع بيبرس قانونها على الشرق.

ويبذل خليفته الثاني، قلاوون (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠)، نشاطاً ديبلوماسياً مكثفاً لمنع مشاريع التحالف بين ايلخانات فارس والصليبيين. وإذ يتخلص السلطان المملوكي في عام ١٢٨١ من الخطر المغولي (معركة حمص)، فإنه يستأنف الهجوم ضد آخر ممتلكات الفرنج في سوريا؛ ويفرض معاهدات مهينة على مرجريت الصورية وليون الثالث، ملك أرمينيا الصغرى، ويستولى على طرابلس فيذبح سكانها (أبريل/ نيسان ١٢٨٩) ويعد للحملة الحاسمة ضد عكا. لكنه يموت في ديسمبر/ كانون الأول ١٢٩٠ قبل أن يتمكن من خوضها.

وفي ربيع ١٢٩١، يظهر ابنه، الأشرف خليل، أمام عكا. والواقع أن عدد أدوات الحصار التي تمكن من حشدها وفير جداً بحيث إن المعقل، العاجز عن المقاومة، يسقط في ١٨مايو/ أيار ١٢٩١. وفي الأسابيع التالية، يستولي المماليك على جميع المدن الساحلية الأخرى التي يحتلها الصليبيون. ومن ثم فقد كان احتضار مملكة عكا قصير الأمد.

ففي مواجهة الحصون التي يسيطر عليها الصليبيون بعدد غير كاف دائماً من الرجال، يحشد المماليك سلاح فرسان قوياً، سهل التعبئة، يحصل مقاتلوه على هبات عقارية على شكل **إقطاعات**، مكافأةً لهم على خدماتهم، كما يتبع المماليك تاكتيكاً يعتمد على قتل الأسرى وعلى أعمال التدمير وإثارة الرعب. وفي مواجهة الفرنج المحزومين من قائد معترف لهم والمنقسمين في إقطاعات مستقلة عملياً، يحشد المماليك وحدة قيادة صارمة،



الشكل ٣٨ حملة بيبرس وتفكك المملكة اللاتينية. المصدر :

N. ELISSEEFF, L'Orient musulman au Moyen Age, éd. A. Colin, Paris, 1977

بل ووحشية ودموية. وفي مواجهة حملات الغرب الصليبية التي مايزالون يخشونها، حتى بعد فشل حملة القديس لويس في تونس (١٢٧٠)، ينتهج السلاطين المماليك ديبلوماسية نشيطة مع مغول العشيرة الذهبية ومع أباطرة القسطنطينية وملوك الغرب، كما يطورون العلاقات التجارية مع الجمهوريات التجارية الإيطالية، فكيف نندهش من أنهم قد تفوقوا، في أربعين عاماً، على الدول الفرنجية في سوريا ــ فلسطين التي لا يحسن الغرب دعمها؟

٠٧ خلاصة

ساعدت الحملات الصليبية بشكل غير مباشر على تحقيق قدر من الوحدة في العالم الإسلامي حول المماليك.

فهل تركت على هذا العالم اثاراً أعمق وأكثر استمراراً ؟ يمكننا الشك في ذلك. فعلى المستوى الايديولوجي، نشهد بالتأكيد عودة حيوية الجهاد، وعودة أسلوب المرويات الملحمية للفتوحات وحمية متجددة حيال الأماكن المقدسة في القدس. إلاّ أنه عدا بعض القصائد والخطابات والكتابات ورسائل الديوان، لم تولد بالفعل أية دراسة مذهبية للحرب المقدسة؛ ولم يحفز النضال ضد الفرنج ظهور ملحمة كملحمة أنشودة رولان التي تمجد في الغرب النضال ضد مسلمي الأندلس. والوحدة ضد الخصم تقتصر على الاتحاد المؤقت بين مصر وسوريا، إلاّ أنها لم تؤد قط إلى إعادة توحيد الشرق والغرب المسلمين في جبهة مشتركة. وقد تمكنت الحملات الصليبية من حفز تقدم التسليح والحصون والمدفعية ومن إحداث تحولٍ لمركز جاذبية الإسلام، من بغداد إلى المدن السورية ثم إلى مصر. ولكن هل يرجع ذلك إلى النضال ضد الفرنج وحده ؟

وعلى مستوى الدين والثقافة، كانت نتائج الحملات الصليبية محدودة أيضاً. فعلى حين أن المسيحيين الشرقيين، خارج الأناضول، قد عرفوا مصيراً معقولاً في العالم الإسلامي قبل عام ١٠٩٥، نجد أن الحملات الصليبية قد أدت إلى تشدد موقف الإسلام حيال المسيحيين. وقد دعم المسلمون الأرثوذكس، من الملة الرومية، المعادين غالباً للفرنج. وخلافاً لذلك، تعرض الموارنة وأقباط مصر وأرمن قيليقيا للاضطهاد وللمجازر. وقد قام المماليك بترحيل الموارنة، المشتبه في مساعدتهم على عودة الفرنج، من مدن سوريا الساحلية وتوطينهم في الجبل اللبناني. أمّا فيما يتعلق بأرمن قيليقيا، فقد جرى القضاء عليهم خلال الفتح المملوكي في القرن الرابع عشر. وقد أدى التشدد الإسلامي، الناتج عن الحركة الصليبية، إلى الإساءة إلى أحوال مسيحيي الشرق.

أمّا التعارف المتبادل بين الإسلام والغرب فلم يحرز تقدماً يذكر في زمن الحملات الصليبية. فالتأثر الثقافي المتبادل في الدول الصليبية كان شبه معدوم. ولم يدخل الفرنج في اتصال مع مراكز الثقافة العربية ولم يعمل العلماء المسلمون في الدول الفرنجية. ولم يكوّن المؤرخون والجغرافيون والمساجلون المسلمون غير أفكار جد باهتة عن الغرب. كما كان الناس في عكا يجهلون كل شيء تقريباً عن الإسلام، في حين أن القرآن كان قد ترجم بالفعل في توليدو [طليطلة]. والواقع أن دراية الغرب بالإسلام إنما تتطور في القرن الثاني عشر عن طريق إسبانيا وعن طريق صقلية. وفي الشرق الأدنى، خلافاً لذلك، تجاورت الثقافتان دون أن تمتزجا: فمدونو الأخبار والحقوقيون والأطباء في كل معسكر كانوا يجهلون زملاءهم في المعسكر الآخر. والاستعارات من الفن الإسلامي ليست ذات شأن يُذكر؛ أمّا مصطلحات التجارة، والتي تدين بالكثير إلى العربية، فهي تصل إلى الغرب عن طريق التجار الإيطاليين لا عن طريق الأرض المقدسة.

وبالرغم من بعض محاولات التقارب المحظوظة ـ يظل من الاستثناءات المثال الذي غالباً ما تجري الإشارة إليه والخاص بأسامة بن منقذ، أمير شيزر في زمن نور الدين ـ فإن الحملات الصليبية لم تحفز نهوض مجتمع " تعددي ". فقد أدت، على مدار قرنين، إلى تجاور ثقافتين تجهل كل منهما الأخرى بوجه عام. أمّا إستعارات فرنج الشرق من المسلمين في مجال الملابس أو الغذاء أو السلوك فهي تظل مقصورة على الدول الصليبية وقلما تنتقل إلى أوروبا، فيما عدا بعض المنسوجات والأعمال الفنية.

وفي مواجهة الصليبين، كان رد فعل الإسلام هو الانكفاء الدفاعي على الذات؛ وفي مواجهة إسلام الشرق الأدنى، كان موقف الصليبيين هو العدوان ثم الانكماش البارد، بما يستبعد أي تبادل للتأثير الثقافي.

والحال أن المواجهة بين الفرنج والإسلام، بعيداً عن أن تكون " نزاعاً مهولاً بين الشرق والغرب" (أمين معلوف)، قد عاشها الوعي الإسلامي، منذ القرن التاسع عشر، بوصفها سابقة من سوابق نضال المستعمرات. ولذا فلا غرابة هناك في أن فصيلتين من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية تسميان " حطين " و"عين جالوت". وفي مرآة التاريخ، تصبح الحملات الصليبية بالنسبة لكثيرين من المسلمين اليوم أول صدمة عنيفة أحدثتها الرأسمالية الغربية في أرض الإسلام.

بحث دمشقي حول الجهاد

سبقت ردود الفعل الأيديولوجية على تغلغل الفرنج في سوريا خلال الحملة الصليبية الأولى ردود الفعل العسكرية، كما يشهد على ذلك هذا البحث للسُلمي (١٠٣٩ ــ ١١٠٦)، وهو فقيه لغوي دمشقي، أملى على الملأ نصه في عام ١١٠٥. وإذ يعتمد على الموقف الفعلي، ينجح في تمييز الفرنج عن الروم، كما ينجح في رصده ــ في قلب هجوم غربي معمم ضد الإسلام ــ للخصائص الدينية للحملة الصليبية وللوزن الروحي لهدفها: القدس. فهو يرى في هذه الحملة جهاداً ضد المسلمين. ثم يميز بجلاء الطابع المزدوج للجهاد: الجهاد الأكبر، المفهوم، بحسب تعبير أ. سيفان، بوصفه "إعادة تسليح معنوي"، والجهاد الأصغر أو الحملة العسكرية التي يجب على كل سلطة إسلامية شرعية خوضها مرة واحدة على الأقل كل عام ضد الكفار، وأول شرط لهذه الحملة هو وحدة العالم الإسلامي:

فوثبت طائفة على جزيرة صقلية[١] على حين تباينٍ وتنافسٍ، وتملكوا ــ بمثل ذلك ــ بلداً بعد بلد في الأندلس[٢]. ولما تناصرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد من اختلاف أربابها وتقرض أكابرها، مع اختلالها واضطرابها، أمضوا عزائمهم على الخروج إليها. وكانت القدس مهائر أمانيهم منها.

فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك متفرقة وقلوب غير متفقة واراء متباينة مقترنة بذحول كامنة. فقويت بذلك أطماعهم وأمتدت إلى ما يرونه أنواعهم. ولم يزالوا دائبين في جهاد المسلمين[٣]، والمسلمون عنهم متثاقلون ومتطافرون على حربهم وهم في لقائهم متواكلون، حتى تملكوا في البلاد ما لم تنته إليه غاية أمالهم، وبلغوا أضعاف ما أرادوه من إهلاك أهلها وإذلالهم. وهم إلى الأن متمادون في الاجتهاد مجدّون في طلب الإزدياد، تتضاعف في كل وقت أطماعهم لما يظهر لهم من الإحجام عنهم، وتنبسط امالهم بحكم ما يرونه من رضى أعدائهم بالسلامة منهم، حتى لقد تيقنوا أن البلاد كلها صائرة إليهم وأن جميع أهلها أسرى في أيديهم. والله بكرمه يخيبت ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة. إنه قريب مجيب.

وقال الشافعي[٤] رحمة الله عليه: " وأقل ما على الإمام أن لا يأتي عليه عام إلاّ وله فيه غزوة، بنفسه أو بسراياه، على حسب النظر للمسلمين. حتى لا يكون الجهاد معطلاً في عام إلاّ من عذر". قال: " وإذا لم تقم بالنفير كفاية خرج من تخلف واستوجبوا ما قال الله سبحانه".

قُلتُ: فقد تبين مما ذكرت أنه إذا احتيج إلى الجماعة، يغزو كلهم، فرضاً واجباً عليهم. وذلك في مثل هذه الحال التي نحن عليها الآن مع هذه الفرقة الهاجمة على بلاد الإسلام.

وقال أبو حامد محمد الغزالي(٥): " ومهما خلت السنة عن الغزوة، خرج به كل مسلم حر مكلّف مستطيع مغيراً يقصد به إعلاء كلمة الله سبحانه وإظهار دينه وقمع أعدائه المشركين به والفوز بالأجر الذي وعده الله سبحانه ورسوله من جاهد في سبيله، لاكتساب أموالهم ونسائهم وديارهم، إلى أن يحصل بازائهم من تقوم الكفاية به في حربهم". وذلك أن الجهاد إنما يكون من فروض الكفاية، إذا كانت الطائفة التي بإزاء العدو فيها غناء ويمكنها مجاهدته بأنفسها ورفع شره بانفرادها عن غيرها. فأمّا إذا كانت الطائفة فيها ضعف ولا تقدر على كفاية العدو ودفع شره، فإن الفرض يتعين على أهل البلاد القريبة منها(٦) كالشام مثلاً. فإنه إذا قصد العدو بلداً منه، ولم يكن فيه من يكفي في حربه ودفعه، وجب على جميع البلاد المنسوبة إلى الشام النفير إليه حتى تحصل الكفاية، فحينئذ يسقط الفرض عمن سواهم، لأن خطة الشام كالبلدة الواحدة. فإن نفر المستطيعون منهم إلى العدو، ولم تقم بهم كفاية، وجب أيضاً على من قرب الشام النفير إليهم واللحاق بهم حتى تحصل الكفاية، فحينئذ يسقط الفرض أيضاً عمن سواهم. والبلدة الواحدة إذا أحاط بها العدو، صار فرض الجهاد متعيناً على كل من بها، كذلك ما ينزل منزلتها. ولا يخرج من فرض الوجوب إلاّ ذوو الأعذار والقاطعة المانعة. ونحن نذكرها إن شاء الله ...

وهذه أدلة واضحة من الكتاب والسنة والإجماع على فرض الجهاد على الكفاية إلى ديارهم، وبيان مصيره من فرائض الأعيان في المواطن المذكورة من أقوال الفقهاء وفتاويهم. وصحّ وتبيّن أن الجهاد إلى هذه الطائفة وقصدها يتعيّن على كل ذي قدرة وهو من لا مرض به قاطع ولازمانة ولا عمى ولا عجز عن شيخوخة. فأمّا من سوى هؤلاء من غني وفقير وذي والدين ومن هو مرتهن بَدين، فواجب عليهم النفير في هذه الحال، والبدار لحسم ما يُخشى من عاقبة الونية فيها والتثاقل عنها. لاسيما الآن، مع قلة العدو وبُعد ناصرهم واتفاق كلمة أرباب أهل هذه البلاد المتقاربة وتظاهرهم.

فشمروا – رحمكم الله – عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والانجاد. واغتنموا غزوة قد هيأها الله تعالى لكم من غير كبير تعب ولا نصب(٧)، وجنة قد زُفت إليكم تنالونها بتوفيق الله من كثب، ودنيا عاجلة تحوزونها من أطيب مكتسب، ومفخراً باقية ملابسه عليكم مدى العصور والحقب.

واحذروا كل الحذر أن تتخلفوا عن ذلكم فتصلوا ناراً ذات لهب جعلها الله تعالى شر مكان وأسوأ منقلب.

فقد تحقق عندكم ما كنتم فيه شاكّين من وجوب هذه المجاهدة على أعيانكم، سيّما من خصه الله سبحانه بتملك شيء من هذه البلاد، فإن وجوب ذلك عليه آكد من وجوبه على غيره منكم، لما قد فوضه الله تعالى إليه من أمور رعيته، وفرضه عليه من النظر لأهل طاعته، وألزمه إياه من المحاماة عن حوزة الإسلام وبيضته، لا بل ينبغي له أن يرتبط ـ نَعِمَ الله عليه ـ بمجاهدة أعداء الله سبحانه في ديارهم كل عام وإزعاجهم عنها، كما ينبغي لكل أمير و إمام، لتكون أبداً كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولتضعف أطماع أعداء دين الله عن الاهتمام بها مرة أخرى.

فالعجب كل العجب من سلطان يتهنيء بعيش أو يخلد إلى استقرار، مع إظلال هذه النازلة التي مغبتها استيلاء هؤلاء الكفار، والإخراج من البلاد بالقهر والاقتسار، أو الإقامة معهم والتكبل والتعذيب في الليل والنهار ... وقدموا جهاد أنفسكم على جهاد أعدائكم، فإن النفوس أعدى لكم منهم، واردعوها عمّا هي عليه من عصيان خالقها سبحانه، تظفروا بما تؤملونه من النصرة عليهم. وأصلحوا ما بينكم وبين خالقكم يصلح لكم ما فسد من أحوالكم، وتصلح ذات بينكم. واقلعوا عمّا أنتم عليه من معاصي الله سبحانه مصرون، وأتبعوا إقلاعكم بالأعمال الصالحة فيما تستأنفون، " عسى ربُّكُم أن يُهلِكَ عَدُوَّكُم ويستخلفكم في الأرض فيَنظُرَ كيف تعملون"، وتدبروا ما أمر الله سبحانه نبيكم صلّى الله عليه بتقديمه على فعل الجهاد، وهَمَّ به أولو الجد في طاعتهِ وصدقِ الاجتهاد. نحو قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون". ثم قال بعد ذلك: " وجاهدوا في الله حق جهاده ... ".

أيها الخاطئون المذنبون المصرون المقصرون، لأنتم أحوج إلى ذلك كله قبل جهادكم...

وليكن قصدكم بجهادكم هذا إرضاء ربكم والذبّ عن أنفسكم وعن غيركم من إخوانكم، ليمحص لكم ثواب غزوكم ويزكيّ صالح أعمالكم. فإن العمل إذا لم يُرَدْ به وجه الله حبط عمله وأثم عامله. أعوذ بالله من أعمال الرياء.

المصدر: علي بن طاهر السلمي، حث على الجهاد

Journal asiatique, 1966, p. 207-212.

[أمدني صلاح العمروسي بالأصل العربي الوارد أعلاه، فشكراً له على ذلك].

---

١ ـ استولى النورمان على باليرمو في عام ١٠٧٢ وأنجزوا فتح الجزيرة في عام ١٠٩١.

٢ ـ الاستيلاء على توليدو [طليطلة] في عام ١٠٨٥، واحتلال فالنسيا [بلنسية] في عام ١٠٩٤ ومدن نهر الإبرو بين عامي ١٠٩٤ و١١٠٠. ونلاحظ أن كاتبنا لا يشير بالمرة إلى " رد فعل " المرابطين.

٣ ـ لنتذكر الفكرة الواضحة عن خصوصية الحملة الصليبية وهدفها القدس والتوازي بين الجهاد والحرب المقدسة.

٤ ـ مؤسس أحد مذاهب الفقه السني الأربعة (٧٦٧ ـ ٨٢٠).

٥ ـ عالم دين وحقوقي ولد في خراسان وقام بالتدريس في بغداد (١٠٥٨ـ١١١١). وقد أقام فترة من الزمن في دمشق بعد عام ١٠٩٤ وهناك تسنى للسلمي الالتقاء به.

٦ ـ يتحدث السلمي أولاً عن الجهاد الأصغر ويميز بين فرض الكفاية وفرض العين وذلك بحسب التمايز بين الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي. ومعيار هذا التمييز هو مسئولية ومقدرة السلطات الشرعية للأمة الإسلامية، المبادرة الطبيعية بالجهاد. وفي حالة تقصير هذه السلطات، يعتبر كل مسلم مكلفاً بصورة شخصية، إلاَّ في الحالات التي يحددها السُلمى فيما بعد.

٧ ـ يتعلق الأمر بتلك الحملة أو الغزوة السنوية ضد غير المؤمنين بالإسلام والتي تشكل أساس الجهاد الأصغر.

الفصل الثامن
إيطاليا والحملات الصليبية

من دعوة أوربان الثاني في كليرمون، تولد الحملة الصليبية التي لا تمس إيطاليا مباشرة إلاّ من خلال ما يرسله الحبر الأعظم من رسائل إلى جنوة وبولونيا وبيزا، كما من خلال مرور جيش بروفانس الذي يقوده عبرها ريمون السانجيلي ورحيل قوة نورمانية من موانئ أبوليا تحت قيادة بوهيموند. لكن موقع إيطاليا الجغرافي، وهي شبه جزيرة متقدمة في قلب البحر المتوسط، سرعان ما يؤدي إلى تمكين سكانها من لعب دور حاسم في نجاحات الصليبيين: فأساطيل الجمهوريات البحرية الإيطالية تصبح ضرورية للاضطلاع بفتح المعاقل الساحلية في سوريا ـ فلسطين ولتزويد الفرنج بالأسلحة والجياد ومنتجات الغرب من المنسوجات، كما تصبح منذ أواخر القرن الثاني عشر ضرورية لنقل قوات الحملات الصليبية. ومن كل هذا، تفوز جنوة والبدقية وبيزا بمكاسب ملحوظة. ومع أن التجارة مع المشرق لا تولد مع الحملات الصليبية، إلاّ أن هذه الحملات تحفز التبادلات التجارية بين الشرق والغرب.

١ • من طريق الحج إلى الاستيطان

إن الحملة الصليبية، المفهومة بمعنى الحج المسلح إلى القدس والنضال ضد المسلمين، لا تبدأ بالنسبة لإيطاليا في عام ١٠٩٥. فبفضل قربها الجغرافي النسبي من فلسطين، كما بفضل سهولة الاتصالات البحرية فيما بين ضفاف البحر المتوسط، تعد شبه الجزيرة أرض حج وطريقاً إلى القدس. ذلك أن الحجاج السائرين على درب الرب والقادمين من وراء الجبل، إنما يسلكون الـ *via Francigena* (طريق الفرنج) حيث يزورون في لوكّا مزار الوجه المقدس وفي روما مقابر القديس بطرس وخلفائه وفي مونت جارجانو مزار القديس ميخائيل، قبل ركوبهم البحر من موانئ أبوليا متجهين إلى الأرض المقدسة. وعلى طول الطريق، سوف نجد أن العمائر المبنية على طراز الأماكن المقدسة إنما تهيئ المؤمن للحج كما تشهد احتفالات دينية تحيي ذكرى الأحداث الكبرى في التاريخ المقدس. والحال أن روما، مركز الكنيسة ومقر البابوية، إنما تجني جانباً من مكانة القدس، المدينة المقدسة ومهد الكنيسة.

كما أن شبه الجزيرة، ذات الموقع الممتاز على طرق الحج، هي إحدى ساحات " ما قبل تاريخ الحملات الصليبية "، فهي الساحة التي يتواجه فيها الإسلام الغربي مع المجتمعات الحضرية الإيطالية الصاعدة. ذلك أن التصدي للمسلمين، والذي يخاض في البداية بوصفه عمليات مضادة للقرصنة، ــ وهو تصد يدعمه منذ أواخر القرن العاشر توسع ديموغرافي واقتصادي قوي ــ إنما يتسع ليصبح حملات بحرية كبرى ضد الإسلام الصقلي ــ الأفريقي. والقوة الفاعلة في هذه الحملات هي أساطيل بيزا وجنوة؛ أمّا ساحات العمليات فهي الجزء الشرقي من بلاد البربر وبون [عنّابة، في الجزائر] وباليرمو وجزر الباليار. وفي غضون قرن واحد، من عام ١٠١٥ إلى عام ١١١٥، تكتسب الجمهوريتان البحريتان الواقعتان على البحر التيراني قوةً وهيبةً في صراعهما المشترك ضد المسلمين. ولا تمثل الحملات الصليبية بالنسبة لهما غير تتمة ضرورية، فهي توسيع لمواجهة قديمة.

كما أن المغامرة البحرية الكبرى تكتسب جوانب أكثر خصوصية بالنسبة لإيطاليا. فالعلاقات التجارية مع الشرق لا تعدو في أواخر القرن الحادي عشر أن تكون عادة قديمة. ذلك أن الأمالفيين والبنادقة، المعتبرين رعايا بيزنطيين منذ وقت بعيد، قد حققوا لأنفسهم تواجداً في الأسواق الشرقية؛ وجالياتهم في القسطنطينية نشيطة منذ القرن العاشر. وفي فلسطين، أسهم تجار أمالفيون في إنشاء دور ضيافة للحجاج، سوف تصبح فيما بعد مهداً للجمعية العسكرية لفرسان القديس يوحنا في القدس (جمعية الأوسبتاليين). أمّا فيما يتعلق بالجنويين والبيازنة، فإن وثائق الجنيزة، القادمة من كنيس يهودي قديم في القاهرة إنما تثبت أنهم كانوا على علاقات تجارية مع الفاطميين ، منذ الثلث الأخير للقرن العاشر . وعند قيام الحملة الصليبية الأولى، كانت المدن البحرية الإيطالية تحوز منذ زمن دراية جيدة بالشرق.

ولذا فليس دقيقاً أن ننسب إلى هذه المدن المسئولية عن شن الحملة الصليبية، المفهومة كحملة موجهة إلى فتح أسواق أمام التجار الإيطاليين وتسهيل دخول المنتجات الغربية إلى الشرق. فالأمر على العكس من ذلك تماماً، لأن التجار الإيطاليين، إذ يرون الحشود المسلحة تتجه إلى القدس، لم يكن بوسعهم أن يتوقعوا سوى أسوأ النتائج، والتي تتمثل في ضياع المواقع التجارية التي كسبوها بمشقة في أرض الإسلام. لكنهم شيئاً فشيئاً سوف يكتشفون الربح الذي قد تعود به عليهم هذه الحملات.

ولذا فلا ينبغي أن ندهش من أن الاستجابة لنداء البابا لم تكن لا فورية ولا إجماعية، في شبه الجزيرة التي يقسمها النزاع على تعيين الأساقفة وتتقدم فيها المجتمعات الحضرية ببطء نحو الاستقلال من حيث هي كومينات. وكان أوربان الثاني قد أرسل أسقفين للدعوة في جنوة للحملة الصليبية، كما حفز حماسة عدد من أهل بولونيا وفالومبروز. لكن كبار ومتوسطي الإقطاعيين، جد المنشغلين بالنتائج المحلية للصراع بين البابوية والامبراطورية [الرومانية المقدسة]، لا يتجاوبون. ولا ينضم إلى الجيشين الكبيرين اللذين يجتازان شبه الجزيرة في خريف ١٠٩٦ غير عدد من ال *populares* [العوام] المدنيين أو الفلاحين؛ ففي الشمال، ينضمون إلى جيش ريمون السانجيلي، الذي يصل إلى شبه جزيرة ايستري عبر هضبة بادانيا؛ ومن الشمال إلى الجنوب، ينضمون إلى جيش هيج دو فرماندوا الذي يصل إلى موانئ أبوليا، بعد اجتيازه بيمونت وتوسكانا وروما. وفي الجنوب، في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٠٩٦، يجر بوهيموند التارانتوني معه الفرسان النورمان على طريق القسطنطينية.

وتتأخر المدن البحرية في الرد على ما يحدث. لكن الجنويين هم أول من يتدخل بإرسالهم عدة سفن لنقل المساعدات والمؤن إلى الصليبيين. وهم حاضرون خلال حصار عكا، ويصلون إلى يافا في يونيو/ حزيران ١٠٩٩ ويضعون مواد سفنهم في خدمة الصليبيين الذين يحاصرون القدس. أمّا البيازنة، وعلى رأسهم كبير أساقفتهم دايمبرت، فهم يرسون في يافا في أواخر عام ١٠٩٩ وينتزعون لأنفسهم امتيازات في أول ميناء يفتحه الصليبيون. ويدشن البنادقة حملة كبرى في ربيع ١٠٩٩، إلاّ أنها تتوقف للحفاظ على الأمن في البحر ولا تصل إلى يافا إلاّ خلال عام ١١٠٠؛ وهم يشاركون في فتح حيفا، مقابل وعد بالمشاركة في الغنيمة وبالحصول على حي وامتيازات تجارية في كل مدينة مفتوحة. وفي خريف ١١٠٠، يسلك جيش كبير من اللومبارديين طريق القسطنطينية، حيث ينضم إلى جيش ايتيان دو بلوا وايتيان دو بورجونيا؛ وهو يستولي على أنقرة في يونيو/ حزيران ١١٠١، لكنه يهلك ذبحاً على أيدي الأتراك عند مشارف أماسيا.

ومنذ ذلك الحين، فإن ما يجري انتظاره بشكل خاص من الصليبيين الإيطاليين هو أن يضعوا سفنهم في خدمة فتح المواقع الساحلية، وتأمين علاقات متصلة وأكيدة مع الغرب. وعونهم ضروري. فبحارة وجنود شبه الجزيرة يشاركون في الاستيلاء على مدن الساحل، دون أن يفكروا أولاً إلاّ في الغنيمة. وبعد فتح قيسارية، يحصل الجنويون كثمن

لجهودهم على الفضة والبهارات، وهي سلعة يسهل تحويلها إلى نقود، حتى بالنسبة للجندي البسيط.

وببطء، تخلى روح الغزو من أجل الكسب السريع مكانها للحرص على استيطان ذي أهداف تجارية، أي إنشاء وكالات تجارية. ففي عام ١١٠٠، يسهم أسطول جنوي في الاستيلاء على أرسوف وقيسارية؛ ويساعد أسطول آخر ريمون السانجيلي على الاستيلاء على طرطوس في فبراير/ شباط ١١٠٢؛ ويلعب أسطول ثالث دوراً حاسماً في الاستيلاء على جبلة وعكا في عام ١١٠٤. وفي كل مدينة من المدن المفتوحة بفضل عونها، سوف تزرع الجمهوريات البحرية الإيطالية هياكل استيطانية: حي مع مستودعات، كنيسة وبنايات عامة تخصها، إدارة مستقلة يعينها المتروبول للدفاع عن مصالحه لدى السلطات المحلية ولحماية المنحدرين منه، إعفاء جزئي أو كلي من الرسوم التي تشكل عبئاً على حركة النشاط التجاري. وهكذا تنشأ وكالات تجارية إيطالية في غالبية المدن الساحلية في الأرض المقدسة. وبالرغم من جهود بودوان الأول وخلفائه، فإن القدس وحدها هي التي لا يبدو أنها قد اجتذبت كثيرين من تجار شبه الجزيرة الإيطالية.

وهذه الجاليات الأجنبية تزيد من قوتها ومن استقلاليتها، بحيث تشكل في القرن الثالث عشر عامل تهديد لاستقرار الدول الفرنجية؛ فهي تشارك في الصراعات بين الحزب الإمبراطوري وبارونات المملكة اللاتينية، وفي التنافسات فيما بين الجمعيات العسكرية. وإذ تدخل هذه الجاليات في منافسة مع بعضها البعض، فإنها تشكل أس النزاعات التي سرعان ما تتجاوز حدود الأرض المقدسة لتنحط إلى حروب " كولونيالية " بين البندقية وجنوة وبيزا. وهكذا فإن الدور السياسي لهذه الوكالات التجارية الإيطالية قد أسهم كثيراً في تفكك مملكة القدس اللاتينية في الشطر الثاني للقرن الثالث عشر.

وقبل ذلك، كانت مشاركة الإيطاليين في الحملات الصليبية المختلفة متفاوتة. ففي عامي ١١٤٦ و١١٤٧، يتجاوب النبلاء الإقطاعيون مع نداء البابا أوجينيوس الثالث ويرسلون إلى الشرق بارونات مهيبين كآميدييه الثالث دو سافوا وجيوم الرابع دو مونفيرات؛ لكن المدن البحرية تمتنع عن التجاوب. وبعد استيلاء صلاح الدين على القدس (أكتوبر/ تشرين الأول ١١٨٧)، يعهد جيوم الثاني، ملك صقلية، بأسطول إلى أميراله مرجريتون. وفي عام ١١٨٨، يشق البحر أسطول بيزاوي، ثم أسطول بندقي. وتقوم قوات من المدن الكومينية في إيطاليا الشمالية بالانضمام إلى الجيش الإمبراطوري الذي يقوده فريدريك الأول بربروسا. ويحصل فيليب أوجست على عون من الأسطول الجنوي الذي

ينقل القوات الفرنسية إلى عكا. وتبرز الحملة الصليبية الرابعة دور بحرية البندقية والفعل السياسي للدوج، انريكو داندولو، المسئول إلى حد بعيد عن الانحراف إلى القسطنطينية. والحال أن استيلاء الصليبيين الجزئي على الإمبراطورية البيزنطية إنما يجعل من الدوج "سيد ربع ونصف رُبع إمبراطورية رومانيا " [بيزنطة] وسيد كريت ونيجربون وجزر بحرايجه.

وتُرسي الحملةُ الصليبية الرابعة أُسس إمبراطورية الشرق البندقية وتكفل للمدينة البحرية السيطرة على التجارة مع شبه الجزيرة البلقانية والشرق البيزنطي. وفي عام ١٢١٧، فإن سفن البندقية أيضاً هي التي تنقل إلى عكا القوات المجرية والنمساوية للحملة الصليبية الخامسة؛ لكن القوات الإيطالية لا تلعب في هذه الحملة دوراً كبيراً. وحملة ١٢٢٨ مشروع إيطالي بالكامل: فأسطول فريدريك الثاني قد بُني في موانئ مملكة صقلية، التي يصل إليها أيضاً الفرسان المرافقون للإمبراطور المحروم كنسياً. وقد حفزت حملتا القديس لويس مجهوداً إنشائياً بحرياً مهولاً في جنوة: ففي عام ١٢٤٨ كما في عام ١٢٧٠، كانت الطلبات الملكية [الفرنسية] حافزاً للترسانات البحرية الليجورية، حيث سمحت لها بالتقدم تقدماً حاسماً في السباق على الفوز بأضخم حمولة، في مواجهة المزاحمة من جانب البندقية أو بيزا أو مارسيليا. والحال أن الاحتياجات البحرية للحملات الصليبية لن يتسنى أبداً تحديد مدى مسئوليتها عن التحولات التقنية العميقة في تجهيز السفن كما في استخدامها.

إلاّ أنه من زاوية تجارية على وجه الحصر، ليس من المؤكد أن الإيطاليين قد كسبوا كثيراً من وكالاتهم التجارية في الأرض المقدسة. فالواقع أن طرق القوافل الكبرى قد تبدلت خلال القرن الثالث عشر؛ والغزو المغولي يهدد النشاط التجاري على طول الطريق البري المارّ من الخليج الفارسي إلى سوريا، في حين أن قيام الخانات المغولية يفتح أمام الإيطاليين، إعتباراً من ستينيات القرن الثالث عشر، طرقاً برية جديدة إلى وسط آسيا، عبر البحر الأسود. أمّا في مصر، فإن صعود المماليك الذين يشتد تناحرهم مع فرنج الأرض المقدسة إنما يزعج نمو التجارة الإيطالية، وإن كان لا يعوقه كليةً.

وهكذا فإن خسارة الغربيين للمواقع السورية في عام ١٢٩١ لا تتميز بالنسبة للتجار الإيطاليين إلاّ بأهمية ثانوية؛ فقد مرت عدة عقود بالفعل قبل ذلك كانت تجارتهم فيها مع عكا قد انحدرت إلى حد بعيد. وفي المقابل، فإن خطط الحملات الصليبية التي تسعى إلى تنظيم حصار تجاري للبلدان الإسلامية لإجبارها على تسليم الأرض المقدسة للجماعة

المسيحية، كان محكوماً عليها بالفشل؛ فرجال الأعمال لم يلتزموا التزاماً صارماً بالحظر البابوي على التجارة مع المسلمين.

ومن ثم فقد كانت الحملات الصليبية سبب ومناسبة نمو اقتصادي قوي، خاصة بالنسبة للمدن البحرية الإيطالية. كما أنها قد أثارت في شبه الجزيرة الإيطالية حماسة شعبية لا تتوقف إلى عام ١٤٦٤ ـ الحملة التي خطط لها البابا بيوس الثاني ـ بل وإلى انتصار ليبانتو على العثمانيين (١٥٧١). وقد أثّرَ المثلُ الأعلى للحملة الصليبية على تراث الأعياد المدينية وأنجب صياغة كبرى للشعارات وللأنساب التاريخية ووجد أخيراً تعبيراً جديداً عنه في المخيلة الجماعية إلى حد إلهام فردي في القرن التاسع عشر (" اللومبارديون في الحملة الصليبية الأولى ").

٢٠ البحر والحملات الصليبية

بالنسبة للصليبيين، وغالبيتهم من أصول برية، يعتبر ركوب البحر مغامرة خطرة. فالعواصف واحتمالات الغرق والقرصنة والمعارك البحرية ترعبهم. ومن ثم فإن الحملات الأولى إلى القدس إنما تأخذ كلها الطريق البري؛ إلاّ أن تاريخ الحملات الصليبية سرعان ما سوف يفرض استخدام البحر. وخلال عمليات فتح الأرض المقدسة، يلعب أسطولُ المدن البحرية الإيطالية دور مساندة ودعم حاسمين؛ فهو يسمح بصون الاتصال مع الغرب، وينقل التعزيزات والمؤن الضرورية. والجنويون الذين يهبطون إلى يافا يقدمون للصليبيين الواصلين إلى القدس خشبَ أبراج وأدوات الحصار. وما كان يمكن الاستيلاء على حيفا وقيسارية وعكا بهذه السهولة دون عون الأساطيل الإيطالية. ومع إنجاز فتح السواحل السورية، تظل البحرية ضرورية للسيطرة على الساحل ولممارسة مراقبة بحرية، لمواجهة الأساطيل المصرية حول عسقلان، ثم أسطول صلاح الدين الذي يناوش المواقع الفرنجية على الساحل. ولاشك أن المنظومة الدفاعية لمملكة القدس الأولى إنما تستند إلى حد بعيد على امتلاك موانئ فلسطين وعلى علاقات هذه الموانئ بالغرب.

وقلّما تملك الأرض المقدسة الإمكانات اللازمة لتدبير بناء أسلحتها البحرية الخاصة. فالخشب قليل، اللهمَّ إلاّ على الجبال اللبنانية. على أن بعض الترسانات تعرف قدراً من النشاط: صور وحيفا وعكا وخاصة طرابلس. لكن الدول الفرنجية رهينة للعون الخارجي. فهي تنتظر الكثير من بيزنطة، التي يظهر أسطولها أمام صور في عام ١١١١، ويلتقط

في عام ١١٤٧ فلول حملة لويس السابع في أضاليا، ويستعد في عـام ١١٦٩ لدعـم فتـح مصر الذي تشرع به قوات الملك آموري.

لكن هذه المساعدة البحرية باهظة التكاليف وليست موثوقة دائمـاً. ومـن ثـم يجـري الاتجاه إلى الاعتماد أكثر على الغرب. وتقدم المدن الساحلية المتوسطية دعماً منذ الحملـة الصليبية الأولى. ولا يجب التهوين من شأن العون الذي تقدمه أساطيل الشمال: ففي عـام ١١١١، يصل سيجورد، ملك النرويج، أمام صيدا مع أسطوله؛ ويقول مدونو الأخبـار إن ريتشارد قلب الأسد قد استخدم الترسانات الإنجليزية ـ النورمانية؛ وفـي القـرن الثـالث عشر، يضطر الفونس، كونت بواتييه، إلى الاعتماد على الترسانات الشـمالية (اسـكتلنده والنرويج) لنقل قواته من الجنوبيين لكي تلازم قوات أخيه الملك القديس لويس.

والواقع أنه منذ أواخر القرن الثاني عشر يجري ايثار الطريق البحري، ليس فقط لتقديـم العون والمؤن، وإنما خاصة لـ " نقل " حملة ضخمة " إلـى مـا وراء البحـر ". فـالمدة قصيرة والرحلة مأمونة نسبياً. وفي عام ١١٩١، نجد أن فيليب أوجست، الذي طلب مـن جنوة نقل قواته، قد قام بالرحلة من ميسينا إلى عكا في ثلاثة أسابيع؛ أمّا ريتشـارد قلـب الأسد، الذي يلحق بالحملة الفرنسية بعد وقت قصير، فإنه يصل في ثمانية وعشرين يومـاً، إذا ما خصمنا الشهر الذي أقامه في قبرص. كما أن الطريق البحري عملي أكثر؛ إذ يحـول دون تفرق القوات؛ وبوسع أصحاب السفن أن يتجاوبوا بمرونة مع حاجات النقل بحسـب أعداد القوات. والتكلفة ليست ضخمة، فقد أمكن حساب أن نقل وإعاشة فـارس وجواديـن وسلاحدارين لا يكلفان غير ١٤ ماركاً فضياً في السنة. فما أتفه هذا المبلـغ قياسـاً إلـى المبالغ والخسائر التي تحملها فرسان الحملة الصليبية الأولـى، الذيـن اسـتغرق مشـوار وصولهم إلى القدس نحو ثلاثة أعوام!

وتجتهد التجهيزات البحرية في التكيف مـع الاحتياجـات الكميـة والنوعيـة لنقـل الصليبيين. وتتطلب عمليات النقل الجماعي جهداً ضخماً في التجهيز. وفـي عـام ١١٩٠، نجد أن ريتشارد قلب الأسد، الذي يتأخر أسطوله القادم من إنجلترا في الانضمام إليه فـي مارسيليا، إنما يجد صعوبة في الحصول في الميناء على السفن الضرورية لنقل حاشـيته، إلاّ أنه عند رحيله من ميسينا يتمكن من حشد ١٠٨ سفينة شراعية إنجليزية و١٤ سـفينة تتبع مارسيليا و٢٠ سفينة تتبع جنوة ومثلها من ميسينا. ويكتفي فيليب أوجست بمائة سـفينة جنوية يستأجرها لخدمته. وفي عام ١٢٠١، يتعاقد مندوبو البارونات الفرنسيين مع سـلطات

البندقية؛ ويستثير العقد عملاً لا يتوقف في الترسانة إلى يونيو/ حزيران ١٢٠٢، الموعد المقرر للرحيل. وفي أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٠٢، يبحر نحو مائتين وثلاثين سفينة، تنقل ثلث العدد المتوقع أصلاً. وفي عامي ١٢٤٧ و١٢٤٨، يتفاوض الأميرالان الجنويان ـ المعيّنان من قبل القديس لويس ـ مع مدينتهما ومع مارسيليا على شراء واستئجار سفن سوف يتبين عند الاستعداد للرحيل أن العدد المتاح منها غير كاف. وتحفز عمليات النقل الجماعي هذه إلى ما وراء البحر نشاطاً إنشائياً بحرياً وتعود بالربح على المدن البحرية، البندقية وجنوة ومارسيليا بالأخص، وكذلك بيزا وموانئ أبوليا وبرشلونه. فإليها يتجه قادة الحملات إمّا لشراء السفن أو لاستئجارها بموجب عقد استئجار.

أما عمليات النقل الفردي فحلها أسهل بكثير. فالحجاج الراحلون إلى الأرض المقدسة يمكنهم استخدام الخدمات المنتظمة التي تنظمها الجمعيات العسكرية، الهيكليون والأوسبتاليون، مرتين في السنة انطلاقاً من الغرب، أو العثور على مكان على متن سفينة تنقل أساساً السلع التجارية. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كانت سفن البندقية هي الوسيلة الأكثر انتشاراً لنقل الحجاج؛ لكن البعض، مثل أدورنو، يمتدحون السفن الشراعية الجنوية. والحال أن أصحاب السفن، الذين يواجهون آنذاك أزمة التأجير المترتبة على انتهاء الحملات الصليبية، إنما يحاولون، كما يصف ذلك فيلكس فابر، اجتذاب الزبائن أيّاً كان الثمن.

كما أن احتياجات الحملات الصليبية قد حفزت انقلابات عميقة في التجهيزات البحرية، من الزاوية النوعية. وأوضح هذه الانقلابات هو زيادة حمولة السفن. فسفينة الأميرالية التي تقل القديس لويس في عام ١٢٤٨، والمسماة بالـ *Paradisus magnus* [**الفردوس العظيم**]، إنما تحمل على متنها أكثر من ألف راكب، في حين أن سفينة شراعية من ثلاثة طوابق تستقبل في العادة أكثر من ٥٠٠ حاج. والسفينة الشراعية *Rocca fortis* [**الحصن الحصين**]، التي تعرض البندقية في عام ١٢٦٨ وضعها في خدمة الملك الفرنسي، إنما تتميز بحجم مثير. وهذه السفن مزودة بهياكل علوية، مقصورات وأجنحة خاصة، ينزل فيها الضيوف المميزون، بينما يتعين على الركاب العاديين الاكتفاء بمكان ضيق على الطوابق أو في الممرات ـ أقل من مترين للراكب. ويجري تقديم الغذاء ـ وجبتين يومياً ـ إلاّ أن بوسع الركاب شراء مواد غذائية من الأساكل حيث يمكنهم تكليف الطهاة على متن السفينة بإعدادها لقاء مقابل. ويشكل النبيذ والخبز أساس الوجبات المشتركة. وبالنسبة لنقل الجياد، تقدم بيزنطة للصليبيين نموذجاً على شكل السفينة العوامة التي تحوز

بوابة جانبية لإدخال البهائم. لكن الفرنج يستخدمون بالأحرى تاريدات "عائمة"، مزودة ببوابات جانبية ومجهزة بمرابط؛ حيث يجري ربط الجياد بأربطة من الألياف وبحبال ترفعها عن الأرضية، وهو ما يؤدي إلى تفادي أصابتها بجراح عند هبوب العواصف.

واستخدام هذه الأساطيل الموضوعة في خدمة الحملات الصليبية إنما يطرح مشكلات لوجستية واستراتيجية مهمة. فالسفن الشراعية المستديرة السائدة في ملاحة البحر المتوسط قلما تكون ملائمة للرسو على ضفة لا رصيف لها. ومن ثم يتعين وجود مواقع ساحلية ملائمة، تتيح علاوة على ذلك اتصالات جيدة مع بلدان المؤخرة. ويتم الدفاع عن موانئ الأرض المقدسة بسلسلة، تمتد من رصيف على الضفة عبر قلعة بحرية وقلعة برية. وأفضل الموانئ، عكا وبيروت وصور، تسمح بدخول السفن في جميع الفصول. وعلى طول خطوط الملاحة، عرفت بعض الأساكل، بفضل الصليبيين، قدراً من النمو: إن ميسينا، مثلاً، حيث تتركز أساطيل فيليب أوجست وريتشارد قلب الأسد، ثم أساطيل الحملة الصليبية الخامسة، حيث يجد القديس لويس إمدادات، إنما تصبح بوابة الشرق اللاتيني. وفي القرن الثالث عشر، تشكل موانئ قبرص محطات للصليبيين.

وإعتباراً من القرن الثاني عشر، يحتل البحر مكانة رئيسية في تاريخ الحملات الصليبية. فعن طريق البحر يمكن الوصول إلى مصر وضرب القوة العسكرية للخصم الرئيسي للدول الفرنجية: فحملات أموري، ملك القدس، والحملتان الصليبيتان لأعوام ١٢١٩ ــ ١٢٢١ و١٢٤٩ ــ ١٢٥٠، تحتم استخدام أساطيل مهمة. وعندما تختفي في عام ١٢٩١ آخر المواقع الفرنجية في فلسطين، فإن جميع أصحاب خطط شن حملة صليبية جديدة، كبيير ديبوا وجيوم آدم وآخرين كثيرين، إنما يؤسسون مشروعاتهم على القوة البحرية للغربيين، القادرة وحدها على تركيع مصر. لكن المدن البحرية الإيطالية التي تسيطر على البحر بأسلحتها كانت لها في القرن الرابع عشر مصالح أخرى غير الاسترداد الإشكالي للموانئ السورية، التي هجرتها طرق القوافل الكبرى. ورفضُها المشاركة الكاملة إنما يحد من قدرات الحملات البحرية التي جرى التخطيط لها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ضد المماليك أو ضد العثمانيين، في حين أن عونها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كان ضرورياً.

٠٣ جنوة والبندقية

٣-٠١ جنوة

أدى النضال الذي خاضه الجنويون منذ بداية القرن الحادي عشر من أجل استرداد البحر التيراني من المسلمين إلى إعداد جنوة لمشاركة نشيطة في حملات الحركة الصليبية. وبمناسبة النشاط الدعائي في عام ١٠٩٦، تجمع سكان المدينة حول أسقفهم في *compagna* [شركة]، من أجل تنسيق التجهيزات البحرية الضرورية. وقد جرت ست حملات بين عامي ١٠٩٨ و ١١١٠. إذ جاءت الأولى لمساعدة الصليبيين خلال حصار أنطاكية؛ وبعد الاستيلاء على المدينة، منح بوهيموند الجنويين امتياز إنشاء أول " فندق " غربي، يتألف من ثلاثين بيتاً. وفي عام ١١٠٠، شاركت حملة ثانية في الاستيلاء على قيسارية، حيث فاز الجنويون بغنيمة ضخمة. وبعد ذلك بأربع سنوات، قدمت معاهدةً عقدها الملك بودوان الأول إلى الجنويين امتياز الحصول على ثلث مدن قيسارية وأرسوف وعكا وبيروت، وحيٍ في القدس وفي يافا، مع إعفاءات ضريبية في المملكة كلها. وعلى مسافة أبعد شمالاً، منح كونتات طرابلس الجنويين مدينة جبلة، بينما منحهم أمراء أنطاكية زماماً في اللاذقية. وكان لابد من الدفاع بشراسة عن جميع هذه الممتلكات، وقد ناشدت جنوة البابوات الاعتراف بحقوقها في الأرض المقدسة. وبسبب نقص الأموال، كان عليها أن تتنازل عن بعض هذه الوكالات التجارية، كجبلة واللاذقية وأنطاكية وعكا، لعائلات كبرى، كعائلة ايمبرياتشي. على أن جنوة قد تمكنت، بعد الحملة الصليبية الثالثة، من استرداد حقوقها في عكا، حيث فرض قنصلان سيادتهما على جميع الجاليات الجنوية في الأرض المقدسة.

وقد أدت هزيمة حطين إلى حرمان جنوة من أغلب هذه المواقع الساحلية في سوريا – فلسطين؛ ولذا فهي تشارك في الحملة الصليبية الثالثة، بوضعها تحت تصرف فيليب أوجست السفن الضرورية لنقل الصليبيين الفرنسيين. ويترتب على ذلك حافز مهم للإنشاءات البحرية ودعم لثروات جنوة. وتسمح الانتصارات الغربية للجنويين باستعادة مواقعهم في عكا وبيروت وجبلة وطرابلس وأنطاكية. على أن المشاركة في الحملات الصليبية لا تستبعد الاهتمام الملحوظ بمصر، التي قامت معها علاقات تجارية منذ أواخر القرن العاشر، وهي علاقات تتعزز في منتصف القرن الثاني عشر. فآنذاك يحتل الجنويون فندقاً في الإسكندرية وتتفوق استثماراتهم التجارية في مصر على جميع الاستثمارات في المواقع الأخرى لتجارة البحر المتوسط. وبالرغم من مشاركة الجنويين

في الحملة الصليبية الخامسة في أعوام ١٢١٨ ــ ١٢٢١، وبالأخص في حملات القديس لويس الذي يستخدم السفن الجنوية، فإن العلاقات مع مصر في القرن الثالث عشر لا تنقطع، كما تشهد على ذلك معاهدة الصلح والتجارة المعقودة مع السودان [السلطان] في عام ١٢٩٠.

وفي رومانيا (الإمبراطورية البيزنطية)، لا تشارك جنوة في الحملة الصليبية الرابعة؛ ومن ثم فهي تظل مستبعدة عملياً من القسطنطينية ومن بحرايجه حتى عودة البيزنطيين في عام ١٢٦١ والتي ترحب بها جنوة، حيث تعقد مع البازيليوس، ميخائيل الثامن باليولوجوس، معاهدة نيمفية. ومن ثم فهي تثأر من البنادقة الذين استبعدوا مواطنيها من عكا بمناسبة الحروب الكولونيالية الحقيقية التي نشبت بين مختلف الجمهوريات البحرية الإيطالية في المملكة اللاتينية الشرقية. وتنحاز جنوة إلى الإبلان، ومن ثم ضد مبادرات فريدريك الثاني، المدعوم من البيازنة، في سوريا. وتؤدي الحملة الصليبية السابعة إلى هدنة: فقد تفاوض القديس لويس مع جنوة على نقل قواته إلى ما وراء البحر واختار أميرالين جنويين لقيادة أسطوله. وتؤدي طلبات الملك الفرنسي إلى تحريك نمو الترسانات البحرية وإلى إثراء أصحاب السفن. وبعد عودة القديس لويس إلى الغرب، تنشب في عكا حرب سان ساباس بين البنادقة والجنويين. وعندما تلحق الهزيمة بهؤلاء الأخيرين، ينسحبون إلى صور التي تظل أهم موقع للوكالات التجارية الجنوية في الأرض المقدسة إلى حين سقوط الدول الفرنجية. وفي عام ١٢٦٩، يوجه القديس لويس إلى جنوة طلبات بحرية جديدة؛ وهي طلبات تخدم حملة الملك المشؤومة على تونس.

وشأن البندقية، ولكن في قطاعات مختلفة، زادت جنوة من رخائها بفضل الحملات الصليبية. فقد حفزت هذه الحملات الإنشاءات البحرية، ونمو التجارة الجنوية فيما وراء البحر، بالاستناد إلى شبكة من الوكالات التجارية التي كانت الأساطيل الجنوية تتوجه إليها مرتين في السنة. ولاشك أن مجمل توسع جنوة التجاري، في الشرق كما في الغرب، قد استفاد من هذه الدينامية وهذا التوافر للامكانات البحرية، المستخدمة في نقل القوات كما في نقل مؤن أو منسوجات الغرب. واللجوء إلى الحمولات الضخمة، والذي أصبح ضرورياً بسبب الحملات الصليبية، إنما يعطي جنوة الصدارة في التجديدات التكنولوجية ومكانةً بين كبرى القوى البحرية في القرن الثالث عشر.

٣-٢-٠ البندقية

لاشك أن البندقية، وهي الميناء الرئيسي على البحر الأدرياتي، على رأس الصراع ضد المسلمين منذ القرن التاسع، كان من الممكن أن تشارك في الحملات البحرية للحروب الصليبية، منذ اللحظة الأولى. لكن الواقع هو أن البنادقة لا يصلون إلى فلسطين إلاّ بعد منافسيهم الجنويين والبيازنة. وسبب هذا التأخر هو المواقع السائدة التي تحتلها البندقية في الإمبراطورية البيزنطية: إذ لماذا يتعين الإساءة إلى هذه المواقع في مواجهات مع البازيليوس وأسطوله الحربي، المتحالفين تاريخياً مع البندقية ؟

ومن ثم فإن مدينة الدوجات لا تشارك رسمياً في الحملة الصليبية الأولى؛ ويرحل أسطول صغير من ثلاثين سفينة إلى الشرق في عام ١٠٩٩ ولا يصل إلى يافا إلاّ في يوليو/ تموز ١١٠٠. ويتعهد جودفروا البويّوني ثم بودوان الأول للبنادقة، كما لغربيين آخرين، بتقديم امتيازات ترابية وتجارية في المدن التي يتم فتحها بمساعدتهم. ويغادر أسطول أهمّ البندقية في عام ١١١٩؛ وكمقابل لذلك، يمنح بطريرك القدس، الوصي على المملكة، للبنادقة الـ *Pactum Warmundi* [ميثاق وارمون]، أساس العلاقات التعاقدية بين الشريكين. وينص هذا الميثاق على أن تحصل البندقية على ثلث كل من مدينتي صور وعسقلان اللتين يتعين فتحهما، إلى جانب استخدام الأسعار الخاصة والموازين والمقادير الخاصة برعاياها؛ كما تحصل على شارع ومستودع وحمّام في المدن الأخرى للمملكة. وهذا النص، الذي يصدق عليه بودوان الثاني في عام ١١٢٥، يجعل من صور الميناء البندقي الرئيسي في سوريا وفلسطين، حتى قبل مدينة عكا. ويضاف إلى ذلك في عامي ١١٤٠ و١١٥٣ فندق في أنطاكية وبيت في طرابلس. ومع مصر، كانت العلاقات غير منتظمة، وذلك بلا ريب بسبب المساعدة البحرية التي تقدمها البندقية لمملكة القدس: ففي عام ١١٢٣، يُلحقُ البنادقة هزيمةً بالأسطول المصري قرب عسقلان. وبعد عام ١١٥٠، تتردد السفن الشراعية للبندقية بصورة متكررة على عكا وصور وبيروت ويافا، وذلك بقدر ما أن التجارة مع رومانيا [الإمبراطورية البيزنطية] تشكو من أفول بين عامي ١١٧١ و١٢٠٤. وفي عام ١١٨٨، يحرك الدوج أسطولاً لنقل صليبيين وقوة من بولونيا، للمشاركة في حصار عكا. وعندئذ يُثبِّتُ كونراد دو مونفيرات من جديدٍ امتيازات البنادقة.

وتمثل الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٣ ــ ١٢٠٤) أوج مشاركة البندقية في الحملات فيما وراء البحر. ونعرف بأي اهتمام يجهّزُ الدوجُ العجوز إنريكو داندولو الأسطول الموضوع بموجب تعاقدٍ تحت تصرف البارونات الصليبيين؛ وكيف يتغلب أيضاً على

خيبة الأمل، المترتبة على عدم كفاية أعداد الجنود، بحيث ينجح في توجيه الحملة الصليبية أولاً ضد زاره [زادار] ثم ضد القسطنطينية. ويؤدي الاستيلاء على العاصمة إلى اقتسام الإمبراطورية، وهو اقتسام تحصل فيه البندقية، عن طريق الفتح أو الشراء أو المصاهرة على النصيب الأفضل: مواقع ساحلية تسمح لها بالسيطرة على الطرق البحرية الكبرى. وهي تفرض سيادتها على سادة نيجربون الترسيين، وتشتري كريت من بونيفاسيوس دو مونفيرات، وتفتح المواقع الكبرى على البحر الأدرياتي والبحر الايوني ــ راجوس ودوراتسو وكورفو ــ وتسمح لسلالات حاكمة من أصل بندقي بالاستقرار في الجزر الكيكلادية [٢٤ جزيرة في بحر ايجه] والسبورادية وفي ليمنوس وسكيروس، ثم تحوز أخيراً القسطنطينية، ثاني مدينة في الإمبراطورية البندقية بعد مدينة الدوجات [أي بعد مدينة البندقية نفسها]. والحال أن سيطرة البندقية على الأراضي اليونانية هي أبقى نتيجة للحملة الصليبية الرابعة؛ وليس الاسترداد البيزنطي في عام ١٢٦١ ضربة مميتة بالنسبة لقوة البندقية في الشرق.

وخارج رومانيا [الأراضي البيزنطية]، يشارك البنادقة في الحروب الأهلية التي تزعزع مملكة القدس في القرن الثالث عشر. وفي عام ١٢٥٨، يبدو أن طرد الجنويين من عكا يَعدُ البندقية بنجاح مقيم. والحال أن الجاليات البندقية في الأرض المقدسة إنما تخضع لسيطرة صارمة من جانب المتروبول، شأنها في ذلك شأن الجاليات البندقية في رومانيا [بيزنطة].

وقد ساعدت الحملات الصليبية على تسهيل عظيم للتوسع البندقي فيما وراء البحر؛ فهي تتيح للبندقية في عام ١٢٠٤ احتكار التجارة مع القسطنطينية ومزايا تجارية عظيمة في الدول الفرنجية المنبثقة من تقسيم الإمبراطورية البيزنطية. وهذا الاحتكار ينقلب في عام ١٢٦١؛ ويتعين على البندقية منذ ذلك الحين أن تواجه المزاحمة الجنوية. على أن الحملات الصليبية قد أدت إلى نجاح العملة البندقية فيما وراء البحار (إنشاء العملات الفضية الكبيرة في عام ١٢٠٢ وإنشاء الدوكا الذهبية في عام ١٢٨٤) وإلى توزيع واسع للسلع الغذائية الزراعية وإلى تغيرات تكنولوجية مهمة في الملاحة (تنظيم قوافل من سفن الدولة الشراعية الحربية أو الـ *mude*) ونمو شديد الوضوح للتجارة وللثراء في البندقية نفسها.

٤ • تجارة الجمهوريات البحرية في سوريا – فلسطين (في القرنين الثاني عشر والثالث عشر)

على مدار نحو أربعة قرون، لعب رعايا الجمهوريات البحرية الإيطالية دوراً مهيمناً في الحياة الاقتصادية لفلسطين في العصر الوسيط. ومنذ الحملات الصليبية الأولى إلى عشية الاكتشافات الجغرافية الكبرى، شقت سفنها البحر المتوسط بصورة منتظمة لإنزال التجار والسلع في موانئ الساحل ولحمل كل ما يمكن أن تودعه هناك التجارةُ القادمةُ من الهلال الخصيب. ومن عام ١٠٩٨ إلى عام ١٢٩١، وجد هذا النشاط تشجيعاً في امتلاك مزايا ترابية وتجارية عظيمة الاتساع في المدن التي يسيطر عليها الفرنج بحيث إن تجدد تجارة المشرق الغربية، بحسب بعض مأثورات الكتابة التاريخية، يجب أن ينسب إلى آثار الحملات الصليبية. إذ يقال إن التجار الإيطاليين قد رافقوا المحاربين، وإن المقابل المباشر لمساعدة أسطولهم في فتح المدن الساحلية هو الامتيازات الترابية والجمركية التي أعطت النشاط التجاري زخماً لا سابق له. والواقع، كما رأينا، أن تجارة المشرق ليست وليدة الحملات الصليبية. فهي تسبق هذه الحملات بأكثر من قرن من الزمان.

٤–١ • انغراس الإيطاليين في سوريا – فلسطين

جرت صلات الإيطاليين الأولى بالأرض المقدسة في أجواء من العنف. وحالة الحرب التي تميز العقدين الأولين للتوسع الغربي في سوريا لا تشجع على نمو التجارة؛ وتجارة الموانئ ليس من شأنها إلاّ أن تجد كابحاً يتمثل في الحدود القائمة بين سوريا الداخلية المسلمة والأقاليم الفرنجية. ومن جهة أخرى، فإن التجار الإيطاليين موزعون بين الرغبة في الاستحواذ على ذهب وثروات البلدان المفتوحة على حساب المسلمين، والحرص على عدم خسارة المواقع التجارية التي تم الفوز بها إلى ذلك الحين في بلدان مسلمة أخرى. إلاّ أنه بما أن الجمهوريات البحرية ليست لها مصالح واحدة، فإن كل واحدة منها إنما تتبنى مواقف مختلفة وتشارك على نحو متفاوت في عمليات الحركة الصليبية.

وتحذر أمالفي جيداً من المشاركة فيها. والهجوم النورماني على المدينة في عام ١٠٩٦ لا يفسر بحد ذاته هذا الامتناع، وذلك بقدر ما أن الأمالفيين يواصلون خلال السنوات التالية موقف عدم المشاركة. ولامراء في أنهم يخشون من أن مشاريع الصليبيين،غير الراسخة إلى حد بعيد، من شأنها أن تجعل الأمالفيين يخسرون المزايا التي

حصلوا عليها في مصر كما في سوريا ـ فلسطين. ومن المثير للانتباه، على أية حال، أن التجارة الأمالفية تبقى هنَاك، بصرف النظر عن الأحداث المرتبطة بالحملات الصليبية.

وقلّما يختلف موقف البندقية عن هذا الموقف. فتجار البندقية، ذوو الوجود الراسخ في الإمبراطورية البيزنطية، من الوارد أن يخافوا هم أيضاً من أن يخسروا، عبر تقارب مع النورمان، أعداء بيزنطة، الحظوات الإمبراطورية التي يتمتعون بها، وأن يسيئوا بالمثل إلى النجاحات التجارية الأولى التي حصلوا عليها في العالم الإسلامي قبل الحملة الصليبية. ولذا يجب الانتظار إلى حين ترسخ انتصارات الفرنج حتى ينضم البنادقة، ولو بشكل متأخر، إلى الحركة العامة. وفي عام ١١٠٠، يطلب جودفروا البويّوني عون البندقية البحري لأجل حصار عكا، في مقابل امتيازات ترابية وضريبية لاحقة. على أن قوات البندقية، لأسباب غامضة، تتحول في اتجاه حيفا ولا يبدو أنها تلعب دوراً كبيراً في الاستيلاء على هذه المدينة.

وتمر عشر سنوات؛ ففي أواخر عام ١١١٠، تتعاون مائة سفينة تحت قيادة الدوج فاليير مع أسطول سيجورد، ملك النرويج، في الاستيلاء على صيدا. وعندئذ يحصل البنادقة من الملك بودوان الأول على شارع وسوق في عكا. وبعد اثنى عشرة سنة، عندما يظهر رسوخ الفتح الفرنجي، يتجاوب الدوج دومينيكو ميشيل مع نداء بودوان الثاني. فيحرك أسطولاً من ١٢٠ سفينة تشارك في حصار صور. وهذا الانخراط البحري والعسكري الضخم يعود على البندقية بأول امتياز ذي حصانة حقيقية في المشرق، على شكل الـ *Pactum Warmundi*، وهو معاهدة أقرها جورمون، بطريرك القدس. وقد صدق عليها الملك بودوان الثاني بعد ذلك بعامين، في ٢ مايو/ أيار ١١٢٥. وهكذا فإن البندقية التي امتنعت في السنوات الأولى للفتح عن أية مشاركة، إنما تحصل بشكل متأخر على امتيازات أهم بكثير من الامتيازات التي حصلت عليها الجمهوريتان البحريتان الإيطاليتان الأخريان.

ولم تكن بيزا مهددة بأن تخسر شيئاً يذكر. فقد كانت آنذاك مؤيدة للحزب النورماني، وقلّما كانت لها مصالح في بيزنطة أو سوريا ـ فلسطين. على أنها لا تستجيب للنداء البابوي إلاّ بعد أربع سنوات من مجمع كليرمون. فترحل ثلاثة أساطيل متعاقبة إلى الشرق: أسطول دايمبرت الذي يصل بعد الاستيلاء على القدس في يوليو/ تموز ١٠٩٩ ويساعد بوهيموند في الاستيلاء على اللاذقية؛ وأسطول ثان يتصدى للبنادقة نواحي جزيرة رودس، خلال شتاء ١٠٩٩ ـ ١١٠٠؛ وأسطول ثالث يصل إلى يافا في عيد

القيامة في عام ١١٠١. وهذه القوات المختلفة تشترك في حصار اللاذقية والاستيلاء على أرسوف وقيسارية في أبريل/ نيسان ومايو/ آيار ١١٠١، وعلى جبلة في أبريل/ نيسان ١١٠٤، ثم على عكا في مايو/ آيار من العام نفسه. ومن هذه المغامرات، ينتزع البيازنة ربحاً محدوداً: فالنزاع السريع بين رئيسهم، كبير الأساقفة دايمبرت، وملك القدس بودوان الأول، إنما يؤدي إلى إرجاء أي امتياز في المملكة. ونورمان أنطاكية وحدهم هم الذين يكافئون حلفاءهم بمنحهم في عام ١١٠٨ امتيازات في أنطاكية واللاذقية.

أمّا جنوة، بالمقابل، فيبدو أنها المستفيد الأكبر من مشاركة ضخمة ومستمرة في الفتح الفرنجي. فالدعوة إلى الحملة الصليبية تجد فيها نجاحاً فورياً. إذ يقوم المواطنون، المتجمعون في *compagna* يقودها الوجهاء الأغنياء، بتجهيز عدة أساطيل متعاقبة. ولدى نزولهم في ميناء سان سيميون [القديس سمعان]، عند مصب نهر العاصي، فإنهم يحاربون بإصرار تحت أسوار أنطاكية واللاذقية ويشاركون في السلب والنهب. وينبهر كاتب الحوليات كافّارو بالفضة والذهب والملابس الفاخرة التي تركها جيش كربُغا. ثم إن الأخوين جوجليلمو وبريمو ايمبرياتشي، وهما قبطانان لسفينتين حربيتين جنويتين يستخدمان أخشابهما في صنع آلات الحصار، إنما يلعبان دوراً حاسماً في الاستيلاء على القدس، إلى درجة أن كافّارو ينسب إلى مواطنيه فتح المدينة وذبح عدد لا يحصى من المسلمين. وبالمثل، فإن الاستيلاء على قيسارية يدين بالكثير لمآثر ويليلموس كابوتمالّي، قنصل الجيش الجنوي؛ فيجري نهب المدينة ويفوز الجنويون بغنيمة ضخمة يقتسمونها فيما بينهم، بواقع ٤٨ سو بروفانسي وألف جرام من الفلفل للجندي. وهكذا، فمن عام ١٠٩٨ إلى عام ١١١٠، شارك الجنويون، بصورة شخصية في البداية، ثم بشكل رسمي، في جميع مشاريع الفتح وحصلوا في المقابل على امتيازات مهمة في الدول الفرنجية الثلاث في سوريا ــ فلسطين.

على أن هذه الامتيازات ليست على مستوى العون المقدَّم. فمع أن جنوة وبيزا كانتا الأسبق في الحصول من السلطات الفرنجية على المكافأة، إلاّ أنه يبدو أن المكافأة كانت أقل بكثير من المكافأة التي حصلت عليها البندقية التي تمكنت من الفوز بامتيازات أعظم وأكثر تنوعاً. فإلى أية عوامل يمكن أن ننسب هذه النجاحات ؟ ليس البتة إلى خبرة البنادقة الأطول في الشأن الكولونيالي ــ فالواقع أنهم لا يتمتعون في بيزنطة بأي امتياز من امتيازات الحصانة ــ وإنما بالأحرى إلى عين شكل الحكم الدوجي الذي يمنح الدوج ديمومة لا تملك الجمهوريات البحرية الإيطالية الأخرى التباهي بها في ذلك الوقت. ففي

جنوة، تصبح الـ *compagna* ببطء جهازاً عاماً؛ وحتى مع تكوينها على هـذا الأسـاس، فإن التغيرات المتكررة لنخبها القيادية إنما تمنعها من التمتع بعين الإرادة السياسية وبعين استمرارية الآراء اللتين يتمتع بهما حكم دوج منتخب لكي يحكم مدى الحياة. وفيما يتعلق ببيزا، فإن الضعف الهيكلي نفسه كان من الممكن أن يكون له دوره، إلى جانب الآثار الوخيمة للتنافس بين دايمبرت وبودوان الأول.

والحال أن المواثيق الممنوحة للجمهوريات البحرية الثلاث في السنوات التي تعقب الفتح إنما تحدد الوضع الخاص لرعايا كل منها خلال القرن الثاني عشر في مدن سوريا ـ فلسطين. إلاّ أنه ليس من المؤكد أن هذه المواثيق قد طبقت بالكامل. فهل كان الإيطاليون كثيرين بما يكفي لكي يحتلوا الأحياء الحضرية التي قدمها لهم الأمراء الفرنج ؟ إن تقديم كنيسة أو فندق أو حمام أو فرن أو شارع أو مجموعة من البيوت لا يعني بالضرورة نشوء حي موضوع تحت سلطة ممثل للمتروبول، ولا نمو تيار تجاري مهم عبر نشوء مثل هذا الحي. ومن جهة أخرى، يجب أن نكون منتبهين إلى الوثائق المزورة التي تسنى تزييفها بعد وقت طويل من الفتح لتبرير دعاوى الكومينات الإيطالية، في الوقت الذي تمارس فيه هذه الكومينات دوراً حاسماً في سياسة الدول الفرنجية. وأخيراً، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لو كانت كل هذه الامتيازات المقدمة من ملك القدس أو أمير أنطاكية قد طبقت بالفعل، لكان هذان العاهلان قد جُرِّدا من جانب كبير من صلاحياتهما وخسرا المدن الساحلية لدولتيهما لصالح الجمهوريات البحرية الإيطالية. ومن هنا جهودهما، خلال القرن الثاني عشر على الأقل، والرامية إلى التراجع عن بنود جرت الموافقة عليها دون تبصر في لحظة الفتح.

٤-٢٠ المواثيق الممنوحة للإيطاليين : توزيعها الزمني

بعد هذه التحفظات، سوف نجد أن المواثيق التي تؤسس حقوق الرعايا الإيطاليين في سوريا الفرنجية ليست موزعة بشكل متساوٍ على مدار القرن الثاني عشر. فالأزمنة المشحونة تعقب عطالةً ديبلوماسيةً طويلةَ الأمد. وتتركز الامتيازات الأولى بين عامي ١٠٩٨ و١١٣٠، وهي ترتبط بالفتح ارتباطاً مباشراً. فملوك القدس الأوائل لا حول لهم ولا قوة لو تركوا لقواهم وحدها؛ ومن ثم فإن عون الأساطيل الإيطالية يعد ضرورياً لهم للاستيلاء على المواقع الساحلية. وهذا العون يجد مكافأة في شكل امتيازاتٍ ضخمة

وأحياء حضرية بل ومدن بأكملها، لاشك أن الجمهوريات البحرية الإيطالية لا تقدر على الاحتفاظ بها بحفنة من الرجال. والحال أن الجنويين الموجودين في أنطاكية منذ عام ١٠٩٨ وفي مملكة القدس بموجب تصريح عام ١١٠٤ المجيد، والبنادقة بموجب الـ *Pactum Warmundi* لعام ١١٢٣، هم أوفر نصيباً من البيازنة الذين لا يحصلون إلاّ على ميثاق من تنكريد، في عام ١١٠٨، وميثاق آخر من بودوان الثاني، في تاريخ قريب من عام ١١٣٠.

ومرحلة الاستقرار التي تبدأ في الأعوام الأولى لعهد بودوان الثاني والأعوام الأولى لعهد خليفته، فولك دانجو، إنما تعتبر أقل مؤاتاة بكثيرٍ للجمهوريات البحرية الإيطالية. إذ يحاول الملوك والأمراء الفرنج أن يستعيدوا في زمن السلم ما تنازلوا عنه في زمن المعارك. ومن عام ١١٣٠ إلى عام ١١٥٣، لا نصادف غير امتيازين صادرين عن ريمون دو بواتييه الذي تتعرض إمارة أنطاكية التي يحكمها لخطر الاسترداد البيزنطي. وفي تثبيته للمواثيق السابقة، يحاول الأمير تعزيز أواصره مع الكومينات الإيطالية. وبعد عام ١١٥٠، تتركز نصوص الامتيازات في فترتين قصيرتين، حيث يُبدي الملوك والأمراء سخاءً مغرضاً: من عام ١١٥٣ إلى عام ١١٥٧، الزمن الذي يهاجم فيه نور الدين إمارة أنطاكية، ومن عام ١١٦٧ إلى عام ١١٦٩، بالارتباط مع الحملات على مصر. فبسبب حاجته إلى عون الغربيين، يسعى الملك أموري إلى تدعيم موقفه بتثبيت أو بتوسيع المواثيق السابقة.

وعدا هذه النصوص القليلة، يسعى الملوك والأمراء الفرنج بالأحرى، قبل ثمانينيات القرن الثاني عشر، إلى استعادة مجمل سلطتهم التي اختزلتها الإعفاءات والصلاحيات التي يتمتع بها الإيطاليون. وتؤكد ذلك حادثتان. إذ تتصل الحادثة الأولى باللوحة المنقوشة بأحرف من ذهب والتي وضعها الجنويون في عام ١١٠٥ في موضع خورس كنيسة القبر المقدس لتذكير الأجيال القادمة بفحوى الامتيازات التي منحها لهم للتو بودوان الأول. والحال أنه في عهد آموري، يقوم كهنة القبر المقدس بنزع اللوحة، بتحريض من الملك لاشك. وتلجأ جنوة إلى البابا لكي يدافع عن حقوقها؛ إلاّ أنه لا يفعل شيئاً. ويتعين الانتظار إلى عام ١١٩٢ حين يقوم كونراد دو مونفيرات، المدعوم من الجنويين في مطالباته بالعرش الملكي، بتثبيت حقوق حلفائه وبالسماح لهم بإعادة تثبيت اللوحة الشهيرة. أمّا ضحايا الحادثة الثانية فهم البيازنة. فملوك القدس يريدون أن يفرضوا عليهم تمييزاً بين المقيمين وغير المقيمين، سعياً إلى تقييد حقوق الحصانة بالنسبة للأوائل وإلى إخضاع

الجميع للقانون العام للمملكة. ويتذرع كونتات طرابلس بأعمال القرصنة لكي يقيدوا حقوق البيازنة في كونتيتهم. ويبدو أن البندقية وحدها هي التي تفلت من هذه الاستعادة للسيطرة التي يقوم بها الملوك والأمراء. على أن الحكم الدوجي ليس أقل حرصاً مع ذلك على دفع الكرسي الرسولي في عام ١١٦٥ ثم في عام ١٢٠٠ إلى تثبيت الحقوق التي يتمتع بها رعايا البندقية في الأرض المقدسة.

وفي هذا الوقت، من جهة أخرى، كانت السلطة الملكية حيال طوفان من مطالب الكومينات. فاعتباراً من عام ١١٩٦، نجد أن الأمراء الفرنج، الذين تتعرض أراضيهم للتهديد من جانب قوات صلاح الدين، يضطرون من جديد إلى اللجوء إلى خدمات الإيطاليين. ولا يعود بوسعهم إلغاء امتيازاتهم، بل يجدون أنفسهم مضطرين إلى تثبيتها، بل وتوسيعها. ومن عام ١١٨٦ إلى عام ١١٩٥، تتوالى التصاريح، المؤاتية للجنويين والبنادقة بأكثر مما للبيازنة. وهم يَعِدون بامتيازات ضخمة في المدن التي يجب استردادها: عسقلان والقدس ويافا وبالأخص عكا. وهكذا، فبعد استسلام هذه المدينة في يوليو/ تموز ١١٩١، تلعب الكومينات الإيطالية على التنافسات فيما بين جي دو لوزينيان وكونراد دو مونفيرات، لتوسيع حقوقها في المملكة الجديدة ولتعزيزها في أنطاكية وفي طرابلس.

وإذ تسبح الكومينات الإيطالية في بحبوحة امتيازاتها، فإنها تميل في أواخر القرن الثاني عشر إلى أن تصبح دولة داخل الدولة. بل إن أفرادها، غير المكتفين بما يتمتعون به من إعفاءاتٍ وبحقوق الحصانة، إنما يتفننون في الحصول على إقطاعات بفضل معاملات أو تركات مجزية، كما يتفننون في المطالبة بإعفاءات عن هذه الأراضي تماثل الاعفاءات الممنوحة للكومينات في داخل الأحياء الحضرية. وعبثاً يحاول الأمراء والملوك إرغامهم على الاختيار بين الامتيازات المستمدة من جنسيتهم ودفع ضرائب مَلَكية عن أملاكهم الجديدة: وهو اختيار لا ينجح تاج القدس خلال القرن الثالث عشر في فرضه. والحال أن الخلافات الجسيمة بين السلطة الملكية والكومينات وفي داخل صفوف هذه الأخيرة نفسها كانت قد بدأت تعتمل بالفعل في أواخر القرن الثاني عشر. وسعياً إلى إنقاذ مدنهم من الاسترداد الإسلامي، فقد حولها الأمراء والملوك سلفاً إلى رهينة تقريباً لدى الجمهوريات البحرية الإيطالية. ذلك أن الحرب قد أجهزت على التوازن الذي اجتهدوا في استعادته في خمسينيات القرن الثاني عشر.

ولا مجال هنا للدخول في تفاصيل التصاريح التي حصلت عليها الجمهوريات البحرية على اختلافها خلال القرن الثالث عشر ولا لاستعادة سرد تاريخ النزاعات الدموية التي نشبت فيما بينها في الأرض المقدسة. وفيما يتعلق بالمواثيق، فهي تتميز عن التصاريح بطابعها بالغ التفصيل وبالغ التحديد. فليس هناك بعدُ امتياز عام بالنسبة لمجمل مملكة القدس، بل امتيازات تخص مدينة واحدة. وعلى سبيل المثال، يحصل الجنويون على حظوات في طرابلس في عام ١٢٠٣ وفي بيروت في أعوام ١٢٢١ و١٢٢٣ و١٢٣٣ وفي حيفا في عام ١٢٣٤ وفي صور في عام ١٢٦٤ و ـ بالنسبة لسوريا الشمالية ـ في أنطاكية في عامي ١١٩٩ و١٢١٦. ولا ريب أن البنود جاءت تفصيلية تجاوباً مع مشيئة المستفيدين: حرية الأفراد والسفن والسلع، الإعفاء من الضرائب التي تشكل عبئاً على النقل البحري، الوصف الدقيق للتنازلات الترابية، الالتزامات السياسية للأطراف المتعاقدة: كل ذلك يجري تحديده بدقة وبوضوح ويُسجَّلُ في المواثيق.

والحال أن الضعف الذي أصاب السلطة الملكية، ونقل اللقب الملكي إلى ملك غريب عن المملكة و، من ثم، تنامي الأطماع البارونية، إنما تفسح الساحة للتنافسات فيما بين الكومينات الإيطالية. وهذه التنافسات تبدأ مع توابع الحملة الصليبية الرابعة، حيث تقدم جنوة دعمها لهنري، كونت مالطة، الذي يستولي في عام ١٢٠٥ على قلعة نيفان، في تمرد ضد كونت طرابلس. ثم تتواصل في عكا عبر نزاعات متواصلة حول الحدود المقررة للوكالات التجارية للكومينات؛ ففي عام ١٢٢٢، يدمر البيازنة معقل الجنويين في عكا. وفي الصراع بين فريدريك الثاني ومساعده ريكاردو فيلانجيري من جهة، والعشيرة البارونية التي يقودها الإبلان، من جهة أخرى، تميل جنوة إلى هؤلاء الأخيرين، في حين أن بيزا، المؤيدة للجيبلان، تنحاز إلى الحزب الامبراطوري. والمشاعر التي تهدأ خلال إقامة القديس لويس في عكا سرعان ما تثور من جديدٍ بعنفٍ خلال الحرب المدعوة حرب سان ساباس، بين البيازنة والبنادقة والهيكليين والتيوتون والمارسيليين من جهة، والجنويين، المدعومين من جانب الأوسبتاليين وتجار آنكون وقطالونيا، من جهة أخرى. وفي ختام هذه المواجهات العنيفة، فإن الجنويين المهزومين يهجرون حيهم في يافا ـ الذي يستولي البيازنة على جزء منه ـ ويلجأون إلى صور. وهم يثأرون لأنفسهم بالتحالف مع إمبراطور نيقية، ميخائيل الثامن باليولوجوس، وبالإسهام، من خلال معاهدة نيمفيه، في ضياع إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية الخاضعة لسيطرة البندقية.

وبالرغم من التدخلات المستمرة من جانب الكرسي الرسولي، تواصلُ الكومينات الإيطالية التباري بعد عام ١٢٦١ لما فيه خراب الدول الفرنجية في سوريا ـ فلسطين. فالجنويون الذين يدعمهم سيد صور، فيليب دو مونفور، يسعون إلى استعادة ممتلكاتهم في عكا. وهم يرجعون إليها ويفرضون شروطهم على البيازنة المهزومين في معركة ميلوريا (١٢٨٤). ويتقارب البنادقة من جهتهم مع شارل الأول دانجو، ويفضحون لدى السلطان المملوكي التدخل الجنوي في شئون طرابلس. والواقع أن سكان هذه المدينة، عند موت أميرهم بوهيموند السابع، في عام ١٢٨٧، يناشدون الأميرال الجنوي بنديتو زكريا أن يدعم كومينتهم الوليدة. وإذ تنزعج جنوة من آثار ذلك على تجارتها مع مصر، فإنها تضطر إلى التنصل من ممثلها. وهكذا، فعشية اختفاء الدول الفرنجية من سوريا ـ فلسطين، نجد أن الجمهوريات البحرية الإيطالية، المرتبطة كلٌ منها بمصالحها الخاصة، إنما تعجز عن صوغ سياسة موحدة لصون مواقعها في الأرض المقدسة. على العكس، إن تنافساتها قد أسهمت إلى حد بعيد في التفكك السريع لسوريا الفرنجية في الشطر الثاني للقرن الثالث عشر.

٤-٣-٠ مواقع الوكالات التجارية الإيطالية في سوريا ـ فلسطين

يجب الآن لتحليل ظروف تواجد الإيطاليين في سوريا ـ فلسطين ودورهم السياسي في الدول الفرنجية أن يفضي إلى الدراسة المحددة للامتيازات التي حصلت عليها مختلف الجمهوريات البحرية. فأين احتفظت هذه الجمهوريات بالامتيازات الأكثر أهمية ؟

إن كونتية الرُها، وهي أولى الدول الفرنجية نشأةً، لا تجتذب اهتمام التجار الإيطاليين. ولا يصدر عنها أي ميثاق لصالحهم. فالكونتية، التي لا منفذ لها على البحر والمأهولة بعدد تافه من الغربيين، قلّما تجتذب التجار. فلكي يؤدوا دورهم كوسطاء بين الأرض المقدسة والغرب، يحتاج هؤلاء التجار إلى قواعد بحرية مأمونة يمكنهم إرساء سفنهم فيها. وللأسباب نفسها، فإن مدن الداخل في الدول الفرنجية قلّما تجتذب الإيطاليين، إذا ما استثنينا القدس والحج إلى الأماكن المقدسة. لكن قليلين جداً يقيمون هناك: فسجل كنيسة القبر المقدس لا يشير إلاّ إلى نصف دزينة من الإيطاليين، واحد منهم فقط قادم بالفعل من جمهورية بحرية. وفي مراكز الداخل الصغيرة، كطبرية أو نابلس، نجد أن الأسواق المحدودة ذات المنتجات الزراعية القليلة لا تهم تجارنا في شئ.

فهل يعني ذلك أننا نصادفهم في جميع مدن الساحل ؟ إن السؤال يحيل إلى المسألة الأكثر تعقيداً والتي تتصل بواقع المزايا الممنوحة للكومينات الإيطالية. إذ لا يكفي أن يسمح بودوان الأول للجنونيين بالإقامة في يافا أو أرسوف أو قيسارية أو أن يمنح خليفته البنادقة امتيازات في صيدا حتى تتطور هذه المراكز الصغيرة وتصبح مستعمرة إيطالية. فالمرافق الشاطئية هناك هزيلة إلى حد بعيد وشبكات العلاقات جد محدودة بحيث يصعب أن تشهد حياة اقتصادية كثيفة. والتجار بحاجة إلى موانئ مأمونة لسفنهم وإلى مساكن ومستودعات ووسط جماعة نشيطة، وإلى اتصالات سهلة مع بلدان المؤخرة التي تمر بها القوافل. والموانئ التي تتميز بقدر من الأهمية هي وحدها التي توفر هذه المزايا: عكا وصور وبيروت في مملكة القدس، وطرابلس واللاذقية على مسافة أبعد شمالاً، وهما مدينتان تنضمّ إليهما أنطاكية، عاصمة الإمارة، والتي تتصل بميناء سان سيميون [القديس سمعان] عبر نهر العاصي.

تلك هي المواقع الرئيسية التي يحتلها الإيطاليون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، إلى جانب اقطاعيتين، هما جبلة التي تسيطر عليها عائلة ايمبرياتشي الجنوية والبُطرون التي يملكها البيزاوي بليبانوس.

إلاّ أنه على مدار قرنين من وجود الكومينات المختلفة في سوريا ــ فلسطين، فإن مصالحها ليست متطابقة، من إمارة أنطاكية إلى مملكة القدس. فالجنويون هم أول من يقيم في أنطاكية، منذ عام ١٠٩٨؛ ويلحق بهم البنادقة، وبعد ذلك بعشر سنوات يلحق بهم البيازنة. غير أن الجنويين لا يحصلون هناك على كورية، لها سلطة كاملة على مواطنيهم، إلاّ في عام ١١٨٩، بينما يتعين على البيازنة أن ينتظروا إلى عام ١٢١٦ حتى يستفيدوا من هذه الميزة نفسها. وفي كونتية طرابلس، كان البنادقة في عام ١١٠٠ أول الحاصلين على امتيازات، إلاّ أنهم لا يستقرون هناك. ويحصل الجنويون في عام ١١٠٩ على الملكية الكاملة لجبلة، التي يتنازلون عنها لعائلة ايمبرياتشي الشهيرة، كما يحصلون على ثلث طرابلس، لكنهم لا يحتفظون به. وفي عام ١٢٠٣ فقط، يعترف لهم بوهيموند الرابع بحق إمتلاك عدد من البيوت هناك، وبكوريةٍ وبحرية كاملة في التجارة. ويتعين على البيازنة أن ينتظروا عهد ريمون الثالث حتى يحصلوا على حي في طرابلس، وهو حي يؤدي نزاعهم مع بوهيموند الرابع إلى ضياعه منهم ولن يستعيدوه إلاّ في عام ١٢٣٣.

تبقى مملكة القدس، حيث تعد مواقع الجمهوريات الثلاث أكثر اختلاطاً. فالبنادقة يدافعون عن حقوقهم في ثلث مدينة صور، الذي صودر منهم في عام ١٢٥٩ من جانب

فيليب دو مونفور، حليف الجنويين، خلال حرب سان ساباس. وفي عكا، ترجع ممتلكاتهم إلى عام ١١١٠؛ وهي تشكل النواة الأولية لحيهم، الذي تم توسيعه في عام ١١٢٣ بموجب الـ *Pactum Warmundi* والذي نجد وصفاً دقيقاً له في الجرد الذي قام به مارسيليو زورزي في عام ١٢٤٤. ويرجع حي الجنويين في عكا إلى زمن التصريح الذي منحه لهم بودوان الأول في عام ١١٠٤؛ وهو يتطور بعيداً عن الضفة، التي يفصله عنها حي السلسلة. وخلال القرن الثاني عشر، يتصل ما لا يقل عن ثمانية مواثيق بهذا الحي الذي يقوم كل من جي دو لوزينيان وكونراد دو مونفيرات وهنري دو شامبانيا، كل بدوره، بتثبيت ملكيته للجنويين بين عامي ١١٨٦ و١١٩٥. والحال أن جرداً بتاريخ ١٤ يوليو/ تموز ١٢٤٩ إنما يقدم قائمة بممتلكات ودخول الكومينة في عكا، وذلك قبل بضع سنوات من إرغام الجنويين على مغادرة حيهم، على أثر حرب سان ساباس. وهم لن يستعيدوه إلاّ في الأعوام التي تسبق اختفاء المملكة اللاتينية. وبالمقابل، يتطور بعد عام ١٢٥٨ دور جاليتهم في صور، والمعروف هو أيضاً بفضل جرد تفصيلي بتاريخ ٣ مايو/ أيار ١٢٥٠. أمّا فيما يتعلق بالبيازنة، فإن مصالحهم تتركز في البداية في صور، حيث يمنحهم بودوان الثاني في عام ١١٣٠ خمسة بيوت. وهم لا يظهرون في عكا إلاّ في عام ١١٦٨، حين يحصلون من الملك أموري على حي في جنوبي المدينة، تم توسيعه في عامي ١١٨٧ و١١٨٩ بموافقة كونراد دو مونفيرات وجي دو لوزينيان، وتم توسيعه مرة أخرى بعد عام ١٢٥٨ بفضل ضم جزء من الحي الجنوي.

وباختصار، ففي مملكة القدس، تعد صور وعكا وبيروت وحدها المدن المهمة حقاً بالنسبة للكومينات الإيطالية. وبالمقابل، نجد أن يافا وأرسوف وصيدا وقيسارية، الواردة في تصاريح الأزمنة الأولى للفتح، تختفي عملياً من النصوص اللاحقة، اللّهم إلاّ في مواثيق التثبيت ــ ١١٨٦، ١١٩٢، بالنسبة للجنويين، ١٢٢٩، بالنسبة للبيازنة ــ ولاشك أن السبب في ذلك هو التكرار التلقائي لبنود مسجلة في وثائق ترجع إلى مستهل القرن الثاني عشر. والواقع أن الأحوال المتباينة التي تعرفها الجمهوريات البحرية الإيطالية في الدول الفرنجية إنما تتبع من الظروف، وإن كانت تتبع أيضاً من السياسة المتوسطية لكل واحدة من بينها. والحق إن سوريا ــ فلسطين لا تمثل غير مجال لتوسع ممكن، إلى جانب الإمبراطورية البيزنطية ومصر. وبحسب مصالحها الخاصة هنا وهناك، تتدخل كل جمهورية بحرية إلى هذا الحد أو ذاك في سياسة الدول الفرنجية ومن ثم تحصل من هذا

التدخل على مزايا جد مختلفة. ومن شأن تحديد طبيعتها المحددة أن يسمح بفهم أفضل لماهية الظروف التي يتم فيها النشاط التجاري للتجار الإيطاليين.

٤-٤ . طبيعة الامتيازات الممنوحة للإيطاليين

من حيث الجوهر، يسعى رعايا الجمهوريات البحرية، وهم تجار في المقام الأول، إلى نيل مزايا من شأنها تسهيل حسن أداء أعمالهم. وتتصل فئة أولى من الحقوق بالإعفاء من الضرائب على المعاملات ومن الرسوم الجمركية، وهي ضرائب ورسوم تجتمع تحت مصطلح الـ *comerchium* والذي يشار به إلى هذه المجموعة من الضرائب التجارية في العالم البيزنطي. وفي هذا الصدد، فإن المعاملة التي تستهدفها الكومينات الثلاث ليست متطابقة تماماً. فجنوة تولي الأهمية الكبرى لهذا النوع من الإعفاء، والذي يشار إليه دوماً في التصاريح التي تحصل عليها في الدول الفرنجية: وإذ يشار إلى هذا الحق خمساً وثلاثين مرة خلال القرن الثاني عشر، فإنه يتصدر إلى حد بعيد جميع الامتيازات وغالباً ما يبرز في المقام الأول في نصوص المواثيق. ويهتم به البنادقة بالقدر نفسه، لكنهم لا يحصلون في جميع الأماكن، كمنافسيهم، على إعفاء شامل. فالواقع أننا في مملكة القدس نجد أن الـ *Pactum Warmundi* (١١٢٣) وميثاق بودوان الثاني لعام ١١٢٥، يستثنيان من امتياز الإعفاء سفن البندقية التي تقل الحجاج. وفي إمارة أنطاكية، يواصل رعايا البندقية دفع الرسوم إلى أواخر القرن الثاني عشر، بنسبة ٤ إلى ٥% في عام ١١٥٣، ويجري خفضها إلى النصف في عام ١١٦٧، ثم يجري تثبيتها في نهاية المطاف عند نسبة ١% في عام ١١٨٣. أمّا فيما يتعلق بالبيازنة، فإنهم بعد أن تمتعوا في هذه الإمارة نفسها بإعفاء كامل من رسوم الـ *comerchium* في عام ١١٠٨، قد أجبروا في عام ١١٥٤ على دفع نصف الرسوم: وهو تراجع مهم يميز حرص رينو الشاتيوني وزوجته كونستانس على إستعادة بعض مصادر الدخل. وفي المقابل، في كونتية طرابلس وفي مملكة القدس، يعد الإعفاء شاملاً، إلاّ أن مفعوله لا يسري إلاّ خلال الحملة الصليبية الثالثة؛ وقد جَدَّدَه فريدريك الثاني في عام ١٢٢٩ بالنسبة للمملكة وجَدَّدَه بوهيموند الخامس في عام ١٢٣٣ بالنسبة لطرابلس. على أن تطبيقه ليس سهلاً: فكيف يمكن في الواقع التمييز بين سلعة أو تاجر حاصلين على الامتياز وتلك أو ذاك اللذين لا يجب أن يحصلا عليه ؟ وغالباً ما كان ممثلو الكومينات يستَدعَونَ للشهادة أمام مسئولي الجمارك عن جنسية المستثنين من دفع الرسوم.

ولا مفر من التساؤل عن الآثار السيئة لمثل هذه الامتيازات الضخمة. ألا يتصرف الملوك والأمراء بما يتعارض مع مصالحهم في الأمد البعيد بمنح مثل هذه الامتيازات التجارية ؟

الواقع أن الإعفاءات التي يستفيد منها التجار الإيطاليون ليست شاملة. فالبعض يدين بجزء من ضرائب " السلسلة " لمسئولي الموانئ؛ وكلهم تقريباً يخضعون لدفع رسوم عن السلع المشحونة إلى البلدان الإسلامية أو القادمة منها. وفي الأسواق المحلية، توزن السلع الغذائية من جانب *mensuratores* [وزانين] وتخضع لضرائب *ad valorem* [بحسب القيمة] يتولى تحصيلها مسئولو الفوند [غرفة السوق]؛ وفي صور، تفلت من اختصاصهم ومن سلطتهم سوق اللحم والصابون والأسماك ومنتجات الصباغة والدباغة؛ وفي عكا، سوق اللحم والدباغة. ونادراً ما يستفيد الإيطاليون من إعفاء كامل من الرسوم ــ التي تتراوح في عكا من نسبة ٤ وواحد على ستة % إلى نسبة ٢٥% بحسب السلع ــ إذ يستفيدون بالأحرى من إعفاء جزئي بالنسبة لبعض السلع أو بالنسبة لبعض عمليات البيع أو الشراء. ثم إن السلطات المحلية تجتهد في منع رعاياها من الوصول إلى أسواق الإيطاليين ذات الامتيازات والمتمايزة عن الفوندات [غرف السوق] أو الأسواق الملكية والاقطاعية. وفي هذه الظروف، يمكن تصور أن الامتيازات الممنوحة للتجار الغربيين تؤدي إلى نمو للمعاملات بما يشكل تعويضاً عن افتقار الملوك والأمراء والسادة الإقطاعيين المحليين إلى الكسب.

فهؤلاء الأخيرون يتخلون لصالح الكومينات الإيطالية عن حقوقهم في ما لا مالك له وفي ممتلكات التجار الذين يموتون دون أن يتركوا وصية؛ كما أنهم يكفلون السلامة الشخصية للتجار. وفي أحيائهم في سوريا ــ فلسطين، يهتم الإيطاليون بميزة أخرى: إمكانية استخدام موازينهم ومقاييسهم الخاصة، لا موازين ومقاييس السلطات المحلية التي تحصل عن طريق الـ *mensuratores* على ضريبة عن هذا الاستخدام. ومنذ عام ١١٢٣، يحصل البنادقة على هذا الحق في مملكة القدس وفي عكا بالأخص، إلاّ عندما يشترون سلعاً من طرف ثالث. وفيما بعد، يستفيد الجنويون والبيازنة من هذه الميزة نفسها: الأولون في صور في عام١١٩٠والأخيرون في عام ١١٨٧ في هذه المدينة نفسها. وبعض الامتيازات المالية تتمم هذا التخلي عن الموارد، والذي توافق عليه السلطات المحلية. إذ تستفيد البندقية من دخل سنوي قدره ٣٠٠ بيزنط تجبى من فوند صور، ثم من أرباح سلسلة عكا. وفي عام١١٠٤، يمنح بودوان الأول الجنويين ٣٠٠بيزنط وثلث إيرادات

ميناء عكا؛ إلاّ أن مما لاشك فيه أن هذا الامتياز الثاني لم يلق قط تنفيذاً كاملاً، مع أنه، تحت ضغوط الحرب، قد جرى تجديده من جانب كونراد دو مونفيرات في عام ١١٩٠ بالنسبة لصور، وفي عام ١١٩٢ بالنسبة لعكا. وبالمثل، يحصل البيازنة، خلال الحملة الصليبية الثالثة، على وعد بـ ٢٠٠٠ بيزنط في السنة على إيرادات فوند وسلسلة عكا.

وتشكل الامتيازات المالية ركيزة للجاليات التجارية الإيطالية. وخلال القرن الثاني عشر تكتسب أهمية متزايدة بإطراد. ففي البداية ـ وتلك هي الحال في أنطاكية في عام ١٠٩٨ لصالح الجنويين ـ تنتقل بعض البيوت ثم أحياء بكاملها إلى أيدي الكومينات الإيطالية: لتصبح *ruga*، وهي كلمة تشير إلى جزيرة حضرية صغيرة بأكثر مما تشير إلى مجرد شارع، وأحياناً ما تشكل هذه الجزيرة ثلث مدينة وفي الحالات الاستثنائية تشكل موقعاً بأكمله يتعين الفوز به. وكما لاحظ ي. براور، فإنه لو كانت مثل هذه الامتيازات قد استخدمت بالكامل لما بقيت أية مدينة في المملكة تحت سلطة الملك وأتباعه. والواقع أن الأحياء الوحيدة التي استخدمها التجار الإيطاليون بالفعل إنما تظل أحياء الموانئ الكبرى: عكا وصور وبيروت وطرابلس واللاذقية، وعاصمة إمارة الشمال، أنطاكية.

وفي هذه الأحياء، يسعى رعايا الجمهوريات البحرية إلى الحصول على كل ما هو ضروري لحياتهم اليومية: كنيسة، مستودع أو فندق، ساحة، قصر، فرن، طاحونة، مجزر، حمامات. والحصول على امتياز كنيسة، مشمول أو غير مشمول بـ *jus parrochiale* [استخدام من جانب الرعية] وبوصاية الكنيسة المطرانية، إنما يفسح المجال أمام خلافات مديدة مع السلطات الكنسية في الأرض المقدسة. والأماكن الضرورية للنشاط التجاري ـ المستودعات لتخزين السلع، مساكن التجار الزائرين، مقار الحراس ـ تشكل فندقاً. ويرجع أول ذكر لها إلى عام ١٠٩٨، مع ميثاق بوهيموند لصالح الجنويين. ويتوجب على كل حي من الأحياء الممنوحة للإيطاليين في المدن الساحلية أن يتمتع ببنية تحتية تجارية معينة؛ وتعبيرات مثل *intera ruga* و*vicus Venetorum* [حي البنادقة] إنما تشير إلى ذلك. والحال أن مجمل البنايات العامة الضرورية للوجود اليومي لجالية مستقرة استقراراً راسخاً لا يشار إليه إلاّ في مواثيق الشطر الثاني للقرن الثاني عشر بالنسبة للجنويين والبيازنة، في حين أن الـ *Pactum Warmundi* ، منذ عام ١١٢٣، يهتم بالأفران والحمامات والمطاحن في عكا وفي المدن الأخرى في مملكة القدس. وخلال القرن الثالث عشر، فإن الجرد البندقي الذي أجراه المشرف مارسيليو زورزي [١٢٤٣ ـ ١٢٤٤) والجرد الجنوي الذي حرره جوجليلمو دي بولجارو وسيمون مالوسيللو

(١٢٤٩)، إنما يشيران في عكا إلى مجموعة كاملة من البنايات والأسوار والقصور والحصون، بما يثبت أنه في ذلك الوقت تصورت الكومينات الإيطالية منشآتها من زاوية مستعمرة دائمة ومستقلة تماماً. فهي تتمتع آنئذ بكل المنشآت الضرورية للحياة الاجتماعية والاقتصادية لجماعة موجودة لكي تبقى وتسعى إلى التخلص من كل تبعية للخارج.

واستكمالاً لهذه الصروح الحضرية، تسنى للكومينات الإيطالية أن تحصل على تبعيات خارجية، على شكل أراض وبساتين وقرى أو دساكر خارج الأسوار الحصينة. ومنذ عام ١١٢٣، نجد أن الـ *Pactum Warmundi* يمنح البنادقة ثلث الممتلكات الخارجية لمدينة صور. ويتمتع الجنويون بدساكر في أرسوف وقيسارية وبأراض في جبلة وبملكيات شاسعة في شمال ــ شرقي عكا، يسمح الاكتشاف الحديث لثلاثة تخوم تحمل الاسم IANVA بتحديد مواقعها تحديداً أفضل. والممتلكات الريفية المعروفة أفضل من سواها هي ممتلكات البيازنة الذين يحصلون على خمسة محاريث في صور في عام ١١٥٧ وبساتين في يافا وفي عكا في عام ١١٨٧ وبالأخص دساكر محددة بدقة، قرب صور ويافا في عام ١١٨٧ وقرب عكا في عامي ١١٨٧ و١١٨٨. وهكذا نكون بازاء مجموعة كاملة من الأملاك العقارية، المخصصة بلا شك لتوفير المؤن الغذائية للجاليات الإيطالية وبديهي أن المستوطنين ليسوا هم الذين يزرعونها بأنفسهم: فهم يؤجرونها لبورجوازيين أو لأفراد من الأهالي من المؤسف أن كشوف الجرد في القرن الثالث عشر لا تأتي على ذكر أسمائهم. وبالنسبة للكومينات الإيطالية، تعد الأرض في سوريا ــ فلسطين مصدراً ثانوياً للدخل، في حين أنها مهيمنة بالنسبة للفرنج المستقرين عليها.

٤-٥ ، التجار الإيطاليون والمستوطنون

من الواضح أن النشاط التجاري هو مبرر وجود الجاليات الإيطالية في سوريا ــ فلسطين. وهذا النشاط يتحقق من خلال التعاون الوثيق بين المقيمين الدائميين والتجار الزائرين. وفي مستهل القرن الثاني عشر، لم يكن الأولون غير حفنة: بعض الرجال الذين تركتهم سلطات المتروبول لشغل المواقع التي جرى منحها كامتيازات، ولعقد الصلات مع الأهالي وللإعداد لإقامة التجار الذين يقومون بـ *Passagium* [زيارة] سنوية، حيث " يقضون الشتاء " في سوريا ــ فلسطين من أكتوبر/ تشرين الأول أو نوفمبر/ تشرين الثاني إلى مارس/ آذار. وشيئاً فشيئاً، إعتباراً من منتصف القرن الثاني عشر، يستقر في الأرض المقدسة بعض الزائرين الذين كانوا من قبل يجيئون ثم يرحلون. والحال أن عائلات بأكملها سوف تمد جذورها هناك: فروع من عشائر عائلية من

المتروبول، وسطاء للشركات الكبرى النشطة في تجارة المشرق، بحارة أو حرفيون باحثون عن المغامرة أو الثروة. وقد كشف ي. براور عن ممثلي الارستقراطية البندقية المستقرين في الأرض المقدسة: رولاندو كونتاريني، دومينيكو آكونتاتو، ياكوبو داندولو، عائلات دولشي وموروسيني وفالبير، مستفيدون من الاقطاعات التي فازت بها الكومينة، مسئولون بنادقة استقروا في الشرق بعد خروجهم من الخدمة.

وخلال القرن الثالث عشر، تشمل الجالية الموجودة في عكا عديدين من أفراد الـ *case vecchie* [البيوت العريقة] والـ *case nuove* [البيوت الجديدة] في البندقية (كيريني، فينيير، فاسّانو) وكذلك عديدين من الـ *popolani* [الشعبيين]، مثل بونيسينيا وبنديتو وكافالوتّو وزوفيني وبريزي ومارمورا وباريزان، ناهيك عن الأجانب اللاتين وأبناء البلد الذين تسنى لهم الاستفادة من وضعية البنادقة. ونجد في العقد الأخير من القرن الثالث عشر في فاماجوستا عدداً معيناً من ممثلي هذه العائلات الفارة من الأرض المقدسة. وربما كان العدد الإجمالي ألف إنسان، انخفضوا إلى ثلاثمائة أو أربعمائة بسبب عمليات النزوح قبل عام ١٢٩١.

ومن الجهة الجنوية، فإن حالة عائلة ايمبرياتشي، وهي عائلة ذات أصل فيكونتي مدت جذورها في الشرق، إنما تعد حالة نموذجية. والحال أن جوجليلمو الثاني، حفيد الحاصل على امتياز جبلة، إنما يعد أصل ثلاثة فروع لعائلة ايمبرياتشي في سوريا، من بينها فرع سادة بسمدان. وهم يصاهرون كبرى العائلات اللاتينية ويشكلون واحدة من أقوى البارونيات في الأرض المقدسة. وتذكر عقود القرن الثاني عشر الموثقة أسماء المدعو بونفاسّالو الأنطاكي والمدعو جيوفانّي أندريا الطرابلسي والمدعو جيوفانّي العكاوي، وكلهم من أصل جنوي، لكننا لا نكاد نعرف عنهم شيئاً، كما لا نكاد نعرف شيئاً عن الحاشية الجنوية والبيمونتية لكونراد دو مونفيرات. وخلال القرن الثالث عشر، تتزايد الجاليتان الجنويتان في عكا وطرابلس بالعديد من المقيمين الدائمين الذين سوف يجد بعض الناجين منهم من الفتح الإسلامي ملاذاً في فاماجوستا اعتباراً من عام ١٢٦٥.

ونحن نعرف أسماء ثلاثين من بين البيازنة الذين استقروا في الأرض المقدسة في القرن الثاني عشر: إن لامبيرتوس دي يوبّين يملك حمّاماً وفرناً في يافا في عام ١١٨٧ وجويدو بيزانوس يملك بيوتاً في صور في ذلك الوقت نفسه. وفي طرابلس، يظهر عشرة من البيازنة في الوثائق بين عامي ١١٧٩ و١١٨٤. وخلال الحملة الصليبية الثالثة، نجد أن اثنين من البيازنة، هما ياكوبوس دي يوتا ووالبرانوس دي كازانوفا، يقدمان أموالاً

للصليبيين الإنجليز والفرنسيين كسلفة. ولا جدال أن أشهر المهاجرين هو بليبانوس الذي يشتري يد وريثة اقطاعة البُطرون ويصبح تابعاً لكونت طرابلس. وخلال القرن الثالث عشر، تتزايد الجالية البيزاوية في عكا هي أيضاً بعدد كبير من البيازنة القادمين من بيزا أو من توسكانا، والذين نجد الناجين منهم في فاماجوستا في تسعينيات القرن الثالث عشر.

وهكذا فإن شخصيات شهيرة أو مهاجرين أنقذهم عقد موثق قصير من النسيان إنما يشكلون مجتمعاً استعمارياً حقيقياً وراء البحر، يتمايز في آن واحد عن النبلاء الفرنجيين والبورجوازية اللاتينية، ويدافع بشراسة عن المصالح التجارية لاخوته في الوطن والجنسية.

٤-٦٠ تنظيم النشاطات التجارية

تستند هذه النشاطات إلى الاتصالات البحرية المنتظمة والمنظمة جيداً بين إيطاليا وموانئ سوريا ــ فلسطين. وفي البندقية، يعتبر إنشاء نظام الـ *mude* [القوافل] لاحقاً لضياع الدول الفرنجية. ولا يقلل هذا من رجحان أنه خلال القرن الثالث عشر كان هناك ايقاع منتظم إلى هذا الحد أو ذاك للرحلات البحرية بين البندقية وميناء عكا. وقد أعادت دراستان حديثتان تركيب مسلسل الرحلات البحرية الجنوية إلى الشرق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وتسيطر على الطرق البحرية السفنُ الشراعية الحربية في مهمات المرافقة والحملات العسكرية ونقل بعض المنتجات الثمينة، والسفن الشراعية العادية في عمليات النقل المفيد للسلع أو للحجاج. وقد أدى الحافز الذي قدمته احتياجات الأرض المقدسة إلى إحداث نمو لا سابق له للإنشاءات البحرية الجنوية، خاصة بمناسبة طلبات القديس لويس. والحال أن عقود استئجار السفن ومختلف التعاقدات الموثقة إنما تقدم معلومات ثمينة عن تنظيم الملاحة إلى ما وراء البحر. ففي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كانت المغادرات إلى الأرض المقدسة تحدث في فترتين من العام: في الربيع، حيث تمتد من ١٥ مارس/ آذار إلى أول مايو/ أيار، مع استباقها أحياناً لانتهاء الشتاء. أما الحركة الثانية فهي تحدث بين ١٥ أغسطس/ آب و٣٠ سبتمبر/ أيلول، إلاَّ أن من الوارد بشكل استثنائي تمديدها إلى ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول. أما فيما يتعلق برحلات العودة، فهي موزعة على فصلين: فخلال الصيف تصل إلى جنوة السفن المغادرة لسوريا خلال الربيع؛ وفي نوفمبر/ تشرين الثاني أو ديسمبر/ كانون الأول، تصل السفن المغادرة لعكا في أواخر الصيف وأوائل الخريف، حيث الموعد الأقصى المحدد ــ في أحد عقودنا ــ لمغادرة عكا هو الأول من أكتوبر/ تشرين الأول. وهو ما يعني أن التجار

الزائرين يقيمون ثلاثة إلى أربعة شهور في الموانئ السورية وأن التوقف الشتوي، الذي يقتصر غالباً على بضعة أسابيع، يكسر إيقاع الملاحة على طرق الأرض المقدسة.

وتوضح روزنامة حركة السفن الوتيرة نصف السنوية للتبادلات التجارية بين جنوة وسوريا ــ فلسطين. فهل تعني تنظيم القوافل على الطرق الشرقية، ومن ثم تدخل السلطة العامة في توجيه حركة الملاحة ؟ إن عقود استئجار السفن لا تذكر البتة ضرورة ملاحة مشتركة؛ لكن تجميع عقود الاستثمار في رحلات إلى ما وراء البحر خلال بضعة أسابيع إلى جانب إلزام قباطنة السفن باحترام لوائح جنوة، إنما يسمحان بافتراض أن رحلة السفن الشراعية كانت تتم بصورة مشتركة، على جزء من الطريق على الأقل: ليس البتة تحت قيادة موحدة، وإنما بهدف تبادل تقديم المساعدة. ولا يتخذ وجوب التحرك في قافلة بحرية شكلاً قانونياً إلاّ في عام ١٣٣٤.

وتحدد عقود استئجار السفن تكاليف نقل الركاب والسلع. فبالنسبة للركاب، يمكن رصد انخفاض نسبي لأجرة نقلهم إذا ما قارنّا الرسوم المطلوبة من قوات فيليب أوجست بالعروض المقدمة إلى رسل القديس فيليب. فالأجنحة " الفردوسية "، والمقصورات على متن السفينة تصل رسومها إلى ثلاثة أضعاف رسوم الكبائن السفلية ما بين طوابق السفينة. والحجاج، الذين تحدد العقود دائماً عددهم، يتعين عليهم الاكتفاء بمكان محدود بين الطوابق، لا يزيد بالكاد عن متر مربع للحاج الواحد. أمّا التجار فهم يستفيدون من ظروف رحلة مقبولة أكثر إلى حد ما؛ وهم يقتسمون فيما بينهم المساحات المخصصة للشحنات التجارية بحسب نسب معروفة سلفاً. كما أنهم يتناولون طعامهم على مائدة ربابنة السفينة. وهم يمارسون سيطرة على عمليات التجهيز، أمّا في البحر، فهم يمارسون سيطرة على حسن سير الرحلة.

ويستفيد التاجر المستأجر للسفينة من مجانية الرحلة لنفسه ولخدمه ولجزء من الشحنة من جنوة إلى الشرق. ويمكن سداد الأجر ــ *naulum* ــ بحسب الوزن، *ad cantaratam*، كما يمكن لمجموعة من المستأجرين الاحتفاظ بالسفينة كلها لقاء مبلغ محدد، *ad scarsum*. وهذا النهج الثاني، والذي استخدمه رسل القديس لويس في عام ١٢٤٨ ثم في عام ١٢٦٨، هو الأقل شيوعاً بكثير في الملاحة التجارية. أما بحسب نهج الحساب الأول، فإن أصحاب السفن يمكنهم المطالبة بتحديد زنة السلع عند الرحيل ودفع الأجر بالعملة الجنوية، والذي يتراوح عموماً بين ١٠ و١٣ سو للقنطار. أمّا إذا تعهد التجار بالمقابل بالعودة من وراء البحر على السفينة نفسها وضمنوا شحنة عودة مماثلة

للشحنة التي يحملونها من جنوة، فإنهم يستفيدون عندئذ من مجانية جزئية بالنسبة لهذه الأخيرة، إلا أنه سوف يتعين عليهم دفع أجرة العودة على أساس ١٠ إلى ١٢ بيزنط ساراً سيناط لكل قنطار عكاوي (*ad cantaratam Surie*). وفي حالة عدم قيامهم باتخاذ قرار العودة على السفينة نفسها إلا في سوريا، فإن الأجر المدفوع لجنوة سوف يجري خصمه من المبلغ الذي يجب دفعه في سوريا على أساس سعر صرف محدد في العقد. وقد لاحظ بايرن في تحليله لهذا النظام المعقد إلى أي حد كان مرضياً لمتطلبات التجار الائتمانية، الأقل ارتفاعاً في سوريا، حيث يبيعون سلعهم، مما لدى مغادرة جنوة. كما أن هذا النهج يناسب الصادرات الغربية وربما يكشف عن اختلال معين للتبادلات التجارية بين جنوة وسوريا ـ فلسطين.

وقلّما يمكن دراسة طابع الاستثمارات التجارية المتجهة إلى سوريا الفرنجية وتوزيعها الزمني إلا عبر الحالة الجنوية؛ فالواقع أن العدد الصغير للعقود البندقية والبيزاوية المحفوظة لا يسمح بالتوصل إلى أية نتيجة. وفي العقود، يعد تنوع العملات المتداولة واسعاً إلى أقصى حد. فهذه العقود تُعقَدُ عموماً بالجنيهات الجنوية، لكنها تُعقَدُ أحياناً بعملة ميلجيل أو بأونصات نابولي أو بالبيزنطات السارّاسيناطية، العملة الذهبية لمملكة القدس، والمسكوكة على غرار الدينار، وإن كان عليها صليب ونقوش مسيحية. وتجئ المعلومات الأولى عن الاستثمارات الجنوية من سجل جيوفاني الكاتب (١١٥٤ ـ ١١٦٤). ووفقاً لحسابات مختلفة أجراها بايرن وباخ ود. أبو العافية، فإن الاستثمارات الجنوية في التجارة الدولية تتوزع بشكل شبه متساو على ثلاثة قطاعات: فمن بين ٣٣٥ عقداً، تخص ١١٦ عقداً إيطاليا وصقلية وتخص ١٠٧ عقود غربي البحر المتوسط (أفريقيا الشمالية، فرنسا الجنوبية، شبه الجزيرة الايبيرية) وتخص ١١٢ عقداً الحوض الشرقي للبحر المتوسط. وبين هذه العقود الأخيرة، يتصل ٥٨ عقداً بالإسكندرية و ٣٤ عقداً بسورية و ٢٠ عقداً بالإمبراطورية البيزنطية. ويؤدي جمعُ الاستثمارات إلى نتيجة متباينة قليلاً: إن ٩٠٣١ جنيهاً تأخذ اتجاه الإسكندرية و١٠٠٧٥ جنيهاً تأخذ اتجاه سوريا و٢٠٠٧ جنيهات تأخذ اتجاه بيزنطة. وبالنسبة لمتوسط الاستثمارات، تجئ سوريا في المقدمة، بواقع ٣٠٠ جنيه للعقد، فتسبق الإسكندرية (١٥٦ جنيهاً) والقسطنطينية (١٠٠ جنيه). وفي حين أن مصر تجئ في المقدمة إلى عام ١١٦٠، فإن انقلاباً يحدث عندئذ في صالح تجارة سوريا ـ فلسطين. وهذه التجارة تكاد تكون احتكاراً بيد بعض الأفراد وبعض العائلات ذات الأصل الفيكونتي والتي تسيطر على أربعة أخماس هذه التجارة. وفي أواخر القرن الثاني عشر،

وفقاً لمجموع العقود الجنوية الموثقة من عام ١١٧٩ إلى عام ١٢٠٣، فإن التجارة مع سوريا تستوعب استثمارات مساوية لاستثمارات التجارة مع صقلية. والاثنتان تجيئان إلى حد بعيد في المقدمة، حيث تسبقان بكثير القسطنطينية والإسكندرية اللتين تتجاوزهما أيضاً سبتة وبوجيا [بجاية، في الجزائر] وسّردينيا. ومن جهة أخرى، فإن هيمنة كبار الـ *socii stantes* (التجار المقيمين) تتلاشى لصالح مشاركةٍ متزايدةِ القوةِ بإطرادٍ من جانب صغار التجار في التجارة مع المشرق.

ويرى أ. أشتور أن التجارة الإيطالية مع مصر قد تفوقت من حيث حجمها وقيمتها على التجارة مع سوريا إلى سنوات العقد الأول من القرن الثالث عشر. ويقود الفحص الدقيق للعقود الموثقة إلى توقع نمو قوي للتبادلات التجارية مع مملكة القدس على مدار عشرين عاماً على الأقل. ففي مستهل القرن الثالث عشر، تظل المنطقة السورية ــ الفلسطينية في صدارة التجارة الدولية الجنوية، أكان ذلك من حيث عدد العقود أم من حيث مبلغ الرساميل الموظَّفة. ومن عام ١٢٣٣ إلى عام ١٢٥٩، تجئ مناطق ما وراء البحر باستمرارٍ في صدارة الاستثمارات الجنوية في البحر المتوسط، إلاَّ في عام ١٢٥٦، حيث تبدأ في عكا حرب سان سابا: فعلى مدار ربع القرن هذا، تتأرجح الحصة بين حد أقصى نسبته ٧١% في عام ١٢٣٣ وحد أدنى نسبته ٢٨% في عام ١٢٥٧؛ ثم تحدث استعادة لتزايد الحصة، فتصل إلى نسبة ٥٤% في عام ١٢٥٨ و٤٠% في عام ١٢٥٩، وقت تحويل الجنويون مركز نشاطاتهم من عكا إلى صور. ثم يؤدي التناحر البندقي ــ الجنوي والصدامات بين المغول والمماليك إلى انهيار الاستثمارات فيما وراء البحر، وذلك اعتباراً من عام ١٢٦٠. فالبحوث التي أجراها ل. باليتو بالنسبة للعقدين اللاحقين، تثبت أن التجارة الجنوية مع سوريا، مع بقائها ملحوظة، خاصة في عام ١٢٦٩، لا تستعيد البتة الاتساع الذي عرفته بين عامي ١٢٣٠ و١٢٥٥. وفي مستهل ثمانينيات القرن الثالث عشر، لا تصل التجارة الجنوية مع السواحل السورية إلاَّ إلى المرتبة الرابعة والسادسة بين الوجهات التي يختارها تجارنا لاستثماراتهم.

إلاَّ أنه حتى لو كان من الواجب أخذ هذه المحصلة الإحصائية بعين الحذر، وذلك بسبب العدد جد المتغير من عام إلى آخر للعقود التي وصلتنا، فإنها ليست مع ذلك أقل توضيحاً لاستمرار تدفق تجاري معين بين جنوة والموانئ السورية ــ الفلسطينية في السنوات السابقة للفتح المملوكي. ومن المؤكد أن أزمنة الرخاء إنما تنتمي إلى الماضي، إلاَّ أنه قد يكون من المبالغة القول إن موانئ الشرق كانت قد كفت عن أن تكون محط

اهتمام من جانب الإيطاليين حتى قبل سقوطها تحت سيطرة مصر، بحجة أن موانئ أخرى، آياس في أرمينيا الصغرى وتربيزوند [طرابزون] وكافًا أو تانا في البحر الأسود، قد اجتذبت إليها منافذ الطرق الكبرى عبر الآسيوية.

٤-٧٠ موضوعات التجارة

ما الذي كان يمكن للتجار الإيطاليين أن يبحثوا عنه أو أن يحملوه إلى الساحل السوري؟ إن بالإمكان استخلاص وارداتهم قياساً إلى شحنة السفينة الشراعية المارسيلية، "الروح القدس"، على نحو ما يمكن تحديدها إستناداً إلى العقود المائة والخمسين المعقودة بين ١٤ و٣١ مايو/ أيار ١٢٤٨، لحساب زبائن ربان السفينة. فنحن نجد في هذه العقود مجموعة متنوعة مدهشة من أقمشة شامبانيا ولا نجدوك والفلاندر وإنجلترا وبال وأفينيون؛ ونجد خيوطاً ذهبية من جنوة ومن لوكّا، وشبيكات قطنية ومنسوجات من باريس ومن جرمانيا، إلى جانب شحنات من الزعفران والقصدير والمرجان وجلود الثعلب. والحال أن تصدير المنسوجات الغربية إنما يُعَدُّ منذ أواخر القرن الثاني عشر ظاهرة كبرى. وقد اعتاد الفرنج المقيمون في الشرق استخدام أقمشة ومنسوجات الغرب: ومن ثم فإن الطلب عليها يعد قوياً جداً في مدن الأرض المقدسة. أمّا الخشب والحديد، المحظور من حيث المبدأ تصديرهما إلى البلدان الإسلامية، فإنهما يظهران قليلاً في العقود؛ إلاّ أنهما ليسا مع ذلك أقل حضوراً في المبيعات التي يقوم بها التجار الإيطاليون. ثم إن بعض المنتجات الزراعية، كالحنطة وزيت الزيتون والزعفران تتمم مع المرجان والفراء السلسلة الكبيرة من صادرات الغرب.

وهذه الصادرات يمكن تعويضها بطريقتين: إمّا بمنتجات الساحل الخاصة أو بالسلع الغذائية الزراعية القادمة من تجارة القوافل.

وعن هذه وتلك، يقدم سجل تجارة عكا ومرجع بيجولوتّي الوجيز، عن عصور مختلفة والحق يقال، معلومات دقيقة مهمة. فالنص الأول يعكس صادرات الميناء السوري الرئيسي في الشطر الأول للقرن الثالث عشر. وتمتزج هناك منتجات الحرف المحلية، التي لا تهم التجار كثيراً، ومنتجات الترانزيت القادمة بحراً من الإسكندرية أو عبر قوافل سوريا الداخلية أو مصر. وتتجاور " توابل " الشرق والعطور والأصباغ (النيلة والفوّة

واللون الحُمّري والبلسم) مع السكر والكتان والقطن والحرير والشبّ، دون أن يتسنى للمرء معرفة الأصل الجغرافي لهذه المنتجات المختلفة. وتقدم الحرف المحلية للتصدير بعض السلع النفيسة: مصنوعات من الفخار، منسوجات من القطن ومن الحرير، منسوجات من صوف ووبر الماعز، بروكارات، أواني صور الزجاجية. ومرجع بيجولوتّي الوجيز، والذي يستعيد معلومات الأزمنة الأخيرة للسيطرة الفرنجية، يشدد أكثر على بيع مختلف التوابل، دون أن يكون بوسع المرء أن يحدد ما إذا كانت منتجات إعادة تصدير قادمة من مصر، أو منتجات ترانزيت، قادمة من آسيا الجوانية. ومما لا جدال فيه أن الموانئ السورية تشهد في القرن الثالث عشر نشاطاً تجارياً يشجعه نقل المنتجات القادمة من سوريا المُسلمة القريبة بأكثر مما.تشجعه المنتجات الحرفية القليلة التي تشير إليها النصوص. وبما أنها كانت تشتري من الغرب بأكثر مما تبيع له، فقد كانت مضطرة إلى تعويض مشترياتها بالموارد المستمدة من تقوى مؤمني مجمل الجماعة المسيحية.

وفي هذا يعد نشاط الإيطاليين التجاري هناك غير مؤكد. فهو يتطور بقدر من التأخر الزمني، قياساً إلى الفتح الذي قام به الصليبيون. ونحو عام ١١٥٠ أيضاً، كانت مصر ماتزال تحتل الصدارة في التجارة الإيطالية في المشرق. ولا يتفوق الساحل السوري ــ الفلسطيني إلاّ اعتباراً من ثمانينيات القرن الثاني عشر: وحتى لو لم يكن للأحداث السياسية من تأثير مباشر دائماً على تطور التجارة، فإن التغير الذي شهدته أواخر القرن الثاني عشر يمكن تفسيره بالشروط الأقل ملاءمة والتي تفرضها السلالة الحاكمة الأيوبية في مصر على التجار الإيطاليين. والحال أن الشطر الأول للقرن الثالث عشر هو العصر الذهبي للتجارة بين الجمهوريات البحرية والدول الفرنجية: فعندئذ تلعب عكا وصور وبيروت وطرابلس دوراً رئيسياً في الاقتصاد الدولي. إلاّ أنه سرعان ما يؤدي الغزو المغولي والفتح المملوكي إلى دفع الإيطاليين إلى البحث عن منافذ أكثر أمناً وأسواق أفضل موقعاً قياساً إلى المحاور الكبرى للتجارة الدولية والتي تميل في أواخر القرن الثالث عشر إلى التحول نحو الشمال، نحو أرمينيا الصغرى أو ضفاف البحر الأسود.

وهكذا فإن التجارة الإيطالية في سوريا ــ فلسطين لا تدين بنموها إلى الفتوحات التي حققها الفرنج. إنها تستفيد منها مع تأخر مدته نصف قرن، كما أن انحسارها

يحدث قبل نحو ثلاثين سنة من اختفاء الدول اللاتينية. ولم تكن مصـالح التجـار متوافقـة دائماً مع الوضع السياسي للدول التي ينتمون إليها أو التي يُنتظر منهم دعمها. وقد تمكـن رعايا الجمهوريات البحرية من استخدام ساحات أخرى للنشاط، عندما أصبـح الساحـل السوري ـ الفلسطيني إعتباراً من ستينيات القرن الثالث عشر مهمشاً قياساً إلـى المراكـز العصبية للاقتصاد الدولي.

عقد استئجار سفينة جنوية لرحلة إلى ما وراء البحر (جنوة، ٢٣ فبراير/ شباط ١٢٥٠)

هذا العقد، الموثق لدى كاتب عدل، معقود بين أصحاب سفينة وتجار يتعهدون بنقل كمية معينة من السلع. ويحدد العقد بشكل عام موعد الرحيل، والأساكل التي سوف تمر بها الرحلة، ووجهة السفينة ورسوم الاستئجار. ويتعين على السفينة " الفردوس العظيم " التي يملكها أصحاب سفن جنويون، القيام برحلة إلى بروفانس، ومن هناك إلى عكا أو طرابلس، حاملة سلعاً وحجاجاً (ولكن دون نساء). ويتم دفع رسوم الاستئجار لدى الوصول، وذلك لتمكين التجار من تكوين رأسمال من خلال بيع شحنتهم أولاً:

نحن، كورّادو جواركو وبونزيو ريكشيو دوريا وجويدو سبينولا ولانفرانكو ريكشيو، الشركاء في ملكية السفينة التي تحمل اسم " الفردوس العظيم "، وكل منّا مسئول عن مجمل العقد، نؤجر سفينتنا المذكورة للقيام بالرحلة المنصوص عليها أدناه إلى ما وراء البحر، بالسعر المحدد أدناه، وبالبحارة والتجهيزات المحددة أدناه، لكم، التجار ايدو ليركاريو الابن وأوتّولينو دي نيجرو (باسمك وباسم لانفرانكو دوجو) وجوجليلمو تارتارو (باسمك وباسم جياكومو سبينولا وبنديتّو كاستانيا) وفيليبّو دي ستاسيوني وبارتولوميو دي ماري وجياكومينو دي فيردونو وأوغيتّو لوميللينو وجياكومو روسّو وديوتيسالاف بونافينتورا.

ولأجل هذا نتعهد لكم ونتفق معكم، أنتم التجار الذين سبق ذكر أسمائهم، باسمكم وباسم الآخرين المذكورين أعلاه، على تجهيز وإعداد السفينة المذكورة، بـ [التجهيزات التالية]: ستة أشرعة من القطن، ثلاثة منها يجب أن تكون جديدة، شراع من ألياف القنب، تسعة أعمدة صوار جيدة ومتينة، اثنين وعشرين هلباً، وخمسة وعشرين هلباً للعودة، عشرين حبلاً ملفوفاً من الحبال الجديدة علاوة على حبال متينة أخرى وعشرة حبال ملفوفة ذات صُوى، وجميع التجهيزات والتركيبات الأخرى المناسبة للسفينة المذكورة، للقيام بالرحلة المذكورة. ومع مائة بحار، يجب أن يكون عشرون منهم من الرماة، واثنين من الربابنة (*naucleri*) المجربين. ولا يحسب في هذا العدد الخدم ولا الشركاء في ملكية السفينة، ما عدا الربان القائد شخصياً.

ونتعهد لكم، أنتم أيها التجار، باسمكم وباسم الأشخاص المذكورين أعلاه، بتجهيز وإعداد السفينة المذكورة لمغادرة ميناء جنوة مع البحارة وكل ما جرى تحديده أعلاه، وبدء هذه الرحلة في منتصف مارس/ آذار المقبل، والذهاب بالسفينة المذكورة إلى موناكو أو إلى أنتيب لأخذ شحنة السفينة المذكورة، ومواصلة الرحلة المذكورة من هناك للوصول بها إلى غايتها ... إلاّ لو أننا علمنا بتنظيم حملة بحرية ما في صقلية أو في مكان آخر ـ لا قدّر الرب ! ـ ولو عجزنا من جرّاء ذلك عن السير بأمن بالسفينة المذكورة وبضائعكم إلى عكا، فإننا نتعهد لكم بأن نذهب بالسفينة المذكورة وبضائعكم إلى طرابلس، إذا ما رغبتم في ذلك، أيها التجار المتواجدون على متن السفينة المذكورة أو إذا ما رغبت في ذلك أغلبيتكم، حيث يجري تحديد الأغلبية قياساً إلى الشحنات المحمولة (*prq parte cantarate*). كما نتعهد لكم، أيها التجار، باسمكم وباسم الأشخاص المذكورين أعلاه، بألاّ نحمل على السفينة المذكورة في رحلة الذهاب كما في رحلة العودة، أكثر من مائة حاج، لا يجب أن يكون بينهم امرأة ـ وهذا بشرط ألاّ نسمح للحجاج بالتواجد في المكان الواقع بين الصاري المركزي ومؤخرة السفينة المذكورة. وبمجرد تقدير شحنة السفينة المذكورة، [نتعهد] بأن نحمل على متن السفينة المذكورة تاجراً مقابل كل عشرة قناطير[(١)] عكاوية من السلع المحمولة على متن السفينة المذكورة، وبألاّ نوفر لأي تاجر على متن السفينة المذكورة، في جنوة، شروطاً أفضل، أياً كان هذا التاجر بينكم، دون موافقتكم ورغبتكم، أو موافقة ورغبة غالبيتكم. على أن بوسعنا أن نأخذ على متن السفينة ما يصل إلى مائتي بالة بين سطحي السفينة المذكورة لأجل الرحلة إلى ما وراء البحر. إلاّ أنه في رحلة العودة من أراضي ما وراء البحر إلى جنوة على متن السفينة المذكورة، نتعهد بألاّ نأخذ أو نقبل على متن السفينة المذكورة أية سلعة بين السطحين، لا عند المغادرة ولا في أي من الموانئ التي نتوقف فيها بالسفينة المذكورة خلال رحلة العودة من أراضي ما وراء البحر إلى جنوة.

ومن جهة أخرى، فإننا نتعهد لكم ونتفق معكم، أيها التجار الذين سبق ذكرهم، باسمكم وباسم الأشخاص المذكورين أعلاه، على تجهيز السفينة المذكورة بحلول شهر سبتمبر/ أيلول القادم. وإعدادها بكل ما ذكر أعلاه، في عكا أو في أي مكان نأخذ منه الشحنة، سعياً إلى الإبحار من أجل العودة إلى جنوة بشحنة السفينة المذكورة ...

وبالمقابل، فإننا نحن التجار الذين سبق ذكرهم، باسمنا وباسم الأشخاص المذكورين أعلاه، نتعهد ونتفق معكم، يا ملاك السفينة الذين سبق ذكرهم، على أن نركب السفينة

المذكورة ومعنا جميع بضائعنا وبالاتنا سعياً إلى بدء واستكمال الرحلة المذكورة في المواعيد المحددة، على النحو الموصوف أعلاه ... ونتعهد بأن نعطيكم وندفع لكم كثمن لاستئجار السفينة أحد عشر بيزنطاً سارّاسيناطاً سورياً[٢] عن كل قنطار عكاوي من مجموع ما سوف نشحنه على متن السفينة المذكورة ...

ونحن، أصحاب السفينة ونحن، التجار الذين سبق ذكرهم، باسمنا وباسم الأشخاص المذكورين أعلاه، نتعهد بتنفيذ واحترام جميع البنود المذكورة أعلاه، وبألاّ ننتهك أياً منها. وإلاّ فإننا نتعهد بدفع غرامة قدرها ألف جنيه جنوي، وهذا التعهد يلتزم به كل طرف تجاه الآخر. ولأجل الغرامة وللتمكن من دفعها، نرهن ــ كل طرف لدى الآخر ــ جميع ممتلكاتنا الحالية والقادمة. ونحن جميع ملاك السفينة متضامنون بالنسبة لمجمل المبلغ المذكور المرهون.

حُرِّرَ في جنوة، في كنيسة سانتا ماريا ديل فيني، في العام ١٢٥٠، الدورة السابعة، في ٢٣ فبراير/ شباط، بين الجزء الثالث والرابع من اليوم. الشهود: مارينو دي بارما ونيكولينو جوارنيريو القاضي، وتومّاسينو دوريا.

المصدر:

éd. E.H.Byrne, *Genoese Shipping in the Twelfth and Thirteenth Centuries,* Cambridge, Mass., 1930, pp. 85-88.

١ــ وحدة وزن تساوي نحو ٢٢٠ كجم.

٢ــ عملة الدول اللاتينية والتي تقلد الدينار العربي.

الفصل التاسع
ألدول اللاتينية في القرن الثالث عشر

خلال العقد الأخير من القرن الثاني عشر والعقد الأول من القرن الثالث عشر، جـــرت تغيرات عميقة في دول الشرق اللاتينية. فالهدنة المعقودة مع صلاح الدين في ختام الحملـــة الصليبية الثالثة قد سمحت بإعادة تكوين مملكة القدس، ولكن دون عاصمتها: فنحـــن منـــذ ذلك الحين بازاء مملكة عكا، المختزلة في شريط ساحلي والمعَرّضــــة لــهجمات مســلمي الداخل. وهي لا تملك البقاء إلاّ بسبب الانقسامات فيما بين الأمراء الأيوبيين والسلبية التـــي دامت نحو نصف قرن من جانب العالم الإسلامي. وفي سوريا الشمالية، على أثر اختفـــاء السلالة الحاكمة التولوزية، تتحد كونتية طرابلس مع إمارة أنطاكية. لكن الكيان الجديد يجـــد نفسه مندرجاً في نزاعات على الخلافة ناشئة عن المصاهرات العائلية مع البيت الأمــــيري الأرمني القيليقي. والتقارب المنشود من جانب هؤلاء الأمراء، الهيتوميين، مع المغول إنمـــا يعَرِّض أنطاكية لتدابير انتقامية من جانب المماليك لن يتـــأخر وقوعــها بمجـــرد تراجـــع الموجة المغولية في سوريا. وفي وسط البحر المتوسط، تؤدي الحملة الصليبيــــة الرابعـــة التي تنتهي بالاستيلاء على القسطنطينية (١٢٠٤) إلى تقســـيم الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة (*Partitio Romanie*). فيولد جيل من الدول اللاتينية: إمبراطورية القسطنطينية اللاتينيـــة، إمارة المورة، بينما تنتقل كريت لأكثر من أربعة قرون تحت ســـيطرة البندقيـــة وتـــهيمن سلالة حاكمة صغيرة من بواتو، هي آل لوزينيان، على جزيـــرة قـــبرص، التـــي فتحـــها ريتشارد قلب الأسد، خلال الحملة الصليبية الثالثة.

١ • سوريا الشمالية في القرن الثالث عشر

قبل اختفائه، بعد وقت قصير من هزيمة حطين، كان ريمون الثـــالث الطرابلســـي قـــد اختار ابنه بالمعمودية، ريمون، ابن بوهيموند الثالث الأنطاكي، لكـــي يخلفـــه علـــى رأس الكونتية. والحال أن الابن الأصغر لريمون، بوهيموند الرابع، هو الذي يرسله أبوه لتولـــي ملكية أنطاكية. إلاّ أنه في عام ١١٩٣، يعلن ليون الأرميني مطالبته بإمارة أنطاكية، حيـــث يقوم باعتقال بوهيموند الثالث في بَغراس. ويضطر هذا الأخير إلـــى الاعـــتراف للأرمـــن بمجمل ساحل خليج الأسكندرونة وإقليم بغراس وتزويج ابنه الأكبر ريمون من ابنة أخـــت

الأرميني، الذي يحصل من الإمبراطور هنريخ الرابع على حق تحويل إمارته إلى مملكة هي مملكة أرمينيا (١١٩٨). والحال أن موت ريمون الأنطاكي في عام ١١٩٥ إنما يترك كخليفة لبوهيموند الثالث الحدث ريمون روبين، ثمرة زواج الراحل من أليس الأرمينية. لكن بوهيموند الرابع، المستقر في طرابلس، لا ينوي التخلي عن حقوقه في أنطاكية، حيث يعترف به السكان أميراً عليهم. وعندئذ يبحث الطرفان المتنافسان عن دعم من أتراك قونية ومن أمراء حلب والجزيرة، بينما لا تؤدي وساطات المندوبين البابويين إلاّ إلى تعقيد الموقف. وبعد أن يجتاح ليون، ملك أرمينيا، سهل أنطاكية ويعيث فيه فساداً، يدخل المدينة في عام ١٢١٦ وينجح في تنصيب ريمون روبين، ابن اخته، أميراً عليها. وهو نجاح قصير العمر، لأن بوهيموند الرابع ينجح في استرداد المدينة في عام ١٢١٩، على أثر مؤامرة من تدبيره. وعندئذ يقوم بتوحيد بيتي أنطاكية وطرابلس، وذلك بالرغم من وجود جيب اللاذقية المسلم الذي يفصل بينهما.

وبعد موت بوهيموند الرابع في عام ١٢٣٣، تخرج سوريا الشمالية من التاريخ العام للممتلكات الفرنجية. فخليفتاه، بوهيموند الخامس (١٢٣٣ ـ ١٢٥١) وبوهيموند السادس (١٢٥١ ـ ١٢٧٥)، مع حفاظهما على التوازن المتعادل بين الإبلان وأنصار فريدريك الثاني، ينتقلان تحت نفوذ أرمينيا الصغرى، المتحالفة مع المغول. وفي عام ١٢٤٤، نجد أن الفرسان الأنطاكيين ـ الطرابلسيين، الذين جرى جرهم إلى الإئتلاف الفرنجي ـ السوري ضد القوات الخوارزمية، المتحالفة مع مصر، سوف يهلكون في ساحة معركة لافوربي، قرب غزة (١٧ أكتوبر/ تشرين الأول ١٢٤٤). ومنذ ذلك الحين، فإن أنطاكية، المهددة بأعمال التخريب من جانب التركمان، تصبح شبه تابعة لمملكة قيليقيا الأرمنية، التي تحبذ تقارباً بين الفرنج والمغول.

ويحطم المماليك الهجوم المغولي الكبير في سوريا في معركة عين جالوت (سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠)، ويتذرع بيبرس بالدعم الذي قدمه بوهيموند السادس إلى المغول لكي يخوض نضالاً لا يرحم ضد الفرنج والأرمن في سوريا الشمالية. وهو يخرب قيليقيا في عام ١٢٦٦؛ وبعد ذلك بعامين، يستولي على أنطاكية، ويذبح جانباً عظيماً من السكان ويختزل المدينة من خلال أعمال السلب والنهب إلى مجرد قرية. وسرعان ما تسقط سوريا الفرنجية الشمالية كلها في أيدي المماليك. وفي عام ١٢٧١، يفتح بيبرس صافيتا وحصن الفرسان، ويدمر مشارف مرقب ويُخضع الحشاشين. وعند وصول الأمير الانجليزي إدوارد إلى الأرض المقدسة، يحصل بوهيموند السادس على هدنة مدتها عشر

سنوات، ويجددها قلاوون، خليفة بيبرس. والحال أن إخفاق هجوم مغولي جديد في سوريا (١٢٨١) ثم موت الخان أباغا في عام ١٢٨٢، يدفعان المماليك إلى إنهاء الهدنة؛ فتسقط مرقب واللاذقية في أيديهم في عام ١٢٨٧ ثم تسقط طرابلس في عام ١٢٨٩، بالرغم من تكوين كومينة تحت حماية الأميرال الجنوي بنديتّو زكريا. وبعد ذلك بعامين، يجئ الدور على عكا وعلى المواقع الفرنجية الأخيرة في الأرض المقدسة.

٢ • مملكة عكا

٢-١ • مملكة بلا ملك ؟

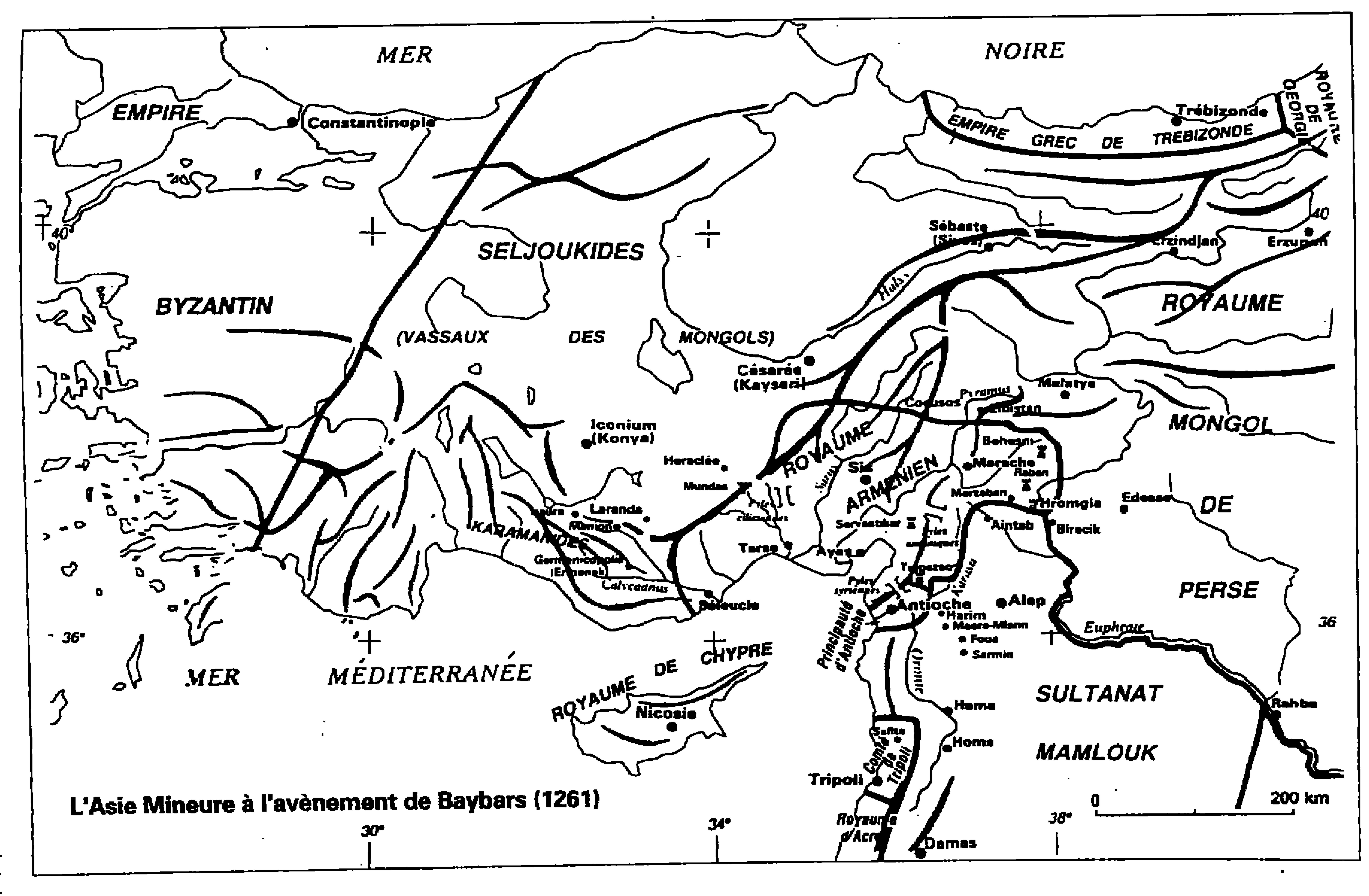
من عام ١١٨٦ إلى عام ١٢٠٥، تلبس عدة بيوت التاج الملكي للقدس عن طريق مصاهرات متعاقبة لابنتي أموري الأول. فالكبرى، سيبيل، تتزوج جي دو لوزينيان الذي يحكم من عام ١١٨٦ إلى عام ١١٩٢، لكن موت سيبيل في خريف عام ١١٩٠، ثم موت ابنتيها، يدفع أختها الصغرى إيزابيل إلى المطالبة بحقوقها في التاج الذي يجد جي دو لوزينيان صعوبة في الاحتفاظ به، وذلك بسبب فقدانه للاعتبار من جرّاء عجزه العسكري. والحال أن كونراد دو مونفيرات، بطل التصدي لصلاح الدين، إنما يطالب بدوره بتاج القدس، بما أنه قد تزوج إيزابيل. ويطلب المطالبان بالعرش تحكيم الملكين الموجودين في حصار عكا، فيليب أوجست وريتشارد قلب الأسد. وبعد مفاوضات شاقة، ينعقد اجتماع للبارونات في ٢٨ يوليو/ تموز ١١٩١، ويقرر ترك المملكة لجي دو لوزينيان، مدى الحياة، على أن يكون كونراد وريثاً له.

بيد أن اغتيال هذا الأخير على أيدي جلاوزة زعيم الحشاشين (٢٨ أبريل/ نيسان ١١٩٢) إنما يثير الشكوك حول مستقبل المملكة. ويهمل البارونات والصليبيون جي دو لوزينيان الذي يتعين عليه الاكتفاء بسيادة على قبرص مشتراة من ملك انجلترا، ويعهدون بالسلطة إلى هنري دو شامبانيا الذي يتزوج إيزابيل الحبلي بابنة كونراد. على أن كونت شامبانيا، وهو في آن واحد ابن أخت لكل من فيليب أوجست وريتشارد قلب الأسد، إنما يكتفي بلقب "سيد مملكة القدس"، وهو يموت بعد ذلك بخمس سنوات حيث يسقط من إحدى نوافذ قلعة عكا. ويتعين على أرملته، إيزابيل، أن تتزوج من ملك قبرص، ايمري دو لوزينيان، الذي تنقل إليه حقوقها في تاج القدس. وعندما يختفي ايمري في عام ١٢٠٥، تئول وراثة المملكة إلى ماري دو مونفيرات، ابنة كونراد وإيزابيل، التي تتزوج في عام ١٢١٠ باروناً فرنسياً، هو يوحنا دو بريان الذي تعطيه التاج بهذا الزواج.

ومن هذا الزواج تولد يولنده دو بريان التي تتزوج في عام ١٢٢٥ فريدريك الثاني. وبالرغم من وعوده، سرعان ما يجرد الإمبراطور صهره من الملك ويعلن نفسه ملكاً على القدس، ثم، في عام ١٢٢٨، عند موت زوجته، وصياً على المملكة لصالح كونراد الرابع الحدث. وقد رأينا كيف أن الإمبراطور المحروم كنسياً، بسبب تسويفاته، يركب البحر في يونيو/ حزيران ١٢٢٨، على رأس أسطول صغير وبضع مئات من الرجال، مشكلاً نواة الحملة الصليبية السادسة. والحال أن فريدريك، عندما ينزل إلى قبرص، ومعتبراً الجزيرة إقطاعة تتبع الإمبراطورية، منذ أن كان والده هنريخ السادس قد منح التاج لآل لوزينيان، إنما يطالب بالوصاية على الملك الحدث، هنري الأول، ويصطدم بسلطة عائلة الإبلان التي كان أحد أفرادها، يوحنا، سيد بيروت، قد حصل على حق الإشراف على المملكة. ويتسنى تفادي حربٍ بين الأشقاء في آخر لحظة، وذلك بفضل تدخل الجمعيات العسكرية.

وعندما يصل الإمبراطور إلى عكا في ٧ سبتمبر/ أيلول ١٢٢٨، تعترف به النبالة الوصية على المملكة، باسم ابنه كونراد، وارث الحقوق الملكية من أمه المتوفاة. ولا يكتفي فريدريك الثاني بهذا الاعتراف. ففي ١٧ مارس/ أذار ١٢٢٩، يدخل القدس، و، بالرغم من عداوة البطريرك والجمعيات العسكرية، يلبس التاج في كاتدرائية القبر المقدس. وبعد ذلك بشهرين، يغادر عكا متجهاً إلى الغرب، وسط صخب شعبي حرّكه البطريرك والجمعيات العسكرية والإبلان. ولدى رحيله، يترك الإمبراطور وصيين، هما باليان، سيد صيدا، وجارنييه دالمان، الذي سرعان ما يحل محله أود دو مونفيرات؛ وفي قبرص، يدافع خمسة أوصياء، خصوم للإبلان، عن حقوق الإمبراطور. وينشب النزاع بين الأوصياء والنبلاء "الجيلفيين" [أعداء فريدريك الثاني]، منذ صيف ١٢٢٩.

ويستولي الإبلان على قبرص ويرغمون الأوصياء على الاستسلام. ويرد فريدريك الثاني على ذلك بإرسال أسطول تحت قيادة ريكاردو فيلانجيري، المُعيَّن مشرفاً على مملكة القدس ومندوباً للإمبراطور (خريف ١٢٣١). وتجري مصادرة أملاك الإبلان ويقوم الحزب الإمبراطوري بمحاصرة بيروت، التي يملكها خصومه. وفي عام ١٢٣٢، تصبح المملكة مقسّمة في واقع الأمر: ذلك أن فيلانجيري والقوات الإمبراطورية، بدعم من الجمعية التيوتيونية، تسيطر على إقطاعة صور والقدس؛ أمّا عكا، حيث يشكل الإبلان "كومينة"، وبقية الأراضي اللاتينية، فهي تئول إلى النبلاء "الجيلفيين"، المعادين لفريدريك الثاني. والمملكة لا ملك لها؛ لكن السلطة الفعلية تنتمي إلى الإبلان. وبالرغم من كل ما



الشكل ٣٩ - آسيا الصغرى عند صعود بيبرس (١٢٦١) المصدر : G. NAYEDED. أطروحة غير منشورة

يقدمه الإمبراطور من مقترحات للمصالحة، وبالرغم من تدخل البابا وكبير أساقفة رافينّا كوسيطين، فإن الوضع يظل متأزماً إلى عام ١٢٤١.

وفي ذلك التاريخ، يحاول فيلانجيري الاستيلاء على عكا، في غياب الإبلان. ويفشل الهجوم. وعندئذ يسارع الإمبراطور إلى إعلان بلوغ ابنه كونراد سن الرشد، آملاً بذلك حشد النبلاء حول ملك القدس وممثله الجديد في الأرض المقدسة، توماس داكينو، كونت آفيرسا. ويرد خصومه بانكار أي حق لفريدريك الثاني في الوصاية على المملكة: فهم يمنحون الوصاية لأليس، ملكة قبرص، التي تعهد إليهم بحماية الحصون الملكية، وينتزعون بالقوة مدينة صور من الحزب الإمبراطوري (١٠ يوليو/ تموز ١٢٤٢). وهذا الحدث ينهي سيطرة الإمبراطور على مملكة القدس التي تتحول إلى نظام حكم أوليجاركي، بعد أن صارت مملكة بلا ملك. والحال أن النبلاء "الجيلفيين"، المنتصرين على الحزب الإمبراطوري، إنما يصوغون النظرية الحقوقية التي تبرّر انتصارهم؛ ذلك أن أسيز القدس [مجموعة قوانين القدس]، التي صاغها يوحنا الإبلاني، تشكل الميثاق الرئيسي للنبلاء الإقطاعيين، المتحررين من السلطة الإمبراطورية. ومنذ ذلك الحين، تصبح الكورية العليا صاحبة الحق في تسمية الملك. وبما أن فريدريك الثاني غارق في النزاع مع البابوية، فإنه يفقد اهتمامه بمملكته السورية وبالحركة الصليبية، منذ اخفاقاته الأولى. غير أنه بممارسته جد الصارمة لحقوقه في الأرض المقدسة، كان قد ساعد على انقسام وإضعاف المملكة اللاتينية وبدد المكاسب التي كان قد حصل عليها بالديبلوماسية بأكثر مما بالحرب.

٢-٢٠ تدخل المغول

الموجة المغولية القادمة من أقاصي آسيا تجتاح آسيا الغربية وروسيا وأوروبا الوسطى، في ظل خلفاء جنكيز خان. وحركية وسرعة الفاتحين الرحل تعودان عليهم بسمعة أنهم لا يُقهرون؛ وأعمال التدمير التي يقومون بها تثير الرعب. وبعد فتحهم ترانسوكسيانا وخراسان في عامي ١٢١٩ و ١٢٢٠، يغزو المغول إيران في ١٢٣٠ ــ ١٢٣٣، ثم روسيا الوسطى وأوكرانيا (١٢٣٧ ــ ١٢٤٠) وبولندا والمجر (١٢٤١) ويصلون إلى مشارف البحر الأدرياتي. والحال أن موت الخان الكبير أوجوداي في عام ١٢٤٢ هو وحده الذي يؤدي إلى نجاة الغرب من الغزو الذي يُخشى من وقوعه. وفي العام التالي، يبيد مغول إيران الجيش السلجوقي في كوز داغ ويفرضون حماية على

الأناضول. ويعترف أرمن قيليقيا وأمير أنطاكية بتبعيتهم لجيرانهم الأقوياء. ومنذ ذلك الحين، تصبح العراق وسوريا والممتلكات الفرنجية مهدَّدَة.

وبعد مرحلة أولى ساد فيها الخوف، يتجه الغرب إلى الرد. وهو يحاول التعرف على هذا الشعب الجديد الذي يقال إنه يميل إلى المسيحيين، بحسب زعم العديدين من النساطرة الذين يحيون في الخانيات المغولية. وترسل إليه البابوية مبشرين ــ أشهرهم جيوفاني دي بلانو كاربيني وجيوم دو ريبروك ــ وتتطلع إلى عقد تحالف معه يُخضع الدول الإسلامية في الشرق الأدنى. واقتراب المغول من الأرض المقدسة يحيي لدى اليهود الأمل المسياني [الخلاصي]. وكثيرون من المسيحيين يرون في المغول بشيراً بمجئ خادم السر يوحنا، ذلك الملك الأسطوري لدولة مسيحية مستقرة، بحسب الأسطورة، جهة الشرق، وراء الممتلكات الإسلامية. ومن ثم فهناك فائدة في عقد صلات مع المغول الذين يبدو أن تعاطفاتهم مع المسيحيين مؤكدة. فهم وحدهم، باستيلائهم على أراضي الإسلام، يبدون قادرين على "إنجاز" الحركة الصليبية وتحرير القدس ومن ثم إراحة الدول الفرنجية في سوريا ــ فلسطين.

والواقع أن أهداف هولاكو، قائد جيوش الغرب المغولية، هي الاستيلاء على مجمل الشرق الأدنى. ففي عام ١٢٥٦، يدمر إمارة الحشاشين في ألموت؛ وبعد ذلك بعامين، يستولي على بغداد ويقتل الخليفة العباسي. وهو يضطلع من عام ١٢٥٨ إلى عام ١٢٦٠ بفتح أعالي بلاد الرافدين، ثم يغزو سوريا. فتسقط حلب ودمشق في يديه. ويجري تدمير الإمارات الأيوبية. فهل سوف يستفيد الفرنج من هذه النجاحات ؟ الواقع أنهم، لكونهم محصورين بين المغول والمماليك، سوف يتخذون موقف الانتظار والترقب، باستثناء أمير أنطاكية، بوهيموند السادس الذي، لكونه سار وراء الجيوش المغولية، سوف يعيد العبادة اللاتينية في أحد مساجد دمشق. على أن استدعاء هولاكو إلى آسيا الوسطى، على أثر موت الخان الأعظم، سوف يغير الوضع. فالسلطان المملوكي قطز يقترح على الفرنج حلفاً ضد المغول. وبعد ترددات كثيرة، يمتنع المسيحيون عن الدخول في حلف كهذا ويختارون الحل الأسوأ، ألا وهو الحياد. وفي سبتمبر/ أيلول ١٢٦٠، يهزم المماليك في عين جالوت القوات المغولية التي تأخذ منذ ذلك الحين في الانسحاب من سوريا ولا تبقى إلاّ في أعالي بلاد الرافدين. والحال أن الفرنج بامتناعهم عن الانحياز قد أضاعوا آخر فرصة لتعزيز مواقعهم.

على أن الصلات مع المغول لم تنقطع مع ذلك. فبعد عام ١٢٦٠، نجد أن ايلخانات فارس الذين يتعين عليهم أن يواجهوا في آن واحد منافسيهم من كيبتشاك (العشيرة الذهبية) ومماليك مصر الذين يرون فيهم المدمرين للخلافة العباسية، إنما يسعون إلى التعاون مع اللاتين. وإذ يرصدون الضعف العسكري لفرنج سوريا، الملاحقين من جانب السلطان بيبرس، فإنهم يتجهون إلى البابوية وإلى ملوك الغرب. وهكذا يرسل الايلخان أباغا (١٢٦٥ ــ ١٢٨٢) سفراء إلى كليمانس الرابع (١٢٦٧)، وإلى جاك الأول، ملك آراجون، كما إلى مجمع ليون في عام ١٢٧٤، لاقتراح حملة ضد العدو المشترك. ويجدّدُ الخان آرجون هذا الموقف عبر وساطة أحد النساطرة، مار يابالاها، الذى يزور روما وبلاطي فرنسا وإنجلترا. على أن الحملة المشتركة يسهل تصورها بأكثر مما يسهل تنفيذها. كما تحاول البابوية كسب الايلخانات إلى الدين المسيحي: فيجري ارسال مبشرين، كريكولدو دي مونتكروتشه، إلى تبريز وإيجاد هيراركية لاتينية في سلطانية.

بيد أن كل هذه المساعي لا تؤدي إلاّ إلى نتائج محدودة. والواقع أن الايلخان غازان (١٢٩٥ ــ ١٣٠٤) يتحول في عام ١٢٩٥ إلى اعتناق الإسلام ويحذو خلفاؤه حذوه. وعندئذ تتبدد العداوة بين المغول والمماليك شيئاً فشيئاً. كما أن سقوط الدول اللاتينية في سوريا ــ فلسطين يزيد من عدم رجحان تنظيم حملة بالاشتراك مع التتر.

٢-٣٠ مجتمع فرنجي بلا قائد ؟

أسهمت الانقسامات الداخلية بين كبريات الأسر والملكية ومختلف الفصائل البارونية والكومينات الإيطالية والجمعيات العسكرية إسهاماً كبيراً في زعزعة مملكة عكا وفي إضعافها في مواجهة صعود قوة المماليك.

٢-٣-١٠ السلطة الملكية

ضعف الملكية الفرنجية في الأرض المقدسة في القرن الثالث عشر هو من مسلمات الكتابة التاريخية عن الحملات الصليبية. وغياب الملك يشرط مجمل التنظيم السياسي والإداري لمملكة القدس الثانية. ويزعم فريدريك الثاني أنه الملك، في حين أنه ليس غير وصي خلال حداثة ابنه. وعندما يبلغ هذا الأخير سن الرشد، في عام ١٢٤٢ في نظر القانونيين الفريدريكيين، وفي عام ١٢٤٣ بحسب أعراف مملكة القدس، يمتنع عن المجيء لأخذ التاج، بما يسمح بازدهار حركة بارونية كان تعسف والده وممثليه قد ساعد على مولدها. وذلك بحيث إن كبرى عائلات المملكة، في سعيها إلى تبرير معارضتها للسلطة

الملكية وإعطاء مقاومتها أساساً قانونياً، تتجه إلى إعادة كتابة التاريخ. فأعمال التشريع الكبرى، أعمال فيليب دو نوفار ويوحنا الإبلاني خاصة، تحلل طبيعة السلطة الملكية وحقوق وواجبات السادة، وبنية علاقات التبعية، وذلك في اتجاه مسوّات لمصالح أولئك الذين يريدون الاستعاضة عن الملَكية الإقطاعية الموروثة من تراث القرن الثاني عشر بجمهورية إقطاعية تفسح المجال أمام أفراد الأرستقراطية الأكثر بروزاً.

ومن ثم لا يجب أن نأخذ حرفياً مثل تلك الأبحاث التي تعبر عن أطماع الأكابر بأكثر مما تعبر عن واقع علاقات القوى. والحال أن " كتاب الملك "، المكتوب في بداية القرن الثالث عشر، حين كانت السلطة الملكية ما تزال تتمتع بقوام معين، وهو كتاب عرف إعادة نشر جيدة، لا شك أنه، بشهادة المواثيق ومدونات الأخبار، أكثر قرباً من واقع سياسي سوف يؤدي غياب كل سلطة ملكية فعلية اعتباراً من عام ١٢٢٩ إلى تحويله بصورة عميقة. وهذه التحولات هي ما نقترح رصده في مملكة القدس وحدها، وذلك بقدر ما أن مصير إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس، تحت قيادة أمراء ال بوهيموند الأنطاكيين ـ الطرابلسيين، إنما تطرح مشكلات مختلفة تماماً. وتكمن في قلب هذه التحولات العلاقات بين الملَكية والنبلاء والتي أفرزت نتاجاً وفيراً من الكتابات التاريخية سوف نستحضره، في سياق كلامنا، دون أن ننسى أن الساحة المكانية التي تدور فيها هذه العلاقات، وهي ساحة تنحسر باطراد، إنما تشرطها: فبعد ضياع القدس النهائي في عام ١٢٤٤، تقتصر المملكة على شريط ساحلي ضيق، بل وعلى بضع مدن في العقد الأخير لوجود هذه المملكة.

كيف يمكن تعريف السلطة الملكية في مستهل القرن الثالث عشر ؟ إن النموذج، كما أشير إلى ذلك مرات كثيرة، إنما يجئ من الغرب وبالأخص من فرنسا ال كابيه التي جاءت منها غالبية الفاتحين في عام ١٠٩٩. لكن المصطلحات تُدخل فارقاً أولياً: ففي الأرض المقدسة، سوف يدور الحديث عن الـ " rei " [الملك] بدرجة أقل من دورانه عن " السيد الرئيسي "، للإشارة إلى أن الملك هو رأس الهرم الإقطاعي وإلى أن شبكة العلاقات والتبعيات الإقطاعية تشكل البنية الداعمة للمملكة. وإذا كان مبدأ الانتخاب، الذي أشار إليه كبار حقوقيي القرن الثالث عشر لاختزال ثقل السلطة الملكية منذ البداية، يتلاشى أمام مبدأ الوراثة، حتى في ذروة النزاع بين البارونات وآل هوهنشتاوفن، إلاّ أن ذلك لا يقلل من واقع أن التتويج في القدس، والمرتبط بحلف اليمين، إنما يجدد العقد الاجتماعي بين الملك والأكابر. والواقع أن الملك يتعهد باحترام ممتلكات وحقوق الكنيسة وامتيازات

رجال الدين وقوانين المملكة والأعراف، وهو ما يعني تثبيت الاقطاعات لصالح أتباع التاج. وبذا يصبح التتويج عقداً ثنائياً بين الملك والنبلاء. وأن يقوم ريكاردو فيلانجيري، مندوب فريدريك الثاني في المملكة، بالاستيلاء على بيروت، وهي إقطاعة يوحنا الإبلاني، فإن ذلك إنما يعد في نظر البارونات خرقاً للعقد، وهو عقد كانت أحداث قبرص قد أساءت إليه بالفعل إلى حدّ ما.

وبما أن الملك عاهل ذو سيادة، فإنه يلعب دوراً تشريعياً بتصديقه على " القوانين " المناقشة أمام الكورية العليا، ويحمي الكنيسة ويدعو إلى الاستنفار العام ويقود الجيش — وتلك حالة فريدريك الثاني في زحفه على يافا، حتى وإن كانت قوات الجمعيات العسكرية قد سارت آنذاك في طريق مواز سعياً إلى تفادي الاختلاط بقوات ملك محروم كنسياً. وهو يتمتع بحقوقٍ مَلَكيةٍ يُعَرّفها فصلٌ من " كتاب المِلك "، حيث يجري تعريف إحدى عشرة حالة يمكن فيها تجريد أحد الأتباع من ملكية إقطاعته بأمر من الملك، وذلك دون " مراعاة أي شيء "، أي دون شرط اعتراف الكورية العليا، وهي الساحة التي تعد بإمتياز ميدان ممارسة سيادة الملك وسيادة الإقطاعيين، حيث تتفوق الأخيرة على الأولى منذ أواخر القرن الثاني عشر.

٢-٣-٢ . الكورية العليا

الواقع أن الكورية العليا، المشكّلة وفق نموذج الكورية الملكية الفرنسي، إنما تصبح الجهاز الرئيسي للحكم، حيث يتحول واجب التابع في تقديم العون والمشورة إلى إمتياز. وهذه الكورية، ذات التكوين الإقطاعي أساساً، تجمع أفراد كبار النبلاء وحائزي البارونيات والأتباع المباشرين لزمامات التاج والأساقفة وأساتذة الجمعيات العسكرية وممثلي الكومينات الإيطالية. ثم إن الأسيز بصدد دورية خدمة الأتباع العسكرية، والتي تجعل في عام ١١٦٥ من جميع أصحاب الإقطاعات أتباعاً، ملزمين بخدمة الملك والولاء له، إنما تدخل هؤلاء في الكورية العليا. ومن الناحية العملية، تظل هذه الكورية تحت سيطرة كبار النبلاء الذين يتمكنون من تحويل الأسيز بصدد دورية خدمة الأتباع العسكرية عن هدفها الأصلي: فبدلاً من تعزيز السلطة الملكية بربط أتباع الملك الخلفيين به ربطاً مباشراً، يجري استخدام نص الأسيز ضد التاج، بإرغام الملك على الرجوع إلى الكورية العليا في كل ما يمس الاقطاعات، فمنذ ذلك الحين يتطلب كل تجريد لأحد الأتباع من ملكيته صدور حكم من الكورية، كما يتمتع الأتباع بامكانات مقاومة الملك والامتناع عن خدمته إذا امتنع عن نقل خلاف إلى الكورية العليا لتنظر فيه. وقد رأينا ذلك في عام

١٢٢٩، عندما قام يوحنا من بيروت وجيوم من قيسارية ويوحنا من يافا، المهدَّدون بتجريدهم من ممتلكاتهم من جانب المشرف الملكي، باليان الصيداوي، باستنفار زملائهم مستخدمين الأسيز بصدد دورية خدمة الأتباع العسكرية، ثم، مرة ثانية، بالقيام بـ "انسحاب من الخدمة"، بمناسبة النزاع على ملكية إقطاعة تورون [تبنين] والقلعة الجديدة [هونين]. وينصاع فريدريك الثاني، وإن كان يضمر الانتقام. وهكذا، ففي الثلث الأول من القرن الثالث عشر، تنتزع الكورية العليا لنفسها سلطة تحكيم، وتكتسب حق النظر في جميع القضايا الإقطاعية وتمارس سلطة مدنية وجزائية على نبلاء المملكة، و، في المجال التشريعي، تتخذ قرارات تشكل مصدراً للقانون. وخلافاً لما يحدث في الغرب، فإنها ليست مجزّأة في أجهزة متمايزة، للمالية أو للعدل. بل تظل موحَّدةً، مؤكدة بذلك حقوق وتلاحم كبار النبلاء في وجه الملك.

وقد زادت هذه الحقوق تعززاً بقدر ما أن بارونات المملكة لا يجدون أمامهم بعد عام ١٢٢٩ غير ممثل الملك الغائب، حائز الإشراف على المملكة. فهناك موقفان ممكنان: يمكن تفويض السلطة لوصي، في حالة حداثة وارث العرش، أو لمساعد، خلال الغياب المؤقت للملك أو لمشرفه. وهكذا فإن أود دو مونبليار هو المشرف على المملكة لحساب إيزابيل دو بريان من عام ١٢٢٥ إلى عام ١٢٢٦، ثم الوصي بالاشتراك مع باليان الإبلاني الصيداوي، إلى حين وصول فريدريك الثاني إلى عكا. وخلافاً لما يعلنه يوحنا الإبلاني الذي ينكر كل سلطة قانونية للمشرف الإمبراطوري، فإن هذا الأخير لا يبقى بعد عام ١٢٣١ مشرفاً على المملكة "على أساس السيادة"، لأن الإمبراطور ـ الملك يعهد بالوظيفة إلى ريكاردو فيلانجيري، بل هو فقط مساعد للمشرف في عكا. والوصي الذي يدخل الخدمة يجب أن يؤدي يمين صون حقوق الحدث والمملكة والهبات التي سبق تقديمها للأتباع والعادات والأعراف والقوانين الصالحة. وإذا كان يتمتع شخصياً بالإيرادات والخدمات واجبة الأداء للتاج، إلاّ أنه ليس مسئولاً عن حماية الحصون الملكية التي تسهر عليها الكورية العليا، أمّا الامتيازات التي يمكنه منحها في الزمام الملكي فلا تتجاوز مدتها مدة الوصاية. وعندما يبلغ وارث المملكة سن الرشد، لا تملك قرارات الوصي من قيمة إلاّ إذا صدّق عليها الوارث. وأخيراً، فإن إدارة الوصي للأمور إنما تعني تعاوناً وثيقاً مع الكورية العليا؛ فهو يعقدها ويرأسها، ويتعين عليه أن يقدم إليها للمناقشة نصوص المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية، وعلى ما يبدو، الاتفاقات الأكثر

محدودية، كالاتفاق الذي ينظم في عام ١٢٥٨ العلاقات فيما بين الجمعيات العسكرية الكبرى الثلاث في عكا، في نهاية حرب سان ساباس.

٢-٣-٣٠ كبار الضباط

في مواجهة الكورية العليا، وفي مواجهة الوصي، نجد أن كبار ضباط التاج، الذين يجري تعيينهم أصلاً وفق نموذج فرنسا آل كابيه، لا يملكون غير نفوذ محدود. والملك أو مشرفهُ يعيّنُ في هذه المناصب من يشاء، ولا نملك مثالاً على تدخل الكورية العليا في هذه التعيينات، والتي لا يتطلع النبلاء أيضاً إليها استناداً إلى حق وراثي. ويمارس السينيشال صدارة شرفية، بقدر ما أن بوسعه ترأس الكورية العليا في غياب الملك، وهو يدير السيكريت [الديوان] الذي يجمع الإيرادات الملكية. أمّا الكونيتابل، من حيث كونه قائد الجيش في بلد في حالة حرب شبه دائمة، فهو يسهر على تجنيد وتجهيز القوات بمساعدة الماريشال، المسئول بشكل أخص عن سلاح الفرسان وتوزيع الغنائم. وأمّا الحاجب فهو مسئول عن "بيت الملك". أمّا فيما يتعلق بالمستشارية، التي يُعهَدُ بها عموماً إلى أحد الأساقفة، فلا يبدو أنها تتمتع بنفوذ كبير على سياسة المملكة، إلاّ أننا ننتظر الكثير من الدراسة التي يقوم بها هـ . أ . ماير لتحديد ما إذا كانت للمستشار وظائف أخرى غير مسك السجل الملكي والاحتفاظ بالأرشيفات. والخلاصة أن المؤسسات المركزية للمملكة لا تعرف التطور الذي عرفته في دول الغرب. و"تحجرها" يتباين عن حيوية المؤسسات المحلية، على مستوى البارونيات والإقطاعات.

٢-٣-٤٠ البنية الإقطاعية

الواقع أن شبكة من الإقطاعات تحتوي مجمل المملكة. إلاّ أنه، قياساً إلى القرن الثاني عشر، إذا كانت خدمات الأتباع التي وصفها يوحنا الإبلاني تظل شديدة الوطأة، فإن البنية الإقطاعية قد تطورت كثيراً، أساساً بسبب المساحة المختزلة باطراد والتي تحوزها المملكة. فالخسائر الترابية وعدم كفاية الموارد والصفقات التجارية قد فككت البارونيات والإقطاعات الكبيرة، التي تصبح منذ ذلك الحين عاجزةً عن صون الحصون وأداء الخدمات. وإذ يجد الأتباع أنفسهم محرومين من الأراضي، فإنهم يصبحون أجراء حرب. والعائلات الكبيرة التي عرفها القرن الثاني عشر تزداد تآكلاً أو تختفي ولا يحل محلها غير القليل من العائلات الجديدة. ولم يتمكن النبلاء من النضال ضد السلطة الملكية في

زمن فريدريك الثاني إلاّ بفضل إقطاعاتهم في قبرص، وليس بسبب مواردهم من الأرض المقدسة والتي تتآكل كالجلد المحبب.

وبالرغم من كل شيء، فغالباً ما جرى رصد المستوى الكبير للاستقلال الذي وصلت إليه أهم إقطاعات المملكة. فهذه الإقطاعات تتمتع بحقوق "الكورية وسك العملة والقضاء". ويجب أن نفهم من ذلك أن كل إقطاعة كانت لها كورية إقطاعية، تتألف من أتباعها هي، وتعيد على المستوى المحلي إنتاج الكورية العليا للمملكة. ومن شأن خاتم من الرصاص أن يسمح لها بالتصديق على قراراتها، وكل إقطاعة تمارس حق القضاء حيال رعاياها، أكان ذلك عن طريق الكورية الإقطاعية إذا كان الأمر يتعلق بالجماعات السكانية الأصلية الخاضعة، أم عن طريق كورية البورجوازيين، بالنسبة للفرنج من غير النبلاء. ووفقاً ليوحنا الإبلاني، كان في المملكة في القرن الثالث عشر اثنتان وعشرون كورية إقطاعية وسبع وثلاثون كورية للبورجوازيين. إلاّ أنه بما أنه كان لابد من وجود كورية للبورجوازيين في كل مدينة أو قرية تسكنها جماعة سكانية فرنجية، فمن المرجح أن عدد هذه الكوريات لابد أنه كان أعلى من ذلك: إذ يشار في وثائق القرن الثالث عشر إلى اثنتين وأربعين كورية على الأقل. وكانت كل واحدة منها تتألف من اثني عشر محلّفاً، يرأسهم "فيكونت"، وهو موظف يحصل على راتب ويتبع السيد المحلي. وعلاوة على ذلك، كانت محاكم للأهالي، تحت سلطة رئيس، تهتم بالفصل في الخلافات بين "السوريين"، وقد جرى استيعابها في تاريخ غير محدد في "كوريات الفوند" أو محاكم [غرف] السوق الموجودة في كل تجمع سكاني.

وهذه البنى المنشأة خلال القرن الثاني عشر، أو ــ فيما يتعلق بالمحاكم القروية ــ الموروثة من ممارسات قديمة، سوف تعرف بعض التحولات في القرن الثالث عشر. وذلك، كما أثبت ذلك س. تيبل، بقدر ما أن كبرى الإقطاعات سوف تعاني من تآكل سريع بانتقال جزء كبير من الأراضي والحصون إلى المسلمين عن طريق الفتح أو إلى الجمعيات العسكرية عن طريق التنازل. وفي ظل فريدريك الثاني، لا يحوز سادة قيسارية بعدُ غير خُمس زمامهم الأصلي وحصن وحيد من الحصون العشرة التي كانوا يحوزونها في أواخر القرن الثاني عشر؛ أمّا أمراء الجليل، الذين كانوا يملكون أقوى الإقطاعات من الناحية الظاهرية، فقد أضطروا إلى التنازل عن غالبية ممتلكاتهم للملك وللجمعيات العسكرية؛ وقد حافظ سادة أرسوف وصيدا على مواقعهم حتى عام ١٢٦٠، وهو الزمن الذي تنتقل فيه صيدا ــ بوفور [شقيف أرنون] إلى الهيكليين، بينما تنتقل أرسوف إلى

الأوسبتاليين. ويمكننا تصور أن صاحب الإقطاعة هو الذي يتغير، دون أن يمس البنية الإدارية والقضائية [الإقطاعية] تغيرٌ أساسي.

٢-٣-٥، النبلاء والملَكية

التغيرات الأساسية في تنظيم المملكة أدخلها الصراع الطويل بين فريدريك الثاني ومشرفه من جهة والفصيل الباروني من جهة أخرى، وهو صراع يجب الآن تحليل آثاره. إن الخلاف، الذي نشأ في قبرص، إنما يتطور في خريف ١٢٣١ مع وصول الجيش الإمبراطوري تحت قيادة المشرف الذي عينه الإمبراطور، وهو ريكاردو فيلانجيري. والحال أن هذا الأخير، حتى قبل أن يؤدي اليمين، بحسب أعراف المملكة، يبدأ بالاستيلاء على مدينة بيروت، إقطاعة يوحنا الإبلاني، زعيم المعارضة البارونية المعترف به. ثم يتجه إلى عكا حيث يقوم، بدلاً من عقد الكورية العليا والحصول على الاعتراف به كمشرف ملكي، بعقد اجتماع استثنائي للفرسان والبورجوازيين، معطياً بذلك الانطباع بأنه يريد الاستغناء عن رضاء الأكابر لكي يحصل على دعم شعبي. وهو يعلن أنه يريد "صون القانون والعدالة ورعاية الكبار والصغار والأغنياء والفقراء بما يتماشى مع متطلبات العدل"، مع إعلانه أنه "مستعد للاعتماد في تصرفاته على مشورة حكماء البلد". وهو كلام مشجع، لكنه لا يقنع لا النبلاء ولا المشرف الملكي حائز اللقب قبل وصول فيلانجيري، وهو باليان الصيداوي الذي يُذكّرُ بالأصل الشعبي للمملكة (انتخاب الملك من جانب فاتحي عام ١٠٩٩)، وحرمة القوانين والأعراف التي انتهكها فريدريك الثاني للتو، والعقد الاجتماعي الذي يربط الملك بالشعب من خلال يمين التتويج. والحال أن امتناع فيلانجيري عن رفع الحصار عن قلعة بيروت وعن نقل الخلاف إلى الكورية العليا إنما يجر إلى القطيعة وإلى تطورٍ مؤسسي مشحونٍ بالعواقب بالنسبة للمملكة.

فبما أن الكورية العليا لا تملك الانعقاد إلاّ بحضور ممثل الإمبراطور أو المشرف الملكي القائم، والذي يتردد في الانضمام إلى الفصيل المتطرف من البارونات، فإن هؤلاء الأخيرين يختارون هيكلاً آخر للمقاومة يمكنه أن يضم إلى حركتهم جميع الطبقات الاجتماعية في المملكة. فهم يدخلون عبر أداء اليمين في أخوية سانت أندريه التي كان الملك هنري دو شامبانيا قد منحها لائحة تجيز الدخول لكل فرد، أياً كانت مرتبته في المجتمع. وهذه الـ *conjuratio* [العصبة المتآمرة] ليست بحالٍ كومينة بالمعنى الغربي للمصطلح: فالواقع أنها لا تهدف إلاّ إلى تكوين جبهة متحدة من النبلاء و"البورجوازيين"

في مواجهة خطر خارجي تمثله القوات الإمبراطورية وكفالة سلامة كل واحد عبر التحالف المتبادل وليس إنشاء حريات ومؤسسات معارضة للسلطة الملكية في إطار حضري. وهي أساس *universitas* [جماعة كلية] لها خاتم وأجراس و " قناصل وقادة "، وعمدة، هو يوحنا البيروتي. وسوف تمثل، بحسب كلام ي. براور، كياناً مزوداً بشخصية قانونية ويحل محل الكورية العليا، التي يستحيل عقدها بعد عام ١٢٣١.

ألا يُعَدُّ هذا التفسير مفرط السخاء مع الأيديولوجية البارونية التي عبر عنها فيليب النوفاري أو يوحنا الإبلاني؟ فواقع الأمر أن من الواضح أن الكورية العليا قد قبلت ريكاردو فيلانجيري كمشرف، وذلك بالرغم من حصاره بيروت؛ وأن اجتماعات الكورية العليا، من جهة أخرى، إنما تتم بين عامي ١٢٣٢ و ١٢٤٢. وألا يكتب يوحنا الإبلاني نفسه في عام ١٢٣٢ إلى الأتباع المجتمعين في الكورية العليا طالباً إليهم معارضة رفع اليد عن بيروت ؟ الواقع أنه إذا كانت اجتماعات الجهاز الرئيسي للحكم جد نادرة، فإن ذلك إنما يرجع إلى حقيقة أن فريقاً من الأتباع قد انضم إلى المعسكر الإمبراطوري في صور، وأن فريقاً آخر، أوفر عدداً بالتأكيد، قد هب لمساعدة يوحنا الإبلاني، عندما دخل عكا وصار عمدة لـ " الكومينة ". وهذه الأخيرة ليست غير أداة لمقاومة " الحزب الإمبراطوري "، ولم تمارس الحكم بحال من الأحوال كما لم تحلّ محل الإشراف الإمبراطوري الذي واصل فيلانجيري ممارسته إلى عام ١٢٤٢.

وفي ذلك التاريخ، نجد أن الأحداث الدرامية التي تتسبب في انتهاء كل تدخل نشيط من جانب ال شتاوفن في المملكة، كانت هي بدورها مولدة لتغيرات دستورية عميقة. وقد تتبع سيرها د. ياكوني الذي حدد أولاً تسلسلها الزمني: حيث تبدأ في عام ١٢٤٢، وليس في عام ١٢٤٣، كما تثبت ذلك المقابلة بين مذكرات فيليب النوفاري وتقرير البايل البندقي مارسيليو زورزي ومدونة الأخبار التي حررها ريكاردو دي سان جيرمانو. ففي يونيو / حزيران ١٢٤١، وجّه البارونات المعارضون للإمبراطور رسالة موسومة بنبرة المصالحة إلى ريتشارد من كورنويل، طالبين منه التوسط لدى فريدريك الثاني مقترحين قيام الأخير بسحب ريكاردو فيلانجيري في مقابل إعلان خضوعهم للإمبراطور. على أن الإمبراطور لا يرد عليهم، لكن مشرفه يحاول في أكتوبر/ تشرين الاستفادة من غياب الإبلان لكي يستولي على عكا بتواطؤ مع الأوسبتاليين. وهو يفشل حيال المقاومة التي يبديها فيليب دو مونفيرات الذي يؤازره الجنويون والبنادقة. ويؤدي هذا الحادث إلى مفاقمة عداوة البارونات للإمبراطور.

وعندما يقوم هذا الأخير عبر مناورة خرقاء بإعلان بلوغ كونراد [ابنـــه] ســن الرشــد وإرسال ممثل إلى الأرض المقدسة، هو توماس داكينو، كونت آفيرسا، يرى نبلاء المملكــة أنهم لا تربطهم أية صلة بفريدريك الثاني، الذي يفقد، بحكـــم " كتــاب الملِـك "، صفتــه كوصي، ولا بمشرفه، الذي لم يعد بوسعه، بحكم هذا الواقع نفسه، أن يمارس الإشــــراف. ويتصرف النبلاء بسرعة حتى يسدوا الفراغ المؤسسي، قبل وصول توماس داكينو. ففـــي ٥ يونيو/ حزيران ١٢٤٢، يجتمع الأتباع في عكا، حيث يعترفون بكونراد حاكماً شـــرعياً للمملكة، لكنهم يحرمونه من كل سلطة قبل مجيئه إلى القدس، وهو ما ينطبق أيضـــاً علــى ممثله. وعندئذ يتفاوض فيليب النوفاري مع أليس، ملكة قبرص، أقرب الأقارب إلى الشــاب من آل هوهنشتاوفن [أي كونراد]، ويعرضون عليها الوصاية بوصفها " الوريث الشـــرعي الأحق بالمطالبة [بالوصاية] في الكورية ". وهكذا، وبما يشــكل ابتكـاراً مــهماً، يجــري انتخاب وصية على ملك غائب وغير متوج، وبعد أن بلغ سن الرشـــد. وفـــي الأسابيـــع التالية، يخوض البارونات حملة تستولي على صور وتجبر القوات الإمبراطوريـــة علــى الرحيل بحراً إلى إيطاليا. لكنهم يحتفظون لأنفسهم بفتوحاتهم ويحرمون الوصية من حمايــة الحصون الملكية، وإن كانوا يفرضون عليها، بالتأكيد، إلغاء جميع الامتيازات التي قدمـــها فريدريك الثاني بوصفه وصياً، وإلغاء تعيينات الأشخاص غير المرغوب فيـــهم. ومســـتنداً إلى هذه السابقة، سوف يُذكّرُ يوحنا الإبلاني ــ اليافاوي مرتيــــن، فـــي ١٢٥٨ ــ ١٢٥٩ وفي ١٢٦٥ ــ ١٢٦٦، بأن حماية الحصون الملكية، في وقت الوصايـــــة، إنمـــا تخــص الكورية العليا لا الوصي. وهي طريقة لإعطاء أساس قانوني للتلاعب بـــالعرف، اســـتناداً إلى تقليدٍ حديث.

وكانت لأحداث عام ١٢٤٢ عواقب أخرى: اختفاء " كومينة " عكا وتجديـــد الكوريــة العليا. فـــ " كومينة " عكا التي لم يعـــد لـــها مـــبرر للوجـــود كـــأداة لمقاومـــة الحـــزب الإمبراطوري، إنما تجد نفسها مفرغة من جوهرها بانسحاب النبلاء الذين كـــانوا مصـــدر حياتها حتى ذلك الحين. وهي تصبح من جديد أخوية سانت أندريه التـــي يـــتردد عليـــها "بورجوازيو" عكا شأنها شأن أخوية الروح القدس التي تأسســـت فـــي عـــام ١٢١٢ وورد ذكرها في عدة مناسبات في الحياة السياسية اللاحقة للمملكة.

وذلك لأنه يتزامن في الواقع مع اختفاء الكومينة تجديدٌ لحيوية الكوريـــة العليـــا، التـــي سرعان ما سوف تغير من طابعها. فالواقع أن تكوينها يتغير، فهي لم تعد إقطاعية بشـــكل حصري. ففي عام ١٢٤٢، نجد أن ممثلي الكومينات الإيطالية وممثلي أبـــرز الأخويـــات

و"بورجوازيي" عكا قد استُدعوا إلى الجلسة التي انتخبت ملكة قبرص وصيةً. إلاّ أنهم كانوا قد استبعِدوا من المناقشات ولم يكن بوسعهم سوى أن يعطوا تأييداً ضمنياً للخيار الذي قرره الأتباع. أمّا في الأعوام التالية، فإن دورهم، خلافاً لذلك، سوف يعرف تزايداً. ففي عام ١٢٦٤، يقبل غير النبلاء تسمية هيج الأنطاكي ـ القدسي وصياً، وسوف يصبح فيما بعد ملكاً على قبرص (هيج الثالث)، وذلك قبل أن يتجه الأتباع إلى الانتخاب بالسبل التقليدية. وفي تلك المناسبة، يُشار إلى حضور الأخويات اجتماع الكورية العليا: وبوصف هذه الأخويات ممثلة لـ " البورجوازيين "، فإنها تؤدي يمين الولاء للمشرف الملكي. وفي عام ١٢٧٦، نجد أن " البرلمان " ـ أي الكورية العليا ـ والذي يضم الأتباع والأساقفة والجمعيات العسكرية والكومينات الإيطالية والأخويات الممثلة للـ "بورجوازيين"، يناشد هيج الثالث ألاّ يعود إلى قبرص. والحال أن توسيع الكورية العليا لتشمل فئات اجتماعية جديدة والاعتراف بتشكل غير النبلاء ("البورجوازيين" الفرنج) في قوة تمثلها الأخويات، لا يفعلان سوى ترجمة تآكل النبلاء وصعود قوى جديدة مدعوة بشكل متأخر جداً إلى حماية مملكةٍ آخذة في الاحتضار.

ويكمن تطور العلاقات بين المَلَكية والنبلاء في قلب التحولات المؤسسية التي عرفتها مملكة القدس في القرن الثالث عشر. وإذا ما ماشينا كبار الحقوقيين، أصحاب بحوث القانون في منتصف القرن الثالث عشر، فسوف يكون من الوارد أن نصدق أن المملكة قد عرفت " إقطاعية خالصة "، حيث لا يُعَدُّ الملك غير الـ *primus inter pares* [الأول بين أنداد]، وحيث يمارس أنشط النبلاء بفضل الكورية العليا سيطرةً فعليةً على مَلَكية شاحبة وعلى مشرفٍ ممثلٍ لملكٍ غائب. وهذا هو ما يكرره لامونت في أطروحة لم تعد اليوم مقبولة. فقد شدد جان ريشار وي. براور محقين على قوة الملكية، حتى في القرن الثالث عشر، لأن البارونات قد اعترفوا بسلطة كونراد الشرعية، برغم ثقتهم من أنه لن يجيئ ليمارسها، كما شدّدا على الطبيعة الدينامية للمجتمع الإقطاعي حيث تنشأ إعادات تكوين، تتميز فيها حدود المعسكرات المختارة بانعدام الثبات غالباً. إلاّ أنه ربما لو درسنا المجريات الواقعية الاقتصادية الملموسة التي تدعم قوى النبلاء في القرن الثالث عشر لوجدنا أن هذه القوى قد بولغ فيها إلى حد بعيد. فالملك الغائب يشيع الإحساس بثقل سلطته من خلال ممثله. والامتيازات التي يقدمها في الأراضي إلى جانب الامتيازات الأخرى إنما تعدل خارطة الاقطاعات. وحتى بعد عام ١٢٤٢، يظل بوسع كونراد إجراء تعيينات أو تثبيتها. والأسرة المالكة، بالرغم من عدم تتويجها، تظل معترفاً بها بالكامل حتى إعدام

كونراادان في أحد ميادين نابولي. وبعد آل شتاوفن، هل يظل من الممكن الحديث عن تنظيم سياسي وإداري، في حين أن الملك هو أولاً ملك قبرص قبل أن يكون ملك القدس وأن الأراضي الفرنجية لا تزيد عن بضعة جيوب ساحلية ؟ بأكثر من غياب الملك، نجد أن الضعف العددي للفرنج المتروكين بلا غوث من الغرب في مواجهة القوة المملوكية هو السبب الحقيقي لانهيار مملكة لا يهتم بها فريدريك الثاني إلاّ لأجل هالة المجد التي يتصور أنها ستحيط به من جراء هذا الاهتمام.

٢-٤ • نهاية المملكة

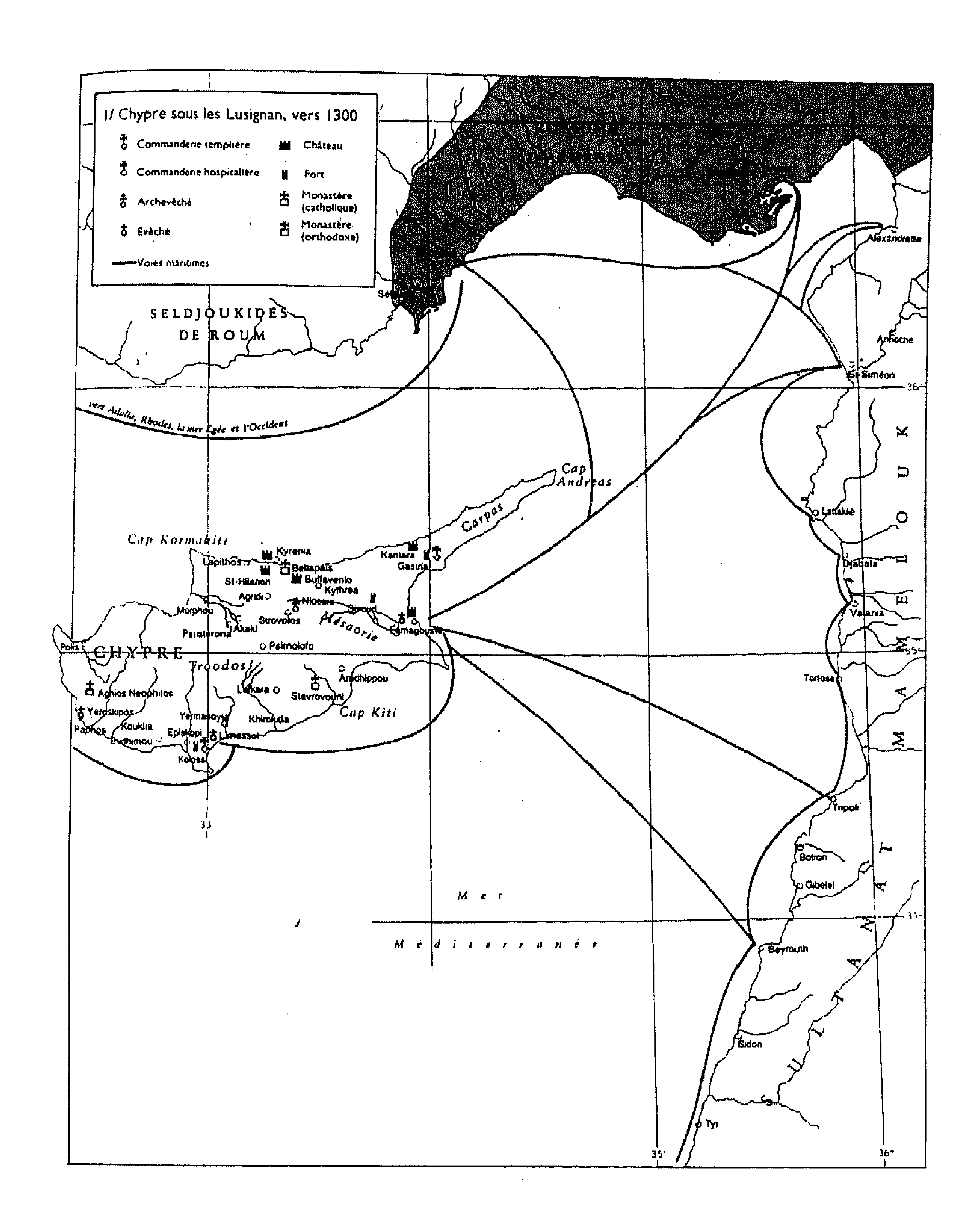
إعتباراً من عام ١٢٤٣، تاريخ بلوغ كونراد الرابع سن الرشد، نجد أن البارونات الفرنج، وقد أدركوا أن الملك الشرعي لن يجئ لتولي ملكية مملكته، سوف يعهدون بالسلطة إلى الوريث الأقرب للتاج والمسمى بـ "سيد المملكة"؛ أولاً أليس القبرصية، ابنة هنري دو شامبانيا، ثم ابنها هنري الأول، الذي تخلفه أرملته بليزانس الأنطاكية، ثم ابنها هيج الثاني. ولدى موت كونرادان [ابن كونراد الرابع]، الذي أعدم في أحد أسواق نابولي في عام ١٢٦٨، تتلاشى حقوق ال هوهنشتاوفن في المملكة. وعندئذ تقوم الكورية العليا، التي تسيطر عليها كبرى العائلات الاقطاعية (ال إبلان وأل مونفور) باختيار هيج الثالث الانطاكي ــ اللوزينياني ملكاً، وذلك بالرغم من معارضة ماري الأنطاكية، عمته (١٢٦٩). وبعد ذلك بسبع سنوات، ومن جراء اصطدام هيج الثالث بكبريات عائلات المملكة والهيكليين وبالإيطاليين، يرحل عن الوطن ويرجع إلى قبرص. وفي عام ١٢٧٧، تقوم ماري الأنطاكية، بتحريض من البابوية، ببيع حقوقها لشارل دانجو، الذي يرى فيه البابا أفضل دعامة للأرض المقدسة. وذلك بشكل يترتب عليه بين عامي ١٢٧٧ و١٢٨٦ تنازع قوتين متنافستين على مملكة القدس: فمن جهة، نجد الأنجويين الذين يمثلهم نائب في عكا، ومن الجهة الأخرى، نجد ملوك قبرص، هيج الثالث ثم يوحنا ثم هنري الثاني، الذين يظلون سادة لصور وبيروت. ويؤدي موت شارل دانجو إلى ترك العرش للوزينيانيين، لكن الوقت يصبح متأخراً جداً بالنسبة للتغلب على النزاعات بين الفصائل المتنافسة ولتنظيم الدفاع عن المملكة، وذلك بقدر ما أن بارونات قبرص الفرنج يرفضون أن يخدم ملكهم في الأرض المقدسة أكثر من أربعة أشهر في السنة. وفي ٤ أبريل/ نيسان ١٢٩١، تجتاح قوات الملك الأشرف خليل المملوكية عكا التي تقاوم لمدة ستة أسابيع، لكنها تسقط في ١٨ مايو/ ايار ١٢٩١، بعد مقاومة بطولية من جانب الحامية.

٣ . قبرص

هذه الجزيرة التي تملكها بيزنطة ويقودها غاصب، هو "الإمبراطور" إسحق كومنينوس، يفتحها ريتشارد قلب الأسد في مايو/ آيار ١١٩١. ويسلمها ملك إنجلترا إلى الهيكليين ثم إلى جي دو لوزينيان، وهو بارون من بواتو، يجري تعويضه بذلك عن ضياع حقوقه في تاج القدس. ومن عام ١١٩٢ إلى عام ١٤٨٩، تبقى قبرص في أيدي أسرة لوزينيان المالكة. وفي عام ١١٩٧، يتلقى إيمري، شقيق وخليفة جي، تاج المُلك من يدي مستشار الإمبراطور الجرماني هنريخ السادس، ويعترف بالتبعية للإمبراطورية. وهو يحقق في شخصه اتحاد مملكتي قبرص والقدس، لكنه يحتفظ في كل منهما بإدارة منفصلة. وعن طريق المصاهرات أو مَنح الإقطاعات، تحوز عائلات اقطاعية عديدة من الأرض المقدسة ممتلكات في قبرص. وتتميز بين هذه العائلات عشيرة الإبلان البارونية التي تمارس وصايتها على حكم الجزيرة، مستفيدة من حداثة سن الملك هنري الأول. ويسهم ملوك وسادة قبرص في الدفاع عن الأرض المقدسة بمشاركتهم في حملات هنريخ السادس (١١٩٧) وأندراش الثاني، ملك المجر، (١٢١٧) ويوحنا دو بريان في دمياط (١٢١٩) وأخيراً القديس لويس (١٢٤٩).

وفي عام ١٢٢٨، يقوم فريدريك الثاني، وهو في طريقه إلى فلسطين، باستعادة السيادة الإمبراطورية في قبرص؛ وهو يرغم الإبلان على أن يسلموا إليه الملك الحدث هنري الأول وأربعة حصون قوية. ومنذ رحيله، تغرق الجزيرة في الحرب الأهلية بين الإبلان والبارونات من ناحية والحزب الإمبراطوري من ناحية أخرى، حيث تلحق الهزيمة بهذا الحزب أخيراً في عام ١٢٣٣. وبعد خلع فريدريك الثاني، والذي أعلنته البابوية في مجمع ليون (١٢٤٥)، يتحرر ملك قبرص من كل ولاء حيال الإمبراطورية ويتخذ لقب "سيد مملكة القدس" ثم ملك القدس، عند مقتل كونرادان، آخر المنتمين إلى آل هوهنشتاوفن، في عام ١٢٦٨. وبالرغم من أهمية إيرادات اللوزينيانيين، المستمدة من زمام ملكي قوي، إلاً أنهم لا ينجحون في حماية الدول الفرنجية؛ ومع ذلك فسوف يستمر تتويجهم ملوكاً على القدس، حتى بعد سقوط عكا في عام ١٢٩١.

ويؤدي اختفاء سوريا الفرنجية إلى نزوح سكان الأرض المقدسة اللاتين إلى قبرص. وفي سنوات العقد الأول من القرن الرابع عشر، تصبح فاماجوستا بديلاً عن عكا، كميناء رئيسي للتجارة مع المشرق. وخلال القرن الرابع عشر، يحتفظ ملوك قبرص بالمثل العليا



الشكل ٤٠ – قبرص فى ظل اللوزينيانيين، نحو عام ١٣٠٠ . المصدر :
S.RILEY-SMITH, Atlas des croisades, éd. revue par M.Balard, éd. Autrement, Paris, 1996

للحركة الصليبية. ويتميز هيج الرابع (١٣٢٤ ــ ١٣٥٩) في العمليات ضد الأتراك. أما بيير الأول (١٣٥٩ ــ ١٣٦٩)، خاصة، فهو يقوم بحملات في أرمينيا الصغرى، التي يصبح ملكاً عليها في عام ١٣٦٨، ويشن حملة كبرى ضد الإسكندرية في عام ١٣٦٥؛ والحال ان الغنائم هي من الضخامة بحيث إن الجيش يؤثر الاحتفاظ بها على فتح مصر. وفي عام ١٣٧٣، تسيطر جنوة على فاماجوستا وتتسبب في إضعاف مقيم لأسرة لوزينيان المالكة. ويخرب المماليك قبرص في عام ١٤٢٦. وينجح جاك الثاني في استرداد فاماجوستا من الجنويين في عام ١٤٦٤؛ وهو يتزوج بندقية ثرية، هي كاترين كورنارو التي تضطر، وقد ترملت، إلى التنازل عن العرش في عام ١٤٨٩. وعندئذ تصبح قبرص مستعمرة بندقية وتظل على هذه الحال حتى الفتح العثماني في عام ١٥٧١.

وعلى مدار نحو قرنين، يمنح امتلاك الفرنج قبرص دوراً محورياً للجزيرة في تاريخ الحملات الصليبية: فهي مرسى بالنسبة للتجار والحجاج، وقاعدة إمداد للقوات ورأس جسر بالنسبة للحملات الصليبية القادمة ثم إنها، بعد عام ١٢٩١، ملاذ للاتين المطرودين من الأرض المقدسة.

٤ ـ إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية

بموجب شروط الاتفاق الذي عقدوه قبل فتح القسطنطينية (*Partitio Romanie*)، يحرص الصليبيون، بمجرد الاستيلاء على المدينة (١٣ أبريل/ نيسان ١٢٠٤)، على اقتسام فتوحاتهم المتحققة أو التالية: ثلاثة أثمان للبنادقة، ومن هنا اللقب الذي سوف يتخذه الدوج " سيد ربع ونصف رُبع إمبراطورية رومانيا "، ومثلها للحجاج، على أن يكون الربع الأخير من نصيب من يُنتخب إمبراطوراً من جانب لجنةٍ من اثني عشر ناخباً، يُختارون مناصفةً من بين البنادقة والصليبيين.

وفي ٩ مايو/ ايار ١٢٠٤، تختار اللجنة بودوان الفلاندري، إيثاراً له على بونيفاسيوس دو مونفيرات، الأقل تمتعاً بقوات قادرة على حماية الفتوحات والسيئ في نظر البنادقة. ويجري تتويج الإمبراطور في ١٦ مايو/ آيار ١٢٠٤ في كنيسة أيا صوفيا، بينما يعين البنادقة بندقياً، هو توماسو موروزيني، بطريركاً لاتينياً للقسطنطينية. وقد تم اقتسام الأراضي في سبتمبر/ أيلول ويتفرق الصليبيون لكي يتولوا امتلاك ما خُصِّصَ لهم. والحال أن بونيفاسيوس دو مونفيرات، الذي كانت كريت من نصيبه، إنما يعيد بيع الجزيرة للبنادقة وسوف يفتح اليونان مع رفاقه. وهو يقيم مملكة حول ثيسالونيك ويهب

آتيكا لأوتون دو لاروش الذي يتخذ لقب دوق أثينا. إلاّ أنه في مارس/ آذار ١٢٠٥، نجـد أن اليونانيين، المتمردين على تجاوزات الصليبيين، يلجأون إلى البلغار الذيـن، بمساعدة الكومان، يلحقون بالصليبيين في آندرينوبل هزيمة جسيمة، يتم خلالها أسـر الإمـبراطور بودوان (مارس/ آذار ١٢٠٥). وعندئذ يصبح شـقيقه، هـنري دو اينـو، وصياً علـى الإمبراطورية، بينما يصل في العام التالي نبأ موت بودوان في الأسر.

وخلال عهد هنري الأول (١٢٠٦ ــ ١٢١٦)، تتواصل الفتوحات. وهـي مـن عمـل كبريات العائلات البندقية التي تستولي مع آل داندولو على أندروس، ومع آل غيزي علـى سكيروس ومع ماركو سانودو على ناكسوس والجزر الكيكلادية، والتي يتم توحيدهـا فـي دوقية الأرخبيل. وبعد موت بونيفاسيوس دو مونفيرات، الذي قُتل في كمين نصبه البلغـار (سبتمبر/ أيلول ١٢٠٧)، يضطر هنري الأول إلى التدخل في ثيسـالونيك، لكـي يحمـي حقوق الوارث، ديميتر، ضد رفاق والده القدامي، اللومبارديين. وهو يـهزم البلغـار فـي فيليبوبوليس في يوليو/ تموز ١٢٠٨، إلاّ أنه يضطر أيضاً إلى احتـواء روم نيقيـة وروم دسبوتات ايبيروس. وفي عام ١٢١٤، تؤدي معاهدة معقودة مع ثيـودورس لاسـكاريس، إمبراطور نيقية، إلى ضمان حدود الإمبراطورية اللاتينيـة. ومـع أن هـنري الأول هـو المؤسس الحقيقي للدولة الجديدة، إلاّ أنه لا ينجح في أن يعيد إلى أحضان رومـا الكنيسـة الرومية، التي يتفاقم انفصالها، على العكس من ذلك، بسبب أعمال السلب والنهب التي قـام بها الصليبيون في عام ١٢٠٤.

وبالمقابل، يراكم خلفاؤه النكسات. فبيير دو كورتنيه، الذي اختاره وفد مـن البارونـات اللاتين، يجري تتويجه في روما، لكن دسبوت ايبيروس يأسره، حتى قبل أن يتمكـن مـن الوصول إلى عاصمته. أمّا ابنه، روبير دو كورتنيه (١٢٢١ ــ ١٢٢٨)، فـهو لا يتمكـن من منع روم نيقية من استرداد مجمل المواقع التي يحوزها اللاتين في آسيا الصغري، مـا عدا نيقوميديا، كما لا يتمكن من منع دسبوت ايبيروس من القضاء على مملكة ثيسـالونيك. على أن الإمبراطورية اللاتينية، التي تقتصر منذ ذلك الحين على القسطنطينية ونواحيـها المباشرة، سوف تحيا خمساً وثلاثين سنة بعد ذلـك، مـع يوحنـا دو بريـان (١٢٣١ ــ ١٢٣٧) ثم بودوان الثاني، ابن بيير دو كورتنيه (١٢٣٧ ــ ١٢٦١)، الذي، لافتقاره إلـى الموارد والقوات، لا يتمكن من منع روم نيقية، المتحالفين مع الجنوييـن (معـاهدة نيمفيـه بتاريخ ١٣ مارس/ آذار ١٢٦١)، من استرداد القسطنطينية في ٢٥ يوليو/ تموز ١٢٦١.

ومع أن السيطرة اللاتينية في القسطنطينية كانت قصيرة العمر، إلاّ أنها قد عمّقت وخلّدت الكراهية فيما بين طرفي الجماعة المسيحية، مما أدى إلى جعل الانقسام بين الكنيستين مقيماً. ولا يؤدي الاسترداد البيزنطي في عام ١٢٦١ إلى إعادة خلق إمبراطورية ذات تطلعات عالمية، كما كانت الحال قبل عام ١٢٠٤، لكنه يجعل من إمبراطورية آل باليولوجوس دولة بلقانية سوف تصطدم بقوة الجمهوريات البحرية الإيطالية وبالزحف العثماني الذي لن تتمكن من صده.

٥. إمارة المورة

من بين الدول الفرنجية الناشئة عن الحملة الصليبية الرابعة، تحتل إمارة المورة مكانة أصيلة، تدين بها إلى سرعة الفتح الذي قامت به حفنة من الفرسان منذ عام ١٢٠٥ وإلى الاحتلال الغربي الذي يمتد إلى عام ١٤٣٢، وأخيراً إلى مؤسساتها السياسية التي تتميز باستيراد إقطاعية غربية تتراكب مع أرستقراطية محلية من الأرخونتات [الولاة] اليونانيين.

٥-١. الفتح

في اتفاق اقتسام رومانيا [الإمبراطورية البيزنطية] لعام ١٢٠٤، كانت البيلوبونيز من نصيب البندقية التي لا تهتم في الواقع إلاّ بالسواحل (احتلال كورون ومودون في جنوبي البيلوبونيز). وينتج الفتح من مبادرتين: مبادرة بونيفاسيوس دو مونفيرات، الذي، بعد أن احتل أثينا التي سلّمها إلى أوتون دو لاروش، يستولي على مدينة كورنثة الواطئة ونوبلي؛ ومبادرة مجموعة من الفرسان يقودهم اثنان من شامبانيا، هما جيوم دو شانبليت وجوفروا دو فيلاردوان، ابن شقيق مدون أخبار الحملة الصليبية الرابعة. وبعد عودة جيوم إلى فرنسا، يجري اختيار جوفروا دو فيلاردوان أميراً من جانب رفاقه، ويصبح تابعاً للبندقية وللإمبراطور اللاتيني للقسطنطينية اللذين يعترفان به زعيماً للإمارة الجديدة. وفي عام ١٢١٢، يعتبر الفتح شبه ناجز: إذ يجري إخضاع مجمل البيلوبونيز ماعدا جنوبي ميسينا والجزء الجنوبي ــ الشرقي (لن يتم فتح مونمفاسيا إلاّ في عام ١٢٤٨). وعندئذ تعد المورة أقوى دولة فرنجية في الأقاليم البلقانية، وهي تدعم إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية في أعوام ١٢٣٦ و١٢٣٨ و١٢٤٣، أولاً ضد دسبوتات ايبيروس الرومية ثم ضد إمبراطورية نيقية. وفي عهدي جوفروا الثاني (١٢٢٨ ــ ١٢٤٦) ثم جيوم الثاني دو فيلاردوان (١٢٤٦ ــ ١٢٧٨)، تعرف الإمارة أزهى أعوامها، بالرغم من أن جيوم

الثاني، الذي هزمه وأسره ميخائيل الثامن باليولوجوس في معركة بيلاجونيـــا (ســبتمبر/ أيلول ١٢٥٩)، قد أضطر إلى أن يتخلى لهازمِيه عن جنوب ـ شرقي البيلوبونيز. وإذ يجـد نفسه عرضة للتهديد من جانب الروم وبلا وريث ذكر، فإنه يعقد مع شارل دانجو معـــاهدة فيترب (١٢٦٧) التي يُوّرِثُ بموجبها الإمارة بعد موته لصهره، ابن شارل دانجـــو، أو، إذا ما مات هذا الأخير قبله، للملك الآنجوي نفسه [أي شارل دانجو].

٥-٢ • المجتمع والاقتصاد

يؤدي فتح البيلوبونيز إلى قيام مواجهة بين نخبة مـــن الفرســـان الغربييـــن، الذيـــن سرعان ما ينضم إليهم بعض المهاجرين اللاتين، وجماعة سكانية أصلية تنقسم إلى كبـــار ملاك كانوا قد استفادوا من وظـــائف أو مكانـــات إمبراطوريـــة بيزنطيـــة ســـامية، هـــم الأرخونتات، وجمهرة من الفلاحين التابعين، هم الباريك. وبسبب دونية الغربيين العدديـــة، فإنهم يضطرون إلى الاعتماد على المؤسسات الإدارية والضريبيـــة القائمـــة وإلـــى عقـد اتفاقات مع الأرخونتات الذين يجري صون حقوقهم جزئياً ودمجهم تدريجياً في الهيراركيـة الإقطاعية التي أدخلها اللاتين من الخارج.

والحال أن المصدرين الرئيسيين لتاريخ الإمارة وهما مدونة أخبار المـــورة و أســيز رومانيا، إنما يُبرزان تصنيفاً للرجال وبنية متدرجة للسلطات. فأمير المورة، وهـــو " الأول بين أنداد " وسط باروناته، يجب أن يحترم " أعراف " إمبراطورية رومانيـــا وأن يتمتـــع بسيادة يحد منها وجود كورية للأتباع يتوجب عليه استشارتها في مسائل الحكم والقضـــاء. ثم يجيئ في المرتبة الثانية اثنا عشر باروناً لهم حق القضـــاء الأعلـــى ويمكنـــهم بنـــاء الحصون، ثم الأتباع، الذين يجب عليهم أداء الخدمة العسكرية، ولهم حـــق الانتمـــاء إلـــى الكورية والادلاء بالمشورة، ثم " أصحاب الولاء البسيط " الذين يتحملون المســـئولية عـــن القضاء حيال فلاحيهم وحدهم. والحال أن الإقطاعية المورية الموصوفة بأنها " مســـتحيلة " (ر. بوتريش)، إنما تستلهم الممارسات السائدة في الغرب، ولكن بطابع أكثر رسمية وأكـــثر مراعاة للأصول. فالالتزامات العسكرية للتابع (الخدمة المسلحة وخدمة الحراســـة) لا حَـــدّ لها من الناحية الزمنية والخدمات منظمة بصرامة في أرض الفتح هذه، المهدَّدة باســـتمرار. والإقطاعة هي المؤسسة المركزية للمجتمع الموري؛ وتتوقف على طابعها التزاماتُ التـــابع العسكرية. وبعد عام ١٢٤٨ بالأخص، يجري دمج الأرخونتات اليونانيين، بصفة فرســـان، في صفوف الإقطاعيين. وبهذا يصبحون أعضاء فـــي النخبـــة الاجتماعيـــة والسياسيـــة للإمارة.

ومن الناحية الاقتصادية، يؤدي الفتح إلى مصادرة للأرض لحساب السادة اللاتين وإلى إدخال منتجات الزراعة المورية في دوائر التجارة الكبيرة. وهو يسمح بتدفق للنقود بين مختلف قطاعات الاقتصاد والتي تجد حافزاً في نمو الطلب، لكن الإنتاج الصناعي اليدوي يبدو أنه يتراجع أمام المنافسة الغربية، فتكتفي المورة بأن تُصَدِّرَ إلى الغرب المواد الأولية عبر مينائها الرئيسي، ميناء كلارينس، حيث يهيمن البنادقة على السوق.

٥-٣٠ المورة الآنجوية والنافاريّة

في عام ١٢٧٨، لدى موت جيوم الثاني دو فيلاردوان، والذي يعقب موت صهره، فيليب دانجو، تئول الإمارة إلى شارل الأول دانجو. وهو حلم يحطمه تمردُ صلوات الستار الصقلية (١٢٨٢) [وهو عبارة عن مذبحة ضد الفرنسيين في صقلية، بدأت في عيد القيامة، ٣٠ مارس/ آذار ١٢٨٢، بمجرد استهلال صلوات الستار المسيحية، ودامت شهراً. وقد حاك هذا التمردَ بدرو الأول، ملك آراجون وميخائيل الثامن باليولوجوس، ضد شارل الأول دانجو، ملك صقلية]. والحال أن الأمراء الآنجويين أو الأمراء المتحالفين معهم (فيليب التارانتواني ومأو دو اينو وجان دو جرافينا وروبير التارانتواني) لا يقيمون في الإمارة التي يتركون إدارتها لمشرفين ملكيين، وهو ما يولّدُ فترات متكررة من الفوضى ويناسب استرداد البلد من جانب يونانيي ميسترا. وتتنازع الملكة جين، ملكة نابولي، مع عائلة بو على وراثة المورة، قبل أن تؤجّرَ المورة في عام ١٣٧٦ لجمعية الأوسبتالية. على أن المرتزقة الذين يشكلون السَريّة النافاريّة، والذين دخلوا في خدمة الجمعية، تحت قيادة بدرو بوردو دي سوبيران، إنما يظلون السلطة الوحيدة في الإمارة التي يتنازع عليها بيت سافوا ولويس الثاني دو بوربون ويونانيو ميسترا والأتراك. وفي عام ١٤٠٤، يصبح سنتوريون زكريا آخر أمير للمورة التي تنتقل في عام ١٤٣٢ تحت سلطة دسبوتات ميسترا اليونانية. ويقوم محمد الثاني، في عامي ١٤٥٨ و١٤٦٠، بالقضاء على آخر بقايا السيادة البيزنطية في البيلوبونيز التي يضمها إلى الدولة العثمانية.

٠٦ مستعمرات البندقية وجنوة في بحر ايجة

٦-١٠ كريت البندقية

في حين أن أسراً حاكمة بندقية قد استولت على جزر ايجية مختلفة، فإن اتفاق اقتسام الإمبراطورية البيزنطية لعام ١٢٠٤ قد منح كريت لبونيفاسيوس دو مونفيرات. إلاّ أنه بما أن هذا الأخير لا يملك أية وسيلة للاستيلاء عليها، فإنه يتنازل عنها للبندقية في

أغسطس/ آب ١٢٠٤، لقاء ١٠٠٠ مارك فضي. والحال أن الجنويين الذين يطمعون في الجزيرة، إنما يحركون ويدعمون المقاومة من جانب كونت مالطة، إنريكو بسكاتور، وسيد سيراكوز، آلمانّو دا كوستا، اللذين يتصديان للبنادقة على مدار نحو خمسة عشر عاماً.

ويقوم أول دوق يجري إرساله لحكم الجزيرة، وهو جياكومو تيبولو، بترتيب نظام استعمار عسكري، بعد مصادرة أراضٍ تخص الكنيسة الأرثوذكسية والأرخونتات. وعلى غرار البندقية، يجري تقسيم كريت إلى ست "سيسترات". ويحصل إقطاعيون بنادقة ينتمون إلى كبريات عائلات المتروبول على "فرسانيات" وينخرطون في الدفاع عن الجزيرة على أساس خدمة عسكرية دائمة، بينما يحصل أفراد شعبيون على "رقيبيات"، من خلال أداء خدمة جنود مُشاة. ويظل البنادقة دوماً جد قليلين: ففي بداية القرن الرابع عشر، لا يتجاوز عدد حصص [الأراضي] المخصصة لهؤلاء المستوطنين ستمائة حصة. ومن حيث حكمها، ترتبط كريت مباشرة بالمتروبول الذي يقيم فيها *regimen* [نظام حكم] استعماري، تحت سلطة دوق للجزيرة، يُعَيّنُ لمدة سنتين بقرار من مجلس البندقية الكبير. وفي الظروف الحرجة، يرسل المتروبول بروفيديتوراً [قائداً] عاماً مزوداً بسلطات ديكتاتورية. والحال أن الكهنة والأرخونتات اليونانيين الذين جرى سلب جانب من ممتلكاتهم في السنوات التي أعقبت ضم الجزيرة إلى البندقية، لا يحتملون سلطة الأخيرة. وتؤدي تمردات خطيرة، في أعوام ١٢١٩ و ١٢٦٤ــ ١٢٦٧ و ١٢٧٣ــ ١٢٧٨، وخاصة في أعوام ١٢٨٣ ــ ١٢٩٩ تحت قيادة أليكسيوس كاليرجيس، إلى تهديد التعايش بين اليونانيين والبنادقة. وفي القرن الرابع عشر، نجد أن الإقطاعيين البنادقة، الساخطين على جبايات المتروبول، هم الذين يثورون خلال تمرد سان تيتو (١٣٦٣ ــ ١٣٦٦)، الذي يتم قمعه بقسوة.

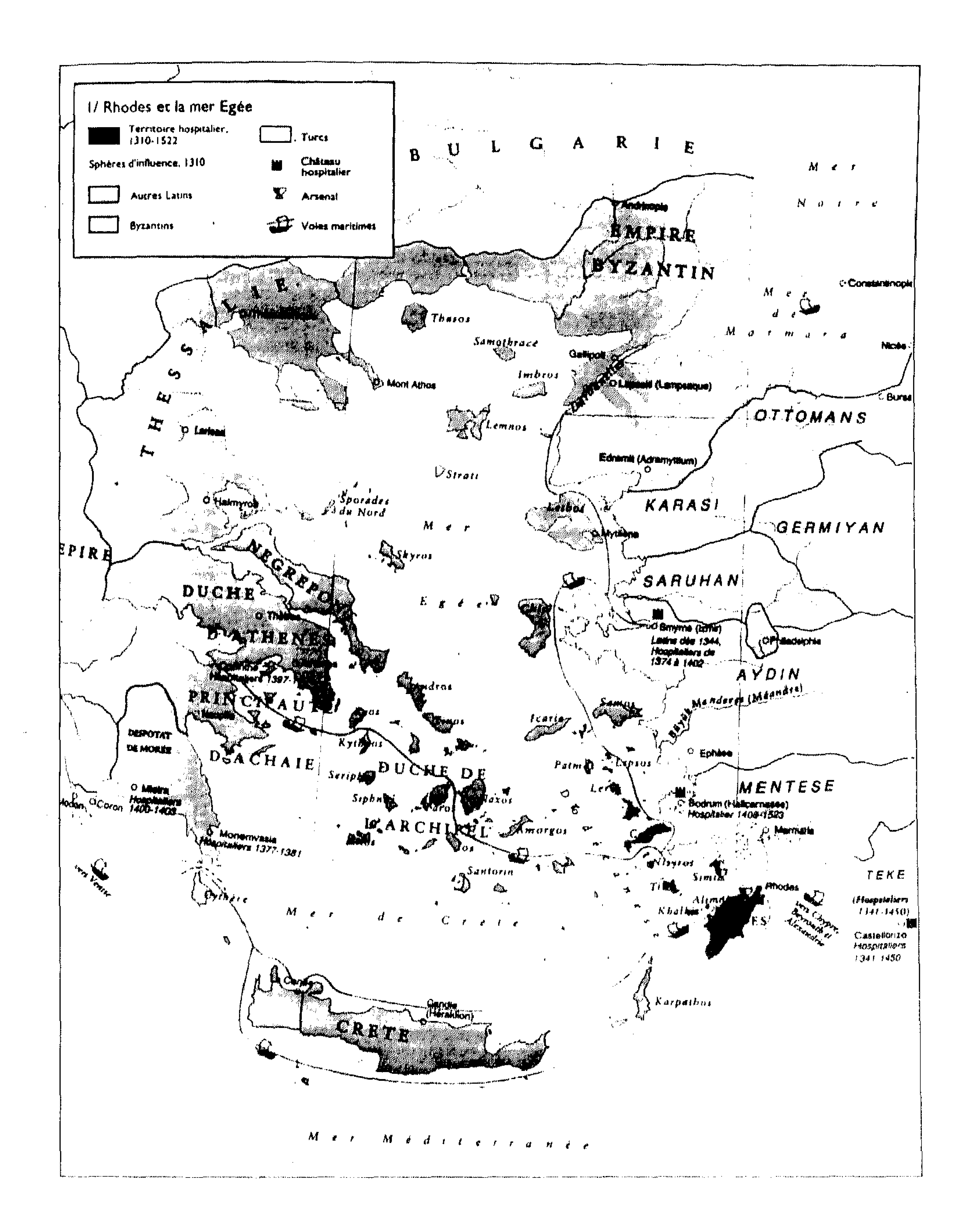
والواقع أن البندقية إنما تهدف إلى توجيه مجمل اقتصاد الجزيرة إلى إشباع حاجات البندقية الخاصة. ويصبح الريف الكريتي شبكة استغلال واسعة خاضعة لمتطلبات المتروبول الذي يحدد الحصة التي تخصه من المحصول الزراعي بالسعر الذي يحدده مجلس الشيوخ. وتجري تنمية الإنتاج من الكروم لتقديم نبيذ مالفوازي الذي يجري تصديره حتى إلى وسط أوروبا، وتجتهد زراعات القطن وقصب السكر أيضاً في تلبية الطلب المتزايد من جانب الغرب. وتلعب كريت دوراً محورياً في تجارة البندقية في شرقي البحر المتوسط: إن مرفأيها (كانديا [هراكليون الآن] وخانيا) إنما يستقبلان كل سنة القوافل المنتظمة للسفن التجارية، *mudae* [قوافل] قبرص والإسكندرية، ويصبحان

المستودعين الرئيسيين لمنتجات الشرق. وبهذا المعنى، تؤكد كريت نفسها كمحور للإمبراطورية الاستعمارية البندقية؛ وهي تظل على هذه الحال خلال أربعة قرون ونصف، بفضل التقارب التدريجي بين اليونانيين والبنادقة (س. ماك كي) وبفضل التمشرق التدريجي للنخبة الغربية.

٦-٢٠ خيوس الجنوية

إن جزيرة خيوس، الموجودة في قلب بحر ايجة ولا تبعد كثيراً عن الساحل الأناضولي، إنما تتمتع بموقع جغرافي عظيم الأهمية. ومع أنها تئول من الناحية النظرية إلى إمبراطور القسطنطينية اللاتيني في عام ١٢٠٤، إلاَّ أنها تظل في واقع الأمر تحت السيادة البيزنطية إلى مستهل القرن الرابع عشر. وفي عام ١٣٠٤، نجد أن رجل الأعمال والأميرال الجنوي بنديتو زكريا، الذي كان قد حصل من ميخائيل الثامن باليولوجوس على امتياز مناجم الشبّ في فوكايا، يحصل من خليفته، أندرونيكوس الثاني، على جزيرة خيوس، بحيث يكون مسئولاً عن تحويلها إلى بؤرة للتصدي للأتراك. والحال أن خليفتيه، مارتينو وبنديتو الثاني زكريا، اللذين يسعيان إلى خلق إقطاعة ايجية فيها، سوف يجري طردهما في عام ١٣٢٩ من جانب أندرونيكوس الثالث الذي يستعيد السيادة البيزنطية على الجزيرة.

لكن الحكومة الجنوية تقوم في عام ١٣٤٦، مستفيدةً من ضعف وصاية أن دو سافوا في القسطنطينية، ومن تأجيلات حملة أمبير دي فيينوا الصليبية، بتنظيم حملة خاصة لأصحاب السفن تستولي في بضعة أسابيع على خيوس وعلى فوكايا وفوكايا الجديدة على ساحل آسيا الصغرى. وأصحاب السفن هؤلاء، الذين تعجز كومينة جنوة عن دفع نفقات الحملة لهم، ينظمون أنفسهم في جمعية، هي جمعية الماهون. ويحتفظ اتفاق معقود مع المتروبول لهذا الأخير بالسيادة على الجزيرة لكنه يمنح جمعية الماهون ملكية وايرادات الأراضي المفتوحة. وفي عام ١٣٥٥، يعترف البازيليوس يوحنا الخامس باليولوجوس بالأمر الواقع، وذلك في مقابل دفع إتاوة رمزية، سرعان ما سوف يكون مصيرها النسيان. وتنجح الجمعية الماهونية، التي تدشن احتكاراً لبيع المصطكاء، وهي صمغ أشجار اللينتيسك في خيوس، ولشبّ فوكايا، في صون وجود جنوي حتى الفتح العثماني في عام ١٥٦٦.



الشكل ٤١ – رودس وبحر ايجة. المصدر :

S. RILEY- SMITH, Atlas des croisades, ed. revue par M.Balard, éd. Autrement, Paris, 1996

ومع قيام يوحنا الخامس في عام ١٣٥٥ بمنح ميتيلين لآل جاتّيلوزيو الجنويين، يصبح بحر ايجة منقسماً إلى كيانين استعماريين متناحرين: الغرب والجنوب للبندقية حيث كورون ومودون في جنوبي البيلوبونيز، ودوقية الأرخبيل وعدة جزر لسلالات حاكمة بندقية، وكريت وجزيرة نيجربون؛ والشرق والشمال لجنوة حيث جزر خيوس وميتيلين وليمنوس وإمبروس وثاسوس وساموتراقيا، حيث تكون الجزر الأخيرة من نصيب آل جاتّيلوزيو. وبين هذين الكيانين، تتفاقم المنافسات وتؤدي إلى ثلاث حروب استعمارية كبرى، مبررها هو السيطرة على البحر: حروب كيرزولا (١٢٩٤ ــ ١٢٩٩) والمضائق (١٣٥١ ــ ١٣٥٥) وخيوجيا (١٣٧٦ ــ ١٣٨١)، والتي تتمثل نتيجتها الوحيدة في تسهيل الزحف العثماني على حساب بيزنطة والغرب.

كورية الفوند [محكمة أو غرفة السوق]
في عكا

بوصفها سلطة قضائية تجارية، تتألف كورية الفوند من ستة محلّفين – أربعة من السوريين إلى جانب اثنين من الفرنج – يرأسهم مشرف يمثل فيكونت عكا. وهي مؤهلة للفصل في الخلافات المتعلقة بالعقود وبالمبيعات وبالريوع وبالتشاركات والهبات والالتزامات على اختلافها، والمعقودة بين "الأمم" [الملل] المختلفة. وجميع الشئون الأخرى المتعلقة بالسكان من غير النبلاء ("البورجوازيين") تئول إلى كورية البورجوازيين:

" ليكن معلوماً لديكم أنه لابد من أن يوجد في الفوند مشرف، رجل نزيه وحسن السمعة، يحبُ إحقاق الحق بين جميع الناس على اختلافهم. وهو ملزم، بحكم متطلبات الحق والعدل، بأن يستمع في الكورية إلى الساراسيني كما إلى السورياني، وإلى السورياني كما إلى اليهودي، وإلى اليهودي كما إلى السامري، وإلى جميع الناس الآخرين على اختلافهم، وكذلك إلى المسيحيين، فهذا من متطلبات الحق والعقل بحكم الأسيز. لأن التجار، بحكم كفالة السيد ولأنه ملتزم بإحقاق الحق، إنما يبيعون ويشترون بحكم ما له من سلطة عليهم. وليكن معلوماً لديكم أنه يجب أن يكون في الفوند ستة محلّفين نزيهين، أي أربعة من السوريين إلى جانب اثنين من الفرنج. وهم ملزمون بالفصل في جميع الشكاوي التي تصل إلى المشرف، مثال ذلك في شأن الديون والرهون المفقودة أو المستنفدة، وتأجير البيوت، وكل الأمور الأخرى التي يقوم بها سورياني أو يهودي أو ساراسيني أو سامري أو نسطوري أو رومي أو يعقوبي أو أرمني. وليكن معلوماً لديكم أن العقل يقضي ويوصي بأن أية أمة [ملة] من الأمم [الملل] السابق ذكرها لا يجب عليها أن تتقدم في أية كورية بالشكاوي الخاصة بها إلاَّ أمام كورية الفوند، اللّهم إلاَّ إذا كان الأمر يتصل، كما يوصي العقل بذلك، بشكاوي تتعلق بالقتل أو الخيانة أو الدم أو الاختلاس: ففي هذه الحالة، لا يخص ذلك الفوند، ويجب اللجوء إلى كورية البورجوازيين، فهذا هو الصحيح والمعقول بحكم الآسيز. وليكن معلوماً لديكم أن مشرف الفوند – أكان فارساً أم بورجوازياً – والمحلّفين لا يجب أن يستدعوا للشهادة أياً من رقباء الفوند، في أية قضية أياً كانت. ويوصي العقل بوجوب الحصول على الشهادات بالشكل التالي. فإذا قام رومي بتقديم شكوى إلى مشرف الفوند ضد يهودي وأنكر اليهودي الشكوى، فإن العقل يوصي بوجوب إحضاره يهوداً كشهود ... كما يوصي العقل بأنه عندما يشكو فرد من إحدى الأمم [الملل] فرداً ينتمي إلى أمة [ملة] أخرى، فإنه يجب عليه أن يقدم شهادات اناس ينتمون إلى ذات

الأمة [الملة] التي ينتمي إليها المشكو منه؛ فمن الصواب أن الشهادات الأخرى لا يمكن أن تساعده؛ وإذا لم يتمكن من إيراد شهادات، فإنه يجب على المشكو منه أن يحلف على الشريعة التي يؤمن بها بأنه لا يدين له بشئ ويجب تبرئة ساحته لأنه [الشاكي] لم يورد شهادة، كما هو مطلوب شرعاً. أمّا القَسَم الذي يجب أن يؤديه الأشخاص المستدعون أمام كورية الفوند فيجب أن يكون كما يلي: يجب على اليهودي أن يقسم على التوراة والساراسيني على القرآن والأرمني والسورياني والرومي يجب أن يقسموا على الصليب المقدس وعلى الأناجيل المكتوبة بلغاتهم. وجميع الأمم [الملل] الأخرى يجب أن تقسم على كتب شريعتها. ويجب على السامري أن يقسم على كتب موسى الخمسة والتي يلتزم بها السامريون...

وليكن معلوماً لديكم أنه بين الشهادات التي يجوز تقديمها أمام الكورية، لا يمكن أن تكون هناك مبارزات، لأن القضايا التي قد تستدعي مبارزات، يجب نظرها أمام كورية البورجوازيين، كما سلف القول، فهذا من متطلبات الحق والعقل بحكم الأسيز. وليكن معلوماً لديكم أن محلّفي الفوند يجب أن يفصلوا في النزاعات فيما بين الشاكين أحدهم من الأخر فى مسائل البيع والشراء والتأجير أو الأمور الأخرى. وأنهم يجب أن يقضوا بحكم ما هو مبيّن في هذا الكتاب، وكما يجب أن يفعله محلّفو كورية البورجوازيين وليس على نحو اخر. فأن يكون المرء سوريانياً أو رومياً أو يهودياً أو سامرياً أو نسطورياً أو ساراسينياً، فإن هذا لا يعني أنه أقل بشرية من الفرنج، فكلهم ملزمون بالدفع والسداد بحسب ما يُقضى به، على هذا النحو المحدّد بالنسبة لكورية البورجوازيين في هذا الكتاب الذي يُنصُّ فيه على جميع الواجبات والحقوق بالنسبة لجميع الناس...

المصدر:

كتاب اسيز كورية البورجوازيين.

الفصل CCXLI ، في

Recueil des Historiens des Croisades, Lois, Assises de Jérusalem, t.II, P. 171 – 173.

الفصل العاشر
انحرافات ونقد الحركة الصليبية

في القرن الثالث عشر، لم تعد الحملة الصليبية مجرّد حَج مسلّح موجّه إلى تحرير الأماكن المقدسة. فهدفها يتنوع. والبابا اينوشنتيوس الثالث يعلنها من أجل النضال ضد ألمان ماركوارد الأنفيليري، الذين ينهبون مملكة صقلية خلال حداثة ابنه بالمعمودية، الذي سوف يصبح فيما بعد فريدريك الثاني. وفي العقد التالي، يجري شن الحملة الصليبية ضد الهراطقة، أولئك الألبيجيين الذين ينتقدون الكنيسة وحبرها الأعظم. ثم إن ثالثة الأثافي هي أن نرى الحملة الصليبية الرابعة وقد جرى حرف سبيلها لتتحول إلى حملة ضد القسطنطينية، وهي مدينة مسيحية، حيث ينكب اللاتين على سلبها ونهبها. وفي أماكن أخرى، تصبح الحملات الصليبية تحويلاً للوثنيين إلى المسيحية باستخدام القوة: والفرسان التيوتون ينكبون على هذه المهمة في أوروبا الشرقية. وهذه الانحرافات، التي تضاف إلى اخفاقات الحملات الصليبية، إنما تؤدي إلى ظهور انتقادات عديدة موجهة إلى المؤسسة ذاتها والتي يجري التنديد بها بأكثر السبل تنوعاً. ألاّ يكمن الحل في السعي عن طرق التبشير إلى هداية من يجهلون محتوى الدين الكاثوليكي أو يرفضونه ؟

١. الحملات الصليبية الشمالية

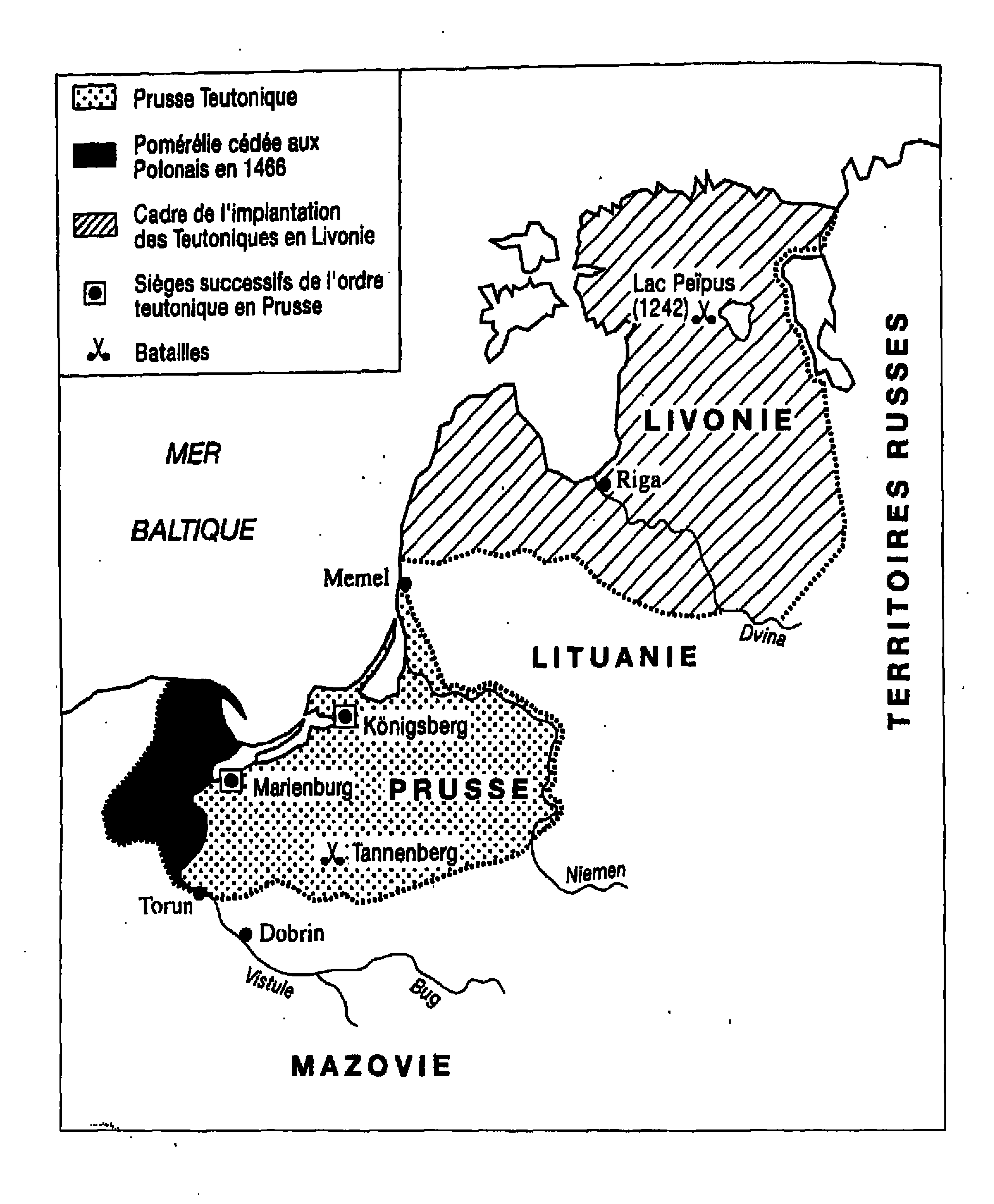
يشار بهذا المصطلح إلى الحركة الكبرى للتوسع الجرماني إلى ماوراء نهر إلب [باللسان التشيكي: لاب] حيث يمتزج الفتح والاستيطان وتحويل الشعوب السلافية إلى المسيحية، على أيدي الفرسان والفلاحين الألمان والجمعيات العسكرية المؤلفة في معظمها من ألمان، كجمعية الفرسان حملة السيوف وجمعية الفرسان التيوتون.

وهذا التوسع سابق لحركة الحملات الصليبية وهو يمتد إلى أواخر العصر الوسيط. فبعد محاولات شارلمان تحويل الساكسون الوثنيين إلى المسيحية باستخدام القوة، سعى أوتّون الأول إلى تنظيم الأراضي السلافية الواقعة بين نهري الإلب والأودر في مناطق عسكرية وثغور وإلى منحها هيراركية كنسية. والحال أن تمردين عظيمين في عام ٩٨٣ وبالأخص في عام ١٠٦٦، حيث يجري قتل كبير أساقفة هامبورج ـ بريمن، إنما ينهيان هذه المحاولات الأولى.

وما لم يكن غير توسع عسكري سوف يصبح في زمن سان برنـــار حملـــة صليبيـــة منظمة ومعترفاً بها على مستوى واحد مع الحملات الكبرى إلـــى القـــدس. وفـــي عـــام ١١٤٧، يقود هنريخ الأسد، دوق ساكس، حملة صليبية للأمراء الساكســـون ضـــد الفينـــد [سلاف ألمانيا]، الذين كانت أراضيهم هدفاً لبداية استيطانٍ من جانب الهولنديين والفلمنـــك، في الأعوام الأولى للقرن الثاني عشر. والحال أن تشيك وبولنديين وشوابيين وساكســـون، تحت قيادة البرت الأوري وكونراد الأكبر وأدولف الشاونبرجي، إنما يعـــدون، مـــع دوق ساكس، صنّاع إندفاعٍ نحو الشرق، وهو إندفاع يهدف إلى تحويل هولشـــتاين وميكلنبـــورج وبراندبورج وبوميرانيا إلى إراضٍ ألمانية. وخلال هذه العمليات، يجـــري القضـــاء علـــى سلاف ما وراء نهر الإلب.

على أن التوسع يتخذ مساراً أكثر فظاعة بكثير في القرن الثـــالث عشـــر. ذلـــك أن إقليمين، هما ليفونيا وإستونيا، من جهة، وبروسيا، من جهة أخرى، سوف يُدخلان استخدام القوة في صفوف الجماعة المسيحية. وتحويل ليفونيا وإستونيا إلى المسيحية هو من عمـــل الأسقف ألبرت من بوكسهوفدن. فهذا الأخير يفكر في أن يعهد بالفتح إلى صليبيين قـــادمين كل عام من الغرب ــ بالأخص من مختلف أقاليم الإمبراطورية في الواقع ــ وإلى قـــوات مؤلفة من الحاشية المسلحة للأساقفة وإلى جمعية عسكرية جديدة، هـــي جمعيـــة الفرســـان حملة السيوف. والحال أن تفوق الغربيين، في فن التحصينات كما في استخدام القاذفـــات، هو من القوة بحيث إن الليفونيين والإستونيين سرعان ما ينهزمون. وبرغم أنهم قد طلبـــوا عون الأمراء الروس، إلاّ أن شيئاً من ذلك العون لم يأت. وقـــد جـــرى تخريـــب البلديـــن والقضاء على سكّانهما أو تشريدهم، كما جرى الفوز بغنيمة ضخمة. ويؤسس ألبرت مـــن بوكسهوفدن ريجا، ويصبح في عام ١٢٠٧ أميراً إمبراطورياً على ليفونيا التـــي يحوزهـــا كإقطاعة: ولدى موته، تئول " دولته " إلى الفرسان التيوتون.

وسوف يبرز هؤلاء في فتح وتحويل بروسيا إلى المسيحية، والذي كان قد بـــدأ قبلـــهم على يدي الأسقف السيسترسي كريستيان دو ليكنو، بدعم من الدوق البولندي كونـراد، دوق مازوفيا. والحال أن الفرسان التيوتون الذين كان أندراش الثاني، ملك المجر، قـــد دعـــاهم إلى حماية ترانسلفانيا ضد الغارات الكومانية، قد طُردوا منها لمحاولتـــهم تخطـــي حـــدود الامتيازات التي كانت قد مُنحت لهم. وفي عام ١٢٢٦، وبدعوة من دوق مازوفيا، نجـــد أن هرمان السالزاوي، الأستاذ الأكبر، يقبل منحة إقليم كولم (على نهر الفستولا) ويحصل مـــن



الشكل ٤٢ – الجمعية التيوتونية فى البلطيق
(من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر)

A.DEMURGER, La Croisade au Moyen Âge, éd. Nathan, Paris, 1998.

فريدريك الثاني على سلطة أمير إمبراطوري على بروسيا التي يجب فتحها. وهو يــود أن يقيم لحساب جمعيته دولة ثيوقراطية مستقلة، موضوعة تحـت شـفاعة القديـس بطــرس الرسول وحده. ويبدأ الفتح في عام ١٢٣٠ ولا يتم إلاّ في أواخر القــرن الثـالث عشــر. وبدعم من روما، التي تشجع الحملة الصليبية في بروسيا، تجند الجمعيةُ صليبيين من بيــن أفراد الأرستقراطية الألمانية الذين تعدهــم بزمامــات واســعة للاســتيطان، ومــن بيـن بورجوازيي المدن الذين، علاوة على المكاسب الروحية للحملة الصليبية، يطمحــون إلــى انتزاع مكاسب اقتصادية من التجارة في المنتجات الزراعية ومنتجات الغابــات. ويتحقــق الفتح بدءاً من كولم في اتجاه الفستولا الأدنى. وتتم حماية كل تقدم بحصون تُبنـى بفضـل أعمال السخرة واجبة الأداء من جانب الفلاحين، ثم يقيم فيها الألمان: وسرعان ما يتم فـور ذلك امتلاكُ الأراضي المجاورة للحصون. وفي عام ١٢٣٣ يجري إنشاء مارينفردر، وفـي عام ١٢٣٧ يجري إنشاء ايلبنج، على مقربة من ساحل بحر البلطيــق. وتـؤدي حمـلات صليبية جديدة في عامي ١٢٤٦ و١٢٥٤ إلى تأسيس كوينجسبرج. علـــى أن البروسـيين يقاومون الزحف الجرماني: إذ تنشب تمردات في عام ١٢٤٠ ثم في عام ١٢٦٠. ويجـري قمع هذه التمردات بقسوة بدعم من الصليبيين الألمان أو التشيك، وألبرت، أمير برونسـفيك، وألبرت، أمير ثورنجيا، وأوتو، أمير براندبورج وملك بوهيميـــا، أوتوكـار. والحـال أن البروسيين، المعتبرين متمردين ومرتدين، إنما يفقدون حريتهم وفي الأغلب الأعم حياتهم.

وفي عام ١٢٣٧، يندمج الفرسانُ حملةُ السيوف بالتيوتون. علـــى أن خطــط التوسـع المشتركة ضد الإمارات الروسية إنما تئول إلى العدم من جرّاء الانتصار الــذي تحـرزه قوات ألكسندر نيفسكي، عند بحيرة بيبوس (١٢٤٢). ويجري تحطيم اندفاع التيوتون فـــي اتجاه البلاد الروسية. ولن تكون هناك جدوى من اقتراح البابوية علـــى الأمــراء الــروس التحالف مع الغرب ضد المغول، في مقابل اتحاد للكنيسة الروسية مع الجماعة المســيحية الغربية.

وقد حفزت الحملات الصليبية الشمالية استيطاناً كثيفاً لبروسيا، خاصة بعد عـام ١٢٩٠؛ فقد جرى إحصاء نحو ١٤٠٠ قرية استيطانية هناك. وهذا الاستيطان مخطط ويُعْهَدُ به إلـى كوماندريات الجمعية وإلى مباشري الاستيطان أو الـــ *Locatores* الذيـن تقـوم هـذه الكوماندريات بتجنيدهم. ويستكمل التيوتون فتوحاتهم في بروسيا بالحصول على دانتســيج (١٣٠٨ ــ ١٣١٠) وإقليم الفردر. وفي عام ١٣٠٩، يقومون بنقل مقـــر الجمعيــة مــن

البندقية إلى مارينبورج. ومنذ ذلك الحين، لا يشكلون بعدُ مؤسسةً دينية، بل دولةً حقيقيـــة، يحكمها الأستاذ الأكبر ومجلس من خمسة من كبار المسئولين.

وبين بروسيا وليفونيا اللتين جرى تحويلهما إلى المسيحية، تظل ليتوانيا وثنيـــة، ربمـــا لتبرير وجود الفرسان التيوتون، كجمعية عسكرية ولدت من الحركـــة الصليبيـــة. وفـــي مرتين كل عام، كان يجري تنظيم " غارات على ليتوانيا "، بما يشكل بديلاً لحملة صليبيـــة، وقد تميز في هذا الغارات الفرسان الغربيون الساعون إلى المغامرات. لكن هذه الغـــارات تستثير بدورها غارات سلب ونهب من جانب الليتوانيين على التخوم البروســـية. وفـــي القرن الرابع عشر، تجد الجمعية نفسها عرضة للعداوة من جانب دول مسيحية مجـــاورة. ففي عام ١٣٨٦، يؤدي اتحاد السلالة الحاكمة لكل من بولندا وليتوانيا، ثم هزيمة تـــاننبرج في عام ١٤١٠ ضد القوات البولندية والتشيكية والروسية والليتوانية، إلـــى إعـــلان بدايـــة أفول الجمعية التيوتونية.

وقد حاول بعض المؤرخين في القرن العشرين، من المتأثرين بالايديولوجيـــة النازيـــة، أن يروا في الحملات الصليبية الشمالية مواجهة بين أمتين، بل و" جنسين " ــ الجرمـــاني والسلافي ــ وصداماً بين حضارة متقدمة وبربرية قبائل وثنية بدائية. والتبسيط مســـرف: فروما والفرسان الغربيون، غير الألمان، كان لهم دورهم في هذا التوســـع " الجرمـــاني ". وصحيح، بالمقابل، أن الحركة الصليبية لم تتميز في أي مكان آخر بهذا القدر من العنـــف والمجازر والتدمير والتخريب. وقد جرى فرض التحول إلى المسيحية علـــى أقليـــة مـــن الناجين وجاء المستوطنون الألمان لكي يسكنوا أراضي شبه خاوية من سكانها الأصليين.

٢٠ الحملات الصليبية " السياسية "

يشير هذا المصطلح إلى حملات صليبية شنتها البابوية لحماية الدول البابوية أو لتعزيـــز السلطة السياسية للباباوات، وليس لتحرير الأماكن المقدسة أو لمساعدة مســـيحيي الشـــرق. والحال أن هذا النوع من الحملات، والذي لا يملك صلة تذكر بـــالفكرة الأصليـــة للحملـــة الصليبية، قد جرى تبريره من جانب حقوقيي القرن الثالث عشر؛ فهوستينسيز، على ســـبيل المثال، يرى أن عصيان أمير لوصايا نائب المسيح إنما يعـــد أخطـــر بالنســـبة للجماعـــة المسيحية من ضياع أرض مسيحية في الشرق ؛ فالخروج على الكرسي الرســـولي يمكـــن أن يؤدي إلى الهرطقة وأن ينسف وحدة الكنيسة.

والحال أن اينوشنتيوس الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦) هو أول بابا يمنح الغفران الصليبي لأولئك الذين يناضلون ضد عدو للبابوية؛ ففي عام ١١٩٩، يأمر بحملة صليبية ضد ماكوارد الأنفيليري، سينيشال الإمبراطورية، الذي يزعم ملكية أراض شاسعة في مملكة صقلية. والمناورة العسكرية من جانب القوات البابوية محدودة الأثر، لكن الحدث له قيمةُ سابقةٍ. وخلال القرن الثالث عشر، تجد البابوية إغراءً في استخدام سلاح الحملة الصليبية بهدف صون أمنها واستقلالها، اللذين يعنيان في آن واحد سيطرةً مباشرةً على إيطاليا وسيادةً على مملكة صقلية. وتكفل ضرائبٌ على دخول الكهنة تحويل الجيوش المجنّدة لهذا الهدف؛ وتسمح نظرية الاحتيال الكنسي للبابا بتحريض أمير موالٍ للكنيسة على الاستيلاء على أراضي أمير آخر، عدو لروما، ومدان بوصفه مهرطقاً.

ومن ثم فإن نضال البابوية ضد فريدريك الثاني وآل شتاوفن إنما يصبح حملة صليبية يشجع عليها الباباوات. وفي عام ١٢٤٠، ولأول مرة، عندما يهدد الإمبراطور روما، يَعِدُ البابا جريجوريوس التاسع الأوفياء له بعين الغفران الذي يستفيد منه المدافعون عن الأرض المقدسة. أمّا خليفته، اينوشنتيوس الرابع، الذي يخلع فريدريك الثاني في مجمع ليون (١٢٤٥)، فهو يحوِّلُ حربه ضد الإمبراطور إلى حملة صليبية حقيقية، في جرمانيا وفي الدول البابوية؛ ودعوته تسمح له بالحصول على المال الضروري لدفع رواتب قواته. لكن احتجاجات الكهنة الجرمان ومزاحمة حملة القديس لويس الصليبية إنما تجبر البابا على التخفيف من مطالباته.

وبعد موت فريدريك الثاني (١٢٥٠)، يستمر النضال ضد وريثيه، كونراد الرابع ومانفريد. فاينوشنتيوس الرابع يدعو إلى الحملة الصليبية ويهتم بالعثور على خليفة لمانفريد في مملكة صقلية، يقترحه على أميرين إنجليزيين، ريتشارد من كورنويل، ثم إدموند اللانكاستري. ولا ينجح هنري الثالث، ملك إنجلترا، المتنازع مع البارونات، في جمع الأموال الضرورية للحملة. وعندئذ يتجه البابا أوربان الرابع (١٢٦١ ــ ١٢٦٤) إلى مملكة آل كابيه [فرنسا]. وهو ينظم تسوية مسألة صقلية كحملة صليبية وراء البحر. ويعرض على شارل دانجو، شقيق القديس لويس، أن يقود حملة ضد مانفريد، مستفيداً من جميع امتيازات الحملة الصليبية، ومن ضريبة عشورٍ على دخول الكهنة الفرنسيين لمدة ثلاثة أعوام، ومن دعم مالي من جانب مصرفيين توسكانيين. وسوف تصبح صقلية بعد فتحها دولة تابعة للكرسي الرسولي. ويعقد البابا كليمانس الرابع الاتفاق في أبريل/ نيسان ١٢٦٥. وسرعان ما يتحرك الجيش الأنجوي. ففي ٢٦ فبراير/ شباط ١٢٦٦، يهزم في

بينيفنت قوات مانفريد الذي يلقى مصرعه في ساحة المعركة. وبعد ذلك بعامين، يُعَدُّ غزوٌ آخرِ آل شتاوفن مناسبةً لدعوة جديدة إلى حملة صليبية. وينجح شارل دانجو، المدعوم بالمساندة الروحية والمالية من جانب البابوية، في تشتيت قوات الحزب الجيبلاني في تاجلياكوتسو (٢٣ أغسطس/ آب ١٢٦٨) وإعدام كونرادان، آخر ورثة فريدريك الثاني.

وتتجاوز الحملات الصليبية " السياسية " الساحة الإيطالية. فالتوسعية الأنجوية في اتجاه البلقان والإمبراطورية البيزنطية تتمتع جزئياً بدعم من البابوية. والحال أن شارل دانجو الذي تحبطه في مشاريعه حملةُ تونس ثم سياسة توحيد الكنيستين التي يتبعها البابا جريجوريوس العاشر والبابا نيكولاس الثاني (مجمع ليون الثاني في عام ١٢٧٤)، سوف يحصل على الدعم الكامل من جانب الكرسي الرسولي في عام ١٢٨١. فالبابا مارتان الرابع، وهو فرنسي، يأمر آنذاك بحملة صليبية ضد الكافر، ميخائيل الثامن باليولوجوس، الذي يتهرب من التحقيق التام لوحدة الكنيستين. لكن ما ينقذ البازيليوس، المهدد من جانب التحالف البندقي ــ الأنجوي لاسترداد القسطنطينية (معاهدة أورفيتو، ١٢٨١) هو تمرد صلوات الستار الصقلية (٣٠ مارس/ أذار ١٢٨٢)، الذي لاشك في أن صهر مانفريد، بدرو الثالث، ملك آراجون، والذهب البيزنطي، قد ساعدا على نشوبه. ويضطر الأنجويون المطرودون من صقلية إلى التخلي عن مشاريعهم في القيام بفتحٍ وراء البحر. وآخر نتائج مسألة صقلية هو أن البابا مارتان الرابع يحرم كنسياً ملك آراجون الذي يجرده من مملكته ويهبها كإقطاعة لشارل دو فالوا، الابن الثاني لفيليب الثالث، ملك فرنسا. ويجري تنظيم حملة صليبية ضد آراجون، لكن جيوش آل كابيه تفشل؛ وفي عام ١٢٨٥، يتخلى فيليب الرابع عن كل المطالبات في ما وراء جبال البرانس.

وهكذا فقد استغلت البابوية في القرن الثالث عشر الحركة الصليبية في أهداف تتعلق بالسياسة الإيطالية. ومن الناحية الظاهرية، تسنى لها تحقيق أهدافها. أمّا في الواقع، فإن برنامجها قد استثار الكثير من الانتقادات وخرّبَ وحدة الجماعة المسيحية. وقد أدت الحملات الصليبية " السياسية " إلى إضعاف هيبة الكرسي الرسولي وسهّلت توطيد السلطة الملكية، التي احتكرت لحسابها الضرائب المجباة من الكهنة، بذريعة الحملة الصليبية. والحال أن نضال فيليب الرابع الجميل ضد البابا بونيفاسيوس الثامن واعتداء أناجني [في ٧ سبتمبر/ أيلول ١٣٠٣، حيث قامت قوة، بناءً على أوامر من فيليب الرابع الجميل، باقتحام المقر البابوي في أناجني، بإيطاليا، بهدف اعتقال بونيفاسيوس الثامن] ونفى البابوية إلى آفينيون، هي العواقب المنطقية للحملات الصليبية " السياسية ".

٣ • الحملات الصليبية ضد الهراطقة

إن الكنيسة الرومانية التي تصلحها البابوية في القرن الحادي عشر ويقودهـا قساوسة يؤكدون تفوقهم على العالم العلماني ــ بما يشكل ثيوقراطية بابوية ــ لا تستطيع الاعتراف بأنه تتطور في داخلها مذاهب تفصل أتباعها عـن رجـال الكنيسة. وتلـك هـي حالـة الكاثاريـة ــ المشتقة من كلمة يونانية تعني "الطاهر" ــ والتي تتطور في جنوبي فرنسـا بعد عام ١١٥٠؛ والحال أن الكنيسة العاجزة لوقت طويل، لا تجد إلاّ فـي القـرن الثـالث عشر الوسائل الكفيلة بقمع الهرطقة، بمساعدة أمراء وفرسان شمالي فرنسا. وما يكاد يتـم القضاء على الثنائية، حتى ترى البابوية مولد الهوسية في بوهيميا فـي القـرن الخـامس عشر. وعندئذ تستنفر البابوية حملات صليبية جديدة ضد التشيك الذين تعتـبرهم الكنيسـة الرومانية هراطقة.

ومن الناحية الاشتقاقية، فإن الهرطقة هي اختيار من داخل حقيقة مكرَّسة لحقيقة جزئيـة يتم اعتبارها حقيقة مطلقة، ومن ثم تصبح حاذفة لكل مـا عداهـا. والحـال أن الكاثاريـة [التطهرية] التي تتطور في لانجدوك في الشطر الثاني للقرن الثاني عشـر إنمـا يصعـب اعتبارها هرطقة مسيحية. فنحن في الواقع بإزاء ديانة جديدة، إذ يجـري الانتقـال مـن ثنائية معتدلة، قائمة على الإيمان برب خالق واحد، هو في آن واحد أب للمسيح ولإبليـس، إلى ثنائية مطلقة، متأثرة ببوجوميليي [أصدقاء الـرب] فـي الإمبراطوريـة البيزنطيـة؛ فالإيمان بمبدأين خالدين للخير والشر لا تعود له صلة بالمسيحية. والواقـع أن الكاثاريـة، الموجودة بالفعل في التولوزان في عام ١١٤٥، إنمـا تتطـور بـالأخص فـي سـتينيات وسبعينيات القرن الثاني عشر، بينما تضعف سيطرة الكنيسـة علـى المجتمـع الجنوبـي الفرنسي. ويطورها "الكاملون" الذين حصلوا على الـ *Consolamentum* [سرّ التَوليـة]، وهو السر الوحيد الذي تعترف به الكنيسة الكاثارية. وقد عاش "الكاملون" فـي جماعـات صغيرة منكبة على الحياة التأملية وعلى الوعظ العام، ونظموا أسـقفيات يقودهـا أسـقف وأقاموا صلات وثيقة مع الإقطاعيين الجنوبيين الفرنسيين. وقـد أراد هـؤلاء الأخـيرون التعويض عن إفقارٍ ناجمٍ عن تشرذم الإقطاعات وتكاثرها بوضـع أيديـهم علـى أمـلاك الكنيسة. ويبدو أن بيت تولوز، وهو الأقوى بين بارونات الجنوب، قد تسـامح مـع نمـو الهرطقة.

وقلّما ترد الكنيسة على هذا النمو قبل بابوية اينوشنتيوس الثالث، وهو أول بابـا يـدرك قوة الحركة الثنائية. وسعياً إلى سد الثغرة المتمثلة في محدوديـة معـارف رجـال الديـن

[الجنوبيين] وعجزهم عن تلبية حاجات دين أكثر روحانية، فإن البابا يرسل إلى لانجـدوك لجنة من السيسترسيين تحت قيادة رئيس شمامسة ماجلون، بيير دو كاستيلنو، الذي تجـري ترقيته إلى مندوب بابوي، ورئيس دير سيتو، آرنو ــ أماليك. وإذ ينضم إليهم فـي عـام ١٢٠٦ الأسقف دييجو دوسما ودومينيك دو كاليريجا، يدعـون إلـى الزهـد " بالكلمـة وبضرب المثل "، لكن النتائج بطيئة. وفي عام ١٢٠٧، يجري حرمان كونت تولوز كنسـياً لدعمه الهرطقة؛ وفي العام التالي، يقوم أحد رجاله، دون موافقة منـه، علـى مـا يبـدو، باغتيال المندوب البابوي، بيير دو كاستيلنو. وعندئذ يأمر اينوشنتيوس بالدعوة إلـى حملـة صليبية ضد الكونت ويستنفر الفرسان الفرنسيين. وحيال الخطر، يتعهد ريمـون السـادس بقمع الهراطقة وبرد الأملاك التي صادرها أتباعه إلى الكنيسة. بل إنـه يتنـاول الصليـب وسوف يذهب إلى فالنسيا [بلنسية] لاستقبال الحملة الصليبية المؤلفة مـن سـادة شـمالي ووسط فرنسا، وإن كانت مؤلفة أيضاً من قوات بافارية وساكسونية وفريزيـة وإنجليزيـة ولومباردية. وبالرغم من إلحاح البابا، فإنه لا فيليب أوجست ولا ابنه الأمير لويس يقبـلان قيادة الحملة. وبعد الاستيلاء على بيزييه ونهبها (يوليو/ تموز ١٢٠٩) ــ وهو حدث يمـلأ الجنوب كله بالرعب ــ يستولي جيش صليبيي الشمال على أراضي ريمـون ــ روجيـه، فيكونت ترينكافيل، والتابع في آن واحد لكونت تولوز وبدرو الثاني، ملك أراجون. ويقـرر المندوبون البابويون أن يعهدوا بأملاكه إلى سيمون دو مونفور، كونـت ليشيسـتر، الـذي يسيطر عليها بالاشتراك مع مجرد خمسة وعشرين فارساً وبضع مئـات مـن الجنـود؛ فالواقع أن غالبية الصليبيين يأخذون طريق العودة بمجرد انتهاء مدة الخدمـة الإقطاعيـة التي لا تزيد عن أربعين يوماً.

ولا يكتفي المندوبون البابويون بهذا النجاح الأول. فهم يحاولون التدخل فـي أراضـي كونت تولوز، بحجة أن هذا الأخير لم يلتزم بوعوده. وإذ يجري حرمان ريمون السـادس كنسياً من جديد، فإنه يلجأ إلى البابا شاكياً بلا جدوى. وفي عام ١٢١١، يسـتولي سـيمون دو مونفور على كل الكونتية، فيما عدا مدينتي تولوز ومونتوبان. أمّا ملك أراجون، بـدرو الثاني، المدعو إلى النجدة من جانب كونتات تولوز وفوا وكومينج، فهو ينهزم ويُقتـل فـي معركة ميريه (١٢ سبتمبر/ أيلول ١٢١٣)، حيث تتغلب سرعةُ فرسان سيمون دو مونفـور غير الكثيرين على جيوش الجنوب وآراجون المتحالفة. والحال أن مجمع لاتـران الرابـع (١٢١٥) يسلم إلى الظافر كونتية ومدينة تولوز، حيث يتعين على ريمون السادس الاكتفـاء بمعاش سنوي، بينما يتعين على ابنه، ريمون السابع، الإكتفاء بمركيزية بروفانس. وتنتـهي

الحملة الصليبية بموت اينوشنتيوس الثالث (١٢١٦)، الذي حَوّلَ إتجاه طاقات الجماعة المسيحية إلى بذل مجهود جديد في الأرض المقدسة.

ومن عام ١٢١٦ إلى عام ١٢٢٦، يسترد ريمون السادس وريمون — روجيه ممتلكاتهما، بالرغم من أن البابا الجديد، أونوريوس الثالث، كان قد دعا إلى حملة صليبية جديدة ضدهما. ويلقي سيمون دو مونفور مصرعه في يونيو/ حزيران ١٢١٨ أمام مدينة تولوز. ويتنازل ابنه آموري عن حقوقه للويس الثامن. ويقود الملك الفرنسي الصليبيين في الجنوب، في عام ١٢٢٦، ويُخضع غالبية الإقطاعيين، لكنه يموت في الحملة في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٢٢٦. ويتوصل البابا جريجوريوس التاسع إلى كسب خضوع ريمون السابع الذي يجره إلى التصالح مع الكنيسة. وبموجب معاهدة باريس (١٢ أبريل/ نيسان ١٢٢٩)، يتنازل كونت تولوز لملك فرنسا عن جميع أراضيه وراء نهر الرون، ويحتفظ بممتلكاته الأخرى ويقبل زواج ابنته ووريثته، جين، من الفونس دو بواتييه، شقيق القديس لويس.

لكن الحملة الصليبية التي تنتهي على هذا النحو لا تقضي على الكاثارية في لانجدوك. ومع أن الحملة قد أدينت بقسوة من جانب كثيرين من شعراء التروبادور البروفانسيين، إلا أنها قد سمحت لبعض بارونات شمالي فرنسا، وبالأخص لسيمون دو مونفور، بحيازة أراضٍ شاسعة، باسم الكنيسة من حيث المبدأ. والواقع أن الصليبيين قد أولوا الصدراة لمصالحهم الخاصة قبل الاهتمام بالقضاء على الهرطقة. ولذا يلجأ البابا جريجوريوس التاسع إلى الإخوة الوعاظ لإجراء تحقيقات ولملاحقةِ الهراطقة؛ وتولد محكمة التفتيش في الجنوب الفرنسي في عام ١٢٣٣. وهي تجعل حياة الكاثاريين التأملية ودعوتهم مستحيلتين؛ ثم إنها تضيف فعالياتها إلى رعوية جمعيات الصدقة التي تتيح للشعب حياة كمال، على غرار حياة المسيح. وإذ يلوذ الهراطقة بمونسيجير، وهو آخر ملاذ كاثاري، يتم الاستيلاء على هذا الملاذ في عام ١٢٤٤، فيتفرق الناجون منهم في لومبارديا؛ وفي نهاية الأمر، ينجح برنار جي، مفتش تولوز، في استئصال شأفة الهرطقة من لانجدوك في الربع الأول من القرن الرابع عشر، ليس دون أن يستثير هناك عداوةً مقيمةً للاكليريكية. والحال أن محكمة التفتيش ورعوية الجمعيات الدينية الجديدة، بأكثر من الحملة الصليبية، هي التي تغلبت على الكاثارية.

وفي مستهل القرن الخامس عشر، تشن البابوية حملات صليبية جديدة من أجل مكافحة أنصار يان هوس، الذي أُعدم في كونستانس في عام ١٤١٥. وهذه العقوبة القصوى إنما

تطلق العنان في بوهيميا وفي مورافيا لرد فعل قومي، معادٍ في آن واحد للروح الجرمانية وللكنيسة التي كان يان هوس قد أدان نظامها الإقطاعي ورأى أن كهنتها يجب أن يتخلوا عن كل ملكية دنيوية. والحال أن عصبة قومية من النبلاء التشيك، ترى علمنة أملاك الكنيسة [أي تسليمها إلى المدنيين]، إنما تتشكل في أكتوبر/ تشرين الأول ١٤١٥ وسرعان ما تصطدم بعصبة من السادة الكاثوليك. ويؤدي صعود سيجسموند إلى العرش الإمبراطوري وتمرد براغ (يوليو/ تموز ١٤١٩) إلى إعلان الحرب، التي يحولها البابا مارتان الخامس إلى حملة صليبية ضد الهرطقة. والواقع أن مجمع سيينا (١٤٢٣) يمنح الغفران الصليبي لجميع من يسلّمون الهراطقة الهوسيين إلى الأساقفة والمفتشين. والحال أن سيجسموند، المدعوم من البابوية، إنما يتزعم الحملة الصليبية ضد الفلاحين التشيك، الذين يقودهم يان زيزكا. ولمرتين، في عام ١٤٢١ وفي عام ١٤٢٢، تفشل الجيوش الإمبراطورية في بوهيميا. وينتقل التابوريون [نسبة إلى معقلهم في جبل تابور]، وهم هوسيون متطرفون، إلى الهجوم، تحت قيادة بروكوب الأكبر، ويجتاحون الأرياف الألمانية. وفي عام ١٤٢٧، نجد أن حملة صليبية جديدة بقيادة الكاردينال ــ المندوب البابوي، هنري الونشيستري، لا تلقى نجاحاً أكبر؛ وجباية ضريبة صليبية، الـ "gemeine Pfennig"(*) ، تُمنى بالفشل. ويتم القيام بحملة بابوية جديدة في عام ١٤٣١؛ فالكاردينال سيزاريني، المعين لقيادتها، يدعو إلى الحرب المقدسة ضد الهوسيين؛ لكن الأمراء يهربون من الخدمة، والجيش الذي حشده المندوب البابوي يُمنى بهزيمة تامة في أغسطس/ آب ١٤٣١ في مواجهة قوات بروكوب. وتفشل الحملة الصليبية ضد الهرطقة الهوسية. وفي عام ١٤٣٦، تؤدي مفاوضات طويلة إلى الـ "Compactata" [الاتفاق الشامل] الذي يقدم للتشيك بعض التنازلات. إلاّ أنه بالرغم من هذا التصالح الظاهري مع الكنيسة، تظل بوهيميا خارجة من الناحية الفعلية عن الطاعة الرومانية على مستوى الممارسة والعقيدة، خلال الشطر الثاني للقرن الخامس عشر.

وبالنسبة للكاثارية كما للمسألة الهوسية، يتبين أن استخدام القوة من جانب الكنيسة، على شكل حملة صليبية، لا يكفي للقضاء على الهرطقة. فهو لا يؤدي إلاّ إلى تشدد الهراطقة في معارضتهم المطلقة للكنيسة القائمة التي خربت جيوشها ممتلكاتهم واستولت عليها. وقد أدت محاكم التفتيش والدعوة والمفاوضات إلى نتائج أكثر ديمومة من استخدام

(*) الـ pfennig واحد من مائة من المارك وبذا يكون اسم الضريبة هو ضريبة الـ pfennig العامة. م

العنف الحربي في قضية روحية، وهو عنف يستثير العديد من الانتقادات ضد مؤسسة الحركة الصليبية ذاتها.

٠٤ نقد الحركة الصليبية

من عام ١٠٩٥ إلى نهاية العصر الوسيط، ارتفعت أصوات في الغرب وفي الشرق اللاتيني لنقد الحركة الصليبية: أيحق للمرء إراقة دماء الكفار، ومن باب أولى دماء المسيحيين، عندما يجري توجيه حملات ليس إلى القدس وإنما إلى القسطنطينية أو إلى بلاد غربية يحكمها أمراء في صراع مع البابوية ؟ كما أن الهزائم وحرف الحملة الصليبية عن هدفها الأصلي أو حتى هزال النتائج المكتسبة، قياساً إلى الجهود المبذولة، إنما تعد مناسبات للتعبير عن نقد يستهدف سلوك الصليبيين وسلوك قادتهم بأكثر مما يستهدف واقع الحملة الصليبية ذاته.

وتؤدي إخفاقات الحملة الصليبية الأولى إلى قصر المشاركة في الحملات على أولئك القادرين على أن يكونوا مفيدين لها، أي على المدنيين المسلحين جيداً والقادرين على أن يتحملوا بأنفسهم تكاليف إعاشتهم. أمّا غير المقاتلين والفقراء والشيوخ والضعفاء فهم يربكون الجيش بلا جدوى؛ وليس لهم من مكان فيه. والحال أن رالف نيجيه، في بحثه الذي يحمل عنوان *De re militari* [في الشأن العسكري] والموجه إلى فيليب أوجست في عام ١١٨٧ أو في عام ١١٨٨، إنما يستبعد أيضاً رجال الدين؛ فالذين يمكنهم السير في أثر الجيش هم أولئك الذين يمارسون الخدمات الطقوسية وحدهم. والأساقفة أكثر نفعاً في أسقفياتهم والرهبان في أديرتهم؛ وعهدُ الـ *Stabilitas* [الاستقرار] الديري يتغلب على عهد المشاركة في الحملة الصليبية. أمّا فيما يتعلق بالنساء، فيجب استبعادهن من الحملة، كما كانت تلك هي الحال في البندقية في عام ١٢٠٢، قبل خروج الحملة الصليبية الرابعة. والعهد الذي يقدمه أولئك الذين يتناولون الصليب عهد ملزم. فمدونو الأخبار والدعاة وكتاب أناشيد الحملة الصليبية يهاجمون بعنفٍ أولئك الذين يتحللون من التزاماتهم أو يرجئون رحيلهم. ويضغط الشعراء التروبادور والغنائيون في أعوام ١١٨٧ ـ ١١٨٩ على ملكي فرنسا وإنجلترا لكي يحلاّ خلافاتهما ويخرجان للثأر لهزيمة حطين.

والانتكاسات التي يكابدها جيش الرب تحير ضمير المسيحيين: أيمكن أن يخذل الرب أولئك الذين يقاتلون في سبيله ؟ إن الهزائم وكذلك الكوارث الطبيعية ـ القحط، الأوبئة، الزلازل ـ والتي يكابدها الصليبيون، إنما تنبع من خطيئة البشر وهي ابتلاء من الرب.

ذلك هو التفسير الذي يشيع في الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، من عام ١٠٩٨ إلى أواخر ذلك العصر. والمكابدات أمام أنطاكية والقدس، وضياع الرُّها، والفشل أمام دمشق في عام ١١٤٨ وانتصار صلاح الدين في عام ١١٨٧ هي كلها تحذيرات ربانية. فليتُب المسيحيون وليكفروا عن ذنوبهم وسوف يشملهم الرب بنعمته من جديد ويعيد لهم النصر! والصوم والصلوات والطواف بالمزارات المقدسة وطقوس التكفير المختلفة عن الذنوب إنما تسعى إلى توسل الرحمة الإلهية. واعتباراً من عام ١١٤٥، يسبق كل حملة صليبية نداء إلى التوبة. لكن خطيئة البشر غالباً ما تكون لها اليد العليا خلال الحملات ؛ فادعاءات القادة وغطرسة الصليبيين وجشعهم والفجور والزنا وانعدام الانضباط وانعدام القصد المستقيم هي أسباب الاخفاقات وهي الاتهامات التي يكررها ضد الصليبيين فوشيه الشارتري ورالف نيجيه وكاتب أنشودة الحملة الصليبية الألبيجية. وفي المقابل، فإن الصليبي الحقيقي يجب أن يكون متواضعاً في هيئته وفي ملبسه كما في مأكله؛ وأفضل نموذج لفارس المسيح، للـ *miles peregrinus* [الفارس الحاج] هو نموذج القديس لويس الذي، لدى عودته من حملته في مصر والأرض المقدسة، يكثف أفعال تقواه توسلاً لنيل العفو عن الإخفاقات التي يُحمّل نفسه المسئولية عنها.

وسلوك الصليبيين ليس وحده ما يجري توجيه الاتهام إليه. فالنقد ينصبُّ على الحركة الصليبية ذاتها، على أسلوب تمويلها وعلى أهدافها وعلى مفهوم الحرب المقدسة. فتسليح ونقل جيش إلى ما وراء البحر إنما يكلفان غالياً: ومنذ الشطر الثاني للقرن الثاني عشر تتحمل المسئولية عنهما الأجهزة المالية البابوية والملكية التي تستثير تجاوزاتها عداوة قوية، حتى في صفوف الكهنة. وعُشر صلاح الدين الذي قام الجباة الملكيون في فرنسا وفي إنجلترا بجبايته بصرامة، إنما يخلق مناخ ريبة دائمة حيال كل ضريبة ملكية تجبى لأجل الحملة الصليبية. ومدن الزمام الملكي ومدن الجنوب الفرنسي تنفر من تقديم العون الذي يطلبه لويس التاسع والفونس دو بواتييه. ثم إن الضرائب البابوية التي تستنزف دخول الكهنة، إنما تتعرض لنقد أشد قسوة، وذلك بقدر ما أنها كانت تجبى في القرن الثالث عشر لتمويل الحملات ضد آل شتاوفن بأكثر مما لتلبية حاجات الأرض المقدسة. ويحتج الكهنة والنبلاء الفرنسيون على العشور الممنوحة من البابا اينوشنتيوس الثالث للقديس لويس؛ ويعارض الكهنة الانجليز جباية الأموال اللازمة للحملة التي قررها هنري الثالث على صقلية في عام ١٢٥٦: ويجري تحرير عرائض شكايات وإرسال وفد إلى روما. وتتذرع الكنيسة الأسبانية بحاجات الـ *Reconquista* لكي ترفض تلبية طلبات

البابا. والتصدي للجهاز المالي البابوي هو التيمة الكبرى للانتقادات الموجهة إلى الحملة الصليبية، والتي تجد صدى لها في المذكرات التي يحررها آمبير دو رومانس وجيلبير دو تورنيه، بمناسبة انعقاد مجمع ليون الثاني (١٢٧٤). كما أن ممارسة تحصيل الأموال كبدلية للإعفاء من العهود الصليبية إنما تدان بقوة من جانب مدون الأخبار الإنجليزي متى باريز ومن جانب الشاعر ريتبوف اللذين يريان فيها ذريعة مريبة لجمع المال.

والحملات ضد المنشقين والهرطقة وأعداء البابوية موضوع لبعض الانتقادات، الصادرة خاصة عن الأوساط المعادية تقليدياً للثيوقراطية البابوية. وتحويل اتجاه الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية يستثير حالات فرار في صفوف الجيش، لكن الانتقادات تخص قادة الحملة بأكثر مما تخص السياسة البابوية ذاتها. ووحده متى باريز، أو وحده تقريباً، هو الذي يعارض استخدام الحملة الصليبية ضد الروم. وتتعالى أصوات الاحتجاج ضد الحملة الصليبية الألبيجية من بعض الشعراء التروبادور البروفانسيين، مثل جيلم فيجييرا وبيير كاردينال ومن بعض شعراء الشمال الغنائيين، مثل أون دو سان كينتان وجيوم لو كليرك؛ لكن آخرين، لا يرون في هذه الحملة غير خلاف إقطاعي وترابي، إنما يتولون الدفاع عنها ويوافقون على ملاحقةالهراطقة. على أن عدداً من الشعراء التروبادور ومن أنصار فريدريك الثاني ومن مدوني الأخبار بدير سانت ألبانس الإنجليزي ومن كتّاب أناشيد الحملة الصليبية إنما يقدمون حججاً للدعاية الإمبراطورية ضد البابوية: أمن المشروع رفع صليب المسيح ضد المؤمنين ـــ الحزب الجيبلاني ـــ بدلاً من رفعه ضد المسلمين ؟ بيد أن معارضة الحملة الصليبية ضد فريدريك الثاني إنما تظل مقصورة على خصوم البابوية التقليديين؛ ويواجه هذه المعارضة شعراء، كبيير دو كاستيلنو، يؤيدون قضية شارل دانجو.

وفي المقابل، تعتبر الانتقادات المنبثقة من اخفاقات الحملات الصليبية أكثر إتساعاً: إن الشعور بالمرارة وبالإحباط إنما يقود إلى التساؤل عن ملاءمة مثل هذه الحملات. وفشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق يجد تعرية قاسية في كلام كاتب حوليات من فورتسبورج وفي كلام جيروه من رايخيرسبيرج اللذين يرصدان صلة بين النكسات التي حاقت بالصليبيين والنزاعات بين البابوية والإمبراطورية. وبالنسبة لأنصار الراهب المتنبئ؛ يواكيم الفلوري، وهم أحرص على تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية مما على إبادتهم، فإن الحملة الصليبية إنما تتعارض مع المخطط الرباني. وهزيمة القديس لويس في المنصورة تستثير الحنق والتجديف في فرنسا: لكن ريتبوف، بالرغم من تعبيره

في عام ١٢٦٧ عن وجهةِ نظر " اللاصليبي "، ليس معادياً للحركة الصليبية نفسها. والانتقادات الرائجة إنما تجري استعادتها من جانب كُتّاب المذكرات الثلاث عن الحركة الصليبية والمقدمة إلى البابا جريجوريوس العاشر خلال انعقاد مجمع ليون الثاني. إن آمبير دو رومانس وجيلبير دو تورنيه وبرونو دولميتز يتهمون البابوية بقتل روح الحملات الصليبية، لكنهم ليس أقل دفاعاً عن ضرورة مثل هذه الحملات، للحيلولة دون توسع الإسلام. وفي القرن الرابع عشر أيضاً، ينتقد خصوم شرسون للبابوية مثل جون ويكليف واللولار الإنجليز [أي حزب " المتذمرين "، من الفعل الإنجليزي القديم *Lollen*، وهم أوائل أتباع ويكليف، وقد هاجموا الأعراف الكنسية ودعوا إلى العودة إلى الزهد] استخدام الحملة الصليبية ضد المسيحيين، وإن كانوا لا ينتقدون المفهوم نفسه. أما روجر بيكون ورامون لول (١٢٣٢ ـ ١٣١٦) والشاعر الإنجليزي جون جوور (١٣٣٠ ـ ١٤٠٨)، وكلهم معادون لإراقة الدماء، فإنهم لا يشجبون الحملة الصليبية شجباً صريحاً.

وتجئ الاعتراضات الأساسية من أوساط الهراطقة: ونحن لا نعرف هذه الاعتراضات، في الأغلب، إلاّ من كتابات خصومهم، المساجلين الكاثوليك. فجماعة الفودوا [أنصار بيير فالدو، داعية الفقر الاختياري، منذ عام ١١٧٠، وهو في الأصل تاجر ثري من ليون]، وفقاً لما يذهب إليه الان دو ليل، إنما يرفضون الحملة الصليبية بوصفها انتهاكاً للأخلاق المسيحية التي تُحَرِّمُ قتل الإنسان لأخيه الإنسان. ويقوم أحد الدومينيكان، وهو مونيتا من كريمونا، بالتعبير عن أفكار الكاثاريين؛ وبما أنهم معادون للحرب، فإنهم يعتبرون دعاة الحملة الصليبية قتلةً. لكن هذه الانتقادات " السلامية " لا تلقى صدى عالياً.

والواقع أن الحماسة للحركة الصليبية إنما تظل عظيمة إلى مستهل القرن الخامس عشر. ومن المؤكد أنه يجري التعبير عن انتقادات، لكنها موجهة ضد التجاوزات أو ضد بعض جوانب الحركة الصليبية بأكثر مما ضد الفكرة نفسها. فالمطالب المالية، الملكية والبابوية، يجري الحكم عليها بقسوة، لكن خطط " العبور إلى ما وراء البحر " لم تكن قط بهذه الدرجة من الوفرة التي كانت عليها في القرن الرابع عشر. فهناك سعي إلى تحسين الحملة الصليبية بأكثر مما إلى نسف أسسها؛ وفي مواجهة الإسلام، يتزايد تشدد الجماعة المسيحية في أواخر العصر الوسيط في موقف دفاعٍ نشيط. إلاّ أنه في صفوف جمعيات الصدقة التي نشأت في العقود الأولى للقرن الثالث عشر، تولد فكرة تحويل الوثنيين والكفار إلى اعتناق المسيحية من خلال استخدام الكلمة. وتميل فكرة التبشير إلى الحلول محل فكرة الحملة الصليبية.

٥. فكرة التبشير

بما أن كثيرين من المؤرخين قد صوروا تيمة التبشير في أرض الإسلام على أنها هدف مناقض للحملة الصليبية، فمن المتصور أنها قد حلت تدريجياً خلال القرن الثالث عشر محل فكرة الحملة الصليبية، لكي تكون بديلاً عنها بالكامل في أواخر العصر الوسيط. وواقع الحال هو أن الحملة الصليبية والتبشير، الحملة الصليبية وتحويل الكفار إلى اعتناق المسيحية، قد لا يعتبران حقيقتين متناقضتين تماماً: فهما، بالنسبة لرجال الكنيسة ولكُتّاب البحوث، يبدوان أحياناً كأسلوبين متكاملين لتعامل الغرب مع العالم الإسلامي في العصر الوسيط.

ويسعى التبشير إلى التوصل بكلمة وبمثال من ينكب عليه إلى تحويل الكفار إلى إعتناق المسيحية. والحال أن هذا الهدف لا يُرد له البتة أيُ ذكر خلال الحملات الصليبية الأولى، لا في خطبة أوربان الثاني في كليرمون ولا في رسائل وخطب ونداءات باباوات القرن الثاني عشر. وكل ما هناك، وبما يتماشى مع التقاليد الكارولينجية، أن الحرب يجري ربطها عند سان برنار وعند بعض الحقوقيين الكنسيين بتنصير الوثنيين، الذين لا يملكون سوى الاختيار بين التنصرن والقتل. ومن المؤكد أن هناك رفضاً للتنصير القسري، إلاّ أنه، حتى زمن اينوشنتيوس الثالث، كان التنصير القسري يحظى بالمشروعية. وخلال القرن الثاني عشر، ترتفع أصوات لنقد الحملة الصليبية، وخاصة لمؤاخذة فرسان الهيكل على استخدامهم العنف، والذي يتعارض مع الأخلاق المسيحية، وعلى تفاهة نتائج حروبهم، قياساً إلى تنصيرات الأزمنة الرسولية. ويبين الأسقف الكالابري، يواكيم الفلوري (١١٣٥ ــ ١٢٠٢) أن الحملة الصليبية لم تؤدِ إلاّ إلى إثارة الخطر الإسلامي، والذي لا يمكن تبديده إلاّ من خلال العمل الروحي. إلاّ أنه ليس مؤكداً أن الأفكار اليواكيمية قد لقيت آنذاك انتشاراً واسعاً.

ولا تولد الدعوة التبشيرية بين المسلمين من نقدٍ موجّهٍ إلى الحملة الصليبية وإنما من إدراك الجماعة المسيحية للأهمية العالمية الملحة للعمل التبشيري. والحال أن جاك دو فيتري، أسقف عكا، المتأثر بصوفية ماري دوانيز، إنما ينظم جولات دعوة منذ وصوله إلى الأرض المقدسة (١٢١٦) ويرسل رسائل مكتوبة بالعربية إلى مختلف أمراء المسلمين لحثهم على التحول إلى اعتناق المسيحية. لكن الحملة الصليبية، التي يعتبرها حرباً دفاعية ومن ثم عادلة، إنما تظل في نظره وسيلة فعالة للوصول إلى تحويل المسلمين إلى اعتناق المسيحية. وبعد ذلك بثلاثة أعوام، يجتاز سان فرانسوا خطوط الجيش الصليبي في مصر

ثم يمثل أمام السلطان الكامل. وبعد حوار، لم يصل إلينا(*)، تجري إعادته سليماً وسالماً إلى الجيش الصليبي. وينظر الرهبان الفرنسيسيون إلى العمل التبشيري بوصفه بديلاً إضافياً، وليس مناقضاً، للحملة الصليبية؛ إذ يجري تصويره على أنه طريق ممكن إلى الشهادة، ومحاكاة نموذجية للمسيح المكابد. والحال أن الرهبان الفرنسيسيون هم في صدارة المبشرين بالدعوة لدى الكفار. والواقع أن دراية أقل سطحية بالإسلام، وتأثير أناشيد الحملة الصليبية والأنسنة التدريجية للمسلمين في الأدب المحلي والحضور النشيط للأرقاء المتنصرين في مدن البحر المتوسط، سوف تؤدي كلها إلى تشجيع الغرب على محاولة القيام بالتبشير في أرض الإسلام.

لكن النتائج ليست على مستوى الآمال الأولى. ففي الأرض المقدسة، التي لا تعدو أن تكون إحدى مناطق إخوة جمعيات الصدقة، يعارض السادة الصليبيون تنصر أرقائهم، الذين قد يستخدمون هذا التنصر كحجة لاسترداد حريتهم؛ وفي عام ١٢٣٧، يضطر البابا جريجوريوس التاسع، بالرغم من وصيته للسادة بإعتاق أرقائهم المتنصرين، إلى الاعتراف بأن التنصرن لا يمنح اليد العاملة المسترقة أي حق في الحرية. وتكشف مصادرنا عن بعض حالات التنصر، أكان بين صفوف أفراد الطبقات الحاكمة القديمة أم، على العكس من ذلك، بين صفوف الطبقات الدنيا المسلمة، وهذه بالأحرى أفعال فردية معزولة لا شهادات على نجاح مترتب على الدعوة التي تقوم بها جمعيات الصدقة.

وكما يلاحظ رامون البيينافوري نحو عام ١٢٥٥، فإن المسلمين لا ينفتحون على الدعوة إلى الدين المسيحي. والتبشير، غير المثمر في بلاد الإسلام، لا يعرف قدراً من النجاح إلا في بلاد الاسترداد المسيحي ــ فالنسيا [بلنسية] ومورثيا [مُرسية] ــ حيث تحيا منذ ذلك الحين جماعات سكانية مسلمة مهمة تحت حكم أمراء مسيحيين.

وهذه الملاحظة تبرر اللجوء في آن واحد إلى الحملة الصليبية وإلى الجهد التبشيري. ومن جهة أخرى، يحدد البابا اينوشنتيوس الرابع (١٢٤٣ ــ ١٢٥٤) طابع الصلة بين الحرب المسيحية وتحويل الكفار إلى اعتناق المسيحية. فبوصفه نائباً للرب على الأرض، يملك البابا السلطة في آن واحد على المسيحيين وعلى الوثنيين، الذين يمكنه إرغامهم بالقوة على قبول المبشرين. فهل يُظهر الكفار سوء النية حيال التبشير ؟ إن هذا يكفي بحد

(*) الحوار وصل إلينا من خلال القديس بونافنتورا (١٢٢١ــ١٢٧٤) في كتابه: حياة القديس فرانسوا. ــ انظر الملحق. ــ المترجم.

ذاته لتبرير خوض حرب ضدهم. على أن التنصير القسري مستبعد. ومن المحتمل أن الأفكار التي عبّرَ عنها اينوشنتيوس الرابع قد أثرت على مسلك القديس لويس. فإذا كانت الحملة الصليبية لعامي ١٢٤٩ و ١٢٥٠ تظل تقليدية في أهدافها، فإن من الوارد أن حملة عام ١٢٧٠ قد سعت إلى إعادة تنصير ولاية إفريقية [تونس]، أرض القديس أوغسطين؛ وكان من الوارد أن يتصور ملك فرنسا أن تحول المستنصر، أمير تونس، إلى اعتناق المسيحية، سوف يستتبع تنصير رعاياه، وأن الحملة الصليبية إنما تفتح بذلك بلداً أمام التبشير.

ويؤدي فشل الحملة على تونس إلى إعادة التفكير في الصلة بين الحملة الصليبية والدعوة. فيذهب بعض الكُتّابِ إلى أن الحملة الصليبية تَحُولُ دون التحول إلى اعتناق المسيحية. ويشدِّدُ روجر بيكون، في كتابة *Opus majus* [العمل الكبير]، والمكتوب بين عامي ١٢٦٦ و ١٢٦٨، على ضرورة تعلم اللغات لأجل تنصير الكفار. وفي هذا الاتجاه يسير القرار المتخذ في مجمع فيينا (١٣١٢) بتحبيذ إنشاء كَراسٍ للغات الشرقية في عدة جامعات. ويرى جيوم الطرابلسي، وهو كاتب بحث محرر في عكا في عام ١٢٧٣، أن المسلمين قريبون من التنصر ويذهب إلى أن الحملة الصليبية عديمة الجدوى. وفي المقابل، يبرر آخرون استخدام القوة لإرغام المسلمين على سماع الدعوة المسيحية؛ فيرى توماس داكينو وأمبير دو رومانس، رئيس جمعية الإخوة الدعاة، أن القتال المسيحي هو الرد الوحيد الممكن على العدوان الإسلامي.

أمّا فيما يتعلق براامون لول، الذي تتباين آراؤه من بحث إلى آخر، فهو يرى في "*Liber de fine*" ["كتاب الوثني"] (١٣٠٥) إرسال رهبان فرنسيسيين إلى المسلمين، لحثهم على التنصر؛ والحال أن امتناعهم سوف يبرر حرب المسيحيين الأبدية ضدهم. وفي القرن الرابع عشر أيضاً، والحركة الصليبية تلفظ أنفاسها، تتكاثر خطط "العبور إلى ما وراء البحر"؛ وتجعل بعض البحوث، كبحوث بيير ديبوا (نحو عام ١٣٠٦) وجيوم ديران، أسقف ميند، (نحو عام ١٣١٢) من تنصير المسلمين هدفاً للحملة الصليبية.

على أن الساحة الوحيدة التي يتسنى فيها للتبشير أن يلقي شيئاً من النجاح إنما تقع على أطراف أو خارج العالم الإسلامي. فالغرب يكابد نحو أربعينيات القرن الثالث عشر الصدمة الكبرى التي أحدثتها غزوات المغول، والتي وصلت إلى مشارف البحر الأدرياتي. وبزوال الرعب، تظهر رغبة في التعرف على هذا الشعب القادم من آسيا وفي محاولة تنصيره. والواقع أن رحلات جيوفاني دي بلانو كاربيني (١٢٤٥) وأندريه دو

لونجمو وآسلان من كريمونا وجيوم دو ريبروك (١٢٥٤ ــ ١٢٥٥)، والتي أمرت بها البابوية، إنما تنقل إلى الغرب معلومات ثمينة وتبشر بالمشاريع التبشيرية الكبرى في أواخر القرن الثالث عشر في الخانيات المغولية وحتى الصين، حيث يؤسس جان دو مونتكورفينو هيراركية كاثوليكية. ومع أن النتائج هزيلة، وعابرة غالباً، إلاّ أن التبشير يساعد على إثراء الدراية بالعالم ويزود الكنيسة بقاعدة انطلاق من أجل التقارب الكنسي العام الذي أقره مجمع فلورنسا في عام ١٤٣٩. إلاّ أنه من جهة الإسلام، فإنه إذا كان الفرنسيسكان قد تمكنوا من البقاء في الأرض المقدسة من أجل خدمة الحجاج لا أكثر، فإن من الواضح أن التبشير المسيحي قد مُني بالفشل.

٦٠ البحث عن الآثار المقدسة

تحتاج تقوى المؤمنين في العصر الوسيط إلى دلائل محسوسة يمكن أن تستند إليها؛ ومن بين هذه الدلائل، تعتبر الآثار المقدسة موضع اشتهاء عظيم من جانب الحجاج الذين يطلبون شفاعة الشهداء والقديسين عندما يُصلّون أمام قبورهم أم أمام اثارهم. والواقع أن هناك اعتقاداً بأن القديسين يحبون بشكل خاص الأماكن التي عاشوا فيها أو الكنائس التي تحفظ رفاتهم؛ وهم يحبون أولئك الذين يزورونها ويحصلون من الرب على المعجزة أو الشفاء اللذين يطلبهما المؤمنون. على أن عبادة الآثار والتي لقيت اتساعاً مشهوداً في العصر الكارولينجي، إنما تزدهر في زمن الحملات الصليبية: ألاّ يحتفظ الشرق بذكريات لا تحصى عن حياة قديسين مهمين، مكرمين في الكنيسة اللاتينية كلها، وبشهادات ملموسة عن حياة العذراء وآلام المسيح ؟ إن هذه الثروات الدينية، والمعروفة جيداً في الغرب، إنما تعتبر في زمن الحملات الصليبية جزءً مهماً من الفتح، على مستوى واحد مع الأراضي والحصون، وتذكاراً بالتضحيات التي قد تتطلبها الحملة. وبالنسبة للصليبيين، تعد القدس والأرض المقدسة برمتها أثراً مقدساً يستوعب في قلبه القوة المقدسة للأنبياء والرسل والمسيحيين الأوائل والمسيح نفسه.

وفي حجهم المسلح، لا يرحل الصليبيون إلاّ ومعهم "ذخائر دينية". فريمون السانجيلي يأخذ معه كأساً مأخوذة من دير شيز ــ ديو؛ وجودفروا البويّوني يحوز صندوقاً يحتوي على آثار من القديس سيميون؛ والمندوب البابوي آديمار دو مونتيل يحتفظ بقطعة من الصليب الحقيقي [صليب الصلبوت]، ربما تكون قد جاءت من القسطنطينية. وعلى طول الطريق الذي يقودهم إلى القدس، يستولي الصليبيون متلهفين على كنوز الكنائس. إن قسيساً من ليل، هو جيربو، يستولي في دير يوناني على ذراع للقديس جورج، تئول فيما

بعد إلى روبير الفلاندري. والتوقف في أنطاكية فرصة لـ "اكتشافات" مهمة للآثار: إن ريمون السانجيلي ورفاقه يجدون في كنيسة سان ليونتيوس آثاراً لدم العذراء ولعدة قديسين. والأهم من كل ذلك أنه، على أثر رؤى سانت أندريه الذي ظهر في الحلم لبطرس بارتيليمي، في ١٤ يونيو/ حزيران ١٠٩٨، في كاتدرائية القديس بطرس الرسول، يجري اكتشاف الحربة المقدسة التي اخترقت جنب المسيح. وبالرغم من شكوك عديدين من قادة الحملة، إلاّ أن هذا "الاكتشاف" يستثير حماسة البسطاء ويقرر الغارة الظافرة التي يهزم الصليبيون خلالها جيش كربُغا. وخلال معركة عسقلان، يرفع القس الخاص لريمون السانجيلي هذا الأثر الثمين؛ وفي طوافهم التكفيري الذي يسبق الهجوم على القدس، يولي الصليبيون تكريماً خاصاً لآثار القديسين.

والحال أن مدينتين بالأخص تزودان اللاتين بكنوز لا تنفد: القدس والقسطنطينية. إن الأماكن المقدسة تفيض بشهادات طفولة وحياة وآلام المسيح، كما بذكريات الرسل الأوائل. والقدس، مع أنها لا تملك الصليب الحقيقي الذي جرى نقله إلى القسطنطينية في عام ٦٣٥، إنما تحتفظ فيما تواتر من القول على قطعة منه، موجودة في كنيسة القبر المقدس. وبعد اختفائها قبل الحملة الصليبية الأولى، يعاد اكتشافها في ٥ أغسطس/ أب ١٠٩٩ من جانب البطريرك أرنولف دو شوك، على مقربة من القبر المقدس، في ظروف مماثلة تماماً لـ " اكتشاف " الحربة المقدسة في أنطاكية. والواقع أن الصليبيين بحاجة إلى رؤية ولمس قطعة من هذا الصليب، الذي شقوا باسمه الطريق وتحملوا الكثير من المكابدات. ويجري الاحتفاظ بهذه القطعة في كنيسة القبر المقدس خلال القرن الثاني عشر؛ وبما أنهم كانوا يحملونها أثناء المعارك، فقد ضاعت خلال كارثة حطين في عام ١١٨٧. والقدس والأماكن المقدسة في فلسطين تزود الصليبيين بكثير من الآثار الأخرى: وعلى سبيل المثال، يمكن أن نشير إلى خصلة شعر للعذراء عثر عليها فارس من حاشية تنكريد، هو ايلجيه بيجو، الذي يقوم لدى عودته إلى الغرب بتوزيعها على عدة كنائس وأديرة. أما بوهيموند، فهو يقوم بنفسه، خلال جولته في فرنسا، بعرض الآثار التي جاء بها من الشرق. في حين أن بطرس الناسك يودع في دير نوفموستييه، قرب ليج، آثاراً من القبر المقدس وآثاراً ترجع إلى القديس يوحنا المعمدان. وهكذا تمد سوريا ـ فلسطين الغرب بزاد متدفق مستمر من الأشياء المقدسة. وفي عام ١١٩١ أيضاً، يرسل كونراد دو مونفيرات إلى إيطاليا قطعة من الصليب الحقيقي، جرى " اكتشافها " في كومانديرية أوسبتالية القديس يوحنا في عكا.

وقبل القدس نفسها، تمثل القسطنطينية أكبر مستودع للآثار المقدسة في العالم المسيحي. فالواقع أن الأباطرة البيزنطيين قد اهتموا بأن ينقذوا من التوسع والفتح العربيين آثار الكنائس المتفرقة في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية القديمة؛ والحال أن عاصمتهم إنما تغتني بالعديد من الكنوز المقدسة. وهي تصبح، إعتباراً من القرن السابع، بؤرة لنشر الآثار في مجمل العالم المسيحي. ويرى روبير الراهب، مدون أخبار الحملة الصليبية الأولى، أن المدينة " مستودع أقدس الأشياء ". والملوك الغربيون يسارعون إلى الحج إليها: سيجورد، ملك النرويج، في عام ١١٠٧ ولويس السابع، في عام ١١٤٧، وآموري، ملك القدس، في عام ١١٧١. وفي عامي ١٢٠٣ و١٢٠٤، نجد أن الصليبيين الذيين اعتبروا البيزنطيين خونة لمثلهم العليا ومن ثم غير جديرين بامتلاك كل هذه الثروات الدينية، سوف يرون أن من الطبيعي أن يستولوا على آثار كنائسهم وأديرتهم، بعد الاستيلاء على القسطنطينية. ويرى فيلاردوان أنه كان في المدينة أنذاك من الآثار قدر ما في بقية العالم. أمّا فيما يتعلق بروبير دو كلاري، فهو يصف باشتهاء آثار مصلى بوكوليون وكنيسة القديسين الرسل وكنيسة سانت ماري البلاخرنية. وعلى مدار ثلاثة أيام (من ١٣ إلى ١٥ أبريل/ نيسان ١٢٠٤)، تباح المدينة للسلب والنهب؛ ثم ينتظم نهب منهجي. إذ يجري جمع الآثار في بيت أسقف تروا، جارنيل دو ترينيل، ثم في بيت أسقف سواسون، نيفلون دو شيريزي. ولا ريب أن الاقتسام يتم بحسب القواعد المحددة في مارس/ آذار ١٢٠٤: ربع للإمبراطور اللاتيني، ثلاثة أثمان للبنادقة، ثلاثة أثمان للحجاج، أي لكهنة الجيش. وإلى هذه الآثار " الرسمية " المزودة بشهادة منشأ، تضاف الحصص الخاصة لكهنة أو لحجاج منفردين تسنى لهم، بالشراء أو بالسرقة، امتلاك آثار تعتبر أصالتها محل شك.

والواقع أن نقل الآثار المنهوبة من القسطنطينية إلى الغرب هو الشغل الشاغل والفضيحة الكبرى للعقدين الأولين للقرن الثالث عشر. وهو من فعل الصليبيين والكهنة الذين يجيئون لخدمة كنائس القسطنطينية بصفة مؤقتة، كما أنه من فعل الإمبراطور اللاتيني نفسه.

ويعدد الألزاسي جونتر البيريزي الآثار المهمة التي استولى عليها رئيس ديره، مارتان: دم للمسيح، قطع من خشب الصليب ومن تاج الشوك، ومن ثوب أرجواني ومن كفن المسيح وخصلات من شعر العذراء، وأصبع وقطعة من جمجمة القديس يوحنا المعمدان وقصبة من ساق القديس بطرس الرسول وقطعة من لحم القديس بولس الرسول

وذراع ويد للقديسة أوفيميا. وينقل روبير دو كلاري إلى دير كوربي آثاراً من القسطنطينية: صندوقاً من الكريستال لحفظ الآثار على شكل صليب وصليباً للمواكب الدينية. أمّا أهم كنز فتقع عليه يدا القديس لويس بين عامي ١٢٣٩ و١٢٤١. فالملك الفرنسي ينخرط في الاستيلاء على آثار آلام المسيح، والمحفوظة في الخزانة الإمبراطورية بالقسطنطينية والتي كان بودوان الثاني، الإمبراطور اللاتيني، قد سَلّمها للبنادقة على سبيل الرهن. ويقوم الملك بسداد المال للدائنين وسوف يستقبل في سانس في احتفال مواكبي تاج الشوك الذي جاء به اثنان من الإخوة الدعاة. ومنذ ذلك الحين، فإن المصلى المقدس الذي قام ببنائه من عام ١٢٤٢ إلى عام ١٢٤٧ لحفظ هذا الكنز الثمين، إنما يصبح المستودع الأول لآثار آلام المسيح في الغرب. وبدلاً من أن يلجأ القديس لويس إلى مراكمة الآثار، فإنه يقوم أيضاً بتوزيع كنوزه المقدسة على كنائس المملكة التي يريد تكريمها.

وهكذا أعطت الحملات الصليبية انتشاراً واسعاً لعبادة الآثار؛ وهي تؤدي إلى نقل منهجي ــ خاصة بعد عام ١٢٠٤ ــ للأشياء المقدسة من الشرق إلى الغرب؛ كما تؤدي إلى تكاثرها بالاستنساخ أو بتجزئتها إلى قطع أوفر أو بمجرد لمس إنسان لها فتنتقل بركتها إلى من يتصل به. والحال أن إيداعها في كنائس وأديرة الغرب إنما يقلب خارطة وهيراركية الحج الذي يرجع ازدهاره قبل أي شيء آخر إلى عبادة الآثار. فبالنسبة للمؤمنين، ربما تصبح الرحلة إلى الأماكن المقدسة في سوريا ــ فلسطين أقل لزوماً، لأن بوسعهم منذ ذلك الحين أن يحجوا على مقربة منهم إلى آثار آلام المسيح وتذكارات الشهداء والقديسين.

المجادلة بين الصليبي واللاصليبي

لاشك أن ريتبوف (مات في عام ١٢٨٥)، وهو مؤلف ست وخمسين قصيدة، كان ناجح الأداء في جامعة باريس، لكننا لا نعرف عن حياته سوى القليل. وتدل قصائده عن الحملات الصليبية على درايته بالتيمات وبالبلاغة المستخدمة في هذا الموضوع وهي تشكل قدْحاً عنيفاً للحملات فيما وراء البحر في القرن الثالث عشر:

البارحة، في اتجاه سان ريمي، خرجت على متن جوادي لأتابع شغلي. كنت مهموماً بالفكر، إذ يتعب كثيرون من الناس الذين يحتاج الرب إليهم أكثر مما إلى سواهم، ناس عكا الذين لا صديق لهم ــ وهو ما يمكن قوله دون تزييف للحقيقة ــ والذين يعد أعداؤهم جد قريبين منهم بحيث يمكنهم رميهم بحرابهم وبسهامهم.

استغرقت في التفكير في هذا الأمر بحيث إنني انحرفت عن طريقي دون أن ألحظ ذلك ... وهكذا وصلت رغماً عني أمام بيت، انحبستُ في داخله صحبة كنت أتمنى لقاءها.

كان هناك أربعة فرسان، يجيدون التحدث بالفرنسية. وبعد العشاء، خرجوا للتنزه في بستان غير بعيد عن الغابة ... وترك اثنان منهم الآخران يتحدثان، أمّا أنا فقد رحت استمع إليهما ... كان أحدهما قد تناول الصليب، أمّا الآخر فلم يرد البتة تناوله. وكان هذا هو موضوع نقاشهما، لأن الصليبي كان يريد استمالة رفيقه ــ الذي لا يحتقر الصليب لكنه لا يريد تناوله ــ إلى أن يحذو حذوه. وقد بدأ الصليبي الكلام:

الصليبي: أصغ إليَّ، يا صاحبي الجميل الوديع. تعرفُ جيداً أن الرب قد وهبك الحس السليم الذي يمكنك أن تميز به تمييزاً واضحاً بين الخير والشر، وبين الصديق والعدو ... وأنت ترى وتعرف وتسمع عن عذابات الأرض المقدسة. فكيف يمكنك إدعاء الشهامة وأنت تترك البلد غارقاً في حرب كهذه ؟ ولو كان بوسع إنسان أن يحيا مائة عام، فما الذي يمكن أن يعود عليه بمجدٍ أسمى من مجد امتطاء جواده راغباً في الذهاب للقاء الموت عند القبر المقدس ؟

اللاصليبي: إنني أدرك تماماً لماذا تقول مثل هذا الكلام ... فأنت تريدني أن أتناول الصليب وأن أخرج إلى ما وراء البحر وأن أتخلى عما أملك، دون أن أطلب شيئاً. لكنني

لا أظن أن الرب يوصي بوجوب قيام المرء بمثل هذا التخلي. فمن يتخلى على هذا النحو، لن يكسب من ذلك شيئاً يذكر ولابد من منعه من القيام بمثل هذا التخلي.

الصليبي: لقد ولدتك أمك عارياً، والآن جسمك مستور بأبهى لباس. فماذا فَعَلْتَ لأجل الرب الذي يثيب المرء بمائة ضعف مما قدمه له ؟ بوسع المرء اليوم أن يفوز بجنة النعيم لقاء تضحية بسيطة. وأنت تعرف أن القديس بطرس الرسول والقديس بولس الرسول قد اشتريا جنة النعيم بثمن أفدح من هذا بكثير، بأغلى ثمن، برأس ورقبة.

اللاصليبي: بوسع المرء أن يكسب الرب هنا وأن يحيا من ميراثه، دون أن يجازف بمثل هذه المخاطر.

الصليبي: أنت تتفوه بإثم عظيم لا يمكن وصفه، أنت الذي تريد كسب الرب دون محنة تمر بها وبانكبابك على الاستمتاع بالحياة الدنيا. أوتحسب إذاً أن القديسين الذين كابدوا الشهادة لكي يفوزوا بالخلاص كانوا مخطئين ؟

اللاصليبي: سيدي، يا من تدعو إلى تناول الصليب، أرجو أن تسمح لي بالاستغناء عنه. لتدعُ إذاً أولئك المجزوزين الشعر الكبار وأولئك العمداء الكبار وأولئك الأحبار ... على رجال الدين والأحبار أن يثأروا لربنا مادام أجرهم عليه. إنهم يشربون ويأكلون ولا يهمهم هبوط المطر أو هبوب الريح. والعالم كله ملك يمينهم. وإذا كانوا يلجأون إلى الرب بمثل هذا المسلك، فسوف يكونون في غاية الحماقة لو غيروه، فهذا هو المسلك الأكثر حكمة من سواه.

الصليبي: دعك من رجال الدين والأحبار، وانظر إلى ملك فرنسا الذي، لكي يفوز بجنة النعيم، يُعَرِّضُ جسده وأولاده للموت، مع أن لديه أسباباً للبقاء في مملكته أفضل من أسبابنا.

اللاصليبي: سيدي، أنا أريد البقاء وسط أحبابي وأن أبتهج واستمتع بالحياة الدنيا. وأنت ستذهب إلى ما وراء البحر، أنت يا من بوسعك أن تحمل حملاً ثقيلاً. قل للسودان [السلطان] أنني أهزأ بتهديداته. ولو جاء إلى هنا، فسوف نشويه على النار. أمَا هناك، فإنني لن أذهب لمطاردته. فأنا لا أُذنب في حق أحد ...

الصليبي: هذا يعني أنك ترغب في العيش كما يحلو لك. ولكن هل أنت واثق من أن العمر سوف يمتد بك ؟ قل لي ما إذا كنت تعرف في أي كتاب يمكن للمرء التعرف على

أجله. كُل وأشرب واسكر: إنه لشيء سيئ أن المرء يتعب من أهون الأمور. ولكن ليكن معلوماً لديك أن حياة الإنسان والبيض المكسور هما في النهاية شيء واحد.

اللاصليبي: سيدي الصليبي، إنك تدهشني. إنني أرى كثيرين من الناس يذهبون إلى ما وراء البحر، بعضهم كبار وبعضهم صغار، بعضهم حكماء ومتواضعون وبعضهم يعيشون عيشة باذخة. وهم هناك يحسنون التصرف، فيما أظن، ونفوسهم تُحْسَبُ من أفضل النفوس. لكنهم، هنا، لا يساوون شيئاً يذكر، حين يعودون. وإذا كان الرب موجوداً في كل مكان في العالم، فإنه موجود في فرنسا، دون أدنى شك. فلا تخف البتة من أنه يلوذ بأناس لا يحبونه البتة. ومن جهة أخرى، فإن بَحْرَكَ الذي تتحدث عنه عميق جداً بحيث إنه يجوز لي تماماً أن أخافه. وأنا أُفضّلُ النبع الذي يفيض على النبع الذي يجف في الصيف ...

المصدر:

J.Bastin et E.Faral, *Onze poèmes de Rutebeuf concernant La croisade,* Documents relatifs à L'histoire des croisades publiés par L'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1, Paris, 1946.

خلاصة

أياً كان تفسير مؤرخي الحملات الصليبية لأصول أو لأنماط هذه الحملات، إلاّ أنهم يتفقون على استخلاص محصلة سلبية عموماً لهذه الحملات الكبرى. أليس صحيحاً أنها لم تجلب إلى الغرب سوى زراعة المشمش، كما يقول جاك لو جوف في نكتة أصبحت شهيرة ؟

لابد في الواقع من التمييز بين الشرق والغرب. ففي الشرق، من المؤكد أن الحملات الصليبية قد عمّقت الهوة التي تفصل المسيحيين والمسلمين. فقد قوبلت بوصفها شكلاً من أشكال العدوان، على مستوى واحد مع الاسترداد البيزنطي في القرن العاشر في فلسطين. ولم يستوعب فلاسفة ومؤرخو الإسلام في أية لحظة كنه الحركة الصليبية. فالصليبيون في نظرهم فرنج، يجري تعريفهم بجنسهم بأكثر مما بديانتهم. وقد أدت حملاتهم إلى تشدد موقف الإسلام من المسيحية: فقد تعرض الموارنة ومسيحيو آسيا الصغرى للاضطهاد بسبب تحالفهم مع الغربيين. وقد أدت الحملات الصليبية إلى تنشيط روح الجهاد، على الأقل على حواف العالم الإسلامي، وهي الوحيدة التي مسّها وصول الفرنج. إلاّ أنه لا يمكن البتة اكتشاف تماثل بين الحملة الصليبية والجهاد، فالأولى لها هدف محدد ومحدود، هو تحرير القبر المقدس؛ أمّا الثاني، خلافاً لذلك، فله هدف كوني: إظهار دين الحق على الدين كله. على أن الحملات الصليبية لا يتم فهمها في العالم الإسلامي بوصفها أول عدوان من جانب رأسمالية الغرب الفاتحة إلاّ في القرن التاسع عشر، بفضل استيقاظ القوميات.

وبالمقابل، أدت صدمة الحملات الصليبية إلى زلزلة بيزنطة وخلقت هوة لا يمكن ردمها بين الجماعتين المسيحيتين الشرقية والغربية. ولم يكن انقسام عام ١٠٥٤ غير حدث عابر في العلاقات الصعبة بين طرفي الكنيسة. لكن الاستيلاء على القسطنطينية في عام ١٢٠٤ ونهب " أم المدائن " على أيدي الصليبيين حوّلا الانقسام إلى واقع مقيم ووحّدا الجماعات السكانية الأرثوذكسية في كراهية الغربيين. ولم يكن بوسع مجمعي التوحيد — مجمع ليون الثاني في عام ١٢٧٤ ومجمع فلورنسا في عام ١٤٣٩ — ولا بوسع محاولات الأباطرة البيزنطيين في الغرب، أن تختزل اتساع الصدع. فحوار الطرشان كامل: بيزنطة

تتوسل عون الغرب ضد الترك، والغرب يشترط توحيد الكنيستين قبل إرسال المساعدات. وإلى اليوم، ماتزال قطيعة عام ١٢٠٤ واقعاً مقيماً.

فهل استفاد الغرب في المقابل بشيء من نجاحات الصليبيين ؟ لقد جرى إبراز توسيع الآفاق، ولقاء الثقافات. فهل هذا مؤكد بالفعل ؟ لو دققنا في الأمر، لوجدنا أن نقل الكلاسيكيات الإغريقية عن طريق العرب، وإثراء الفكر والمعجم، إنما يتمان بالأحرى من خلال إسبانيا وصقلية ورجال الأعمال الإيطاليين، وليس من خلال دول الشرق الصليبية. ولم تنجب الأرض المقدسة أي عمل فني أو أدبي، يعبر عن تبادل معين للتأثير فيما بين الثقافتين. ومن المعروف أن الآثار التجارية للحملات الصليبية كانت جد محدودة؛ فهي تفيد مصر بأكثر مما تفيد موانئ الساحل السوري ـ الفلسطيني.

ومن الدقيق بالمقابل أن نقول مع أندريه فوشيه أن من غير الممكن تقييم الحملات الصليبية تقييماً إيجابياً إلاَّ من منظور غربي على وجه الحصر. فالواقع أنها ترمز إلى دخول الجماهير في التاريخ تلبيةً لنداء الكنيسة، وهو شهادة ميلاد الجماعة المسيحية الغربية. وهي تشهد على حساسية دينية جديدة، انتشار روحانية تكفيرية، تجد تحققها في مشروع مشترك، هو تخليص القدس. فحول المدينة المقدسة، سوف يكون بالإمكان أن يتشكل مجتمع مسالم وأخوي ومتصالح مع نفسه. وقد غرست الحملات الصليبية في الوعي الغربي فكرة الأرض المقدسة، والتي عَظَّمَها إلى أيامنا الحجاجُ والرحالةُ والكُتَّابُ.

وبالرغم من إخفاقات الصليبيين والضعف الذي أصاب مثلهم العليا الأصلية، إلاَّ أنه تبقى في الشعب المسيحي ذكرى أن خدمة الرب تزيل الانقسامات السياسية والتباينات الاجتماعية. وبهذا المعنى، ساعدت الحملات الصليبية الجماعة المسيحية الغربية على الوعي بنفسها بأكثر من تسهيلها للقاء الثقافات.

يبقى التساؤل عما إذا كانت التكلفة في الأرواح البشرية لم تكن متناسبة مع الهدف المنشود. لكن الإجابة عن هذا التساؤل متروكة لكل واحد، فمن الطبيعي تماماً أن كل قارئ سوف ينظر إلى الحملات الصليبية من منظوره الشخصي الذي يخصه.

مصادر وبيبليوجرافيا عامة

Sources et bibliographie générale

Les sources et études sur l'histoire des croisades sont extrêmement abondantes. Trois guides bibliographiques sont à noter :

A.S. Atiya, *The Crusades. Historiography and Bibliography*, Bloomington, 1962.

H.E. Mayer, Literaturbericht über die Geschichte der Kreuzzüge (1958-1967) dans *Historische Zeitschrift*, Sonderheft 3, Munich 1969, p. 642-736.

K.M. Setton, *A History of the Crusades*, t.6 : *The Impact of the Crusades on Europe*, Madison, The University of Wisconsin Press 1989, p. 511-664 (bibliographie dressée par H.E. Mayer). Voir également notre article : « L'historiographie des croisades au xxe siècle (France, Allemagne, Italie) », dans *Revue historique*, t. CCCII/4, 2000, p. 973-999.

Depuis 1967, livres et articles se sont multipliés, particulièrement dans le monde anglo-saxon. Les Bulletins de la *Society for the Study of the Crusades and the Latin East* donnent un bilan annuel des derniers travaux parus. La sélection opérée ci-après est nécessairement arbitraire. On y trouvera essentiellement les instruments de travail et les ouvrages généraux les plus importants.

1 LES SOURCES

Le *Recueil des historiens des croisades*, Paris, 1841-1906 reste la collection fondamentale. Il comprend cinq séries : les *Historiens occidentaux* (5 volumes), les *Historiens orientaux* (5 volumes), les *Historiens grecs* (2 volumes), les *Documents arméniens* (2 volumes), les *Lois* (2 volumes). À compléter par la collection des *Documents relatifs à l'histoire des croisades*, Paris 1946-1995 (17 volumes à ce jour), et par les publications de sources dans les deux volumes des *Archives de l'Orient latin*, Paris 1881-1884 et les douze volumes de la *Revue de l'Orient latin*, Paris 1893-1911.

Les grandes collections nationales, « Monumenta Germaniae Historica », « Recueil des Historiens des Gaules et de la France », « Rerum Britannicarum scriptores medii aevi » et « Rerum Italicarum scriptores » ont aussi publié des textes importants pour l'histoire des croisades.

Parmi les sources narratives, on retiendra l'« *Historia* » de Guillaume de Tyr, éd. R.B. Huygens, 2 vol., Turnhout, 1986, l'*Alexiade* d'Anne Comnène, éd. B. Leib, 3 vol. Paris 1945-1957, les extraits des chroniques arabes dans F. Gabrieli, *Chroniques arabes des croisades*, Paris 1977 et les textes publiés sous la direction de D. Régnier-Bohler, *Croisades et pèlerinages*, Paris 1997. Pour une présentation des sources orientales, voir C. Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des croisades*, Paris 1940, p. 33-93 et A. Luders, *Die Kreuzzüge im Urteil syricher und armenischer Quellen*, Berlin 1964 (chroniques syriaques et arméniennes).

Les principaux recueils de chartes et traités

Ph. Jaffe, *Regesta pontificum Romanorum*, 2 vol. Leipzig 1881-1888 et A. Potthast, *Regesta pontificum Romanorum (1198-1304)*, 2 vol., Berlin 1873-1875 ; F. Dölger, *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*. 5 vol., Munich-Berlin, 1924-1965 ; R. Röhricht, *Regesta regni Hierosolymitani*, 2 vol., Innsbruck 1893-1904 ; G.L.F. Tafel et G.M. Thomas, *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vol., Vienne 1856-1857 ; C. Imperiale di Sant'Angelo, *Codice diplomatico della Repubblica di Genova*, 3 vol., Rome 1936-1942 ; G. Müller, *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll'Oriente cristiano*, Florence 1879. À signaler également

G. Bresc-Bautier, éd., *Le Cartulaire du chapitre du Saint-Sépulcre de Jérusalem,* Paris 1984 ; L. Minervini, éd., *Cronaca del Templare di Tiro (1243-1314),* Naples 2000.
De nombreux textes traduits sur les croisades sont publiés par M. Balard, A. Demurger, P. Guichard, *Pays d'Islam et monde latin* X^e-$XIII^e$ *siècles,* Paris, 2000.

2 BIBLIOGRAPHIE GÉNÉRALE

• Synthèses sur l'histoire des croisades

R. Grousset, *Histoire des croisades,* 3 vol., Paris 1934-1936 (vision « coloniale » de l'expansion franque en Syrie) ; S. Runciman, A *History of the Crusades,* 3 vol., Cambridge 1951-1954 (plus objectif que la précédente) ; K.M. Setton éd., A *History of the Crusades,* 6 vol., The University of Pennsylvania Press, 1955-1989 (synthèse monumentale, œuvre collective d'une soixantaine d'historiens) ; H.E. Mayer, *The Crusades,* 2e éd., Oxford, 1988 (à la fois étude des croisades et des États francs d'Orient) ; R. Delort dir., *Les croisades,* Paris 1988 ; J. Riley-Smith, *Les Croisades,* Paris 1990 et surtout J. Richard, *Histoire des Croisades,* Paris 1996. Plus accessibles et très clairs, l'ouvrage de C. Morrisson, *Les Croisades,* coll. Que sais-je ? Paris 1969 et notre petite encyclopédie *Les Croisades,* Paris 1988.

• Ouvrages généraux

M. Villey, *La Croisade-Essai sur la formation d'une théorie juridique,* Paris 1942 ; P. Alphandéry-A. Dupront, *La Chrétienté et l'idée de croisade,* 2e éd., Paris 1995 ; R.C. Smail, *Crusading Warfare,* 2e éd., Cambridge 1967 ; J.A. Brundage, *Medieval Canon Law and the Crusader,* Madison-Milwaukee 1969 ; J. Richard, *L 'Esprit de la croisade,* Paris 1969 ; F.H. Russell, *The Just War in the Middle Ages,* Cambridge 1975 ; K.M. Setton, *The Papacy and the Levant,* 4 vol., Philadelphie 1974-1984 ; J. Richard, *La Papauté et les missions d'Orient au Moyen Âge (XIIIe-XVe s.),* Rome 1977 ; C. Erdmann, *The Origin of the Idea of Crusade,* trad. anglaise, Oxford 1977 ; E. Delaruelle, *L'idée de croisade au Moyen Âge,* Turin 1980 ; L. et J. Riley-Smith, *The Crusades : idea and reality 1095-1274,* Londres 1981 ; P. Rousset, *Histoire d'une idéologie. La croisade,* Lausanne 1983 ; C. Cahen, *Orient et Occident au temps des croisades,* Paris 1983 ; B.Z. Kedar, *Crusade and Mission. European approaches toward the Muslims,* Princeton 1984 ; E. Siberry, *Criticism of Crusading 1095-1274,* Oxford 1985 ; P.M. Holt, *The Age of the Crusades,* Londres 1986 ; A. Dupront, *Du sacré. Croisades et pèlerinages. Images et langages,* Paris 1987 ; N. Housley, *The later Crusades 1274-1580. From Lyons to Alcazar,* Oxford 1992 ; M. Marshall, *Warfare in the Latin East 1190-1291,* Cambridge 1992 ; F. Cardini, *Studi sulla storia e sull'idea di crociata,* Florence 1993 ; H. Platelle, *Les Croisades,* Paris 1994 ; J. Riley-Smith, *The Oxford illustrated History of the Crusades,* Oxford 1995 ; Idem, *Atlas des Croisades,* Paris 1996 ; J. Phillips, *Defenders of the Holy Land,* Oxford 1996 ; A. Dupront, *Le mythe de croisade,* 4 vol., Paris 1997 ; M. Rey-Delqué éd., *Les Croisades. L'Orient et l'Occident d'Urbain II à Saint Louis, 1096-1270,* Milan 1997 ; A. Graboïs, *Le pèlerin occidental en Terre Sainte au Moyen Âge,* Paris-Bruxelles 1998 ; A. Demurger, *La croisade au Moyen Âge. Idée et pratiques,* Paris 1998 ; J. Flori, *Croisade et chevalerie* XI^e-XII^e *siècles,* Paris-Bruxelles 1998 ; C.T. Maier, *Crusade Propaganda and Ideology,* Cambridge 2000.

• Les croisades vues par les Orientaux

P. Lemerle, Byzance et la croisade, dans *Relazioni del X° Congresso internazionale di Scienze storiche,* Rome 1955, t. III, p. 594-620 ; N. Daniel, *Islam and the West. The making of an Image,* Edimbourg 1968 ; E. Sivan, *L'Islam et la croisade. Idéologie et propagande dans les réactions musulmanes aux croisades,* Paris 1968 ; R.J. Lilie, *Byzanz und die Kreuzfahrerstaaten (1096-1204),* Munich 1981 ; D.E.P.Jackson, *Saladin. The Politics of the Holy War,* Cambridge 1982 ; A. Maalouf, *Les Croisades vues par les Arabes,* Paris 1983 (à utiliser avec précaution) ; R. Irwin, *The Middle East in the Middle Ages : the early Mamluk Sultanate* 1250-1382, Londres 1986 ; A. Morabia, *Le Gihad dans l'Islam médiéval,* Paris 1993. Ne pas négliger de consulter l'*Encyclopédie de l'Islam,* 2e éd., et D. et J. Sourdel, *Dictionnaire historique de l'Islam,* Paris 1996.

• Ouvrages sur les grandes croisades

Première Croisade

J. Riley-Smith, *The First Crusade and the idea of crusading,* Londres 1986 ; J. Flori, *La première Croisade. L'Occident chrétien contre l'Islam,* Bruxelles 1992 ; M. Bull, *Knightly Piety and the Lay Response to the First Crusade (The Limousin and Gascony, c. 970- c. 1130),* Oxford 1993 ; J. France, *Victory in the East. A Military History of the First Crusade,* Cambridge 1994 ; P. Racine, *Piacenza e*

la prima Crociata, Plaisance 1995 ; J. Heers, *Libérer Jérusalem. La Première Croisade 1095-1107*, Paris 1995 ; M. Balard éd., *Autour de la Première Croisade*, Paris 1996 ; *Il concilio di Piacenza e le crociate*, Plaisance 1996 ; *Le concile de Clermont de 1095 et l'appel à la Croisade*, coll. de l'Ecole française de Rome, Rome 1997 ; J. Phillips, éd., *The first Crusade. Origins and Impact*, Manchester 1997 ; L. Garcia-Guijarro Ramos éd., *La Primera Cruzada novecientos anos despues : el concilio di Clermont y los origines del movimiento cruzado*, Castello d'Impressio 1997 ; J. Riley-Smith, *The First Crusaders 1095-1131*, Cambridge 1997 ; G. Lobrichon, *1099. Jérusalem conquise*, Paris 1998 ; J. Flori, *Pierre l'Ermite et la Première Croisade*, Paris 1999.

Seconde Croisade

P. Magdalino, *The Empire of Manuel I Comnenos, 1143-1180*, Cambridge 1993.

Troisième Croisade

E. Eickhoff, *Friedrich Barbarossa in Orient. Kreuzzug und Tod Friedrich I*, Tübingen 1977 ; J. Flori, *Richard Cœur de Lion*, Paris 1999.

Quatrième Croisade

Ch. M. Brand, *Byzantium confronts the West 1180-1204*, Cambridge (Mass) 1968 ; D.E. Queller, *The Fourth Crusade. The conquest of Constantinople 1201-1204*, Philadelphie 1977 ; J. Longnon, *Les compagnons de Villehardouin*, Genève-Paris 1978 ; J. Godfrey, *1204 : The Unholy Crusade*, Oxford 1980.

Cinquième Croisade

J.M. Powell, *Anatomy of a Crusade 1213-1221*, Philadelphie 1986.

Sixième Croisade

E. Kantorowicz, *L'empereur Frédéric II*, trad. française, Paris 1987 ; D. Abulafia, *Frederick II. A medieval emperor*, Londres 1988 ; P. Racine, *Federico II di Svevia. Un monarca medievale alle prese con la sorte*, Milan 1998.

Septième et Huitième Croisades

W. C. Jordan, *Louis IX and the challenge of the Crusade*, Princeton 1979 ; J. Richard, *Saint Louis, roi d'une France féodale, soutien de la Terre Sainte*, Paris 1983 ; J. Le Goff, *Saint Louis*, Paris 1996.

Croisades des XIVe et XVe siècles

N. Housley, *The Italian Crusades. The Papal Angevin Alliance and the Crusades against Christian Lay Powers 1254-1343*, Oxford 1982 ; E. Christiansen, *The Northern Crusade. The Baltic and the Catholic Frontier 1100-1525*, Londres 1980 ; N. Housley, *The later Crusades from Lyons to Alcazar 1274-1580*, Oxford 1992.

• Ouvrages sur les États francs

C. Cahen, *La Syrie du Nord à l'époque des croisades et la principauté franque d'Antioche*, Paris 1940 ; J. Richard, *Le Comté de Tripoli sous la dynastie toulousaine*, Paris 1945 ; G. Hill, *A History of Cyprus*, t. 2 et 3, Cambridge 1948 ; J. Longnon, *L'Empire latin de Constantinople et la principauté de Morée*, Paris 1949 ; J. Richard, *Le Royaume latin de Jérusalem*, Paris 1953 ; J. Riley-Smith, *The Knights of Saint John in Jerusalem and Cyprus ca 1050-1310*, Londres 1967 ; J. Prawer, *Histoire du royaume latin de Jérusalem*, 2 vol., Paris 1969-1970 ; M. Benvenisti, *The Crusaders in the Holy Land*, Jérusalem 1970 ; J. Prawer, *The Latin Kingdom of Jerusalem*, Londres 1972 ; J. Riley-Smith, *The Feodal Nobility and the Kingdom of Jerusalem 1174-1277*, Londres 1973 ; J. Prawer, *Crusader Institutions*, Oxford 1980 ; B. Hamilton, *The Latin Church in the Crusader States*, Londres 1980 ; A. Demurger, *Vie et mort de l'ordre du Temple*, Paris 1985 ; M-L. Favreau-Lilie, *Die Italiener im Heiligen Lande (1098-1197)*, Amsterdam 1988 ; M. Amouroux-Mourad, *Le comté d'Édesse 1098-1150*, Paris 1989 ; J.M. Powell éd., *Muslims under Latin Rule 1100-1300*, Princeton 1990 ; P.W. Edbury, *The Kingdom of Cyprus and the Crusades 1191-1374*, Cambridge 1991 ; A. Forey, *The Military Orders from the twelfth to the early fourteenth centuries*, Toronto 1992 ; R-J. Lilie, *Byzantium and the Crusader States 1096-1204*, Oxford 1993 ; M. Shatzmiller éd., *Crusaders and Muslims in Twelfth-Century Syria*, Leiden 1993 ; H.E. Mayer, *Varia Antiochena. Studien zum Kreuzfahrerfürstentum Antiochia im 12 und früheren 13 Jahrhundert*, Hanovre 1993 ; D. Pringle, *The Churches of the*

Crusader Kingdom of Jerusalem, 2 vol., Cambridge 1993-1997 ; M. Barber, *The New Knighthood*, Cambridge 1994 ; Idem éd., *The Military Orders*, Aldershot 1994 ; H. Kennedy, *Crusader Castles*, Cambridge 1994 ; J. Folda, *The Art of the Crusaders in the Holy Land 1098-1187*, Cambridge 1995 ; H.E. Mayer, *Die Kanzlei der lateinischen Könige von Jerusalem*, 2 vol., Hanovre 1996 ; N. Coureas, *The Latin Church in Cyprus 1195-1312*, Aldershot 1997 ; P.W. Edbury, *John of Ibelin and the Kingdom of Jerusalem*, Woodbridge 1997 ; R. Ellenblum, *Frankish Rural Settlement in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Cambridge 1998 ; A. Boas, *Crusader Archaeology*, Londres 1999.

• Principaux recueils d'articles

C. Cahen, *Turcobyzantina et Oriens christianus*, Londres 1974 ; J. Richard, *Orient et Occident au Moyen Âge : contacts et relations (XIIe-XVe siècles)*, Londres 1976 ; J. Richard, *Les Relations entre l'Occident et l'Orient au Moyen Âge*, Londres 1977 ; D. Ayalon, *Studies on the Mamluks of Egypt 1250-1517*, Londres 1977 ; D. Jacoby, *Recherches sur la Méditerranée orientale du XIIe au XVe siècle*, Londres 1979 ; *Outremer. Studies on the history of the Crusading Kingdom of Jerusalem, presented to J. Prawer*, éd. B.Z. Kedar-H.E. Mayer-R.C. Smail, Jérusalem 1982 ; A. Luttrell, *Latin Greece, The Hospitallers and the Crusaders 1291-1400*, Londres 1982 ; J. Richard, *Croisés, missionnaires et voyageurs*, Londres 1983 ; H.E. Mayer, *Kreuzzüge und lateinischer Osten*, Londres 1983 ; P.W. Edbury éd., *Crusade and Settlement*, Cardiff 1985 ; D. Jacoby, *Studies on the Crusader States and on Venetian Expansion*, Londres 1989 ; M. Balard éd., *État et colonisation au Moyen-Âge*, Lyon 1989 ; J. Richard, *Croisades et États latins d'Orient. Points de vue et documents*, Londres 1992 ; B.Z. Kedar éd., *The Horns of Hattîn*, Londres 1992 ; B.Z. Kedar, *The Franks in the Levant, 11th to 14th Centuries*, Londres 1993 ; *Les Lusignans et l'Outre-Mer*, Poitiers 1994 ; A. Forey, *Military Orders and the Crusades*, Aldershot 1994 ; H.E. Mayer, *Kings and Lords in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Aldershot 1994 ; M. Balard, A. Ducellier éd., *Coloniser au Moyen Âge*, Paris 1995 ; B. Arbel, éd. *Intercultural Contacts in the Medieval Mediterranean*, Londres 1996 ; B.Z. Kedar, J. Riley-Smith, R. Hiestand éd., *Studies in Crusader History in Honour of Hans Eberhard Mayer*, Aldershot 1997 ; M. Balard, A. Ducellier éd., *Le partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, Paris 1998 ; H.E.J. Cowdrey, *The Crusades and Latin Monasticism 11th-12th Centuries*, Aldershot 1999 ; P.W. Edbury, *Kingdoms of the Crusaders*, Aldershot 1999 ; A. Luttrell, *The Hospitaller State on Rhodes and its Western Provinces 1306-1462*, Aldershot 1999 ; B. Arbel, *Cyprus, the Franks and Venice 13th-16th Centuries*, Aldershot 2000 ; D. Pringle, *Fortification and Settlement in Crusader Palestine*, Aldershot 2000 ; M. Balard, B.Z. Kedar, J. Riley-Smith éd., *Dei Gesta per Francos. Mélanges en l'honneur de J. Richard*, Aldershot 2001.

ملحق

لقاءُ سان فرانسوا مع السلطان الكاملَ

بقلم: بشير السباعي

تم اللقاء بين الرجلين في عام ١٢١٩ في القاهرة. وبادر فرانسوا بالحديث عن تفوق الدين المسيحي على غيره من الأديان. فأجابه السلطان الكامل: "حسناً، سندعو علماءنا لكي نناقش ديانتنا وديانتكم". على أن فرانسوا امتنع عن قبول الدخول في مناقشة مع العلماء المسلمين قائلاً: "إن الديانة المسيحية لا يمكن البتة مناقشتها من زاوية العقل، فهي ديانة تتجاوز العقل، كما لا يمكن مناقشتها على أساس الكتاب المقدس لأنهم [علماء المسلمين] لا يعترفون به".

عندئذ لم يدْرِ السلطان الكامل ماذا يفعل في هذه الحال، فطلب فرانسوا منه "إشعال حريق ضخم في الحطب، وسوف أخترقهُ مع علمائكم. وعندما نرى من الذي سوف يحترق، فسوف نعرف من الذي تعتبرُ ديانته باطلة ". غير أن السلطان الكامل لم يكن بوسعه أن يجد أحداً "راغباً في اختراق الحريق دفاعاً عن ديانته أو في مكابدة محنة من أي نوع". وعندئذٍ طلب فرانسوا من السلطان الكامل أن يسمح له باختراق النار وحده قائلا: "إذا احترقتُ، فسوف يكون ذلك بسبب خطاياي، أمّا إذا لم أحترق فسوف يتوجب عليكم أن ترحبوا بديانتنا المسيحية". فأجابه السلطان بأنه لا يمكن أن يقبل ذلك لأن " شعبي سوف يرجمني بالحجارة ".

وإحتراماً لرجل الدين المسيحي، سمح له السلطان الكامل بالعودة إلى جماعته سالماً سليماً.

المصادر:

Bonaventure: *The Life of St. Francis,* New Jersey, 1978.

Giulio Basetti-Sani: *Mohammed et Saint François,* Ottawa, 1959.

Tomaž Mastnak: *Crusading Peace,* Berkeley, Los Angeles, London, 2002.

فهـــرست الأشكال

المحتويات

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

للمترجم

تأليف:

ـ **تروبادور الصمت**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤
ـ **مرايا الانتلجنسيا**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥
ـ **مبدأ الأمل**، دار حور، القاهرة، ١٩٩٦.

ترجمة:

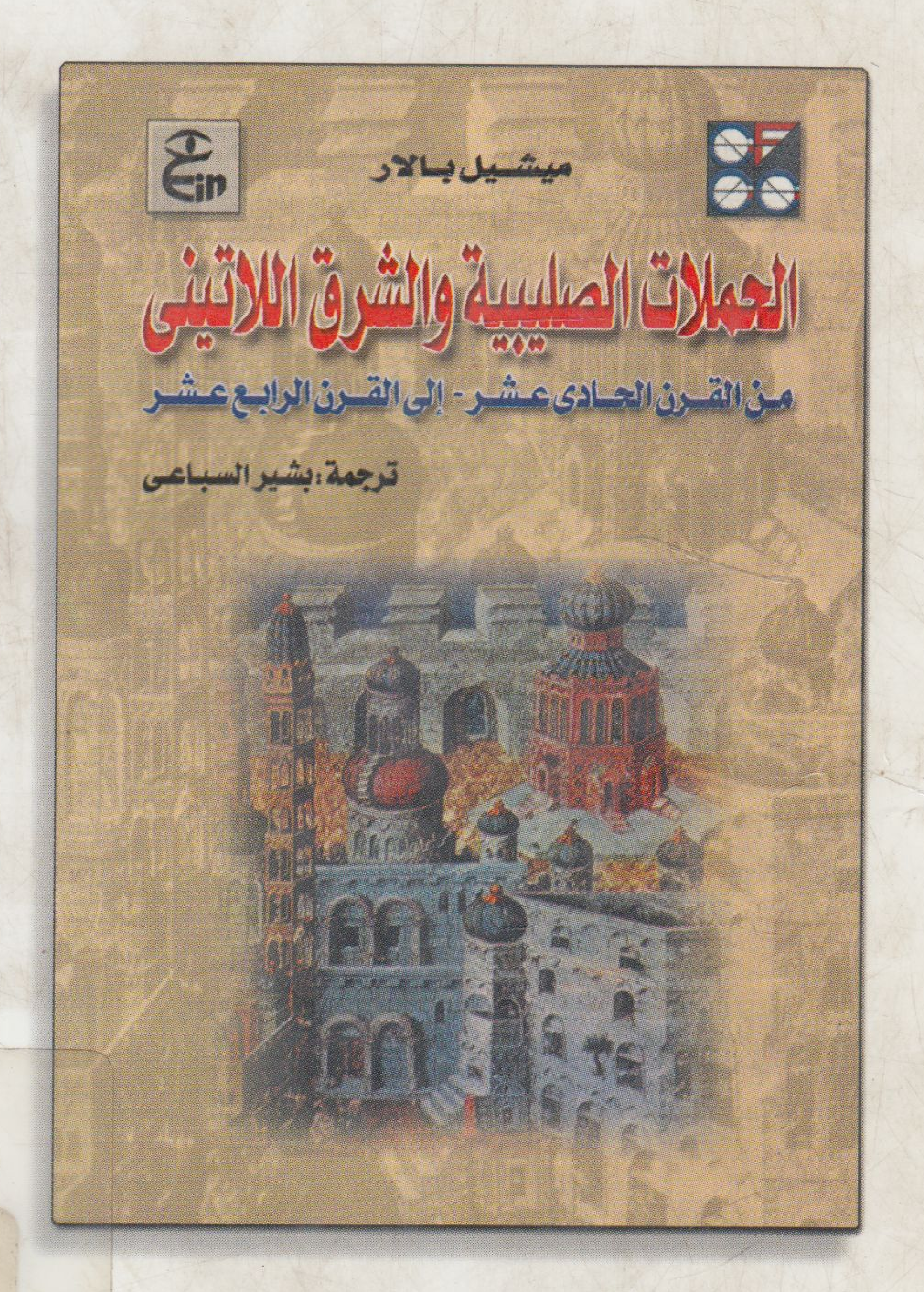
ـ ز.ا. ليفين: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر**، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٨.
ط٢ تحت عنوان: **الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في مصر والشام**، شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.
ـ ز.ا. ليفين: **التنوير والقومية. تطور الفكر الاجتماعي العربي الحديث**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٧.
ـ جورج حنين: **لا مبررات الوجود**، أصوات، القاهرة، ١٩٨٧ (بالاشتراك مع أنور كامل).
ـ تيموثي ميتشل: **استعمار مصر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٠ (بالاشتراك مع أحمد حسان).
ـ ك. ب. كافافي: **قصائد**، دار إلياس، القاهرة، ١٩٩١.
ـ تيموثي ميتشل: **مصر في الخطاب الأميركي**، مؤسسة عيبال، نيقوسيا، ١٩٩١.
ـ تزفيتان تودوروف: **فتح أمريكا، مسألة الآخر**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.
ـ روبير مانتران (اشراف): **تاريخ الدولة العثمانية، جزءان**، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣.
ـ فيليب فارج ويوسف كرباج: **المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤.
ـ ادواردو جاليانو: **الشرايين المفتوحة لأمريكا اللاتينية ـ تاريخ مضاد**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٤ (بالاشتراك مع أحمد حسان).
ـ توماش ماستناك: **الإسلام وخلق الهوية الأوروبية**، دار النيل، الإسكندرية، ١٩٩٥.
ط ٢، " الملتقى "، مراكش، ٣، ١٩٩٩.
ـ هنري لورنس وآخرون: **الحملة الفرنسية في مصر ـ بونابرت والإسلام**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.
ـ توماش ماستناك: **أوروبا وتدمير الآخر ـ الهنود الحمر والأتراك والبوسنويون**، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٥.

ـ جورج حنين: أعمال مختارة، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٦.
ط ٢ (موسعة) تحت عنوان: منظورات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.
ـ تيموثي ميتشل: الديموقراطية والدولة في العالم العربي، دار مصر العربية، القاهرة
ـ زكاري لوكمان: خطاب الأفندية الاجتماعي، ١٨٩٩ ـ ١٩١٤، دار مصر العربية، ١٩٩٧.
ـ جان ـ كلود جارسان: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية: قوص، سينا للنشر، القاهر
ـ هنري لورنس: المملكة المستحيلة ـ فرنسا وتكوين العالم العربي الحديث، سينا للن ١٩٩٧.
ـ هنري لورنس: بونابرت والإسلام. بونابرت والدولة اليهودية، دار مصر العربيـة، ١٩٩٨.
ـ جويس منصور: اِفْتحْ أبواب الليل. منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٨.
ـ عبد الله الشيخ موسى: الكاتب والسلطة، دار مصر العربية، القاهرة، ١٩٩٩.
ـ فرنان برودل: هوية فرنسا، المجلد الأول: المكان والتاريخ، المجلس الأعلى للثقافة، ال ١٩٩٩.
ـ فرنان برودل: هوية فرنسا، المجلد الثاني: الناس والأشياء، المجلس الأعلى للثقافة، القـ الجزء الأول، ٢٠٠٠. الجزء الثاني، ٢٠٠٠.
ـ صفاء فتحي: إرهاب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.
ـ هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في ف (١٦٩٨ ـ ١٧٩٨)، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.
ـ برنار نويل: لسان أنّا، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.
ـ هنري لورنس: كليبر في مصر. المواجهة الدرامية مع بونابرت، دار شرقيات، القاهرة،
ـ جاك ديريدا وصفاء فتحي: ديريدا ... من جهة أخرى، فيلم تسجيلي، " أخبار الأدب "، ٢٠ فبراير/ شباط ٢٠٠٠.
ـ برنار نويل: حالة جرامشي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٠.
ـ أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة (١٧٩٨ ـ ١٨٠١)، عين، القاهرة،
ـ شارل بودلير: سأم باريس، الكتابة الأخرى، القاهرة، ديسمبر ٢٠٠١.
ـ شارل بالار: الحملات الصليبية والشرق اللاتيني، عين، القاهرة ٢٠٠٣.
ـ توماش ماستناك: السلام الصليبي (تحت الطبع).

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٨٤٤٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 099 - 0

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق







للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES